جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أحاديث - المحمديات
المعجزة الخالدة - البهائية سراب

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

المجلد الحادي عشر

سلسلة جمع تراث علماء الكويت -٩-

عبد الله النوري

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

١١

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society
تأسست عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
(١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م)

رقم الإيداع بمكتبة الكويت الوطنية

ISBN: 978-9921-9721-1-5

البريد الإلكتروني (الإيميل)

Info@alnouri.org

هاتف: (٢٢٥٤٠٢٨٠)، (٢٢٥٤٠٢٧٠)، فاكس: (٢٢٥٤٠٢٦٠)

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية

جمعيَّةٌ كويتيَّةٌ خيريَّةٌ تُساهِمُ في بناءِ المُجتمعاتِ وتنمِيَتِها

وتُكملُ المَسيرةَ الخَيِّرَةَ للمغفور له بإذن الله الشَّيخ عبد الله النُّوري رحمه الله

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أحاديث - المحمديات
المعجزة الخالدة - البهائية سراب

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجارالله الخرافي

المجلد الحادي عشر

سلسلة جمع تراث علماء الكويت - ٢ -

بسم الله الرحمن الرحيم

جمعية الشيخ عبد الله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبد الله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

أحاديث

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

الإهداء

إلى أولئك الَّذين استمعوا القولَ فاتَّبعوا أحسنَه، وبلَّغوا فأفادوا، وأصغوا للنَّصيحة فانتصحوا، ونصحوا لله ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم.

وإلى أولئك الَّذين يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون.

وإلى أولئك الَّذين ينطقون بالحقِّ، لا تأخذهم فيه لومةُ لائمٍ، ولا بطشُ ظالمٍ.

وإلى أولئك الَّذين جاهدوا في الله، فهداهم إلى سبيله، إلى كلِّ أولئك أُهدي أحاديثي هذه.

عبد الله النُّوريُّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمدُ لله الَّذي نزَّلَ أحسن الحديثِ كتابًا فيه هُدى للمُتَّقين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أفضل المحدِّثين وخيرِ الواعظين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فمنذ أن كنت إمامًا وخطيب جمعة أُقَلِّدُ من أعتقد أنَّهم أهلٌ لِأَنْ يُقلَّدوا، ثمَّ رأيت أنَّ في هذا التَّقليدِ جمودًا، والجمودُ يقف بالإنسان عند حدٍّ فلا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر، فتركتُه، فكنتُ بعد هذا أختارُ موضوعًا لخطبةِ الجُمعة آيةً من الكتاب الكريم وحديثًا من السُّنَّة المُطهَّرة، ثمَّ أتكلَّمُ كلامًا أعلمُ أنَّ المُستمعين قد فهموه، كلامًا يفهمه العامَّة، ولا يعيبه المُتعلِّمون، مُبَسَّطًا لا تعقيدَ فيه ولا تطويل، حتَّى إذا علمت أنِّي وفَّيت الموضوع حقَّهُ استشهدت بالآية والحديث، هذه كانت طريقتي في خطب الجُمعة، وقد أكتب الموضوع أو أرتجلُه، ثمَّ جعلت تلك طريقتي في مجالس الوَعظ الَّتي تُثيرها المناسبات، وتعدُّ من وظائف رمضان، ولمَّا كانت مجالس الوعظ تحتاج وقتًا طويلًا كان من اللَّازم اختيار الأحاديث والآيات المناسبة، وكنت ألزم كتابتها وتدوينها، وظلَّت هذه طريقتي، ولكنَّ معرفتي بالنَّاس كانت محصورةً ولا تتعدَّى مسجدي وعملي، وكنت بعيدًا كلَّ البعدِ من المجتمع إلَّا في نطاق وظيفتي.

وفي اليوم المكمِّل لسنة (١٣٨٣هـ) - ولعلَّ ذلك كان في (١٢) شهر

مايو (١٩٦٤م) - اقترح عليَّ وزيرُ الإرشادِ والأنباءِ سعادةُ الشَّيخِ جابر العلي الصُّباح أن أشتركَ في ندوةٍ يكون موضوعها هجرة المُصطفى ﷺ فشاركت، وكنت مُوفَّقًا والحمدُ لله، ثمَّ اقترح عليَّ سعادةُ الوزير حديثًا أسبوعيًّا يسمعهُ المواطنون منيِّ من التِّلفاز، فكان أوَّلُ حديثٍ لي مع المشاهدين يوم (٢٣) تمُّوز سنة (١٩٦٤م)، وبهذا الحديث اتَّصلتُ بالجمهور اتِّصالًا وثيقًا، بالمراسلةِ والهاتفِ والمشافهةِ، وعرفتُ النَّاسَ معرفةً وثيقةً عامًا كاملًا، ورأيتُ جهلَ النَّاسِ بدينهم فاشيًا فيهم، فلا يعرفون منه واجبًا ولا مندوبًا ولا مباحًا، يتظاهرون بالإسلام وهم عن تعاليمه معرضون، وبأحكامه جاهلون، وكانت الرَّسائل تصلني بالعشَرات يوميًّا، كُلُّها أسئلةٌ عن أشياءَ تعدُّ من أوَّل ما تعلَّمناه في طفولتنا، وكانت تَرِدُ إليَّ الرَّسائل من الكويت والبحرين وقطر وجنوب العراق، ومن كُلِّ بلدٍ يصل إليه إرسال التِّلفاز الكويتيِّ، وواصلت الاتِّصال بالنَّاس عن طريق التِّلفاز تارةً بالإجابة عن أسئلتهم، وتارةً بالاختصار على أحاديث رأيتها الأصلح لإفادتهم، ثمَّ أخذت من تلك الأحاديث - وجاوزت حلقاتها المِئَتي حلقة - هذه الَّتي أُقدِّمها للقارئ الكريم، أُقدِّمها لإخوتي القُرَّاء بكتابٍ أسميتُهُ «أحاديث»، أرجو الله أن يجعلها نافعةً ومفيدةً لمن وعى وتدبَّر، وقد ضمَّنتها ذكريات تفتح عين القارئ لِيُبصِرَ كلَّ جميلٍ، ويسمع كلَّ جليلٍ، وتعود به إلى أيَّامٍ مجيدةٍ وثيقة الصِّلة بقيام دعوة الإسلام الطَّيِّبة، فإنَّ من اللَّائق بالمسلم أن يعودَ بفكره وذكرياته إلى فجر الإسلام يوم أن كان غضًّا نقيًّا حديث التَّنزيلِ، ثمَّ إلى أيَّام ضحاه فيتذكَّرَ أمجاد الأمراءِ الرَّاشدين ودولتهم الَّتي بنت حضارةً زاهرةً واسعةَ الأفق، امتدَّت عِزَّتها قُرونًا، وشهدتها أجيالٌ متعاقبةٌ.

أرجو الله جلَّ جلالُه أن يجعلنا ممَّن تعلَّم فعلَّم، وعَمِلَ بما عَلِمَ، واستهدى فاهتدى وهَدَى غيره إلى سواء السَّبيلِ.

عبدُ الله النُّوريُّ

مولدُ النَّبيِّ ﷺ

مولدُ نُورٍ ورحمةٍ

أُحيِّيكم بتحيَّة الإسلام، وتحيَّةُ الإسلامِ السَّلامُ، فالسَّلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه، كُلُّنا يعيش اللَّيلةَ في ذكرى هي أَحبُّ الذِّكرياتِ إلينا، لا بل إلى كلِّ مسلمٍ يشهدُ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسُولُ الله، هي ذكرى مولد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء والهَادي إلى الرَّشاد محمَّد بن عبد الله ﷺ، عادت إلينا هذه الذِّكرى والمسلمون في مختلف بلادِهم واختلاف أجناسهم وتباين جنسيَّاتهم قد أُصيبوا بنكسةٍ لم تكن في الحسبان، فقد كُنَّا نظنُّ منذُ عهدٍ قريبٍ أنَّهُ سيحتفل المسلمون بهذه الذِّكرى جميعًا في المسجد الأقصى الَّذي باركَ اللهُ حولَه ولكن شاء الله غيرَ ذلك، فكانت المعركة وكانت الطَّعنة، وتحالفت قوى الظُّلم ضدَّ العدل، وقوى الإلحاد ضدَّ الإيمان، وقوى الخِيانة ضدَّ الوفاء، وخَسِرنا المعركة، وفي هذه الذِّكرى يجب أن نقتدي بصاحبها ﷺ، ونتَّخذَ مِنَها درسًا وعِبرةً تقينا شرَّ الهزيمةِ في الحرب المقبلة الَّتي يجب علينا أن نستعدَّ لها بالقُوَّة ونعِدَّ لها العُدَّة، والمعركةُ المقبلةُ ليست معركة عربٍ وإسرائيل، ولا معركةً بين مسلمين ويهود، ولكنَّها معركةٌ بين إسلامٍ وكفرٍ مُقنَّع بالصُّهيونيَّة، إنَّها معركةٌ بين استقلالٍ واستعمارٍ، وحُرِّيَّةٍ واستعبادٍ، وإيمانٍ وإلحادٍ، وحقٍّ وباطلٍ، وواجبُ هذه الأُمَّة أن تتنبَّهَ على الخطر الدَّاهم الَّذي يهدِّدها ويهدِّد ما تملكهُ من أرضٍ وقيمٍ وتاريخٍ ومُقدَّساتٍ وعِزَّةٍ وكرامةٍ، والصُّهيونيَّة كما تقول تعاليمها تريدُ إبادةَ العربِ في أرض

العرب، وقبر الإسلام في مُقدَّسات الإسلام، في الأقصى وفي المدينة المُنوَّرة، قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التّوبة: ٣٢]، وقضيَّةُ فلسطين ليست قضيَّة العرب وحدهم، وإنَّما قضيَّةُ المسلمين جميعًا في مشارقِ الأرض ومغاربها، فهي أولى القِبلتين وثالث الحَرمين ومَسرى مُحمَّدٍ ﷺ ومبدأ معراجه، فمُحمَّدٌ الَّذي أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى الأقصى وعُرِجَ به من الأقصى حتَّى جاوز السَّماوات السَّبع هو نبيُّ المسلمين عامَّةً المبعوث رحمةً للعالمين كافَّةً، وكُلُّنا يعلم ويؤمن يقينًا أنَّ اللهَ بعث مُحمَّدًا بالحقِّ إلى جميع الخلق، كما قال جلَّ شَأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨]، والصِّراعُ بين الحقِّ والباطل قديمٌ، بل عريقٌ في القِدم، منذُ أن عَرَفَ الإنسان في هذه الأرض الحقَّ والباطلَ والغلبةُ دائمًا تكون في النِّهاية للحقِّ؛ لأنَّ الحقَّ ثابتٌ نافعٌ، والهزيمة دائمًا وأبدًا تكون في النِّهاية للباطل؛ لأنَّه زهوقٌ ضارٌّ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرّعد: ١٧]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ومن سُننِ الله الثَّابتة أنَّ الحقَّ يقوم بأنصاره الصَّادقين الصَّابرين من بني الإنسان، وهؤلاء هم رجالٌ كبارٌ عُرِفُوا بمزايا عاليةٍ وصفاتٍ فاضلةٍ وأخلاقٍ ساميةٍ واستقامةٍ وشجاعةٍ وصبرٍ واستعذابٍ للعذاب في سبيل الحقِّ، وبذل المال والنَّفس والوقت - وهي أغلى ما يملك الإنسان - في سبيل الحقِّ، وهذه بعض صفات الأنبياء لا سيَّما أُولي العزم من الرُّسل.

أعود إلى الذِّكرى الشَّريفة ذكرى المولد النَّبويِّ الكريم، ففي مثل هذه اللَّيلة من كلِّ عامٍ يحتفل المسلمون بهذه الذِّكرى، ذكرى ليلة أشرقت فيها

الأرض بنور ربِّها، وعمَّتها الرَّحمة بمولدِ مَن قُدِّرَ لهُ أن يكون رحمةً للعالمين، فقد كانت بعثتهُ نقطة تحوُّل في تاريخ الإنسانيَّة الَّتي كان قويُّها يأكل ضعيفها أو يستعبده، فكان من رحمة الله أن يكون دين محمَّدٍ خاليًا من ذلك، فلا عُنصريَّة ولا عصبيَّة، ولا عُبوديَّة ولا هوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، وكانت بعثة محمَّدٍ ﷺ ثورةً على الظُّلم والبغي والعدوان والاستعباد والفساد، أطارت عروش الظَّالمين، وهدمت صروح المفسدين، وتخلَّص الإنسان من العبوديَّة إلى الإنسان، وكانت بعثته ﷺ ثورةً على الجهل والجمود والوثنيَّة، فلا جهل ولا خرافة ولا أصنام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

ويعرف الإنسان بالسَّمع والبصر والعقل الأضرار والمنافع؛ لهذا كان عليه أن يتعهَّدها بالصَّقل ليدرك بها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النّحل: ٧٨]، وقال ﷺ لابن عمِّه عبدُ الله بن عبَّاس رضي الله عنه يُوصيه، وأنا بدوري أُوصيكم بما أوصى به الرَّسول بقوله: «**واعلم أنَّ ما أصابَكَ لم يكُن ليُخطِئكَ، وما أخطأكَ لم يكُن ليُصيبَكَ**»(١)، وقد أصابنا ما قُدِّرَ علينا، والمؤمنُ يصبر ويُصَابر، ويُوصي أخاه بالصَّبر، ولا يجزع ولا يتخاذل ولا تهون عزيمته؛ لأنَّ المؤمنَ قويٌّ في الله، نَيِّر البَصيرة، يفكِّر ويُدرك، ويتعلَّم من النَّكبات دروسًا تعدُّه للمستقبل، فيجمع ولا

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢١٥٨٩).

يُفرِّق، ويُصلح الخطأ الَّذي به نكب، ويتجنَّب الحال الَّذي بسببه نكص(١).

أيُّها الإخوة المسلمون! لنعِدَّ العُدَّة بكتمانٍ وسرٍّ، ولنقِلَّ من القول ونُكثِر من العمل، ولنترك الجعجعة(٢) والكلام الفارغ والخطب الرَّنَّانة والقصائد العصماءَ، فقد كَبُرَ مَقتًا عندَ اللهِ أن نقول ولا نفعل، وقد عاب القرآن من يفعل ذلك، وعلينا أن نعمل فالرَّسول الَّذي نعيش ذكراه قال لنا: «**اعملوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ**»(٣)، وقال لنا: «**استَعينُوا على إنجاحِ حوائجكُم بالكتمَان؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ**»(٤)، فإنَّ للأعداء عيونًا هي فينا، وأسماعًا في رُؤوس ناسٍ منَّا فقدوا الضَّمائر فلا دين ولا عروبة لهم، لهم أعين يُبصر بها الأعداء أعمالنا، ولهم آذان يسمع بها الأعداء أسرارنا، فحذارِ منهم أيُّها الإخوة، ولا ننسى وصايا ربِّنا لنا فإنَّه يقول: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ٧١]، ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٩]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠]، إلى آخر ما هنالك من أوامر ونواهي أرشدنا بها

(١) نكص: تجأجأ و تأخر وانتهى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ١٦٦).
(٢) الجعجعة: صوت الرَّحى. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٨/ ٥١).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٤٩٤٩)، ومسلم، رقم: (٢٦٤٧)، واللفظ للبخاري.
(٤) رواه الطبراني في المعجم الصغير، رقم: (١١٨٦).

القرآن الكريم الَّذي أُنزل على الرَّحمة المهداةِ للعالمين ﷺ، فإذا فعلنا ذلك وأخلصنا النِّيَّة لله كُنَّا عباد الله أُولي البأس الشَّديد الَّذين بمثلهم أهلكَ الله بني إسرائيل في عهد مُحمَّد بن عبد الله ﷺ، وإذا فعلنا ذلك كُنَّا كما أراد الله لنا أن نكون خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، نهتدي ونهدي، ونتعلَّم ونُعَلِّم، ونأتمر بالخير ونأمر به، ونبتعد من المنكر وننتهي عنه.

وأختتم حديثي هذا داعيًا المولى الكريم جلَّ جلاله أن يُلهم ولاة المسلمين رشدهم، ويُوفِّقهم لعمل الخير وخير العمل، ويُلهمهم السَّير على الحكمة الإسلاميَّة والصَّواب، حتَّى تكون نيَّة جهادهم أن تصبح كلمةُ اللهِ العُليا وكلمة أعدائهم السُّفلى، والله الموفِّق.

مولد البشير النَّذير

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عِمرَان: ٣٣-٣٤].

اصطفى الله آدمَ وحده، ونوحًا وحده، وإبراهيم وآله للنُّبوَّة، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعَام: ١٢٤]، جعلها بعد آدم ونوح في بيتٍ واحدٍ، هو بيتُ إبراهيم ومُحمَّدٍ ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم، يتَّصل نسبه بمضر، ومضر من عدنان، وعدنان من ذُرِّيَّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السَّلام، وأُمُّه آمنة بنتُ وهب بن عبد مناف سيِّد بني زهرة نسبًا وشرفًا ومكانةً في قريش، وقريش من ذُرِّيَّة إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقد خلق الله الخلقَ فكرَّم الإنسان على سائر الخلق، واصطفى بني الإنسان، فاختار خيرهم أُمَّةً، ثمَّ أكرمهم قبيلةً، ثمَّ أشرفهم بيتًا، وأحلَّ فيه محمَّدًا ﷺ، فهو عليه السلام خِيار من خِيار من خِيار، واليوم يحتفل العالمُ الإسلاميُّ في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى مولد البشير النَّذير محمَّد رسول الله ﷺ، الَّذي خلقه الله من بني الإنسان ليكون هاديًا للبشر، فمولد هذا النَّبيِّ الكريم كان نذيرًا بانقلاب، أو كان بشيرًا بتغيير سيطرأ على العالم كُلِّه، فكانت تلك البَشائر الَّتي ذكرتها التَّواريخ تُنذر أهل الشَّرِّ وتُبشِّر أهل الخير، فالأصنامُ تُنكَّس(١)، ونيرانُ الفرسِ تخمد، وإيوانُ كسرى يزلزل ويتصدَّع، وبحيرةُ ساوة تجفُّ، ونورٌ يظهر في مكَّة تُضاء منه الشَّواهق في الشَّام، ومعجزةٌ أخرى لهذا المولد المقدَّس أنَّه يُولدُ واضعًا يديه على الأرض رافعًا طرفهُ إلى السَّماء، وكأنَّهُ قد رفع رأسَهُ من سجودٍ.

أيُّها الإخوة! إنَّ مُحمَّدًا لم يكن للعرب وحدهم، ولم تكن رسالته لهم دون غيرهم، وإنَّما كان رحمةً للعالمين، وهاديًا للنَّاس أجمعين، ختمت رسالته رسالات السَّماء، وستبقى هذه الرِّسالةُ حيَّةً ما بقي بشرٌ على هذه الأرض، وصدق الله العظيم القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢]، وقد آمن قومٌ بهذا النَّبيِّ وصدقوا إيمانهم، وأخلصُوا لله ورسوله، وخرجوا بإيمانهم من ديارهم وأموالهم وأهليهم يبتغون فضلًا من ربِّهم ورضوانًا،

(١) النِّكْس: السَّهم ينكَسِر فوقه فيُجعلُ أعلاه أسفله. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ٥٧٨).

فأعَزَّهم اللهُ بعد ذِلَّةٍ، وكثَّرهم بعد قلَّةٍ، ومكَّن لهم في الأرض، وجعلهم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، وأعزَّ دولةٍ، قويَّة الأركانِ شامخة البُنيان، يُحيط بها سياجٌ من شِدَّة البأس، قد كملت لها القُوَّة، وعلت لها الكلمة، وشعرت بغيرها من الأمم؛ فانتصرت للمظلُوم، وأعانت المغلُوب، وحرَّرت المستعبد، وصارت بعملِها هذا كما شاءَ اللهُ لها؛ أن تكون أمَّةً وسطًا تهدي من ضلَّ، وتُعلِّم من جهل، وتنصر من ظُلِم، عزُّها شامخٌ، ولواؤها مرفوعٌ، وإمامتُها متَّبعةٌ في أرض الله الواسعة، وكأنَّها روحُ العالمِ الحيِّ، مدينتها مضيئة بنور القرآن، وقوَّتها مستمدَّةٌ من التَّمسُّك بالدِّين، وأن تكون دعوةً إلى التَّوحيد والحقِّ والعِزَّة والمنفعة العامَّة والعمل المُثمر، ودعوةً إلى عالمٍ متعاونٍ على الخير، لا لأمَّة العرب وحدها، ولكن للنَّاسِ جميعًا، وقد عاش المسلمون في ظلِّ هذا الدِّين إخوانًا كما قال رسول ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكُم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه**»(١)، فالمؤمنون كالبُنيان المتماسك، يجتمعون على كلمة الإسلام، وبها يتعارفون، وباسمها يتعاونون، فكانوا خيرَ أمَّةٍ أُخرجَت للنَّاس، فَتَحَت هذه الأمَّةُ ذراعيها للدُّنيا بأسرها هاديةً مُبشِّرةً، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وترعى بالرَّحمة، وتحكمُ بالعدل، وتدعو إلى المحبَّة والتَّآخي.

ولنستمع إلى التَّاريخ يحدِّثنا حديثًا ممتعًا عن الإسلام، فقد طوى الإسلامُ بيمينه طيَّ السِّجلِّ دولتين كانتا أعظم دولتين على هذه الأرض؛ دولة كسرى في الشَّرق، ودولة قيصر في الغرب؛ لأنَّ الأرضَ ضاقت بجبروت الأكاسرة، وكبرياء القياصرة، استعبدوا النَّاس فعبدهم النَّاس، فظلموا وقهروا وأذلُّوا، ودالت الدَّولة، ودارت الدَّائرة، وانعكست الآية،

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٥)، واللفظ للبخاري.

فصار السَّعدُ نحسًا، والسَّعادةُ بؤسًا، ثمَّ صار القويُّ ضعيفًا، والحاكمُ محكومًا، والغالبُ مقهورًا، والنَّشيطُ كَسِلًا، والعالِمُ جاهلًا، وجَهِلَ المسلمون دينهم فزال عنهم عزُّهم، وأعرضوا عنه فخسروا مجدهم، وفرَّقتهم الجنسيَّات والأقاليم، فكُسرت شوكتهم وذهبت ريحهم حتَّى أصبحوا قلَّةً على كثرتهم، ومستضعفين في عقر دارهم، وها نحن هؤلاء نرى المنكرَ معروفًا في كلِّ بلدٍ من بلاد المسلمين، بل في كلِّ مكانٍ من مجتمعاتهم، نرى المنكرَ معروفًا في الأسواق والمجتمعات والمنازل، وبين الخاصِّ والعامِّ، بينما المعروف فيها غير معروف، والمسلمون تركوا أركانَ الدِّين، بل أهمَّ رُكنٍ فيه؛ الصَّلاة، وتركوا العملَ بالشَّريعة الغرَّاء في الأخذ والعطاء والبيع والشِّراء ومجال القضاء، وحتَّى في المعاشرة بين الزَّوجين، وتربية البنين والبنات، ونتيجة إعراضنا هذا كانت عاقبةُ أمرنا خُسرًا، نكبة كبرى ثمَّ نكسة نَكراء ثمَّ اعتداءات تترى.

وقد قرأنا في كتب السُّنن - وأكثر ما في كتب السُّنن صحيح - أنَّ النَّبيَّ المصطفى ﷺ قال لأصحابه في إحدى خطبه، ولعلَّها كانت خطبة الوداع في حجَّة الوداع، قال ﷺ: «**لا ترجعُوا بعدي كُفَّارًا، يضربُ بَعضكُم رِقاب بَعض**»[(١)]، قال هذا والمسلمون في صفاء، و﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، «**يحبُّ أحدهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»[(٢)]، فهل كان في ذلك الموقف من يظنُّ - والرَّسول يقول هذا - أنَّ المسلمين سيكونون هكذا يقتل بعضهم بعضًا ويعيب بعضهم بعضًا؟! وروت كتب السُّنن أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في مرضه: «**تركت فيكم ما إن تَمسَّكتُم بهما لن**

(١) رواه البخاري، رقم: (١٢١)، ومسلم، رقم: (٦٥).

(٢) سبق تخريجه.

تَضلُّوا بعدِي: كتاب الله وسُنَّتي»[١]، فهل فكَّر من كان يسمعه أنَّ النَّاسَ سيعرضون عن كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله مُحمَّد ﷺ؟!

وإذا كُنَّا نحتفل بذكرى مولد سيِّدنا محمَّد ﷺ، أو نُشارك العالَمَ الإسلاميَّ بالاحتفال بهذه الذِّكرى، فإنَّ ذلك لا يعني أنَّنا نحتفل به لنرفع من ذكره، فهو ﷺ العظيمُ بقدره، الرَّفيعُ بذكره، وهو المصطفى من جميع خلق الله، وهو الهادي إلى سبيل الله، بعثهُ الله رحمةً للعالمين، لينقذهم من الظُّلماتِ إلى النُّور، ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم، وإنَّما نحتفلُ تقرُّبًا بذكرى المُحتَفَلِ به إلى الله، نرجو بذلك ثوابه ومغفرته ورحمته، إنَّنا نحتفل بمولده لنجلو عن قُلُوبنا أدران[٢] الغفلةِ والخمولِ، نحتفل به لنتذكَّر فنهتدي بهديه المبين، ونسلك منهاجه القويم، ولنقوِّي في نفوسنا الرَّجاءَ، ونبعث في القُلُوب الأملَ، وفي الأجساد القوَّة على العمل، ولنُحيي سُنَّته ﷺ، ونُميت البدعة، ونحذِّر من العمل بها، أخبرنا الرَّسول ﷺ: «**كلُّ بدعةٍ ضلالة**»[٣]، نحتفل بهذه الذِّكرى لنبعثَ في قُلُوب النَّاسِ حبَّ المعروف والعمل به والتَّواصي عليه، واجتناب المنكر والتَّناهي عنه والقضاء عليه، ولنحرِّكَ الهمم، حتَّى إذا قلنا فعلنا، وإذا وعدنا صدقنا، فقد نهانا الله ﷻ فيما أنزل على نبيِّه الكريم أن نقول ولا نعمل، فقال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣].

والكلامُ الفارغُ لا يجدي نفعًا، ولا يصل بنا إلى مفيد، نحتفل بهذه الذِّكرى الحبيبة إلى نفسِ كلِّ مسلمٍ لنُداوي أمراضنا، ونعالج أسقامنا،

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٧٨٨)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
(٢) الدَّرَن: الوسخ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/٣٥).
(٣) رواه مسلم، رقم: (٨٦٧).

ونقوِّي ضعفنا، ونقوِّم معوجَّنا، ونُشخِّصَ هذه الأمراض الَّتي فتكت في جسم الأُمَّة، حتَّى أضعفت القوى، وأسقمت الهمم، وأذهبت الرِّيح، وأماتت النَّخوة، وهَوَت بالأمَّة إلى السَّحيق من الهوان، والحضيض من البوار.

أيُّها الإخوة! إنَّ اللَّه وعدَ نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ بأن يظهر دينه هذا على الدِّين كُلِّه، وقد يقولُ قائل: ما بالُنا نرى الإسلام ضعيفًا، فأين إذن وعد الله؟

فأجيب مَن سأل: إنَّ الإسلامَ هو الإسلامُ، وعد الله بحفظه في كتابه العزيز، فهو باقٍ أبدًا بقاء البشر على هذه الأرض، لا يضرُّهُ من خالفه حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو باقٍ في قُلُوب المسلمين وما زال، ولن يزالوا يفخرون بأنَّهم مسلمون، ولكن أين هم من حقيقة الإسلام؟ لقد قلت آنفًا: إنَّ المسلمين جهلوا الإسلام، فأبعدهم جهلهم بالإسلام من حقيقته، فليس الإسلام اسمًا فقط، إنَّما هو دينٌ، وحياةٌ بلا دين لا طعم فيها ولا طمع، وما نراه اليوم في الأُمم الإسلاميَّة جميعها ليس من حقيقة هذا الدِّين، وإنَّما هي بدعٌ، والرَّسول الَّذي نذكره الآن ﷺ قال: «**مَنْ أحدثَ في أمرنَا هذا ما ليسَ فيه، فهُو رَدٌّ**»(١)، أو هو إعراضٌ، والله ﷻ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

أيُّها الإخوة! الجهلُ داءٌ، وقد وصف الله الجاهلين في كتابه العزيز بأنَّهم: ﴿كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ويقول الشَّاعر العربيُّ معروف الرُّصافيُّ:

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٦٩٧)، ومسلم، رقم: (١٧١٨).

إِذَا مَـا الْـجَـهْـلُ خَـيَّـمَ فِـيْ بِـلَادٍ رَأَيْـتَ أُسُـوْدَهَـا مُـسِـخَـتْ قُـرُوْدَا(١)

وختامًا أقولُ للمسلمين جميعهم إلى مدى ما يصل إليه صوتي: إنَّ الَّذي يُنْجِينا - نحن المسلمين - من ذلَّة الحياة وعذاب الذِّلَّة ووساوس الشَّيطان وفشل الفرقة والضَّلال هو الإسلامُ دينُ اللهِ الخالد، النِّعمةُ المهداة من السَّماء إلى الأرض، وليس غير ذلك شيءٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، والإسلامُ وحده هو العلاجُ الوحيدُ والدَّواءُ النَّاجعُ الَّذي به تنفي البشريَّة عنها أمراض الأفكار والقلوب، وهو الَّذي يبعثُ العزمَ في النُّفوس، والقوَّةَ في الأجسام، والإخلاصَ في العمل.

إنَّ هذا القلقَ المدمِّر للأعصاب، والفسادَ الَّذي ينخر في المجتمعات والعذابَ الَّذي ألبسنا أردِيَة التَّعاسة، والشَّقاءَ الَّذي يلفُّ أفرادنا وجماعاتنا، هذا كلُّه - أيُّها الإخوة - نذرُ شرٍّ، وقنابل ومدافع تحملنا إلى الفناء إذا لم نسمع الصَّوتَ الحقيقيَّ الَّذي ينادينا إلى الله: أيُّها النَّاس! إلى الإسلام إلى الإسلام، أجيبوا داعي الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

يقولُ الله تعالى لأُممٍ سَبقتنا: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المَائدة: ١٢]، ويقولُ لنا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البَقَرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النَّحل: ١٢٨]، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٦٨]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]، ثمَّ يصف هؤلاء المؤمنين بأنَّهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ

---

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والحكم والأمثال، للمهدي (١/ ٣٦).

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤].

أيُّها الإخوة! إنَّ خير الأوقات الَّتي ينتهزها النَّاصح هو الوقتُ الَّذي نحتفلُ فيه بذكرى من ذكريات نَبيِّنا العظيم، فذكره فرحةٌ للقلب، وراحةٌ للنَّفس، إنَّها فرصةٌ طيِّبةٌ، يغتنمها المسلم فيذكِّر أخاه المسلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المُنكر، حتَّى تكون الأمَّة خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس كما كانت، تُصلح ما فسد، وتبني ما انهدم، وتجدِّد ما اندثر، وتسير بعزمٍ ثابتٍ وإيمانٍ صحيحٍ على صراط مُستقيم، حتَّى تستحقَّ وعد الله لعباده المؤمنين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥]، وبذلك نكون حقًّا من أهل القوَّة والعِزَّة والمنعة، ويصدقُ وعد الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ١٤١].

البعثةُ المُحمَّديَّةُ وأثرها على البشريَّة

إنَّها ذكرى وللذِّكريات لذَّاتٌ، وفي الإسلام ذكرياتٌ جميلاتٌ للنَّفس حبيباتٌ، فلمولد المصطفى ﷺ ولبعثته ولمعراجه ولهجرته ذكرى وذكرى، ولأيَّامه في غزواته وفتوحاته ودعوته ذكرياتٌ نافعةٌ تنفع عباد الله المؤمنين، بينما كان العالم يتخبَّط في ظلام جهل ودياجير[1] ضلال بزغَ

(١) الدجر: الهرج والمرج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/ ٢٧٥).

في سماء مكَّة نورٌ انتشرت أشعَّته يمينًا وشمالًا في الجزيرة العربيَّة، ثمَّ ضربت في أقاصي المعمورة، فأحلَّت محلَّ الجهل علمًا، وأبدلت الضَّلال هدًى، ذلك هو نورُ الدَّعوة المحمَّديَّة، وقد عاش ﷺ ثلاثًا وستِّين سنة، عاش أربعين منها قبل أن يتلقَّى الرِّسالة، وفي الثَّلاث والعشرين الباقيات من عمره تلقَّى رسالة ربِّه وبلَّغها النَّاسَ، وكان ﷺ قبلَ الرِّسالةِ رجلًا من قومه، شاركهم في كثير من عاداتهم الاجتماعيَّة، وكان فاضلًا فيهم يفضلهم بكريم أخلاقه، وكان معروفًا بالصِّدق والأمانة، فعند حادثة الوحي قالت له زوجته خديجة رضي الله عنها لكرم أخلاقه: «**والله ما يُخزِيكَ اللهُ أبدًا، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتَقرِي الضَّيف، وتُعِينُ على نوائب الحقِّ**»(١).

وعَصمهُ ربُّه من متابعة قومه في عاداتهم المنافية للفضيلة وديانتهم الخارجة عن الفطرة السَّليمة، كان يأكلُ ممَّا يأكلون، ويشرب ممَّا يشربون، ولكنَّه لم يأكل الميتة، ولا المُتردِّية، ولم يشرب خمرًا، ولا قارب مُسكِرًا، وكان يلبس ما يلبسون، ويركب ما يركبون، وكان بشرًا، ولكنَّه كان فاضلًا لا يختلف عن قومه في شيءٍ إلَّا أنَّه لم يتَّبع عاداتهم القبيحة، وقد وصفه ربُّه جلَّ شأنهُ في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال لهُ ربُّه جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [الكهف: ١١٠]، ولمَّا اختاره الله للقيام بأعباء الرِّسالة وتبليغها كانت حياته شريعةً لمتَّبعيه، وأسلوبًا لما ينبغي أن يكون عليه المسلم، وبعد:

فمنذُ أيَّام سمعت من محدِّثٍ في إحدى إذاعات الأمَّة العربيَّة

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣)، ومسلم، رقم: (١٦٠)، واللفظ للبخاري.

المسلمة، يقولُ هذا الشَّيخُ المحدِّثُ: إنَّ العربَ كانت أُمَّةً ذاتَ شأنٍ وكيانٍ بين الأُمم قبل الإسلام، وجاء الإسلام ليوجِّه هذه الأمَّة التَّوجيه الصَّحيح.

وقبله قرأت لكاتبٍ قال: إنَّ رسالةَ مُحمَّدٍ ﷺ كانت انتفاضةً لثورة العرب.

وأُحِبُّ أن أقول: إنَّ العرب لم يدخلوا التَّاريخ إلَّا من بابٍ واحدٍ، هو بابُ الإسلامِ، وبابُ دعوة محمَّدٍ ﷺ، فقد كانت العرب أُمَّةً جاهلةً، والقرآن يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢]، وكانت أمَّةً مفكَّكةً، لا جامعة تجمعهم، ولا قيادة توجِّههم، وكانت كلُّ قبيلةٍ أُمَّةً وحدها تدَّعي أنَّها أولى من غيرها بالفضل والسَّيطرة، تنتهز غفلة الأخرى؛ لتسلبها وتسبي نساءها وأطفالها وتقتل رجالها، والقرآن يقول: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

ويحكي التَّاريخ لنا ما كان بين الأوس والخزرج من عداء دام مئة وعشرين عامًا، وما كان بين بكر وتغلب من حروبٍ دامت أربعين عامًا أو تزيد، وإنَّهُ وإن كانت في العراق دولة تُسمَّى بالمناذرة، وفي الشَّام دولة تسمَّى بالغساسنة، وفي اليمن ثالثة تُسمَّى دولة التَّبابعة، فلقد كان المناذرة في حماية الفُرس، والغساسنة تابعِينَ للرُّوم، وملوك اليمن عمَّالًا للفُرس، حتَّى بعث الله مُحمَّدًا ﷺ فأعزَّهم به؛ إذ أخذ يروِّضهم على عِزَّة النَّفس بالتَّوحيد بأن لا إله إلَّا الله ولا معبود بحقٍّ سواه، وبأنَّ الإنسان أخو الإنسان، وأنَّ العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، ويعلِّمهم تعليمات الإسلام

السَّامية؛ فيأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويحثُّهم على الوحدة بأشكالها وصورها جميعها، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، ويحذِّرهم من الفرقة ومن كلِّ ما يقرِّب إليها من قولٍ وعملٍ، ويجعل توحيد الكلمة هي الغاية، كما كانت كلمة التَّوحيدِ هي البداية، ويدعو إلى إبراز الفضائل النَّفسيَّة في نفوس أصحابه ومتَّبعيه، فقد أنذر ﷺ وبشَّر ورغَّب ورهَّب واستعمل من وسائل الإقناع والتَّربية ضروبًا عجزت دكاترة العلوم النَّفسيِّة والعلوم التَّربويَّة عن إدراكها.

واستجاب لله وللرَّسول من استجاب، وآمن بالإسلام مَن آمن مِن أهل الحقِّ والخير، واعتنقوا الإسلام دينًا ودولةً وعقيدةً وجهادًا، عُزُّوا بالإسلام وعزَّ بهم جانب الإسلام، وكانوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، ويتواصون بالحقِّ والصَّبر، ويعلِّمون النَّاس من جهلٍ، ويهدونهم من ضلالٍ، ويحملون على الرِّجسِ والأوثان حملة تستحيل بها الجزيرة العربيَّة وطنًا إسلاميًّا يتَّبع شريعة ذات محجَّةٍ[1] بيضاء مُضيئة كما قال رسولنا ﷺ: «**قد تركتُكُم على البيضَاء لَيلُها كَنهارِها**»[2]، ثمَّ يُكمل الله للمسلمين دينهم، وينزِّل على عبده ورسوله مُحمَّد ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، وينتقل الَّذي أدخل هذه الأمَّة في التَّاريخ من باب الإسلام إلى الرَّفيق الأعلى.

وتتحدَّى الأمَّة العربيَّة الزَّمن، وتفرض نفسها على التَّاريخ فرضًا،

---

(١) محجة: المقصد والمسلك. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٤٦٨).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٣).

وتندفع خيل الله كالسَّيل الجارف من الجزيرة العربيَّة، وتدكُّ بسنَابكِها(١) عروش الأكاسرة والقياصرة، ويمتدُّ ظلُّ الإسلام من الصِّين إلى المحيط بسرعةٍ لم يعهد لها في التَّاريخ نظير، في زمنٍ لم تكن فيه سيَّارات ولا طائرات، ويتوطَّد ملكه وجلاله ثمَّ تتوطَّد حضارته وثقافته.

ويكتب التَّاريخ للمسلمين تراجم رجال خدموا العلمَ والثَّقافة والفقه والفلسفة والطِّبَّ والفلك والطَّبيعة والكيمياء، ويكتب أسماء أئمَّة عادلين وقادة فاتحين، ويدفع الإسلام بالإنسانيَّة إلى الأمام دفعًا، ويخرجها من الظُّلمات إخراجًا.

وهكذا أثبت الإسلام للأمَّة العربيَّة وجودًا عزَّ بالعرب وعزَّت به العرب، وصدق الله وهو أصدقُ القائلين حين قال لنبيِّه ﷺ عن القرآن:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزّخرُف: ٤٤].

وقال عن الإسلام: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ [الأنعَام: ١٢٥].

وقال عن المسلمين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

ونحن اليوم في زمنٍ يتكلَّم النَّاس فيه عن القوميَّة والقوميَّات، أسألُ قومي: هل نحن مسلمون أم عُدنا إلى الجاهليَّة الأولى؟

(١) السُّنبُك: طرف الحافر وجانباه من قدم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٢١٣).

ثمَّ أسأل مرةً أخرى هذه الأُمَّة - وأنا واحد منها - ما بالُنا نطلب الوحدة ونحن بعيدون منها؟! بعيدون بهذه الحُدود والجوازات وتأشيرات السَّفر!

أيُّها الإخوة ممَّن ولدتم على هذا الدِّين وجهلتم تعليماته! تعالوا معي إلى كتاب الله داووا به جهلكم، وإلى سُنَّة المصطفى أصلِحوا بها شأنكم، فإنَّ هذا القرآن هو الإسلام والعُروة الوثقى لا انفصام لها، وإنَّه يهديكم إلى درب السَّعادة الَّذي افتقدتموه، ويوصلكم إلى الصِّراط المستقيم الَّذي ضللتموه، وإنَّ سُنَّة المصطفى تُرِيكم كيف وضع السَّلف الأوَّل قواعد هذا الدِّين وأسَّسوا أُسسه، وكيف امتزجت شعوب هذه الدُّنيا حتَّى ذابت في بعضها، ثمَّ أصبحت أمَّةً مسلمةً واحدةً بعد أن كانت أُممًا، ثمَّ التقت على صراط الله الواحد الأحد بعد أن كانت مختلفة السُّبُل والأجناس واللُّغات.

أيُّها المسلمون في كلِّ مكانٍ! عودوا إلى كتاب الله، وإلى سنَّة رسوله، فإنَّكم لن تضلُّوا ما تمسَّكتم بهما، كما قال رسول الله ﷺ: «**تركت فيكم شيئين لن تضلُّوا بعدهما: كتاب الله وسُنَّتي، ولن يتفرقا حتَّى يردا عليَّ الحوض**»[(١)]، وعندها ستنظر الدُّنيا بشعوبها إلينا مدبرةً عن الرَّأسماليَّة والشُّيوعيَّة إلى رحمة الإسلام وعدالته ويُسره ونعمه، وإلى هذه السَّبيل المستقيمة؛ سبيل الله.

أيُّها السَّادة! الإسلامُ قوَّةٌ وعِزَّةٌ، ووحدةٌ ووفاقٌ، ونظامٌ وحكمٌ، وعملٌ وجهادٌ، وإيثارٌ ومواساةٌ، وعلمٌ ومعرفةٌ، وتضامنٌ وتناصرٌ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٩).

والإسلامُ بعد هذا دينٌ ودُنيا، وبالإسلام اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّهم لهم الجنَّة، وجُعِلَ هذا الشِّراء خير التِّجارات، وأختتمُ كلمتي بالآية الكريمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف: ١٠-١٣].

نبيُّ الرَّحمة

يحتفلُ العالمُ الإسلاميُّ كلَّ عامٍ بذكرى مولد سيِّدنا مُحمَّد رسول الله ﷺ، وهو عيدٌ يذكِّرنا بالعدالة والرَّحمة والإنسانيَّة والحُرِّيَّة والأمن والسَّلام والمحبَّة والنُّورِ الَّذي شعَّ من بِطَاح مكَّة، فضاءت به البصائر بعد ظلام، والأبصار بعد عمى، وانجلى به الرَّان[1] عن القلوب.

بعث اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ بشريعةٍ؛ مَن عَمِلَ بها تحقَّقتْ له السَّعادةُ، وعرف طريقه إلى الصَّلاح والإصلاح، ومَن آمن بها نَسي نفسه وأنكر ذاته في سبيلِ أُمَّته ووطنه ودينه، وكان هدفه الأوَّل أن يقود البشريَّة قيادة صحيحة إلى السَّبيل السَّويَّة والعمل المجدي، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ

(١) الرَّين: أن يسودَّ القلب من الذُّنوب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٣٠).

بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾﴾ [العَصر: ١-٣].

وقد بعث اللهُ محمَّدًا، فلمَّ شَعْثَ(١) العربِ بعد شتات، وجمع كلمتهم بعد خلاف، وأزال الفوارق الطَّبيعيَّة بينهم بعد تفاضل، ووحَّد صُفُوفهم بعد تفرقة، وبهذا امتنَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

وقد جاء ﷺ بشريعةٍ أوجبت على المسلم أن يكون صاحب سريرة نقيَّة، ونفس شريفة، لا ينهزم أمامَ الكوارث، ولا يجزع من المصائب، ولا يتقاعس(٢) عن عون ضعيفٍ أو نُصرة مَظلُومٍ، لا تأخذهُ في دينه لومةُ لائم أو عبث عابث، أو قربى قريب أو وجاهة وجيه، أو سيطرة جبَّار.

جاء ﷺ بشريعةٍ تفرضُ على كلِّ مسلم أن يكون كريم الأخلاق، راشدًا مُرشدًا ناصحًا مُنتصحًا عزيزًا لا يهون أمام أعدائه، يدافع عن دينه، ويَذُبُّ(٣) عن ماله وعرضه وشرفه، ويذود(٤) عن أُمَّته ووطنه، وقد تمسَّك المسلمون الأوَّلون بهذا الدِّين، وعملوا بأوامره، فعرجوا إلى أوج الكمال، فكانوا سادةً حكموا بالعدل والمساواة، وساسةً(٥) قضوا على ظُلم الظَّالمين وطَمع المستغلِّين، وقادةً إلى المعالي والعِزَّة، وكانوا بُناة مجدٍ وسُؤدد(٦)، وكانوا كما أراد الله لهم ورسوله، وكما قال رسولنا ﷺ:

(١) الشعث: انتشار الأمر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٢٧٩).
(٢) التَّقاعس: التّباطؤ عن الأمر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٩٤).
(٣) يذبُّ: يدفع عنهم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٤١٩).
(٤) الذود: الطرد والدفع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣/ ١٦٧).
(٥) ساسة: الرِّياسة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ١٥٩).
(٦) السُّؤدد: الشرف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٢٢٨).

«**مثلُ الجسدِ إذا اشتكَى مِنه عُضوٌ تَداعى لهُ سَائِرُ الجسدِ**»[١]، وكانوا أُمَّةً واحدةً، هي خير أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، فنصرت الحقَّ، وخذلت الباطل وأزهقته، دعت إلى الإصلاح وأصلحت، وأبعدت الفساد وابتعدت، أمرت بالمعروف وبه ائتمرت، ونهت عن المنكر وعنه انتهت.

ولقد كان محمَّدٌ ﷺ أحقَّ النَّاس بأن تتشرَّف الزَّعامة العربيَّة بالانتساب إليه، جديرًا كُلَّ الجدارةِ أن تعدَّهُ البطل الأوَّل في أبطالها، فوق ما منحه الله من النُّبوَّة وشرَّفه به من الرِّسالة، فقد كان ﷺ بالقِوى الَّتي جبلهُ الله عليها، والمواهب الَّتي خصَّه الله بها، والفُرص الَّتي أُتيحت له، فكان أجدرَ النَّاس بقيادة الشُّعوب الَّتي عاشت في عُزلةٍ عن العالم، وأعظمَ النَّاس كفاءةً بزعامته، وأحقَّهم بتثقيف أُمَّةٍ جهلت كُلَّ حقيقةٍ، وتخلَّفت عن الحياة.

واستطاع ﷺ أن ينفخ بقوَّته الرُّوحيَّة وبالعَزمِ الَّذي منحه الله له روحًا في أُمَّة العربِ، ويفتحَ لها في بلادها عهدًا سعيدًا، وما أجدرهُ ﷺ أن يكون المثل الأعلى لكلِّ زعيمٍ يريد النَّهضة بأُمَّته، والقدوة الحسنة لكلِّ مُصلحٍ يقود شعبه إلى الإصلاح، وما أجدرهُ ﷺ أن يُنعت[٢] بمؤسِّس المجدِ العربيِّ، ويُنسبَ إليه بناء المجتمع العربيِّ، وكان هو فاعلًا ذلك بحقٍّ، وقد فعل ما هو أكثر وأعظم من ذلك، وقد قال الله تعالى عنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢]، ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٦).
(٢) نعتُّ الشيء وانتعتُّه: وصفته. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٢٤).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤]، وقد أنقذ من الضَّلال، وهدى إلى الحقِّ، وعلَّم من الجهل، وأغنى من الفقر، وقاد إلى الصِّراط المستقيم.

وعلى يده وأيدِي أتباعه وخلفائه الرَّاشدين المجاهدين المخلصين انتفضت الأمَّةُ العربيَّةُ انتفاضةً لم تخطر على بالِ أحدٍ، فخرجت من محبسها(١) ثائرةً(٢) على الكُفرِ والضَّلالِ، تُنادي أهل الأرض: حيَّ على الهدى، حيَّ على الفلاح، حيَّ على الحقِّ، حيَّ على السَّلام، حيَّ على الإسلام.

وعلى يده وأيدِي أتباعه أصلحَ المجتمعُ العربيُّ ما أفسده الظُّلم والاستبداد في البلاد الَّتي دخلها، ونشر الثَّقافةَ الإسلاميَّةَ وحضارتها، والأدبَ العربيَّ، وهي جديدة بالنِّسبةِ إلى الزَّمن، ومُفيدة بالنِّسبة إلى بني الإنسان، وقد كان جديرًا بنا كُلَّ الجدارةِ أن نفخرَ بأن جعلنا الله من أمَّةِ هذا النَّبيِّ الكريم ومن حَملةِ كتاب الله العظيم الَّذي جاء ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، فارقًا بين الحقِّ والباطل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩﴾ [الإسرَاء: ٩].

وليس أحدٌ أعظم فضلًا ولا أكرم يدًا على الأمَّة العربيَّة والمجتمع العربيِّ من هذه الشَّخصيَّة الكريمة الفريدة العظيمة المقدَّسة، شخصيَّةِ محمَّدٍ ﷺ، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [الفَتْح: ٨-٩].

(١) محبسها: مجتمعها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ٢٧٢).
(٢) ثار: هاج غضبه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٣٣٧).

وإنَّ من أعظم النِّعم وأكبرها على العرب خاصَّة أن بعث الله محمَّدًا منهم لهدَايتهم، وليكونوا قادةَ العالم وولاته، وليس هناك شرف أفضل للعربيِّ من افتخاره بصفة الإسلام، وبأنَّه يدينُ بدينِ محمَّدٍ نبيِّ الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، وليست نعمة أَولى بالشُّكر من أن هَدى الله هذه الأمَّة بهذا النَّبيِّ، وأنقذها به من الضَّلال والبؤس والتَّفرقة والجهالة والذِّلَّة والهوان، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾ [الحَجّ: ٧٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾ [الفَتْح: ٢٨].

مقدَّسات العروبة في ذكرى المعراج

نستقبل اليوم ذكرى عظيمةً عند المسلمين، ذكرى محبَّبةً إلى نُفوسهم، ذكرى ليلة الإسراء، وفي مثل هذه اللَّيلة من كلِّ عامٍ تتَّجه قلوب المسلمين في أنحاء الدُّنيا كلِّها إلى المسجد الأقصى الَّذي باركَ الله حوله، ذلك المسجد الَّذي كان إليه منتهى مسرى رسول الله ﷺ، وكان مبدأ معراجه إلى السَّماء.

والمسجد الأقصى مهبط الوحي، ومَبعث الرُّسل، ومَسرى خاتم النَّبيِّين، وأولى قبلتَي المسلمين، وثالث حرميهم، يقصده المسلمون في شهرِ رجب من كُلِّ سنة، فيُحيون فيه ذكرى تلك اللَّيلة الَّتي كَرَّمَ اللهُ فيها

خاتم أنبيائه، فأراه من آياته وجعله إمامًا لأنبيائه جميعهم، فيذكرون الله ويحمدونه أن جعلهم من أُمَّته، وهداهم إلى سبيله، واليوم تعود الذِّكرى.

ونرى المسجد الأقصى بعيدًا من المسلمين، ولا سبيلَ لهم إليه؛ لأنَّ المسجد الأقصى اليوم بيد أعداء الله ورسوله، وأعداء الإنسانيَّة، وإنِّي لا أُحِبُّ البُكاء؛ لأنَّه سلاحُ العجزةِ والضُّعفاءِ، ولا أريد أن أبكي المسلمين؛ لأنَّ بُكاءهم لا يردُّ غائبًا، ولا يعيد مسلوبًا، فالبُكاءُ يُثَبِّطُ[1] الهمم، ويقتل العزائم، ولكنَّي بكلمتي هذه أريدُ أن أُذكِّر النَّاس بمجدٍ للمسلمين مضى، يومَ تمسَّكَ المسلمون بالإسلام.

أيُّها المسلمون في كلِّ مكانٍ! خمسة شهور مرَّت علينا نحن العرب منذُ أن وطئت أقدام اليَهُود حرم الأقصى، منذُ النَّكبة أو النَّكسة، وهُزِمنا أمام العدوان الغادر، فهل كانت لنا في هذه النَّكسةِ ذكرى؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [قٓ: ٣٧]؟!

لقد ابتعدنا من الله وكتابه والإسلام، حتَّى أصبحَ الإسلامُ في بلادنا غريبًا، وأصبح كتاب الله بيننا غريبًا في كلِّ بيتٍ ومدرسةٍ، ابتُلينا بالكلام الفارغ الَّذي يشوِّه الحقائق، ويَطمسُ المعاني، وابتلينا بتبرير مقاصدنا، وأحسنَّا الظَّنَّ بعدوِّنا؛ لأنَّنا أُعجبنا بقوله، وهو ألدُّ الخصام، لقد غُشِي على أعيننا، فلم نرَ الباطل باطلًا، ولا أنكرنا المنكر، ولم نحاول في أنفُسنا أن نرى الحقَّ حقًّا، ولا أن نعرف المعروف معروفًا، ودعاةُ الضَّلالِ على أبواب جهنَّم ينادون بضلالهم على مَرأى ومَسمعٍ منَّا،

(١) ثَبَّطه عنِ الشَّيء: شغله عنه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢٦٧).

يريدون تضليلنا وتشتيتنا، وليس لهم في ذلك قصدٌ إلَّا قتل الإسلام في قلوب أبناء الإسلام، ثمَّ الإجهاز على المسلمين الَّذين جهلوا الإسلام، ولم يبق في قلوبهم منه شيءٌ.

أيُّها المسلمون في كلِّ مكانٍ! إنَّ أسلافَكم[1] في الصَّدر الأوَّل قلَّةٌ، انتصروا على باطل الكفر، وأنصاره كثيرون؛ لأنَّ أسلافَكم أصحابُ حقٍّ عرفوه فنصروه، وحقَّق الله فيهم وعده لهم، فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمَّد: ٧].

وبالأمسِ خرجت جيوشنا لمقاتلةِ عدوِّ الله، ولكنَّها لم تخرج باسم الله، ولا لنصرته، ولا للدِّفاعِ عن الإسلام دين الله، خرجت لتُقاتل العدوَّ بسلاحٍ غير سلاح الدِّين، وكانت النَّتيجة أن أحبطتِ النِّيَّاتُ الأعمالَ، وخسرنا المعركتَينِ في يومين، ولا بُدَّ للتَّاريخِ أن يعيدَ نَفسه؛ فقد استولى الصَّليبيِّون على المسجد الأقصى أواخر القرن الخامس الهجريِّ، الحادي عشر الميلاديِّ، واحتلُّوه سنين طويلة، وكان المسلمون يومئذٍ مقسَّمين إلى دويلات، يحكمها ملوكٌ يعادي بعضهم بعضًا، تفرَّقوا ففشلوا، وتنازعوا فذهبت ريحهم وطمع بهم عدوُّهم.

ولَمَّا أراد الله إثبات الحقِّ وإبطال الباطل نَهضَ المسلمُ الشُّجاعُ يُوسفُ صلاح الدِّينِ الأيُّوبيُّ ليدافعَ عن دينِه، فنادى بالجهاد باسم الله وتطهير الأرض المقدَّسة من دنس الغاصبين أعداء الله، فلبَّاه طُلَّابُ الشَّهادة في سبيل الله، وأتوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ، لا لدنيا يصيبونها؛ ولكن ليُخلِّصوا قبلة الإسلام الأولى من ظُلم الظَّالمين وعدوان المعتدين.

---

(١) الأسلاف: القَوم المتقدِّمون في السير. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ١٥٨).

وزحفت الجيوش باسم الله مُعلنةً الجهاد في سبيل الله، وشعارُها في هذا الزَّحف المقدَّس: الله أكبر، ونشيدُها: لا إله إلَّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وانتصر المسلمون، وفرَّ المعتدون، وليس لهم إلَّا البحر تبتلعهم أمواجه، يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمَّد: ٣]، وهكذا انتصر جُنود الله.

قَوْمٌ إِذَا افْتَخَرُوا فَجُنْدُ مُحَمَّدٍ وَهُمُ إِذَا انْتَسَبُوا فَلِلْإِسْلَامِ

وبعدُ:

فلم يزلْ فينا رجالٌ يطلبون الشَّهادة في سبيل الله؛ إيمانًا بالله، واحتسابًا للثَّواب، ولم يزلْ فينا شبابٌ قلوبهم طيِّبةٌ، يستعدُّونَ لتقبُّلِ هذه القوَّة الإيمانيَّة الهائلة، ويندفعونَ بهذه القوَّة إلى تحقيق الهدفِ المنشود، فجذور الدِّين بفضلِ الله في القلوب مكينة، والنُّفوس لم تزلْ خصبةً، والخصب إذا سُقِي قَوِيَ غَرسه فأثمر، وبغير قوَّة الإيمانِ لن نقدر على تعبئة[1] الأمَّة ودفعها إلى الجهاد دفعًا، فباسمِ الدِّينِ يجتمعُ أهلُ الدِّينِ، وبذكره تتفتَّح نفوسهم، وعلى معانيه الحقَّةِ تتآلف قلوبهم.

وللشَّهادة في سبيل الله - كما قلت آنفًا - طُلَّابٌ يحرصون على نيلها أعظم من حرصهم على الحياة، وسنجد بعد ذلك فينا سيوفًا لله كخالد بن الوليد، وأمناء كأبي عبيدة بن الجراح، وفدائيِّين أمثال سعد بن أبي وقَّاص، والزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عبيد الله، وصلاح الدِّين،

(١) عبَّأ: هيَّأ، وعبأ الجيش: جهَّزه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٣٣٨).

وسنجدُ بين الأمَّهات من تماثل الخنساء بصبرها إذا أُصيبَ أبناؤها، ومن الأخوات من تشابه صفيَّة في احتسابها إذا استشهد إخوتُها، وسنجد بين الشَّباب من يتدافعون لتسجيل أسمائهم في مراكز الدِّفاع والتَّعبئة.

إذن؛ فلا بُدَّ من الدِّين، فهو جامعٌ للشَّتات، مُؤلِّفٌ بين القلوب، به نكثر بعد قلَّةٍ، ونعزُّ بعد ذِلَّةٍ، ولا بُدَّ من الدِّين نُصلح به أحوالنا، ونقوِّم به معوجَّنا، ونُربِّي عليه شبابنا، فباسمِ الدِّينِ رجولةٌ تأبى اللَّهو وسفاسف[١] الأمور، وفيه خُشُونةٌ تبعد الكسل، ولا بُدَّ من تعبئةٍ روحيَّةٍ صادقة باسم الإسلامِ تجذب إليها الشَّباب المسلم، وتطيب بها نفس الأب المسلم، اعتزازًا باندفاع ابنه للدِّفاع، وتفخر الأمُّ المسلمة بابنها المجاهد وتزغردُ له حين تراه بلباسه العسكريِّ، داعيةً له ولمن معه بالنَّصر من ربِّ العالمين؛ لأنَّ من المستحيل في هذا الوجود وجود شريك لله، فإنَّه لا إله إلَّا الله، والمسلم لا ييأس، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧]، والمؤمن لا يقنط: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: ٥٦]، وإنِّي أُنادي إخوتي في الإسلام والعروبة، وأبناء عدنان وقحطان:

بني يَعرُبٍ أينَ الشَّهاماتُ فيكمُ ... وأبنا نزارٍ؟ ما بِتَركِي لكم عُذرُ
وما عذرُكم يا قومُ موقفُ غيرةٍ ... إغاثُة ملهوفٍ بها يُدفعُ الشَّرُّ
قد انتهبَ الأعدا تُراثَ جدودِكم ... فلا تَسْكُتوا إنَّ السُّكوتَ بكمْ نُكْرُ
وفي مسجدِ الأقصى ومسرى نبيِّكم ... تُذَلُّ به التَّقوى يُهان به الذِّكرُ

(١) سفاسف: الرَّديء من كل شيء، والأمر الحقير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٤٤١).

وهل يرتضي الإسلامُ هذا لمسجدٍ إليه سجودًا في صلاتِهِمُ خرُّوا؟!
أتشقى فلسطينٌ وأنتم حُماتها؟! فأينَ السُّيوفُ البيضُ والأُسْدُ السُّمرُ؟!
وأينَ رجالُ المجدِ مِن كلِّ عنزةٍ يمثِّلُها صِيْتٌ ويرفعُها ذِكْرُ؟!
ألستمُ ذوي الثَّارات أنتم لمثِلها خُلقتُم وكنتم لم يُضيَّع لكم ثَأرُ؟!
ألستُم بني مَن لا يُبالي إذا اعتُدِي عليه أطالَ العمرُ أم قصُرَ العُمرُ؟!

وأُنادي بني قومي العرب في كلِّ مكانٍ أن يثوبوا إلى رُشدهم، ويعودوا إلى الله ربِّهم، ويتحسَّسوا واقعهم الأليم، فإنَّ فيما وقع تذكرةً لمن تذكَّر، وعِبرة لمن اعتبر، ودرسًا لمن وعى، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

أيُّها المسلمون! إنَّ لأعدائكم نيَّات لا حقَّقها الله، ولن يحقِّقها إذا عُدنا إليه، إنَّهم يريدون الاسِتيلاء على بلاد ما بين النِّيل والفرات، والمدينة المنوَّرة، وفيها مسجد الرَّسول ﷺ، وعلى بغداد، ودمشق، ولهم في هذه النِّيَّة الخبيثة مُخطَّطٌ قد طوَّقوه بالأفعى الماسونيَّة، وعَنوَنُوه بالنَّجمة الصُّهيونيَّة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

ويريدُنا اللهُ أن نعودَ إلى تعبئة دينيَّة تجمع المسلمين في أقطار الأرض كلِّها، وتجاهد في سبيل الله، ويكون شعارهم كشعارِ السَّلف الصَّالح: الله أكبر، ونشيدُهم فيه كنشيدهم: لا إله إلَّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

أخيرًا أقولُ للمسلمين في كلِّ مكانٍ: إنَّ المسجد الأقصى يُناديكم؛ فلبُّوا نداءه، والأرض المباركة حوله تدعوكم لتطهيرها من دَنس الصَّهاينة؛

فلبوا دُعاءها، والإسلام يستنهض أبناءه؛ فانهضوا لنصرتِه يا مسلمون، ولبَّوا نداء الله، أيُّها المؤمنون:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

في ذكرى الإسراء

لقد مرَّ رجب ورجب، وسيمرُّ غيرها، وكُلُّها تحمل في لياليها ذكريات ليلة الإسراء بكلِّ ما فيها من يُمنٍ وجلالٍ وسناءٍ وسلامٍ، ومرَّت الأعوام والقُدسُ أولى القِبلتين، وثالث الحَرَمين، ومَزَار البَشريَّة المُتديِّنة على اختلاف مِلَلها ومذاهبها مُدَنَّسٌ بعدوانِ الخبث الصُّهيونيِّ.

وإنَّه لأمرٌ جليلٌ أن تكونَ خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس قد ذُلَّت، ويكون الَّذين غُلَّت أيديهم ولُعِنُوا على لسان داود وعيسى ابن مريم قد عزُّوا وانتصروا واغتَصبوا، فأين شعارُ الإيمانِ الَّذي غَلَب عُتُوَّ[١] الوثنيَّة الغاشِم؟ وأين شعارُ النَّصرِ الَّذي حَطَّم جَبروت الرُّوم الطُّغاة؟ وأين عُدَّة الدِّفاع الَّتي كسرت عروش الأكاسرة الفُرس؟ وأين كلمةُ الحقِّ الَّتي طهَّرت أرض الجزيرة العربيَّة من أعداء البشريَّة؟

---

(١) العتوُّ: مجاوزة الحدِّ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٥٣٣).

تلك هي هتافُ المؤمنين من جنود المسلمين، تلك هي النَّشيدُ الإلهيُّ، نشيدُ ملائكةِ الله في السَّماء يشدُو به جنود الله في أرضه، تلك هي كلمةُ (اللهُ أكبرُ) الَّتي هبَّت بها أنفاسُ المؤمنين الَّذين صدقوا الإيمانَ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وهبُّوا من أرض الجزيرة العربيَّة، وضجَّت بها أصواتهم، فأطفأت النَّار المعبودة في فارس، وقضت على الظُّلم والظَّالمين في رُومٍ ويونان، وحملت الإيمان والعدل والإحسان إلى مصر، وشمال إفريقيَّة، فلا وقاحة سفَّاحٍ، ولا خُيَلاء[1] مُتجبِّرٍ، ولا غرور مُتكبِّرٍ، «**ولا فَضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا أحمر على أسود إلَّا بالتَّقوى**»[2]، فهو أمرٌ بالعدل والإحسان وإيتاء ذِي القُربى، ونهيٌ عن الفحشاء والمنكر والبَغي.

وتأتي الذِّكريات تتابعُ ليلة الإسراءِ، والمسجدُ الأقصى المبارك مُدنَّسٌ بالوجود الصُّهيونيِّ فيه، على أرضه تسرح قطعانهم، وفي ساحاته الطَّاهرات تمرح كلابهم، والمسلمون في وطن الإسلام الكبير يقولون ولا يفعلون، يعقدون الحفلات في ذكريات المولد، وذكريات الإسراء، وينشدُ الشُّعراء قصائدهم، ويشدُو المنشدون أشعارهم، ويخطب الخطباء من وحي هذه الذِّكريات، ذكرى الرَّسول الخالد الَّذي حوَّلَ ظلام الدُّنيا إلى نور، وأزهقَ الباطل بالحقِّ الصَّريح الواضح، وردَّ إلى الإنسانيَّة كرامتها الَّتي وهبها الله لها وسَحَق الشَّرَّ، وعلى أنقاضه شيَّد صرح الخير، وأفاضَ على الأحياء نعمة الحياة، فلا سبيلَ إلى مُسالمة الشَّرِّ، فالشَّرُّ لا يكون خيرًا، ولا يَنال من مُسالمته خيرًا.

---

(١) الخيلاء: الكبر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٤٦٠).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

أجل، إنَّ في إسراء نبيِّنا ﷺ انتصارًا للحقِّ على الباطل، وقد بعث الله مُحمَّدًا ﷺ من أجلِ الحقِّ والخير والسَّلام، وأُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإنَّ في ذلك لَعِبرةً لأُولي الألبَاب، يقول سبحانه:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١].

تكريم الإسراء والمعراج

غدًا ستحتفلُ الكويت حكومةً وشعبًا بهذه الذِّكرى، ذكرى الإسراء كما في كلِّ عامٍ، وإنِّي أنتهزُ الفُرصة لأخاطبكم، وأبتدِئ بالدُّعاء سائلًا المولى جلَّ شَأنه أن يُعيد أمثال هذه الذِّكرى على الأُمَّة الإسلاميَّة في سائر بلادها، وقد هَيَّأَ الله الفُرصةَ لها فاستعادت أرض الإسراء من الأعداء، مطهَّرةً من الرِّجسِ، يذكر فيها اسم الله، ويُحِيط بالمشرَّدين نصرٌ من الله وسكينةٌ، وبالبلاد فتحٌ قريب، وعود الغريب، وبعدُ:

فإنَّ قصَّة الإسراء مَعروفةٌ، رواها الأحفاد عن الأجداد، وأشاد القرآن الكريم بذكرها في أوَّل سورة الإسراء، وقد سمَّاها بهذا الاسم؛ تعظيمًا لشأنها، ورفعًا لذِكرها، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، والإسراءُ هو الرِّحلة اللَّيليَّة من المسجد الحَرَام إلى المسجد الأقصى، أمَّا المعراج فهو الصُّعودُ إلى السَّماء من

المسجد الأقصى.

ومن الأحاديث الَّتي يَرويها الشَّيخان عن الإسراء: «**بينما كان النَّبيُّ ﷺ في المسجد الحرام بين النَّائم واليقظان إذ أتاه جِبريل بالبُرَاق**[١]**، فركبه وسار به يضع حافره عند منتهى طرفه، بمعنى: أنَّ خطواته كانت طويلة؛ فإذا رفع رجله لخطوة وضعها عند نهاية ما يُدرِكُه البَصر من مَنظور حتَّى وصل إلى المسجد الأقصى، وهناك مُثِّل له النَّبيُّون أو حضروا، فصلَّى بهم إمامًا**»[٢].

ورأى ﷺ في هذه الرِّحلة من آيات الله ما رأى، آيات فتحت قلب محمَّدٍ ﷺ على آفاقٍ عَجيبةٍ في هذا الوجود، تكشَّفت عن الطَّاقة المُخبَّأة في كيان هذا البشر الرَّسولِ الَّذي كرَّمه ربُّه، وفضَّله، وختم برسالته رسالات السَّماء إلى الأرض، ورأى من آيات الله الكبرى ما كشفت عن الاستعدادات الَّتي هيَّأتْهُ لاستقبال ما أعدَّه الله له من تبليغ رسالة التَّوحيد والإسلام إلى النَّاس، وهو ﷺ السَّميعُ بما أودع فيه من أسرار يسمع بها كلُّ ما لطف ورقَّ، وهو البصيرُ الَّذي يُدرك بعين البَصيرة كلَّ ما خَفي على أولي الأبصار والبَصائر، فقد قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

والإسراء كان بعبده، وكلمة عبد إذا وَصفَ الله بها أحدًا من خَلقه كانت وسامَ شرفٍ لهذا المخلُوق، فمحمَّدٌ ﷺ عبدُ الله ورسوله، أسرى به ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعيسى عليه السلام قال: ﴿إِنِّي

---

(١) البراق: فرس جبريل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ١٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٢٠٧)، ومسلم، رقم: (١٦٤)، بلفظ: «**بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان...**».

﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وهو عبدٌ أنعم الله عليه، وجعله مثلًا لبَني إسرائيل، وموسى عليه السلام كان عبدًا شكورًا، وأيُّوب قال فيه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وداود وسُليمان عليهما السَّلام كان كلُّ واحدٍ منهما: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٣٠]، ووصفَ الله عِبادَ الرَّحمنِ بخير الأوصاف في سُورةِ الفُرقان، وملائكةُ الرَّحمنِ عِبادٌ مُكرَّمون، وعُبُودِيَّةُ الله شرفٌ لا يفوز به إلَّا المُتَّقون والمُقرَّبُون.

والرِّحلة الَّتي حدثت ليلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مُختارةٌ من اللَّطيف الخَبير، ربطت عقائدَ التَّوحيد من لَدُن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى إلى محمَّد صلَّى الله عليهم، وربطت بين الأماكن المُقدَّسة الَّتي اختارها الله لأن تكون مَهابِط وحيه، ومَبعث أنبيائه.

ومحمَّدٌ ﷺ خاتم النَّبيِّين ووارِثٌ لِمُقدَّساتهم جميعِها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، فرسالته تشمل مُقدَّساتهم كلَّها وتربطها جميعًا إلى رسالته الخاتمة للرِّسالات الَّتي قبلها جميعها.

والمعراجُ رحلةٌ عجيبةٌ، ربطت بين الأرض والسَّماء في بُرهَةٍ(١) وجِيزَةٍ، ولا عجب؛ فهي آيةٌ من آياتِ الله في صورتها وكيفيَّتِها، وعاد النَّبيُّ ﷺ من إسرائِه ومعراجِه في اللَّيلةِ نفسها، وفراشهُ لم يبرد، والتَقى بعدَ عودته بأمِّ هانئ بنت عمِّه أبي طالب، فقصَّ عليها ما رأى، ثمَّ قام

(١) البرهة: الحين الطويل من الدَّهر، وقيل: الزمان. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٤٧٦).

ليخرجَ إلى المسجد فتشبَّثت[١] به تريدُ منعه، وقالت لهُ: «**أخشى أن يُكذِّبك قومك إن أخبرتهم**»، قال ﷺ: «**وإن كذَّبوني**»[٢].

ثمَّ خرج فجلس إليه أبو جهل، فحدَّثه رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، وإذا بأبي جهل يُنادي بأعلى صوته: «**يا معشرَ بني كعب بن لؤيٍّ هَلُمَّ**[٣] **هَلُمَّ!**» فلمَّا اجتمعوا حدَّثهم بما أخبره به رسول الله، فمن مُصَفِّقٍ، وواضِعٍ يَدَه على رأسه تعجُّبًا وإنكارًا[٤].

وارتدَّ ناسٌ ممَّن ضعف إيمانهم، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر يخبرونه بما قال محمَّدٌ ﷺ، ولكنَّ الصِّدِّيق ﷺ ردَّهم على أعقابهم، وردَّ استهزاءهم في نُحورهم، وخيَّب ظنَّهم، فقال: «**أَوَقالَ ذلك؟**»، قالوا: «**نعم**»، قال: «**فأنا أشهدُ لئن كان قال هذا لقد صدق**»، قالوا: «**أفتصدِّق أن يأتي الشَّام في ليلةٍ واحدةٍ، ثمَّ يرجع إلى مَكَّة قبل أن يصبح؟**»، قال أبو بكر: «**نعم، أنا أصدِّقهُ بأبعد من ذلك؛ أصدِّقهُ بخبر السَّماء**»[٥]، وسُمِّيَ منذ ذلك اليوم بالصِّدِّيق.

وكان في المجتمعين من رأى بيت المقدس، فطلبوا إليه أن يصفه لهم، فجلَاه الله له، فطَفِقَ[٦] ينظر إليه، ويَعدُّ لهم أبوابه، ويذكر لهم

(١) تشبثت: التَّشُّبث بالشيء التَّعلق به، ولزومه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٢٧٢).
(٢) انظر: الخصائص الكبرى، للسيوطي (١/ ٢٩٦).
(٣) هلُمَّ: أقبل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٦١٩).
(٤) انظر: الخصائص الكبرى، للسيوطي (١/ ٢٦٦).
(٥) انظر: الخصائص الكبرى، للسيوطي (١/ ٢٩١).
(٦) طفق: جعل يفعل، وأخذ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٨٧).

مَعَالم بيت المقدس وأوصافه، قالوا: أمَّا النَّعتُ[١] فقد أصاب، ثمَّ سأَلُوه عن عير[٢] قافِلة لم يخبرهم أين رآها وما أحوالها، فوصفها لهم وأخبرهم بمكانها، ويومَ وصولها، خرجوا ذلك اليوم يشتدُّون إلى خارج مكَّة لمُراقبة مقدمها قبل شروق الشَّمس، قال قائلٌ منهم: هذه الشَّمس أشرقت، وقال ثانٍ: وهذه العير أقبلت، والله كما قال محمَّدٌ[٣].

لقد قامت البيِّنة لهم على صدق الإسراء، لكنَّهم لم يؤمنوا، بل فعلوا كما فعل قوم نوح من قبل؛ قال تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: ٧]، ولكنَّ هذا الإعراض لم يُقعِد النَّبيَّ ﷺ عن الجهر بالحقِّ الَّذي بعثهُ الله به، ولا عن الدَّعوة الَّتي أمره أن يبلِّغها للنَّاس، فإنَّهُ الأُسوةُ لدعاة الحقِّ أن يجهروا به، وألا يخشوا فيه لائمًا، ولا يتملَّقوا ظالمًا، ولا يخافوا وقعه في نفس كاره، إنَّهُ الحقُّ؛ فلا يلتمس الدُّعاة إليه رضا هذا ولا استحسان ذاك إذا تعارضت أهواؤهم معه.

وإنَّ المسجد الأقصى الَّذي اغتُصِبَ من المسلمينَ هو قبلتُهم الأولى، ومسرى نبيِّهم، وثالث حرمٍ قَدَّسهُ دينهم، وإنَّ الكارثة العظمى الَّتي ليس مثلها كارثة، والمُصيبة الَّتي تهُون دونها المصائب؛ أن تسكت أمَّة محمَّدٍ عن هذه الإهانة، ودين محمَّدٍ يقول لهذه الأُمَّة: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ويقولُ لهم: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٥]، ينهاهم عن

---

(١) النَّعت: الوصف. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٢٣).
(٢) العير: الحمار، أهليًّا كان أو وحشيًّا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ١٧٢).
(٣) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للباجوري (١/ ٦٥).

الوهن والهَوَان، ويُحذِّرُهم من أن تلهيهم عن الكوارثِ مُلهيات، حتَّى لا يُباغتهم[١] عدُوُّهم بما هو أعظمُ وأشدُّ وقعًا.

إنَّ القرآن يُذكِّرُ أمَّته دائمًا بما كان عليه سَلَفهم الصَّالح، قال تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويقولُ لهم آمرًا وناهِيًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: ١٠٤].

والمسلمون منذُ صدر الإسلام لاقوا من أعداء الإسلام نكبات قاسية، فما وَهَنُوا لها، بل خرجوا منها خروج الظَّافر المُنتصر؛ لأنَّهم كانوا مع الله في إيمانهم بنصره وتمسُّكهم بدينه، ومن كان مع الله كان الله معه، كيف لا وهو القائلُ جلَّ شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧]؟!

والإسراء والمعراج تشريفٌ وتكريمٌ للإنسانِيَّة ولنبيِّها الكريم حين أُسرِي به من مكَّة إلى المسجد الأقصى، فصلَّى هناك إمامًا بجمعٍ من الأنبياء والمرسلين، فكان ذلك دليلًا على أنَّهُ خاتمُ النَّبيِّين وإمامهم، وهو تشريفٌ وتكريمٌ لأُمَّةِ هذا النَّبيِّ حين مَنَّ الله عليها بفريضة الصَّلاة، هذه الصِّلة الرُّوحيَّة الَّتي يلتقي بها العبد المسلم بربِّه كلَّ يومٍ خمس مرَّات، ويقف أمامه ضارِعًا خاشِعًا مُناجيًا، و«**أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو سَاجدٌ**»[٢]، فيرجو رحمته، و«**يعوذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته**»[٣]، ويستغفره من ذنبه.

---

(١) المباغتة: الفجأة، وهو أن يفجأك الشيء. انظر: لسان العرب، لابن منظور(٢/ ١٠).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٤٨٦).

نعم، الإسراء والمعراج تشريفٌ وتكريمٌ للنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ وأُمَّته، ولو أنَّ هذه الأُمَّة عرفت قدرها الَّذي أراده الله لها، ووَعَت مكانتها الَّتي هَيَّأها الله لها، وتدبَّرت كتابَ ربِّها الَّذي أنزله لها، لاستفادت ولكانت كما أراد الله لها أن تكون، ولكنَّها مع الأسف طال عليها الأمَد، فنسيت أو تناست.

فقد كان السَّلف الصَّالح كما أراد الله له أن يكون؛ أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ودعَا إلى الحقِّ، وأصلح ما فسد، وحكم فعدل، وكانوا كما وصفهم الله في كتابه: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، فقَسَتْ قلوبهم، وذَلَّت نفوسُهم، وخافوا عدوَّهم، ولم يبقَ لهم من الإسلام إلَّا اسمه.

والاحتفالات بالمولد والهِجرة والإسراء والمعراج أمورٌ لم يحتفل بها الرَّسول ﷺ ولا أصحابه الَّذين عاشوا معه، ولا التَّابعون لهم بإحسان، ومع أنَّها بدعةٌ فقد دعا المُصلحون إلى إحيائها؛ لعلَّها تُذكِّر، فالذِّكرى تنفع وتنبِّه وتوقظ، وقد أغلق الأقصى بابه عن حُجَّاجه، بل أغلق بابه عمَّا هو أعظمُ من هذا، فلا أذان من مَنَائره يُسمع، ولا صَلاة في رحابه تُقام.

وما زال العدوُّ يُوالي اعتداءاته بين الفَينَة[(١)] والفينة على القُرى الآمنة، وعلى المُستضعَفين من النِّساء، والولدان العُزَّل من السِّلاح، والاحتجاج تلو الاحتجاج يُرفع إلى الجِهات المختصَّة، وأجوبتها ذرَّ[(٢)] الرَّماد في العُيُون.

---

(١) الفنية: الوقت من الزَّمانِ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٥٣٢).

(٢) ذرَّ: ذَرَّ الشيء، أَخذه بأطراف أَصابعه ثمَّ نثره على الشيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١١/ ٣٦٦).

وكان الأولى بنا نحن المسلمون أن نصغي إلى قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وكان الأولى بنا أن نؤمن بالله، ونعمل بكتابه، ونتأسَّى برسول الله، ونوحِّد الوِجهة، ونترك التَّخاذُل، ونكون من المتَّقين، فقد أُنزل على نبيِّنا محمَّدٍ في الكتاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة

ذكرى التَّضحية الكبرى والجهاد المَرير

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التّوبة: ٤٠].

أهلَّ هلال محرَّم على العالم الإسلاميِّ، وأهلَّت معه على القُلُوب المؤمِنة ذكرى حبيبةٌ لنفوسنا عزيزة علينا؛ لأنَّها ذكرى الجهاد والصَّبر والتَّضحية والمثل العليا، وهي ذكرى الهجرة.

أيُّها الإخوة! كان في استطاعة محمَّدٍ ﷺ لو أراد أن يعيش هادئًا ينعُم بمالٍ وفيرٍ، وملكٍ كبيرٍ، ويسعد بجاه عريضٍ، وكان يُمكِنه أن يحيا حياةً رافِهةً، يستمتع بمتع الحياة ولذائذ العيش، ولكنَّ قلبَ محمَّدٍ الَّذي يحمل الرِّسالةَ الكبرى رسالةَ السَّماء إلى الأرض لم يردْ ذلك، وإنَّما أراد الله له شيئًا أبقى، إنَّهُ أراد للإنسانيَّة أن تهتدي إلى ربِّها، وتتعبَّدَهُ مخلصةً له، فلا تخضع لغيره ولا تذلَّ لسِوَاه، وأن تعلو على النَّقائص، وتتَّجه إلى فضائل الأعمال ومعالي الأمور، فتسير في حياتها على منهاج رشيد، وأسلوب حكيم، وأراد للإنسانيَّة شريعةً عادلةً تُنظِّم شؤونها، وتصون مجتمعها، وتحفظ بها أعراضها وأموالها ودماءها، وأراد لها؛ علمًا يفتح البَصائر،

ويجلو القلوب، ويصقل العقول، وثقافةً تتحرَّر بها من أسر التَّقاليد، وضلالات الجاهليَّة، وقُيود الخُرافات والأوهام، وحضارةً يسودُها الحبُّ والإخاء، ويُظلِّلها الأمن والسَّلام، وهذه رسالةُ محمَّدٍ ﷺ الَّتي أوقف لها حياته، وتعرَّض من أجلها لأشدِّ أذًى يتعرَّض له داعٍ إلى الله، وهكذا مضى رسول الله ﷺ يُبشِّرُ بدعوته وهو أقوى الدُّعاةِ، ويهدي لها وهو أرشدُ الهادين وأهدى المُرشِدين، ولكن طغى حبُّ الجاه على الَّذين دعاهم محمَّد ﷺ، فهم يريدون الرِّئاسة والمال والسُّلطة، وليس في دعوة محمَّدٍ شيء من هذا، فكانت الخصومة وكان العداء، وعنَّفوه في الخِصام، وهزِئُوا بدعوته، فلم يأبهْ لخصومتهم، ولم يُبالِ بعنادهم، ولم يلتفت لاستهزائهم، وإنَّما آلمه شيءٌ واحدٌ هو ما لَقِيَه أصحابُه المُستضعفون الَّذين أُهينوا وتعرَّضوا لما لا طاقةَ لهم به من أذًى، ولا قدرةَ لهم عليه من عذاب.

وتمضي الأيَّام، وتنقضي الأعوام، والصِّراع بين الحقِّ والباطل لا يَفتر، بل يبلغ أشُدَّه، وكان الباطل يبتدع الأساليب في محاربة الحقِّ، وكان الحقُّ وادعًا ساكنًا لا يَطِيش[1] ولا يرهب، وكُلَّما تجمَّعت السَّفاهة وتلاقت الهفوات من أنصار الباطل لجأ الحقُّ وأنصاره إلى الله، فيُناجي رسول الله ﷺ ربَّهُ قائلًا: «**اللهُمَّ إِليكَ أشكُو ضَعفَ قُوَّتي وقِلَّةِ حِيلَتي وهَوَاني على النَّاس، أَنتَ أَرحَمُ الرَّاحمين**»، ثمَّ يقول: «**إن لم تكن غضبانًا عليَّ فلا أبالي**»[2]، ويستعذب المُستضعفون في سبيل إيمانهم مرارةَ العَذَابِ، وتهون عندهم شدائد التَّنكِيل والإيذاء، ويصمدون أمام المعذِّبين؛ لكي ينتصرَ

(١) الطيش: النَّزق والخفة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٢٤٨).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم (١٨١).

الحقُّ، ويطمئنَّ الضَّمير، ويُذَلَّ الباطل، وتسعد البشريَّة.

وأجمع القوم أمرهم، وأحكموا تدبيرهم، وقرَّروا أن يضربوا الضَّربة القاضيةَ، ويسفِكوا دم محمَّدٍ الطَّاهر، ويقضوا على الدَّعوة، وقد جَهِلوا أنَّ الله أكبر، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠﴾ [البُرُوج: ٢٠]، ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفَال: ٣٠]، ويفوتهم محمَّدٌ ﷺ، ويخرج من بيته مهاجرًا دون أن يَشعُرَ أحدٌ به أو ينتبه إليه، ويأبى القوم إلَّا أن يُنفِّذوا ما دبَّروه.

إذن فليسلكوا الطَّريق نهايته ويحقِّقوا غايته، فإنَّ اللهَ معَ محمَّد ﷺ، فقد رَضِيَ عنه، وأنزل عليه سكينته، وأمدَّه بجنوده، وجعل كلمته العليا، وكلمة أعدائه الَّذين كفروا السُّفلى، وهكذا أثمرت الدَّعوة ثمرتها، وبدأت الهِجرة، ثمَّ آتتْ أُكلَها صالحًا، ووجِدَ على الأرض المؤمن الصَّادق، والدَّولة الرَّشيدة، والمجتمع الفاضل، والأُسرة الصَّالحة، والفرد المُهذَّب، واستحقَّ المسلمون بهذا أن يُمكِّن الله لهم في الأرض، فيجعل منهم أئمَّة راشدين، يعدلون في الحكم، ويهدون مَن ضلَّ، ويعلِّمون مَن جَهِل، وكانوا ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، ويفعلون الخير، ويصلحون الفَساد.

وينتهي قرن الرِّسالة والَّذي يليه، ويليهما القرن الثَّالث، ويلقى الإسلام من أعدَائِه ما لَقِيه منهم في عَهدِ إشراقه، وقد عرف أولئك الأعداء الَّذين لا يُعادُون شيئًا كعدائهم للإسلام كيف يحيكون(١) المَكِيدة بخبثٍ، فقد استَشكَلُوا(٢) أن يكون الإسلام في الأرض دعامة أمنٍ

(١) يحيك حياكة: نسجه، صنعه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ١٣٢).
(٢) استشكلوا: اللَّبس، أي ملْتبِسةٌ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ٢٧١).

وسلامٍ، ولَقِيَ الإسلام مقاومة وضربات وجِّهت إليه من كلِّ مكانٍ؛ ولكنَّه كافح وصابر وصبَر حتَّى انتصر، فكافحهم بيسره، وانتصر عليهم بسهولته وبالقُوَّة الكامنة فيه. وطال الأمد على المسلمين، وقسَت قلوبهم، وجهل المسلمون دِينهم وأحكامه، واستغلَّ أعداء المسلمين هذا الجهل، فهَبُّوا في وجهه في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، ولكنَّه جَالَدهم وهو أَعزَلُ، وانتصر عليهم؛ لأنَّ عُنصُر القُوَّة كامن في طبيعته وملائم للفطرة البشريَّة، وكافحَ الإسلامُ أعداءه وهو أعزل، وانتصر عليهم؛ لأنَّهم عبيدٌ، ولأنَّه حُرٌّ أبيٌّ، لا يرضى الذُّلَّ والعُبُوديَّة إلَّا لله ربِّ العالمين.

ويحارب أعداء الإسلام دين الإسلام كما حارَبُوا نبيَّه؛ لأنَّ الإسلام يقف لهم في الطَّريق ويعوِّقهم عن الطُّغيان والتَّسلُّط والاستغلال كما يريدون، ولم يكفهم أنَّهم يطلقون عليه حملات القَمع والإبادة، بل أطلقوا عليه حملات التَّشويه والخِدَاع والتَّضليل، وقال أعداء الإسلام: إنَّه يقسر النَّاس على اتِّباعه قسرًا، ويحملهم عليه حملًا.

وجَهِلوا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، ونسوا قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥]، وأخذوا على الإسلام أنَّهُ دين قِصاص، وأنَّه يضرب على يد كُلِّ مُستكبرٍ، ويقطع يد كلِّ طامعٍ، ويقَمع رأسَ كلِّ معاندٍ، ويقضي على كلِّ طاغيةٍ، ويقطع دابر من يسعى في الأرض بالفساد، ونسوا أنَّ هذا هو العدل، وتعاموا عن الحقِّ، وكأنَّهم لم يعلموا أنَّ هذا هو السَّبيل الوحيد لنشر الأمن والسَّلام، ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٩١]، والفسادُ في الأرض شرٌّ من الفتنةِ، والإسلام في كلِّ عصرٍ من عصوره يعادي أشدَّ العَدَاء أسلوب القسر والإكراه في الدَّعوة لمن لم

يعرف حقيقته ويحصل على فكرة تامَّة عنه، ولكنَّه في الوقتِ نفسه يحارب الطُّغاة والجبَّارين والسَّاعين في الأرض فسادًا، ويحارب الظُّلم والاستغلال والاستعمار والاستِعباد، وأولئك الَّذين يقفون في طريق دعوته، ويَصُدُّون عن سبيل الله، فإذا وجد هؤلاء وأولئك جَالَدهم بالسَّيف؛ عدلًا منه وإحسانًا، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٣].

أيُّها الإخوة! إنَّ خصائص الإسلام هي الَّتي تحنق[١] عليه أعداءه الطَّامعين في الوطن الإسلاميِّ، ولكنَّ الَّذي لا شكَّ فيه هو أنَّ المستقبل لهذا الدِّين، فيقول تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصَّف: ٨-٩].

أيُّها الإخوة! إنَّ في ذكرى الهِجرة دروسًا وعبرًا، فالمبادئ مهما كانت كريمة فلها أعداء، ولن تنتصر إلَّا بجهادٍ شاقٍّ وتضحيةٍ كبرى، وعلى قدر ما يكون الجهاد والتَّضحية يكون الفوز والنَّصر، وما أحوجَ الشُّعوب الإسلاميَّة في عصرنا هذا إلى الجهاد والتَّضحية لتستردَّ حُرِّيَّتها وكرامتها، وتستكمل عِزَّتها وتضامنها!

وقد ترك رسول الله ﷺ فينا تراثًا ضخمًا ودروسًا نافعةً وعِظات بالغة، يمكننا أن نستفيدَ ونُفيدَ، ونهتدي ونهدي إلى الَّتي هي أقوم، ذلك كتاب الله وسُنَّة نبيِّه اللَّذين تمسَّك بهما الأوَّلون فلم يضلُّوا، ولو تمسَّكنا بهما كما تمسَّكوا وعملنا بهما كما عملوا لَبَنَيْنَا عالمًا أفضل كما بنوا، وعشنا

---

(١) تحنق: شدَّة الاغتياظ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/ ٢٠٧).

حياةً أكرمَ كما عاشوا.

أيُّها الإخوة! أرجو أن يكون حاضرنا امتدادًا لماضينا الصَّالح المجيد، وقد قرأنا في الأثر الطَّيِّب: «**لن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»[1]، والله جلَّ جَلالُه يقول: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المَائدة: ١٥-١٦].

الهِجرة المُحمَّديَّة بداية القضاء على دولة الباطل

أهلَّ هلالُ عام هجريٍّ جديدٍ اللَّيلة، عام يمرُّ على حساب المسلمين وحدهم، هو حلقةٌ في سلسلة أعوام طويلةٍ سابقةٍ ومثلها لاحقة، اللَّيلة هي غرَّة عام (١٣٨٩)[2] للهجرة النَّبويَّة الشَّريفة، هلَّ هلالُ هذه اللَّيلة، بعد أعوام مرَّت رَزَحَ[3] خلالها المسلمون في أنحاء الدُّنيا تحت صُنُوف من الهَوَان: تشتيت شمل، اعتداءات، انقسام، أطماع، أهواء، استعباد، ذاقُوا بسببها من الهوَان ألوانًا، فما كان هذا الوضع حافزًا لهم على النُّهوض من كبوتهم[4]، ولا دافعًا لهم لجمع شملهم، وما زالوا يتلقَّون

(١) انظر: مجموع الفتوى، لابن تيمة (٢٠/ ٣٧٥).
(٢) أي: عام (١٩٦٩م).
(٣) رزح: ضعف وذهب ما في يده. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٤٤٨).
(٤) الكبوة: عثرة وذلل. انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (٣/ ١٩٠١).

الضَّربة تلو الضَّربة وهم عمَّا يصلح حالهم غافلون، وبالخلافات لاهُون، فبالله عليكم أيُّ أداءٍ هذا الَّذي أسلم المسلمينَ إلى هذه الغَفوَة الطَّويلة، وهل لها يا ترى مِن آخر؟ وهل بعد هذا الآخر انتباهٌ أو صحوة؟

فكلُّ مُسلمٍ عرَفَ تاريخ المسلمين يتحرَّق أسًى ولوعةً حين يقارن بين ماضي المسلمين البَعيد - عندما كان يظلُّ لِواؤهم دولةً واحدةً واسعةَ الأرجاء، مرهوبة الجانب، قويَّة الغريزة، تحمِلُ بفخرٍ اسم الإسلام، وتحكم بكتابه - وحاضر المسلمين، وقد وزَّعتهم الأهواء والطَّائفيَّات والعنصريَّات والأقاليم والحُدود، كيف لا يحزن المسلم وهو يرى هذه الأُمَّة الَّتي كرَّمها الله بأعظم رسالةٍ سماويَّةٍ وجعلها بها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠] قد فقدت ما كُرِّمَت به، فأمست مفضولة بعد أنَّ كانت فاضلة، وصارت مجزَّأة بعد أن كانت موحَّدة، وهانت بعد عزٍّ، وضعفت بعد قوَّةٍ؟! أجل إنَّه لواقعٌ مؤلمٌ، يعرفه كلُّ مسلمٍ، فكيف حلَّ بنا هذا، وما مصدره؟

كلُّكم لا شكَّ يجيب بجواب واحد: إنَّهُ الإعراضُ عن الدِّين، والابتعادُ عن الإسلام، فقد أصبح الإسلامُ غريبًا عنَّا، فلا هو معنا في الدَّار ولا المدرسة ولا السُّوق ولا القَضَاء، ابتعدنا من الإسلام أو أبعدناه منَّا في كلِّ حياتنا، وقد كان الإسلام حياة أسلافنا، كيف لا يكون ذلك والله جلَّ شَأنه قال لهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفَال: ٢٤].

فقالوا: لَبَّيكَ اللَّهمَّ سمعنا وأطعنا، فأحياهم الله حياةً طيِّبةً، وأكثرهم بعد قِلَّةٍ، وأعزَّهم بعد ذِلَّة، وأغناهم بعد عالة، ورفع لهم ذكرهم بعد خمول، أمَّا نحن فعصينا، وهجرنا دِيننا، فعاقَبَنَا الله، فصِرنا إلى ما نحن

فيه اليوم من حالٍ لا نُحسد عليها من هَوَان وذلَّة، وهُنَا أذكر كلمة مأثورة قالها السَّلف: «**عجبت لمن يُصلِّي الصُّبح بعد طلوع الشَّمس كيف يرزق**»(١)، كلمةٌ عجيبةٌ قيلت في صدر الإسلام، فكيف بنا ونحن نعيشُ في عصرٍ بلا دين؟! والعجب لمن لا دين له كيف يعيش؟!

إنَّ من لا دينَ له لا إيمانَ له، والإيمانُ عَقِيدةٌ تستَحوذ على مشاعرِ الإنسان وحواسِّه، وتدفعه دفعًا إلى حماية ما يُؤمن به ويعتقده، وهو ما يُسمُّونه اليوم مَبدَأ، يدافع عنه بروحه وجسده؛ لأنَّها العقيدة الَّتي بها يسلم في دنياه وأخراه، فقد كان المسلمون في الصَّدر الأوَّل للإسلام، يدافعون عن العقيدة قبل الوطن، وقبلَ كلِّ شيءٍ، ويقاتلون في سبيل الله لِتكُون كلمةُ الله العُليا، فلا يقاتلون لوطنٍ ولا لشعبٍ ولا لترابٍ ولا لمالٍ ولا لاستغلال، ولا للدِّفاع عن النَّفس، وإنَّما إعلاءً لكلمة الله ودفاعًا عن العقيدة، وحماية للدَّعوة، فقد كانت دينَهم ودُنياهم، فخَلَف من بعدِهِم خَلفٌ غيَّروا ما كان عليه السَّلف الصَّالح، فأضاعوا الصَّلاة، واتَّبعُوا الشَّهوات، وأصبحت الدُّنيا مطلبهم، والجَاهُ غايتهم، والسُّلطة مُرادهم، واختلفت آراؤهم فلم تتَّفق، وتَشعَّبت(٢) وجهاتهم فلم تَأتَلف، ولم نسمع يومًا من أحدهم كلمة في سبيل الله، أو كلمة لله أو باسمه، أو الله أكبر، وإنَّما نسمع صيحات الكُفر والإلحاد والمبادئ الهدَّامة كلَّ يومٍ ولحظة في كلِّ بلدٍ من بلاد المسلمين، نسمعها منمَّقة(٣) مُزوَّقة(٤)، ونقرؤها بعباراتٍ

(١) انظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق، لياسر عبد الرحمن (٢/ ٣٢٤)
(٢) تشعَّب: تفرَّق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ١٤٢).
(٣) نَمَّقَهُ: حسَّنه وزيَّنه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٤٣٩).
(٤) مزوَّق: محسَّن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ١٥٠).

بليغةٍ جذَّابةٍ، تارةً باسم الإسلام، وتارةً باسم التَّقدُّم أو الثَّقافة أو العلم، وأحيانًا باسم التَّحرُّر والمدنيَّة، والعجب العُجاب أنَّنا في بعض الأحيان نسمعها من قوم منَّا، نعرفهم ويعرفوننا، من بني جلدتنا وقومنا، وقد أخبرنا الصَّادق الأمين صَلَوات الله عليه بخروج هؤلاء وأمثالهم، ووَصَفهم بأنَّهم «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، هم من جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا**»(١)، ووصفهم بأنَّهم: «**قومٌ حُدَثَاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البريَّة، يمرقون**(٢) **من الإسلام كما يمرق السَّهم من الرَّميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنَّ قَتْلَهُم أجرٌ لِمَن قَتَلَهُم يوم القيامة**»(٣)؛ لأنَّهم يدعون إلى الضَّلال باسم الهدى، وإلى الباطل باسم الحقِّ، بل كلامُهم كُلُّه يدعو إلى الباطل.

أيُّها الإخوة المسلمون! أقول إلى مَدَى ما يصل إليه صوتي: كلُّ مسلم يعلم حقَّ العلم أنَّه «**لن يصلح آخر هذه الأُمَّة إلَّا ما صلح أوَّلها**»(٤)، وبالإسلام صلح الأوَائل، ولن يصلح الأوَاخر إلَّا به، هذا وعد الله، ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحَجّ: ٤٧].

أيُّها الإخوة، يا أتباع محمَّدٍ مُنقذ البشريَّة من الضَّلال! نستقبل هذه اللَّيلة عامًا جديدًا للهجرة، ونستقبل به ذكرى هجرة المُصطفى صلوات الله وسَلامه عليه من مكَّة إلى المدينة، ونحتفل بهذه الذِّكرى، لنسمعَ من

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٠٨٤)، ومسلم، رقم: (١٨٤٧).
(٢) يمرقون: يجوزونه ويخرقونه ويتَعدّونه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٣٨٣).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٠٥٧) ومسلم، رقم: (١٠٦٣)، واللفظ للبخاري.
(٤) سبق تخريجه.

سيرته كيف أُوذِيَ في الله فصَبرَ، وعَقدَ العَزم على السَّير في طريقه، فلا يترك الدَّعوة ولو وضعوا الشَّمس في يمينه والقمر في يساره، وقد أيَّده الله، وأعزَّ به كلمته، وأذلَّ به كلمة أهلِ الكُفر والضَّلال، وأنزلَ بذلك قرآنًا يُتلى، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التّوبة: ٤٠].

نحتفل ويحتفل العالمُ الإسلاميُّ بذكرى هذه الهِجرة، والنَّوازل(١) قد أَلمَّت بالمسلمين من كلِّ ناحِيةٍ: تفرقة الأهواء، وحبُّ الدُّنيا، وكراهةُ الموت، ووهَنٌ وإهانَة، ودِعاياتٌ مُضلِّلة، ومبادئ هدَّامة للدِّين والأخلاق، وطَمعٌ، وشُحٌّ، وإعراضٌ عن الحقِّ، وحكمٌ بغيرِ ما أنزل الله؛ أمراضٌ كثيرةٌ فينا نعرف علاجها، إلَّا من رَانَ على قلبه.

فكُلُّنا نعرف أنَّ الدَّواءَ هو الرُّجُوع إلى الله وحده، وأن نَأتمِرَ بما أمرَ به، وننتهي عَمَّا نهى عنه، ونتوجَّه إليه ليُنيرَ بَصائِرنا، ويفتح أبَصارنا، ويهدينا إلى الصِّراط المُستقيم، وإلى سواء السَّبيل، فالدَّواءُ هو أن يُقلِعَ المسلمون عن سيِّئاتهم، ويطهِّروا نُفوسهم من خبث هذه السَّيِّئات، ليكونوا في طاعة الله وطاعة رسوله مع الَّذين أنعم الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النِّساء: ٦٩]، ﴿إِنَّ

(١) النَّوازل: النازلة الشِّدَّة من شدائد الدهر تنزل بالنّاس. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٦٥٩).

ﭐللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النّحل: ١٢٨].

الدَّواءُ - أيُّها الإخوة المسلمون - أن نجاهد في سبيل الله وحده، لا في سبيل شيءٍ سواه، نجاهدُ باسم الله وحده لِتكون كلمة الله العُليا، ولإعزاز دينه، وللدِّفاعِ عن كلمة الإسلام، كلمة: لا إله إلَّا الله، مُحمَّدٌ رسولُ الله، وأن نجعل نشيدنا في هذا الجِهاد: اللهُ أكبرُ، الله أكبر وحده، صدق وعده، وأعزَّ جنده، وهَزمَ الأحزاب وحده.

أيُّها الإخوة! بهذا النَّشيد تصفو النُّفوس، وتبقى مُتَّصِلة بالله العزيز الحكيم لا تبالي بما تلاقي، فإنَّه لا بُدَّ من «إحدَى الحُسنَيينِ: إمَّا ظهورٌ، وإمَّا الشَّهادة»[١]، وما بعد الشَّهادة إلَّا الجنَّة وفيها النَّعيمُ الدَّائم، وإنَّ البُكاءَ والتَّباكي لا يُغيِّر من الواقعِ شيئًا، فلا يَردُّ مسلُوبًا ولا يُعيد مجدًا، والإسلام يُرِيد منَّا رجالًا أشدَّاء على الأعداء، أعِزَّة في الدِّفاع عن الشَّرف، أقوِياء في الذَّبِّ[٢] عن العَقيدة، ولا يريد أشبَاه الرِّجال يَبكُون ويَتباكون، إنَّ اللهَ أعزَّ دِينه برجالٍ هم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، باعُوا أنفُسهم للهِ فنَصَرهم الله، وكانوا مع الله فكان معهم.

أيُّها المسلمون، يا أُمَّةَ مُحمَّدٍ! نحتفل بذكرى الهجرة الشَّريفة، عسى أن تكون حافزًا لنا على اتِّباع سُنَّة من نحتفل بذكرى هجرته ﷺ، وعسى أن تكون فيها موعظة، فنسير في الطَّريق الَّذي أراد الله أن نسير فيه، وجعل الخير جميعه فيه، حينئذٍ يشعر المسلمون أنَّهم في هجرة إلى ربِّهم،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٢٨)، وهو قول لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

(٢) الذَّبُّ: الدَّفع والمنع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣٨٠).

فقد أخبرنا الصَّادق ﷺ: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»(١)، وعندئذٍ ننتقل إلى حالٍ حسنٍ، بل أحسن، ونغيِّر ما بأنفُسنا من شرٍّ إلى خير، وننتظر وعد الله الَّذي لا يخلف وعده، فهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٧].

وفي الخِتام، أسألُ الله للمسلمين جميعًا هِداية إلى سبيله، تفتح أبَصارهم، وتُنيرُ بصائرهم، حتَّى يعودوا العود الحميد إلى دين الله الدِّين الَّذي يُؤلِّف القُلوب ويقوّيها بالإيمان.

إلى أرض الحُرِّيَّة والعَقيدة والمبدأ

نحتفل ويحتفل العالم الإسلاميُّ هذه اللَّيلة وغدًا بذكرى الهِجرة؛ هجرةِ النَّبيِّ ﷺ من مكَّة المكرَّمة إلى المدينة المنوَّرة، وللهجرةِ في الإسلام مكانتها، فقد كانت نصرًا، وبها أظهر الله دينه على العالم كُلِّه، وامتنَّ بها على عباده المسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وبعد الهجرةِ قامت دولة الإسلام؛ دَولة النُّبوَّة والحياة، ودخل العَرَبُ

(١) رواه البخاري، رقم: (١٠).

بالهجرةِ باب التَّاريخ، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٤-٢٦]، وبهذا نستدلُّ أنَّ دعوته ﷺ كانت فتح باب الحياة أمام الأُمَّةِ الَّتي بعثه الله مِنها إليها، وأنَّهُ لولا هذه البعثة والدَّعوة لما كان لهذه الأُمَّةِ شأن، ولما دخلت باب التَّاريخ.

وأترك الكَلام في وصف الهِجرة وحَوَادِثها؛ لأنَّ ذلك شيءٌ مَعروف تكرَّر فيه الكلام، وعرفه الجميع لأتكلَّم على ناحيةٍ من نواحِي الدَّعوة المُحمَّديَّة، وهي: وحدة العقيدة والأُمَّة في مبدئها وغايتها، فكان أوَّل ما قالَهُ مُحمَّدٌ ﷺ هو: لا إله إلَّا الله، مُحمَّد رسول الله.

وهذه الكَلِمة هي رأسُ الإسلام أو ذروته، ولا إله إلَّا الله تعطي معنى لا معبودَ إلَّا الله، فلا عُبودِيَّةَ لبشرٍ على بشر، ولا لطاغيةٍ على مُستضعف، إنَّما المعبودُ الواحدُ هو الله وحده، الخَالِق البَارِئ المُصَوِّر الرَّازق، يُؤتي المُلك من يشاء، ويَنزع المُلك ممَّن يشاء، الحيُّ الَّذي لا يمُوت، خالقُ الموت والحياة، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وبكلمة لا إله إلَّا الله قضى الإسلام على الفوارق، فلا سيِّدَ وعبدَ، ولا شريفَ ووَضِيعَ، ولا عزيزَ وذَلِيلَ، ولا حُرَّ ومملُوك، ولكن في الإسلام النَّاسُ كلُّهم سواء، ثمَّ جعل من المسلمين إخوةً، يقول رسول الله ﷺ: «**المُسلمُ أخُو المُسلِمِ**»(١)،

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٢).

«**ولا فَضلَ لأحَدٍ على أحَدٍ إلَّا بالتَّقوَى**»[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فإنَّهم إخوةٌ كيفما كانوا، ولو اختلفت طبقاتهم وألوانهم، وتباعدت بلادهم وأنسابهم، «**والنَّاسُ بَنُو آدم، وآدمُ من تُرابٍ**»[٢]، وقال أيضًا ﷺ: «**لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوى**»[٣]، وما ألطف وأجمل وأحسن تلك الكلِمة الَّتي جَهَرَ بها ﷺ لأقارِبه، فقال: «**يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النَّار، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئًا**»[٤].

وبعدَ ذلك وجَّه النَّاس بأمرِ ربِّهم الوجهة الَّتي تُؤلِّف بين القلوب، وتوحِّدُ الصُّفُوف، فالقِبلَةُ في الصَّلاة واحدة، هي شطرُ المسجد الحرام شطر الكَعبة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤]، واستقبال القِبلَة رُكن الصَّلاة، و«**الصَّلاةُ عِماد الدِّينِ**»[٥]؛ إذ يقول الرَّسول الأعظم: «**من أقامَها فقد أقامَ الدِّين ومن هدمَها فقد هَدَمَ الدِّين**»[٦]، وهي نظامُ مُساواة، والعَهدُ بين المسلم وربِّه، والنِّظامُ واحدٌ، فلا فرقَ بين إقليمٍ وإقليم، ولا بين جنسٍ وآخر، ولا بين شريفٍ ووضيع، ولا بين غنيٍّ وفَقير، فالنَّاسُ جميعُهم أمامَ النِّظام سواءٌ، خاضعونَ لدستورٍ واحدٍ، والحكمُ النَّافِذُ هو حكمُ الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٦)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

(٤) رواه مسلم، رقم: (٢٠٤).

(٥) أورده المناوي في الفتح السماوي، رقم: (٣٠).

(٦) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٦٢١).

هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، نعم؛ الحكمُ نافذٌ على الصَّغير والكبير، والسَّيِّد والمسُود، فقد قال رسول الله ﷺ كلِمته العَظيمة: «**لو أنَّ فاطمةَ بِنتَ مُحمَّدٍ سَرَقت لَقطعتُ يَدها**»(١)، وقال رجلٌ من نصارى العرب عن الإسلام يومئذٍ عن عدل المسلمين: «**ولو سرق ابن ملكهم لقطعوه، ولو زنى لرجموه**»(٢)؛ وذلك لإقامة العدل فيهم.

ولقد أدَّب النَّبيُّ ﷺ أُمَّته أدبًا جعل منهم أُمَّةً شَهِدَ الله ﷻ لها أنَّها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فأرَشدت من غوَى، وهَدَت من ضَلَّ، أُمَّةٌ حَكَمت فعَدَلت، وأمَرت فنصحت، وقادت فرشدت، وفتحت فرَحمت، لذلك كان فتحها سريعًا، وكانت الأُمَم تفتح لها الصُّدور قبل الأبواب؛ تخلُّصًا من ظُلم حاكميهم، وحُبًّا في العدل الَّذي عُرِفوا به، والإسلام أذاب الجنسيَّات والطَّبقات في بوتقةٍ(٣) واحدةٍ حتَّى محاها، وجعَل من المسلمين أينما كانوا أُمَّةً واحدةً.

والإسلامُ - أيُّها المسلمون - لم يفصل بين دينٍ ودُنيا، وإنَّما كان هو الحياة، والحياةُ عِبادةٌ بكلِّ مُقوِّماتها، فالعملُ والبيع والشِّراء والزَّواج والإنجاب وتَربية الأولاد جميعها عبادةٌ لله، وطلبُ العلمِ، والطُّموحُ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤٧٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية، للبصري (٧/ ٧).

(٣) بوتقة: وعاء على شكل قدح تصهر فيه الفلزات وغيرها من المواد. انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (١/ ٢٦٠).

إلى العُلا ما لم يكن به إذلال للآخر عبادة، وحبُّ الوطن إيمانٌ وحبُّ المسلمين إيمانٌ، فقد قال ﷺ:

«لا يؤمنُ أحدُكُم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ مَا يُحبُّ لنَفسِهِ»(١)، و**«المُسلمُون تَتكافأُ دِمَاؤُهُم، يَسعَى بذِمَّتِهِم أَدناهُم، ويُجِيرُ علَيهم أقصاهُم، وهُم يدٌ على من سِواهُم»**(٢)،كما يقول الحَبيب المُصطفى ﷺ، وهكذا أرادَ الله للمسلمين أن يكونوا.

ذكريات مُسلم في ذكريات الهِجرة

يهلُّ علينا اللَّيلة عام قمريٌّ جديد، ويحتفل المسلمون في دُنياهم بذكرى هجرة المصطفى ﷺ، الَّتي اعتادَ المسلمون أن يحتفلوا بها في أوَّل ليلة من كلِّ عام، ويطيبُ لي في هذه الذِّكرى الطَّيِّبة أن أتحدَّث عن بعض الذِّكريات المُتَّصلة بالهِجرة.

فقد دخلت المسجد الحَرَام في الخامِس من شَهر ذِي الحجَّة المَاضِي لصلاةِ المغرب، فلم أجد لي مكانًا فيه لكثرةِ الحجَّاج إلَّا السَّطح الأعلى، وجلست أنتظر وقت الصَّلاة، وأنظر إلى الكَعبة المشرَّفة، فالنَّظر إليها عِبادة، والنَّاس يطوفون حولها داعين مكبِّرين، مهلِّلين مستغفرين.

وقد أذَّن المؤذِّن، وجلس الطَّائفون حول الكَعبةِ ووجوههم إليها، ينتظرون الصَّلاة، وهُنا خَطَرَ لي خاطَر، فذكرت قول الله ﷻ لنَبيِّه في كتابه

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٥١٥)، قال: حديثٌ صحيحٌ.

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢٧٥١).

العَزيز: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤].

ونظرت إلى الصَّفِّ الأوَّل المُحيط بالكَعبة، وكنت أستطيع النَّظر إليه من ثلاث جِهَات، قَدَّرتُ من فيه بنحو مئة إنسان، ثمَّ نظرت إلى الدَّوائر الَّتي تليه، وهي تكبرُ كُلَّما ابتعدت عن الكَعبة، حتَّى وصَلتُ ببصَرِي إلى الأروقة(١)، ثمَّ خرجت بتفكيري إلى خارج الحَرَم، أراضِيه وأسطحه، ثمَّ إلى المكان البَعيد جدًّا في المشرق والمغرب، إلى سواحِل آسيا على المُحيط الهادي، وسواحل إفريقيَّة على المحيط الأطلسيِّ، وصُفُوف المُصلِّين تُحيط بالكَعبة هُنا وهُناك، وأُقيمت الصَّلاة، وصلَّى المُصلُّون بصَلاةِ إمامهم ووجوههم شَطر الكَعبة، حتَّى خرجوا من الصَّلاة بتَسليمِ الإمام.

وعاد الطَّائفون بعدَ الصَّلاةِ يطوفون بالبيتِ العَتيقِ، جنسيَّاتٌ مُتعدِّدةٌ وألوانٌ مُختلفةٌ وألسنةٌ متباينةٌ جاءت بهم إلى هذا المكان بعَقيدة واحدة هي الإيمانُ باللهِ ربًّا، وبالإسلام دِينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا، جاءت بهم إلى هذا المكان كلِمةُ: لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله.

عددٌ ضخمٌ من النَّاس لا أبالغ إذا قلتُ إنَّهُ أكثر من نصف مليون نسَمَة، جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ بمختلفِ وسائل السَّفر برًّا وبحرًا وجوًّا؛ لِيؤدُّوا نُسُكًا(٢)، ويقيموا رُكنًا من أركان الإسلام أوجبه الله على من

---

(١) الأروقة: سترة مقدَّمة من أعلاه إلى الأرض. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ١٣٤).

(٢) نسك: العبادة، الطَّاعة، وكلُّ ما تقرب بِه إلى اللّه تَعالى. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٤٩٨).

استطاع إليه سبيلًا، وقلتُ في نَفسي: هذا عدد من استطاعوا، فما هو عدد من لم يستطيعوا، أو استطاعوا وتمَاهَلوا[١]، أو من حَجَّ من قبلُ؟ وهل صدق الإحصائيُّون الَّذين قالوا: إنَّ عددَ المسلمين في هذه الأرض (٧٠٠) مليون نسَمَة، وذكرت عندئذٍ حالة المسلمين مع أعدَائِهم، والحَديث الشَّريف الَّذي رواه أبو داود: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكُم الأُمَم من كُلِّ أفقٍ كمَا تتَدَاعى الأكلةُ إلى قَصعَتِها[٢]**»، قال قائِلٌ: أومن قلَّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال ﷺ: «**بل أنتم يومَئذٍ كثيرٌ، ولكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيلِ، وليَنزَعَنَّ اللهُ من صُدُور عدُوِّكُم المَهَابَة مِنكُم، وليَقذفَنَّ في قلوبكم الوَهنَ**»، فقال قائِلٌ: يا رسُولَ الله، ما الوَهنُ؟ قال ﷺ: «**حُبُّ الدُّنيا وكَرَاهِيَة المَوتِ**»[٣]، وصدَقَ رسولُ الله ﷺ.

بقيتُ في مكاني أستمع لسيرة النَّبيِّ: فقد بعث الله رسولَه محمَّدًا ﷺ من هذا البلد الأمين، بعثهُ بالتَّوحيد، وبأن لا معبود إلَّا الله وحدَهُ، ومن جبل الصَّفا قال للنَّاس: «**أرَأيتكُم لو أخبرتُكُم أنَّ خَيلًا بالوَادِي تُرِيدُ أن تُغِيرَ عليكُم أكُنتُم مُصَدِّقيَّ**» قالُوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلَّا صدقًا، قال: «**فإنِّي نذِيرٌ لكُم بين يَدَي عذَاب شدِيدٍ**»[٤]، واستجاب للدِّعوة من استجاب، وبدأت قريش تُقاوم الدَّعوة وتكِيد لها، ولكنَّ ثباته ﷺ وثبات أصَحابه أضعف كَيدهم، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ

---

(١) تماهلوا: المهل، السَّكينة والتُّؤدة والرِّفق، أَمهلَه، أَنظره ورفَق بِهِ ولَم يعجل علَيه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٦٣٣).

(٢) قصعتها: الصَّحفة أَو الضَّخمة منها تشبع العشرة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ١٧).

(٣) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٩٧).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٤٧٧٠)، ومسلم، رقم: (٢٠٨)، واللفظ للبخاري.

ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكَثُرَ المسلمون، وزَاد إِيذَاء المشركين لهم، واستَباحُوا في الحرَم الآمن دِماءهم وأموالهم وحرِّيَّتهم، وألَّفُوا فرقًا من السُّفهاء يستهزِئُون بالمسلمين ويحطُّون من مكانتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وأراد اللهُ لدينه أن يظهر، وقد وعد نبيَّه أن يُظهره على الدِّين كُلِّه، فكانت الهِجرة إلى المدِينة المُنوَّرة، وكان الاستِقرار، والنَّبيُّ ﷺ قد أَلِفَ مكَّة وألفته، فقد لَبِثَ فيها قبل البعثة أربعين عامًا، ويروي لنا رواة السُّنَّة أنَّهُ ﷺ قال وهو يغادرها: «**ما أَطيبكِ من بلدٍ، وأحبَّكِ إليَّ، ولولَا أنَّ قومي أخرجُوني مِنكِ ما سكنتُ غيركِ**»(١)، ولكن تركها في سبيل الدَّعوة إلى الله، ودخل المدِينة دخولًا عزيزًا محبُوبًا لأهلها مرغُوبًا فيه، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

واستبشر رسُول الله ﷺ بما آتاه الله فيها استجابة للدَّعوة، وما توسَّمه في أهلها من بشائر خيرٍ ونصرٍ، وارتفعت الرُّوح المعنويَّة بين المسلمين، واتَّجهت القِوى إلى البناء؛ بناء المجتمع بالتَّآخي فيما بين المهاجرين والأنصار، وبناء العمران بنسيان الماضي الألِيم، ماضي الاضطهاد بمكَّة، وما يضُمُّه من ذكريات الإيذَاء والتَّعذيب، والهِمَم العَالية تغتَنم فرصَ الاستقرارِ في الحياة، فكان أوَّلُ عمران في المدِينة بناء مَسجدِ

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٢٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه.

الرَّسول ﷺ الَّذي شارك الرَّسول وأصحابه في العمل به، فقد حمل معهم الحَجَر؛ شحذًا لهممهم، وتشجيعًا لهم في عملهم، وقال قائلهم ينشد:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالرَّسُوْلُ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ(١)

وتمَّ بناء المسجد، وكان هذا المسجد مَصدرَ التَّوجيه الرُّوحيِّ والماديِّ، وساحةَ عبادةٍ، ومدرسةَ علمٍ، ونَدوةَ أدبٍ، وديوانَ حَربٍ، ومَجلِسَ شُورى، ومَلجأ غريبٍ، وقد رأى يهودُ المدينة ومُشركُوها إقبال الرَّسُول ﷺ على بناء المجتمع الإسلاميِّ، ونجاح الدَّعوة، ودخول النَّاس في الدِّين أفواجًا، فغاظَهم ذلك وبدؤوا في الكيد والدَّسِّ(٢)، فصمتوا أوَّلًا صمتَ المستريب، ثمَّ أعلنوا نقض العَهد الَّذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا محاربيه، وجرت بينه وبينهم الوَقَائع الَّتي نصر الله نبيَّه ﷺ فيها، وانقادَت الأفئدَةُ لِرسول الله ﷺ، وحَالفَه نصرُ الله، وفُتِحَت مكَّة، ودخلها الإسلام، وعمَّ الجزيرة العربيَّة.

وبعد عشر سنوات من الهِجرة وقد أكمل الله دِينه وأتمَّ على النَّاس نِعمَته انتقل الرَّسول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة وأدَّى الأمانة، وكان قد تخرَّج في مدرسة النُّبوَّة رجالٌ تعجز جامعات العالم مُجتمِعةً أن تُخرِّج مثلهم علمًا ومعرفةً وفنًّا في كلِّ ميدانٍ من ميادين الحياة ودروبها، ومن هؤلاء: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعلي، وخالد، وأبو أيُّوب، وأبو عبيدة، والمقداد، وابن عبَّاس، وابن عمر، وسعد بن عبادة، وسعد بن أبي وقَّاص، وعمَّار، وبلال، وصهيب، وغيرهم كثيرون ممَّن قالوا فصدَقُوا، وعاهَدُوا فوفَوا، وعَمِلُوا لله ولدينه، وأخلصوا للهِ

---

(١) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣/ ٥٦).

(٢) الدَّسُّ: إخفاء المكر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٨٢).

النِّيَّةَ، فأعانَهم على أن يكونوا في الدُّنيا سادة عظماء، وأن يصنعوا للعالم أُسس التَّقدُّم والحضارة الَّتي نشاهد مظاهرها اليوم، وصنع من القبائل العربيَّة الَّتي كانت تقطن[1] بباقي الجزيرة العربيَّة ووديانها أمَّةً رعت النَّاس برفق، وعَدَلت في الحكم، وهَدَت من ضلال، وأرشدت من غواية، وأسعدت بعد شقاء، وجمعت بعد فرقة، وأمِنَت بعد خَوف، ورحمت من ظُلم، وسارت في النَّاس بالعدل والإحسان، وأمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، فكانت كما أراد الله لها أن تكون: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، فلانت لها الشَّدائد، وذَلَّت لها الصِّعاب، وفُتِحَت لها القلوب والبلاد، فأحسنت إلى أهلها، قال الشَّاعرُ أبو الفتح البُستِيُّ:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوْبَهُمُ فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ[2]

وبعد قرنين أو ربَّما أقلَّ كان المؤذِّنُ يُؤذِّن في المغرب أو المشرق، فيردِّدُ صدى هذا الأذان فيما بين المشرق والمغرب، وانقَادت للإسلام بلادٌ لم تعرف العربيَّة من قبل، فتكلَّم أهلُها باللُّغة العربيَّة، وهكذا عرَّب القرآن أممًا بعيدةً كلَّ البعدِ من العرب، فعرَّبَ الإسلام في شمال إفريقيَّة، وإسبانيا، وجزر البحر الأبيض المتوسِّط، وعرب فارس، والعراقين، وأرمينيا، وبلاد غيرها كثيرة، وبرز في الأُمَّة رجالٌ، ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النُّور: ٣٧]، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزَاب: ٢٣]، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، وكانوا كما وصَفَهم عدُوُّهم:

---

(١) قطن: أَقام بِهِ وتَوطّن. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ٥).

(٢) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٤٣٠).

«رهبانًا باللَّيل فُرسانًا بالنَّهار»[١]، ربَّاهم الإسلام فأحسن تربيتهم.

ومَرَّت أزمان فطالَ عليهم الأمد، فقَسَت قلوبهم، واستبدل النَّاس بالدِّين دُنيا، وبالقَناعة مادَّةً، وبالعلم جهلًا، والجهل طامَّة كبرى، وللجاهلين قلوبٌ لا يفقهون بها، وأعين لا يبصرون بها، وآذانٌ لا يسمعون بها، ولله درُّ الشَّاعر معروف الرُّصافيِّ إذ يقول:

إِذَا مَـا الْـجَـهْـلُ خَـيَّـمَ فِـيْ بِـلَادٍ رَأَيْـتَ أُسُـوْدَهَـا مُـسِـخَـتْ قُـرُوْدَا[٢]

وقال التَّاريخُ: طال الأمدُ على النَّاس فأعرضوا عن دِينهم، وقَسَت قُلُوبهم، وكان الأولى بهذه القُلُوب ألَّا تقسو؛ لأنَّ الإسلامَ رحمةٌ ويُسرٌ، وكان الأولى بهم أن يكون لهم في أسلافِهم قدوةٌ حسَنةٌ؛ لأنَّ الإسلامَ يُريد من المسلمين رجالًا يقُولون ويفعلون، ويصبِرُون ويصابرون، وينصرُون الله ورسوله، والحقَّ الَّذي بُعِثَ به الرَّسولُ، ولكنَّ هذا الخلف أضاع الصَّلاة واتَّبع الشَّهوات، وقَعد عن أسمى الغايات، وغرِقَ في بحار الشَّهوات، واستمتع بالملذَّات، ورضي من الحياة بالأكل والشُّرب والعَبث واللَّهو، وبقصيدةٍ يُنشدها شاعرٌ في أحدهم يُطنِبُ بها في مَدحه، أو مُنافِق يُطري في ثناء كَاذِب أقوالًا لا تُقرِّب بعيدًا، ولا تُبعِد قريبًا، ولا ترفع وضيعًا، ولا تمحو سوءًا، ونسي أنَّ الدِّينَ والوطنَ يريد منهم أن يكونوا رجالًا صادقين، يغضبون لله ويوفُون بعهده، ولا تأخذهم في الحقِّ لومة لائم، تَثُور في دمائهم غريزة الجهاد في سبيل الله، والدِّفاع عن كلمته، ويريد منهم رجالًا يخدمون الحقَّ بإخلاصٍ، ويقودون الأُمَّة إلى طريق الخلاص، قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٥٤].

(١) انظر: البداية والنهاية، للبصري (٧/ ٧).
(٢) انظر: موارد الظمآن لدروس الزمان، للسلمان (١/ ١٥٧).

وكرَّرت النَّظر في الصُّفُوف المُتَراصَّة المحيطة بالكَعبة، الغاصُّ بها المسجد، ساحَتُه وأروقَتُه وأسطُحُه، وقلتُ في نفسي: أين هؤلاء من أولئك؟ أين الخلف من السَّلف؟ والله إنَّ البَونَ(١) لشاسعٌ! وعلمتُ أنَّ الإسلام لا يريد رجالًا همُّهم الأكل والشُّرب والمركب والرِّياش(٢)، يملؤونَ الأعينَ بملاحةِ الوجوه، وضخامة الأجسام، ويُفسدُون ولا يُصلِحُون، ويتَفاخرون بضخامَة المال في المصارف، وضخامة المكتنز من النُّقود، ويتبارون في البناء، ويتباهون في اقتناء أغلى التُّحف والجواهر.

كلَّا أيُّها الإخوة! ما هؤلاء والله برجال، ولا أشباه رجال، وهؤلاء الَّذين أوصلونا إلى ما وصلنا إليه من حالٍ، ولن نصل بهم إلَّا إلى أسوأ من هذا الحال.

أيُّها الإخوة! الإسلام دين الرُّجُولة والعمل، والسِّيادة والسِّياسة، وقيادة الأُمَم وتربية الهمم، دينٌ يريد منَّا أن نكون رجالًا كالسَّابقين الأوَّلين، والتَّابعين لهم بإحسَان، فإن اتَّبعناهم وتمسَّكنا بسُنَّة أسلافنا، وتأسَّينا بنبيِّنا وأصحابه نجحْنا، وإلَّا فسنبقى غنِيمةً للأُمم! فـ«**تتداعى علينا كما تتداعى الأكلة على قصعتها**»(٣)، لا من قلَّة في العدد، ولكن كما قال رسول الله ﷺ: «**غثاء كغثاء السَّيل**»(٤).

وقد أراد الله للمسلمين في كلِّ مكانٍ من الأرض أن يكونوا أمَّةً

---

(١) البون: مسافة ما بين الشيئَين. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤/ ٢٨٧).

(٢) الرِّياش: هو الأثاث من المتاع ما كَان من لباس أو حشو من فراش و دثار. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٢٢٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

واحدةً، فوحَّدهم في المبدأ بكلمةٍ: لا إله إلَّا الله محمَّدٌ رسول الله، ووحَّد بينهم بكلمة التَّعارُف والتَّحابب: السَّلامُ عليكم، وجمعَهم على قبلةٍ واحدةٍ، فالكعبة قِبلتهم أحياءً وأمواتًا، وألَّف بين قُلُوبهم، فجعلهم إخوةً؛ قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وجعل أخوَّة الإسلام أقوى من أخوَّة النَّسب بقول رسول الله ﷺ: **«المُسلمُ أخُو المُسلِمِ»**(١)، و**«إنَّ المُؤمنَ للمؤمنِ كالبنيانِ يشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا»**(٢)، و**«مثلُ المُؤمنين في توادِّهِم، وتعاطُفهم، وتراحُمهم، مثلُ الجسدِ، إذا اشتكى مِنهُ عُضوٌ تداعى سائرُ الجسد بالسَّهرِ والحُمَّى»**(٣)، وأزال الفوارق الطبقيَّة بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وبقول رسوله ﷺ: **«المُسلِمُون إخوةٌ لا فضلَ لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى»**(٤)، وقضى على التَّفاضُل القبليِّ والنَّسبيِّ واللَّونيِّ بقوله ﷺ: **«النَّاسُ بَنُو آدم، وآدم من تُرابٍ»**(٥)، وقولِه لأبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه: **«لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتَّقوى»**(٦)، ومحا العنصريَّة وسمَّاها دعوَى الجاهِليَّة، وعَابَ على من دعا بأنَّها مُنتِنة.

أيُّها السَّادة! ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٨١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).

(٣) رواه أحمد، رقم: (١٨٣٨٠).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٥٤٧).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) سبق تخريجه.

يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، هكذا قال الله تعالى في القرآن، دستُور المسلمين، ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ عِزَّته فقد ذَلَّ؛ لأنَّ الله جلَّ شأنهُ كتب العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

شَهر رمَضان المُعظَّم

رمَضان جهادٌ وذكرياتٌ

يصادف اليوم ثاني أيَّام رمضان، الشَّهر المبارك للأُمَّة الإسلاميَّة، الَّذي تؤدَّى فيه فريضة الصِّيام الَّذي اختصَّهُ الله لنفسه، فقال الرَّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «**كُلُّ عملِ ابن آدم يُضاعفُ لهُ الحسنةُ بعشرِ أمثالها، إلى سبعِمائة ضِعفٍ، قالَ اللَّهُ سُبحانهُ: إِلَّا الصَّوم فإنَّه لي وأنا أجزي بِه، يدعُ شهوتهُ وطعَامهُ من أجلِي**»[١].

ولنبدأ حديثنا هذه اللَّيلة بالكلام على الصَّوم وفضائِله، ولا شكَّ في أنَّكم تعلمونَ أنَّه الرُّكنُ الرَّابع من أركان الإسلام الخمسة، أو السَّهم الرَّابع من أسهُم الإسلام الثَّمانية، فقد جاء في الحديث الشَّريف قول الرَّسول ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ، شهادة أن لا إله إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدُهُ ورسُولُهُ، وإِقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحجِّ البَيتِ، وصومِ رمضانَ**»[٢]، وجاء أيضًا في الحديث الشَّريف: «**الإسلامُ ثمانيةُ أسهم: الإسلامُ سهمٌ، والصَّلاة سهمٌ، والزَّكاة سهمٌ، وحجُّ البيت سهمٌ، والصيام سهمٌ، والأمر بالمعروف سهمٌ، والنَّهي عن المنكر سهمٌ، والجهاد في سبيل الله سهمٌ، وقد خاب من لا سهم له**»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (١٦٣٨).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٨)، ومسلم، رقم: (١٦).
(٣) رواه البزار، رقم: (٢٩٢٧).

والصِّيامُ جهادٌ، ولكنَّه جهادٌ مع النَّفس وصراعٌ معها، يشترك فيه كلُّ مُسلمٍ، فلا فرقَ بين ذكرٍ وأنثى، ولا كبيرٍ وصغيرٍ، ولا يخفى أنَّ جهادَ النَّفسِ أقوى أنواع الجِهَاد؛ لأنَّه صراعٌ داخليٌّ ليس كصراعِ الأعداءِ وجهًا لوجه، وأبسط ألوان هذا الجِهاد أنَّ الحياةَ لا تسير مع كلِّ إنسانٍ كما يشتهي، فهي ما بين يُسر وعُسر، والحياةُ أيضًا سعادةٌ وشقاءٌ، والنَّفْسُ البشريَّة طَمَّاعَةٌ لا تقنع بما تجد، وهكذا خلقَ اللهُ البشر وفطرهم على هذه الطَّبيعة، ولكنَّ الصَّوم يُعلِّمنا أن نقنع بالموجُود، ولا نطمع في غيرِه.

إذن؛ لا بُدَّ من تدريبٍ، وخيرُ تدريبٍ لنا - نحن المسلمين - أن نمنَع أنفسنا حتَّى عن الموجُود امتناعًا اختياريًّا مُدَّةً من الوقت؛ حتَّى نعطي أنفُسنا القدرة على تحمُّل الامتناع إذا تحكَّمت فينا ظروف الحياة، فمنعتنا ممَّا نشتهِي ولم يوجد.

وإنَّ الحياةَ صراعٌ مستمرٌّ، والعمر يومٌ لك ويومٌ عليك، والحمدُ لله الَّذي أكرمنا بأن منَحنا من الفرائضِ التَّعبُّديَّة ما يصلُح به حالنا في هذه الحياة، ثمَّ يجزِينا به فيما بعدها الثَّواب والمغفرة.

وللإسلامِ في شَهرِ رمَضان ذكرياتٌ حبيبةٌ إلى كلِّ نفس مسلمٍ، ولم يزل المسلمُ يذكُرها كُلَّما أهلَّ عليه رمضان، ففيه بُعِثَ المُصطفى عليه السلام، وفيه أُنزِلَ عليه القرآن، وجاء نصرُ اللهِ لرسُوله يومَ بَدرٍ، وجاء فتحُ مكَّة، وزالت دولة الشِّركِ وحُطِّمَت الأصنَام.

من ذكرياتِ بَدر

إنَّ الاحتفالَ بالذِّكرياتِ شعورٌ تَفِيضُ به عواطف الشُّعُوبِ، وإحساسٌ يَنبَثِقُ من أعمَاقها، فلا يُغالَب أو يُحارَب أو يُقاوَم؛ إذ ليس هناك شعبٌ مهما بلَغت درجة ثقافته يخلو من ذكرياتٍ يَعتزُّ بأحدَاثها، ويحتَفي بعودها، ولا فرقَ بين أُمَّةٍ وأُمَّةٍ في ذلك.

ورمَضانُ شهرٌ كريمٌ في الإسلامِ، ولهُ ذكرياتٌ مَجيدةٌ جميلةٌ عِند المسلمين، منها: بعثةُ الرَّسُول ﷺ الَّتي أخرجت البشريَّة من ظلمات الجهالة والعُبُوديَّة والظُّلم والضَّلال إلى نور المعرفةِ والحُرِّيَّةِ والعَدلِ والرُّشدِ، وإنزالُ القرآنِ فيه هُدًى للنَّاس وبيِّنات، يهدي بها الله إلى الَّتي هي أقوم، ويبشِّر المؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحات بحياةٍ طيِّبةٍ يحيونها، ورفعة بين الأمم يعتزُّون بها، ومجد في النَّاس يُخلِّد فضلهم وذكرهم.

وفيه أيضًا حصلت الفُتوحات، وفتح مكَّة أعظمها، وقد جاء النَّصر ودخل النَّاس في دِين الله أفواجًا، وزالت دولة الشِّركِ، وفيه السَّابع عشَر مِنهُ: يوم الفُرقان، يوم تقرير الحقِّ وأخذ العَهد على نصرته ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]، ويومُ الفُرقانِ نصرَ الله المسلمين ببدرٍ، فكانوا أذِلَّة فأعزَّهم، وكانوا قِلَّة فكثَّرهم.

فهذا رمضان يا أُمَّتَهُ، وهذه بعضُ ذِكرياتِه، ونحن اليوم نواجه هذه الذِّكرى كما واجهناها في أعوامٍ مضت، ونجتمع اليوم في بيت من بيوت

الله؛ لنستمعَ ما يُتلى من فضائلِ الرَّعِيل[١] الأوَّل، والسَّلف الصَّالح الَّذين نصروا الحقَّ في يوم الفُرقان، وكان الرَّعِيلُ قدوةً لنا في إقامةِ الحقِّ في العالمِ الأرضيِّ، بذلوا كرائم الأموال، وقدَّموا فِلْذَاتِ الأكباد، وضحُّوا في سبيلِ الله بالأرواحِ والدِّماءِ؛ ليمنعوا المُبطلين أن يرسخ باطلهم، وهم قادرون على إزهاق هذا الباطل بالحقِّ، فإنَّ الباطلَ فتنةٌ، والحقُّ لا يكفي فيه أن يَقوم به أهلهُ، بل يجب أن يضربوا أيضًا على أيدِي الباطل فيُميتوه، وأنصارِه فيذِلُّوهم، حتَّى لا تكون فتنةٌ، وليس هناك أفدح من أن يكون للباطلِ حزبٌ ينصره، وأن تكون لهُ سيادة تظهره، فكان من ذلك السَّلف الصَّالح أنَّهم قذفوا بالحقِّ على الباطل، فدمغوه وأهلكوه، كما يقول المولى تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ولم يكن الصِّراعُ يوم الفُرقانِ صراعًا بين كفَّارِ قريش، وبينَ المجاهدين من الأنصار والمهاجرين، بل كان صراعًا بين الباطلِ والحقِّ في كلِّ مكانٍ، وكان حدًّا فاصلًا بين عهدين؛ عهدِ وثنيَّةٍ وباطلٍ، وعهدِ توحيدٍ وحقٍّ، فكانت قريش تمثِّلُ الباطل وأهله في الدِّفاع عَنهُ ليبقى فتنةً على الأرض، وتُشَكِّكُ بني الإنسان بالحقِّ وما يقضي به؛ لا تعصُّبًا للباطل، ولكن استكبارًا أن يكونوا مع الَّذين استضعفوا في الأرض من العبيدِ الضُّعفاء والمسَاكين الفقراء.

وكان المسلمون القِلَّةُ يمثِّلون الحقَّ، ويدَافعون عَنهُ؛ ليسودَ في النَّاس وتَعلو كلمته، وقد جاءت رسالة الإسلامِ؛ لإقامةِ الحقِّ، ولتمنعَ النَّاس من

---

(١) الرَّعيل: اسم كلِّ قطعة متقدِّمة من خيل وجراد وطير ورجال ونجوم وإبل وغير ذلك. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٢٨٧).

الحياءِ فيه، فلا حياء في الإسلام يمنعُ المسلم من قول الحقِّ، أو الدِّفاع عنه، فالحقُّ في الإسلام فوقَ كلِّ شيءٍ، وهو رائدُ كلِّ مسلمٍ، ووجهةُ كلِّ مؤمنٍ، والحقُّ أُمنيَّة الإنسانيَّة مُنذ وجدت، ولن تكون للإنسانيَّة أُمنيَّةٌ أسمى وأعزُّ منه حتَّى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

والإسلامُ دينُ الحقِّ، ورسالةُ مُحمَّدٍ ﷺ رسالةُ الحقِّ المُطلق، فمن أقامَ الحقَّ في الأرض فهو مسلمٌ بقدر ما يُقيم منه.

وقد جاءَ الأنبياءُ من لَدُن[1] آدم حتَّى خاتم الأنبيَاء مُحمَّدٍ ﷺ بالحقِّ، وأُرسِلُوا لنَصرةِ الحقِّ؛ ففي رسالةِ موسى قال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يُونس: ٧٧]، وفي وحي الله لأنبيائه قال الله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحِجر: ٨]، وفي الكتب المنزَّلة على الأنبياء قال الله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وفي القرآن قال الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، ولبني إسرائيل الَّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب قال الله: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقَرة: ٤٢]، ويوم الفُرقان؛ يوم وضعت فيه القواعد لإقامةِ الحقِّ في دُنيا البشر، وكلُّ من أعان في تثبيت هذه القواعد فهو مسلمٌ.

أيُّها الإخوة! نجتمع اليومَ لنحمدَ اللهَ على نعمتِه حيثُ أعزَّ رسوله وجنده يوم الفُرقان، وأخزَى الشِّرك وأهلهُ، والشَّيطان وقبيله، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصَّافات: ١٧٣]، ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:

---

(١) لدن: أي من حين. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ١١٠).

٢٢]، نجتمع هُنا لهذه الذِّكرى ونقول:

لا إله إلَّا الله وحده، نصر عبده، وأعزَّ جنده، وهَزَم الأحزاب وحده، ولنحمدَ الله على تلك النِّعمة الَّتي أنعم الله بها على سلفنا الصَّالح، وذكرها في كتابه الكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦].

أيُّها الإخوة! إنَّها ذكرى، والذِّكرى تنفعُ من آمن، وإنَّها عِبرةٌ، والعِبرةُ تفيدُ من اعتَبر، وإنَّها موعِظةٌ لمن اتَّعظ، ونقفُ معكم في هذه الذِّكرى أمامَ صاحبين من أصحاب رسول الله كانا معه يوم الفُرقان، هما: عُميرُ بن الحُمامِ الأنصاريُّ، وعَوفُ بن الحارِثِ، «**فعُميرُ بن الحُمامِ الأنصاريُّ كانت بيده تمرات يأكل منها وقد اصطفَّ الجمعان، وسمع ابن الحُمام رسول الله ﷺ يقول: «والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِه لا يُقاتِلُهُم اليومَ رجلٌ فيُقتلُ صابرًا مُحتَسِبًا مُقبلًا غيرَ مُدبرٍ إلَّا أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ**»(١)، سمع عُميرُ هذا فقال: بَخ بَخ(٢)، ما بيني وبين أن أدخُلَ الجنَّةَ إلَّا أن يقتُلَنِي هؤلاء؟ ثمَّ قذفَ التَّمرات من يدِهِ، وأخذ سيفهُ ودخل المعركة، وقاتل حتَّى قُتِلَ»(٣)،

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للعسقلاني (٤/ ٥٩٣).
(٢) بخ بخ: تعظيم الأمر وتَفخيمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٢٣٠).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، للحميري (١/ ٦٢٧)، ورواه أحمد، رقم: (١٢٣٩٨).

أمَّا عَوفُ بن الحارثِ، فقد سألَ رسولَ اللهِ ﷺ: «**يا رسول اللّه، ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عَبدِه؟** قال: «**أن يراهُ قد غَمس يده في القتال حاسرًا**»[١]، وكان على جسمِ عوف بن الحارث دِرْعٌ سابغةٌ[٢]، غطَّت رأسه وسائر جسده، فنزع الدِّرع وألقاها وأخذ سيفه فقاتل حتَّى قُتِلَ في سبيل الله شهيدًا سعيدًا بلقاءِ ربِّه الَّذي يكرمُ الشَّهداء بما أعدَّ لهم من جنَّات»[٣].

أيُّها الإخوة! إنَّنا نذكر في هذا اليوم أهلَ بدرٍ الَّذين استجابوا لله وللرَّسُول، وكانوا قِلَّة مستضعفين في الأرض، فلمَّا نصروا الله أيَّدَهم بنصرهِ، وآواهم، وأعزَّ بهم الحقَّ، وأزهقَ بهم الباطل، فلنكن - أيُّها الإخوة - خيرَ خلفٍ لذلك السَّلف، فلنجعلهم قدوة وأُسوة لنا في العزمِ والقُوَّةِ والإيمانِ، حتَّى يكون الله لنا كما كان لهم: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

آثارُ رمَضان في الصَّائمِ

أيُّها المسلمون رجالًا ونساءً، شبابًا وشابَّات! بعدَ غدٍ سيهلُّ علينا شهرُ الله، رمَضان، شهرُ الصِّيامِ، شهرُ الطَّاعةِ والغفرانِ، الشَّهرُ الَّذي بُعِثَ فيه المُصطفى، ونُزِّلَ فيه القرآن، ونصر الله فيه أهلَ الإيمانِ على أهل الكفر في

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للعسقلاني (٤/ ٦١٤).
(٢) سابغة: تامة وافرة طويلة واسعة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ٤٩٩).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، للحميري (١/ ٦٢٧).

يوم بدرٍ، يومِ الفُرقان، شهرٌ فتح الله فيه لنبيِّه مكَّة، وطهَّرها من الأوثان، وكتب فيه على هذه الأُمَّة صيامه، واختصَّهُ من بين الشُّهور بنسبته إليه، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣-١٨٥].

بهذا النِّداءِ الحبيب إلى قلوب المؤمنين المُذكِّر إيَّاهم بحقيقتهم الأصليَّة يُقرِّرُ لهم أنَّ الصَّومَ فريضةٌ قديمةٌ على المؤمنين بالله في كلِّ دِين، وأنَّ الغايةَ الأولى من هذه الفريضة إعدادُ قُلوبهم للتَّقوى، والتَّقوى تحرسُ هذه القُلوب من المَعصِية، ولو كانت هَواجس(١)، والمُخاطبون بهذا النُّطقِ السَّماويِّ يعلمون مقامَ التَّقوى عند من فرض الصَّوم، والصَّومُ أيَّامٌ مَعدودات من كلِّ سنةٍ، أُعفي منها المريض والمُسافر والشَّيخ الكَبير؛ لأنَّ الله ﷻ يريدُ بعباده اليسرَ ولا يريد بهم العسر.

أمَّا من تلمَّس الرُّخصة وتحيَّل عليها فقد تحيَّل على نَفسه، والله ﷻ لا تخفى عليه خَافِية: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، والرَّسُول ﷺ قال: «**من أفطرَ يومًا من رمضانَ من غير رُخصةٍ ولا مرضٍ، لم يَقضِ عَنهُ صومُ الدَّهرِ كُلِّهِ وإن صامَهُ**»(٢)، فمن كان في قُوَّةٍ من

(١) هَجَسَ الشيء في صدره: خطر بباله ووقع في خلَده. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٧/ ٢٥).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٧٢٣).

اللهِ وعافِيةٍ وأفطر بلا سبب فقد عَصَى اللهَ ورسوله؛ لأنَّ صَومَ رمضان فرضٌ، وممَّا بنى عليه الإسلام صرحه، فقد ثَبُتَ في الحديثِ قولهُ ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ، شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدهُ ورسُولهُ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحجِّ البيتِ، وصومِ رمضانَ**»[1].

والصَّومُ تركُ الشَّهوات، وامتناعٌ عن المُفطِرات، ولا يكون فيه رِياء، والمُفطِرُ سِرًّا المُتَظاهرُ بالصِّيامِ كاذبٌ لا مُراءٍ؛ لأنَّ الرِّياءَ في العبادةِ هو أن يأتي بها الإنسان لمن يراه، أمَّا من يَدَّعِي الصَّوم فإنَّه لم يأتِ بأعمال الصَّوم، وإنَّما كَذَبَ بإخبَارِ النَّاس أنَّهُ صائمٌ.

الصَّومُ سرٌّ، وأمرهُ مَستُور بين العبدِ وربِّه؛ ولهذا قال اللهُ ﷻ في حقِّه: «**الصَّومُ لي وأنا أَجْزِي بِه**»[2]، وهو درسٌ عَملِيٌّ في الصَّبرِ والجَلدِ والتَّحمُّل ومقاومةِ النَّفس، فمن يصبر راضيًا بترك زاده ويجاهد صابرًا على حِرمان نفسه من شهواتها فهو الرَّجلُ الَّذي يُعتمدُ عليه في الدِّفاع عن أُمَّتِهِ، ونصرة دِينه.

والصَّوم - كما تقدَّم في قول الله ﷻ في بداية حديثنا هذا - تقوى، والتَّقوى تأديبٌ ربَّانيٌّ وتطهيرٌ وتَزكِيةٌ، يعالج الشَّرَّ من مَنبعه، ويداوي الدَّاء من مصدره، يقول تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١]، فاللهُ ﷻ لم يفرض علينا الصِّيام لنجوعَ ونعطَش؛ وإنَّما جعلَه وسيلةً؛ لكفِّ الجوارح عن المُحرَّمات، ومنع النَّفس عن الشَّهوات، وكفِّ اللِّسانِ عن الغِيبة، والعين عن النَّظر إلى المحرَّمات، والأذنِ عن سماع الهجر من القول، وفي هذا يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٧٤٩٢)، ومسلم، رقم: (١١٥١).

[الإسراء: ٣٦]، والرَّسُول ﷺ حذَّرنا من ذلك فقال: «**ليسَ الصِّيامُ من الأكلِ والشُّربِ إنَّما الصِّيامُ من اللَّغو والرَّفثِ**[(١)]»[(٢)]، وقال: «**من لم يدَع قولَ الزُّورِ والعمَل بِه فليسَ للهِ حاجةٌ في أن يَدَعَ طعَامهُ وشرَابهُ**»[(٣)]، وقال أيضًا: «**كم من صائم ليس لهُ من صِيامِه إلَّا الجُوعُ، وكم من قائمٍ ليس لهُ من قيامه إلَّا السَّهرُ**»[(٤)]، فإذا لم يمتنع الإنسان عن إيذاءِ غيره بلِسَانه أو يدِه، وإذا لم يسلم النَّاس من آثامه ومُوبِقاته[(٥)]، فإنَّه لم يَصُم، وإنَّما جَاع وعَطِشَ فقط، وليس لله حاجةٌ في أن يدَع طَعامه وشَرابه، والنَّفس متى تعوَّدت المنع من شهواتها كفَّت وامتنعت.

ولنختمَ هذا الموضوع بحديثٍ شريفٍ مرويٍّ عن سَلمَان الفارِسيِّ رضي الله عنه قال: خطبنا رسُول الله ﷺ في آخرِ يوم من شعبان، فقال: «**أيُّها النَّاس قد أظلَّكم شهرٌ عظِيمٌ مُباركٌ، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهرٍ، شهرٌ جعل اللهُ صِيامهُ فرِيضةً وقيام ليلِهِ تطوُّعًا، من تقرَّب فيه بخصلةٍ من الخيرِ كان كمن أدَّى فريضةً فيما سِواهُ، ومن أدَّى فريضةً فيه كان كمن أدَّى سبعِين فرِيضةً فيما سواهُ، وهو شهرُ الصَّبر، والصَّبرُ ثوابهُ الجنَّةُ، وشهرُ المواساةِ، وشهرٌ يُزادُ في رزق المُؤمن فيه، ومن فطَّرَ فيه صائِمًا كان لهُ مغفرةً لذُنُوبهِ وعِتقَ رقبتهِ من النَّار، وكان له مِثلُ أجرهِ من غير أن ينقصَ من أجره شيءٌ**».

قالوا يا رسُول الله: ليس كلُّنا يجد ما يُفطرُ الصَّائمَ.

---

(١) الرَّفث: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من الْمرأة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٢٤١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (١٥٧٠).

(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٣).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٩٦٨٥).

(٥) موبقات: الذنوب الْمهلكات. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٣٧٠).

فقال ﷺ: «يُعطي الله هذا الثَّوابَ من فطَّر صائمًا على تمرةٍ أو على شربة ماءٍ أو مَذقةِ لبنٍ، وهو شهرٌ أوَّلُه رحمةٌ، وأوسطُه مغفِرةٌ، وآخرُهُ عتقٌ من النَّارِ، من خفَّف عن مملُوكه (خادِمِه) فيه غفرَ الله له، وأعتقَهُ من النَّار، واستكثرُوا فيه من أربع خصالٍ: خصلتان ترضون بها ربَّكم، وخصلتان لا غنًى لكم عنهُما، أمَّا الخصلتان اللَّتان ترضون بها ربَّكم: فشهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وتستغفرُونه، تكثرون من ذكره واستغفاره، وأمَّا الخصلتان اللَّتان لا غنى بكم عنهما: فتسألون الله الجنَّة، وتعوذون به من النَّار؛ أي تعملون الأعمال الَّتي تقرِّبكم من الجنَّةِ وتبعدكم من النَّار، ومن سقى صائمًا سقاه الله من حوضِي شربةً لا يظمأُ حتَّى يدخُل الجنَّة»(١).

مع رمَضان في ذِكرياته

أقبلَ شهرُ رمَضان الكريم، وكلُّ عامٍ وأنتم بخير، والحمدُ للهِ على طولِ الأعمارِ والتَّردُّد في الآثارِ، ونسألُ اللهَ جلَّ جلاله أن يُعيننا على طَاعته، ويجعلنا ممَّن ذكرهم الله بكتابه: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولا بُدَّ لنا في هذه المناسبة أن نتكلَّمَ قليلًا على الصِّيام، الَّذي فَرَضه اللهُ في السَّنة الثَّانية من الهِجرة في شعبان، ونزَلت بفريضته الآيات الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٣٧١٤).

ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣-١٨٥] إلى آخر الآيات.

فالصِّيامُ فرضٌ، وهو رُكن من أركان الإسلام الَّتي بُني عليها، ولا مَنَاصَ(١) من أدائِها، ولا عُذرَ لأحدٍ في تركِها إلَّا لأُولئك الَّذين يُطيقُونه(٢)، وهم الَّذين يشُقُّ عليهم ويُكلِّفهم ما لا طاقة لهم به، كالشَّيخ الفاني، أو العَاجز من كِبَر وهَرم، أو المريضِ بمرضٍ لا يُرجى برؤه؛ كالسَّرطان أو السِّلِّ - نسأل الله العافية - أو مرضٍ يتفاعل مع الصَّوم فيزيد صاحبه سُوءًا، كقرحةِ المَعِدة، فهؤلاء وأمثالهم يفطرون ويُطعِمون عن كلِّ يومٍ مِسكينًا، ومن تطوَّع خيرًا بزيادة الإطعام فهو خيرٌ له، ولكنَّ الصِّيام أفضل، لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٤].

واختارَ اللهُ للصَّومِ شهر رمضان من أشهرِ السَّنة جميعِها، فهو: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، فجعل لنا صوم رمضان تذكيرًا لنا بنعمة إنزال هذا القرآن دستور الله لعباده في الأرض، فنشكره على هذه النِّعمة الكبرى.

ولرِمَضان في الإسلام ذكرياتٌ، وذكرياتُ الإسلامِ كُلُّها عذبةٌ تطيبُ بذِكرها المجالس، وترتاحُ لسماعها الآذان، وأوَّلُ هذه الذِّكريات ذكرى بعثةِ مُحمَّد ﷺ، ونزول أوَّل آيات من القرآن، فقد بعَث اللهُ رسوله محمَّدًا

(١) المناص: الملجأ والمفر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨/ ١٩٥).
(٢) الطَّوق: الطاقة؛ أي: أَقصى غايته، وهو اسم لمقدار ما يمكن أن يفعله بمشقة منه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٢٣٣).

ﷺ في ليلةٍ من ليالي رمَضان، وصَفَها جلَّ جلاله بأنَّها ليلةُ القدرِ، وذلك في سُورة القدر، ووصَفَها بأنَّها اللَّيلةُ المُباركةُ الَّتي ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدّخان: ٤]، وذلك في أوَّل سُورة الدُّخان، نزل القرآن في هذا الشَّهر هُدىً للنَّاس، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ١-٢]، أتى به رسولٌ كريمٌ، كان على خُلُقٍ عظِيمٍ، بعثهُ اللهُ رحمةً للعالمين بشيرًا ونذيرًا، ودَاعِيًا إلى الخير وإلى الحياة الطَّيِّبة، وإلى التَّآلف والتَّحابب، والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، والتَّواصي بالحقِّ وبالصَّبر.

ومن ذكريات هذا الشَّهر غزوةُ بدرٍ، ففي هذه الغزوة المجيدة نَصرَ اللهُ أهلَ الإيمانِ على أهلِ الكُفر والطُّغيان، وتدرَّع المسلمون في هذه الغزوة بالإيمانِ والصَّبرِ والتَّقوى، فنَصَرهم على أعدائِهم وصَدَق وعده لهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النّحل: ١٢٨]، ومن ذكرياتِ هذا الشَّهر فتح مكَّة، ففي رمَضان فتح الله على نبيِّه مُحمَّد ﷺ مكَّة مسقط رأس رسول الله ﷺ ومهبط وحي الله عليه، وقد كان ﷺ يتشوَّق لفتحها، ويعلم أنَّه إذا فُتِحَت انقادت العرب لدعوته؛ لأنَّ مكَّة البلد المُقدَّس عند العرب جميعهم، وأهل مكَّة هم النَّاس في نظر العرب، وكان في مكَّة أصنام العربِ كُلُّها، فكان حول الكَعبةِ وحَدَها (٣٦٠) صَنمًا، غير ما كان منها في حَرَم مكَّة المُحيط بالكَعبة، خرج رسُول الله ﷺ ومن مَعَهُ من المسلمين في رمَضان في السَّنة الثَّامنة من الهجرة مُتَّجهًا إلى مكَّة لفتحها، فكان أمامه نصرُ الله وفتح مكَّة، وانقاد لهُ أهلُها طاعةً وإسلامًا، وطهَّرها ممَّا كان فيها من أصنام، وبهذا الفتح الَّذي سمَّاه

المؤرِّخون الفتح الأعظم جاء نصرُ الله، ودخل النَّاس في دينِ الله أفواجًا، يفِدون إلى المدينة وفدًا بعد وفدٍ، طائِعين لله مُخلصين له، لا يبتغون غير الإسلام دِينًا؛ لأنَّهم عَلِموا يقينًا ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عِمرَان: ٨٥].

نداءُ الله لعِبادِه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النُّور: ٢١]، ما أجملهُ من نداء! فما أجملَ أن يُنادي السَّيِّدُ الكريم عبدَهُ بأحبِّ صفةٍ إليه، ونداءاتُ القرآن كثيرةٌ، قد تبلغ مئة وسبعين نداءً، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [النَّمل: ١٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزَاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المَائدة: ٤١]، ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [العَنكبوت: ٥٦]، نداءاتٌ تدلُّ على عنايةِ الخالقِ جلَّ شَأنه بالإنسان، وتكفي لسعادةِ الإنسانيَّة، ومن هذه النداءات المئة والسَّبعين ثمانيةٌ وستُّونَ نداءً للَّذين آمنوا، منها أربعة وستُّونَ بلفظِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النُّور: ٢١]، ومنها أربعةٌ بلفظِ: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ [العَنكبوت: ٥٦]، وكُلُّها نداءاتٌ ترمي إلى هدفٍ واحدٍ، هو ارتكاز هذه الأُمَّة المؤمنة المسلمة في هذه الأرض، وصِيانتها من عوامل الضَّعف والانحلال الخُلُقِيِّ، وجعَلها خير أُمَّةٍ تأمرُ بالمعروفِ وتفعله، وتنهى عن المنكر وتبتعد عنه، وتُخرج النَّاس من الشَّرِّ إلى الخير، ومن الضَّلال إلى الهدى، ومن الغَيِّ(١) إلى الرُّشد، ومن الظَّلام

(١) الغي: الضلال والخيبة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٥/ ١٤٠).

إلى النُّور، ومن هذه النِّداءات النِّداءُ الَّذي كتبَ الله فيه على المؤمنين الصِّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨]: نداءٌ عذبٌ جميلٌ فيه تكريمٌ وتشريفٌ وتقريبٌ وترحيبٌ، يُناديهم بصفةٍ تَمِيْزُهم من غيرهم، وتربطهم بربِّهم ونبيِّهم، وتَحثُّهم على الاستِجابة والتَّلبية.

والصِّيامُ جهادٌ للنَّفس بمنعها عمَّا فطرت عليه، يتعالى الصَّائمُ بنفسه عن ضرورات الجسد من طعامٍ وشرابٍ، يحبسها عن الشَّهوات والملذَّات، يحملها الصَّبرُ على الجوع والظَّمأ؛ إيثارًا لما عند الله على ما في الحياة الدُّنيا من متاعٍ ولذَّةٍ، والصَّائم لا يكون عبدًا للشَّهوات، بل هو حُرٌّ قويٌّ، يكبحُ[1] جماحَ نَفسه، ولا يفعلُ إلَّا الخير؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ قال: «**من لم يدع قول الزُّور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَهُ وشرابَهُ**»[2]، والإنسانُ كائنٌ حيٌّ يشتركُ مع الحيوانِ بأنَّهُ خُلِقَ من مادَّته من لحمٍ ودمٍ وروحٍ، ولا يكون لائقًا بالصِّفة الإنسانيَّة إلَّا إذا غلبت روحُه العاقلة كيانَه الحيوانيَّ الجاهل، وسيطر عقلُه الصَّالح على شهوته الجامحة، فانتصرت نفسهُ المُطمئِنَّة على نفسه الأمَّارة بالسُّوءِ، تلك هي الإنسانيَّةُ، أو قُل تلك هي الكَمالاتُ الإنسانيَّة، ولا يتَّصف بها الإنسانُ إلَّا إذا قرب من ربِّه، ولا يكون هذا القُرب إلَّا بالطَّاعةِ الَّتي يؤدِّيها راغِبًا راهِبًا مُستبشرًا راجيًا.

ثمَّ تبرزُ الغاية بعد ذلك، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١]، إنَّها التَّقوى

---

(١) يكبح: يقف ولا يجري. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٥٦٨).
(٢) سبق تخريجه.

الَّتي تستيقظ في قلب المؤمن الصَّائم؛ طاعةً لله تعالى، وإيثارًا لِرضاهُ، وتحرس نفس المؤمن من أن تجنَح إلى معصية، أو تهجس له على بال، ألا ترى أيُّها المسلم الكريم قول الرَّسُول ﷺ: «**يَا معشرَ الشَّباب من استطَاع منكُمُ الباءة فليتزوَّج**»(١)؛ والبَاءَة: هي تكاليفُ السَّكن الَّذي يَأوي إليه الإنسان بعدَ الفراغ من عَملِه، «**ومن لم يستطِع فعليهِ بالصَّومِ فإنَّهُ لهُ وجاءٌ**(٢)»، رواه البخاريُّ ومسلم(٣)، ويعلم المؤمنون مقامَ التَّقوى عند الله، ووزنها في ميزان الأعمال؛ لأنَّ التَّقوى غايةٌ تتطلَّع إليها أرواحُهُم، والصَّومُ طريقٌ يصل به الصَّائمون إلى التَّقوى، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَـرَة: ٦٣]، والمتَّقون يفهمون أنَّ العبادات تكليفٌ من الله تعالى، وأداؤها تشريفٌ لهم، فإذا أدَّوها في أوقاتها فرِحُوا واستَبشروا، وأدَّوها وهم راغبون بما أعدَّهُ الله للمُتَّقين، وكُلُّ أملِهم أن تنال هذه العبادة عند الله القبول.

وها هي كتب السُّنَّة النَّبويَّة تُحدِّثنا عن رسولِ الله ﷺ، وكان قد نزل ذات يومٍ من سفرٍ شاقٍّ طويلٍ وقد حان وقت الصَّلاةِ، فقال لمؤذِّنه بلال: «**يا بلالُ، أرِحنَا بالصَّلاةِ**»(٤)، وكان من قوله ﷺ: «**وجعلت قُرَّةَ عينِي في الصَّلاة**»(٥)؛ أي: إنَّها مجلبةٌ للسُّرور، شارحةٌ للصَّدرِ، مُريحةٌ من عناءٍ وتعبٍ.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٥).

(٢) الوجاء: أن ترضَّ أنثَيا الفحل رضًّا شديدًا يذهب شهوة الجماع، ويتنزل في قَطعه منزلة الْخصي. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ١٥٢).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٥،)، ومسلم، رقم: (١٤٠٠).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٢٣٠٨٨).

(٥) رواه أحمد، رقم: (١٤٠٣٧).

وأخبرنا ﷺ أنَّ: «**الصَّومَ جُنَّةٌ**»(١)، والجنَّةُ: هي الوقايةُ يقِي بها المؤمنُ إيمانه من كلِّ ما يخافه عليه، ولا يملك المؤمنُ شيئًا أعزَّ ولا أغلى عنده من إيمانه، فكيف يحميهِ من الجهلِ والفُسُوق والعِصيان؟ كيف يحميه من الصَّخبِ(٢) وسوءِ الخُلُق؟ كيف يحميه في السِّرِّ والعَلن؟ قال رسُول الله صَلوات الله وسلامه عليه: «**الصِّيام جُنَّةٌ**»(٣)، فالمؤمنُ يمنعُ نَفسَهُ من طعامه وشرابه وملذَّاتِه ساعاتٍ طويلةً، يجاهدُ فيها عواملَ الشَّرِّ كلَّها؛ في السُّوق والبيت والعمل، تحيطُ به الفتنُ، وقرينُ السُّوء، ووسوسةُ الشَّيطان، وبصرٌ ينظر إلى المغريات، ونفسٌ تحيط بها الشَّهوات من كلِّ جانبٍ، وكُلَّما دَعاهُ داعٍ منها، صاحَ فيه إيمانهُ: إنِّي صائِمٌ إنِّي صائِمٌ، وهكذا يحمِيه الصَّومُ ممَّا يُحيط به.

أهلًا برِمَضان

نستقبلُ رمضانَ غدًا، وهو شهرُ الإسلام، وصوم رمَضان رُكنٌ من أركانِه، فقد قال رسول الله ﷺ: «**من صامَ رمَضَانَ، إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ لهُ ما تقدَّم من ذَنبِهِ**»(٤)، فهنِيئًا للطَّائعين بفرحة قدومه، وللمُتَّقين بِبُشرى حلوله، وللقائمينَ بلياليه، وللصَّائمين بأيَّامِه، وهنِيئًا لهم الرَّحمة في أوَّله

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٦١٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٢) الصَّخب: الصِّياح والجلبة و شدة الصوت واختلاطه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ١٨٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري، رقم: (٣٨)، ومسلم، رقم: (٧٦٠).

والمغفرة في أوسطه، والعتق من النَّار في آخره؛ فالنَّبيُّ ﷺ ذكر رمَضان، فقال: «**هو شهرٌ أوَّلُه رحمةٌ، وأوسطه مغفِرةٌ، وآخِرُه عتق من النَّار**»(١).

وقد بدأ اليوم رمَضانُ يحملُ أمرَ الله على عِباده المؤمنين؛ إذ قال لهم: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، واستقبلت الأمَّةُ المُحمَّديَّةُ هذه الفريضة برَحابةِ صدرٍ، وإيمانٍ صادقٍ، فحبسوا أنفسهم عن شَهواتِها، ومنعوها من عاداتِها، وفطَموها عن المألوفات؛ التِماسًا لِرضوان الله ﷻ، وطاعةً لأمرِه، وطمعًا فيما أعدَّهُ للطَّائعين من ثوابٍ.

وصَومُ رمَضان فرضٌ على كلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ قادرٍ على الصَّوم، لا فرقَ في ذلك بين شيخٍ أو شابٍّ، خادمٍ أو مخدُوم، ذكرٍ أو أنثى، عاملٍ أو عاطلٍ، عالمٍ أو جاهلٍ؛ لأنَّ الإسلامَ دينُ الجميع، وأركانهُ واجبةٌ على الجميع، وهي «**شهادة أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمَضان والحجُّ لمن استطاع إليه سبيلًا**»(٢)، وليس الإسلامُ لناسٍ دون ناسٍ، ولا لطبقةٍ دون طبقةٍ، ولا تفاضل فيه، «**فلا فضلَ لأحدٍ فيه على أحد إلَّا بالتَّقوى**»(٣)، ففي الشَّهادتين إسلامٌ وإيمانٌ، وفي الصَّلاةِ طاعةٌ لله وأُلفةٌ بين الجماعة، وفي الزَّكاة تحابٌ وتعاونٌ بين المواطنين، وفي الصَّوم رياضةٌ للجسم وترويضٌ(٤) للنَّفس، والحجُّ رابطةٌ كبرى بين الأُمَّةِ، فمن جَحَد(٥) برمضان

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٧٤٣).

(٤) ترويض: ضبط السلوك عن طريق الثواب والعقاب. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختارعمر (٢/ ٩٦٠).

(٥) جحد: الجحود الإنكار مع العلم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٠٦).

وصِيامه أو رُكنًا من تلك الأركان الخمسة فقد كَفر، وليس لهُ في الإسلام نصيبٌ، ومن ترك الصَّوم أو أيَّ ركنٍ غيره وهو عالمٌ بوجوبه غير جاحدٍ لهُ ولا مُستخفٍّ بحكمه فهو عاصٍ، وعليه أن يتوب ويسأل الله لنفسه الهداية والرُّجوع إلى الحقِّ.

والصَّومُ إمساكٌ عن الطَّعام والشَّراب والشَّهوة الجنسيَّة من طلوعِ الفجر الصَّادق إلى غروب الشَّمس بنيَّةٍ، وليس هناك أشدُّ على النَّفس من منعها عمَّا اعتادت عليه، ولكنَّ ذلك على المؤمنين يسيرٌ؛ لأنَّ المؤمنَ يعلمُ يقينًا أنَّهُ بعمله هذا أطاعَ الله المُطَّلع على سرِّه وجهرِه، وأنَّ صَومَهُ لله وحدَه، وهو الَّذي يجزي به، فقد جاء في الحديث أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: كلُّ عملِ ابن آدم لهُ، إلَّا الصَّيام، فإنَّهُ لي وأنا أجزي به**»[١]، وقال تعالى في حديث آخر: «**يدعُ طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجلِي**»[٢].

أيُّها الإخوة المسلمون! إنِّي لأعجبُ كثيرًا من شابٍّ مسلمٍ، لهُ عَقيدتهُ، آمنَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا، ووهَبهُ الله صِحَّةً وقوَّةً وشبابًا، فأعرض عن الصَّلاة والصَّوم؛ لا إنكارًا، وإنَّما تهاونًا واستخفافًا، وفوق كلِّ ذلك أعجبُ مِن قومٍ آخرين وُلِدُوا في بيوتٍ مسلمةٍ من آباءٍ وأمَّهاتٍ مسلمين، وعاشوا حياتهم في محيطٍ مسلم، وإذا سُئِلوا عن دِينِهم قالوا: إنَّنا مسلمونَ، ولستُ آسفًا عليهم، بل أسألُ الله لهم الهداية إلى الإسلام - لكنَّهم إذا دخل رمَضانُ فرُّوا من بلادهم وأهلِيهم إلى بلادٍ أخرى؛ لِيأكلوا ويشربوا ويستمتعوا بشهواتِهم، فإذا أهلَّ هلال العيد رجعوا إلى الوطن آثمين ضالِّين غير غانمين ولا موفَّقين؛ لِيحتفلوا

(١) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٠١٧٥).

بالعيدِ الَّذي لم يطيعوا الله قبله، و﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨]، وأرجو من الله لإخواننا هؤلاء أن يهدِيهم صراطه المُستقيم؛ حتَّى لا يكونوا من أولئك الَّذين قال فيهم بعد الآية السَّابقة من سُورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والإنسانُ حيوانٌ ناطقٌ، فهو في لحمِه ودمِه وتركيبِه الجسميِّ حيوانٌ، وهو بلِسانه وعقلِه إنسانٌ، قال زهير بن أبي سُلمى:

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ(١)

وهو بحكمِ هذا التَّركيبِ بينَ شيئَينِ؛ فشهواتهُ الجسميَّة تنزل به إلى درك الحيوان البهيم، وعقلهُ يعلو به إلى درجة الملائكة، فإن أطاع شهواته النَّفسيَّة غلبته، وتحكَّمت به، فانحطَّ إلى أسفل السَّافلين، وكان كالبهيمةِ بل أضلَّ منها، وإن أهان شهواته وعَصَاها، وحَكَّم عقله على غريزته ارتفع إلى أعلى علِّيِّين، وكان مع الَّذين أنعمَ الله عليهم من العالمين العاملين.

والصَّومُ مدرسةٌ تُعَوِّدُ الإنسان على طاعةِ ربِّه، فالصَّائمُ تقِيٌّ قائمٌ بواجباته؛ فهو ليس عبدَ نفسه ولا أسيرَ شهواته، والصَّائم صابرٌ؛ فلا يذلُّهُ جوعٌ، ولا يأسره عطشٌ، ولا تفقده قيادة شهوته، والصَّومُ جلدٌ وشجاعةٌ؛ فالصَّائم شجاعٌ لا يثور لكلامِ جاهلٍ، أو خطابِ سَفيه(٢)؛ لأنَّ الشَّجاعة

---

(١) انظر: جمهرة أشعار العرب، للقرشي (١/ ١٧٨).

(٢) السَّفه: خفة الحلم أو نقيضه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ٣٩٧).

ثباتٌ، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا أصبح أحدُكُم يومًا صائمًا، فلا يرفُث**[١] **ولا يجهل، فإن امرُؤٌ شاتمهُ أو قاتلهُ، فليقُل: إنِّي صائمٌ، إنِّي صائمٌ**»[٢]، فإذا كان المسلم مأمورًا أن يدفع بالَّتي هي أحسنُ السَّيِّئةَ في كلِّ حينٍ، فهو في رمضان بهذه الصِّفة أولى، فليحفظ جوارحه ما دامَ صائمًا؛ لأنَّ رسُول الله ﷺ أكَّد عليه الأمر بحفظها؛ حتَّى لا يضيع عليه صيامه ويفقد ثوابه، فإذا خاصَمه الجاهلون حَلُم[٣] عليهم، وقال سلامًا، فقد كاد الحليمُ أن يكون نبيًّا، وما أجمل قول رسُول ﷺ: «**إذا رَأيتُم الرَّجل قد أُعطِي زُهدًا في الدُّنيا، وقلَّة منطقٍ، فاقتربوا منهُ، فإنَّهُ يُلقَّنُ الحكمةَ**»[٤].

أمَّا من لم يدع قول الزُّور والعمل به فلم يصم، وإنَّما جاع وعطش فقط، فلم يكن لله ﷻ حاجةٌ في جوعِه وعطشِه؛ لأنَّه لم يصن صِيامه، ولا كان مُحتسبًا فيه؛ لأنَّ قول البُهتانِ جِنايةٌ، وشهادة الزُّورِ كبيرةٌ، والعمل بها يُحَطِّم الأُسَرَ، ويهدم البيوت، ولا يقربهما إلَّا مُجرمٌ، وبهذا يكون قد حُرِمَ طعمَ الإيمانِ وحلاوته، ولم يستنشق رائحة الإسلام وطِيبه، و﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: ١٠٥]، ومن لم يكُفُّوا الأذى ولم يضبطوا جَوارحهُم عن اقتراف الآثام فأولئك الَّذين لا يقبل الله منهم عملًا، ولا يفيدهم ثوابٌ، وقد قالَ رسول الله ﷺ: «**من لم يدع قول الزُّور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَهُ وشرابَهُ**»[٥].

---

(١) الرَّفث: كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٢٤١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) حلم: صبر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٣٤٣).

(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٤١٠١).

(٥) رواه مسلم، رقم: (١١٥١).

فيا أيُّها الصَّائِم! لا تشغل نفسك بما لا يفيد، واعلم أنَّك ما دمت صائمًا فأنت في طاعة ربِّك، قريبٌ مِنه، فلا تُذهِب هذا القُرب وتُضيِّعه بِزلَّةٍ[١] من لسانِك، أو هَفوة[٢] من جوارِحك، والصَّائم إن نام أو صحا فهو في عبادةٍ؛ لأنَّه صائِم في صَحوتِه ونومه، وهو إن عمل أو استراح كان في عبادة، وإن باعَ أو اشترى فهو في عبادةٍ، وهو في بيته ومَسجدِه ووظِيفته في عبادةٍ؛ لأنَّه في كلِّ حالاتِه هذه صائِم، والصَّومُ عِبادةٌ، فعليِه إذن أن يحفظَ لسانه، ويكظم[٣] غيظه[٤]، ويحلم ويعفو، ويصفح ويعرض عن الجاهلين، وعليه ألَّا يكون من أولئك الَّذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**كم من صائم ليس لهُ من صِيامِه إلَّا الجُوعُ، وكم من قائمٍ ليس لهُ من قيامه إلَّا السَّهرُ**»[٥].

أمَّا أولئك الَّذين حفظوا صيامهم، وصانوا فيه ألسِنَتهم عن الكذب والغيبةِ والنَّميمة وقول الزُّور، وصانوا أسماعهم وأبصارهم عن سماع ما حرَّم الله عليهم ورؤيتِه، وصانوا جوارحهم جميعها، ونجحوا في التَّجربة، وخرجوا منها ناجحين مُهذَّبين مصقُولين، فأحرى بهم أن يدخلوا في عِدادِ

---

(١) زلَّ: وقع في أمر مكروه، أو أخطأ خطأ فاحشًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ١٢٩).

(٢) هفا الرجلُ هَفوةً: زلَّ، وهي الهفوة للزلة والسقطة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٣٠٦).

(٣) كظمه، يكظم: رده وحبسه، واحتمل سببه، وصبرعليه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٣/ ٣٦٢).

(٤) الغيظ: الغضب، وقيل: الْغيظ غضب كامن للْعاجز، وقيل: هو أشد من الغضب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٤٥٠).

(٥) سبق تخريجه.

أولئك الَّذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «**من صامَ رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ لهُ ما تقدَّم من ذنبِهِ**»(١).

من ثمراتِ الصَّوم

الصِّيام فرضٌ إلهيٌّ، فَرضه اللهُ بالآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]، فجاء هذا الأمرُ لأُمَّةٍ مُجاهدةٍ، والجهادُ خيرٌ يأتي بعد مكروهٍ، وكلُّ فائدةٍ يطلبها الإنسانُ لا بدَّ لِتحصِيلها من تعبٍ ومشقَّةٍ، والمسلمون حين يقاتلون أعداءهم يطلبون بهذا القِتال نعيم الجنَّة، والسُّؤدد(٢)، والمجد في الحياة، والصِّيام جِهاد نفس، وهو أشدُّ وأقوى من جِهاد العدُوِّ؛ ولهذا قالَ الله ﷻ في حديث قُدسيٍّ: «**الصَّومُ لي وأنا أجزي بِه**»(٣)، فكان أجرُ الصَّائم بغير حسابٍ، والصِّيام فرض بعد القِصاص(٤) لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البَقَرَة: ١٧٩]، فكان القِصاصُ وسيلةً للتَّقوى، ثمَّ كَتب اللهُ علينا الوصِيَّة وجعلها حقًّا على المتَّقين، ثمَّ ثلَّث بالصِّيام، وقال فيه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١]، والصَّوم تهذيبُ الإرادة الإنسانيَّة، وفيه كمالٌ للشَّخصيَّة الإنسانيَّة؛ لأنَّ النَّفس في هذا التَّهذيب والكمال تعلو عن

(١) سبق تخريجه.

(٢) السُّؤدد: الشرف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٢٢٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) القصاص: قَتل القاتل بدل القتيل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ٣٧٢).

الاستجابة إلى ضرورات الجسد واحتمال ضغطها وثقلها بمقاومة إراديَّةٍ واعِيةٍ تُسمَّى شرعًا: الإيمان، تترفَّعُ عن الحاجات الضَّروريَّة كالطَّعام والشَّراب، وتترفَّع عن الشَّهوات النَّفسيَّة عند الشَّبابِ خاصَّة، ويُسمِّيها الصُّوفيَّةُ رياضة، والصَّومُ مجالٌ لاختبار مدى إيمان الإنسان الَّذي لا يعلم أحد بما يفعله؛ لأنَّ الصَّومَ سرٌّ بين العَبد وربِّه، لا يطَّلع عليه أحدٌ إلَّا الله، فهو مُتَّصلٌ بالله في سرِّه إذا صام، مُستسلمٌ لهُ، مؤثرٌ بما عِنده من ثوابٍ؛ ولهذا قال ﷺ: «**من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لهُ ما تقدَّم من ذَنبهِ**»[1]، ويحضرُني في هذا الموضوع حديث رسول الله ﷺ: «**يَا معشرَ الشَّباب من استطَاع منكُمُ الباءة فليتزوَّج، ومن لم يستطِع فعليهِ بالصَّومِ فإنَّهُ لهُ وجَاء**»[2]، والباءة: تكاليف الزَّواج من مسكنٍ وكساءٍ وغذاءٍ وغير ذلك من مُتطلبات الحياة.

ويُخبرُنا الصَّادق عليه السلام عن فرحتين يفرحهما الصَّائم فيقولُ: «**للصَّائم فَرحتان يفرحُهُما: إذا أفطر فرح، وإذا لَقِيَ ربَّهُ فَرِحَ بصومهِ**»[3]، «**والصِّيامُ جُنَّةٌ**»[4]؛ ومعنى الجنَّة: الوِقاية، والجنَّة لُغَةً آلةٌ مصنُوعةٌ من الجلدِ أو من ظهرِ السُّلحفاة، يَرُدُّ بها المُقاتلُ عنهُ ضرب السَّيف أو الرُّمح، وتسمَّى بالتُّرس[5]، فالصَّائمُ دائمًا في حماية صومه، يحميه صومه من الجهل مع الجاهلين، أو أن يصخب مع الصَّاخبين، وقد نهى الرَّسُول ﷺ عن الرَّفَثِ

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٩٠٤)، ومسلم، رقم: (١١٥١).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) التُّرس: من السلاح، المتوقَّى بها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٤٧٧).

والصَّخبِ والجهلِ والمقاتلةِ والسَّبِّ[١]، فقال: «**إذا أصبح أحدُكم يومًا صَائِمًا، فلا يَرفُث ولا يَجهَل، فإن امرُؤٌ شاتمهُ أو قاتلَهُ، فليقُل: إنِّي صائمٌ، إنِّي صائمٌ**»[٢].

والصِّيام فريضةٌ خالدةٌ في كلِّ دينٍ، تجمع شمل الأُمَّة على طاعة الله، وتتآلفُ عليها القُلوب، وتصل النَّاس بعضهم ببعض، كالصَّلاة تمامًا؛ ليتَّصلوا بالله، ويستشعروا بها خشيةً لله، وتجمعهم في المسجد على حبِّه، وإنَّكَ لتشعر أنَّ الصِّيامَ يُوَلِّدُ في الصَّائم فضيلةَ الجود والكرم، فتراهُ دائمًا يمدُّ يد المساعدة لمواطنيه الفقراء، ويُحِبُّ أن يشاركوه في طعامه وشرابه، وتُخبرنا السُّنَّة النَّبويَّة: «**كان رسولُ اللَّهِ ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكان أجود ما يكون في رمَضان حين يَلْقَاه جبريل**»[٣].

أمَّا فوائد الصَّوم بالنِّسبة إلى الأسرةِ فهي كثيرةٌ، فالأسرةُ تجتمعُ في رمَضان أكثر من اجتماعاتِها في غيره، فتجتمعُ مساءً، وقبل الإفطارِ، وساعةَ الإفطار وبعده، وفي السَّحر عند السَّحُور، وتكون دائمًا هذه الاجتماعات حافلةً بالأحاديث العذبة الَّتي لا يمكن أن تحصل إلَّا في رمَضان.

وأحبُّ أن أتكلَّم قليلًا عن أُسرنا في الكويت في زمننا هذا، وأقارن بينها وبين أُسر أزمان مضت، فقد كانت في الماضي تتركَّز في محيطٍ واحدٍ، وتجتمع عند الغداء والعشاء والإفطار، ولكنَّ التَّشتُّت الَّذي حصل من توزيع هذه الأسر في المناطق المتباعدة لا أقول فكَّكها، ولكن قلَّل

(١) السَّبُّ: الشتم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٣٤).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) رواه البخاري، رقم: (٦)، ومسلم، رقم: (٢٣٠٨)، واللفظ للبخاري.

اجتماعاتها، وباعد بين زياراتها نتيجة تخفيف وطأة المحبَّة، وعندنا مثلٌ في الكويت أرجو ألَّا يتحقَّق بين الأسر، يقول المثل: من غاب عن عيني سلا عنه بالي، وإذا قلَّ السُّؤال قلَّ الجواب.

نحن نريد أن نقضي على التَّفكُّك والتَّشتُّت؛ لهذا أرجو مُلِحًّا أن تجتمع الأسر وتتقارب وتتزاور، وذلك كُلُّه صلةُ رحم، والدِّين الإسلاميُّ أمرنا بصلةِ الرَّحم، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، والرَّسول ﷺ قال: «**من سَرَّهُ أن يُبسَطَ لهُ في رزقِه، أو يُنسَأَ**[١] **لهُ في أثره، فليصل رحمهُ**»[٢]، وفي رمضان مجالٌ للاتِّصال، وفي الأعيادِ مجال للتَّزاور، وفي طاعة الله تعالى مجالٌ للطَّائِعين، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النُّور: ٥٢].

(١) النَّسء: التأخير. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٥/ ٤٤).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٠٦٧).

أحاديث عن الحجِّ

شعائرُ الحجِّ

اليوم يوم الحجِّ، وقد قال رسول ﷺ: «**الحجُّ عَرفةٌ**»[١]، وأبدأ حديثي هذا بشيءٍ يفيدُ السَّامع المسلم.

أخي المسلم! جاء دينُ الإسلام يحمل دعوةً عالميَّةً، فأوَّل آية نَزلَت من كتاب الله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العَلق: ١]، والعلمُ للعالم كُلِّه، لا تختصُّ به أمَّةٌ دون أُمَّةٍ، ويبدأ كتابه بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النَّمل: ٣٠]، ورحمةُ الله وسعت كلَّ شيءٍ، وفي فاتحة الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزُّمَر: ٧٥] كلمةُ العالمين تشمل العالم جميعًا، وفي نِدائِه (حيَّ على الفلاح) الفلاحُ لا يختصُّ به أحدٌ دون أحدٍ، والصَّلاةُ تنظيمٌ جماعيٌّ، ومساواةٌ، وعدم تفرقة، وتسويةٌ في الصُّفُوف، فلا فرق بين إنسانٍ وإنسانٍ، والزَّكاةُ حقٌّ معلومٌ لكلِّ محرومٍ، تذوبُ بها الفَوارقُ، وتبذلُ بوجوبها المعونةُ من المُوسر للمعسرِ، والبذلُ محبَّةٌ، والإحسانُ وسيلة ألفة ووفاق، والحجُّ مؤتمرٌ يأتي إليه المؤمنون من أنحاء العالم شتَّى، ومن كلِّ فجٍّ[٢] عميقٍ، وشريعةُ الإسلام لا تتعصَّب لجنسٍ دون جنسٍ، ولا لأُمَّةٍ ضِدَّ أمَّةٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحُجرَات: ١٣].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٨٨٩).

(٢) الفج: الطريق الواسع بين جبلَين. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٣٤٠).

وهكذا كان الإسلامُ دعوةً عالميَّةً في شريعتها، اليسر في شعائرها، والإنسانيَّة في نظامها، سَلِيمة في عَقيدتها وواقعِها وشكلها وموضوعها، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والحجُّ رُكنٌ من أركان الإسلام، وشَعِيرةٌ[١] من شعائِره، يتطلَّبُ القيام بها بذلَ المال والنَّفس، قال رسُول الله ﷺ: «**والحجُّ المبرُورُ ليس لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّةُ**»[٢]، و«**من حَجَّ هذا البيتَ، فلم يرفُث، ولم يَفسُق**[٣] **رجع كيوم ولدتهُ أُمُّهُ**»، رواهما البخاريُّ ومُسلم[٤].

والحجُّ إقبالٌ على الله، وسُمُوٌّ بالرُّوح، وبُعدٌ من الدُّنيا ومشاغِلها وزينتِها وطيِّباتِها، ومساواةٌ بين عبيد الله المؤمنين؛ باللِّباسِ، وبالامتناع عن المحظورات، وبالوقوف في صعيدٍ واحدٍ لغايةٍ واحدةٍ، وباحتسابٍ لله، وبإخلاص نيَّةٍ لا يُخالطها رياءٌ[٥] ولا سُمعةٌ.

وأيُّ مظهر أجلُّ وأروعُ من تجمُّع طوائف من البشر، ليست بينهم أرحام ولا أنساب، اختلفت ألوانهم وتعدَّدت لُغاتهم، اجتمعوا على صعيدٍ واحدٍ، وقد تركوا دُنياهم وأعمالهم، وفارقوا الأهلَ والمالَ

---

(١) الشعيرة: مفرد الشعائر، أعمال الحج، وكل ما جعل عَلَمًا لطاعة الله عز وجل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ١٩١).

(٢) رواه البخاري، رقم: (١٧٧٣)، ومسلم، رقم: (١٣٤٩).

(٣) الفُسوق: الخروج، فسق عن أمر ربه؛ أي: خرج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٦/ ٣٠٣).

(٤) رواه البخاري، رقم: (١٨٢٠)، ومسلم، رقم: (١٣٥٠)، واللفظ للبخاري.

(٥) الرياء: التظاهر بخلاف ما في الباطن. انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (٢/ ٨٤٠).

والولدَ، ونَسُوا أحقادَهم وأضغانَهم[١] ونزواتِهم وشهواتِهم؟! كُلُّهم جاء مُمتثِلًا لأمرِ الله جلَّ شَأنه، مُقرًّا بوحدانِيَّته، يتضرَّعُ[٢] إليه، ويهْتِفُ باسمِه، ويذكرهُ بالتَّقديسِ والتَّسبيحِ والإكبارِ والإجلالِ، ويلهجُ[٣] بالثَّناء عليه قائلًا: لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك.

وفي الحجِّ زيارةُ البيت العَتيق الَّذي شَرَّفهُ اللهُ بأن أضافَهُ إلى نَفسه، فهو بيتُ الله الَّذي جعلَهُ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البَقَرَة: ١٢٥]، و﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البَقَرَة: ١٢٥]، وفي الطَّواف بالبيت صفاءٌ للنَّفسِ وإعدادٌ لها لتكون أهلًا للسَّعادةِ القُصوى في الدُّنيا والآخرةِ، فشعائر الحجِّ تُثيرُ في النَّفس ذكريات جميلة ترتبِطُ بتاريخنا الإسلاميِّ، والحجُّ يُعطي هذه الذِّكريات ظِلالًا تَجعلُها شاخِصةً في العيون، ماثلةً[٤] في الأذهان، والمسلمُ يهفو دائمًا إلى ذكريات دينيَّة، وتَحِنُّ نفسهُ إليها، ويتَّخذُ من هذه الذِّكريات حافزًا قويًّا يسمو به، ويدفعهُ إلى مستقبلٍ هو أزكى وأهدى من حاضرِه.

أسألُ اللهَ أن يوفِّقَ المسلمين جميعًا إلى أُلفةٍ تجمعُهم، وكلمةٍ تُوحِّدهم، وهدايةٍ ترشدُهم إلى الصِّراط المُستقيم.

---

(١) الأضغان: الحقد. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٥٥).

(٢) تضرَّع: تذلل وتخشع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٨/ ٢٢١).

(٣) لهج: ولع بِهِ واعتاده. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٣٥٩).

(٤) ماثلة: قائمة، منتصبة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٣٤٤).

الأعيادُ الإسلاميَّة

مَشاعرُ المُسلمين في العيدِ

مُنذُ وُجِدَ الإنسانُ على الأرض وهو في كدٍّ[١] وكبد[٢]، يلتمسُ أسباب السُّرور والفرح دائمًا؛ تهوينًا من وطأة الكَدِّ وما يعانيه، وجاء الإسلام بأعياده، أعيادِ المسكين والفقير والبائِس والمحرُوم والعواطف الإنسانيَّة النَّافعة والحبِّ والرَّحمة، أعياد تُوقظُ الضَّمير، وتُحيي النَّفس، وتسمُو بالرُّوح سُموًّا يرقى بها إلى علِّيِّين، وأيُّ نفس إنسانيَّة لا تفرح بتغلُّبها على البُخل والشُّحِّ؟! وأيُّ امرئٍ لا يهنأ بمساعدة المنكوبين، ومسح رأس اليتيم، وإعانة البائسين؟! ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

جاء الإسلامُ بعيدَيه بعد أداء رُكنين من أركانِه؛ فعيد الفطر يكون بعد الانتهاء من فريضة الصَّوم، فإذا أفطر النَّاس عيَّدوا حامدين الله على أداء ما أوجبهُ عليهم، سائِلين أن يمنَّ عليهم بالقبول والعودة لأمثاله، موفَّقين إلى طاعة تُؤدَّى، وقبول يُمنح، وعيد الأضحى يأتي بعد الفراغ من أداء الرُّكن الخامس من أركان الإسلام وهو الحجُّ، فمن حجَّ عَيَّد فَرِحًا بأداء تلك الفريضة، حامِدًا ربَّه على التَّوفيق بتيسير المسير، وسائلًا إيَّاهُ القبول كما سألَهُ في عيد الفطر، ومن لم يُكتَب له أن يحجَّ سأل الله أن يمنحهُ الاستِطاعة، ويقبلهُ وافدًا مع الوافِدين عليه في المُستقبل.

---

(١) الكدُّ: الشدة في العمل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ٩٧).
(٢) الكبد: الشدة والضيق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ٩٠).

وشَرَعَ اللهُ العيدين؛ ليفرح المسلم بإتمام الفريضة، وإكمال العبادة، ولكيلا يندفع المسلم في الفرحِ واللَّهو، فيقع في الحرَام.

يبدأ نهارُ المُسلمِ بالتَّكبير قبل الصَّلاة؛ لِيستشعرَ عظمةَ الله وكِبرياءه، ثمَّ بعد الصَّلاة يخطُبُ الإِمامُ في جماعته يُذكِّرهم بتقوى الله وطاعته، ومواساة المُعسرين، وإطعام الجائعين، والتَّفريج عن المكروبين، ويكون العيدُ شاملًا النَّاسَ جميعَهم، فيفرحون، ويأكلون، ولا يستقلُّ به غنيٌّ، ولا يُحرَمُ مِنه فقيرٌ.

والأعيادُ تَهانٍ وزِياراتٌ أراد بها الإسلامُ نشرَ المحبَّة والتَّآلف بين المسلمين؛ لأنَّ المحبَّةَ ولاءٌ، والوَلاء تعاونٌ، والتَّعاون قوَّةٌ، فلا عداء ولا بغضاء ولا حسد ولا حِقد، والنَّاسُ كلُّهم إخوانٌ كما أمرهم الله، تجمعهم أخوَّةُ الإسلامِ، وهم مُتحابُّون كما أراد الله، تربطُ بين قلوبهم روابط الإيمان، فهم كما أراد الله لهم إخوةٌ، وكُلُّ فردٍ مِنهم عضوٌ في مجتمعِه الصَّغير؛ مجتمع القَرية، وفي مجتمعِه الكبير؛ وهو الوطن الإسلاميُّ، لا يحيون إلَّا بحياةِ المجموعِ، ولا يَسعدون إلَّا بسعادة المُجتمع، تتواصلُ قُلُوبهم باسم الإسلام، وتربطُ بينهم رابطة لا إله إلَّا الله مُحمَّدٌ رسُول الله ﷺ.

والدِّينُ الإسلاميُّ لم يكن يومًا من الأيَّام جافًّا أو جامدًا أو مُتشدِّدًا، بل جاءَ بِيُسْرٍ يسايرُ العَقل، فيجمع بين المصالحِ جميعِها، وما يصلح البدنَ والوطنَ والدُّنيا والآخرة، ويربطُ بين النَّاسِ بحسن المعاملة، ويصلح الأخلاقَ، فقد حرَّم الرَّذائِل، وأوجَبَ الفضَائِل، وأباحَ من الزِّينة كلَّ مباحٍ، ومن اللَّعبِ ما يُقوِّي البدن؛ لأنَّ العقلَ السَّليم في الجسمِ السَّليم، فأمر بالسِّباحةِ وركوب الخيل، فقد قال ﷺ: «**علِّمُوا أبناءكم**

السِّباحة والرَّمي»(١)، وأمر بالسَّبق(٢) والجري والرِّماية ورياضة الأجسام، وبكلِّ ما تشتدُّ به العَزائمُ؛ حتَّى يقوى البدن، ويرتاح الفكر، ويعود الإنسانُ إلى عملِه بشوقٍ وارتياحٍ.

نِعمةُ العيد

العيدُ كلمةٌ جميلةٌ، يُحِبُّها الكبارُ كما الصِّغار، لذيذٌ لفظها على اللِّسان، لَطِيفٌ صَداها في الآذان، وللعيد أيضًا تحيَّةٌ عَذبةٌ، يتبادلها الصِّغارُ والكبارُ، والنِّساء والرِّجال، والخاصُّ والعامُّ، والعيدُ جميلٌ في مَعناهُ، رائعٌ في مَغزاه، يترقَّبه الإنسان، لِما لَهُ من جلالٍ وبهجةٍ، ولِما ليومه من إشراقةٍ ونضارةٍ، فالنَّاس بعدَ إشراقِ شمسهِ تغمرهم السَّعادة، وتَعمُّهم الفرحة؛ لأنَّهم في يوم العيد تلتقي أرواحُهم وأشباحُهم، ويحيا الأمل، وتصفو القُلُوب، وتمحى الضَّغائِن(٣)؛ من أجل ذلك كان العيد تعارفًا وتآلفًا وتزوارًا وتواصلًا، يصل الفردُ أواصلَ رحمه، فيزورُ الصَّديقُ صَديقه، والقريبُ قريبَه، وقد تَبلى الرَّوابط بين الأقرباء لسببٍ، وتنقطع العلاقات بين الأصدقاء لأمرٍ، فيأتي العيدُ بزياراتِه فيُقوِّي الرَّوابط ويُعيدُ العلاقات، وقد تعودُ الحياة إلى مجاريها أسهل ممَّا كانت وأصفى ممَّا

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٨٢٩٧).

(٢) السبق: القدمة في الجري وفي كل شيءٍ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ١٥١).

(٣) الضغائن: الحقد الشديد والعداوة والبغضاء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٣٣٠).

سلفت، فما أجمل العيد الَّذي يجمعُ الشَّمل ويؤلِّف بين القُلوبِ! وما أروعَ ذكرى العيد لمن كان لهُ قلبٌ! وما أكرمَ طلعتهُ لمن كانت لهُ بَصيرةٌ!

وليس العيدُ أن تلبس اللِّباس الجديد، فإنَّ الجديد للأطفال، ولكنَّ العيدَ أن تُنفِّس عن مكروبٍ كُربتَهُ، وتمسح عن بائسٍ دمعتَهُ، وتعزِّي محزونًا، وتُواسي منكوبًا، والعيدُ لمن يحمل في صَدره قلبًا رحيمًا، وضميرًا مُهذَّبًا، ونفسًا رقيقةً؛ لأنَّ العيد محبَّةٌ، ومن سَكَنَ الحقدُ قلبَهُ لم يعرف حلاوةَ العيدِ، ومن نَخَرَ الحسدُ والشُّحُّ لُبَّه[١] ما ذاقَ لَذَّةَ طعمه، والعيدُ لك يا من أدخلت السُّرور إلى قلب يتيمٍ، وأزلت اللَّوعة عن نفس ثكلى[٢]، وكفكفت دمعة البائس المحروم، العيدُ لك يا من كسوت عاريًا، وأطعمت جائعًا، وسترت مكشوفًا.

ولنا - نحنُ المسلمينَ - عيدانِ، كُنَّا قبل نحو سبعين يومًا في عيد الفطر، فرحنا به بعدَ صيام رمضان، وكيف لا نفرح وقد قال ﷺ: «**للصَّائم فرحتان يفرحُهُما: إذا أفطر فرح، وإذا لَقِيَ ربَّهُ فَرِحَ بصومهِ**»[٣]؟! ونسأل اللهَ تمام النِّعمة علينا بالفرحة الثَّانية؛ وهي عيدُ النَّحرِ الَّذي جاءنا بعد أن أدَّينا فريضة الحجِّ المُقدَّسة ووقفنا في عرفات يومَ عرفة، ودعونا الله تعالى أن يُكمل علينا نعمتهُ، ويجزل عَطاءهُ وفضلهُ، ويغفر لنا الزَّلَّات[٤]، ويهدينا سواء السَّبيلِ، ويُصلِح الحال والمال، ويمحو البغضاء، ويُزيل العداء، وينشر الصَّفاء، ويُنصرنا على الأعداء، وأفضنا

(١) اللبُّ: ما جعل في قلْبه من العقل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ١٨٧).
(٢) الثكل: الموت والَهلاك وفقدان الحبِيب والولَد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ١٦١).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الزَّلَّة: الْخطيئة والذنب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ١٣١).

من عرفات فذكرنا الله الَّذي هدانا عند المشعر الحَرَام[١]، وها نحن هؤلاء والحمدُ للهِ تعالى نقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠١]، ونسألُهُ أن يستجيب لنا كما وعد، واليوم ونحن في مِنى نذكرُ نزول الآيَة الكرِيمة على النَّبيِّ الكريم ﷺ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، إنَّها نَزلت يوم عيد الأضحى في مِنى، والرَّسُول ﷺ وحُجَّاج المُسلمين في حجَّة الوَداع.

أيُّها الإخوة المسلمون! إنَّ أعيادنا أعيادٌ دِينيَّة، تتَّصل بفرائض دينيَّة، فعيدُ الفطر بعد الرُّكن الرَّابع من أركان الإسلام: صومِ شهر رمَضان، وعِيدُ النَّحر بعد الرُّكن الخامس: الحجِّ، إنهَّا أعيادٌ مَفروضةٌ فَرَضَها الله العليم الحكيم، فما أجملَ أيَّام العيد! ومَا أصفى لَيَاليه! وما أسعد المسلمين بالعيد لو أنَّهم عادُوا إلى الإسلام! فتَجمعهم رَوابطهُ، وتؤلِّف بين قُلُوبهم تَعاليمه، وتُثقِّفهم آياته وأوامره، وتوحِّد بين وجهاتِهم نصائحه؛ حتَّى يكونوا يدًا واحدةً، يدفعون الأعداء عن أراضيهم، ويطهِّرون تُرابَها من أرجاسهم[٢]، حتَّى يكونوا حقًّا كما أرادَ لهم الحقُّ أن يكونوا ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، فعندَ ذلك يستحقُّون النَّصرَ، وتكون لهم العِزَّة، فيحيا بهم المجد الَّذي اندثر، و«لن يصلُح آخر هذه الأمَّةِ إلَّا بما صلح به أوَّلُها»[٣].

(١) المشعر الحرام: هو مزدلفة، وسُمِّي بذلك لأنَّه معلم للعبادة وموضع. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٤١٤).
(٢) الرِّجس: القَذر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٩٤)
(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيميَّة (٢٠/ ٣٧٥).

أُمنِيَّة مُسلمٍ في عِيدِه

العيدُ في الإسلام شِرعَةٌ، كما أنَّ الصَّومَ والحجَّ شِرعةٌ، والعيدُ ليس للَّاهين عن أُمَّتِهم، الغافلين عن بلادهم وإنسانيَّتهم، وإنَّما هو عيدٌ لأولئك الَّذين تُثقِلُ كواهلَهم هُمُومُ أُمَّتهم، وتملأُ فراغَهم مشاغِلُ الاستعدادات لمستقبلِ شُعُوبهم وبلادهم، وهم مع كُلِّ ذلك تملأُ قُلُوبَهم خشيةُ الله، وتقودُ أخلاقُ الرُّجولةِ تصرُّفاتِهم الَّتي ربَّاهم عليها الإسلام.

أيُّها الإخوة! إنَّ العيد يكون بمعناه الَّذي شَرَعَه لنا الإسلام يومَ تسري في دُنيا أُمَّتِنا روحُ اليَقظة المُؤمنة بمبادئ دِيننا، وتتمثَّلُ في دعاة الإصلاح، وروَّاد النَّهضة، والحركةِ الدَّائبةِ الواعيةِ الدَّاعيةِ للعودةِ الصَّادقةِ لسلوكِ طريقِ الإحساسِ والشُّعور بأنَّ ظمأَ الأُمَّة إلى الحياة الكريمة لا يرويه إلَّا الإسلامُ، بالعِزَّة والكرامة والحكمة والزَّكاة، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢].

نعم، بُعِثَ مُحمَّدٌ ﷺ مُعلِّمًا ومُربِّيًا، فربَّاهم أفرادًا، وكوَّنهم جماعات، وأعدَّهم أجيالًا، وصلوا بِمعاني الإسلام إلى قمَّة المجد، فعُزَّت بهم أُمَّة العرب وأعزَّت، واهتدت من غواية وهَدَت، فعلَّمت من جهلٍ، وأرشدت من ضلالٍ، وقادت إلى الحقِّ، ورَعت بالرِّفقِ.

إنَّ أُمَّتنا - أيُّها العرب - تُعاني ما تُعانيه من ويلات كُلُّنا نعرفُها، هي ويلاتٌ فرديَّة، وكوارثُ عائليَّة، ومصائِب اجتماعيَّة، بل أكثر من اجتماعيَّة، هي في مُجملِها نتيجة جهلنا بدِيننا، واتِّباعِنا سنن غيرنا،

وتقليدنا من غلبَنا على أمرنا، كُلُّنا - أيُّها الإخوة - نَشكو من هذه الويلات، ونأملُ من المُصلحين علاجًا لها، ولو لجأنا إلى كتاب دِيننا الكرِيم كتابِ الله الَّذي نزل على محمَّدٍ ﷺ لوجدنا فيه العلاج لهذه الويلات كلِّها ولغيرها، فلماذا لا نَلجأ إليه؟ ولماذا يُعرِضُ عنه مَن نثق بهم من دُعاة الإصلاح وروَّاد النَّهضة؟

لماذا لا نستأصل الدَّاء بالعلاج الَّذي نؤمنُ بأنَّهُ يفيدُ الفرد والمجتمع، ويرتفع بالفرد ليعيش حُرًّا عزيزًا كريمًا؛ فيأخذ مكانَهُ في بناء جماعة جديرٌ بها أن تكون على مستوى عِزَّة الأُمَّة، ويرتفع بالأُمَّة سالمة من داء الحَسد وسقم الخِلاف ووبَاء الفُرقة؛ لِتأخذَ مكانها بين الأُمَم وتكون قويَّة بالألفة المُتماسِكة، ويقودُها هداتها إلى عيشٍ كريم وحياةٍ هانئةٍ ومستقبلٍ زاهرٍ سعيدٍ؟! فيومَئذٍ يكون العيدُ للأُمَّةِ شِرعةً سماويَّةً، تسمو بها إلى مُستوى السُّموِّ بين الأُمَم، ويكون العيدُ للأُمَّةِ عيدًا سعيدًا تتشابكُ الأيدي فيه بالمحبَّةِ الصَّادقةِ، وتكون الأعيادُ مُباركةً، والأيَّامُ سعيدةً، ويصدقُ المُهنِّئُ إذ قال لأخيهِ: عِيدُكم مُبارك، ويصدقُ المجيبُ إذا ردَّ عليه بقوله: أيَّامكم سعيدة.

تحيَّةٌ وحدِيثٌ عن عيدِ الفطر

أبدأُ هذا الحديث بقصَّةٍ قصيرةٍ حدثت ليلةَ عيد الفطر المُبارك، وكانت موضع تفكِيرٍ وبداية لهذا الحديث، تبدأُ القصَّة ونحن على مَائدة الإفطار مجتمعونَ في اليوم التَّاسع والعشَرين من رمضان، إذ دخل علينا أحدُ الأحفاد وبيده حاجةٌ من حاجات العيد، وهو مسرُورٌ بها، وصَرخَ في

القومِ: عيدكم مُبارك. قالها بلهجةِ الطُّفُولةِ البريئةِ؛ بلهجةِ من لم يعرف الهمَّ، ولا جرَّب الشَّقاء، فأجابتهُ الأُمُّ بحنانِ الأُمُومة وعاطفتها: أيَّامك سعيدة.

قالتها بلسانها وقلبها، وانتهت القصَّة عند هذا الحدِّ، ولكنِّي بتُّ ليلتي أفكِّرُ في تحيَّة هذا الطِّفل وردِّ أُمِّه عليه: (عِيدُكم مُبارك، أيَّامُكَ سعيدة)، أُفَكِّرُ في هذه التَّحيَّة يقولهُا الطِّفلُ والكبيرُ والمرأةُ والرَّجلُ والسَّيِّدُ والخادمُ، فهل نحن اليوم في عيدٍ مُباركٍ وأيَّامٍ سعيدةٍ وأُمَّتُنا في حالٍ لا يُرضِي الله؟

إنَّ الله أرادَ لهذه الأُمَّة أن تكون خير أُمَّةٍ؛ أرادَها أن تأمر بالمعروف فلم تأتمر به ولا أَمَرَت، وأرادها أن تنهى عن المنكر فلم تنتهِ عنه ولا نَهَت، وأرادها أن تكون مجتمعةً فتفرَّقت، ومُتناصرةً فتناحرت، وقويَّةً فضعفت، ورشيدةً فغوت، فمتى إذن يكون العيدُ مُباركًا والأيَّامُ سعيدة؟

إنَّهُ دعاءٌ إلى الله الَّذي شَرَعَ لهذه الأُمَّة هذا العيدَ أن يجعلَه مُباركًا، ويجعل أيَّامه حافلةً بالسَّعادة، ولندعُ الله مُجِيْبَ دعوات الدَّاع إذا دعاه أن يجعلَ العيد مباركًا والأيَّام سعيدةً.

والعيدُ مهرجانٌ جامعٌ تُنشَرُ فيه الفرحة، وتعمُّ البهجة، وهو في الإسلام شريعةٌ، كما أنَّ الصَّومَ والحجَّ شريعةٌ، واحتفالنا - نحن المسلمين - بالأعياد شُكرٌ لنعم المنعم، فهي من باب: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، إنَّها شكرٌ لله الَّذي وفَّقهم وأعانَهم على أداء الطَّاعة الَّتي قبل عيد الفطر، وهي صيامُ رمضان، وأداءِ طاعةِ حجِّ البيت قبل عيد النَّحر.

إنَّهُ موكبٌ مُباركٌ يجتمعُ النَّاسُ لهُ في أحبِّ البقاع إلى الله، ﴿فِي بُيُوتٍ

أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النُّور: ٣٦]، يُسبِّحون ويُكبِّرون باسم الله، ويحمدونه ويرفعون أصواتهم بالنَّشيد الإلهيِّ: اللهُ أكبر اللهُ أكبر اللهُ أكبر، لا إله إلَّا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

يحضر المسلمون هذا الاجتماع، ولا تُمنع المسلمات عن حضورِه، فتعمُّ البهجةُ، وتنتشر الفرحة بين المواطنين كلِّهم.

والإسلامُ يؤلِّفُ بين القُلُوب، ويلمُّ كلَّ شتاتٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، وقال رسولُهُ: «**مثلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحُمهم، وتعاطُفِهم مثلُ الجسدِ، إذا اشتكَى مِنهُ شيءٌ، تَدَاعَى لهُ سائِر الجسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى**»[1]، «**إنَّ المُؤمنَ للمؤمنِ كالبنيانِ يشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا**»[2].

هذا هو الإسلامُ الَّذي لا يريد أن تكون الأعياد مواسمَ لهوٍ يَلهُو بها اللَّاهون عن أُمَّتهم، ويغرقُ فيها الغَافلون عن إنسانيَّتهم، بل يريدها أن تكون فُرصةً شاملةً وعزَّةً شاملةً لله ولِرَسُولِه وللمؤمنين.

مِيلادُ عامٍ جديد

إخواني، أخواتي في الله! كُنَّا أمسِ في عطلةٍ رسميَّةٍ؛ هي بدايةُ السَّنة الشَّمسيَّة، مبدأ تاريخ اصطلح عليه العالم في مشرقه ومغربه، يحسب النَّاسُ فيه لرواتبهم، ويغلقونَ فيه أعمالهم؛ ليفتحوها من جديدٍ،

(١) رواه أحمد، رقم: (١٨٣٧٣).

(٢) سبق تخريجه.

ويحسبونَ به أعمارهم، والتُّجَّارُ يحسبون فيه أرباحهم وخسائرهم، وما لهم وما عليهم، وقبلَهُ بأسبوعٍ كُنَّا في ذِكرى ميلاد السَّيِّد المسيح عيسى عليه السلام رسول السَّلام، الَّذي قالَ اللهُ تعالى على لسانِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣]، وقبله بأيَّام كُنَّا في عيد الفطر، فثلاثةُ أعيادٍ مرَّت في أيَّامٍ على أُمَّة عيسى، وأُمَّة مُحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام ونحن غَاضُّو[1] الأبصار، حَانو الرُّؤُوس، نفرح في الأعياد، والحقيقةُ أن لا فرحة لنا؛ لأنَّ الفرحة لا تكون إلَّا للأبيِّ العَزيز والحرِّ الكريم، فلقد مرَّت عُشرون سنةً على النَّكبة، وسنتان على النَّكسة، وكانت اعتداءات تَترى مُنذُ النَّكبة حتَّى اليوم، واحتِجاجات تُرفَعُ إلى مجلس الأمن، تتلوها اجتِماعاتٌ، فقراراتٌ تُكتَبُ بلا تنفيذ، والمسجدُ الأقصى وكَنيسَتا المَهدِ والقيامةِ تُداسُ فيها المُقدَّسات، وتهانُ فيها الكرامات، ولا سامع ولا مُجيب.

وها أنا ذا الآن أذكرُ قول الرَّسُول مُحمَّد ﷺ الَّذي لا ينطق عن الهوى، ويُخبِرُنا فيه: «**يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكُم الأُمَم من كُلِّ أفقٍ كمَا تتَدَاعى الأكلةُ إلى قَصعَتِها**»، قال قائِلٌ: أَوَمِن قلَّةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قال ﷺ: «**بل أنتم يومَئذٍ كثيرٌ، ولكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثاءِ السَّيلِ، وليَنزعَنَّ اللهُ من صُدُور عدُوِّكُم المَهَابَة مِنكُم، وليَقذفَنَّ في قُلُوبكُمُ الوَهنَ**»، فقال قائِلٌ: يا رسُولَ الله، ما الوَهنُ؟ فقال ﷺ: «**حُبُّ الدُّنيا وكَرَاهِية المَوتِ**»[2].

إنَّ المسجدَ الأقصى يُهانُ بعد كرامةٍ من فشل التَّنازع وخُذلان التَّفرقة، وكَنيسة القيامَة تُذلُّ بعد عزَّةٍ، وكَنِيسة المهد - مولد المسيح عليه السلام - تدرن

(١) غضَّ: كفَّ وخفض. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨/ ٤٥٨).
(٢) سبق تخريجه.

بعد طهارةٍ، فأين هم أُمَّةُ مُحمَّدٍ، وأُمَّةُ المسيحِ؟!

قال الشَّاعر أبو الطَّيِّب المتنبِّي:

لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيْعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ(١)

وقال الشَّاعرُ زُهيرُ بنُ أبي سُلمى:

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيْقَهُ وَمَنْ لَا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لَا يُكَرَّمِ(٢)

إنَّ الله كَتَب العزَّة لمن آمن به واعتزَّ بإيمانه، والله جلَّ شأنه يغار على العزَّة الَّتي كَتَبَها لعبده المؤمن أن تُهان، كيف لا وهو القائل جلَّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فإذا أهدرَ المؤمنُ عِزَّته، تَركهُ اللهُ، ثمَّ أعدَّ لهُ بعد ذلَّة الدُّنيا سوء المصيرِ والحساب العَسير؛ لأنَّهُ اختار لنفسه الذِّلَّة الَّتي أباها الله لهُ، وترك العزَّة الَّتي أرادها الله لهُ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧﴾ [النِّساء: ٩٧].

هذا ما أعدَّهُ اللهُ لقومٍ رضُوا لأنفسِهم الذِّلَّة مع تمكُّنهم من الهجرة من وطنٍ ذُلُّوا فيه، فكيف بقومٍ رضوا بالذِّلَّة مع كثرةٍ بالعَددِ وقُوَّةٍ بالعُدَدِ، واشتغلوا بما نهاهم اللهُ عنه، وأعرضوا عمَّا أمرهم به؟! فإلى متى تظلُّ قُلُوبنا مُتنافرةً، وجهودُنا مُبعثرةً، وقِوانا مستضعفةً، وجُموعُنا مُشتَّتةً، والأهواءُ على قادتنا مُسيطرةً؟!

إنَّنا ننتظرُ عيدًا تجتمعُ فيه القُلُوب، وتتوحَّدُ فيه الجهود، وتصفو فيه

(١) انظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، ليوسف البديعي الدمشقي (٢/ ٣٦٨).
(٢) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري (٣/ ٦١).

النِّيَّات، إنَّهُ العيدُ السَّعيدُ الَّذي ننظر إليه على أنَّهُ العيدُ السَّعيد للمؤمنين بربِّهم، وبحقِّهم، وبعزَّتهم الَّتي أرادها اللهُ لهم، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله، فمتى يا ترى يكون هذا العيد؟ إنَّني لا أدري، ولكن لا بُدَّ منهُ وعلمه عند الله، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وما ذلك على الله بعزيزٍ.

مع عيسى عليه السلام

"في مولدِهِ وحياتِهِ"

اليومُ هو (٢٥) دِيسمبر كانون الأوَّل، وهو اليومُ الَّذي اتَّخَذَتهُ أكثرُ دُول العَالم، يوم ميلاد السَّيِّد المسيح عيسى بن مريم، وبمُناسبةِ هذه الذِّكرى التَّاسعة والسِّتِّين من القرن العشرين أحببتُ أن أذكُرَ طرفًا عن هذا المولد الكريم وقصَّتِهِ الَّتي خَلَّدَها الذِّكرُ الحكيم في سُورتين من سُوره الكريمة؛ سُورة آل عِمران، وسُورة مريم.

مِيلادُ المسيح عيسى بن مريم جاءَ على غيرِ مَألُوف المواليد من الأحياءِ في عالمِ البشرِ خاصَّة، إنَّها صورةٌ عَجِيبةٌ وفريدةٌ لا مثيلَ لها فيما تَلِدُ الأُمَّهات، فجعل اللهُ الخالق المُبدع جلَّ شَأنه مريمَ المُصطَفاة المُباركة لِتَكون معرضًا من معارض قدرته، ومجلًى من مجالي[١] صنعته وإبداعه فيما يصنعُ ويبدعُ، وجعلها شاهدًا من شهود تلك القدرة الَّتي أقامها فوق السُّنن والأسباب، لا إله إلَّا هو القَادرُ جلَّ شأنه: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يُونس: ٣١]، وخلقَ أصلَ الإنسانِ من غيرِ ذكرٍ وأُنثى؛ خَلَقَ آدم من ترابٍ، ثمَّ قالَ لهُ: كُن بشرًا سويًّا. فكان.

هذا الخالقُ جلَّ شَأنه خَلَق عيسى من نفخةٍ من روحِه، وجعلَهُ آيةً للنَّاسِ، ورحمةً مِنه، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مَريَم: ٢١]، وقال في كتابه:

---

(١) المجالي: ما يُرَى من الرأس إذا استقبل الوجه، والواحد مجلَى. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٨٠).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عِمرَان: ٥٩]، وأُمُّهُ المُطهَّرةُ مريمُ المُصطفاة على نساء العالمين الَّتي حين شعرت أُمُّها امرأةُ عِمرَانَ أنَّها حُبْلى بها توجَّهت إلى الله جلَّ شأنه بِدُعائِها الخاشع وبإيمانها الصَّادقِ تَدعُو: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عِمرَان: ٣٥]، نذرتْها لله تعالى، ظنًّا مِنها أنَّها سَتَلِدُ ذَكَرًا، يصلحُ للخدمة في بيت الله، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عِمرَان: ٣٦]، والنَّذرُ(١) للمعابد لم يكن معروفًا إلَّا للصِّبيان؛ لِيخدموا في المعبد ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ﴾ [آل عِمرَان: ٣٦]، لكنَّ اللهَ جلَّ شَأنه رَضِيَ من امرأة عمران إخلاصها، وتقبَّل نذرها، ونشأت مريم مُباركة بكفالة زكريَّا رئيسِ المعبد، وشيخِ سدنته، وزوجِ خالة مريم، وظلَّت مريم في بيت الله خادمةً، تتعبَّد في محرابها(٢)، وتتلقَّى من المعبود جلَّ جلاله فيوض الرَّحمات، وهواطل الخيرات، وإذا بالملائكة المُكرَمين تُنادي هذه السَّيِّدة البتُول(٣): ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٢ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عِمرَان: ٤٢-٤٣]، إنَّها البشارةُ الأولى، والاصطِفاءُ، والاختيار.

أجَل، إنَّ الله اصطفى مريم لتكون منها الآية، واختارَها لِتتلقَّى النَّفخةَ المباشرة، ولِتَلِد الكلمةَ، وقد اصطفاها للأمر المُفرد في تاريخ البَشر،

---

(١) النذر: ما كان وعدًا على شرط. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ١٩٨).

(٢) المحراب: صدر البيت، وأكرم موضع فيه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣٠٥).

(٣) البتول: المنقطعة عنِ الرجال التي لَا شهوة لَها فيهم. سُمِّيت مريم العذراء البتول ﵂ لانقطاعها من الأزواج. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٥٢).

وفضَّلها على نساء العالمين تفضيلًا مُطلقًا، يرفعُها إلى الآفاق العَالية، والمكانة الخَالدة الأبديَّة، ثمَّ بعد هذا النِّداء المُبشِّر بالاصطفاءِ والاختِيارِ والطُّهرِ يأتي النِّداءُ الآخرُ المُبشِّر بالكلمةِ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، بشارةٌ كاملةٌ صريحةٌ، وإفصاحٌ عن الأمر كُلِّه، بشارةٌ بكلمةٍ من الله اسمُهُ المسيحُ، واسمُهُ عِيسَى بن مَريم.

اتَّجهت مريم إلى ربِّها تُناجيه، وتتطلَّعُ إلى كَشف هذه الغُمَّة(١)، فكيف يكونُ ذَلك وهي فَتاةٌ طاهِرةٌ عَذراءُ(٢)؟

عَرَفَتِ البشر وهي مِنهم، وعاشت بينهم، وعَلِمت مَألوفهم، إنَّهُ أمرٌ يَتِيه(٣) فيه العَقل، ويحتارُ فيه القلب، فقالت مريم تُناجي ربَّها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]، فجاءَها الجوابُ: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، وهكذا تزولُ الحَيرة، ويطمئنُّ القلب، وتقولُ مريم لنفسها: كيف عجبتُ من هذا الأمر وأنا أعلمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَدِير؟! ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى

(١) الغُمَّة: الضيقة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٤٤٤).
(٢) عذراء: بِكر لم يمسَّها رجل. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ٥٥١).
(٣) تاه: ضلَّ، أو تحيَّر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٦/ ٣٥٩).

عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٢-٢٨]، فكيف تَلِدُ امرأةٌ من غير زوجٍ؟ أمرٌ لم تأتِ به امرأةٌ، وشيءٌ لم يعرف في سابق الأمر، ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩]، وجاءت مُعجزةُ البَراءةِ، المُعجزةُ الشَّاهِدةُ لمريم البتُول بالاصطفاء والطُّهرِ والعَفافِ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، كلَّمهم وهو في المهدِ[1] في أوَّل ساعةٍ من ساعات حياته، كلامًا واضحًا فصيحًا ككلام الكُهولِ والشَّبابِ، بلِسانٍ فصيحٍ واضحٍ مَفهومٍ، باللُّغةِ الَّتي ينطقُ بها السَّامعون، قال لهم: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، كلَّمهم؛ لِيكون شاهدًا على طُهرِ أُمِّه وعفافِها، وليُبرِّئَ ساحة عرضها من أن يعلق بها شيء ممَّا تلُوكه الألسُن، وتوسوس به الظُّنون.

والنُّطقُ في المهد أمرٌ غير مألوفٍ، خارجٌ عن طبيعة البَشرِ، ولكنَّ هذا الوليد المُختار الَّذي جعَله اللهُ آيةً للنَّاسِ بدأ حياته ناطقًا مُنذُ مولده، فهو سيسلكُ في الحياة مسلكًا غير مسلكِهم، ويسيرُ في سبيلٍ غير سَبيلِهم، وصَحَّت بِشارة الملائكة لمريم، حين بشَّرتها بكلمةٍ من الله اسمُهُ المسيح عيسى بن مريم، ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، وعَلِمَت مريم بإلهام من الله أنَّ هذا الوليد الَّذي تكلَّم في المهد لا يخرجه كلامه هذا من أن يكون من البشر، ولا تخرجهُ آيةُ مَولده عن طبيعةِ البشر ما دام هو عبد الله،

(١) المهد: الموضع يُهيأ للصبي ويُوطأ لينام فيه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١٩٠).

وسيكون مُختارًا من لَدُن خَالقه، وما كان هذا الكلام الَّذي نطقَ به في المهدِ إلَّا دِفاعًا عن التُّهمة الَّتي رُمِيت أُمُّه بها من قومها حين قالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مَريَم: ٢٧-٢٨].

بعد ذلك أخذَ المسيح عليه السلام حياته على مألوف المواليد من البشر، والقرآن الكريم لم يذكر لنا - فيما قَصَّه عن مولد عيسى بن مريم عليه السلام - صمته أو كلامه بعد تلك الوقفة الَّتي وقفها في المهد؛ دِفاعًا عن شرف مولدِه وطُهرِ أُمِّه وعَفافها، ونحن نحترمُ موقف القرآنِ، ونقفُ من هذه القصَّة حيثُ وقفَ، ونقولُ: إنَّ المسيحَ عيسى بن مريم عليه السلام تكلَّم في المهدِ كلمات واضحة محدُودة، فأرى قومَهُ مُعجزةً من الله مثل المُعجزة الَّتي ولِدَ بها.

والمسيحُ عليه السلام أخبر قومه بما تكلَّمهُ في المَهد بأنَّ الله قدَّر في الأزَلِ[١]، فجعلَهُ نبيًّا، وجعلَهُ مُباركًا أين مَا كان، وأوصَاهُ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دامَ حيًّا، وأوصاهُ برًّا بوَالدته، ولم يجعله جبَّارًا شقيًّا، وجعلَهُ مُباركًا أينما كان، ينفعُ النَّاسُ ويشفي مرضاهم، ويُباركهم، ويبرئ الأكمه والأبرص[٢] بإذن الله، وأنَّهُ سيعيشُ في سلامٍ يوم مَولده، ويوم موته، ويوم يُبعَثُ حيًّا، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مَريَم: ٣٠-٣٣].

---

(١) الأزل: القِدَمُ الذي لَيس لَه ابتداء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٤٤٢).
(٢) البرص: داءٌ معروف، وهو بياض يقع في الجسد. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٥).

وعاشَ المسيحُ مع أشقى شعبٍ عرفه التَّاريخُ نحوَ (٣٣) سنةً، حتَّى رفعهُ اللهُ إليه طاهِرًا مُطهَّرًا سليمًا، وهذا القرآن الكريم يشهدُ بما يقولهُ عن هؤلاء اليَهودِ في الآياتِ (١٥٥) إلى (١٥٨) من سُورة النِّساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

[النِّساء: ١٥٥-١٥٨].

أخيرًا نختمُ الآيات الكريمة المنزَّلة في ذِكرِ مولد المَسيح عيسى بن مريم عليه السلام بتلاوة هذه الآيات الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

[مَريَم: ٣٤-٣٦].

في حقل الجهاد، العمل الفدائي

الوحدة الإسلاميَّة

(١/ ٦/ ١٩٦٧م)

عندما سارَ لواءُ اليرموك من الكويت إلى سيناء

أيُّها الإخوة المسلمون! بمناسبة الأسبوع الثَّاني للعمل الفِدائيِّ الَّذي نظَّمته جمعيَّة المعلِّمينَ المُوَقَّرَةُ مَشكورةً لجُهودها فيه أبدأُ هذا الحديثَ بقول الله تعالى يدعو عباده المؤمنين بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

وأقرأ قولَ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٢﴾ [التَّوبة: ٢٠-٢٢]، هذه آياتٌ كريمةٌ نَدَبَ[1] اللهُ بها عباده المؤمنين للجهاد بالمال أوَّلًا، ثمَّ بالنَّفسِ ثانيًا، فالَّذي جاهدَ بنفْسِه جادَ بها، قال الشَّاعر مُسلمُ بنُ الوليد:

---

(١) النَّدبة: صريح إطلاقه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٢٥٢).

يَجُوْدُ بِالنَّفْسِ إِنْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُوْدُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُوْدِ[(١)]

أمَّا الَّذي جادَ بمالِه فقد أحسنَ؛ لأنَّهُ استجاب لنداء الله، فقوَّى غازيًا مُجاهِدًا بأن أمدَّهُ بالسِّلاح والعَتاد؛ لِيواجه الأعداء بمثل أسلحتِهم، ونالَ رضاءَ اللهِ، ففاز بالجنَّة ونجا من العذاب، واستحقَّ المَغفرةَ عمَّا اكتسب من سيِّئاتٍ، والرَّسُول ﷺ قال وهو الصَّادق: «**من جَهَّزَ غَازِيًا في سبيلِ اللَّهِ فقد غزا، ومن خلفَ غازيًا في سبيلِ اللَّهِ بخيرٍ فقد غَزَا**»، رواهُ البُخاريُّ ومُسلم وأبو دَاود والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ عن زيدِ بن خالد الجهنيِّ، وروى نحوه ابن ماجه عن عمر بن الخَطَّاب، وروى نحوه الطَّبرانيُّ عن زيد بن ثابت، ورُوي بمعناهُ عن سعيد الخُدرِيِّ، وعن زيد بن ثابت[(٢)]، فإذا جمعنا هذه الرِّوايات كان الحديثُ متواترًا، ويفيدُ بأنَّ من أعانَ بماله غازيًا مُحاربًا أعداءَ الله، وأعداءَ المسلمين من عباد الله، والمعتدين عليهم، أو أنفقَ على أُسرتِه في غيبته، كان لهُ عند الله مثلُ أجر ذلك المجاهد بنفسه، لا فرقَ بينهما.

أيُّها الإخوة المسلمون! إنَّ اللهَ ﷻ قال في كتابِه العَزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه (١/ ٢٤٦).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٨٤٣)، ومسلم، رقم: (١٨٩٥)، والترمذي، رقم: (١٦٢٨)، وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود، رقم: (٢٥٠٩)، والنسائي، رقم: (٣٣١٦)، وابن ماجه، رقم: (٢٧٥٩)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٥٢٢٥).

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]، والله جلَّ شأنه أَذِنَ بالقتال لمن ظُلِموا ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ومن جاهد في سبيلِ الله وتوكَّل عليه واستعان به نُصِرَ، ولِينصرنَّ الله من ينصره، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد: ٧-٨].

أيُّها الإخوة المسلمون! كونوا من المُنفقين في إعانة المجاهدين كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

دَقَّت ساعة الجهادِ

تُليت مساء يوم (٥/٦/١٩٦٧م) في تلفازِ الكويت

وكان لواءُ اليَرمُوك الكويتيُّ في الميدانِ.

أيُّها الإخوة المسلمون! قد دقَّ النَّاقُوسُ[١] مُعلنًا ساعةَ الجِهاد ضدَّ أعداء الله وأعداءِ الوَطن العربيِّ، وجاءتنا الأيَّام الَّتي كُنَّا نترقَّبُها وننتظرها ويرجوها كلُّ شجاعٍ، فقد حلَّت السَّاعة وَلذَّ السَّماع لِمَا يقال عن الجِهاد، ووثَبَ النَّاسُ كلُّهم للمعركة يُنادونَ بصوت الحقِّ قائلينَ: إلى المعركة. ويستمدُّونَ قُوَّتهم من الصَّرخة المسلمة: الله أكبر.

لقد دخَلت الجيوشُ العَربيَّة ميدان المعركةِ، مُتَّحدة مُتضافِرة[٢]، ومعها الإيمانُ باللهِ يسندُها، والإيمانُ بحقِّها يشُدُّ من أزرها[٣]، والإيمانُ بصدق وعد الله لها يدفعُها إلى القِتالِ دَفعًا، ومن وراء ذلك دعواتُ المُخلصين الَّذين لم يسعدهم شرف التَّوجُّهِ إلى المِيدان، دعواتُ الآباء والأمَّهات والإخوة والأخوات والزَّوجات والأبناء والبَنَات، وكأنِّي ببعض الَّذين دَفعوا بفِلْذاتِ أكبادهم إلى الميدان، ومَن لهم أو لهنَّ إخوة وأزواج قد رفعوا الأكفَّ إلى السَّماء، يسألون الله النَّصرَ والسَّلامة لمن ودَّعوهم إلى المعركة، ولمن آزروهم بمثلِ ذلك.

---

(١) الناقوس: مضراب النصارى الذي يضربونه لأوقات الصلاة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٢٤٠).

(٢) متضافرة: تآزروا، تعاونوا عليه لبلوغ الهدف. انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٣٦٥).

(٣) الأزر: القوة والشدة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٤٢).

أيُّها الإخوة والأخوات! قال اللهُ لكم في كتابِه العزيز: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [التوبة: ١٤]، ومن هؤلاء الَّذين نقاتلهم اليوم اليَهودُ الَّذين اغتصبوا الأرضَ المُقدَّسة، وقتلوا الرِّجال العُزَّل والنِّساء، وبَقَروا[1] بُطون الحَوامل، وأَيْتَمُوا الأطفالَ، وأثكلوا[2] الأمَّهات، وشرَّدوا البَقِيَّة من أبناء فلسطين، واستولوا على الخيرات، وأخيرًا أساؤوا واعتَدوا وخانوا العُهود ونَكثوها، ثمَّ بعدَ ذلك كُلِّه بدؤوا بالأذى، ألا يجب علينا أن نُقاتل قومًا قدَّموا لنا هذه الإساءات كلَّها؟ ألا يجب علينا أن نقاتلهم لِنَكون جَديرين بالمستوى اللَّائِق بالإنسان المُؤمن بحقِّه المعتزِّ بإنسانيَّته المحافظ على كرامته؟! بلى، يجب ذلك كُلُّه علينا؛ حتَّى لا تقوم لهم قائمةٌ بعد هذا، كي لا يعودوا مرَّةً ثانيةً إلى أذاهم، ولِيعلمَ العَالمُ كُلُّه أنَّ العربَ مُسلمون مُؤمنون، وأنَّ العِزَّةَ للهِ ولِرسُوله وللمُؤمنين، والعَزيزُ لا يَرضى بالذِّلَّة، ولا يقبل الهَوان، والعِبرةُ - أيُّها الإخوة - ليست بمظاهر المَعارك، ولا بأشكالها، ولكنَّ العِبرة دائمًا بالإيمانِ بمبدأ المَعركة، قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وبإيمانِ المُقاتلين الَّذين ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وكم حدَّثنا تاريخ الإسلام عن رجالنا الَّذين خاضُوا المَعاركَ، وكانوا صَادقين مع الله الَّذي أمدَّهم بمدد السَّماء، فبُشرى لهم، ولتطمَئنَّ قُلُوبهم.

وإليكم بعض الملامح عن تلكُم المعاركِ الَّتي كان النَّصرُ فيها للمسلمين:

---

(١) بَقَرَ: شقق وفتح. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٢٣٠).

(٢) الثكل: فقدان الولد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ١٦١).

١- معركةُ بدرٍ: كان المسلمون يومَها قِلَّةً، وليس مَعهم إلَّا السُّيوفُ في أغمادِها، خَرجت إليهم مكَّةُ بأبطالها وشُجعانها وعتَادها[١]، وكان النَّصرُ مع أصَحاب مُحمَّدٍ ﷺ الَّذين أَسروا من جيش العَدوِّ أكثرَ من ربع عددهم، وقتلوا منه مثل ذلك.

٢- موقعةُ اليَرمُوك: كان عددُ المسلمين أربعين ألفًا، قابلُوا ستَّة أضَعافهم، ولمَّا صَدقوا ما عَاهدوا الله عليه نَصرهم الله، وقتلوا من جيش العدوِّ أكثرَ من عددهم.

٣- معركةُ القَادِسيَّة - وما أدراك ما القَادسِيَّة؟! -: جاءَ جيشُ الفُرس بقضِّه وقضيضه[٢]، بعَدده وعُددِه، بكثرة سلاحه وفِيَلته، وجاء المسلمون بعددهم القَليلِ الَّذي قيل إنَّه كان (٢٤) أو (٤٠) ألفًا، انتصروا لَمَّا صَدقوا الله، وقاتَلوا في سبيله، فكسروا دَولة الفُرس، وهَدموا عرشَ كِسراها، وكان الإسلامُ معهم في الميدان يسيرُ حيث ساروا، ويحلُّ حيث حلُّوا.

أيُّها المُسلِمون! انتَهزوا الفُرصةَ، فقدْ حلَّت، وآن للحقِّ المُغتصَبِ أن يُستردَّ، والحمدُ للهِ الَّذي أنعم علينا بِاتِّحاد الكلِمة، وتَأليف القُلُوبِ، وترابط الجيوش، واجتماع الجماعة، وتوحيد القِيَادة، والحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: ٢٠]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢]، وختامًا أسألُ اللهُ للمسلمين نصرًا،

(١) العتاد: ما أعدَّ من سلاح ودواب وآلة حرب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٣٤٩).

(٢) قضيضهم: جاؤوا بجمعهم لم يدعوا وراءهم شيئًا ولا أحدًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ٢٦).

وللعربِ عِزًّا، ولِبلدنا أمنًا، ولأمِيرنا تَوفيقًا، ولِوليِّ عَهده سدادًا، ولأُمَّتنا عزًّا وكرامةً وفلاحًا.

تكوين شباب الحرس الوَطنيِّ الكويتيِّ

(١٩٦٧/٦/٦م)

أيُّها الشَّبابُ، أيَّتها الشَّابَّات! ليس اليومُ كالأمسِ، وليس الحالُ كما هي، فالعدوُّ الغَادرُ كَشَّرَ[١] عن أنَيابِه، وأظهرَ ما خَفِيَ من نِيَّاتِه، وأسفر[٢] عن كالحِ[٣] وجهه، وسوادِ قلبه، وأظهرَ من سوء نِيَّته، وقد تَبيَّن لنا بالأمسِ أنَّ بريطانيا وأمريكا تسيران في ركب إسرائيل الَّتي بنوها في بلادنا؛ لِتَكون جسرًا لِعبورهم عليها إلى أوطاننا، أو لِتَكون وسيلةً لإِشعال نارِ الفِتنةِ بين سكَّانها، ولكن خابَ فَأْلُهم؛ فقد كانت إسرائيل مُنذُ ولِدَت عدوَّةً للنَّاسِ جميعِهم، ولكنْ كان عَداؤها وسيلةً لإِصلاحِ ذاتِ البَينِ بين العربِ جميعِهم، فقد كان يومُ الاعتداءِ منها علينا يومًا جامعًا للشَّملِ، اتَّفق العربُ فيه من الخَليجِ إلى المُحيط، واجتمعت كلمتهم، واتَّحدت قِيادتهم؛ دفاعًا عن العِزَّة والكرامة والحُرِّيَّة والمُستقبل.

وعَلمنا بالأمسِ أنَّ حكومتَنا الرَّشيدةَ أصدرت أوامرَ لصالح الوطن

(١) كشر: ما تبدو منه الأسنان. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٤٤).

(٢) أسفر: كشف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٣٧٠).

(٣) الكالح: الذي قد قلصت شفته عن أسنانه نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان وتشمَّرت الشفاه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٨١).

والمواطنين، ومن ذلك أمرها بتكوين حرسها الوطنيِّ من الشَّباب الكويتيِّ العربيِّ المُؤمن المُحِبِّ لِوطنه ولأُمَّته ولِدينه، فاندفعُ الشَّبابُ إلى مَراكز التَّسجيل يُسَجِّلُونَ أسماءَهم، ويستلِمون سلاحهم، ويُهيِّئون أنفُسهم تدريبًا وتمرينًا؛ دِفاعًا عن الوطن والحُرماتِ، وأقولُ لهؤلاء: هنِيئًا لآباء أنجبوكم، وأُمَّهات وَلَدْنكُمْ، فقد أثبتُّم للعربيِّ أصالتَه، وللمُسلم كَرامتَه، وللإيمانِ قُوَّتَه، وقد أثبتُّم في سجلِّ العُروبة شَجاعتها، وفي سجلِّ الشَّريعة الإسلاميَّة قُوَّتها، فلا يُثبِّطْكُمْ(١) عمَّا أقدمتُم عليه إرجافُ(٢) مُرجِفٍ، ولا تخذيل خَاذل، فسيروا على بركة الله آمنين مُطمئِنِّين بأنَّ الأجلَ واحدٌ، وأنَّ اليومَ مَوعُودٌ، وأنَّ لكلِّ أجلٍ كتابًا، وإنَّ اللهَ ﷻ قالَ لنبيِّهِ في كتابه العزيز، عندما لام المنافقون أُولئك الَّذين شجَّعوا أولادهم ورجالَهم على الخروج إلى معركة أُحد: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمران: ١٥٤].

وأقولُ للأمَّهات: للعاطفةِ وقتٌ، وللتَّضحيةِ وقتٌ آخرُ، ولا يجوز أن تحلَّ صفةٌ من الصِّفتَينِ محلَّ الأخرى، فالدِّفاعُ عن الحرم واجبٌ على الرِّجال الَّذين يُعتمَدُ عليهم، والشَّبابِ الَّذين يشعرون برجولتهم، وكيف يَرضى مَن في وِجدانه ذَرَّةٌ من رجولةٍ ونخوةٍ أن يقبعَ(٣) في عُقر(٤) دَارِه،

(١) ثبط: ثبَّطه عن الشيء تثبيطًا إذا شغله عنه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢٦٧).

(٢) أرجاف: أخبار افتن، الأخبار السيئة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٣٢٥).

(٣) قبع: أدخل رأسه في جلده، أدخل رأسه في قميصه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢١/ ٥١٦).

(٤) العقر: وسط الدار. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٣/ ١٠٧).

مُتَّكلًا على من يدافع عنه، وهو قادرٌ على حمل السِّلاح ومقابلة الأعداءِ؟!

وأقولُ للأمَّهات أيضًا: اِدفعن بفِلْذاتِ الأكباد، وشجِّعْنَهم على حمل السِّلاح، فلكلِّ حالةٍ لَبوسُها، ولكلِّ زمنٍ عَمله، وأرجو أن تكون كلُّ أُمٍّ منكنَّ خَنساءَ، وكلُّ أُختٍ منكنَّ خولةَ؛ فالخنساءُ دفعت بأولادِها الأَربعة إلى معركة القَادِسِيَّة، ولم يكن لها بنونَ غيرهم، وخولةُ دفعت بأخيِها ضِرار إلى اليرموكِ ولم يكن لها أَخٌ غيره.

وأخيرًا أقولُ لهؤلاءِ الشَّباب الَّذين ساروا بأنفُسهم مُختارين إلى مراكز التَّطوُّعِ: مرحى لكم أيُّها الشَّبابُ، وهنِيئًا للوطن بأمثالِكُم، وهنِيئًا لكم بحبِّ وطنِكُم، فقد سجَّلتم في التَّاريخِ مفخرةً يعتزُّ بها وطنكم، وتعتزُّون بها كما اعتزَّ سلفُكم العربيُّ من قبلُ بِوطنه، وها هو الشَّاعرُ ابن الرُّوميِّ يقول:

وَلِـيْ وَطَـنٌ آلَـيْـتُ أَلَّا أَبِـيْـعَـهُ ... وَأَلَّا أَرَى غَـيْـرِيْ لَـهُ الـدَّهْـرَ مَـالِـكَـا
عَـهِـدْتُ بِـهِ شَـرْخَ الـشَّـبَـابِ وَنِـعْـمَـةً ... كَنِعْمَةِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا فِيْ ظِلَالِكَا
وَحَـبَّـبَ أَوْطَـانَ الـرِّجَـالِ إِلَـيْـهِـمُ ... مَآرِبُ قَضَّاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَا
إِذَا ذَكَـرُوا أَوْطَـانَـهُـمْ ذَكَّـرَتْـهُـمُ ... عُهُوْدُ الصِّبَا فِيْهَا فَحَنُّوا لِذَالِكَا
فَـقَـدْ أَلِـفَـتْـهُ الـنَّـفْـسُ حَـتَّـى كَـأَنَّـهُ ... لَهَا جَسَدٌ إِنْ غَابَ غُوْدِرْتُ هَالِكَا(١)

---

(١) انظر: المصون في الأدب، للعسكري (١/ ٢٠٨).

اتِّحاد العرب ضدَّ أعدائهم

في أثناء اتِّحاد الدُّول الثَّلاث مصر والأردن وسوريَّة

ضدَّ إسرائيل سنة (١٩٦٧م)

وأُذيعت بالرَّاديو من منبر مسجد القَادِسِيَّة

يقولُ اللهُ تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

اليومَ انطلق الأسدُ من عَرِينِه[١] يقودُ أشبَاله[٢]، ودَارت رحى المعركة المُقدَّسة الحاسمة الَّتي يجب على المسلمين جميعِهم بشبابهم وشيوخهم تأييدُها وتعزيزُها بالأنفُس والأموال والضَّرب بقُوَّةٍ على المُعتدين فيها، فقد اغتصبوا من أرضنا العربيَّة أقدسها، وقَتَلوا مُنذُ عشرين سنةً رجالَنا، ولم يزالوا يقتلونَ الرِّجالَ المستضعفِينَ والنِّساء والأطفال الأبرياء، وقد شرَّدوا الأهلَ، واغتصبوا الأرضَ، وانتَهكوا قُدسيَّة المُقدَّسات، ودَاسوا

(١) العرين: مأوى الأسد الذي يألفه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٣٨٧).
(٢) أشبال: ولد الأسد إذا أدرك الصيد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ٢٤٦).

حُرمات المساجد، واعتدوا على حرمات المَدَارس.

أيُّها المسلمون! نحن اليوم وقد بدأت المعركة نترقَّبُ يومَ النَّصرِ الَّذي وعدَ به الله مَن ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ويومَ العودةِ الَّذي وعدَ الله به في كتابه العزيز في أوَّل سُورة الإسراء بقولِه تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، واليومَ الَّذي يستعيد فيه المُخلصونَ كرامتَهم، ويستعيد العَائدون فيه حقَّهم، فيعودوا إلى أوطانِهم، ويطهِّروا مُقَدَّساتِهم، ونستمعُ من أعلى المآذن هناك مرَّة أخرى: اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ، أشهدُ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسُول الله. يُنادي بها المُؤذِّنُ كما نادى بها من قبل.

وقد شاركت الكويت بأمرٍ من أميرها القائد الأعلى للجيش الكويتيِّ والأبِ البارِّ بأبنائه، كما شاركت إخوتها العربَ في الجهاد في سبيل الله؛ لتطهير الوطنِ العربيِّ من دولة العصابات والاغتصاب واليهود الَّذين غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا، ولاسترجاع الحقِّ المُغتصَب من المغتصِبين وأنصارهم الظَّالمين المُعتدين، وذلك جهادٌ وشهادةٌ، وقد أخبرنا رسُول الله ﷺ أنَّ: «**من قُتِلَ دُون ماله فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دُون دينه فهو شهيدٌ، ومن قُتِلَ دون دمهِ فهو شَهيدٌ، ومن قُتِلَ دُون أهلِهِ فهُو شَهيدٌ**»[١]، فالشَّهادةُ ليست بالأمر السَّهل، فهي فخرٌ في الدُّنيا وذِكرٌ بعدَ الموت، ونعيمٌ دائِمٌ في الآخرة، والجهادُ فرضٌ فَرضهُ اللهُ على هذه الأُمَّة بقوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]، وليس من العدل والإنصاف والحقِّ أن نترك العِصابات الصُّهيونيَّة تمرحُ في

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٤٢١)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

أرضِنا وتسرحُ وتستغلُّ خيراتنا الَّتي جعلَها اللهُ قيامًا لنا، فتأكل منها وتنعم بما فيها كما تشاء، وتقوى بها علينا، ونحن كثرةٌ في العدد، وقُوَّةٌ في المال، وإخواننا أبناء البلاد مُشرَّدون في الأرض، يمقتهم[1] النَّاس، ويُعيِّرونهم بصفات كانت الأولى بها أن تكون لتلك العصابات المغتصبة.

أيُّها الإخوة المسلمون! استجيبوا للنِّداء المُقدَّس، ولأمر الله الَّذي ﴿دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ولنداء أميرنا الرَّائد القائد حفظه الله، ولنداء وليِّ عهده الوالِي، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، واصدقوا العهد مع الله يكن معكم؛ فإنَّهُ وعدٌ، ووعدُهُ الحقُّ أن ينصر من ينصره، ويكون مع من كان معهُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمَّد: ٧].

الوحدةُ الإسلاميَّةُ

بعثَ اللهُ مُحمَّدًا بالإسلام دِين التَّوحيد، وشعارُ التَّوحيد: (لا إله إلَّا الله) كلمةٌ خالدةٌ أوحى بها اللهُ إلى نوح والنَّبيِّين من بعده، حتَّى ختمهم بمُحمَّدٍ ﷺ، وجاء مُحمَّد رسولًا من عند الله، يرشدُ النَّاس إلى وحدانيَّة الله، وِيوحِّد ما بين النَّاس في كلِّ شيءٍ، يوحِّدُ عقيدتهم، وإيمانهم، وفكرهم، وصلاتهم، وصومهم، ومعاملاتهم، ويحِلُّ خلافاتِهم بأحكام الإسلام ووصاياه، ثمَّ يصرِّح القُرآنُ كتابُ الإسلامِ الخالدُ بهذه الوحدة بين بني الإنسان، فالإنسانُ أخو الإنسان لا فرقَ بين جنسٍ وجنسٍ، ولا

(١) المقت: هو بُغض عن أمر قبيح. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٩٥).

فضلَ للونٍ على لونٍ، ولا ميزةَ لأُمَّةٍ على أُمَّةٍ إلَّا بالتَّقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

ولَمَّا انتقلَ الرَّسُول ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى جاءَ بعدهُ الرَّاشدون من أصحابه، ينفِّذون وصاياه مُجتمعين لا مُتفرِّقين، ومُتَّحِدِينَ غير مُنقسِمِينَ، فكسروا بهذه الوحدة عرش كسرى وأزالوه، وهدَّموا بها عرشَ قيصر وحَطَّموه، وكانوا قُوَّةً واحدةً في الأرض، تهدي إلى الحقِّ وإلى طريق قَويم. كان ذلك بقُوَّة اتِّحادها، وبِقُوَّةِ أخلاقِها، وبالرَّأفة والرَّحمة الَّتي أودعها الله في قُلُوبهم مع الإيمان الَّذي جعلهم اللهُ به أشدَّاء على الكُفَّارِ، غلاظًا على المُشركين الَّذين ينكرون الحقائق الإلهيَّة، والفَضائِل الخُلُقيَّة، والوحدة الإنسانيَّة، رحماءَ فيما بينهم، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون في الله لَومة لائِمٍ، وبذلكِ انتشرَ الإسلامُ في الأرض شَرقها وغَربها، شمالها وجنوبها، وشعَّ نورهُ كما تشعُّ الشَّمسُ نورًا، قال تعالى: ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المَائدة: ١٥-١٦].

وفي البلاد الَّتي فتَحها المسلمون جمعَ الإسلامُ تحت لِوائِه فِئات من النَّاس، ألوانُهم مُختلفةٌ، وأجناسُهم شتَّى، وعاداتُهم مُتباينةٌ، ولغاتُهم مُتشعِّبةٌ، وأقاليمهم مُتعدِّدة، فوحَّد الإسلامُ بينهم، وألَّف بين قُلُوبهم، حتَّى كان المؤمنُ الصَّادق يفخرُ ويعتزُّ بأنَّهُ مُسلمٌ وحسب، «**ولقد سمعَ عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه رجلًا فارسيًّا قالَ بعد أن سُئِلَ عن نَسبِه: أنا ابن الإسلام، فبكى عمرُ وقالَ: وأنا ابن الإسلام، وأنا ابن الإسلام، وأنا ابن الإسلام**»[1].

(١) انظر: في سبيل العقيدة الإسلامية، للقنطري الجزائري (١/ ٢١١).

إنَّ التَّمسُّك بكتاب الله يهدي إلى توحيد الله، وإلى الحقِّ والعِزَّة، وإلى ما ينبغي على كلِّ مُسلمٍ أن يعمل به، وكتابُ الله عَربيٌّ، فكانت اللُّغةُ مَظهرًا أقوى من أيِّ مظهرٍ في الدِّلالةِ على إسلام المُسلم، فيؤدِّي بها عِبادتَه، ويقرأ بها كتاب ربِّه وسُنَّة نبيِّه ﷺ، وفعل القرآن في النَّاس فعلهُ، فعرَّب أُممًا لم تعرف العربيَّة قبل الإسلام، حتَّى صَهرهم في بوتقة الإسلام، وكان من فضل القرآن على العرب أيضًا أن عمل على بقائهم وحفظهم، بينما هناك أُممٌ انقرضت؛ لانقراض ثقافتها ولغتها وكتبها.

نعم، إنَّ العربَ أُمَّةٌ واحدةٌ، والمسلمون مهما تناءت[1] ديارهم، وتَباعدت أمكنَتُهم، وضَاقت حُدُودهم، فهم أُمَّةٌ واحدةٌ مُرتبطةٌ برابطةٍ وثيقةٍ، هي رابطةُ: (لا إله إلَّا الله مُحمَّدٌ رسُول الله)، عَقيدةٌ يجتمعُ النَّاس عليها لعبادة ربِّ الإسلام بشَعائر الإسلام الواحدة، أُمَّةٌ واحدةٌ تسيرُ بتوجيهٍ من كتاب الله، وهدايةٍ من سُنَّة رسُوله، ومن شعارات الوحدة الإسلاميَّة قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، وهي أُخوَّةٌ فوق الجنسيَّة والعنصريَّة والإقليميَّة واللَّون، إخاءٌ إسلاميٌّ كُتِبَ في السَّماء بقول الله ربِّ الأرض والسَّماءِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «**المُسلم أخُو المُسلمِ لا يَظلِمهُ ولا يُسلِمُهُ**»[2]، فمتى يعيدُ التَّاريخ نفسه إلى المسلمين، فيجمعهم شِعار الإخوة الإسلاميَّة، ويوحِّدُ بينهم كتاب الله بلغته المؤثِّرة وآياته البيِّنات، فيمحُو ما بين المسلمين من النِّزاعات والخلافات، ويهدمُ ما بينهم من الحُدُود والإقليميَّة؟! وقد قال رسُولُ الله

(١) نأي: ابتعد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٥).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٢).

ﷺ: «**تركتُ فِيكُم ما إن أخذتُم بِهِ لن تَضِلُّوا: كِتابَ اللَّهِ، وعترتِي**[١] **أهلَ بيتي**»[٢].

وقد يسَّر اللهُ لنا أبوابًا لو أحسنَّا دخولها لاجتمعت كلمة المسلمين، وتحقَّق الأمل الَّذي يسعى إليه المُصلحون منهم، ففي مَوسم الحجِّ وفي حرم الله الحَرَام يرى الإنسانُ المُسلمُ إخوةً له جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ، يجمعهم ذلك الشِّعار العَظيم، شِعارُ التَّوحيد، يُلبُّون نداءَ الله، فلو دعَا المسلمُ من كلِّ أُمَّةٍ جماعةً إلى ما أمرَ الله به عِبادهُ بالحُسنى لتفاهم كثيرونَ، ولتحقَّقت المنَّافع الَّتي وعدَ الله حُجَّاجَ بيتِه بمشاهدتها، ولو تبادلنا فيما بيننا ثقافةَ كتابِ الله، وسُنَّةِ نبيِّهِ، ودراسة ما اختلفت عليه أُمَّتُنا، بدلًا من تبادل هذه الثَّقافة مع الأُمم الكافرة، لكان ذلك من أسباب تعارفنا وتكاتفنا.

وتنظيمُ التَّعارف بين المسلمين أمرٌ واجب من الله على المسلمين، لا سيَّما أنَّ لُغةَ القرآن هي لُغتهم؛ بها يتعارفون، وعليها يجتمعون، فهي الجامعةُ بين المسلمين، فلا يتعذَّر على المُسلم أينما حلَّ من بلدٍ مُسلمٍ أن يخاطب أخاهُ المُسلِمَ، واللُّغة العربيَّة - وهي إحدى وسائل توحِيد الأُمَّة الإسلاميَّة - مُستهدفةٌ للحرب من أعداء الإسلام، حاربوها قديمًا، ومَا زالوا يحاربونها، وهي كالطَّودِ[٣] الأشَمِّ[٤]، تَزولُ الأممُ وتفنى بأيَّامها

(١) عترة: أخص أقاربه، وعترة النبي ﷺ: بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون، وهم أولاده وعليٌّ وأولاده. وقيل: عترته الأقربون والأبعدون منهم. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٧٧).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٧٨٦)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
(٣) الطَّود: الجبل، أو عظيمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٣٢٥).
(٤) الأشم: المرتفع. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٣٢/ ٤٧٧).

ودهورها وهي باقيةٌ أبدًا، حتَّى يَرِثَ اللهُ الأرض ومن عليها، وقد حَفظَها اللهُ بِكتابه الَّذي أنزلهُ وتعهَّد بحفظه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

المساجدُ في الإسلامِ

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النُّور: ٣٦-٣٨].

من المصادفة أن يكون افتتاح هذا المسجد في وقتٍ يفرحُ فيه المسلمون بذكرى حبيبةٍ إلى نفس كُلِّ مُسلمٍ، هي ذكرى مولد خاتم النَّبيِّين، والرَّحمة المُهداة من ربِّ العَالمين؛ لإنقاذِ البَشريَّة من حيوانيَّتها ووحشيَّتها، وإخراجها من الظُّلمات إلى النُّور.

والبيوت الَّتي أَذِنَ اللهُ أن تُرفع هي المسَاجدُ، والمسَاجدُ مَصدرُ الهدايةِ، وكيف لا تكون كذلك وقد أَذِنَ اللهُ أن تُرفع، وأمر رسولُ اللهِ - ومَن يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاعَ اللهَ - أن تُطهَّرَ؟! والمسَاجدُ أحبُّ بقاعِ البلادِ إلى الله، وكيف لا تكون كذلكِ وهي بيوتُهُ في أرضه؟ تتعلَّقُ بها قُلُوبُ عباده الوضيئةُ(١) الطَّاهرة المُسبِّحة الرَّاكعة السَّاجدة، قُلُوبُ الرِّجال الَّذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكره، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة؛ امتِثالًا لأمره.

(١) الوضاءة: الحسن والنظافة والبهجة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٤٨٩).

نعم، أَذِنَ اللهُ أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمُهُ، وفي ذِكر الله ذكرٌ لجلالِه وعظمتِه وجَبروتِه، واستحضارٌ لِمَا لهُ جلَّ شَأنه في خَلقه من تقدير وتدبير، فيقفُ العَبدُ أمامَ الله في بيته، ليس بينه وبين الله حجابٌ، يتَّصل بربِّه بلا وسِيط، و«**أقرب ما يكون العَبدُ من ربِّه وهو سَاجدٌ**»(١)، ويُسبِّح بحمدِه ويطمئِنُّ قلبهُ لذكرِهِ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨].

وبيوت الله مُقدَّسةٌ بنسبتِها إليه، ومُحترمةٌ بِعبادته فيها، يُلتَمس فيها رضاهُ، ويتقرَّبُ إليه فيها المُتَّقون، ويتجلَّى سبحانُهُ على كلِّ من يغشونها ويَعْمُرونها، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التّوبة: ١٨].

أيُّها السَّادة! «**الصَّلاةُ عِمادُ الدِّينِ**»(٢)، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وصلاةُ الجماعة تربط بين المُسلمين، وقد بُنِي المسَجد لِتُقام فيه الجماعة، والجامعُ أو المسجدُ مُجتمعٌ يتعلَّم فيه المسلمون نظامًا، ووفاءً، وإخلاصًا، وصُحبةً، وخُلقًا كريمًا، وأوَّل عَملٍ قامَ به المُصطفى ﷺ بعدَ الهِجرة من مكَّة بناءُ المسَجد، فقُبَاء أوَّلُ مسجدٍ في الإسلام قد بُنيَ، ثمَّ بُنِيَ مسجد النَّبيِّ في أوَّل يوم وصلَ فيه إلى المدينة، وكان المسجدُ الَّذي بناهُ المُصطفى ناديًا للمسلمين، ومَدرسةً للعلمِ، ودارًا للشُّورى، ومَكانًا لِتلاقي النَّاس، ودارًا للقضَاء، وديوانًا يُستقبَلُ فيه الوفود، ومُصَلًّى لِعبادة الله.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وكان المسجدُ في الإسلام كلَّ شيءٍ، وقد أضيفت إلى المساجد أمور جديدة، فكان فيها جامعات تضمُّ مَكتبات، يتخرَّجُ فيها كبار علماء المُسلمين، ولا ننسى الأزهَر والزَّيتُونة ولا مساجد كانت في عواصم الإسلامِ في القُدس ودمشق وبغداد وغيرها من بلاد الإسلام، ولا أبالغُ إذا قلتُ: إنَّ من أكبر المَصائب الَّتي حلَّت بالمسلمين هي قَصر المسَاجد على الصَّلوات فقط، فأُغلِقَت في وجوه طُلَّابِ العلم، وفُصِلَت عنها مُهِمَّاتُ الحياةِ، حيث قَلَّدنا غَيرنا ففصلنا الدِّين عن الدُّنيا، وعَزلنا الدِّين في المسَجد، وإنِّي أذكرُ سنَة (١٣٥٠هـ)(١) وقد سافرتُ إلى نجد والحجاز، ودخلت كثيرًا من مسَاجدهما، ورأيتُ في كلِّ مسَجدٍ حلقات يتصدَّرها المدرِّسون، ويستمعُ إليهم فيها المتعلِّمون، وفي المسجدِ الحرام كانت مِئات الحلقات، وفي المسجدِ النَّبويِّ كانت العَشرات منها، واليوم لا ترى في المساجدِ كلِّها حلقةً يجتمعُ فيها طُلَّابٌ يتلقَّونَ العلمَ بتوجيهٍ من مُدَرِّسٍ، اللَّهُمَّ إلَّا في المسَجدِ النَّبويِّ، وهي حلقات وعظٍ لا حلقات تَدريس، وهذا هو السَّببُ في قِلَّة عُلماءِ الدِّين، فقد سُدَّت أبواب المساجد في وجوه طَلبة العِلم، فلا تُفتَحُ أبوابُها إلَّا إذا حلَّ وقتُ الصَّلاة، وتُغلَقُ إذا انتهت، وربَّما أُغلِقَت في وجه من تخلَّف عن جماعة كما رأيتُ ذلك في الطَّائِف، وإنِّي أدعو كلَّ حُكومةٍ مُسلمةٍ أن تُعيد للمسجد مكانته؛ لِيكون جامعةً، وليكون إمَامُهُ مُدرِّسًا، وأن تجنِّد لهُ من رجال العلم والأدب من يعيد لهُ مكانته المُقدَّسة ومَجدهُ التَّليد، فيألفهُ كلُّ طالب علمٍ ومُستفيد، أمَّا بعدُ:

فقد حثَّ المُصطفى ﷺ على بناء المساجد، ورغَّب فيها في أحاديث

(١) أي: سنة (١٩٣١م).

عدَّةٍ، نكتفي بهذا الحديث الصَّحيح الَّذي رواهُ البُخاريُّ ومُسلم عن عُثمان بن عفان رضي الله عنه قال: إنِّي سمعت رسُول الله ﷺ يقولُ: «**من بنى مسجِدًا يبتغِي به وجهَ الله بنى اللهُ لهُ مِثلَهُ في الجنَّة**»(١).

هذا ما أحببت أن أقولهُ في افتتاح هذا الحَفل الكريم، وأسألُ اللهُ ﷻ أن يجزي من بَنَتْ هذا المسجدَ خيرًا، ويتقبَّل مِنها، ويُحسن قَصدها، ويُعَوِّضَها في الدُّنيا أضعافَ ما أنفقت، وفي الآخرةِ بيتًا في الجنَّة.

سهولة الفتوحات الإسلاميَّة

الحديثُ عن الإسلام لا يخلقُ جَديدهُ، والكلامُ على نَبيِّ الإسلام ﷺ لا يُمَلُّ تكرارُه مهما تكرَّر، فبه بلغنا الذَّروةَ، وبنينا المجدَ، وكُنَّا خير أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، ولقد ظهر الإسلام نبعًا صافيًا عذبًا في أرضٍ جدبةٍ قاحلةٍ بعيدةٍ من مُلتقى طُرق المدنيَّة والفِكر الإنسانيِّ، ظهرَ نَبعهُ غزيرًا، ثمَّ جرى قناة لم تلبث أن صارت نهرًا فيَّاضًا، جمعَ حولهُ شملَ القوم المتنافرين المُنقسمين، وعلى ضفَّتيه ألَّفَ بينَ قلوبِ المتخاصمين، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، وارتوى النَّاسُ من هذا المَعين العَذب، وشعروا عندهُ بالرَّاحة والاطمئنان والأمن، وحلَّ بينهم شعورُ الإخوة، وهي أقربُ فيما بينهم من إخوة النَّسب، تربطُ بعضهم ببعض روابطُ العَقيدة والعبادة والأخلاق.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٥٠)، ومسلم، رقم: (٥٣٣).

وفَاضَ هذا النَّهر، ولم يُقَاوَم تيَّاره حتَّى اتَّصل بالشَّرق والغَرب، ولم يشهد التَّاريخُ من قبل ولا من بعد سرعةً كالسُّرعة الَّتي حقَّق بها الإسلامُ فُتُوحاته، وقد كان رحمةً في غزوه، وسِلْمًا في فتحه، وخيرًا في حلِّه وبقائه، وكان جُندُه العقيدة، وعدَّتُه الأخلاق، ولم يكتشف أحدٌ من قبل تلك القوَّة الخَفِيَّة الَّتي مكَّنت جيوش الإسلام من الانتصار على الَّذين يفوقونهم تفوُّقًا تامًّا في العَدد والعُدَّة والثَّروة والمدنيَّة والخِبرة في إدارة القوى المُحاربة، ولم يشهد التَّاريخ أُمَّةً كتلك الَّتي استطاعت أن تحتَلَّ نصف المعمورة من الأرض، فكانت يومئذٍ مسافاتٌ مُتباعدةٌ بين أقاليمها، فجمعوا شملها، وألَّفوا بين أهلها، ووحَّدوا أنظمتها وإدارتها وأحكامها من غير أنَّ تكون لهم الوسائِل الَّتي تُقرِّب ما بين تلك المسافات، ولم يشهد التَّاريخ مِثلهم أُمَّةً استطاع رجالها أن يُلهِبُوا أرواحَ من خلفوهم بحماسٍ مصدرهُ الإيمانِ، وأن يُحَافِظُوا على حيويَّةٍ نابضةٍ لم تعرفها أديانٌ سلفت، ولا أُمم خلت، أقبلوا على البلاد ففتحت البلاد أبوابها، فدخلوها مُسالمين بالإسلام، فأحبَّهم النَّاسُ وأهلُ البلاد، وأقبلوا يدخلون في دِين الله أفواجًا، أو يعطونَ الجِزية(١)، ويكون لهم ما للنَّاسِ وعليهم ما على النَّاسِ، وعَدلوا ورحموا وعَطفوا ورأفوا، ولم يهتكوا عرضًا، ولا خرَّبوا دارًا، ولا قطعوا شجرًا، والإسلامُ والسَّلامُ مَعهم يحيطان بهم من جِهاتهم جميعِها.

والإسلامُ يسرٌ لا عسرَ فيه؛ لأنَّهُ عَقيدةٌ تنحصرُ في: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ مُحمَّدًا رسُول الله، وإنَّ صلاةَ الإنسان ونُسكه ومَحياه ومماته

---

(١) الجزية: هي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذِّمَّة، وهي فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٤/ ١٤٧).

للهِ ربِّ العَالمين، لا شَريكَ لهُ، وبذلكِ تكون روحهُ قد تحرَّرت من التَّعبُّدِ إلَّا للهِ الوَاحدِ، وتحرَّرت إرادتُه من الرَّوابط إلَّا بالله الواحد.

والإسلامُ واضحٌ لا تَعقِيد فيه، وكتابُهُ مَفتوحٌ لكلِّ من يريد أن يَقرأهُ، فلا سرِّيَّة فيه ولا غموض، ولا عُزلةَ ولا كَهانة ولا رهبانِيَّة، فإنَّ «**المؤمن يَألَفُ ويُؤلَف، ولا خيرَ فيمن لا يَألَف، ولا يُؤلَف**»[1]، والمعرفةُ مُيَسَّرَةٌ لكلِّ مَن يريدها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج: ٧٧]، ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وطاعةُ الله ورسوله تكون بطلب العلم، ورأسُ العلم مَعرفةُ الله، والإسلامُ قال للنَّاس: إنَّ بابَ اللهِ مفتوحٌ لمن أَذنب فاستغفر، ولمن عَصى فأناب، و«**إنَّ الله تعالى يبسُطُ يَدهُ بِاللَّيلِ لِيتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، ويبسُطُ يَدهُ بالنَّهار ليتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ حتَّى تطلُع الشَّمسُ من مَغربها**»[2]، هكذا قالَ نَبيُّ الإسلام ﷺ، وهذه هي سُنَّته، ورحمةُ الله واسعةٌ وسعت كلَّ شيءٍ، وإذا كان اللهُ شديد العقابِ فإنَّهُ غفورٌ رحيمٌ كرِيمٌ، وهو واسعُ العطاء والمغفرة، يُحِبُّ المتطهِّرين والتَّوَّابينَ والمُحسنين، ويُحِبُّ من أقبل عليه ومن يُحبُّه.

والحُرِّيَّةُ في الإسلام حقٌّ لكلِّ مُسلمٍ، بل لكلِّ مَواطنٍ، فهي عَقلٌ يقود، وإرادةٌ تعلو، وشريعةٌ تحكمُ بتعليماتٍ، وقد انتشرَ الإسلامُ في

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٧٧١).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٩٥٢٩).

البلاد الَّتي افتتحَها، ودخلَ النَّاس فيه أفواجًا - كما قلنا -؛ لأنَّ النَّاس وجَدوا فيه ضَالَّتَهم، وبه تحرَّروا من ظُلم الطُّغاة والكَهَنة والرُّهبان.

وكتابُ الإسلام؛ القرآنُ يهدي للَّتي هي أقومُ، وقد عرضَ صفاتِ الله بعباراتٍ بالغة التَّأثيرِ، وقصَّ قصص الأنبياءِ بأسلوبٍ أخَّاذٍ، وحَكى قصصَ الأُممِ الَّتي خلت بآيات بيِّنات، وضربَ الأمثالَ المُؤثِّرة لِقومٍ يعقلون، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٦]، والإسلامُ لم يقف عندَ حدٍّ من الحُدُود إلَّا ما نصَّ عليه كتابه الكرِيم؛ لأنَّهُ مُتطوِّرٌ ولا بدَّ لمُتَّبعيه أن يرتقوا مع الزَّمن، وبالمحاسن والفَضائِل نَفذَ الإسلامُ إلى القُلُوبِ والمُجتمعات، ودخل النَّاسُ فيه أفواجًا.

وكتابُ الإسلامِ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وسيبقى كما أنزلهُ اللهُ على نبيِّه العربيِّ الأُمِّيِّ، وسيبقى ذلك النَّبع الصَّافي الفيَّاض الدَّائم الَّذي لا ينضبُ[1] ولا ينقضي، وعندما يعودُ المسلمون إلى كتاب الله هذا ينهلُونَ مِنهُ سيعودُ لهم النَّشاط والمجد والقُوَّة، وإلَّا فقد وَعَدَ الله هذه الأُمَّة بوعدٍ أسألُ الله أن يُلهمهم النَّظر فيه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محَمَّد: ٣٨].

---

(١) نضب: ذهب في الأرض. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤/ ٢٨٢).

الإسلام أمام التَّيَّارات

السَّيادةُ الَّتي لاءمت المسلمين لم تأتِ مَحض صدفة، وإنَّما كانت نتيجة لقيام المسؤولين بما وجبَ عليهم بجدٍّ وكفايةٍ وصدقٍ، فقد تعهَّدَ مُحمَّدٌ ﷺ بإبلاغ ما أُرسِلَ به من ربِّه، فتعهَّد القُلُوب بالصَّبرِ، وأخذ النُّفوس بالأدب الشَّامل، والعلمِ النَّافعِ، وألَّف بين النَّاس، ثمَّ جاءت دولة الخُلفاء الرَّاشدين، فسارت في حكمِها على الطَّريق الَّتي سنَّها لهم مُحمَّدٌ ﷺ، وطبَّقوا في حكمِهم تعاليمه، وأخذَ النَّاسُ بالسُّنَّة الَّتي سنَّها لهم، وأسندوا الأمور إلى أربابها، وولَّوا المناصب من يحسن إدارتها، فكانت النَّتيجة أن دخل النَّاس في دِين الله أفواجًا، وتضاءلت أمامَ هذه الدَّولة دُول كبرى تحوَّلت السُّلطة منها إلى الدَّولة الجديدة، دولةِ الخُلفاء الرَّاشدين، واستمرَّتِ الحالُ حينًا من الدَّهر، وإذا بالحال تتحوَّلُ وتقع المآسي، ولكنَّ المسلمين تعلَّموا من دِينهم، فلا قنُوط ولا يأس، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وصمدوا أمامَ المكارِه، وتحمَّلوا المصاعب والمتاعِب جميعَها.

سقطت الخِلافة الإسلاميَّة على أيدِي التَّتار المُغيرين[1]، واحتلَّ التَّتارُ البلادَ، وضربوا فيها طولًا وعرضًا، ولكنَّ المسلمين صمدوا، ولم يَفْنَ الإسلامُ، ولم يُقضَ عليه، بل تمسَّكت الأُمَّة بدينها، فلم تفنَ الأمَّةُ، ولا

(١) المغير: اسم فاعل من أغار يغير إذا نهب، شبَّه دخوله عليهم بدخول السارق وخروجه بمن أغار على قوم ونهبهم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٥/ ٣٦).

ضاعَ دينها، وتمضي أعوامٌ ويذوبُ الغازونَ في الوطن المُحتلِّ، وطنِ الإسلام الكبير، وتضمُّهم أجزاء هذا الوطن، ويصبحونَ مُسلمِينَ بِدينهم وتقاليدهم، وبعد جيلٍ كان أولادُ هؤلاء الغَازين جُنودًا للإسلام يمدُّون أُمَّته بغزاةٍ شديدي البأسِ والحماسِ على أعداء الإسلام من أجلِ نصرتهِ، وكانَ منهم داعية لهذا الدِّين يدعو إليه ويدافع عنه.

ثمَّ يغزو الصَّليبيُّون الوطن الإسلاميَّ، ويحتلُّون مِنهُ قسمًا كبيرًا، ويقيمون بين أهلِه أجيالًا، ويصمد المسلمون لدينهم صمودَ الأبطالِ، ويعيد التَّاريخ نفسه مع الغازِين الصَّليبيِّين كما كان مع التَّتار، ويُحدِّثنا التَّاريخ أنَّ كثيرًا من أبناء هؤلاء وأحفادهم كانوا للإسلام جُنودَ حربٍ ودَعوةٍ؛ لأنَّ الأُمَّةَ المغلُوبة لم تتخلَّ عن دِينِها بعدَ أن غُلِبَت، فظلَّت مُتمسِّكةً به دينيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا أَمَامَ الغُزاةِ المُزهُوِّين بانتِصارِهم المنتشين بِعزَّتِهم؛ ولأنَّ رُكنَ الدَّعوة في الإسلامِ الحكمةُ والموعظةُ الحسنةُ والمُجادلةُ بالَّتي هي أحسنُ، فلا يتركُ المُسلِمُ فرصةً مُواتِيةً لدعوة دونَ أن يبثَّها[١]، ولا يتركُ عند من يدعوه حقدًا ولو كان أقسى القُساة وأطغى الطُّغاة.

والإسلامُ دِينُ عَقلٍ، وهو بالفِطرةِ البَشريَّة ألصَق، وغنيٌّ بالمُغريات الَّتي تُقنِعُ من يُدعَى إليه متى صدقَ الدَّاعي بنيَّتِه وأخلصَ في دعوته، وقد أخبرنا التَّاريخ أنَّ الإسلامَ دخلَ كثيرًا من البلاد مع التُّجَّارِ المُسالمين، لا مع الفَاتحين المُحاربين؛ لِسهولته ويُسره وقُربِه من القُلُوبِ.

جاءَ القرن العشرون ومَعهُ التَّيَّارات العالميَّة الإلحاديَّة الَّتي أخذت

(١) بثَّ: صرح به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٦٠).

تحارب كلَّ عقيدةٍ دِينيَّة، ولكنَّها كانت على الإسلامِ أشدَّ حربًا وأقوى عَزيمةً، ولو كان الإسلامُ قوِّيًا في أهلِه - كما كان يوم غزو التَّتار - متماسكَ القواعدِ - كما كان يوم غزو الصَّليبيِّين - لَما أثَّرت هذه التَّيَّارات فيه، ولما خلخلت[١] من بُنيانِه، فقد بدأ الجهل والجُمود يطغى على عقولِ النَّاس يومَ تحوَّلت الخلافة إلى الأتراك، وساد الأتراكُ البلادَ المُسلمةَ باسم الخلافة الإسلاميَّة، فجهَّلوا النَّاس في كلِّ شيءٍ، فجَهَّلوهم في الدِّين والدُّنيا، وسكبوا على رَعاياهم - والعرب خاصَّة - الجهلَ والفقرَ والجُمودَ؛ لكي تبقى السِّيادة والكلمة لهم، فلا يكون مسيطرٌ غَيرهم ولا آمِرٌ سواهم، حتَّى ظنَّ النَّاس أنَّ التُّركيَّ هو الكامِلُ في كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه القويُّ الحاكمُ، وإذا سادَ الجهل في بلادٍ صَيَّرَ أسودها قُرودًا وسَادتها عبيدًا[٢].

بقي الدِّينُ جَامدًا زمن الحكم التُّركيِّ عندَ مُصلًّى ومسبحةٍ، أمَّا السِّياسةُ والسِّيادةُ والإصلاحُ والعلمُ والتَّربيةُ فقد جمدَ فيها الدِّينُ، بل أصبحت شيئًا يخالفُ الدِّينَ، ثمَّ انحسرَ الحكمُ التُّركيُّ، وحلَّ محلَّهُ الاستعَمارُ الغربيُّ، ووجدَ أمامهُ نظامًا أَعجبهُ، هو نظامُ: (فَرِّق تَسُدْ)، فقالَ قولتهُ المَشهُورة: (الدِّينُ لله والحكُمُ لقيصر)، وسار على الطَّريق الَّتي سنَّها سلفُهم، طريق جهلٍ، وتفريقٍ، وفتحِ مَدارس؛ لِيغطِّي بها على أعين النَّاس، وجعلَ التَّعليم فيها بعيدًا من كلِّ ما يُسمَّى دِينًا، وبهذا قضَى على

(١) خلخل: قلقله، حركه، هزه بشدة، جعله غير متضام ولا متماسك. انظر: معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (١/ ٦٧٦).

(٢) يُشير الشيخ رحمه الله هنا إلى السنوات الأخيرة لحكم الأتراك، ولا يعني بذلك الخلافة العثمانية التي حفظ اللهُ بها دينه وأمَّته. انظر للاستزادة عن أخبار الدولة العثمانية: تاريخ الدولة العليَّة العثمانية، لفريد بك.

كلِّ فضيلة للدِّين، وقشع ما بقي في الصُّدور من حرمة له.

وبعد أن استقرَّ المُستَعمرُ واطمأنَّ على سِيادته، جاءَنا بأحدُوثةٍ أسماها التَّطوُّر، وهي نتيجةٌ مَنطقيَّةٌ لكلِّ أُمَّةٍ جاهلةٍ خضَعت للمحتلِّ في البلادِ الَّتي استعمرَها، فقالَ المُستعمرُ الغربيُّ: لا دين؛ لأنَّ الدِّينَ جُمودٌ، فقالَ النَّاسُ: لا دين. وقالَ الغربُ: لا أخلاق؛ لأنَّ الأخلاقَ رجعيَّةٌ، فأجابَهُ آخرون: لا أخلاق. وقالَ الغربُ: لا تقاليدَ؛ لأنَّها قُيودٌ، فصفَّق النَّاسُ وقالوا: تجديدًا لا تقاليد. إذن، فلينبذِ النَّاسُ الخرافة الباليةِ الَّتي اسمها الدِّين، وليتحرَّروا من تلك القُيود القَديمة المُسمَّاة بالتَّقاليد، وليخرجوا من تلك الأغلال المُسمَّاة بالأخلاق، وليصنعوا ما يصنع الغَربُ، وليُقلِّدوهُ؛ لأنَّهُ القويُّ، ولأنَّهُ السَّيِّدُ المُحتلُّ، ولأنَّهُ المتبوعُ وغيره التَّابع.

وليست هذه أوَّل مرَّةٍ في التَّاريخ يواجهُ الإسلامُ فيها هذه التَّيَّاراتِ الغريبة، فقد بدأت في صدر الإسلام، وفي أواخِر عهد الخِلافة ظَهر الخَوارجُ الَّذين خرجوا على المجتمعِ الإسلاميِّ، وأخذوا يشكِّكون النَّاس في وَحدتهم، ويفرِّقون كلمتهم، وجاء القَرامِطَةُ في زمن بني العَبَّاس الَّذين أنكروا عقيدة الإسلام ونُبوَّة مُحمَّدٍ ﷺ، وكانت مَذاهب أخرى كثيرة ظهرت وانقرضت كُلُّها، جاءت لِتقاوم الإسلام الصَّامد بقُوَّة عقيدة أهله، ولِتفتح للمُتَدَيِّن باب الإلحادِ، ولا ننسى في عهدنا هذا الشُّيوعيَّةَ وأخواتها من العقائد اللَّاخُلُقيَّة والإلحاديَّة، والاستعمارُ بسياستِه المُفرِّقة لا يقاومُ هذه التَّيَّارات، بل أطلقَ لها الحُرِّيَّة الكاملة، وأعطى دعاتها صلاحيةً تامَّةً، وفتَحَ لهم أبواب العالم المُتديِّن، ومنعَ مُقاومتهم باسم الحُرِّيَّة الفِكريَّة، وهَجا كلَّ من يقاوم واصفًا إيَّاهُ بالرَّجعيَّةِ والجمودِ والتَّأخُّرِ.

والمسلمونَ اليوم في بحرٍ مُتلاطِمٍ مُضطربٍ، وأخصُّ بحديثي هذا

وطننا العربيَّ الَّذي جهلَ أهلُه حقيقةَ دِينهم، واستمعوا إلى دُعاةِ الضَّلال، واعتقدوا أنَّ دِينَ الإسلام أساطير وخرافات، جامدٌ لا تقدُّميٌّ، دِينُ مسجدٍ ومُصحفٍ ومسبحةٍ، وأنَّ المدنيَّة في جانبٍ والدِّين في جانبٍ آخر، وقد أساؤوا - واللهِ - فهمًا وتعبيرًا، وإنَّ الإسلامَ بريءٌ من كلِّ ذلك، فهو دِينُ الحياةِ والسِّيادة والحُرِّيَّة والقُوَّة، ولكنَّ مصيبة الدِّين أنَّ من نُسمِّيهم أهل الدِّين مُتزمِّتون، جَامدون، لا يحسنون تعبيرًا في دِعوة، ولا أمرًا بمعروفٍ، ولا يَدعون إلى دِينهم بالَّتي هي أحسن، ولا يحسنون نهيًا عن مُنكر، فإذا دعَا الدَّاعِي منهم ورأى النَّاسُ جمودَهُ وخُشونته لم يستجيبوا له؛ لأنَّهُ جامدٌ مُتزمِّت خشن جافٌّ، وهذا ما لا يرضاهُ الإسلام وما يريده عَدُوُّ الإسلامِ، وهذا ما أثَمرَهُ جهلُ الدَّاعيةِ للإسلامِ، فمتى يُحسِنُ دُعاة الإسلام الدَّعوة إليه بالَّتي هي أحسنُ؟! وبعدُ:

فإنَّنا لن نرجع إلى ما كان لسلفِنا من كلِّ قُوَّةٍ وسيطرةٍ وسُلطةٍ ما دمنا عن دِيننا مُعرضين، وبحقيقتِه جاهلين، وعن الدَّعوة إليه غافلين، فقد تركَنا مُحمَّدٌ ﷺ على محجَّةٍ[١] بيضاء قائلًا: «**قد تركتُكُم على البيضَاء لَيلها كَنهارِها**»[٢]؛ فهي الحياة والسَّعادة والقُوَّة والحقُّ، وقال لنا: «**تركتُ فِيكُم ما إن أخذتُم بِهِ لن تَضِلُّوا: كِتابَ اللَّهِ، وعترتِي أهلَ بيتي**»[٣]، وقد تمسَّك به سلفُنا الصَّالح، ومكَّن الله لهم في الأرض، وسادَ المُستضعفون، وصار رُعاةُ الغَنم قادةَ أُممٍ، عَمَرُوا البلادَ، وهَدَوا أهلها، وعلَّموا وثقَّفوا، وامتدَّ مُلك المسلمين من مشارق الأرض حتَّى مغاربها،

(١) محجة: المقصد والمسلك. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٤٦٨).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٣).
(٣) سبق تخريجه.

ثقافةً وأمنًا، ورياسةً وقوَّةً، وكان للنَّاس - كما قُلنا - قُلُوبٌ عامرةٌ بدِينهم، فلم يؤثِّر فيهم مؤثِّرٌ، ولم يُسيطر عليهم غازٍ ولا مُستعمرٌ، ولو بقي النَّاس كما كانوا لَما غزاهم الغربيُّ في قلوبهم وعقولهم، ولذاب في المسلمين كما ذابَ أسلافُه الغاصبون، ولكن ماذا أقول وداعية الغرب يُنادي اليوم: لا دينَ ولا أخلاقَ ولا شعائرَ، فيُردِّد المقلِّدون قولَه: لا دينَ ولا أخلاقَ ولا تقاليدَ، لا جرم أنَّ ذلك هو البلاءُ، وسيتبعه الفناء، وما هو بأقلَّ منه، و«**لن يصلح آخر هذه الأمّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»[١]؛ أي: بالرُّجوع إلى القرآن والإسلام.

جهلنا بديننا سبب إخفاقنا

خلق الله جلَّ جلاله الخلقَ ولم يتركهم سُدًى، فهو أبرُّ وأرحم بهم من أنفسهم، فلم يدعْهم بلا شرعٍ يقنِّن[٢] لهم الحياة، وإنَّما شرعَ لهم شرعًا ليس فيه العَنتُ[٣] والعسر والكبت والقهر، وبعث الله جلَّ جلاله الأنبياء، يتلو بعضهم بعضًا، ليحرِّروا العقول من قيود الخرافات، وأغلال الوثنيَّات، ويربطوا بينها وبين الإيمان، حتَّى تكون العقائد صحيحة، وتكون حقائقها ثابتةً؛ لينتظم عيش الإنسان في ميدان الحياة، ويستقيم

(١) سبق تخريجه.

(٢) قنن: وضع القوانين ودونها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لابن الأثير (٣/ ١٨٦٤).

(٣) العنت: الفساد والإثم والهلاك والغلط والخطأ والجور والأذى. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٢).

سيره، ويتجمَّل بالتَّقوى، وختم رسالة رسله عليهم الصَّلاة والسَّلام برسالة مُحمَّد ﷺ، وجعلها مددًا لقوى الخير، صالحةً للارتقاء، جديرةً بكلِّ مكانٍ وزمانٍ، باقيةً بقاء الإنسان، وأنزل معهُ كتابًا يخاطب به أولي الألباب، فتنفتح له مغاليق نفوسهم، ويحيا به موات أفكارهم، فيعرفون عظمة خالقهم بالبحث والملاحظة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يُونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ [قَ: ٦].

لكنَّ المسلمين أهملوا دينهم وتباعدوا منه، فليس له في قُلُوبهم مكانٌ، وقد صدق رسول الله ﷺ حينَ قال: «**بدأ الإسلامُ غرِيبًا وسيعودُ غرِيبًا، فطُوبى**(١) **للغرباءِ**»(٢)، وها هو ذا الإسلام في أوطانه وبين أهله غريبٌ؛ لأنَّهُ غيرُ معروف للمسلمين حقَّ المعرفة، فقد جهلوه، ولم يعلموا ما هو، ولا إلى أيِّ خيرٍ يدعو، ولا عن أيِّ شرٍّ ينهى، فشيوخنا وعجائزنا أمرضت الخرافات عقولهم، واستحوذت الجهالة على البقيَّة منهم، والشَّباب من بنين وبنات لا تربطهم بالدِّين إلَّا رابطةُ نسب الوالدين، فهو أو هي ولدٌ لأبوين مسلمَينِ، والمترفون أُولُو النِّعمة طغوا وأهملوا كلَّ شيءٍ يربطُهم بالدِّين، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العَلق: ٦-٧]، وهكذا كان مجتمعنا مجتمعًا يعيش على التَّقاليد المُوروثة الجاهلة، والعادات الباطلة، والعقائد الخرافيَّة، والتَّبعيَّة

---

(١) طُوبى: اسم الجنة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٤١).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٩٨٦).

للآخرين، وسياسةُ المستعمر وجدت من هذه الحال ميدانًا صالحًا لحربها، فجهَّزت جيوشها بالسِّرِّ والعلن في المعاهد التَّعليميَّة - ابتدائيَّة وثانويَّة وجامعيَّة - أو في غير ذلك من ميادين الحياة الَّتي يمكن أن تحاربَنا فيه.

وهناك أناسٌ يدَّعون العلم والمعرفة بالإسلام، ولا يفقهون من آياته إلَّا قليلًا، وحتَّى هذا القليل رُبَّما ينسونه؛ لأنهَّم انشغلوا بغيره من الثَّقافات الواردة الَّتي خُدِعَوا بها، وهناك أناسٌ يدَّعون الفقه، ولا يفقهون من سُنَّة الرَّسول وأحاديثه إلَّا قليلًا، ولجهلنا بديننا قدَّمناهم وجعلناهم أئِمَّة في صلاتنا، ومرشدين لِجُهَّالنا، وسألناهم فأَبَوا أن يتجاهلوا حتَّى لا يوصفوا بالجهل، فأفتوا عن جهلٍ، فضلُّوا وأضلُّوا، وصدق المصطفى الأعظم الَّذي لا ينطق عن الهوى حين قال: «**إنَّ اللَّهَ لا يقبضُ العلم انتزاعًا ينتزعه من العبادِ، ولكن يقبضُ العلم بقبضِ العُلماءِ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالمًا اتَّخذ النَّاس رؤُوسًا جُهَّالًا، فسئِلُوا فأفتوا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا**»(١).

هذا هو شَأننا اليوم؛ حالُنا جهالةٌ طال أمدها فينا، وأعادتْنا إلى جاهليَّتنا الأولى، وربَّما إلى أضلَّ منها، والنَّاسُ لا يهمُّهم أمر دِينهم، فهم مقبلون على دُنياهم بنَهمٍ(٢)، كُلَّما أُضيفَ إلى خزائن أحدهم الألوف تطلَّع إلى غيرها، وقالَ: هل من مزيدٍ؟! تراهُ يغضبُ لماله أن يُمَسَّ، ولعرضه أن يُهتَك، ولشخصِه أن يُهَان، ولا يغضب لدينه إذا طُعِنَ فيه،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٠٠)، ومسلم، رقم: (٢٦٧٣).

(٢) النهمة: بلوغ الهمة و الشهوة في الشيء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٥٩٣).

ولا لنبيِّه أن يُشتم، والعلماءُ في مختلف الأقطار الإسلاميَّة ساكِتون، وقد كلَّفهم ربُّهم بحراسة دِينه، وأمرهم بالدَّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأن يُنذِرُوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلَّهُم يحذرون، فهؤلاء العلماء عَقدَ النَّومُ أجفانَهم، وكمَّمَ العَدوُّ أفواههم بوظائف أسندها إليهم، فنعموا في ظلِّها بالنِّعمة والنَّعيم، وخلدوا إلى السَّكينة، ورضوا بالذِّلَّة، وأحبُّوا الحياة الدُّنيا، وخافوا أن يقولوا كلمة الحقِّ، فيفقدوا هذا العيش الرَّغيد، والمناصب العالية.

أيُّها المسلمون! كان النَّاس في صدر الإسلام يُقَدِّرون الحقَّ ويعظِّمون قائله، أمَّا اليوم فأصبحنا نَثِقُ بالقُوَّة، ونُقدِّر القويَّ، ومهما قال القويُّ فقولُه الحقُّ، وهذا خلاف ما جاء به الإسلام؛ لأنَّ الإسلامَ لا يرضى للمسلم أن تُقَيَّد حُرِّيَّة فِكره، وتُكَبَّل إرادته وعقيدته، وإنَّما يريد من المسلمين أن يقولوا الحقَّ؛ لينتصر بهم، وقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد فقال: «**كلمةُ حقٍّ عند سُلطانٍ جائرٍ**»[1].

إنَّ الإسلامَ في حاجةٍ إلى رجالٍ يحبُّون الحقَّ، ويقولونه، ويجاهدون في سبيله، ولا يهابون في الحقِّ جور[2] غاشم، ولا بطشَ ظالم، يصلحون ما بينهم وبين ربِّهم، ويستقيمون على سُنن دِينهم القويم السَّمح الرَّحيم، ويرضون الله بأعمالهم وبأخلاقهم الَّتي يأخذونها من الإسلام، ويصلحون الدُّنيا بالدِّين، ويصلحون الدِّين بالدُّنيا، ويصلحون ما أفسدَه النَّاس من دِينهم ودُنياهم، وهو في حاجةٍ إلى رجالٍ مُؤمنين بدينهم، واثقين بقوَّتهم، يفيض في نواحي نفوسهم الأمل واليقين، يتحمَّلون

(١) رواه النسائي، رقم: (٧٧٨٦).

(٢) الجور: نقيض العدل، أي ظلم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ٤٧٧).

المكاره في سبيل مبدئهم وعقيدتهم، يحبُّهم الله أذِلَّةً على المؤمنين، أعِزَّةً على الكفَّار، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومةَ لائمٍ.

يا عباد الله! ما زال المسلمون في مراكز حرجة، تقع بهم المآسي، وتلاحقهم الإهانات، وهذه الإذاعات نسمع منها أخبار الجزائر وعمان وجنوب الجزيرة العربيَّة، وعُملاءُ الأعداء ما زالوا يدُسُّون ألغام الفتن؛ ليوقعوا بين المسلمين نار الحرب، ويشغلوهم عن مقاومة أعدائهم، وذلك لا نِكاية[1] بأشخاص المسلمين، ولكنْ مقاومةً لدين المسلمين، وللقضاء على البقيَّة من الإيمان في قُلُوبهم.

وإنِّي لا أذكر هذه المتاعبَ قُنوطًا أو يأسًا، كلَّا، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧]، والاستِسلام لا يرضاه لنا دِيننا، ولا ترضاه لنا عُروبتنا، وإنَّما أذكر ذلك؛ استنهاضًا لهمم الرِّجال، وحثًّا لمروءتهم، ودفعًا لحميَّتهم الإسلاميَّة، فلعلَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين.

وممَّا يقصُّه علينا التَّاريخ أنَّ المغولَ لَمَّا هزموا جُيوش المسلمين، وسفكوا دماءهم، حاولوا أن يحوِّلوا المسلمين عن دِينهم، ولكنَّهم صمدوا له، وتمسَّكوا جهدهم به، ثمَّ بعد حين أسلم الغالبونَ، وصاروا جُنودًا للإسلام يدافعون عنه، ويَذُبُّونَ عن حِماه، فما بالنا اليوم قد اختلف الأمر، وصِرنا سلاحًا للعدوِّ ضدَّ ديننا، وأصبح ديننا الَّذي أرعب جُيوش المشرق والمغرب لا أثرَ له في قلوبنا، وصار أهله مستضعفين في الأرض يتخطَّفهم النَّاس؟! ألسنا أبناء أولئك الَّذين حوَّلوا المغول إلى صُفوف المسلمين؟! لماذا تحوَّلنا إلى صفوف المستعمرين، وتخلَّقنا بأخلاقهم،

(١) نكاية: أصاب منه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ١٣٠).

وقلنا أقوالهم، وطعنَّا في دِيننا، وعِبنَاه وكرهناه؟! كلُّ ذلك؛ بسبب جهلنا بديننا وبما فيه من مُقوِّمات ومعنويَّات، وقد استغلَّ العدوُّ جهلنا هذا، فاتَّخذه سِلاحًا ضِدَّنا وضدَّ دِيننا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرّعد: ١١]، أيُّها الإخوةُ! لن يتغيَّر حالنا إلَّا إذا تعلَّمنا العلم الصَّحيح؛ ما دِيننا؟ وبماذا يأمرنا وينهانا؟ وما تاريخنا؟ وكيف كنَّا؟ وكيف بنينا مجدنا؟ وما أسباب نجاحنا وإخفاقنا؟ وإنَّ الله لا ينظر إلى صورنا وأموالنا وترفنا ونعمتنا ودورنا ومراكبنا وأشكالنا، ولكنْ ينظر إلى قلوبنا الَّتي في صُدورنا، فاعلموا يا عباد الله، وأخلصوا النِّيَّة، و«**اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لـه**»[(١)]، ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

الإسلام والإنسانيَّة

الدِّين فطرةٌ فطرَ اللهُ النَّاسَ عليها، ومن ابتعدَ منه عاش بلا نظامٍ وأفسد أكثر ممَّا يصلح؛ لأنَّه معدوم الوازع، ولا موجِّه لأفعاله، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا؛ ليوجِّهوا الإنسان إلى تحرير أفكاره من الخرافة والشِّرك والعبوديَّة لغير الله؛ فالرُّسل والأنبياء جميعهم جاؤوا لتحقيق كلمة: لا إله إلَّا الله؛ أي: لا معبود بحقٍّ سوى الله، ولينظِّموا العبادة لهذا المعبود وحده، وليسيروا في الحياة سيرًا منظَّمًا، فيعيش

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٩٤٩)، ومسلم، رقم: (٢٦٤٩).

الإنسان مع بني جنسه آمنًا على نفسه وأهله وماله، حتَّى يستحقَّ كرامة الله لبني الإنسان.

وقد عُنِيَ الإسلام بالحياة كلِّها، ونظَّم شؤونها، ولم يترك صغيرًا أو كبيرًا من هذه الشُّؤون؛ ليعيش الإنسان سعيدًا، فليس هناك شيءٌ يُعين الإنسانَ على الحياة غير السَّعادة، والإسلام أقام كلَّ شيءٍ يصلح أن يكون سبيلًا إلى سعادة الحياة؛ فمجَّد كلَّ عملٍ من أعمال الخير، ورفع من شأنه، وأعدَّ لمن يعمله حياةً طيِّبةً في الدُّنيا، وثوابًا جزيلًا في الآخرة، وحذَّر من كلِّ عمل من أعمال الشَّرِّ، وأبان مضارَّه، وتوعَّد من يعمله بنكد الحياة في الدُّنيا، والجزاء الشَّرِّ في الآخرة، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

أمر الإسلام بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي؛ فالعدل يضمن الخير والمحبَّة والأمانة، ونقيضه الظُّلم يمحو كلَّ ذلك؛ ليحلَّ محلَّه الشَّرُّ والقطيعة والخوف؛ فظلمُ النَّاسِ بعضهم بعضًا يجعل صلة النَّاس بالنَّاس كرهًا وتوجُّسًا(١) وحذرًا وخيفةً، أمَّا العادلُ فيُحِبُّه النَّاسُ، فإن كان حاكمًا أَمِنَتِ الرَّعيَّةُ به على حالها فأحبَّته، وإن كان محكومًا احترمه النَّاس؛ لأنَّهم معه آمنونَ على حقوقهم، فالعادل يؤدِّي حقوق ربِّه، وحقوق نفسه، وحقوق بني جنسه من البشر، وهو المؤمن المسلم حقًّا الَّذي يصفه النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**المسلمُ من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده**»(٢)، «**والمؤمن من أَمِنَهُ النَّاس على دمائهم وأموالهم**»(٣)، وبالعدل يعرف الإنسان قدرَ نفسِه، وقيمةَ حياتِه، ومتى

(١) وجس: خَفي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/١٧).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١٠)، ومسلم، رقم: (٤١).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (٢٦٢٧)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

عَرَفَ الإنسان ذلك في نفسه عرفه لغيره.

والإحسان كتبه الإسلام على كلِّ شيءٍ، وأوَّله أن يعبد المسلم ربَّه كأنَّه يراه في المسجد وهو يصلِّي، وفي خلوته وهو صائم، وفي سوقه وهو يبيع ويشتري، أو يقضي ويقتضي، وفي بيته وهو يرعى أُسرتَه ويربِّي أولاده، فإن لم يكن يراه فالله يراه، وهو تحت مراقبته في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياة، وقد أخبرنا الرَّسول ﷺ عن معنى الإحسان بقوله: «**أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»[١]، ومتى كان الإنسان كذلك اطمأنَّ في حياته المنظَّمةَ، وعاشَ على وجه الأرض سعيدًا لا يخاف إلَّا الله، فلا يحيف[٢] على أحد، ولا يحقد، ولا يغشُّ، ولا يطغى على ضعيفٍ، ولا يبغي على بائسٍ.

وبيَّنَ الإسلامُ أنَّ طرق الفحشاء والمنكر والبغي وعرةٌ، لا يسلم سالكها من شرٍّ يدفع به إلى حقدٍ في المجتمع، ويثمر فيه كراهيةً وانحلالًا، فمهَّد لأمَّته طريقًا سهلةً، تحمي المجتمع بنظام يضمن فيه للنَّاس إخاءً ومحبَّةً وسلامًا، حتَّى تكون الأمَّة الإسلاميَّة خير أمَّةٍ؛ تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتصفو فيها القلوب بالإيمان، فلا كراهية ولا حقد ولا ظلم ولا خوف.

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠)، ومسلم، رقم: (٨).
(٢) الحيف: الجَور والظُّلم، وقيل: هو الميل في الحكم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ١٧٦).

الإسلام دين الحياة

أرسل اللهُ جلَّ جلاله نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالإسلامِ، والنَّاسُ في جهالة مطبقة، وضلالٍ مُظلم، والعقول تتخبَّط في ظلمات الجهالة، فلا إدراك ولا نضوج، أصنامٌ تُعبَد، وقويٌّ مُتَسلِّطٌ، وضعيفٌ مهان، وشريفٌ يأخذ الحقَّ وإن كان مبطلًا، ووضيعٌ يأخذ بالباطل وإن كان محقًّا، والنَّاس طبقاتٌ؛ إنسانٌ له المكانة؛ لأنَّه شريف، وإنسانٌ لا مكانة له بين الشُّرفاء؛ لأنَّه وضيع، ثمَّ جاءَ الإسلامُ ليُنقِذَ البشريَّةَ من ذلك كلِّه، ويخلِّصها ممَّا ألفته من تقاليد وعادات كان عليها الأقدمون، وليمحو الشِّرك، ويخلِّص البشريَّة من عبادة آلهةٍ لا تسمع ولا تبصر ولا تُغني من الله شيئًا، وجاء ليمحو من عقولهم ما كان بها من خرافات اعتقدوها، وهي بعيدة من الحقيقة والعقل المدرك، وليضيء لهم طريق الحياة بمشعل العلم، فينقل البشريَّة من الضَّلالة إلى الهداية، ومن الظَّلام إلى النُّور، وليرتفع بها إلى قِمَّة المجد، ويُحرِّرها من قيود الذِّلَّة والمهانة، ويبتعد بها من الضَّلال، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

جاء الإسلام بالشَّريعة السَّمحة الوسط الَّتي مزجت بين الدُّنيا والدِّين، بل جعلت الدُّنيا من الدِّين؛ فلم تصرف المسلم إلى النَّاحية الرُّوحيَّة حتَّى لا يفقد قوَّته الَّتي تصله بالحياة، ولا صرفته إلى الإغراق في الدُّنيا حتَّى لا تنقطع صلته بربِّه سبحانه وتعالى؛ لهذا كان على المسلم أن يعمل لدنياه وكأنَّه يعيش أبدًا، ويعمل لآخرته وكأنَّه سيموت غدًا، وقد ورد في

الحديث قوله ﷺ: «**اعمل عمل امرئٍ يظنُّ أنَّه لا يموت أبدًا، واحذر حذر امرئٍ يخشى أن يموت غدًا**»(١).

هذا وقد قال الله في كتابه العزيز حكايةً عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]، فالإسلام لم يحرِّم على المسلمين زينة الله الَّتي أخرج لعباده والطَّيِّبات من الرِّزق، بل حبَّذا تحدُّثُ المسلمين بنعمة الله عليهم، وظهورُهم بمظهر الجمال أمام غيرهم، فقد قال الرَّسول ﷺ لأمَّته: «**أحسنوا لباسكم، وأصلحوا رحالكم، حتَّى تكونوا كأنَّكم شأمة(٢) في النَّاس**»(٣).

والإسلام جاء يختم الأديان، كما ختم جلَّ شأنه بالمبعوث به ﷺ رسالات السَّماء، وجعل أمَّته أمَّةً وسطًا، ليكونوا شهداء على النَّاس ويكون الرَّسول شهيدًا عليهم، ودينٌ هذا شأنه أوجب على متَّبِعِهِ أن يسمو بنفسه إلى المستوى الأعلى؛ فحرَّم عليه جميع ما يُدنيه، أو يضعه عن سُمُوِّه، فلا يزني؛ لأنَّ الزِّنا فاحشة ومقت ودناءة، ولا يشرب الخمر؛ لأنَّ الخمر يذهب بلبِّه وعقله وينزل به إلى مستوى البهائم، ولا يسرق؛ لأنَّ السَّرقة خيانة والخائن منبوذٌ، ولا يصخب في الأسواق؛ لأنَّ ذلك

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٤٧٤٤).

(٢) الشَّأمة: الخال في الجسد معروفة، أراد: كونوا في أحسن زِيّ وهيئة حتى تظهروا للناس وينظروا إليكم كما تظهر الشَّامة وينظر إليها دون باقي الجسد. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٤٣٦).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٣٧١).

مُذهِبٌ لكرامة الإنسان، ولا يغتاب، ولا يخون، ولا يخلف وعدًا، ولا يكذب، ولا يقطع رحمًا؛ لأنَّ هذا من دنايا الصِّفات ورذائل الأعمال.

والإسلام أعطى للمسلم حرِّيَّة التَّصرُّف في ماله، لكن ضِمْنَ حدود العقل، فمتى صرف ماله في غير ذلك حُجِرَ عليه؛ لأنَّ الله جعل المال قيامًا تقوم عليه قوَّة الأمَّة، وفيه زينة الحياة وعُدَّة الجهاد، فكان من أمره لعباده: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥].

والإسلام فرض على المسلم عبادات في أوقاتٍ معيَّنة يتوجَّه فيها العبد إلى ربِّه، فالصَّلوات موقوتةٌ بوقتٍ، يتفرَّغ فيه العبد من مشاغل الدُّنيا لربِّه، والزَّكاة تطهيرٌ للنَّفس من الشُّحِّ وإيثارٌ وكرمٌ، والصَّوم تهذيب وصدق وتعويد على الصَّبر، والحجُّ عبادة وانتقالٌ يجمع بين المسلمين في مختلف بلادهم وتباين أجناسهم وجنسيَّاتهم، وهذه العبادات أوامر، لكنَّها ترتفع بالمسلم إلى فضائلَ لا تُذِلُّ المأمور أو تكلِّفه وتُثقِله، بل ترتفع به إلى الإنسانيَّة الكاملة المهذَّبة من الصِّفة الحيوانيَّة.

هذا هو دينك أيُّها المسلم، وليس كمثله دينٌ يجمع بين الدُّنيا والآخرة والعمل والمعاملة، ويجعل من المسلم مألوفًا، كما قال ﷺ: «**المؤمن يَألَفُ ويُؤلَف، ولا خيرَ فيمن لا يَألَف، ولا يُؤلَف**»(١)، وهو دينٌ من تمسَّك به وصل إلى ربِّه وألف بني جنسه من البشر وألفوه؛ وحمى نفسه بنفسه من نوازع النَّفس الأمَّارة بالسُّوء، ووجَّهَهُ دينُه بهذه النَّفس إلى مستقبلها السَّعيد في حياتها الأولى، وإلى نعيمها الدَّائم في حياتها

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٧٧١).

الأخرى، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النّحل: ٩٧].

والإسلام لم يأتِ بقوَّةٍ تأخذ النَّاس بالإكراه إليه؛ لأنَّه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، ولأنَّ محمَّدًا ﷺ ليس بمسيطر ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغَاشِيَة: ٢٢]، وإنَّما كانت الوسيلة الَّتي اتَّبعها تقوم على أساس قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥]، إقناعٌ بالدَّليل والبرهان والحقِّ والمنطق، يدعو النَّاس ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسرَاء: ٣٤] إلى الخير والإخاء والمساواة والسَّلام وصلة الرَّحم وبذل العون والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى والعدالة بالحكم، ويدعوهم إلى الفضائل جميعها، وفي كلِّ ذلك ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

إنَّ الإسلام هو الحقُّ، وإنَّه الدِّين الَّذي يجب أن يسود ويعلو، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التّوبَة: ٣٣]، وكلُّ إنسانٍ يدعو إلى هذا هو داعيةُ خيرٍ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت: ٣٣]، ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣٢].

الإسلام سلامة

تكلَّمنا على الإسلام كثيرًا وسنتكلم عليه ما عشنا؛ لأنَّ الكلام فيه لا يخلق[1] ولا يُمَلُّ، والمسلم السَّامع الحديث عن دينه لا يكلُّ، والإسلام ليس دعوى مُدَّعٍ، ولا زعامة زعيم، ولا وسيلة منافع، ولا هو راية وحسب، ولا كلمة تقال باللِّسان فقط، ولا شعار ولا هتافات ولا تقاليد، وإنَّما الإسلام عقيدةٌ محلُّها القلب، وطاعةٌ، واتِّباعٌ، ومحلُّ ذلك العمل بالجوارح ومعاملة النَّاس.

جاء الإسلام إلى البشريَّة وهي في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، جهل وظلم وضلال وخرافات وفوضى في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياة، فأنار لها الطَّريق، فمشت عليه سويًّا إلى حياة الكرامة والعزَّة والحرِّيَّة، فكانت الحياة مع الإسلام جميلة؛ فالحرِّيَّة مكفولة، والمال مُصان، والحقُّ مُقدَّس، والكرامة محفوظة.

ومن يعرف حقيقة الإسلام، يشعر بسعادة ما فوقها سعادة؛ لأنَّ الإسلام أعطى كلَّ فردٍ من أمَّته حقًّا لإنسانيَّته، «**لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى**»[2]، ولا سلطة لأحدٍ على أحدٍ إلَّا لوليِّ الأمر في حدود التَّأديب والقانون واحترام الشَّخصيَّة؛ ولهذا كان الإسلام عدالة شاملة، لا ظلم ولا استثناء ولا حقد ولا ضغينة.

---

(١) خلق: بلي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٥/ ٢٥٥).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٥٤٧).

وقد محا الإسلام التَّفاضل بين النَّاس إلَّا بالتَّقوى، وجعل من المسلمين أمَّةً واحدةً «**تتكافأ دماؤهم**»(١)، فهم «**سواسية كأسنان المشط**»(٢)، غنيُّهم كفقيرهم، وكبيرهم كصغيرهم، «**لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأبيض على أسود إلَّا بالعمل الصَّالح والتَّقوى**»(٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، مادَّة خالدة في دستور الإسلام، عجزت الأمم أن تُطَبِّقَ مثلها، كرامة يكتسبها الإنسان بعمله الصَّالح الَّذي يعمُّ نفعه، وبتقواه وسلامة المسلمين من أذاه، وليس هناك تقدير للحسب والنَّسب والثَّروة والجاه والمنصب والعرق واللَّون، وإنَّما التَّقدير والوزن بالتَّقوى والعمل الصَّالح.

والإسلام فرض على المسلمين الحرِّيَّة الاجتماعيَّة الَّتي سمَّاها العصر الحاضر: حرِّيَّة التَّعبير عن الرَّأي، يعرب المسلم فيها عن رأيه إعرابًا لا يخاف فيه إلَّا الله، فقد فرض الإسلام على المسلمين الجهاد، بل جعله سهمًا من سهام الإسلام الثَّمانية، لما ورد في قوله ﷺ: «**والجهاد في سبيل الله سهمٌ**»(٤)، وأفضل هذا الجهاد «**كلمة حقٍّ عند سلطانٍ جائرٍ**»(٥)، وقال الرَّسول ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، رواه الإمامان

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٦٨٣).
(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٤٨٢٢).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٦).
(٤) رواه البزار، رقم: (٢٩٢٧).
(٥) رواه الترمذي، رقم: (٢١٧٤)، وقال: حديث حسن غريب.

مسلم وأحمد عن أبي سعيد[١].

والإسلام صان المال وحفظ الحقوق، فلا تبذير ولا إسراف ولا بذخ، فكلُّ ذلك سفاهةٌ وطيشٌ، والسَّفيه الطَّائش محجورٌ عليه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النِّساء: ٥]، ثمَّ يصف القرآن عمل السَّفيه الطَّائش بالتَّبذير ويجعله في صفِّ الشَّياطين: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٧].

وجعل بعد هذه الصِّيانة وهذا الحفظ في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للسَّائل والمحروم، فبالبذل يقي الغنيُّ نفسه داء الشُّحِّ والاستئثار، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ويعيش المحروم بهذا الحقِّ عيشة العزَّة والتَّعفُّف والقناعة بوصفه إنسانًا كريمًا كرَّمه الله.

وفي الإسلام تصان الأديان صيانةً مطلقةً، لا يطغى فيها دينٌ على دين، ولا مذهبٌ على مذهب، ولا طائفةٌ على طائفة؛ لأنَّ الإسلام دينٌ لا يقوم على الإكراه والقهر، فقد قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا شعارٌ خالدٌ سجَّله الإسلام، وسيبقى متلوًّا ما بقيت الأرض أرضًا والسَّماء سماءً: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

لقد عاش مع المسلمين أممٌ يدينون بأديان مختلفة دهورًا طويلة، وعاشوا بأهليهم وذراريِّهم يتمتَّعون بحرِّيَّة مطلقة، آمنين مطمئنِّين على أنفسهم وأموالهم، لا يكلَّفون بدفاعٍ، ولا بحمل سلاحٍ، لقاءَ ضريبةٍ قليلةٍ

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٩)، وأحمد، رقم: (١١١٥٠).

تؤخذ باسم: الجزية، وذلك من القادر على دفعها؛ لأنَّ الإسلام جاء هاديًا ولم يَجِئْ جابيًا.

أيُّها الإخوة؛ ليس للبشريَّة منجاة من شرورها ولا ملجأ من مصائبها إلَّا بالإسلام الَّذي لا يرضى الله بغيره دينًا للبشريَّة جمعاء؛ لأنَّه دين توحيد لله ﷻ، والاستسلام لهذه الألوهيَّة بالتَّوحيد الخالص لا يُبقِي في قلوب العباد سلطانًا لغير الله؛ لأنَّ هذا الغير مخلوقٌ كسائر المخلوقات، ليس بيده أمرٌ من أمور البشر، بل هو ضعيفٌ عاجزٌ مثلهم جميعًا.

وإنَّه لجديرٌ بنا - نحن المسلمين - بعد أن مررْنا بالمرحلة القاسية أن نعمل للإسلام، ونتَّحد من جديد متَّجهين بكلِّيَّتِنا إلى صراط الإسلام المستقيم وقواعده المتينة، مستأنفِينَ البناء بعزمٍ جديدٍ، داعين إلى صراطه بإيمانٍ قويٍّ جديدٍ، تاركين الضَّوضاء والأقوال الفارغة والدِّعايات الكاذبة والشِّعارات المزيَّفة، فقد ذمَّ الله الَّذين يحملون الشِّعارات دون أن يعملوا بما فيها، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣].

الإسلام كلُّه خير، وما سوى الإسلام من مبادئ لا خير فيه، بل فيه الشَّرُّ كلُّه، والإسلام لا يرضى بالشَّرِّ للنَّاس عامَّةً ولا يريده لأمَّته خاصَّةً، فبالإسلام وحده - الَّذي لا تصبغه صبغة مستوردة من شرقٍ أو غربٍ، والَّذي يوطِّد مفاهيم العدالة الاجتماعيَّة على أسلم القواعد وأمتن الأسس، والَّذي جاءنا بأنقى التَّعاليم، والَّذي قال ربُّ العالمين فيه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣] - نعود إلى الكرامة والحرِّيَّة والمجد، وبه تأمن البشريَّة من خوف، وتسلم من ضُرٍّ، وتهدأ من فوضى، وترشد من غَيٍّ.

إذا رجَعْنا مع التَّاريخ إلى الماضي رأينا المراحلَ الَّتي حكم فيها المسلمون كتابَ الله وحدَه هي الأزمانُ الَّتي ذاقَ فيها النَّاس طعم العدالة، ونعموا ببرد القِسْط، وانتظمت حياتهم على الصِّراط المستقيم، وإذا انتقلْنا مع الزَّمن إلى المراحلِ الَّتي حكم فيها النَّاسُ قانونًا من صنع البشرِ رأينا الظُّلم عيانًا؛ ظلم الفرد للفرد، والفرد للجماعة، والجماعة للفرد، وظلم طبقة من النَّاس لطبقة، أو أمَّة لأمَّة، أو جيل لجيل؛ لأنَّ صنع البشر يلازمه جهل البشر وقصوره، وتلازمه الأنانيَّة والفقر والباطل، وعدل الله هو المُبَرَّأُ وحده من الميل والزَّيغ والهوى والباطل، لا إله إلَّا هو العزيز الحكيم.

الدِّين فطرة

الدِّينُ في الإنسان فطرةٌ، ولا بدَّ لكلِّ فردٍ من بني الإنسان أن يتديَّن بدينٍ، والدِّين كالشُّعوب يحيا وينمو ثمَّ يضعف وقد يموت، شأنه شأن الأمم الَّتي به تدين، والشَّعب الَّذي به يتعبَّد.

والإنسان منذ وجِدَ على الأرض متديِّنٌ، والدِّين فيه غريزةٌ كسائر الغرائز، لا تختفي تمامًا إلَّا في الإنسان المتحضِّر المتطرِّف في حضارته، وفي عددٍ من المتحضِّرين محصورٍ جدًّا، وقد أشار القرآن إلى هذه النَّاحية بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٢]، وبالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾

[الزُّمَر: ٨]، وبالآية الكريمة: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٩].

والإنسانيَّة مذ كانت عَرَفَتْ من الأديان السَّماويَّة وغيرها شيئًا كثيرًا، وتعبَّدَ الإنسانُ بغيرِ السَّماويَّةِ الأوثانَ والأشجار والأحجار والنِّيران والبحار والأنهار والجبال والكهوف والأنصاب والقبور، والقوى الطَّبيعيَّة كالرَّعد والبرق والرِّيح والمطر والهواء، فما كان يلائمُ فطرتَه منها عاشَ طويلًا، وما لم يلائم قُضِيَ عليه معَ هلاكِ داعيتِه.

وقد تدين أمَّة بدينٍ لا ترضاه أمَّة غيرها؛ لأنَّه دينٌ يصادم طبائعها وحياتها وتقاليدها، فالدِّين أمرٌ طبيعيٌّ في الإنسان، أصيلٌ في أعماقه، تحتاجه نفسه كبقيَّةِ حاجاتها الطَّبيعيَّة الأخرى، ويهيمن على المرء طول حياته في أيِّ زمنٍ كان، وفي أيِّ عصرٍ عاش، وسيبقى ما بقيت الإنسانيَّة، ومهما تطوَّرت وتحضَّرت، ومهما وصلت بعقلها إلى درجاتٍ من المدنيَّة والثَّقافة والعلوم الدُّنيويَّة.

وليس يحيا دينٌ ولا ينمو ولا يعيش الزَّمن الطَّويل ولا يعلو شأنه إلَّا إذا كان إنسانيًّا؛ بمعنى أنَّه يضمن للإنسان حياةً صحيحةً تُلائِمُ بشريَّتَه، خالية من الكدر والتَّعسُّف والفوضى، ولا تُصادِم الغرائز الإنسانيَّة ولا طباعها، وتُوافِقُ الشَّعبَ في تقاليده الحسنة وعاداته الرَّفيعة الَّتي اعتادها، وتُوافِقُ العقل الإنسانيَّ السَّليم، دينٌ يرقى بروح المتديِّنِ إلى مدارج الرُّقيِّ، ويسمو به إلى سماء المجد، ويخلِّصه من الحيوانيَّة الدَّنيئة؛ لأنَّ الله جلَّ شأنه خلق البشر وفضَّلهم على سائر مخلوقاته بأن وهبهم عقولًا يدركون بها، وألسنةً ينطقون بها، وأفكارًا يستعملون بها هذه العقول

والألسنة، وجعل العلم والذَّكاء صيقلًا[١] تُصقل به هذه العقول، وبعث للنَّاس رسلًا منهم يعلِّمونهم العلوم حتَّى يرتقوا بالإنسانيَّة من حيوانيَّتها؛ لأنَّ الدِّين الصَّحيح والدَّعوة النَّبويَّة الحقَّة هي توجيه غريزة الإنسان الدِّينيَّة إلى الحقِّ الصَّريح والوجهة الصَّحيحة؛ لتصل به إلى الدِّين الحقِّ.

وكان الوحيُ الإلهيُّ وإرسال الرُّسل به مبشِّرين ومنذرين في عصورٍ وأزمانٍ مختلفة رحمةً بالنَّاس جميعًا، رحمةً من الله تهتدي بها النُّفوس الضَّالَّة، وتصل بها العقول إلى الحقيقة المطلوبة من أقرب الطُّرق وأيسرها، فبعث الله الأنبياء، منهم من قصَّه القرآن علينا كإبراهيم وصالح وهود ويونس وشعيب وغيرهم، ومنهم من لم يقصص علينا قصَّته، وكما بَعَثَ موسى بالتَّوراة وعيسى بالإنجيل بعث محمَّدًا بالقرآن صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

يأتي واحدٌ من هؤلاء الرُّسل ليجد عبدة الأصنام والأنصاب وغيرها، فيدعوهم إلى عبادة الله خالقِ ما يعبدون، فمنهم من يؤمن به ويُصَدِّقه، ومنهم من يكفر به ويكذِّبه، وكذلك سائر الأنبياء.

وآخر الأديان السَّماويَّة الإسلام، أرسل الله به محمَّدًا خاتم رسل الله بالدِّين الَّذي ارتضاه للنَّاس جميعًا في كلِّ عصرٍ ومكانٍ، وهذا الدِّين انتشر في بقاع الأرض، وعَلِمَت البشريَّة أنَّه دينُ عقلٍ وبرهانٍ ووجدانٍ، يرتفع بالبشريَّة إلى ما تصبو إليه من حياةٍ طيِّبةٍ، وأخلاقٍ كريمةٍ، وثقافةٍ عاليةٍ، وتشعر الإنسانيَّة أنَّها بحاجةٍ إليه في كلِّ حينٍ؛ ليوفِّر لها حياةً أفضلَ، ولا

(١) صَيقَل: من يجلو السُّيوف ويشحذها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصر، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٣٠٩).

أُلقي الكلام على عواهنه(١)، بل إنِّي أُقدِّم بعض البراهين على ما أقول:

الإسلام دين توحيدٍ، يؤمن بأنَّ اللهَ واحدٌ قيُّومٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورىٰ: ١١]، وهذا التَّوحيد يسمو بالإنسان إلى عبادة الله وحده، ويرتفع به لئلَّا يُعبدَ أحدٌ غيره من المخلوقين، سواء أكان بشرًا - حيًّا أو ميِّتًا - أم حجرًا أم شجرًا أم قوَّةً من قوى الطَّبيعة، فإذا أخلص الشَّخص عبادته لله وحده فإنَّه لا يخاف إلَّا الله، ولا يرجو أحدًا سواه، ولا يثق إلَّا بقوَّته، فيسعى مطمئنًّا واثقًا بنفسه قويًّا بإيمانه، يعمل للمجد، ويسعى للسُّؤدد، ويثق بأنَّ المستقبل له، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: ٦٩].

والإسلام بفرائضه يربِّي البدن والنَّفس، فالصَّلاة رياضةٌ بدنيَّةٌ، وهي في الوقت نفسه تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصِّيام صحَّةٌ، وهو في الوقت نفسه يهذِّب النَّفس الأمَّارة بالسُّوء كي لا تسيطر على بدن صاحبها وتقوده إلى الشَّهوات، والزَّكاة صلةٌ ووقايةٌ للإنسان من رذيلة الشُّحِّ ودناءه البخل، يؤدِّيها المزكِّي طائعًا مختارًا، لا يخشى جابي ضرائب ولا مُحصِّل رسومٍ، وإنَّما الجابي المحصِّل هو وجدانُه الدِّينيُّ، وهو وحده الآمر النَّاهي.

وفي الإسلام عمران البيوت، فالعلاقة فيه بين الرَّجل ووالديه وأولاده علاقةُ برٍّ وإحسان تربط بينهم، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العَنكبوت: ٨]، والعلاقة بين الرَّجل وأرحامه تربطهم بصلة الرَّحم؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَأُو۟لُوا۟

(١) رمى الكلام على عواهِنِه؛ أي: لم يتدبَّره، وقيل: أورده من غير فكرٍ ورَوِيَّةٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ٤٣٩).

﴿ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأحزَاب: ٦]، والعلاقة بين الرَّجل وزوجته مؤسَّسَةٌ على التَّفاهم والتَّعاون، فهو ليس عبئًا على الزَّوجة، ولا هي قيدٌ له، وإنَّما هما قوَّتان تعملان على إشادة بيتٍ سعيدٍ، وتربية جيلٍ جديدٍ، تسعد به الأمَّة في مستقبلها، ويكون لبنة قويَّة في بناء مجدها، ومتى رأى الإسلام أنَّ هذين الزَّوجين لا يستطيعان الألفةَ والعيش معًا أباحَ لهما الفُرقةَ، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٣٠]، ففي الإسلام حرِّيَّة، وهي: عقدٌ يقود، وإرادةٌ تعلو، وشريعةٌ تحكم، وكما أعطى الإسلام الحرِّيَّة للرَّجل أعطاها للمرأة، تستأمر في زواجها، فلا تُجبَر على من لا ترضاه بعلًا لها حتَّى تتحمَّل التَّبعة، فلا تلقي اللَّوم على وليِّها، وليس من الإسلام إجبار المرأة على البقاء مع زوجٍ يكون عيشها معه شقاقًا وكدرًا، فالإسلام يقول لنا: «**لا ضرر ولا ضرار**»(١).

والإسلام واسع الصَّدر، يتحمَّل مخالفيه، ومن دان بغير دينه فيسمح لهم بالحياة إلى جانبه آمنين مطمئنِّين، لا يخافون ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخشون اعتداءً ولا استبدادًا، يأمنونَ من كلِّ هوانٍ واستعبادٍ.

والإسلام يأمر بالانتفاع من كلِّ عاملٍ نافعٍ ما دام مقبلًا على عمله مخلصًا فيه، ومهما كان دين هذا العامل ينظر الإسلام إلى نفعه وأمانته ولا ينظر إلى دينه؛ لأنَّ الإسلام قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝﴾ [الكافرون: ٦]، وقال: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦].

والمسلمون متى فهموا الإسلام حقًّا كانوا بمنجاة من الشُّيوعيَّة

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٨٦٥).

الملحدة وفوضويَّتها، والمبادئ الهدَّامة، والمذاهب المدمِّرة الَّتي يشكو النَّاس منها في مشارق الأرض ومغاربها، ولا منجاة للنَّاس منها إلَّا باعتناق الإسلام الحنيف، والنَّتيجة المرجوَّة من شبابنا وشيبنا ونسائنا ورجالنا أن يفتحوا الأعين على محاسن هذا الدِّين؛ دين الإسلام، وأن يعرفوه حقَّ المعرفة بدراسة سيرة المبعوث به محمَّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، ثمَّ دراسة مبادئ الإسلام، وما كتبه أولئك الَّذين اعتنقوا الإسلام من رجال الغرب، فقد كتبوا في الإسلام عن قناعةٍ شديدةٍ كتبًا تُرجِمَ بعضها إلى اللُّغة العربيَّة؛ لأنَّ هؤلاء كانوا غرباء عن الإسلام، ثمَّ اعتنقوه بعد دراسةٍ طويلةٍ، وآمنوا بنبيِّه بعد بحثٍ وتمحيصٍ، فيا أيُّها الإخوة المسلمون! أرجو أن تفتحوا الأعين على محاسن دينكم، وتتعرَّفوا حقيقته، وتقدِّروا مبادئه العليا الَّتي شرَّفت أسلافنا، ورفعت مكانتهم بين الأمم، سيروا سيرهم، واسلكوا سبيلهم، فإنَّكم - والله - مطالبون ببناء مستقبلكم؛ مستقبل الإسلام العظيم.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمَّد: ٧].

الحرِّيَّة ومعناها وأنواعها

الحرِّيَّة ضدُّ العبوديَّةِ والرِّقِّ، ومعناها: أن يكون الإنسان باختياره قادرًا على فعل شيء أو تركه؛ أي: إنَّه طليق في كلِّ شأن من شؤونه، هذه هي حُرِّيَّة الشَّخص.

أمَّا حرِّيَّة الأمَّة فهي أن يكون كُلُّ إنسانٍ في الأمَّة متمتِّعًا بالحقوق المعطاة له، بموجب النِّظام الوطنيِّ أو الدُّستور؛ أي: أن يكون الفرد في الأمَّة متمتِّعًا بحرِّيَّة الإرادة، والفكر، والعمل، والنَّفس، والحرِّيَّة الأدبيَّة، وحرِّيَّة التَّعليم، إلى غير ذلك من الحرِّيَّات، بموجب النُّظم والقيود والحدود، وكلُّ هذه الحرِّيَّات مقيَّدةٌ بقوانين تجعلها ذات حدود.

والحرِّيَّة هي الفطرة الَّتي فطر الله عليها مخلوقاته من بشرٍ وحيوانٍ، وهي في الحيوان مقيَّدة في كلِّ صنفٍ بما يلائم فطرته، فهي عنده مقيَّدةٌ بالفطرة، أمَّا الإنسان فالحرِّيَّة عنده مطلقةٌ بالفطرة؛ لأنَّ له عقلًا يدرك، واستطاع بهذا العقل أن يقبل ما يستحسن، ويرفض ما يستقبح، ويعمل ما يُحِبُّ، ويترك ما لا يُحِبُّ، واستطاع أيضًا بإدراكه أن يسنَّ قوانين قد تصلح لِقُطْرٍ ولا تصلح لآخر، ويشرِّع شرائعَ قد توافق أمَّةً دون أخرى، فاتَّخذ كلُّ شعبٍ تقاليده، وكلُّ أمَّةٍ مدنيَّتها، بهذا وغيره تنافست الأمم، ولولا هذا التَّنافس لما ظهرت في العالم شموس المعارف، ولا أضاءت أنوار الثَّقافات، ولا برز في ميدان التَّسابق رجالٌ عقلاء، ولولاه أيضًا لما عُرِفَ نافعٌ وضارٌّ، وحسنٌ وقبيحٌ، ولا امتاز عاقلٌ من جاهلٍ، ولولا العقل لكان الحال في النَّاسِ كلِّهم سواء، كما هي في الحيوان؛ لهذا نرى النَّاس في البلاد المستعبدة المضغوط على حرِّيَّتها كالبهائم، بل هم أضلُّ

من البهائم عقولًا.

والحرِّيَّة في الإسلام عقلٌ يقود، وإرادةٌ تعلو، وشريعةٌ تحكم، وقد جاء محمَّدٌ ﷺ بالإسلام، والنَّاس بين فاضلٍ ومفضولٍ، ومستعبِدٍ وعبدٍ، ومستكبِرٍ ومستضعَفٍ، وشريفٍ، ووضيعٍ، والعقل مقيَّدٌ بخرافات يدين بها النَّاس، وأساطير تعتقدها، فثار الإسلام ثورته في الميادين جميعِها، فكانت أوَّل انطلاقاته أن حرَّر العقل من قيود الخرافات وسيطرة الأساطير، ثمَّ حكَّمه في شؤون الحياة كلِّها، فكان أوَّل تعاليمه لهذا العقل أنَّ الحرِّيَّة فطرة الله الَّتي فطر النَّاس عليها، وأنَّها حقٌّ طبيعيٌّ لكلِّ إنسان، لازمة له لزوم الهواء لرئتيه، ضروريَّة له ضرورة النُّور لعينيه، ثمَّ حرَّر الإسلام التَّفكير؛ لأنَّ العقل متى تحرَّر من قيود الخرافات انطلق يفكِّر في ملكوت السَّماوات والأرض، وفيما أودع الله في هذا الكون من أسرار وقوى وتفاعلات، والتَّفكير سرُّ تَقَدُّمِ البشر، يُنَمِّي العقلَ، ويرفع من شأن الإنسان، كما أنَّ الجمود يعمي البصيرة، ويطفئ جذوة العقل، وهذا معنى قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: ١٨٥]، والإسلام يأمر دائمًا باستعمال العقل وإطلاق نشاطه التَّفكيريِّ في كلِّ ما أودع في هذه الكائنات الحيَّة والجامدة.

ولقد انتقى الفكر الإسلاميُّ في عصوره الأولى ذخائر عظيمة كانت السَّبب المباشر في إقامة النَّهضة العالميَّة الموجودة، فعلومُ الطِّبِّ والكيمياء والطَّبيعة والحيوان والجبر والرِّياضيَّات كلُّها كانت بذورًا بذرتها عقولٌ مفكِّرة إسلاميَّة، وتَعَهَّدتها عقول مفكِّرة أخرى بعد تلك العقول من بلادٍ شتَّى وجنسيَّات أخرى حتَّى أتت ثمرتها ضعفين أو أكثر، هذا إضافة

إلى ما أنتجه الفكر الإسلاميُّ من فقه، وتوحيد، ومنطق، وفلسفة، ولغة، وعلوم أخرى ازدانت بها المكتبات، واستنارت بها العقول، ولم يُحَرِّم الإسلام شيئًا على التَّفكير غير شيءٍ واحدٍ، هو التَّفكير في ذات الله؛ لأنَّ ذات الله الخالق لا يحيط بها فكرُ مخلوقٍ، ولأنَّها فوق الإدراك.

الحرِّيَّة السِّياسيَّة

يقول الله ﷻ لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ويقول له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، ويقول أيضًا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالرُّجوع إلى أمَّته فيما لم يتنزَّل به القرآن، أو يوحى به إليه في شأنه، فيستشير ويأخذ بما أجمع عليه أصحابه ولو خالف ذلك رأيه.

والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام في حياته يمثِّل الحاكم، لكنَّ الرَّسول اختاره الله بأن أوحى إليه، بينما الحاكم الَّذي يأتي من بعده تختاره الأمَّة ولا يوحى إليه، فهو عرضة للأخطاء الَّتي عُصِمَ منها النَّبيُّ ﷺ.

والقرآن والسُّنَّة أمرا الأمَّة أن تنصح لله ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم، كما أمرت أولي الأمر أن يشاوروا الأمَّة فيما لها وعليها، وخير مثالٍ نعرضه: كلمة الصِّدِّيق رضي الله عنه لمَّا بُويعَ بالخلافة، تلك الكلمة الَّتي ما زالت حيَّة يردِّدها التَّاريخ جيلًا بعد جيل: «**أيُّها النَّاس! إنِّي وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على**

باطلٍ فسدِّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»[١]، وكذلك كلمة عمر رضي الله عنه لمَّا بُويع بالخلافة قال: «**من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمه**»[٢]؛ يعني: يشِرْ عليَّ وينصحْني.

حُرِّيَّة العامل

للعامل في الإسلام حرِّيَّته، فله أن يمارس أي نشاطٍ يتكسَّب منه، وأن يعمل في أيِّ مجال، وله أن يتصرَّف أيَّ تصرُّفٍ؛ فيزرع، ويعمل بيده، ويتاجر، ويجوب البلاد، ويضرب في الأرض والبحر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك: ١٥]، لكنَّ الإسلام جعل لهذا الكسب دائرةً، هي دائرة ما أحلَّ الله، فلا يخرج منها إلى ربا أو استغلال أو احتكار، وهي محرَّمة في الإسلام، والعقل ينكرها أيضًا؛ لأنَّها ضارَّة بمصلحة الأمَّة، ووسيلة لسيطرة رأس المال.

وملكيَّة الفرد في الإسلام حُرَّة مصونة، لا تَحَكُّم لأحدٍ عليها، لكنَّها مرتبطة كارتباط الكسب بمصلحة الجماعة، فلا إنفاق في معصية، ولا فيما حرمَّ الله، ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ﴾ [الإسرَاء: ٢٧]، والمبذِّر حجرتْ عليه الدَّولة؛ لأنَّ في حفظ ماله مصلحتَه، وفي مصلحته مصلحة الأمَّة.

(١) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه (٤/ ١٥٠).

(٢) انظر: تفسير المراغي (٨/ ٣٢).

الحرِّيَّة الدِّينيِّة

المواطنون جميعهم في دينهم أحرارٌ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، و﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، فالمواطنون من غير المسلمين حَمى الإسلامُ كرامتَهم، وصان حقوقهم ومعابدهم وطقوسهم في حدود ما يدينونَ معَ التزام الأدب مع مواطنيهم المسلمين، واحترام شعورهم.

معنى الحرِّيَّة

الإسلام لا يريد أن تكون الحرِّيَّة هوىً يُتَّبع، أو شهوةً تُطاع، ولا يريد أن تكون فوضى، ولا يريد أن يكون الإنسان عبدًا ذليلًا لشهواته، بعد أن يتحرَّر عقله وتفكيره.

والإسلام يعدُّ كلَّ فردٍ في الأمَّة عضوًا من أعضائها ولبنة في بنائها، فلا يملك نفسه، وإنَّما هو ملك هذا البناء أو هذا المجتمع، فلا حرِّيَّة له في إتلاف نفسه، ولا حرِّيَّة له في إتلاف ماله أو عقله بالمسكرات أو المخدِّرات، ولا في إتلاف أيِّ عضوٍ من أعضاء بدنه.

الحرِّيَّة في الإسلام حقٌّ لازمٌ لكلِّ مواطنٍ، ولكنَّه حقٌّ محاطٌ بسورٍ

يحفظه أن يضيع، وهو حقٌّ يحفظ المواطنُ به عقله ودينه وشخصيَّته وماله، ويحفظ المواطن بهذه الحرِّيَّة حقَّ وطنِه، والحرِّيَّة في الإسلام حقٌّ مفهومٌ مُتَّزنٌ لا إفراط فيه ولا تفريط، والحُرِّيَّةُ - كما قلنا في أوَّل هذا الكلام - عقلٌ يقود، وإرادةٌ تعلو، وشريعةٌ تحكم.

حدود الحرِّيَّة في الإسلام

الاختلاط وأثره في المجتمع

أخبرنا رسول الله ﷺ أنَّنا سنسمع في آخر الزَّمان «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، هم من جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا**»(١)، فقد حذَّرنا الرَّسول ﷺ منهم، ووصفهم بأنَّهم دعاة على أبواب جهنَّم، وهؤلاء الدُّعاة كثيرون، ومبادئهم هدَّامة للدِّين وللأخلاق وللاجتماع، ومن هؤلاء الدُّعاة دعاةُ الاختلاط في كويتنا المسلمة العربيَّة، وقد حاولت مرَّات عدَّةً أن ألتقيَ بعضَ هؤلاء الدُّعاة، وأسألهم عن فوائد الاختلاط خُلُقِيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، وكفاني لقاؤهم أن وزَّعوا نشرةً ذكروا فيها: إنَّ عدم الاختلاط له أثره على ميزانيَّة الجامعة، وإنَّ الاختلاط يخفِّف من المصاريف، ومن انتداب بعض المدرِّسين. ففائدة الاختلاط عندهم مادِّيَّةٌ بحتة وإن حصل منها ما حصل من أضرار خلقيَّة أو دينيَّة، إذ لا قيمة للدِّين ولا لمكارم الأخلاق بالنِّسبة إلى المادَّة في نظرهم وأفكارهم.

ثمَّ حدثَ أن عُقدت ندوتان في التِّلفاز في برنامج قضايا وردود، كان موضوعهما الاختلاط، وقالَ بعضهم: إنَّ الدِّين يبيحه، وأتوا بآياتٍ كريمةٍ بوصفِها شاهدًا مُبَرِّرًا للاختلاط، ويؤسفني أنَّ هؤلاء الدُّعاة جاؤوا بالآيات القرآنيَّة الَّتي زعموا أنَّها تشهد لهم بصِحَّة الاختلاط، فكانت

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٠٨٤)، ومسلم، رقم: (١٨٤٧).

محرَّفة، فنتجَ عن ذلك أنَّ أولادًا مسلمين لم يستطيعوا قراءة هذه الآيات، ولم يعرفوا لها لفظًا ولا إعرابًا.

يؤلمني - والله - أشدَّ الألم أن أسمع مسلمًا من أبوين مسلمين يحمل الشَّهادة الجامعيَّة العالية، ويعتزُّ بعروبته وعروبة أبويه، ويقرأ الآية من كتاب الإسلام العربيِّ المبين، فيحرِّفها لفظًا وإعرابًا، اللَّهمَّ إلَّا إذا كانوا يتعمَّدون، فيحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه.

أمَّا حكم الاختلاط في الإسلام مع وضعنا الحاضر فلا أظنُّ أنَّ أحدًا يجهله إلَّا من ران على قلوبهم ما كانوا يريدون، والإسلام لم يبح اختلاط الإناث بالذُّكور إلَّا اختلاط المحارم بالمحارم، ومنعه في الحالات الَّتي يجب فيها الاستئذان.

قال دعاة الاختلاط: رخَّص الإسلام للمرأة أن تدخل المسجد مع الرِّجال مأمومة، وهذا دليلٌ على إباحة الاختلاط كما يقولون، فنقول: إنَّهم جهلوا أو تجاهلوا أنَّ للنِّساء مكانًا خاصًّا في آخِرِ المسجد، فلا يختلطن بالرِّجال، وأنَّ الرَّسول ﷺ قال: «**خير صفوف الرِّجال أوَّلها، وشرُّها آخرها، وشرُّ صفوف النِّساء أوَّلها، وخيرها آخرها**» رواه مسلم[1]؛ وذلك لأنَّ آخر صفوف النِّساء أبعد من الرِّجال، وأوَّلها أقرب منهم، ومنع من أصابت بخورًا أو عطرًا أن تحضر المسجد، بل اشترط لحضورها أن تكون تفلة؛ أي: بلا عطرٍ ولا زينةٍ.

واحتجُّوا أيضًا لإباحة الاختلاط بموقف عرفة، والطَّواف بالكعبة، والسَّعي بين الصَّفا والمروة، فنقول: لقد تجاهلوا أنَّه يشترط لأداء هذه

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٤٠).

المناسك أن تكون النِّساء مع محارمهنَّ في لباس حشمة وستر وعبادة، وأنَّ هذه المواطن الثَّلاثة مواطن عبادة.

وقالوا: لقد شاركت النِّساء الصَّحابيَّات الرَّسول ﷺ وصحبه في الغزوات، وحاربن في صفوف الرِّجال، وكُنَّ في بعض الغزوات مسعفات وطابخات وخادمات. ونحن لا ننكر ذلك، ولكنَّهنَّ لم يخرجن في هذه الغزوات كاسيات عاريات حاسرات متبرِّجات، بل خرجن مع الغازين مستورات محترمات، ولم يختلطن بالرِّجال الاختلاط الَّذي يريده الدُّعاة.

وقالوا: لم يحرِّم الإسلام الاختلاط في دور العلم، وأوجب طلب العلم على النَّاسِ جميعِهم، فلا فرق في ذلك بين ذكرٍ وأنثى، فنقول: نعم إنَّ الإسلام أوجب طلب العلم على الإناث كما أوجبه على الذُّكور، ولكنْ مع تكريم العلم وطالب العلم، فقد كان النِّساء يشهدن مسجد رسول الله ﷺ كما يشهده الرِّجال، يستمعن إلى حديثه، ويتلقَّينَ منه تعاليمه، وقد يسألن فيجيبهنَّ، ولكنَّهنَّ كُنَّ بمنأى عن الرِّجال، فقد كُنَّ في جانبٍ، والرِّجال في جانبٍ، ولمَّا ضاق المسجد بمن فيه من رجالٍ وكثرت النِّساء أمرَ الله نساء نبيِّه أن يفتحن بيوتهنَّ لتعليم نساء المؤمنين، فقال لهنَّ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤]، ونحن لا ننكر أنَّه برز في العصور الأولى للإسلام نساء بلغْنَ في العلم درجةً عَجَزَ كثيرٌ من الرِّجال عن بلوغها، ولكنَّهن طلبْنَ العلم وهنَّ ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ويضربن بخمرهنَّ على جيوبهنَّ.

أمَّا دعاة الاختلاط في هذا العصر فيريدون من بناتنا أن يحضرن دور العلم في عطرهنَّ وزينتهنَّ، وتبرُّجِهنَّ؛ لأنَّ الإسلام أباح اختلاط المرأة

بالرَّجل في دور العلم كما يزعمون، وتغافلوا عن كبرى العلل، وعن التَّبرُّج المثير، يُحِلُّون ما يعجبهم، ويتغافلون عمَّا لا يعجبهم، ثمَّ يضربون المثل بعائشة وأسماء وحفصة وغيرهنَّ من الصَّحابيَّات اللَّواتي فقن كثيرًا من الرِّجال فقهًا وفضلًا ومكانةً.

نقول لهم: يا قوم! هاتوا لنا طهارة عائشة، وزكاة أسماء، وصلاح حفصة، وعفَّة زينب، وصفاء نسيبة، ثمَّ هاتوا لنا رجالًا كأبي بكرٍ في تقواه، وكعبد الله بن مسعود في عبادته، وكابن عبَّاس في إخلاصه، ثمَّ نادوا بالاختلاط ليختلطوا، أم تريدون أن نقيس جلباب الماضي وخماره بلباسٍ قصيرٍ وشعرٍ مكشوف كما الحال اليوم؟

إنَّنا لا ننكر أنَّ المسلمة دخلت ميدان العمل، فباعت وابتاعت، وزرعت وصنعت، ولكنَّها كانت في هذه الميادين كلِّها شريفة عفيفة، وقد أدركنا بعضهنَّ في عهدنا، فكانت المرأة تعمل وقد غضَّت من بصرها ومن صوتها، وأدنت من جلبابها، حتَّى غطَّت به قدميها، وضربت بخمارها على جيبها، وأخفت كلَّ معالم زينتها، بل منهنَّ من تركت زينتها في بيتها، وكان لها من دينها حارسٌ يمنعها عمَّا يشين ويريب، ومعها من إيمانها حافظٌ لها عمَّا يعيب.

أمَّا الاختلاط الَّذي يريده دعاته اليوم فإنَّه دعوةٌ إلى شرٍّ، ويكفي أن أقول للمواطنين: يا قوم! بدأتم من حيث انتهى النَّاس، أَوَصِلْنا الذِّروة المدنيَّة حتَّى لم يبقَ لنا منها إلَّا أن نجمع بين شبابنا وشوابِّنا؟ فأين شرف الإسلام الَّذي يأمرنا بالإحسان في كلِّ شيء؟ وأين شرف العروبة الَّذي حفظه وحرص عليه الآباء والأجداد من ألَّا يُدَنَّس؟ وأين كياسة المسلمين وفطنتهم؟

إنَّ النَّار تكاد أن تستعر في شرفنا وأعراضنا، فإلى المسؤولين في هذه الدَّولة، وإلى أولي النُّهى والمعرفة أقول: يا قوم! كونوا بناة خيرٍ ولا تهدموا، وكونوا دعاة إصلاحٍ ولا تفسدوا، ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البَقَـرَة: ١٩٥].

التَّربية الإسلاميَّة

الإسلام يدعو إلى التَّعليم

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النّحل: ٧٨].

يُولَدُ الإنسان مجرَّدًا من العلم والمعرفة، لا يدرك ولا يحسُّ شيئًا، ولكنَّ الله الَّذي خلقه جعل له استعدادًا وقوى وحواسَّ يمكنه بها أن يعلم ويعرف، فالسَّمع والبصر والعقل والحواسُّ منافذ يستطيع الإنسان أن يستمدَّ بها العلم، ويدرك بوساطتها ما ينفعه ويضرُّه، وينتفع باستعمالها فيما هُيِّئَ له بما أودع الله في هذا الكون من خيراتٍ وبركاتٍ، أمَّا الَّذين أهملوا حواسَّهم فقد أثِموا بذلك، ونزل عليهم غضب الله، فكانوا حطبًا لجهنَّم، وقد وصفهم الله بأشنع الصِّفات بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والإسلام يدفع الإنسان إلى التَّعلُّم دفعًا؛ لهذا كان أوَّل ما نزل من القرآن - كتاب الإسلام - آيات اِقْرَأْ، الَّتي بَعَثَ اللهُ بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العَلق: ١-٥]، وذكر فيها مبدأ خلق

الإنسان من علق، وأنَّ هذا الإنسان خُلِقَ بلا علمٍ، فلم يكن في أوَّل خلقه يعلم، وإنَّما العلم اكتساب ممَّا يكتبه القلم ويدركه العقل.

والإسلام يُفَرِّق بين العالم والجاهل، فيقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩]، والجواب على هذا السُّؤال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرّعد: ١٩]، وهم أصحاب العقول الَّذين أناروها بالمعرفة، ومثله سؤالٌ آخر يأتي به القرآن، يقول: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢].

والإسلام جعل العلم حقًّا ثابتًا لكلِّ فردٍ، وهو ضرورةٌ لكلِّ إنسانٍ ضرورةَ الغذاء لجسمه، ولهذا نرى في الفقه صراحةً أنَّه يجب على كلِّ مكلَّف ذكرًا كان أو أنثى أن يتعلَّم فقه صلاته وصيامه، وإذا كان مالكًا للنِّصاب وجب عليه أن يتعلَّم فقه الزَّكاة، وعلى من استطاع إلى الحجِّ سبيلًا أن يكون عالمًا بفقه المناسك، وأوجب على كلِّ من جهل أمرًا من أمور دينه أن يسأل من هو أعلم منه، ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النّحل: ٤٣].

وجعل الخير كلَّه في العلم، فقال ﷺ: «**من يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين**» رواه البخاريُّ ومسلم[١]، وفرض على كل مّسلمٍ أن يتعلَّم، فقال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»، رواه البيهقيُّ عن أنس، والطَّبرانيُّ عن الحسين بن عليٍّ[٢]، وأوجب الإسلام على كلِّ من يعلم ألَّا يبخل بعلمه على من يتعلَّم، بل يبذله لمن يطلبه بالسُّؤال أو بالدَّرس.

(١) رواه البخاري، رقم: (٧١)، ومسلم، رقم: (١٠٣٧).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٥٤٤)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٤٣٩).

والإسلام هو الدِّين الَّذي انفرد بأن جعل من الجهل إثمًا يعاقب عليه الجاهل، كما جاء في الآيات الكريمات من سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، فمن قدر أن يتعلَّم وتيسَّرت له الوسائل ولكنَّه أعرض عنها تهاونًا أو استكبارًا عليها حُشِرَ في آخرته أعمى، فيقول: ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت في حياتي الأولى بصيرًا؟

فيُجاب: إنَّك اخترت العمى - عمى البصيرة والعقل - وكان باستطاعتك أن تكون من أولي الأبصار؛ لهذا نجد أنَّ أقبح صفات الإنسان الجهل، وحتَّى الجاهل لا يرضى لنفسه أن يقال له: جاهل.

وما عُصِيَ الله جلَّ شأنه بمعصيةٍ أشدَّ من معصية الجهل، وأيُّ عبادة يتعبَّدها الإنسان الجاهل لربِّه فهي عبادةٌ مشكوكٌ في صحَّتها؛ ولهذا اتَّخذ العلماء قاعدة هي: ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب، قاعدةٌ يُفهَمُ منها أنَّ العبادة واجبة، وصحَّتها لا تتمُّ إلَّا بمعرفة فقهها، فتعلُّم فقه العبادة واجب.

والعلم من صفات الله جلَّ جلاله، فهو العالم والمعلِّم، والعلم في الإنسان صفة تشرِّفه وتظهر محاسنه وفضله، وترفع مكانته بين عارفيه وبين من لا يعرفه، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]؛ لهذا أمر الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسأله زيادةً في العلم، وسعةً في المعرفة، فيقول: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وبعد نزول هذا الأمر الرَّبَّانيِّ عليه كان ﷺ يقول: «**اللَّهمَّ علِّمني ما ينفعني وانفعني بما علَّمتني وزدني علمًا**»(١)، وكان ﷺ يقول: «**إذا أتى عليَّ يوم**

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٩٩)، وقال: هذا حديث غريب.

لا أزداد فيه علمًا يقرِّبني إلى الله، فلا بورِكَ لي في طلوع شمس ذلك اليوم»(١).

والعلم يصقل العقول، لا سيَّما العقول المفكِّرة الَّتي تستفيد ممَّا تعلَّمت وتنتج منه ما يفيد بالبحث والتَّنقيب، قال الله جلَّ شأنه لبني الإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، وتسخير هذا الكون لا يكون إلَّا للعلماء، والعالم لا يُغلَقُ دونه بابٌ، فإذا بحث وصل، وإذا استعمل عقله أنتج ووصل بعلمه إلى السِّرِّ المودع في الكائنات وأبدع، والقرآن يدعو إلى ذلك في كثيرٍ من آياته، تدبَّرْ قول الله تعالى في سورة (ق): ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [ق: ٦-١١]، وتدبَّر الآيتين من سورة فاطر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ٢٨﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، والآيتين من سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٨٦٨٧).

فهذه الآيات تدعو الإنسان إلى أن ينظر في أسرار الكون، ويتعلَّم علومه مثل علوم الطَّبيعة والنَّبات والأجناس البشريَّة والحيوانيَّة المسمَّاة علوم الأحياء وعلم التَّطوُّر أو التَّكوين؛ لأنَّه متى تعلَّم هذه العلوم عَرَفَ عظمة الخالق، فيزداد إيمانه بالله رسوخًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وعلماء المسلمين اتَّفقوا جميعًا على أنَّ تعلُّم العلوم والفنون الَّتي تقوم عليها الصِّناعات الَّتي لا غنى للنَّاس عنها فرض كفاية، وإذا أهملت في الأمَّة أَثِمَت الأمَّة وحوسبوا الحساب العسير.

أمَّا الجهل فكلُّه شرٌّ، ومتى حلَّ بأمَّةٍ هلكت، وما أحسن قول الشَّاعر معروف الرُّصافيِّ:

إِذَا مَا الْجَهْلُ خَيَّمَ فِيْ بِلَادٍ … رَأَيْتَ أُسُوْدَهَا مُسِخَتْ قُرُوْدَا[1]

والجهل يكشف عيوب الجاهل ورذائله، والجاهل أبدًا كالبهيمة؛ لا يَمِيزُ خيرًا من شرٍّ، ولا يعرف حسنًا من قبيحٍ، كما وصفهم تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والجاهل يشقى ويظنُّ أنَّه يسعد، ويألم ويظنُّ أنَّه يرتاح، وقد رأينا كثيرًا من أمثال هؤلاء وسمعنا كثيرًا عن أمثالهم.

سُئِلَ بعض الحكماء: أيُّ الزَّمان خير؟ قال: إذا كان العالِم مرفوعًا، والجاهل موضوعًا.

---

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للمهدي (١/ ٣٦).

قيل له: أيُّ الزَّمان شرٌّ؟ قال: إذا ساد الجهول، وحلَّ بأهل المعرفة الخمول.

قيل: فأيُّ النَّاس خير؟ قال: الَّذي يعرف قدر نفسه.

قيل له: أيُّ النَّاس شرٌّ؟ قال: الَّذي جهل أمر دنياه.

وكلُّ امرئٍ لا يدري كيف يعيش فهو بهيمةٌ خُلِقَت لتأكل، حتَّى إذا انتهت حياتها فكأنَّها لم تكن، فلا شأن لها إن عاشت، ولا ذكر لها إن ماتت، ورحم الله الشَّافعيَّ إذ قال:

وَمَنْ فَاتَهُ التَّعْلِيْمُ وَقْتَ شَبَابِهِ فَكَبِّرْ عَلَيْهِ أَرْبَعًا لِوَفَاتِهِ[1]

وأسوأ السَّوءات في بني الإنسان جاهلٌ مغرورٌ فارغُ العقل، أتته النِّعمة فأبطرته، واستغلَّ المنافقون هذه النِّعمة فيه فجعلوا منه شيئًا كبيرًا، وحصل معه داء النَّقص، فأراد أن يغطِّي جهله بدنياه، فلا هو أدرك ما فات، ولا هو نال ما يتمنَّى، ويعجبني في هذا قول الشَّاعر:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوْلَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُوْ عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

وَإِنَّ كَبِيْرَ الْقَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيْرٌ إِذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ[2]

تربية الأولاد

الولد ثمرة الحياة وأمل العائلة والغاية المقصودة من الزَّواج، وهو

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للمهدي (١/ ٢٣).

(٢) انظر: البيان والتبيين، للجاحظ (١/ ١٨٦).

ريحانة البيت وزينته وعطره المنشود، وهو فرحة الوالدين وزينة العيش، وهو خير متاع الدُّنيا، والأولادُ في فتوَّتِهم معقد آمال الآباء، وهم البركة، لقول الرَّسول ﷺ: «**بيتٌ لا صبيان فيه لا بركة فيه**»(١)، وقوله ﷺ: «**وإنَّكم لمن ريحان الله**» - يعني الحسن والحسين -، رواه التِّرمذيُّ(٢).

وقد أوجب الإسلام على كلِّ مسلمٍ أن يربِّي أولاده التَّربية الصَّحيحة، ليجعل منهم جيلًا صالحًا تكفل التَّربيةُ لهم حياتهم ومستقبل وطنهم، وتجعل منهم أعضاء صالحين في هذا المجتمع هائل المُعتَرك في ميدان الحياة.

يولد الطِّفل وليس له من الإدراك شيءٌ إلَّا أن يلتقم بالفطرة الثَّدي المغذِّي سواء أكان ثدي أمِّه أم غيرها أم ثديًا صناعيًّا، فيكون بحالته هذه أمانة بيد أبويه، أو بيد من أوكِلَت إليهم تربيته، وعلى المؤتمن أن يرعى الأمانة.

والمرء كما هو مسؤولٌ عن إصلاح نفسه أو إفسادها مسؤولٌ عن إصلاح نفسٍ وكِّلت إليه تربيتُها أو إفسادِها، فكان على الأمِّ أن تتعهَّد الطِّفل في نظافة جسمه وملبسه ومأكله في أوقات غذائه، فلا تتركه مهملًا فيبتلى بالأمراض، أو تكثر إرضاعه خشية بكائه فيُتخَم.

والآباء مسؤولون أمام الله عن رعيَّتهم، مطالبون بتعليمهم وتهذيبهم وهدايتهم إلى الطَّريق السَّويَّةِ، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه**»، رواه الطَّبرانيُّ

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٤٤٢٥).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٩١٠).

والبيهقيُّ عن الأسود بن سريع[١].

وخير ما يفعل الآباء لفِلذَات الأكباد أن يخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور، ويسلِّحوهم بالسِّلاح الَّذي يكفل لهم مقاومة العيش، ويضمن لهم الانتصار في معركة هذه الحياة، فيجب أن يعوِّدوهم الاعتماد على النَّفس، والاستقلال في الرَّأي؛ حتَّى تستقيم شؤون حياتهم، وأن يتعهَّدوا أولادهم بشكر من أصاب في أموره، وتشجيع من نجح في عمله، وعذر من أخطأ فلم يوفَّق، وأن يُفْهِمَه أنَّ من لا يتعثَّر لا ينهض، وأنَّ الإنسان نشأ هكذا حتَّى قام على رجليه، وأنَّ من لا يعرف الخطأ لا يعرف الصَّواب، وأن يتعهَّدوا أولادهم بالتَّربية الصَّالحة، وينشئوهم على مكارم الأخلاق والاعتماد على النَّفس في العيش والكسب وتكوين الحياة، فلا يعتمد ابن الثَّريِّ على ثروة أبيه، ولا ابن الوجيه على جاه والده، بل يصارع العيش، ويغالبه، ويزاحم العاملين، وينتج، فلا يكون عاطلًا بالوراثة، فقد مضى زمنٌ: عليك بمهنة أبيك.

وإنَّ من الشَّرِّ أن يهمل الأب شأن طفله الَّذي يدخل الحياة بطُهْرٍ وسذاجةٍ[٢] وطيبةٍ، فلا يلتفت إلى تربيته، ولا إلى تعليمه وتثقيفه، فتفسد فطرته، ويموت ضميره، ثمَّ تكون عاقبة الوالد خسرًا؛ لأنَّه ترك ولدًا عالة على المجتمع وعلَّة في الأمَّة، ومن الجريمة أن يهمل الأب ولده، ويدعه يعاشر الأشرار ويخالطهم، فتتلوَّث نفس هذا الكائن السَّامي السَّاذج الطَّاهر بما يدخل قلبه من نيَّات قبيحة، وطويَّاتٍ خبيثة، وحُبٍّ للشَّرِّ،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣٨٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٨٢٨).

(٢) السذاجة: السهولة وحسن الخلق، انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٣٣).

فتسوء تربيته، ويضيع مستقبله، والتَّبعة في ذلك كلِّه على الوالد الَّذي فرَّط، وأساء الرِّعاية، ونسي قوله ﷺ: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته**»(١).

والطِّفل قوَّة تنفع إذا أُحسِنَ توجيهها، وهو في الوقت نفسه قوَّة تضرُّ إذا أسيء توجيهها؛ ولهذا كان الزُّعماء دائمًا يتعهَّدون مدارس النَّشء؛ لإيجاد جيل يربُّونه على مبادئهم، فتقوى بهم زعامتهم، وتنشط بهم ثوراتهم.

والوالد دائمًا يرى في ولده بقاءه، ويرى خلود اسمه فيه؛ لهذا نرى الأب الصَّالح لا يُحِبُّ أن يُفضَّلَ أحدٌ مهما كان قريبًا منه إلَّا ولده، والأب المسلم مأمورٌ في دينه أن يُعين ولده على برِّه؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**رَحِمَ الله والدًا أعان ولده على برِّه**»(٢)، ومأمورٌ أيضًا أن يعدل بين أولاده في كلِّ شيءٍ، في العطيَّةِ والتَّقريب والعمل وحتَّى في الابتسامة، مطلوب إليه ذلك؛ حتَّى يُبعد من أولاده التَّحاسد الَّذي يجرُّ دائمًا إلى التَّباغض، والرَّسول ﷺ أمرنا بذلك فقال: «**سوُّوا بين أولادكم في العطيَّة فلو كنت مُفَضِّلًا أحدًا لفضَّلت النِّساء**»(٣)، وقال ﷺ: «**إنَّ الله يُحِبُّ أن تعدلوا بين أولادكم حتَّى في القبل**»(٤).

والأب المسلم مأمورٌ أن يكون أنموذجًا صالحًا لولده، وقدوة حسنة له في حركاته وسكناته كلِّها، فلا يفعل أمامه ما يقبح، ولا يأتي ما ينكر؛

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٦٩٧٥).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٣٧٦).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١١٩٩٧).
(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥٣٥٠).

لأنَّ الولد دائمًا يقلِّد والده، ويرى فيه الكمال، أو هو كالمرآة تعكس فيه أخلاق أبيه.

والولد الصَّالح ذخر والديه بعد وفاتهما، فقد ثبت في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلَّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١)، وأخبرنا صلوات الله وسلامه عليه: «**من كانت له ابنة فأدَّبها فأحسن تأديبها، وربَّاها فأحسن تربيتها، وغذَّاها فأحسن تغذيتها كانت له وقاية وجنَّة من النَّار**»(٢).

والأب المسلم مأمور أن يغرس في قلب ولده حبَّ الخير وفعله وبذله لكلِّ مواطن، وأن يُفْهِمَه أنَّه عضو في هذا الوطن، يحتاج الوطن إليه دائمًا في كلِّ حركةٍ من حركاته، وكلِّ يومٍ من أيَّام عمره، وأنَّه ليس ملك نفسه، وإنَّما ملك الأمَّة الَّتي هو واحدٌ منها، وتحتاج إليه في كلِّ حينٍ.

وإنِّي أبٌ لأولاد بنين وبنات، ما أحببت يومًا لواحدة من بناتي أن تكون زوجةً لثريٍّ، تعيش في بحبوحة ثروته، تبذِّرها ذات اليمين وذات الشِّمال، وهي في خدمها تأمر وتنهى، وحشمها حولها يقومون لها إن قامت، ويقعدون لها إن قعدت، ويصدِّقونها إن قالت، والزَّوج مشغولٌ عنها في ماله وملذَّاته، ولكنْ أُحِبُّ لابنتي أن تعيش في بيتٍ هادئ، يظلِّلُه الحبُّ بباسق غرسه، وهي في أرضه تنمِّيه وتغذِّيه، وتكون عليمة بتربية أطفالها، ومداراة زوجها ورعايته في ماله وسكنه وحبِّه، هذا البيت الَّذي تكونُ فيه أمينته ومسؤولة عنه لا شكَّ جنَّة الحياة.

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٣٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٠٤٤٧).

وما أحببت يومًا لابن من أبنائي أن يثرى ليباهي بثروته، ويعلو على قرابته وقرنائه، أو يتعاظم بهذه الثَّروة، فيأثم من تعاليه على من دونه من العاملين الكادحين، لا يأبه لتعب عامل، ولا لحاجة بائس، ولا لجوعة مسكين، ولكنِّي أُحِبُّ لابني أن يخالط النَّاس ويعاشرهم، دون أن ينسى ضميره الَّذي يشعر به بمرارة فقر الفقير وبأس الحاجة عند المحتاج، ويسمع بأذنه آهة المتألِّم وأنَّةَ الموجوع، لتنمو في نفسه عاطفة الرِّفق والرَّحمة، فيعطف على هذا؛ لأنَّه أخوه، ويرحم هذا؛ لأنَّه مواطنه، و«**الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء**»[1].

أخيرًا أختم كلمتي بحديثين عن رسول الله ﷺ، أوَّلهما أقدِّمه للآباء، وهو قوله عليه السلام: «**ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن**»[2]، وثانيهما أقدِّمه للأُمَّهاتِ، وهو قوله ﷺ: «**أيَّما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنَّة**»[3].

عضل البنات

الإنسان اجتماعيٌّ بالفطرة، وفطرته هذه تحمله على تجنُّب العزلة، واتِّخاذ رفيق تسكن إليه نفسه، وتطمئنُّ إليه روحه، ويشاركه الحياة، فينعم

(١) رواه أحمد، رقم: (٦٤٩٤).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٩٥٢)، وقال: هذا حديث غريب.
(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٤٥١٣٧).

معه بنعمائها، ويشقى معه بضرَّائها، لذلك قال علماء النَّفس: إنَّ الزَّواج ضرورة روحيَّة وجسديَّة واجتماعيَّة.

والله أودع في قلب كلٍّ من الجنسين - الرَّجل والمرأة - ميلًا طبيعيًّا إلى الآخر، يدفعه للاتِّصال به، وهذا الاتِّصال قد تكون له طرق مختلفة، ولكن لا يحقِّقُ الخير لكلٍّ منهما إلَّا الزَّواج الَّذي شرعه الله في رسالاته كلِّها إلى رسله وأنبيائه، فيجد كلٌّ من الرَّجل والمرأة الأُنسَ بصاحبه، والاستراحة إليه، والاستعانة به، ويحسُّ كلٌّ منهما أنَّ له مودَّة صاحبه كاملة، وأنَّ له رحمته موفورة؛ لهذا ولغيره يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، فزوجة الإنسان مخلوقة من جنسه، وهي جزء من نفسه، وهي ملاذه عند القلق، ومسكنه عند الاضطراب، يشعر متى لجأ إليها بالرَّاحة من التَّعب، ويأنس عندها بدفء المحبَّة والحنان والرَّحمة، وفي إنجيلِ (متَّى) نقرأ هذه الكلمات: يترك الرَّجلُ أباه وأمَّه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسدًا واحدًا.

فالزَّواج رباطٌ مقدَّس، ربط الله به بين الزَّوج والزَّوجة، والشَّرائع كلُّها قد أمرت بالزَّواج، فهو الدَّواء للشَّهوة، والحائل دون الفاحشة، والحافظ للإنسان لئلَّا ينحطَّ إلى مستوى الحيوانات؛ لهذا حدَّد الشَّرع الإسلاميُّ لهذا الزَّواج حدودًا، وحقَّق له حقوقًا، وأوجب له واجبات، وكلُّ رباطٍ بين أنثى وذكر لا يقوم على زواجٍ لا يكون كاملًا، ولا يظفر بقدسيَّة أحد منهما.

وقد أمر رسول الله ﷺ الشَّباب بالزَّواج، وحثَّهم عليه، فقال: «**يا معشر الشَّباب من استطاع الباءة فليتزوَّج**»(١)، والباءة: هي التَّكليفات

(١) رواه البخاري، رقم: (٥٠٦٦)، ومسلم، رقم: (١٤٠٠).

الشَّاملة للمبيت والبيت، فهي من كلمة: بَاءَ؛ أي: رَجَعَ، والمباءة: هو المكان الَّذي يبوء إليه الإنسانُ إذا فرغ من عمله، ومعنى قوله ﷺ: من قدرَ على أن يكون له بيت ونفقات بيت فليتزوَّج حتَّى يسكن ويأوي إلى زوجة تخفِّف عنه شقاءه، ويزول ما زاوله من قلق واضطراب، ويذكِّرني هذا الكلام بقول الرَّسول ﷺ: «**من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتَّق الله في الشَّطر الثَّاني**»[1].

والإسلام إن كان قد شرع الولاية للرِّجال، فإنَّما شرعها حماية للمرأة عن أن تتلقَّفها الأيدي، ويلعب بها أولو الأهواء من الرِّجالِ، والله ﷻ نهى في كتابه الكريم هؤلاء الأولياء عن عضل النِّساء، وحبسِهنَّ عن الزَّواج، فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٢]، وقال في سورة النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النِّسَاء: ١٩]، ومعنى العضل: هو إمساك المرأة في البيت دون تزويجٍ، وهذا ممَّا يضرُّ ويؤذي، وعملٌ كهذا لا يتَّفق مع الفطرة الإنسانيَّة، بل يضرُّ بإنسانيَّة المرأة والرَّجل على السَّواء، ويجعل الوليَّ في نظر مُولِّيَتِه تاجرًا جشعًا أو حيوانًا نهمًا، وقد تشعر تلك البنت أنَّها في نظر وليِّها سلعة ذات قيمة، لا فرق بينها وبين قطع الأثاث في البيت، يبيع القديم منها، ويشتري غيرها متى شاء.

ومن هذا المستوى الهابط رفع الإسلام المرأة إلى المستوى اللَّائقِ بكرامة بني آدم الَّذين كرَّمهم الله، وفضَّلهم على كثير من العالمين، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥١٠١).

﴿كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]، فلقد حرَّم الإسلام العضل، وجعل للمرأة حرِّيَّتَها الكاملة في اختيار من تعاشره، بدءًا من أنَّها تستأمر في خطيبها، وعلى الوليِّ قبول من تختاره زوجًا.

ولقد مارس الأولياء الولاية الجبريَّةَ في عهد النَّبيِّ ﷺ حتَّى شكت امرأة إليه، فقالت: «**إنَّ أبي زوَّجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته**[1]، **قال: فجعل الأمرَ إليها، فقالت: قد أجزتُ ما صَنَعَ أبي، ولكن أردتُ أن تَعلَمَ النِّساءُ أن ليس إلى الآباء من الأمرِ شيءٌ**»[2]، وبهذا أخذ الأحناف، فلا إجبار لمجبر، وإنَّما الرَّأي للفتاة تستأمر في خطيبها، فإن رضيت به أمضى الأب رضاءها، وإلَّا فلا إكراه.

أمَّا المهر فهو مالٌ يبذله الرَّجل يطلب به يد المرأة؛ كي لا تكون مبذولة، وليس كما يقول أعداء الإسلام: ثمنٌ يشتري الرَّجل به المرأة. لكنَّ الآباء الَّذين يغالون في مهور بناتهم جعلوا من البنت سلعةً تُباع وتُشترى، وربَّما دنأت نفوس بعضهم، فاعتدوا على هذا المهر، وأخذوا منه ما شاؤوا، ويأمرنا الله بعدم الاعتداء على مهر المرأة، فيقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النِّسَاء: ١٩].

والمهر ليس ثمنًا للبنت، إنَّما هو نحلة وعطيَّة من الله، وقد أمر الأزواج أن يعطوها للنِّساء، فقال جلَّ جلاله: ﴿وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النِّسَاء: ٤]، وليس شرطًا في الزَّواج، ولا ركنًا من أركانه، وإن كان

---

(١) الخسيس: الدَّنيء، والخسيسة الحالة التي يكون عليها الخسيس، يقال: رفعت خَسِيسَتَهُ: إذا فعلت به فعلًا يكون فيه رفعته. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٣١).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٧٤).

قد أوجبه بعض الفقهاء فإنَّ أكثرهم استحبَّه، وهو إخبار للرَّجل بأنَّ الزَّوجة ليست ممَّا يسهل الحصول عليه، بل لا بدَّ من البذل في سبيل طلبها، ومتى كان على الرَّجل أن يبذل في سبيل المرأة فهي إذن ذات شأنٍ عظيمٍ، ومكانةٍ كريمةٍ، ويجب عدم التَّفريط في حقوقها.

والرَّسول ﷺ أخبرنا أنَّ «**أعظم النِّساء بركةً أيسرهُنَّ مهورًا**»(١)، وقد أمر الرَّسول ذلك العامل الفقير الَّذي جاء يخطب وليس عنده مهر، فقال له: «**التمس ولو خاتمًا من حديد**»(٢)، وآخر أمرَه أن يدفعَ لخطيبتِه نعلين عندما سأل رسول الله ﷺ المرأةَ: «**أرضيتِ من نفسكِ ومالكِ بنعلينِ؟**» قالت: نعم، قال: فأجازه(٣)، وثالثٌ شكا إلى النَّبيِّ ﷺ أنَّه لا يجد شيئًا إلَّا أنَّه يحفظ سورًا من القرآن، فأمره أن يعلِّمها السُّور الَّتي يحفظها، ويجعل من هذا التَّعليم مهرًا لها، وقال ﷺ له: «**أملكناكها بما معك من القرآن**»(٤)، هذا هو دينكم أيُّها المسلمون، دين كلُّه يسر، لا تشديد فيه ولا تعسير.

والمهر حقٌّ للمرأة، قال الفقهاء اجتهادًا وقولهم اجتهاد: إنَّ أقلَّ حدٍّ للمهر عشرة دراهم، ولا حدَّ لأكثره، وقال آخرون: لا حدَّ لأقلِّه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر الخاطب أن «**يلتمس خاتمًا ولو من حديد**»(٥)، وثمنه أقلُّ من درهم، أمَّا المغالاة في المهور فلا خير فيها، وقد تكون لها عواقب

---

(١) رواه النسائي، رقم: (٩٢٢٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥١٣٥)، ومسلم، رقم: (١٤٢٥).
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١١١٣)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٤) رواه البخاري، رقم: (٥١٢١).
(٥) سبق تخريجه.

سيِّئة في العِشرة بين الزَّوجين، أو في الأبناء الَّذين ينجبهم الزَّوجان، أو في سوء المعيشة، انتقامًا من الله ﷻ.

فيا أيُّها الأب! التمس لابنتك الزَّوج الصَّالح الَّذي يحميها، ويرعاها، ويكفيها شؤون الحياة من غذاء وكساء وسكن، ولا تعضل ولا تؤذ ولا تحبس، واتَّق الله في رغبة ابنتك، فإنَّ المرأة والرَّجل في الميول سواء، والله خلق الإنسان وفطرتَه وميولَه، ولم يجعل لك في كلِّ ذلك تحكُّمًا.

وأختتم حديثي هذا بحديثين عن رسول الله ﷺ؛ أوَّلهما: «**الدُّنيا متاع وخير متاعها المرأة الصَّالحة**»، رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص[1]، وثانيهما: «**ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله ﷻ خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرَّته، وإن أقسم عليها أبرَّته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله**»، رواه ابن ماجه عن أبي أمامة[2].

أسبوع التَّربية وأعياد في المجتمع

نحن اليوم في أسبوع اسمه: أسبوع التَّربية، وكان قد طلب إليَّ بعض الإخوة أن أتكلَّم على موضوع العلاقة بين البيت والمدرسة بهذه المناسبة، وقبل أن أدخل في الموضوع هذا أُحِبُّ أن أتكلَّم على أسماء أيَّام وأسابيع ما عرفناها من قبل، وإنَّما جاءت إلينا حديثًا، بينما الإسلام أقرَّها في كلِّ

(١) رواه مسلم، رقم: (١٤٦٧).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١٨٥٧).

يوم من أيَّامه؛ لهذا لم يُعرف لها اسمٌ علمٌ على يوم معيَّنٍ في العام.

فمن ذلك عيد الأمِّ؛ وهو عيدٌ للوالدين في كلِّ يومٍ من العام في الإسلام، وكفى الوالدين شرفًا أن قرن الله الإحسان إليهما بعبادته، وكفاهما شرفًا أن قرن رضاهما برضاه، وكفى الأُمَّ شرفًا أن جعل الجنَّة تحت أقدامها، والأُمُّ لا يكفيها في العام يومٌ واحدٌ يكون لها عيدًا، فالإسلام جعل كلَّ أيَّام العمر عيدًا لها، وخاب ذلك المغرور الَّذي لا يلتمس من أمِّه كلَّ صباحٍ دعواتها، ولا يسألها بركاتها.

ومن هذه الأعياد عيد العِلْم؛ وهو يومٌ واحدٌ في السَّنة، والأحرى بنا أن نكتفي بأنَّ الله بعث نبيَّه ﷺ معلِّمًا، وأمره أن يقول في دعائه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وهو ﷺ يقول: «**إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علمًا يقرِّبني إلى الله فلا بورِكَ لي في طلوع شمس ذلك اليوم**»(١)، وكفى الإسلام فخرًا أن يأمر أمَّته بطلب العلم من المهد إلى اللَّحد، وأن يجعله فريضة، فقال لنا: «**طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(٢)، و«**إنَّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رِضًا بما يطلب**»(٣).

ومنه أيضًا يوم حقوق الإنسان؛ فالإنسان في الإسلام مكرَّم، ودمه معصوم، وماله مُصَان، وفي الحديث الشَّريف: «**كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**»(٤)، وكلُّ مواطن من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ونذكر لخليفة المسلمين قوله: «**والقويُّ عندي ضعيف حتَّى**

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي، رقم: (٣٥٣٥)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٤) رواه مسلم، رقم: (٢٥٦٤).

آخذ الحقَّ منه، ألا وإنَّ أقواكم عندي ضعيف حتَّى آخذ الحقَّ منه»(١).

فأين هذا ممَّا نحن فيه اليوم؟! والأمم الضَّعيفة مأكولة حقوقها، مهدورة كراماتها، مهانة حرِّيَّاتها، لا يسمع لصوتها إن استغاثت، ولا يلتفت لشكواها إن اشتكت، وإن أهينت حرماتها قيل لها: شكواك فيها نظر!

ونسمع بعد هذا عيد أسبوع المرور، وأسبوع الصِّحَّة، إلى غير ذلك من المسمَّيات.

وأعودُ إلى أسبوع التَّربية لأتحدَّثَ عنه: إنَّ الدِّين الإسلاميَّ أراد من الأُمِّ أن تكون المدرسة الأولى للولد، فأوَّل ما طلب إلى الرَّجل أن يتزوَّج ذات الدِّين الَّتي إذا غاب عنها حفظته في نفسها وفي ماله وفي ولده، والحفظ في الولد إنَّما هو حفظه في تربيته وتعليمه وطهارته ونظافته البدنيَّة والخلقيَّة، والولد ليس مالًا يضيع، ولا متاعًا يُسرَق، ولا طعامًا يُتلَف، وحفظه إنَّما يكون في تربيته وتعاليمه، والمنزل أوَّل مكان يعرفه الطفل، وأوَّل بيئة يعيش فيها، وهو أوعى ما يكون قبولًا للتَّربية، والمنزل - أو ما نسمِّيه نحن البيت - هو المدرسة الأولى، والوالدان فيها هما المعلِّمان، فإن كانا شريفَينِ تنسَّم الطِّفل أوَّل أنفاسِه الفضيلةَ، وإلَّا انغمس في حمأة الرَّذيلة.

وللبيئة مدار في تربية الطِّفل، فالآباء والأمَّهات إذا كانوا على بيِّنة من المهمَّة الملقاة على عواتقهم، قادرين على أن يرعوا هبة الرَّحمن إليهم، موجِّهينَ أبناءَهم إلى تربية حسنة، أمدُّوا الأمَّة برجال نافعين، أصحَّاء

---

(١) سبق تخريجه.

العقول، طاهري النُّفوسِ، أذكياء، راشدين، وقد صدق الشَّاعر إبراهيم حافظ عندما قال:

وَالْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ[1]

وقال أبو العلاء المعرِّيُّ:

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الْفِتْيَانِ مِنَّا عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[2]

فالطِّفل أوَّل ما يترعرع يقلِّد أباه في حركاته وسكناته، وفي كلِّ ما يفعل، وإذا عرف الأب هذه الغريزة في طفله استثمرها، فيحفظ عين ولده أن تقع منه إلَّا على كلِّ حسن وجميل وفاضل، ويحفظ أذنه أن تسمع منه إلَّا كلَّ قول كريم، وإنَّ الغصون إذا قوَّمتها اعتدلت، ولا تلين إذا نبتت معوجَّة، والوالد الَّذي لا يرعى في ولده هذا الأمر ويفعل أمام ولده السُّوء ولا يبالي بما يفعل ينشأُ الولد عنده على تقليده.

ثمَّ ينتقل الطِّفل إلى المدرسة ومعه الأساس، وجدير بهذا الأساس أن يحمل أثقل بنيان إذا كان مبنيًّا على متانة وقوَّة، أمَّا إذا كان ضعيفًا فلا بدَّ أن ينهار، والمدرسة معهد إعداد كبير تلي المنزل في تكوين شخصيَّة النَّشء، من تلقين المعلومات وتكوين الأخلاق، مهمَّتها إعداد الجيل تلو الجيل ليكونوا رجالًا نافعين، وأمَّهات نافعات صالحات، ولا يمكن للمدرسة أن تؤدِّي هذه المهمَّة الملقاة على عاتقها إلَّا إذا كان القائمون بأمرها قد رُبُّوا تربية حسنة في المنزل والمدرسة الَّتي عاشوا فيهما، وكانوا من حفظة الأمانة الَّتي كُلِّفوا بحفظها، عاملين بأوامرهم، منتهين عن

(١) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للهاشمي (٢/ ٢٤٩).
(٢) انظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال، للهاشمي (١/ ١١٢).

نواهيهم، ليكونوا قدوة صالحة للجيل الَّذي وُكِّلت إليهم تربيته، عالمين بأحوال النُّفوس وغرائزها، واستثمارها، وعلاج المريض منها.

أقول: لا يكفي أن يكون المعلِّم خلوقًا أو كريم الأخلاق فقط، بل أريده أن يكون قادرًا على غرس الخلق الكريم في نفس تلميذه، وعلاج الخلق السَّيِّئ واجتثاثه منه، وأريده أن يكون طبيب أخلاق، وألَّا يهين التِّلميذ سيِّئ التَّربية أمام غيره من الطُّلَّاب؛ لأنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة تُحِبُّ ما مُنعت منه، كما قال الشَّاعر قيسُ بنُ الملوَّح:

وَزَادَنِيْ كَلَفًا فِي الْحُبِّ أَنْ مُنِعَتْ ... أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا(١)

أريده أن يغرس في نفس النَّاشئ خلقًا فاضلًا كريمًا ينافي ذلك الخلق السَّيِّئ الَّذي اعتاده، ثُمَّ يتعاهد هذا الغرس بالرِّعاية والاهتمام حتَّى ينمو، فيموت ما كان ضدَّه من خلقٍ سيِّئ، ألا ترى الفلَّاح إذا أهمل أرضه نبتت فيها النَّباتات المضرَّة والشَّوك، فإذا تعهَّدَها دائمًا بغرس الأشجار النَّافعة المثمرة والزُّهور اليانعة العطرة ماتت تلك الطُّفيليَّات والأشواك.

وهكذا فلا بدَّ من تعاون بين المنزل والمدرسة؛ فالمنزل يؤسِّس، والمدرسة تكمِّل إذا كان الأساس متينًا، أو تعالج إذا كانَ هناك انحراف في النَّشء.

---

(١) انظر: أدب الدين والدنيا، للماوردي (١/ ٥٤).

المرأة في الإسلام

المرأة صِنْوُ الرَّجل[١] ونصفه الَّذي لا بدَّ منه، بل نصفه المكمِّل له، ولولا الرَّجل لما كان نساء، ولولاها لما كان رجال، إذن؛ فهي إحدى جناحي المجتمع، يستحيل أن يعيش ويسمو إذا بُترت، وهي إحدى رجليه ولن يتقدَّم أبدًا متى شُلَّت، فقضيَّةُ المرأة نصف قضية الأمَّة، والحديث عنها هو الحديث عن نصف الإنسانيَّة أو عن أمِّ الإنسانيَّة.

ومنذ زمنٍ طويلٍ ونحن نسمع ونقرأ بين آنٍ وآنٍ كلمة من هنا وكلمة من هناك، وتتجاوب هذه الكلمات مطالبة بحقوق يدَّعي أصحابها أنَّها: حقوق المرأة، ويسمع صوت ثالث ينادي بمساواة المرأة بالرَّجل، يطالب هذا وذاك بمنح المرأة ما للرَّجل من وظائف وامتيازات، هذا ما نسمعه من أصوات، وهذا ما نقرؤه في الصُّحف من مطالبات، والمرأة في كلِّ هذا وذاك مظلومة، وضحيَّة هذا الظُّلم المرأةُ نفسها، وأرجو من القارئ الكريم أن يتدبَّر كلمتي هذه، فلا يتعجَّل بالحكم لي أو عليَّ قبل سماعها:

إنَّ المرأة مغلوبة على أمرها، والرَّجل يستأثر بكثيرٍ من حقوقها، بل اغتصب قسمًا كبيرًا من امتيازاتها، فهل يريد هؤلاء المطالبون بحقوق المرأة أو مساواتها مع الرَّجل ظلمًا يُضاف إلى ما تعانيه من ظلم، وإجحافًا فوق ما تنوء به من إجحاف؟!

إنَّ الإنصاف كلَّ الإنصاف يقضي بأن نعدَّ أنَّ كُلًّا من الرَّجل والمرأة

---

(١) المرأة صنوُ الرَّجُل: أصلهما واحدٌ، وأصل الصِّنو إنَّما هو في النَّخل. انظر: تاج العروس، للزَّبيديّ (٣٨/ ٤٤٦).

إنسانًا خلقهما الله في هذه الحياة؛ ليكونا شريكين يقتسمان على السَّواء نعماء الحياة وشقاءها، كلٌّ بالقدر الَّذي يستطيعه، والمجال المرسوم له، هكذا تقول الطَّبيعة، طبيعة الرَّجل وطبيعة المرأة، الطَّبيعة الَّتي كوَّن الله عليها خلقة الاثنين.

والله جلَّ جلاله جعل لكلٍّ من المرأة والرَّجل طاقة ومجالًا يختلفان بعضهما عن بعض باختلاف تكوينهما، هذه سُنَّة الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ فالرَّجل مخلوقٌ قويٌّ، سِرُّه في سعة عقله، وقوَّة عضلاته، وتحمُّله الأعباء الثِّقال، وصبره على البأساء والضَّرَّاء، وله ميدان الحرب، وعليه عبء العمل الثَّقيل المضني، وعليه تقع المسؤوليَّة، وهو الَّذي يحمل أوزار الحكم والإدارة والقيادة، وكلُّ ذرَّةٍ من هذه المسؤوليَّات والتَّبعات إنَّما هي ذرَّة من طاقة جبَّارة قهَّارة، إن قَهَرَهَا رفعته درجات عليا، وإن قهرته أودت بحياته، أو أذلَّته ما عاش في هذه الحياة، أمَّا المرأة فكائنٌ لطيفٌ، سِرُّه في لطفه، وهي مخلوقٌ جميلٌ، قوَّته في جماله، شعورها مرهفٌ حسَّاس وسحرها بهما، وهي فوق ذلك مخلوقٌ محبوبٌ، يحبُّها الطِّفل؛ لأنَّها والدته، ويحبُّها الوالد؛ لأنَّها بنته، ويُحِبُّها الرَّجل؛ لأنَّها زوجه أو أخته، وتحبُّها المرأة الأخرى إذا كانت لها أختًا أو أمًّا أو صاحبة.

وفي المثل: شرُّ البليَّة ما يُضحك، وإنَّ من المُضحِك المؤلم أن نستمع لرجل يتبجَّح بجماله ونعومته ولطفه ورشاقته! ومن المضحك المؤلم أيضًا امرأة تباهي بخشونتها وقوَّتها القاهرة، وتفاخر بساعديها المفتولين وحملها الأثقال، وكلاهما كاذب أو هازل، لا يعرف الحياة وقيمتها، فإن باهى الرَّجل صادقًا فإنَّما يباهي بخشونته وقوَّة عضلاته، وإن تمنَّى فإنَّما يتمنَّى زوجة جميلة، وبيتًا هادئًا، ومنصبًا عاليًا، ومكانة ترفعه في أعين الرِّجال، وإن باهت المرأة صادقة فإنَّما تباهي بنعومتها ولطفها

ولينها، وإن تمنَّت فإنَّما تتمنَّى زوجًا إذا رآها سُرَّ بجمالها، له مكانة مرموقة، تفخر به على أترابها[1]، ولها فوق ذلك كلِّه بيت هادئ تسود المحبَّة ساكنيه، وأسرة مجتمعة كلمتها، يفيض عليها الحبُّ والحنان ما دامت الحياة تنبض في عروق أفرادها.

الكلام في المرأة والمطالبة بأحقِّيَّتِها أو عدم أحقِّيَّتِها لا يغيِّر من طبيعة المرأة وتكوينها، ولا من طبيعة الرَّجل وتكوينه، وهؤلاء المطالبون بأحقِّيَّةِ المرأة، وأولئك المطالبون بعدم أحقِّيَّتِها كرقَّاصِ السَّاعة؛ لا يستقرُّ مطلقًا، ولا يستفيد شيئًا إلَّا مرور الزَّمن، فالَّذين يجنحون بها إلى تقاليد السِّتر يريدون للمرأة أن تكون في سجون مقفلة، أسوارها عالية، تسودها ظلمات بعضها فوق بعض، لا تبصر عالمًا، ولا ترى من جمال الطَّبيعة شيئًا، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، والَّذين يجنحون بها إلى تقاليد الغرب يريدونها عارية مسفرة، لا تعرف بيتًا ولا أطفالًا، وربَّما لا تعرف زوجًا ولا استقرارًا أُسَرِيًّا، وهؤلاء يذهبون في جنوحهم هذا وذاك إلى الإسلام، يتصيَّدون منه الشَّواهد لأهوائهم، ولتطبيقها على مبادئهم، والإسلام بتعاليمه بعيد من كلِّ ما يدَّعون ويذهبون إليه ويستدلُّون به.

وقضيَّة المرأة في الحقيقة - قضيَّة أُمَّهاتِنا وأخواتنا وبناتنا وزوجاتنا - هي قضيَّةُ نصف الأمَّة - كما قلت في مبدأ حديثي هذا - وليس صحيحًا أن نهضم حقَّ المرأة لأنَّها أنثى، ونحترم الرَّجل ونرفع من مكانته لأنَّه رجل؛ فربَّ امرأة أفضل من ألف رجل، وما قيمة الشَّارب ينبت في رأس لا يفيد في تفكيره؟! وما قيمة لحية نبتت على وجه لا يُؤبَه به، ولا يلتفت إليه؛ لأنَّه عالة على المجتمع وعلَّة مزمنة من علله؟!

(١) الأتراب: المتساويات في السِّن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/ ٣٠٦).

والإسلام فضَّل نساءً كثيرات على كثير من رجال الصَّدر الأوَّل في الإسلام؛ لصلاحهنَّ، فالإسلام لا يفضِّل امرأة على رجل ولا رجلًا على امرأة إلَّا بالتَّقوى، ولقد قال الإسلام كلمته الباقية الخالدة الَّتي لا تُبدَّل ما بقيت في الأرض نسمة حياة، وهي دستور سائر الأمم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فالأصلح إذن الأفضلُ، والأنفع للأمَّة الأكرمُ، سواء كان هذا الأصلح رجلًا أم امرأة، فالله خلق للمرأة عقلًا، وهداها إلى عمل الخير، وأوضح لها سبيله، وخلق للرَّجل عقلًا، وهداه لفعل الخير، وأوضح له سبيله، فمن كان نفعه أعمَّ وخيره أوسع وأجدى كان الأفضل.

وإنَّ من أهمِّ الأغراض الَّتي جاء الإسلام من أجلها: هدم ما كان عليه أهل الجاهليَّة من هضم المرأة وإذلالها واحتقارها والتَّفريط في حياتها أحيانًا، حتَّى إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعطف على النِّساء أكثر ممَّا يعطف على الرِّجال، فقد قال صلوات الله عليه في حديث رواه الطَّبرانيُّ: «**سوُّوا بين أولادكم في العطيَّة فلو كنت مُفَضِّلًا أحدًا لفضَّلت النِّساء**»(١)، والسَّبب في ذلك أنَّهنَّ سريعات التَّأثُّر، رقيقات الشُّعور، وهنَّ أجدر بالبرِّ من الذُّكور، وكان ﷺ يقول: «**لا تكرهوا البنات فإنهنَّ المؤنسات الغاليات**»(٢)، وفي حديث رواه أحمد والتِّرمذيُّ عن عائشة أمِّ المؤمنين، ورواه البزَّار عن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما النِّساء شقائق الرِّجال**»(٣)، يدلُّ هذا الحديث على ما جاء به الإسلام من عناية

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٧٣٧٣).
(٣) رواه أحمد، رقم: (٢٦١٩٥)، والترمذي، رقم: (١١٣)، والبزار، رقم: (٦٤١٨).

بالمرأة، وتوفير لحقوقها، وهدمًا لما كانت عليه قبل الإسلام من تعس وسوء حال وإهانة لآدميَّتها، فقرَّر للمرأة حقوقًا في الحياة من التَّملُّك والعمل، وحرِّيَّة التَّمتُّع بما خلق الله لها طبقًا لما للرَّجل من حقٍّ في الحياة، فهي تملك وتعمل بحرِّيَّة في حدود الحياء والأدب.

هناك مواطن تقدَّم فيها الرِّجال على النِّساءِ هي مواطن الخوف، والقوَّة، والنَّجدة، والأعمال الشَّاقَّة، وتحمُّل الأعباء والمسؤوليَّة، فإذا كان للرَّجل هذه الدَّرجة بطبيعة تكوينه فإنَّ للمرأة أيضًا مِيْزاتٍ معدومة في الرَّجل، تُعَدُّ درجةً لها أيضًا، إنَّها مُقدَّمة على الرَّجل في مواطن الرِّفق، والأدب، والحياء، والدَّعة[1]، والاحتشام، والابتسامة، ورعاية الرِّجالِ صغارًا وكبارًا، فمَن يحنو على الرَّجل ويرقُّ له ويلطف به ويسلِّيه ويمسح وجهه ويربت على كتفيه إذا دخلت المرأة ميدان العمل؟! ومن يعطف على الطِّفل ويرعى ضعفه ويهدهده ويهزُّ مهده ويرعى نظافته وغذاءه إذا تركت المرأة البيت إلى الوظيفة؟!

أقول: مرحى لدين الإسلام، فقد قال نبيُّ الإسلام ﷺ: «**المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيَّتِها**»[2]، فكيف ترعى البيت وتكون مسؤولة عنه وقد خرجت إلى الوظيفة تاركة مسؤوليَّاتها كلَّها؟!

---

(١) الدَّعة: الرَّاحة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٢/ ٣٠٣).

(٢) سبق تخريجه.

المجتمع في نطاق الإسلام

بالعمل الصَّالح تطيب الحياة

دعت الأديان كلُّها إلى العمل الصَّالح، وتتابع رسل الله يحملون رسالته إلى عباده في مختلف الأزمان يبشِّرون النَّاس بأنَّ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨].

والقرآن الكريم يحكي لنا قصَّةَ قوم يونس: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يُونس: ٩٨]، ويخبرنا عن نوح أنَّه قال لقومه: ﴿...ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نُوح: ١٠-١٢]، ويقصُّ قصَّةَ هود عليه السلام، إذ يقول هود لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هُود: ٥٢].

وبفعل الصَّالحات استخلف الله في الأرض أممًا عمروها، ولكنَّهم بعد أجلٍ عاثوا فيها فسادًا، وطغوا وظلموا، فأهلكهم الله بذنوبهم، وكأنَّهم لم يعمروا أرضًا، ولم يبسطوا بها يدًا، ولا سلكوا فيها سبيلًا.

ثمَّ ختم الله الرَّسالات ببعثة محمَّد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، يدعو النَّاس إلى الخير، فاتَّبعته أمَّة كان منها الشُّهداء على النَّاس، وكانت خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس؛ عبادةً لله، ودعوةً إلى الخير، ونهيًا عن المنكرات، ووعدها الله - ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ١١١]؟! -بقوله:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥].

وفى الله لهذه الأمَّة وعده، واستخلفها في الأرض، فتكسَّرت من هيبتها عروش الطُّغاة، وهوت رهبة منها تيجان البغاة، ودالت أمام فتحها دول الظُّلم، وكانت الشُّعوب المظلومة تستقبل جيوش المسلمين الفاتحة بالتَّرحيب؛ لأنَّ فتح المسلمين أمن وسلام، والجيش الفاتح من المسلمين لا يقتل شيخًا ولا امرأةً ولا طفلًا ولا متعبِّدًا تفرَّغ لعبادته، ولا يقطع شجرًا، ولا يهدم دارًا، ولا يصطحب معه في الفتح الظُّلم والعدوان، وهذا ما ذكره لنا النَّبيُّ ﷺ: «**انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملَّة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلًا ولا صغيرًا ولا امرأةً، ولا تغُلُّوا، وضمُّوا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إنَّ الله يحبُّ المحسنين**»(١).

والشُّعوب المفتوحة بلادها تعلم أنَّ جيش المسلمين جاء ليحمي الحرِّيَّة لا ليعتدي عليها، وليكرِّم الإنسانيَّة لا ليهينها ويحطِّم قيمتها، وليصون الملكيَّة والأموال لا لينهب ويغتصب، وليصون الأعراض لا ليهتكها.

ودخل تلك البلاد مع الفاتحين كتابُ الله العربيُّ المبين، دخل باسم الله واسم رسوله، وفيه الدِّين والدُّنيا، دستور دولة، وقانون حكم ومعاملات، ونظام مجتمع وعبادة، ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسرَاء: ٩]، وكرامة تطيب للإنسان بها الحياة، وعلم يعرف به الإنسان قيمة الحياة.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٢٦١٤).

وذاق النَّاس حلاوة الحياة في ظلِّ الإسلام، وعرفوا الكرامة الَّتي كرَّم الله بها الإنسان، وعاش النَّاس في ظلِّ الإسلام كِرامًا أعِزَّة، وطال على المسلمين الأمد، كما طال على غيرهم من الأمم قبلهم، وأعرضوا عن القرآن وتعاليمه، وقست قلوبهم على بعضهم فتفرَّقوا، وكانت النَّتيجة الفشل وذهاب الرِّيح، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦]، وبعد:

فما زلنا ندين بالإسلام، والحمد لله، ولن نزال - إن شاء الله - مسلمين، نؤمن بالله ربًّا، وبمحمَّد ﷺ نبيًّا، والقرآن كتاب الله، وما زالَ منَّا من يُقدِّسُه ويعتني به، ولكنَّا في أكثر البلاد الإسلاميَّة عربيَّة وغير عربيَّة - وأقولها بألم - أعرضنا عنه، فلا هو دستور دولة، ولا قانون حكم، ولا نظام مجتمع.

بالقرآن كنَّا مسلمين، هدى الله به أسلافنا، وعلَّمهم، وزكَّاهم، وبه مكَّن لهم في الأرض، واستخلفهم فيها، ومحا بهم ظلم النَّاس للنَّاس، وفي ظلِّ القرآن أقام المسلمون دولة الإسلام بين مشرق المعمورة ومغربها، وظلَّ القرآن أبدًا لا ينحسر، ولكنَّ الخلف الَّذي اتَّبع دعاة الضَّلال وباعة الشَّهوات ابتعد عن ظلِّ القرآن وانحسر عنه، وبعد:

فإنَّ الباب ما زال مفتوحًا لمن أراد دخوله، وإنَّ الظِّلَّ ما يزال ممدودًا لمن أراد أن يستظلَّ به، والله جلَّ جلاله حيٌّ باقٍ يستجيب لمن استجاب له، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا

كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤].

الاقتصاد في الإسلام

الاقتصاد هو التَّوسط في الإنفاق من غير إسراف ولا تقتير؛ لأنَّ في الإسراف الفقر، والفقر ذلَّة، وفي التَّقتير الحرمان، والحرمان حسرة ولـوم، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

وللاقتصاد منزلته في حياة الفرد والأُمَّة، وقد بيَّن لنا نبيُّنا عليه الصَّلاة والسَّلام ذلك بقوله: «**الاقتصاد في النَّفقة نصف المعيشة**»(١)؛ لهذا كان الاقتصاد رائد الحكومات المنظَّمة في أعمالها النَّافعة، وسبيل العقلاء في كلِّ زمان ومكان، واهتمَّ علماء الاجتماع وعلماء الإدارة بالاقتصاد، وجعلوه علمًا يُدرَّس في الجامعات، حتَّى أصبح من أشهر العلوم، وتولَّى العلماء فيه أشرف المناصب.

ومعنى الاقتصاد أيضًا: القصد في النَّفقة، والقصد: هو العدل، ومعنى ذلك كلِّه: استفضال شيء من النَّفقة يرجع إليها الإنسان وقت حاجته إليه؛ كقعود عن العمل بمرض يُبتلى به، أو عطل يصيبه، حتَّى يكون بمأمنٍ من عوادي الزَّمان، وبغنى وقت الحاجة.

والنَّاس جميعهم على اختلاف أزمانهم وتفاوت درجاتهم في الغنى

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٦١٤٨).

والفقر وسائر وسائل الكسب في حاجة إلى الاقتصاد؛ ليأمنوا غوائل[١] الدَّهر الَّتي تصيبهم على غرَّة منهم، فتذهب بما ملكت أيديهم، أو تقعدهم عن العمل بذهاب قوَّتهم وقدرتهم.

فكم رأينا من غنيٍّ افتقر، ومن عزيزٍ ذلَّ، ومن قويٍّ غاله الدَّهر فأذهب قدرته وجلده، وصانع مبدع أصبح عاطلًا ولم يبقَ له غير ما ادَّخره من غناه لفقره، ومن شبابه لشيبه، ومن عمله لفراغه!

فإن لم يكن شيء من هذا - وهذا أكثر ما يكون - نال منهم العدم، وأذلَّهم الفقر.

والرَّسول ﷺ نبَّهنا على ذلك في تعليماته العظيمة، فقال: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحَّتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**»[٢].

والمبذِّر جاهل أحمق، وربَّما دفعه تبذيره إلى الاستدانة وبذل ماء وجهه، وربَّما بذل عرضه وشرفه في سبيل تبذيره.

وفي النَّاس من هو على عكس هذا، يجمع الدِّرهم إلى الدِّرهم، ويحرص على فلسه حرصه على حياته، ويرى في هذا لذَّة عيشه وغاية سعادته، يحرم نفسه من لذائذ العيش وزينة الحياة، ويحرم منهما أهله وعياله، ويُقصِّرُ في حقِّ ذوي الحقوق عليه؛ خوفًا من الذُّلِّ وهو في ذُلٍ وهوانٍ، وخوفًا من الفقر وهو في فقرٍ وحرمان، قال الشَّاعرُ المتنبِّي:

---

(١) الغوائل: الدَّواهي. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٣٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٩٧٦٧).

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِيْ جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِيْ فَعَلَ الْفَقْرُ[١]

والله ﷻ أثنى على عباده الَّذين التزموا في إنفاقهم طريق الوسط، وسمَّاهم في كتابه العزيز: عباد الرَّحمن، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾﴾ [الفُرقان: ٦٣-٦٧].

والإسلام ينظر إلى المال على أنَّه عصب الحياة وقوامها، وضرورة من ضروراتها، لا يستغني عنه أحد، فردًا كان أو جماعة أو أمَّة أو حكومة، هو الخير وزينة الحياة؛ لهذا يجب حفظه، فلا يُبَدَّد[٢] ولا يُبَذَّر في غير طائل أو مفيد، يقول الرَّسول ﷺ: «**إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله عليكم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السُّؤال، وإضاعة المال**»[٣].

والقرآن أمر بحفظ المال في مواطن، منها:

١- الحجر على السُّفهاء الَّذين لا يحسنون التَّصرف في أموالهم، فيضيعونها في غير مفيد، أو ينفقونها فيما لا يعود بالنَّفع عليهم أو على الوطن، فقال في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾﴾ [النِّساء: ٥].

---

(١) انظر: أمالي ابن الشجري (٣/ ٢٥٥).
(٢) بدَّد: فرَّق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٧/ ٤٠٤).
(٣) رواه مسلم، رقم: (١٧١٥).

٢- اليتامى؛ يجب علينا أن نحفظ أموالهم، وننمِّيها بالعمل فيها، ونرعاها رعايتنا لأموالنا الخاصَّة، حتَّى إذا بلغوا الرُّشد وجب علينا اختبارهم، فإن كانوا صالحين راشدين سُلِّمت إليهم أموالهم، وإلَّا فَمُنِعُوا من تسليمها لهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ﴾ [النِّسَاء: ٦].

٣- الدَّين والرَّهن؛ أمر الله بكتابتهما حماية لهما من الضَّياع، فقال تعالى في كتابه العزيز في سورة البقرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ﴾ ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢].

والمال في الإسلام ليس ملكًا خاصًّا لمالكه، وإنَّما هو ملك الله، وضعه وديعة في يد صاحبه، فيد المالك عليه يد وديعة استودعها الله إيَّاه، فيجب على المستودع أن يحفظ الأمانة ولا يصرفها إلَّا فيما أمر المودع، والقرآن يقول: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النُّور: ٣٣]، ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحَديد: ٧].

ثُمَّ هو فتنة وامتحان، فإن أنفقه صاحبه في وجوهه المشروعة نجح في امتحانه، وإلَّا فإنَّه مفتون به، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ﴾ [الشّورىٰ: ٢٧].

والإنسان يطغى إن استغنى، ويتجاوز بطغيانه حدود ما أمر الله به، فيبذِّر ويطلق لنفسه العنان في ميادين الشَّهوات، ويتكبَّر على غيره، وقارون طغى على موسى وعلى قومه وبغى عليهم، وكفر بالله الَّذي آتاه

مالًا مفاتيح كنوزه تنوء بالعُصبَةِ أولي القوَّة؛ لهذا كان من وصايا الإسلام للمسلمين: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القَصَص: ٧٧].

والمالُ ليس خيرًا بذاته، وإنَّما وسيلة لفعل الخير إذا وقع بيد من يريد الخير، ولا هو شرٌّ بذاته، وإنَّما وسيلة لإتيان الشَّرِّ لمن حُرِمَ فعل الخير، ولا تكمل به سعادة ولا تشرف نفس، فكم من رجلٍ ملك من المال ما لا يُحصى عدًّا فكان له شقاءً! وكم من شخص تكدَّست الأموال في خزائنه، وعظمت في البنوك أرصدته، لكنَّه ذليل في أعين النَّاس! فإنَّما يسعد الإنسان ويشرف ويعلو قدره بأشياء أخرى من وراء المال، هي: القيم الصَّالحة، والمثل العليا، والصِّدق في المعاملة، والثِّقة في النَّفس، والإحسان إلى المحتاجين، والجود على السَّائلين، والإنفاق في وجوه البرِّ المشروعة، وأبوابها كثيرة مفتوحة لكلِّ طالب، وطرقها مسلوكة معبَّدة لكلِّ راغب، قال الشَّاعرُ أبو دلامةَ:

مَا أَحْسَنَ الدِّيْنَ وَالدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ(١)

نعود الآن إلى الاقتصاد، وأنصح كلَّ مواطنٍ أن يتَّبع نظام الاقتصاد في حياته، وإنِّي لست من رجاله، ولا درست في حياتي شيئًا من كتبه، وإنَّما رأيت أن أُقدِّم لأخي المواطن ما يعرفه كلُّ عاقل، ويصادق عليه كلُّ رشيد؛ سبع نصائح أحصرها في هذه الكلمات:

١- انظر إلى من هو دونك في مصروفك، ولا تنظر إلى من هو أغنى

(١) انظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي (١/ ١٣١).

منك وأقوى على جلب المال، وإلَّا عجزت متى نظرت إلى الأعلى.

٢- أتقن عملك إن كنت صادقًا، واصدق في المعاملة إن كنت تاجرًا، يزد موردك ويحلَّ كسبك.

٣- اصدق في وظيفتك إن كنت موظَّفًا، وأدِّ الواجب الَّذي عليك، ولا تُضِعْ وقت المراجعين - إنَّ الوقت ثمينٌ - يطب رزقك ويبارك لك فيه.

٤- ابتعد من الاستدانة، ووازن بين دخلك وإنفاقك، وإلَّا كان عملك سفهًا.

٥- لا تتَّبع شهوات النَّفس، فليس لها حدٌّ، ولا تستجب لطلباتها، ولا تشترِ إلَّا ما تحتاج إليه.

٦- ابتعد عن اللَّهو ومواطن الإسراف والتَّبذير.

٧- اجتنب حُبَّ الظُّهور والتَّقليد، وبعدُ:

فالمال إن ملكته وأردته عزًّا ففي يدك هذا العزُّ وليس في المال، وإن بخلت به على المستحقِّ وعلى نفسك فلن يفيدك، وكان عليك وبالًا ولك مذلَّة، ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبإ: ٣٧].

الكسب والعمل

الحرص على الحياة وسلامتها موقوف على القوت، وكلُّ حيٍّ على هذه الأرض يسعى لطلب القوت لكي يعيش، وليس عمل ألزم وأوكد من طلب القوت حرصًا على الحياة، فالله جلَّ شأنه خلق الحيوانَ، والإنسانُ صنفٌ منه، وجعله أكُولًا شروبًا، وأودع فيه صفة السَّعي بحثًا عن الغذاء وطلبًا له، ألا ترى كلَّ حيوانٍ يأوي إلى بيته ليلًا حتَّى إذا أتى الصُّبح سعى لرزقه مبكِّرًا؟! وكلٌّ حسب استطاعته، فمنهم من يسعى طيلة النَّهار يرعى العشب إن كان من أَكَلَتِهِ، أو يفترس إن كان من المفترسات، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلًا لنا في الطَّير يسعى لطلب رزقه، فقال: «**لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطَّير، تغدو خماصًا**[(١)]**، وتروح بطانًا**»[(٢)].

والإسلامُ جعل حظَّ كلِّ إنسانٍ في حياته الدُّنيويَّة والأخرويَّة مرهونًا بعمله ومتوقِّفًا على مقدار سعيه، فمن جدَّ وَجَدَ، ومن قصَّر فلا يلومنَّ إلَّا نفسه، فالقرآن يقول لنا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجْم: ٣٩-٤١]، والرَّسول ﷺ يقول: «**إنَّ الله يعطي العبد على قدر همَّته ونهمته**»[(٣)]، ومعنى الآية والحديث -

---

(١) الخمصان: الجائع الضامر البطن، وجمعها خِماص. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢٩).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٣٤٤). وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٦٠٠٤).

كما بيَّنت - أنَّ حظَّ العامل من المكافأة أو الرِّبح في دنياه وأخراه سيكون على قدر همَّته ونشاطه، فمن وفَّى وُفِّيَ له، ومن قصَّر فعلى قدر ما عمل يكسب، فمن عَمِلَ خيرًا نال خيرًا، ومن عَمِلَ شرًّا نال شرًّا.

وأمَّا أن يقعد الإنسان لا يعمل معتمدًا على غيره في قوَّته فهذا ما لا يرضاه الإسلام لمسلم أبدًا، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة المَكْفِيُّ الفارغ**»[1]، فالمكفيُّ: الَّذي يكفيه غيره ضرورات حياته، فهو كَلٌّ على غيره، وعالة على سواه، والفارغ: العاطل عن العمل، الكَسِلُ الَّذي ينتظر مَن يحسن إليه بما يسدُّ جوعته ويستر عورته.

ولا ننسى ذلك الرَّجل الَّذي ذكره الصَّحابة عند رسول الله ﷺ وأثنوا عليه وذكروا من عبادته وتقواه وانقطاعه عن العمل تفرُّغًا للصِّيام والقيام وانشغالًا بالعبادة ما ذكروا، فسألهم صلوات الله عليه عمَّن يقوته؛ يطعمه ويسقيه، قالوا: كلُّنا يا رسول الله، قال ﷺ: «**كلُّكم خيرٌ منه**»[2].

والإسلام شجَّعَ الكاسب، ووعده بعظيم الثَّواب، سواء أكان زارعًا أم تاجرًا أم عاملًا أم محترفًا بأيِّ حرفة مشروعة، وقد أمر القرآن بالعمل، ففي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجُمُعَة: ١٠]، وفي سورة الملك قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [المُلك: ١٥]، والإسلام هو الَّذي جعل من

(١) أورده الهمذاني في الفردوس بمأثور الخطاب، رقم: (١٤٥٩).
(٢) رواه ابن منصور في سننه، رقم: (٢٩١٩).

العامل إذا نصح في عمله فأتقنه حبيبًا لله، فقد قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله يُحِبُّ إذا عَمِلَ أحدكم عملًا أن يتقنه**»(١)، والإسلام بيَّن أيضًا أنَّ تعب العامل سبب للغفران، ووسيلة لرضا الرَّحمن، فقال رسول الله ﷺ: «**من أمسى كالًّا من عمل يديه أمسى مغفورًا له**»(٢).

ومن شروط العمل وسبب نجاحه الثَّباتُ عليه دون ضجرٍ أو مللٍ، فإنَّ عملًا قليلًا ترافقه همَّة ويحدوه نشاط خيرٌ من عملٍ كثيرٍ يؤدِّي بصاحبه إلى الملل والانقطاع عنه، قال ﷺ: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»(٣)؛ إذ ليست العبرة بالكثرة ولا بالمجازفة، وإنَّما بالمثابرة ومصابرة العمل حتَّى يكون متقنًا مرغوبًا فيه.

والحياة في الإسلام كلُّها عملٌ، فلا يوم عيد توقف فيه الأعمال وتُعَطَّل، ولا يوم حداد تمنع فيه الأعمال وتُحَرَّم، إلَّا إذا نودي للصَّلاة من يوم الجمعة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجُمُعَة: ٩]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠]، وعودوا إلى أعمالكم، والإسلام لم يحرِّم عملًا على سيِّد ويوجبه على مسود، ولا جعل من الأعمال عملًا خاصًّا بشريف وآخر بوضيع، وإنَّما النَّاسُ كلُّهم في العمل سواء؛ لأنَّ عظمة الأمَّة تقاس بسعي أبنائها وتعاونهم، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التّوبَة: ١٠٥].

وفي فضل التِّجارة وكسب التَّاجر وردت أحاديث عدَّةٌ، منها قوله

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٩٢٩).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٥٢٠).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٤٦٤)، ومسلم، رقم: (٧٨٣).

ﷺ: «**إنَّ أطيب الكسب كسب التُّجَّارِ الَّذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذمُّوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسِّروا**»(١).

وأخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ العامل أو التَّاجر الَّذي لا يقصد بعمله أو تجارته جمع المال للتَّباهي به، أو التَّوصُّل به إلى ارتكاب ما لا يحلُّ، وإنَّما يقصد بعمله صيانة وجهه وكرامة نفسه عن سؤال النَّاس، والتَّوسعة على عياله؛ ليعيشوا في خفض من العيش، وراحة بال، وليصل به رحمًا أو جارًا، أو يحسن به إلى محتاج، يلقى الله ووجهه كالقمر، قال ﷺ: «**من طلب الدُّنيا حلالًا استعفافًا عن المسألة، وسعيًا على عياله، وتعطُّفًا على جاره، لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر**»(٢).

والرَّسول ﷺ المثل الأعلى للأمَّة الإسلاميَّة والقدوة الحسنة لكلِّ مسلم، عَمِلَ وشارك في بناء مسجدي قباء والمدينة، وشارك في حفر الخندق، ويحكي لنا التَّاريخ الإسلاميُّ أنَّه بينما المسلمون يحفرون اعترضتهم صخرة كبيرة وعجزوا عن تحطيمها، فعَلِمَ النَّبيُّ ﷺ بذلك فجاء إليها وحطَّمها بثلاثِ ضربات.

ونحن نرى في عصرنا هذا وفيما مضى من عصور أنَّ الهموم والأكدار والعدوان على الدِّماء والأعراض والفوضى والإخلال بالأمن وفشو السَّرقة وكثرة الجرائم وفساد الأخلاق والأمانيَّ الباطلة وقسوة القلب لا

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٤٥١٣).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٩٨٩٠).

تكون إلَّا في بلادٍ يكثر فيها العاطلون عن العمل، وأنَّ الجريمة غالبًا تأتي ممَّن لا عمل له، وقلَّما يكون العامل مجرمًا، قالَ أبو العلاء المعرِّيُّ:

اَلنَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ بَدْوٍ وَحَاضِرَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ[(١)]

وما دمنا في ذكر الكسب والإنفاق فلا بُدَّ من نصيحةٍ نسديها لمن هو في حاجةٍ إليها، وفيها التَّحذير من الدَّين؛ لأنَّ الدَّين همُّ اللَّيل وذلُّ النَّهار، يستدين الإنسان لا ليشبع من جوعٍ، أو يلبس من عُرْيٍ، ولكن ليشبع رغبات زوجةٍ مبذِّرةٍ في شراء كماليَّات تفخر بها على أمثالها، مثلًا: موظَّفٌ صغيرٌ مسكينٌ راتبه معدودٌ محدودٌ يريد أن يصفَّ نفسه في مصافِّ الأغنياء أو كبار الموظَّفين، فيشتري بالدَّين والتَّقسيط أثاثًا ورياشًا ومركبةً، أو يبني بيتًا أو قصرًا كما بنى فلان، والله أعلم متى ينفكُّ من قيد هذا الدَّين، وربَّما طُلِبَ إليه زيادةُ فوائدَ، وبقي مقيَّدًا بها ما عاشَ! وربَّما ساقه هذا الدَّين إلى ارتكاب حرامٍ، فأخذ الرَّشوة أو طلبها طلبًا، أو مدَّ يده إلى مال غيره، فخان الأمانة الَّتي استودعتها إيَّاه الأُمَّة، وربَّما جرَّه ذلك إلى عارٍ يبقى بقاء حياته، وهذا حرامٌ في الإسلام، وقد أنزل الله بتحريمه قرآنًا في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، وفي الحديث: «**من اقتصد أغناه الله ومن بذَّر أفقره الله**»[(٢)]، وفيه أيضًا: «**الاقتصاد في النَّفقة نصف المعيشة**»[(٣)].

---

(١) انظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال، للهاشمي (١/ ١٠٢).

(٢) رواه البزار، رقم: (٩٤٦).

(٣) سبق تخريجه.

والعاقل من وازن بين دخله ومصروفه، فلا يدع نفسه للدَّين فيعتاده، ثمَّ تتراكم عليه الدُّيون ويطارده دائنوه، فيَعِد هذا ويستمهل هذا، ويكذب ويماطل، ويسترحم، ويعيش حياته ذليلًا في نهاره، مهمومًا في ليله، يُفَكِّر كيف يتخلَّص من غرمائه في غده، والعاقل من دبَّر أمره واعتدل في مطالب نفسه وأهله، وأحسن التَّصرُّفَ في كسبه ومصروفه، ووازن بينهما حتَّى يأمن غائلة الدَّين ومطاردة الدَّائنين، و«**ما عال من اقتصد**»[(١)]، وفي الأمثال الدَّارجة عندنا: مدَّ رجليك على قدر غطاك.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٤٢٦٩).

عدل الإسلام

الإسلام دين العدل

العدل هو التَّوسُّطُ والاستقامة، ومعناه: وضع الشَّيء في موضعه. واستحسان العدل غريزة في البشر، وفطرة فطرهم الله عليها على اختلاف أديانهم وأجناسهم.

والعدل في الأحكام معناه: عدم الميل إلى أحد في الدَّعوى، وحسم القضيَّة طبق الشَّريعة في بلاد تحكم بالشَّريعة، أو طبق القانون حيثما يسود القانون.

والله أمر المسلمين بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وأمرهم أن يؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين النَّاس أن يحكموا بالعدل، والإسلام حرص أشدَّ الحرص على المحافظة على حقوق النَّاس، ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، كما عني أشدَّ العناية بصيانة حُرِّيَّاتهم وكراماتهم، والله جلَّ شأنه ما بعث رسله وأنزل عليهم كتبه إلَّا ليقوم النَّاس بالقسط، ويأمنوا على ما تقوم به حياتهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وخاتم الأنبياء سيِّدنا محمَّد ﷺ كان من وظائفه إقامة العدل بين النَّاس، فقد قال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

والإسلام اتَّخذ الوسائل جميعها الَّتي تصان بها الكرامات والحرِّيَّات، وتُحفظ بها الحقوق، وتُحقن بها الدِّماء، حتَّى تشيع الطُّمأنينة بين النَّاس، فينتشر الأمن، وتُشَدُّ علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوى الثِّقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمو الثَّروة وتزيد في رخاء العيش، ويمضي كلُّ فردٍ من الأمَّة إلى غايته في العمل والإنتاج آمنًا مطمئنًّا على كسبه وإنتاجه دون أن يقف في طريقه ما يعوق نشاطه أو يعطِّل عمله.

وبالحاكم العادل يُقَوَّمُ كُلُّ مائل، ويُصلَحُ كُلُّ فاسد، وإليه يفزع كلُّ ملهوف، وبه يقوى الضَّعيف حتَّى يأخذ حقَّه، ويضعف القويُّ حتَّى يؤدِّي ما عليه من حقٍّ، وهو للرَّعيَّة كالأب يسهر على مصالحهم، فيعلِّم جاهلهم، ويربِّي قاصرهم، ويحفظ أموالهم وأعراضهم ودماءهم، وهو في الوقتِ نفسِه وصيُّ اليتامى، وخازن المساكين، وهو للأمَّة كالقلب للجسد، تصلح الأعضاء بصلاحه، وتفسد بفساده، وهو ظلُّ الله على عباده في أرضه، هكذا يكون الحاكم العادل.

خطب أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه لَمَّا بويع بالخلافة، فقال: «**أيُّها النَّاس! القويُّ فيكم ضعيف عندي حتَّى آخذ الحقَّ منه، والضَّعيف فيكم قويٌّ عندي حتَّى آخذ الحقَّ له**»[1]، هذا هو مثل الحاكم العادل، وأقصد به ملك البلاد أو أميرها أو رئيسها.

أمَّا القاضي فأوَّل عدله أن يُسَوِّي بين الخصمين في الدُّخول عليه، والوقوف بين يديه، فيبدأ بالمُدَّعِي ويثنِّي بالمدَّعَى عليه، ولا يُلَقِّن واحدًا من الخصمين حجَّته، ولا يُعَدِّل شهادة شاهد، أو يشير إلى أحد طرفي

---

(١) سبق تخريجه.

الدَّعوى بما يفيده فيها محاباة منه له أو جنوحًا عن الحقِّ، ثُمَّ يحكم بما يراه حقًّا؛ ممتثلًا أمر الله ﷻ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّساء: ٥٨]، وتنفيذًا لقول النَّبيِّ ﷺ: «**أيُّها النَّاس، إنَّما أنا بشر، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضكم يكون ألحن بحجَّتِه من بعض، فأقضي لهم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحقِّ أخيه فإنَّما أقطع له قطعة من النَّار**»(١).

ومن أبلغ ما أوصى به خليفةٌ قاضيًا هو الكتاب الَّذي بعث به أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريِّ عندما ولَّاه قضاء العراق، نقتطف منه هذه الجملَ: «**وآسِ(٢) بين النَّاس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتَّى لا يطمع شريفٌ في ميلك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك، البيِّنة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر، والصُّلح جائزٌ بين المسلمين إلَّا صلحًا أحلَّ حرامًا أو حرَّم حلالًا، وإيَّاك والقلق والضَّجر، والتَّأذِّي من الخصوم، والتَّنكُّر عند الخصومات، فإنَّ الحقَّ في مواطن الحقِّ يُعظِمُ الله به الأجر، ويحسن به الذُّخر، واجعل لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بيِّنة غائبة أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنته فخذ له بحقِّه، وإلَّا استحللت عليه القضيَّة، فإنَّه أنفى للشَّكِّ وأجلى للعمى**»(٣)، هذه نبذة من كتاب عمر رضي الله عنه الَّذي جعله العادلون دستورًا لهم يسيرون في قضائهم على ضوئه، فلا تأخذهم في الحقِّ لومة ولا قرابة ولا صداقة ولا خوف ولا حُبٌّ ولا إكراه.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧١٦٨)، ومسلم، رقم: (١٧١٣).

(٢) آسِ بين الناس؛ أي: سوِّ بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٧/ ٧٦).

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٢٠٥٣٧).

وحماية المظلوم والوقوف في وجه الظَّالم عدل، فقد قال رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قيل: كيف أنصره ظالمًا يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**تحجزُهُ، أو تمنعُهُ من الظُّلم فإنَّ ذلك نصره**»[(١)].

وليس العدل موقوفًا على من وَلِيَ القضاء، بل هو مفروض في كلِّ شيء، وعلى كلِّ واحد، وحتَّى على من رضيه اثنان ليقضي في خصومتهما، أو انتدبه القضاء ليصلح في قضيَّة، أو يستمع إلى شهادة، ولم تزل هذه الحال في بلدنا كما كانت فيما مضى من قبل.

والعدل واجب في الشَّهادة، والقرآن أمر بأداء الشَّهادة وأوجب العدل فيها في مواضع من كتابه، وحذَّر من كتمانها، فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: ١٣٥].

وحذَّر الإسلام وشدَّد الحذر من تحريف الشَّهادة أو صبغها بصبغة تخالف الواقع، وقرن ذلك بعبادة الوثن؛ بالشِّرك بالله، فقال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال الرَّسول ﷺ: «**أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النَّفس، ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر: قول الزُّور وشهادة الزُّور**»[(٢)]؛ ذلك لأنَّ

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥٢).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٩٧٧)، ومسلم، رقم: (٨٧).

شهادة الزُّور تُبدل الحقَّ باطلًا، وتحيل الباطل إلى حقٍّ، وتبعد الحقَّ عن صاحبه، وتعطيه إلى من ليس له، وشاهد الزُّور أساء إلى نفسه، وإلى من شهد عليه، وله، وإلى القاضي، والمجتمع؛ فأساء إلى نفسه باستحقاقه غضب الله عليه، وإلى من شهد عليه فحرمه من حقِّه، وإلى من شهد له فجرَّأَهُ على أن يأكل حقَّ غيره، وإلى القاضي فضلَّله عن طريق العدالة، وإلى المجتمع فشجَّعَهُ على الإجرام.

والعدل مطلوب إلى الأب بين أولاده، وإلى الرَّئيس بين مرؤوسيه، وإلى المدير بين موظَّفي دائرته، وإلى المراقب بين عمَّاله، وإلى الرُّبَّان بين ملَّاحي سفينته، وإلى التَّاجر بين زبائنه وعملائه، وإلى المدرِّسِ في صفِّه بين تلامذته.

والعدل مطلوب في الكتابة بدليل قوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]؛ ولهذا أوجدت الحكومات المسلمة وغير المسلمة منها كاتبًا أسمته: كاتب التَّوثيق أو كاتب العدل، وظيفته التَّصديق على ما يكتبه المتعاقدون من اتفاقيَّات وعقود بينهم.

والعدل لا يُفرِّقُ بين ألوان وأديان، ولا يُفضِّل طبقة على طبقة، ولا أهل إقليم على أهل إقليم آخر، والعدل يجب أن يكون بين النَّاس جميعًا، والنَّاس أمامه كأسنان المشط سواءٌ، قويُّهم كضعيفهم، وسيِّدُهم كمسودهم، وشريفهم كوضيعهم.

وأختم كلامي بقصَّة تبيِّن عدل سلفنا الصَّالح في العهد العُمَرِيِّ المجيد: رفعَ يهوديٌّ إلى عمر بن الخطَّاب دعوى على عليٍّ بن أبي طالب

رضي الله عنهما، فلمَّا حضر عليٌّ قال له عمر: اجلس يا أبا الحسن. ورأى عمرُ بعد نطقه بهذه الكلمة الغضب والاشمئزاز في وجه عليٍّ، وبعد الانتهاء من الخصومة وانفضاض مجلسهما قال عمرُ لعليٍّ: أكرهتَ أن يخاصمك رجلٌ يهوديٌّ؟ قال عليٌّ: لا يا أمير المؤمنين، ولكن كرهتُ تفضيلَك لي بأن كنَّيتَني في مجلس خصومةٍ.

وأذكرُ هنا قصَّةً أخرى: هي أنَّ ملك الرُّوم المعاصر لعمر أرسل رسولًا إلى عمر بن الخطَّاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلمَّا دخل المدينة سأل أهلها: أين ملككم؟

فقالوا: لنا أمير وليس لنا ملك، وقد خرج إلى ظاهر المدينة، فاطلبْه تجدْه، فخرج رسول ملك الرُّوم إلى خارج المدينة فرآه نائمًا على الأرض وقد توسَّد يده، فوقعت في قلبه هيبة من هذا الرَّجل العظيم المتواضع، وقال: رجل تهابه الملوك لا يُقرُّ لهم قرار هيبةً وخوفًا منه وتكون هذه حاله، إنَّ هذا لعجب! لكنَّك يا عمر عدلت فأَمِنْتَ فنِمْتَ، وملكُنا يجورُ، فلا جرم أنَّه يبيتُ ساهرًا خائفًا[١].

إصلاح المجتمع

الإصلاح نوعانِ: إصلاح فساد المجتمع، وإصلاح بين متخاصمين، وجاء لفظهما بالقرآن؛ الأوَّل: الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والثَّاني: إصلاح بين النَّاس، والإسلام أوَّل ما جاء أصلحَ أوضاع

(١) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٦/ ٣٦).

المجتمع الفاسدة في الجاهليَّة الأولى؛ فأصلح القلوب وطهَّرها من الخرافات وزائف العقائد، وهذَّب النُّفوس بالأدب الشَّامل والأخلاق الفاضلة، وثقَّف المجتمع، فعلَّم من جهل، وجمع بعد تفرقة، وهدَى بعد ضلالٍ، وألَّف بين القلوب، وطهَّرها من الحسد والبغضاء بالحقِّ لا بالهوى، والنَّبيُّ ﷺ طالب أمَّته بهذا الإصلاح، وأراد لكلِّ فرد في الأمَّة أن يكون مصلحًا، يعمل فيه جهده، وعلى شاكلته، فقال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

والسِّيادة الَّتي كانت للمسلمين وجعلتهم سادة على العالمين لم تجئ عفو الخاطر أو محض الصُّدفة، وإنَّما سادوا باتِّباعهم سنَّة نبيِّهم في الإصلاح، وامتثالهم أمره في أن يكونوا مصلحين، وكان ﷺ قد ضرب لنا مثلًا للأمَّة في مجتمعها، فجعل المجتمع كسفينة في عرض بحر لُجِّيٍّ، والأمَّة كقوم ركوب فيها، فقال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استَهَمُوا على سفينة، فصار بعضهم في أعلاها، وبعضهم في أسفلها، فكان الَّذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا**»(٢)، فالمجتمع: هو السَّفينة، يركبها المصلح والمفسد، والبرُّ والفاجر، واليقظ والغافل، والنَّشيط والكَسِل، والزَّمن هنا: هو البحر الهائج المائج الَّذي تسير فيه هذه السَّفينة، فإذا شذَّ بعض رُكَّابِ هذه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٩٣).

السَّفينة وأراد أن يفعل ما يضرُّ بمصلحة السَّفينة أو رُكَّابِها ولم يغفل عنه اليقظ والمصلح، نجا النَّاسُ جميعًا، وإذا غفلوا عنه هلك النَّاسُ جميعًا، وإذا رزق الله هذه السَّفينة ربَّانًا ماهرًا قادها في سيرها، وآزره على هذه القيادة بحَّارةٌ مهرةٌ مصلحون، وأعانهم من ركَّابِ السَّفينة أيقاظ نشطون، فلا شكَّ في أن تبقى السَّفينة في سيرها سالمة، لا يعوقها عائق حتَّى يقضي اللهُ أمرَه، والرَّسول ﷺ يحذِّر من غفلة الرُّبَّان ووزرائه وأعوانهم أن يستغفلهم أخرقُ، فيُحدِث في هذه السَّفينة ما يغرقها.

وأمور المجتمع تحتاج دائمًا إلى إصلاح شامل، ولا بُدَّ للمجتمعِ من يقظة كلِّ فردٍ فيه، ليردَّ خطأ الخاطئ، أو يحجزه عن الخطأ، وليس معنى هذا أن يتحوَّل المجتمع إلى منازعات فرديَّة بين مصلح ومخطئ، أو بين فرد يريد إصلاحًا وآخر يريد بقاء القديم، لا؛ الله جلَّ شأنه رسم لنا طريق الإصلاح، بأن نجادل بالَّتي هي أحسن، وندفع بها السَّيِّئة، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣-٣٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥].

والنَّصيحة متى صدرت من منبعٍ عذبٍ أنتجتْ ثمرةً حلوةً ناضجةً نافعةً، وأنت أيُّها النَّاصح، وأنتِ أيَّتُها النَّاصحة! لا تشدِّدا، بل اتَّبعا نصيحة النَّبيِّ ﷺ عندما بعث عليًّا ومعاذًا إلى اليمن، وأوصاهما بهذه الوصيَّة: «**يسِّرا ولا تعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا**»(١)، واجعل في أخيك إذا نصحته شعورَ المحبَّةِ والخيرِ والتَّوجيه الصَّحيح؛ ليقبل منك النَّصيحة، أمَّا

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٠٣٨)، ومسلم، رقم: (١٧٣٣).

إذا نصحته بزجر وعنف فلعلَّه لا يقبل، وربَّما عاند وأخذته العزَّة بالعناد، وسار في طريقه حتَّى نهايتها.

ونحن اليوم في جاهليَّةٍ، ما الجاهليَّة الأولى بأحوج إلى الإصلاح منها، فقد كانت الجاهليَّة الأولى تعبد الأصنام والأوثان ليتقرَّبوا بها إلى الله، ونحن اليوم نعبد الأشخاص ذوي المناصب لنتقرَّب منهم، حتَّى إذا أدبر الزَّمن عن بعضهم ودفعهم عن كراسيِّهم تركناهم لنعبد أشخاصًا أقبل الزَّمن عليهم بمناصب ونفوذ، هذا فضلًا على عبادتنا المادَّة الَّتي تقرِّبنا من الشَّهوات، وننفقها فيما لا ينفع أو يفيد، أو فيما يجلب غضب الله علينا.

كانت الجاهليَّة الأولى تتنازع وتتناحر ويقاتل بعضهم بعضًا نزاعًا قبليًّا، ينصر الأخ فيه أخاه والقريب قريبه؛ صلةً للرَّحم، والجار جاره أو حليفه؛ وفاءً للجوار، أمَّا اليوم فلسنا كالجاهليَّة؛ لأنَّنا نتخاصم لينتقم الأخ من أخيه، والقريب من قريبه، فيقطع الرَّحم، ويفصم صلة القرابة، ويهدم الوشائج(١).

كانت الجاهليَّة الأولى تسفك الدَّمَ وتقتل النَّفس؛ أخذًا بثأر أو دفاعًا عن نفس أو انتقامًا لشرف أو عرض، أمَّا اليوم فيُسفَك الدَّم والشَّرف والعرض والمروءة؛ في سبيل مطامع وشهوات وأغراض دنيئة.

والمجتمع متى تُرِكَ وشأنه؛ فأفسد فيه المفسد، ولم يلتفت إليه المصلح ليحاول إصلاح ما أفسده المفسد، فلا بُدَّ أن يهلك هذا المجتمع، وينهار بناؤه وتغرق سفينته، والله ﷻ ضرب لنا مثلًا بني إسرائيل عندما تركوا حبل المفسد على غاربه، فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الوشائج: اشتباك القرابة والتفافها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٢٦٠).

كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المَائدة: ٧٨-٨١].

وإذا فسد المجتمع انتشرت فيه مفاسد متنوِّعة؛ كالجسم المريض تتنوَّع فيه الأمراض كلَّما ضعف، فلا يتورَّع مُحدِّثٌ عن كذبٍ، ولا يترفَّع قاضٍ عن رشوةٍ، ولا يمتنع معاقد أو معاهد عن غدر أو نقض، وتُفقَدُ الثِّقة، وتظهر الخيانة، ويفشو الانحراف الأخلاقيُّ بين الشَّباب والشَّوابِّ، وهكذا حتَّى لا يجد مصلح إلى الإصلاح سبيلًا، فيهلك الظَّالم والمظلوم، والفاسد والمصلح، والرَّسول ﷺ يقول: «**إذا رأيت أمَّتي تهاب أن تقول للظَّالم يا ظالم فقد تُوُدِّع منهم**»(١)، ويقول: «**إنَّ النَّاس إذا رأوا الظَّالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده**»(٢).

ونحن اليوم بحاجةٍ شديدةٍ إلى حفظ سفينتنا؛ لنصل بها إلى برِّ السَّلامة، وينجو رُكَّابُها، فالبحر مائج ولا منجاةَ لنا إلَّا بالصَّلاح والإصلاح، وذلك بالتَّعاونِ على حفظ السَّفينةِ؛ كي لا تتخلخل، فإنَّنا ركَّاب سفينة واحدة؛ قسم منَّا في أعلاها، وقسم في أسفلها، فيجب أن نكونَ متيقِّظِينَ، فلا نغفل أو نتغافل.

إنَّ مصلحتنا واحدة، يجب أن نلتقي كلُّنا عند هذه المصلحة؛ لأنَّها

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٠٣٦).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢١٦٨).

مصلحةُ النَّاسِ جميعًا، فنجاة السَّفينة نجاتهم، وغرقها غرقهم، والله ﷻ أمرنا أن نتعاون على البرِّ والتَّقوى؛ حتَّى لا نضيع ويضيع هذا الوطن، فهو لنا، ونحن أمَّته وأهله، وُلِدنا على أرضه، ونشأنا فوق ترابه، وأكلنا من خيراته، ودافع آباؤنا وأجدادنا عن حماه، وامتزج رفاتهم بثراه، وليس من الإنسانيَّة والوفاء، ولا من الدِّين الَّذي ندين به أن أرى أخي يخطئ فأعرض عنه، قائلًا: ما شأني به؟ فليعمل ما يشاء، فهو حرٌّ في تصرُّفه، ولن أتدخَّل في أمره. أو يرى أخي منِّي سوء تصرُّفٍ فينصحني، فأردُّ عليه: ما شأنك بي؟ لستَ وصيًّا عليَّ، ولا أرشد منِّي. لا يا أخي! إنَّك مسلم، و«**الدِّين النَّصيحة**»[1]، والفتنة والبلاء لا يقعان على الَّذين ظلموا خاصَّةً، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وأمور المجتمع لا تستقيم إلَّا باليقظة، والتَّعاونُ على الإصلاح شاملٌ يرفعُ الأخلاق، ويصلح الأفراد، ويلمُّ شتات الأمَّة، ويحفظ اقتصادها، وإلَّا فالنِّهاية وخيمة؛ ستغرق السَّفينة بركَّابها، بالصَّالح والطَّالح، ولن يجد أحد إلى الخلاص سبيلًا، ولا إلى النَّجاة طريقًا، وأنت - يا أخي - من هذه الأمَّة، خليَّةٌ في جسدها، أو عضو من أعضائها، فلا تحقر نفسك فيها وتقول: من أنا حتَّى أُصلِح؟ لقد سمعت قول نبيِّك ﷺ في أوَّل هذه الكلمة: «**من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[2]، فاعمل ما تستطيع، والله لا يكلِّف نفسًا إلَّا وسعها.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٥٥).

(٢) سبق تخريجه.

إصلاح ذات البين

جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب، ويضمَّ الصَّفَّ إلى الصَّفِّ، ويجعل من المسلمين أمَّة واحدة لها كيانها الموحَّد القويُّ، ويعيش النَّاس في ظلِّه آمنين على روابطهم أن تتصدَّع، والرَّوابط بين النَّاس تختلف اختلافًا ظاهرًا، وتتدرَّج من دائرة ضيِّقة إلى دائرة أوسع فأوسع، ومن الرَّوابط الَّتي تَرْبِطُ الإنسان بغيره أيضًا: رابطته بوالديه؛ أُمِّهِ وأبيه، وهي أوَّل رابطة، ثُمَّ أهل بيته وعياله، ثُمَّ قبيلته وذوي قرابته، ثُمَّ أُمَّتِهِ ووطنه، ثُمَّ رابطته بالبشريَّةِ كافَّة وهي الرَّابطةُ الكُبْرَى، أمَّا الإسلام فقد ربط المسلمين جميعًا بأوثق الرَّوابط؛ رباط الأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي تزول أمامها الفوارق جميعُها، فلا نسب يُخْفِضُ، ولا جنس يَرْفَع، ولا لون يُدْنِي، ولا جاه يُعْلِي، ولا مال ولا مميِّزات ألفها النَّاسُ جيلًا بعد جيلٍ، كلُّها زالت أمام قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠]، وقوله ﷺ: «**النَّاسُ بنو آدمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**»(١)؛ فأيُّ إنسانٍ - مهما كان عريق النَّسب واسع الثَّروة ذا شأن في قومه - هو أخ لمن دونه نسبًا، أو أقلُّ منه مالًا، أو أحطُّ منه شأنًا في المنزلة الاجتماعيَّة، فـ «**المسلم أخو المسلم**»(٢)، وهذا الإخاء يفرض على كلِّ مسلم أن يهتمَّ بأمر أخيه المسلم - يعني بشأنه - قَرُبَ منه أو بَعُدَ، ويدافع عنه، ويذود(٣) عن حياضه، ويمدَّ يد

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٦). وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٢)، ومسلم، رقم: (٢٥٦٤).
(٣) الذود: الطرد والدفع. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٣\١٦٧).

العون له، ويسعى إلى حفظ حاله ومستقبله مهما اتَّسعت دائرة المسلمين وتباعدت ديارهم، يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التّوبة: ٧١]، ويقول النَّبيُّ ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى**»(١)؛ فكما أنَّ الجسد لا يرضى أن يُعتدى على جزءٍ منه وهو بطبيعته يدافع عن بعضه، كذلك يجب أن يكون المسلمون في وطنهم الأكبر، مهما تباعدت أقطارهم فَهُمْ كالجسم الواحد؛ لأنَّ كلَّ فردٍ من المسلمين خليَّةٌ من ملايين الخلايا في هذا الجسم، وكلَّ إقليمٍ من أقاليمهم عضو في مجموعة هذا الجسم، والإسلام حرص أشدَّ الحرص على ألَّا يتفكَّك هذا الجسم؛ حتَّى لا تتفكَّك وحدة المسلمين، فالعقيدة واحدة، والعبادة واحدة، والقبلة واحدة، والشَّريعة واحدة، والغاية واحدة.

وحرص الإسلام أشدَّ الحرص على أن يجعل من المسلمين أمَّة واحدة، يحسب حسابها، ويرهب جانبها، فقال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»(٢)، «**المسلمون يد واحدة على من سواهم يجير عليهم أدناهم**»(٣)، «**من لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم**»(٤)، وجعل الإسلام لهذه الوحدة سياجًا يقيها شرور التَّدخُّل الخارجيِّ، وأيُّ صدع في هذه الوحدة، وأيَّةُ هزَّةٍ في كيانها يُعَدُّ جريمة ما بعدها جريمة، فهذا كتاب الله ينادي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠١١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٦).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٨١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).
(٣) رواه أحمد، رقم: (٦٦٩٢).
(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٤٧٣).

والرِّيح: هي القوَّة، ومتى ذهبت القوَّة كان الضَّعفُ، وعاقبة الضَّعف ذلَّة، وبعد الذِّلَّة الفناء والزَّوال، والإسلام أعلن البراءة من المفرِّقين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والإسلام عندما جعل المسلمين أمَّةً واحدةً لها كيانها القويُّ وأراد لها البقاء لتكون خير أمَّة أُخرِجَت للنَّاس بيَّنَ في كتابه العزيز أنَّ للوحدة أمراضًا يجب اجتنابها، والابتعاد منها؛ لئلَّا تُصابَ بها، والوقايةُ دائمًا خيرٌ من العلاج، فقال جلَّ شأنه في سورة الحجرات: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢]، كلُّ هذا وقاية لهذه الوحدة؛ لئلَّا تُصابَ بصدعٍ أو تفكُّكٍ من بدايتها في البيت حتَّى نهايتها في العالم الإسلاميِّ الأكبر.

وكنَّا قد قلنا في أوَّل هذا الحديث إنَّ الرَّوابط بين الإنسان وغيره من النَّاس تتدرَّج من دائرة ضيِّقة إلى دائرة أوسع، فقد أراد الإسلام لهذه الرَّوابط حفظًا وبقاءً، وأن تظلَّ صالحة مشدودة إلى بعضها؛ ليبقى

المجتمع قويًّا متضامنًا.

فعلاقة الإنسان بوالديه قضى فيها: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]، وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وقرنه بالشِّرك بالله وقتل النَّفس، وأمر بتربية الأولاد والإحسان فيها، وأوجب على الوالد أن يُعَلِّمَ ولده برَّه.

وعلاقة الإنسان بذوي قرباه أمر الإسلام برعايتها وصلتها، وحذَّر من قطيعتها، ووعد واصل أرحامه بسعة الرِّزق وطول العمر، وقال ﷺ: «**أسرع الخير ثوابًا صلة الرَّحم، وأسرع الشَّرِّ عقوبة البغي وقطيعة الرَّحم**»[1].

والعلاقة الزَّوجيَّة أمر أن تكون على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ لأنَّ الحياة الزَّوجيَّة هي الحياة الطَّبيعيَّة لكلِّ إنسان، وفيها البقاء؛ بقاء الجنس البشريِّ وحفظ نوعه، فوجب أن تكون هذه العلاقة علاقة حُبٍّ تكتسح كلَّ مكدِّرات العيش أمامها؛ حتَّى يتوفَّر للزَّوجين أسباب الهناء والغبطة لهذه الحياة، ومتى تخاصم زوجان وجب على المسلمين أن يسعوا لإزالة هذا الخلاف، وإذا تعذَّر بمواجهة كلٍّ من الزَّوجين وجب عليهم أن يبتغوا حكمًا من أهل الزَّوج وحكمًا من أهل الزَّوجة، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النِّساء: ٣٥، ١٣٠].

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢١٢).

والعلاقة بين النَّاس - تقاربوا أم تباعدوا - أمرٌ يجب أن يبقى حسنًا، تطيب به المعاملة، وتقوى الثِّقة، فإذا حصل خلاف بين اثنين وجب على كلٍّ من عَلِمَ بهذا الخلاف ووجد في نفسه القوَّة على إزالته أن يقضي فيه ويزيله، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وكما قال الرَّسول ﷺ: «**ألا أدلُّك على صدقةٍ يُحبُّها الله ورسوله؟**»، قال المخاطب: بلى يا رسول الله، قال: «**تُصلِحُ بين النَّاس إذا تباغضوا وتفاسدوا**»(١).

ولم يرخِّص الإسلام الكذب إلَّا في الإصلاح بين النَّاس، وما سوى ذلك فإنَّه حرام وإثم وخصلة مذمومة، وهو من صفات المنافقين، وقد قال ﷺ: «**ليس الكذَّاب الَّذي يصلح بين النَّاس، فيَنْمِي خيرًا، أو يقول خيرًا**»(٢).

أمَّا الغاية الَّتي أرادها الله لهذه الأمَّة في وحدتها فهي أن تكون صالحة مُصلِحة، تفعل الخير وتقود النَّاس إلى الخير، وتكون بعيدة من الشَّرِّ؛ لأنَّ الشَّرَّ يضعف جانب الخير في النُّفوس، ويوقد نار العداء بين النَّاس، فلا يبالي النَّاس بما يصيبهم في مجتمعهم، ويعكِّر صفو العلاقات فيما بينهم، فيصبح كلُّ فرد في المجتمع أنانيًّا لا يُبالي بما يصيب غيره إذا سَلِمَ هو، كما قال الشَّاعر أبو فراس الحمدانيُّ:

مُعَلِّلَتِيْ بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُوْنَهُ   إِذَا مِتُّ ظَمْآنًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ(٣)

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٣٩٢٢).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٦٩٢).

(٣) انظر: نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، للبتلوني (١/ ١٦).

فالغاية من هذا كلِّه امتثال أمر الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

المؤمن للمؤمن كالبنيان

الإنسان... والإيمان

قال رسول الله ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»، وشبك بين أصابعه، رواه البخاريُّ ومسلم عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه(١)، البنيان: جدارٌ قائمٌ مكوَّنٌ من لَبِنَات، مربوطٌ بينها بمادَّة تمسك هذه اللَّبِنَات بعضها ببعض، وكلُّ قطعةٍ منها في الجدار لها قوَّة ومتانة، وهي سندٌ لغيرها؛ لهذا يصعب تحريكها في جدارها، فإذا برزت إحدى هذه اللَّبِنات تخلخل ما حولها، فأصبح الجدار مزلزلًا قد تهزُّه الرِّياح فتطرحه أرضًا، والله جلَّ جلاله منَّ على هذه الأمَّة فجعلها أمَّةً واحدةً، فمعبودهم واحد، وكتابهم واحد، وعبادتهم واحدة، وصلاتهم واحدة موقَّتة بتوقيت واحد، يتَّجهون بها إلى قبلة واحدة، والمساجد تجمع بينهم، والحجُّ يجمعهم، ألَّفَ بين قلوبهم فنزع منها العداوة والبغضاء، وامتنَّ بهذه النِّعمة عليهم، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وفي صدرِ الإسلامِ لمَّا فهم المسلمونَ تعليماتِ الإسلامِ وطبَّقوها كما أرادها لهم، ملكوا البلاد وسادوا العباد، وسعد بهم الأشقياء وقوي بهم الضُّعفاء، ودانت لهم الدُّنيا؛ فتعلَّم جهَّالها، واهتدى ضُلَّالُها، ورشد

---

(١) سبق تخريجه.

غواتها، وظهر بهم الحقُّ، وانتشر بهم العلم، وعمَّت الثَّقافة، وصار النَّاس يلتمسون منهم كلَّ خيرٍ، ويستجيرون بهم من كلِّ شرٍّ، وصدق الله فيهم قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولقد مثَّل الرَّسول ﷺ اتِّحاد المسلمين ومعونة بعضهم لبعض بالتَّشبيك بين أصابعه، فأدخل بعضها في بعضٍ، وذلك يزيد في متانة كلِّ إصبع، ويعطي كلَّ يدٍ قوَّة إلى قوَّتها، كذلك المسلمون لمَّا تصافحت أيديهم وتضامَّت بعضها إلى بعض تحابَّت نفوسُهم، وتساندت أمَّتهم، وتظاهرت قواهم، وزادوا قوَّةً، واكتسبوا عزَّةً، وكانوا كما أراد لهم رسول الله ﷺ أن يكونوا «**مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمى**»(١).

أمَّا مسلمو اليوم فإنَّهم أصغوا إلى أقوامٍ منهم، وإلى نداء من لا ينفعهم نداؤه، ووقفوا على أبواب جهنَّم يدعون العربيَّ إلى عروبته، والفارسيَّ إلى فارسيَّته، والتُّركيَّ إلى تركيَّته، ولم يكتفِ الدُّعاة بالدَّعوة إلى العنصريَّة، بل زادوا هذه التَّفرقة فجعلوها إقليميَّة، ففرَّقوا العرب إلى أقاليم، لكلِّ إقليمٍ حدوده وجنسيَّته، وكلُّ فردٍ من هذه الأقاليم غريبٌ في غير بلده وإن اتَّحدت اللُّغة والدِّين والعنصريَّة، قالَ الشَّاعرُ:

لَنَا فِي الشَّرْقِ أَوْطَانٌ وَلَكِنْ ... تَضِيْقُ بِنَا كَمَا ضَاقَتْ لُحُوْدُ

تَنَازَعَ أَهْلُهَا فَلِكُلِّ حِزْبٍ ... حِمًى وَلِكُلِّ إِقْلِيْمٍ حُدُوْدُ(٢)

وفي كلِّ إقليم أحزاب، ولكلِّ حزبٍ آراء، فتباين في الأعراض،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفَّرَ لي من مصادر، ويُنسَبُ لأحمد الهاشميِّ

واختلاف في المقاصد، لا يتَّفقُ النَّاسُ على شيء، ولا ينقاد أحدهم إلى غيره، والدِّين واحد، واللُّغة واحدة، ولكنَّهم مختلفون! يجتمعون على لا شيء، ويتفرَّقون قبل أن يعملوا شيئًا، ويا ليتهم سمعوا قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣].

إخوتي في الله، إخوتي في الدِّين، إخوتي في كلِّ شيء! إنَّ الله ﷻ يناديكم بأحبِّ صفاتكم إليه، فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢].

من علامات الإيمان

قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه**»، رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه[(١)].

الإيمان هو: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»[(٢)]، وللإيمان دلائل وعلامات، وصف الله بها عباده المؤمنين في كتابه الكريم، نكتفي منها بآياتٍ ثلاث في أوَّل سورة الأنفال، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٤)، والترمذي، رقم: (٢٥١٥)، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٢) رواه مسلم، رقم: (٨).

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وبهذه الآيات وصفٌ صادقٌ للمؤمنين، فإنَّ المؤمن حقًّا الَّذي يخشى الله ويتَّقيه، فإذا ذكر الله أو ذُكِّرَ به امتلأ قلبه خشيةً من جلاله، وخوفًا من سطوته، فيأتمر وينتهي كما يريد الله، وإذا تلا آيات الله أو تليت عليه خشع لها، وأشرق قلبه بنورها، والقلب المؤمن يجد في آيات القرآن ما يزيده إيمانًا، وما ينتهي به إلى الاطمئنان حتَّى ينتهي به إلى أن يكون عبدًا ربَّانيًّا يسلِّم أمره كلَّه لمن بيده الأمرُ كلُّه، لا يشرك معه أحدًا، ولا يرجو أحدًا سواه، ولا يقصد إلَّا إيَّاه، ولا يرغب إلَّا إليه، ويقول في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] وهو صادقٌ، و«**الصَّلاة عماد الدِّين**»(١)، ولا يكتمل إيمانُ مؤمنٍ حتَّى يقيمها على وجهها الصَّحيح، ويؤدِّيها بخشوعٍ وخضوعٍ، ويحقِّق حقيقتها، ويؤدِّيها في صورتها الكاملة أداءً كاملًا لائقًا بوقفة العابد في حضرة المعبود، حتَّى إذا انتهى منها وسلَّم خرجت ولها نورٌ، و«**تُفتَحُ لها أبواب السَّماء وتقول: حفظك الله كما حفظتني**»(٢).

والمؤمن ينفق بعضًا ممَّا رزقه الله في وجوه البرِّ والإحسان، ورزق الله كثيرٌ لا يُحصى، وأبواب البرِّ كثيرةٌ في إنفاق المؤمن في سبيل الله للفقراء والمساكين.

بهذه الصِّفات الَّتي وصف الله بها المؤمنين - وهي: إيمانٌ بوحدانيَّة الله، وخشوعٌ لذكره، وتأثُّرٌ قلبيٌّ بآياته، وتوكُّلٌ عليه وحده، وإقامة الصَّلاة له، والإنفاق من بعض رزقه - يعلن عن فلاحهم، وأنَّهم يرثون الفردوس

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (١٩٥٨٢).

(٢) رواه أبو داود، رقم: (٥٨٦).

خالدين فيها، ولهم فيها درجاتٌ عُليا، و﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، فمن وجد هذه الصِّفات وجد حلاوة الإيمان، ومن فقدها فقد حقيقة الإيمان ولم يشعر بطمأنينته.

وفي الحديث الَّذي ذكرناه آيةٌ من آيات الإيمان الحقِّ، وهو أن يرى الإنسان نفسه عضوًا في المجتمع الَّذي يعيش فيه، فإذا نفع المجتمع فكأنَّما نفع نفسه، وإذا ضرَّه فكأنَّه ضرَّ بنفسه؛ فإذا آمنَ حقًّا يكونُ قد شعر بهذا الإحساس الصَّادق وانطبع في نفسه، فرأى أخاه المسلم كما يرى نفسه، فيحبُّ له من الخير ما يحبُّ لنفسه، ويكره له من الشَّرِّ ما يكره لنفسه، فإذا أحبَّ لنفسه أن يكون له جاهٌ وعلمٌ ومكانةٌ وشرفٌ، وخلقٌ طيِّبٌ، وعملٌ صالحٌ، وغنى كثير، وبنون وأقرباء مخلصون، وإخوان صالحون، أحبَّ لأخيه المؤمن مثل ذلك، أمَّا إن أحبَّ لنفسه أمرًا كريمًا نافعًا ولم يُحِبَّهُ لغيره من إخوانه المؤمنين فليس بمؤمنٍ، ومن تكون هذه صفته فهو حسود، يكره أن ينال النَّاس خيرًا، وأن يسبقه إلى الخير أحد، ويقف حجر عثرة في طريق العاملين يعرقل سيرهم، ويسبِّبُ لهم المشكلات الَّتي تحول بينهم وبين تحقيق أمانيِّهم الطَّيِّبة، وينسى قول الله ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزُّخرُف: ٣٢]، وكثيرٌ من هؤلاء يجد في نفسه ما لا يعرفه أحدٌ إلَّا هو، يكره لفلان أن ينجح، ولفلان أن يَثْرَى، وأن يرى دار هذا عامرة، ويهزأ بالَّذي أنعم الله عليه بحياةٍ طيِّبة، ويلعن الدُّنيا الَّتي ترفع الوضيع وتضع الرَّفيع، ويا ليته سمع قول رسول الله ﷺ: «**اتَّقِ المحارم تكن أعبد النَّاس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى النَّاس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للنَّاس ما تُحِبُّ لنفسك تكن مسلمًا**»، رواه

الإمام أحمد والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه[١]، وصدق رسول الله ﷺ.

الإسلام يسر

روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**»[٢]، وروى البخاريُّ أيضًا عن عامر بن أبي موسى الأشعريِّ عن أبيه قال: لَمَّا بعثه رسول الله ﷺ ومعاذَ بْنَ جبل الأنصاريَّ، وجعل كلًّا منهما على ناحية من نواحي اليمن، قالَ لهما: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا ولا تختلفا**»[٣].

إنَّ رسول الله ﷺ بُعِثَ رحمةً للعالمين ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ويحطُّ عنهم التَّكليفاتِ الشَّاقَّة الَّتي وضعها الأحبار والرُّهبان عليهم، وهي أوامر ما أنزل الله بها من سلطان، وجاء ﷺ بالشَّريعة السَّمحة؛ لينسخ بها تلك الأحكام، ويرفع عن النَّاس الحرج، وجاء برخصة بعد عزيمة، ولين بعد شِدَّة، وتيسير بعد تعسير، وتبشير بعد تنفير.

وقد جُعِلَت الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف الله لمن يشاء أضعافًا

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٨٠٩٥)، والترمذي، رقم: (٢٣٠٥)، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦٩)، ومسلم، رقم: (١٧٣٤).

(٣) سبق تخريجه.

كثيرةً، والكلمة في الخير تعدل عملًا صالحًا، واللُّقمة في جوف جائع تدفع عن صاحبها السُّوء، وتنجيه من عذاب يوم القيامة، و«**ابتسامة الرَّجل في وجه أخيه صدقة**»[١]، وما يطعمه الرَّجل لأهله يُكتب صدقةً؛ قال ﷺ: «**إنَّك لن تنفقَ نفقةً تبتغي بها وجه الله إلَّا أُجِرتَ عليها، حتَّى ما تجعل في فم امرأتك**»[٢].

وكان من عادته ﷺ إذا بَعَثَ عمَّاله ورسله يزوِّدهم بالنَّصائح؛ حتَّى يكونوا للنَّاس قدوة حسنة، ويجمع قلوبهم على الإسلام، فبعث أبا موسى إلى اليمن الأعلى، ومعاذًا إلى اليمن الأسفل، وأمرهما بثلاثة، ونهاهما عن ثلاثة؛ أمرهما بالتَّيسير والتَّبشير والتَّطاوع، ونهاهما عن التَّعسير والتَّنفير والتَّخالف.

فالتَّيسير تسهيلٌ للنَّاس، والله جلَّ شأنه ما جعل على عباده في الدِّين من حرج؛ لأنَّه يريد بهم اليسر، فلا يكلِّفهم عسرًا يتأذَّون به أو يملُّونه، حتَّى في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أوجب رسول الله ﷺ ألَّا يكون في ذلك تنفير ولا إيذاء، وقال لأصحابه: «**إنَّما بُعِثتُم مُيَسِّرين ولم تُبعثوا معسِّرِين**»، قالها صلوات الله وسلامه عليه عندما ثار النَّاس على رجلٍ بالَ في المسجد ليوقعوا به، فنهاهم عن مسِّهِ بسوءٍ، وقال لهم: «**دعوه وهَرِيْقُوا على بوله سَجْلًا من ماء، أو ذَنُوبًا من ماء**»[٣].

والإسلام يسر في العبادة، فلم يكلِّف أمَّته من الأمر إلَّا ما يطيقونه، فأسقط عن المريض والمسافر الجمعة والجماعة، وأباح لهما التَّيمُّم عند

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٥٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) رواه البخاري، رقم: (٥٦)، ومسلم، رقم: (١٦٢٨).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٢٢٠).

فقد الماء أو الأذى باستعماله، وأباح لهما الفطر في رمضان وقضاءه بعد الصِّحَّة والإقامة، وأذن للمسافر في قصر الصَّلاة وجمعها، وأذن لمن عجزَ عن الصَّلاة قائمًا أن يصلِّيها قاعدًا، ولا زكاةَ ولا حجَّ ولا جهادَ إلَّا على القادر المستطيع، والقلم مرفوعٌ عن الصَّبيِّ والمجنون والنَّائم كما أخبرنا الرَّسول ﷺ: «**رُفِعَ القلم عن ثلاثةٍ: عن النَّائم حتَّى يستيقظ، وعن الصَّبيِّ حتَّى يَشِبَّ، وعن المعتوه حتَّى يَعقِلَ**»(١)، و«**لا ضرر ولا ضرار**»(٢)، والمشقَّة تجلب التَّيسير، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٧٣]، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، وإنَّما نهى ﷺ عن التَّعسير بعد أمره بالتَّيسير؛ تقويةً وتأكيدًا، وحتَّى لا يبقى عند السَّامع شكٌّ في أنَّ الإسلام يُحِبُّ اليسر ويَكرَهُ العسر. والنَّهيُ يقتضي الكفَّ عن الفعل، فكأنَّه ﷺ أراد أن يقول: يسِّرا وداوما على التَّيسير، ثمَّ أمرهما بالتَّبشير، والتَّبشير إعلان الخبر المُفرِحِ الَّذي يبدو أثره على وجه السَّامع، فإذا دعا المسلم أخاه بالإنسانيَّة إلى هذا الدِّين دعاه بالَّتي هي أحسن، وذَكَّرَهُ بالثَّمرات الَّتي يجنيها العبد من خيرات الإسلام؛ عزَّة في الدُّنيا، ونجاة في الآخرة، وإذا وعظ بشَّر بالخير لا بالعنف والشِّدَّة، فلا يلعن ولا يطعن ولا يُشدِّد، ويقول للنَّاس: إنَّ شرائع الإسلام لا تُثقِلُ النُّفوس، وإنَّما هي طهارةٌ وسعادةٌ وبردٌ وراحةٌ، والتَّوبة تحجب السَّيِّئات، و«**الله يفرح بتوبة عبده**»(٣)، و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، و«**إنَّ الله يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيء النَّهار،**

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٤٢٣)، وفي الباب عن عائشة: حديث عليٍّ حديثٌ حسن غريب.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٣٠٩)، ومسلم، رقم: (٢٧٤٤).

ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء اللَّيل»[1]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

أمَّا التَّنفير فتجنَّب سبيله أيُّها الأخ المسلم، فإنَّه لا يوصل إلى خير، ويكفي به ذمًّا قول الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويكفي بالتَّبشير ثناءً قول الله لنبيِّه ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ولنضرب مثلًا في معاملة أبوين لأولادهما؛ الأوَّل يحسن إلى أولاده فلا يَشُقُّ عليهم بأمرٍ ولا نهي، وينصحهم بالَّتي هي أحسن، ويُبيِّن لهم بأحسن القول مضارَّ السَّيِّئات، ويشرح لهم باللِّين منافع الحسنات، وقد يضرب لهم الأمثال الملموسة بمن أساء وما جنت يداه من سيِّئاته، وبمن أحسن وما كسب من ثمار حسناته، لا شكَّ في أنَّ هذا وأمثاله سعداء مع أولادهم، وترى الأولاد مع أبيهم في هناء وسعادة، ومحبَّة متبادلة، والبِشْرُ يملأ جوانحهم، وهم في نعمة من الألفة والرِّضا، أمَّا الثَّاني فبخلاف الأوَّل، إذا أَمَرَ قسا، وإذا نهى قسا، وإذا أدَّب أوجع، وإذا أنفق منَّ، فنرى أولاده في ضيقٍ من وجوده معهم، ملُّوه وكرهوه، وإذا غاب لم يفقدوه، يفرحون إن غاب، ويغضبون إن حضر، يودُّون موته، ويكرهون حياته.

ونختم حديثنا هذا بقول الله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٧٥٩).

﴿أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزُّمَر: ١٧-١٨]، وبقول الرَّسول الكريم ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه نشر الله عليه كنفه، وأدخله جنَّته: رفقٌ بالضَّعيف، وشفقةٌ على الوالدين، وإحسانٌ إلى المملوك**»، رواه التِّرمذيُّ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه(١).

الدِّين الخُلُق

الإنسانُ كائنٌ على هذه الأرض، خُلِقَ من لحمٍ ودمٍ، يأكل ويشرب ويجوع ويظمأ وينام ويصحو ويتعب ويستريح ويسعى لعيشه، فهو حيوانٌ من الحيوانات، لا فرق بينه وبينها إلَّا أنَّ الله خلقه في أحسن تقويم، ومنحه العقل والإدراك، وبهما فضَّله على سائر الحيوان، بل سخَّر له بهما جميع ما خلق في هذه الأرض من نباتٍ وجمادٍ وحيوانٍ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البَقَرَة: ٢٩]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجَاثِيَة: ١٣].

قال بعض علماء النَّفس: إنَّ الإنسان ذو غريزتين؛ غريزة حيوانيَّة تدفعه إلى فعل الشَّرِّ، وغريزة إنسانيَّة تدفعه إلى فعل الخير، وهو إلى فعل الخير أميل منه إلى فعل الشَّرِّ بأصل فطرته؛ لأنَّ الشَّرَّ إنَّما جاءه من حيوانيَّته، يذكِّرني هذا بقول النَّبيِّ ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو يمجِّسانه أو ينصِّرانه**»(٢)؛ لهذا نرى الإنسان إذا فعل الشَّرَّ نَدِمَ؛

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٤٩٤)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٢) سبق تخريجه.

لأنَّه أخطأ وفعل شرًّا، وإذا فعل خيرًا استبشر وسُرَّ بفعله؛ لأنَّه فعل خيرًا، وبعض النَّاس إذا فعلوا شرًّا خجلوا أن يراهم غيرهم، ولكنَّ الشَّرَّ إذا تكرَّر فعله من إنسانٍ صار عادةً له، وذلك ما نبَّه عليه رسول الله ﷺ بقوله: «**إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئةً نُكِتَت في قلبه نُكْتَةٌ سوداء، فإذا هو نَزَعَ واستغفر وتَابَ، صقل قلبه، وإذا عاد زيد فيها حتَّى يعلو قلبه، وهو الرَّان الَّذي ذكره الله تعالى في كتابه** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفين: ١٤]»(١)، ومعنى الحديث: تكرار فعل الشَّرِّ يجعل في فاعله عادةً يعتادها، فلا يلتفت بعد ذلك لعائبٍ يعيبه أو ينكر عليه فعله، لكنَّك لو سألت هذا الفاعل عن فعله لقال: أنا مخطئٌ، ولكن أسأل الله العفو عنِّي والهداية لي.

ممَّا تقدَّم نفهم أنَّ الإنسان بين قوَّتين؛ قوَّة إنسانيَّة بشريَّة، وقوَّة حيوانيَّة، تدفعه الأولى إلى فعل الخير بقدر ما يستطيع لنفسه ولمجتمعه، وتدفعه الأخرى بما في حيوانيَّته من شهوةٍ وغضبٍ، وقد يشتطُّ فيها حتَّى يستبيح الدِّماء والأعراض والحقوق، يقول الله ﷻ في سورة البلد: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨-١٠]، والنَّجدان: هما الطَّريقان؛ طريق الخير والفضائل، وطريق الشَّرِّ والرَّذائل، ويقول الله ﷻ أيضًا في سورة الشَّمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: ٧-١٠].

هكذا أَمَرَ الله سبحانه وتعالى بتهذيب هذه البشريَّة؛ كي لا تُهمل وتغلب عليها الصِّفة الحيوانيَّة، فأرسل أنبياءه بالهدى ودين الحقِّ،

(١) رواه الترمذي، رقم: (٣٣٣٤)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وأمرهم بالإرشاد والوعظ والنَّصيحة ودعوة النَّاس بالحسنى واللِّين، والتَّرغيب أحيانًا، والتَّرهيب أحيانًا أخرى.

وقال لنا نحن المسلمين: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال الله لنا ذلك حتَّى لا تُهمَل النُّفوس، ثمَّ متى أُهملت فَسَدَتْ، والقرآن أخبرنا أنَّ النَّازع إلى الشَّرِّ والدَّافع إليه في الإنسان مرضٌ، ففي سورة الأحزاب يقول الله لنساء النَّبيِّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وكرَّر القرآن ضرب المثل بالمرض للقسوة والكفر والنِّفاق، وأمر بالعلاج؛ بالحسنى أحيانًا، وبالشِّدَّة أخرى، كالطَّبيب تمامًا، فهو يعالج مريضه أحيانًا بالعمليَّة الجراحيَّة بالمشرط، وأحيانًا أخرى بالأدوية أو الإيحاء، وكذلك علاج النَّفس يكون بالنَّصيحة والوعظ أحيانًا، وبالتَّأديب والأخذ بالقوَّة أحيانًا أخرى، لكن إذا نَمَتِ الرَّذائل في النَّفس وفشا ضررها وتفاقم خطرها انسلخ المرء من دينه، وما فائدة دينٍ بلا خُلُقٍ؟! وقد قال الرَّسول ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لِمَن لا خُلُق له**»[1].

وإنَّ غاية بعثة النَّبيِّ ﷺ أن يهدينا إلى أحسن الأخلاق كما قال ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق**»[2]، ومعنى هذا: أنَّه بُعِث لينقل البشريَّة إلى حياةٍ مُشرقةٍ بالفضائل والآداب والأخلاق الكريمة؛ لهذا نرى القرآن الكريم يهيب بالنَّاس أن يستجيبوا لله وللرَّسول إذا دعاهم لما يُحييهم، ألا ترى أنَّ أوَّلَ محاربةِ الإسلامِ كانت لأعداءِ الإنسانيَّة؛ لينقِذَ

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٢٦٩٠).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (٢٠٧٨٢).

النَّاس من شرورهم، ويجنِّبهم أضرارهم؟!

وحارب الإسلام الجهل، وتتبَّعه في كلِّ وكرٍ من أوكاره، وكلِّ لونٍ من ألوانه، وحارب جهالة الشِّرك بالتَّوحيد، والخرافات بالتَّثقيف، والضَّلال بالهدى، والأُمِّيَّةَ بالتَّعليم، والرَّذائل بالفضائل، والقبائح بالمحاسن، وحارب الفقر وكانت حربًا قويَّة لا هوادة فيها، وأنزل بالتِّجارة قرآنًا يُتلى، وأمر بالكسب والحرث والصِّناعة، والسَّعي في مناكب الأرض، والابتغاء من فضل الله، وعاب على العاطلين والمعتمدين في عيشهم على غيرهم فعطَّلوا جوارحهم، ولم يفيدوا المجتمع.

والإسلام حارب التَّفكُّك والتَّفرقة والعداء، فجعل في أموال الأغنياء حقًّا معلومًا للمساكين والفقراء، وحثَّ الأغنياء على معاونتهم، تارةً بالتَّرغيب وتارةً بالتَّرهيب، وأمر بصلة الرَّحم ورعاية اليتيم، وإصلاح ذات البين، وتأديب الباغين ومن يسعى فسادًا في الأرض.

وحارب الإسلام المرض، فأمر بالوقاية بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، وحذَّر من العدوى، وحثَّ على التَّداوي حتَّى استقرَّ ذلك في نفوس المسلمين، وشعروا أنَّ صِحَّة الأبدان مقدَّمةٌ على صِحَّة الأديان.

وحارب الإسلامُ المنكراتِ جميعَها، وجعل للخير والصَّلاح طريقًا واحدًا، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعَام: ١٥٣]، وجعل تلك السُّبل المخالفة سُبُلَ الإسلام خارجة على طريق الخير، ولا توصل طارقها إلَّا إلى الخيبة والبوار، وأمر أمَّةً من النَّاس أن تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى

عن المنكر، وذلك عناية بسلامة المجتمع؛ لأنَّ المنكرات جراثيم تعدي في انتشارها، فإذا كوفحت وحُجِرَ عليها قُضِيَ عليها فلا تنتشر، وعندئذٍ يسلم المجتمع من شرورها، أمَّا إذا أُهمِلَت وتُرِكَ أمرها فستنتشر العدوى، ويصبح الحال - والعياذ بالله - وباءً لا يسلم من فتكه أحد، والله ﷻ حذَّرنا من ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال: ٢٥].

لقد فهمنا من كلِّ ما تقدَّم أنَّ محمَّدًا ﷺ بُعِثَ ليتمِّم مكارم الأخلاق، وقال لنا في حديث من أحاديثه: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»(١)، وقال في حديثٍ آخرَ: «**إنَّ النَّاسَ لم يُعْطوا شيئًا خيرًا من خُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢)، وما انتشر الإسلام في بقاع الأرض بسيفٍ ولا بمدفعٍ، ولا دخل النَّاس فيه أفواجًا بقوَّةٍ وإرهابٍ وشِدَّةٍ، وإنَّما انتشر بالخُلُق الحسن والأدب، ولن تصلح تربية ولن تسود أمَّة إلَّا إذا اعتمدت الخلق الحسن والأدب، فبصفة الخُلُق وصف الله رسوله الكريم بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: ٤]، أمَّا صفة الأدب فقد تحدَّث عنها رسول الله، فقال: «**أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي**»(٣)، ويقول الشَّاعر أحمد شوقي في الأخلاق:

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا(٤)

والإنسان السَّيِّئ خُلُقُهُ لا يترك في نفوس من حوله أثرًا طيِّبًا، ولا

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (١١٦٢)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٦٣).
(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣١٨٩٥).
(٤) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق، للمهدي (١/ ٦٨٨).

يذكرونه إن غاب إلَّا بِشَرٍّ، والأب السَّيِّئ خُلُقُهُ مع أولاده يكرهه أولاده ولا يأنسون بقربه ويملُّون حياته، والولد السَّيِّئ خُلُقُهُ يكرهه والده دون سائر إخوته، ورئيس الدَّائرة إذا كان خلقه سيِّئًا يكرهه سائر مرؤوسيه ويشتمونه ويذيعون في النَّاس مساوئه، والزَّوج والزَّوجة متى أساء أحدهما عشرة الآخر كرهه، وسيِّئ الأخلاق لا صديق له، يعيش في المجتمع مذمومًا مدحورًا.

والله ﷻ أمر نبيَّه أن يدفع السَّيِّئة بالحسنة، ويجادل النَّاس بالَّتي هي أحسن، وقال له: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وخير النَّاس مَن أحسن خلقه مع النَّاس، والإسلام يأبى للمسلم أن يكون فاحشًا متفحِّشًا، يسعى بحيوانيَّةٍ وراء شهواته.

وإنِّي أهيب بإخواني أبناء هذا البلد الكريم ألَّا يستبيحوا المنكرات باسم الحرِّيَّة أو التَّقدُّم أو التَّحرُّر وقد عاشوا عمرًا طويلًا في تحاببٍ وتضامنٍ وتواصلٍ كريمٍ، وليعلم المسلم أنَّه ما كان المنكر يومًا من الأيَّام تقدُّمًا، وما كانت الفواحش في زمنٍ من الأزمان تحرُّرًا، ولا كانت الرَّذائل في أعين النَّاس فضائل، وليعلموا أنَّ المنكر حجر عثرةٍ أمام التَّقدُّم، وأنَّ الفاحشة تيَّارٌ يجرف معاني الحرِّيَّة؛ لأنَّها منكر، والمنكر لا يكون معروفًا، ولأنَّها شرٌّ، والشَّرُّ لا يكون خيرًا، والجاهل يظنُّها تحرُّرًا وهي عبوديَّة، ويظنُّها حرِّيَّة وهي فوضى وانحلال.

وهذه كلمةٌ أُسِرُّها للشَّباب والشَّوابِّ: احرصوا على ألَّا يذهبَ انحلال الخُلُق بشبابكم، واصرفوا قوَّة الشَّباب الهائلة في سبيلٍ تنفعون بها وطنكم، وتسعدون بها أُمَّتكم، وترفعون بها من شأنها، ولا يجرفنَّكم تيَّار المدينة الزَّائفة بشروره ومفاسده، ولا تَغُرَّنَّكم كلماتُ دعاةِ الدَّعارة

والإباحيَّة، فإنَّ الوطن بحاجةٍ إليكم، والأمَّة بحاجةٍ إلى رجالٍ، والمجد بحاجةٍ إلى أيدٍ عاملة تُشَيِّدُ بناءه، فكونوا رجالًا أشدَّاءَ من أجل وطنكم، ولكم أيدٍ عاملة في بناء مجدكم، وكونوا كتلةً قويَّةً تدفع عن الأمَّة اعتداء المعتدين، والله مع العاملين والمصلحين.

الدِّين المعاملة

الإسلامُ نظامٌ كاملٌ، صالحٌ لكلِّ زمانٍ وأمَّةٍ، وفي كلِّ مكانٍ يستطيع الإنسان أن ينظِّم حياته ما دام يريد الحياة.

كثيرٌ من النَّاس يظنُّون أنَّ الإسلام ركعاتٌ يؤدِّيها الفرد، أو همهمةٌ بأدعيةٍ، أو مسبحةٌ يطقطق بحبَّاتها ويحرِّك مع هذه الطَّقطقة شفتيه، ومتى أدَّى هذا أدَّى كلَّ شيءٍ نحو الإسلام! والحقيقة أنَّ أمثال هؤلاء أخطؤوا فهم الإسلام وحقيقته، وابتعدوا منه، ولقد رأينا كثيرًا من هؤلاء، واستمعنا لأقوالهم، وقلنا لهم: ليس الإسلام - كما تفهمون - شيئًا خانعًا، فلا هو رهينة، ولا مسكنة، ولا اعتزال عن النَّاس، فإنَّ «**المُؤمِن يَألَف ويُؤلَف، ولا خير فيمن لا يَألَف ولا يُؤلَف**»(١)، ولا هو خمول وضعة، والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وإنَّما الإسلام الحياة، بل الحياة كلُّها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

إنَّ الإسلام هو كتاب الله الَّذي لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من شؤون

---

(١) سبق تخريجه.

الحياة إلَّا ذكرها، هو تنزيلٌ ممَّن أتقن كلَّ شيءٍ، وهو العليم الخبير بما يحتاجه البشر من نظم تسعدهم في الحياة وتُبعِدُ منهم شقاءها.

والإسلام نظَّم الحياة كلَّها، فهو في المسجد مع الرَّجل يعبد ربَّه، وهو معه في بيته يعاشر زوجته وأولاده، ومع الموظَّف في وظيفته، ومع القاضي في محكمته، ومع المدَّعي في مرافعته، ومع الشَّاهد عند أداء شهادته، ومع المسافر في ترحاله، ومع المقيم متى أقام، ومع العامل في عمله، ومع المرأة في دارها وسلطانها، وهو مع المسلم في كلِّ شأنٍ من شؤونه.

والقرآن - كتاب الله للمسلمين - لم يترك مجالًا لِأن يستورد المسلمون مبادئ ونظمًا يُكَيِّفونَ بها حياتهم؛ لأنَّ لهم في القرآن ما يُغنيهم عن استيراد شيءٍ من ذلك، لا أقول هذا بدافع التَّعصُّب للإسلام، فالإسلام ليس بحاجةٍ إلى تعصُّب متعصِّب، أو نصرة نصير.

والإسلام ذو أركانٍ ثلاثة مرتبطة مع بعضها، ولا يكون المرء مسلمًا حقًّا حتَّى تجتمع فيه، وهي: عقيدةٌ، وعملٌ، ومعاملةٌ مع النَّاس، فالعقيدة أن يؤمن المرء بأنَّ الله أحد لم يلد ولم يولد، ولا شريك له ولا مثل، وأنَّ بيده كلَّ شيءٍ، وأنَّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، يُحيي ويميت، وأنَّه كما وصف نفسه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وأن يؤمن بملائكة الله، وكتبه المُنَزَّلة على رسله، ورسله الَّذين بعثهم من البشر لهدايتهم، وأن يؤمن باليوم الآخر - يوم البعث - الَّذي

يجازى فيه المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، وبعد انتهائه ينقسم النَّاس إلى: فريقٍ في الجنَّة، وفريقٍ في السَّعير، وأن يؤمن بالقدر خيره وشرِّه من الله تعالى.

وثاني الأركان العمل: وهو أن تؤدَّى الفرائض الَّتي فرضها الله على المسلم؛ من إقامةِ الصَّلاة، وصومِ رمضان إن كان مكلَّفًا، وإيتاءِ الزَّكاة متى ملك نصابها، وحجِّ البيت إن استطاع إليه سبيلًا، والجهاد في سبيل دينه حسب قدرته متى كان من أهل الجهاد.

أمَّا ثالث الأركان فهو المعاملة مع النَّاس، ولا غنى للإنسان عنها في كلِّ حركةٍ من حركاته، فهي الَّتي تربط الإنسان بالمجتمع، وتربط بين الزَّوجين، وبين الأب وأولاده، والمدرِّس وتلامذته، والرَّئيس ومرؤوسيه، والمخدوم وخدمه، والتَّاجر وزبائنه وعملائه.

والمعاملة أخلاق، و«**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[١]، بل إنَّه «**لا دين لمن لا خُلُق له**»[٢]، ونبيُّنا محمَّد ﷺ ما بعث إلَّا «**ليتمِّم مكارم الأخلاق**»[٣]، والأخلاق معناها: الإعراض عن أعراض النَّاس، وأن يعيش الإنسان في مجتمعه عاملًا، يعامل النَّاس بما يُحِبُّ أن يُعامل به، باذلًا في مصالح أمَّته النَّفع الَّذي يعود خيره عليه وعليهم، ممتثلًا أمر رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه**»[٤].

والمعاملة أمانة وصدق، ووفاء بالعهد، لقول الرَّسول ﷺ: «**أربعٌ من**

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلة من النِّفاق حتَّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[(١)]، وإذا استعرضنا حياة الإنسان منذ إدراكه وجدنا إدراكَه يبدأ بالتَّلمذة، فهو سيكون أمينًا على دروسه، فعليه أن يحفظ هذه الأمانة، فيصدق في إجابته ولا يكذب، ويفي بمواعيده ولا يخلف، ويؤدِّي واجباته بأمانة خالية من شوائب الغشِّ، ثمَّ إذا أنهى دراسته ودخل في ميدان العمل قد يكون موظَّفًا، والوظيفة أمانة، والمراجعون عملاء، فعليه إن كان مسلمًا أن يحفظ الأمانة، ويصدق مع العملاء، وقد يكون تاجرًا، والتِّجارة كلُّها أمانة، والرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قال: «**إنَّ أطيب الكسب كسب التُّجَّار الَّذين إذا حدَّثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اشتروا لم يذمُّوا، وإذا باءوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا**»[(٢)]، وقالَ ﷺ: «**رَحِمَ الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[(٣)]، والتِّجارة صدقٌ في الحديث، وأمانة في البيع والشِّراء، والوعد والعهد، والكيل والاكتيال، فمتى خان التَّاجر هذه الأمانة فكذَّب أو غشَّ أو طفَّفَ، فقد خالف دينه في المعاملة، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفِّفِين: ١-٣]، وقد يكون الرَّجل زوجًا أخذ زوجته بأمانة الله وقبلها على ما في كتاب الله وسُنَّة رسوله؛ ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]،

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤)، ومسلم، رقم: (٥٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه البخاري، رقم: (٢٠٧٦).

فمتى قصَّر في حقِّها فقد خان الأمانة، وخالف أمر دينه في المعاملة معها، كما أنَّ عليها أن تحفظ زوجها وتطيعه وترعاه على ما في كتاب الله وسنَّة رسوله، فإذا قصَّرت فقد خانت الأمانة مع زوجها، وأساءت المعاملة، وقد يكونان أبوين، فالأولاد عندهما أمانة الله، على الأب الإنفاق، وعلى الأم الرِّعاية، وعليهما جميعًا التَّربية والحفظ، فمتى قصَّرا فقد خانا الأمانة والمجتمع والوطن.

والرَّجل يشيخ أبواه فيكونان عنده أمانة، وهو شاكرٌ لهما، فقد ربَّياه صغيرًا، وأحسنا إليه ضعيفًا، وكلأاه عاجزًا، فعليه أن يكافئ بالمثل، بل أقلَّ منه؛ لأنَّهما ربَّياه وهما يرغبان في حياته، أمَّا هو فينتظر موتهما، فإن عقَّهما ولم يحسن إليهما فقد خان الأمانة، وخالف أمر الله إذ يقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

والصَّديق والصَّداقة عهدٌ وحديثٌ، فمن حدَّث صديقه بخلاف الواقع فقد كذب عليه وخان الأمانة، ومن اغتاب صديقه فقد غدره، ومن كذب وغدر فقد نافق وخالف أمر الدِّين في حسن المعاملة.

والوطن والأمَّة أمانة عند كلِّ فردٍ من الأُمَّة في الوطن، عليه أن يعمل لهما على شاكلته وحسب استطاعته، فمتى قصَّر فقد قصَّر في الأمانة، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

قوَّة المؤمن

بعث الله محمَّدًا رسولًا للنَّاس كافَّةً، ودينه رحمةٌ للعالمين؛ لأنَّه الدِّين الصَّالح للنَّاس كافَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهو دينٌ لا ينافي سنن الحياة، وإنَّما يهذِّبها ويصقلها ويوجِّه النَّاس فيها الوجهة الصَّالحة، لتكون حياتهم مختلفة عن الحياة البهيميَّة السَّافلة.

يقول النَّبيُّ ﷺ: «**المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف وفي كلٍّ خير**»(١)، فالله يُحِبُّ المؤمن القويَّ؛ لأنَّ أخلاقَ المؤمن قوَّةٌ في دينٍ، وحزمٌ في لينٍ، وإيمانٌ في يقينٍ، ومعنى هذا كلِّه أنَّ المؤمن ليس بهزيلٍ يضعف أمام من يريد به السُّوء، ولا هو مغفَّلٌ لا يدري من أمر دنيا النَّاس شيئًا، ولا يجزع ممَّا يحدث له من كوارث ونكبات، ولا يكسل أمام المهمَّات، وهو كما وصفه رسول الله ﷺ: «**لا يُلدَغُ من جحرٍ واحدٍ مرَّتين**»(٢)؛ لحذره وفطنته، فعلى المؤمن - لِيُثبِتَ حقًّا أنَّه مؤمنٌ - أن يكون كالصَّخرةِ قوَّةً أمام أقوى العواصف، وأعتى الزَّوابع، والمؤمن «**يقول الحقَّ حيثما كان، لا يخاف في الحقِّ لومة لائم**»(٣)، فلا يتأثَّر إذا أوذي؛ لأنَّه يؤمن أنَّ حقَّه سيغلب الباطلَ مهما كان قويًّا.

وحقٌّ لا نصير له ضائعٌ مهدورٌ مهانٌ، والمؤمن الَّذي يسير في ركاب الحقِّ منصورٌ، ولا بدَّ للحقِّ من قوَّةٍ تسير معه في ركابه، تذود عنه

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٦٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٦١٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٩٩٨).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٧١٩٩)، ومسلم، رقم: (١٧٠٩).

وتحميه، وتطارد الباطل دونه، وسينتصر بهذه القوَّة ولو كانت قليلة، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩].

والقوَّة صفة الأنبياء صلوات الله عليهم، فقد كان موسى قويًّا أمينًا، وقد أمره الله تعالى أن يأخذ الألواح بقوَّة ليبلِّغها النَّاسَ، ويحيى أخذ الكتاب بقوَّةٍ وهو صبيٌّ، والقرآن ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣] على القويِّ الأمين محمَّدٍ ﷺ.

والإسلام أمر المؤمنين أن يعدُّوا القوَّةَ من وجهاتها جميعها؛ لمجابهة الأعداء، وألَّا يتركوا ناحيةً من نواحيها إلَّا ويكون لهم منها نصيبٌ؛ حتَّى يحتفظوا بعزَّتهم وكرامتهم وحرِّيَّتهم، وهذه القوَّةُ كما يأتي:

قوَّة الجسم يحفظها المؤمن بالاعتدال بالأكل والشُّرب، وممارسة العمل، وحفظه من المهالك ومسبِّبات الأمراض، والامتناع من كلِّ ما من شأنه أن يوقعه في المهالك.

وقوَّة العقل ينمِّيها المؤمن بتعلُّم العلوم النَّافعة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ليجني بها من الثَّمرات ما تجعله إنسانًا يرتفع عن مستوى البهائم، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩]؟! ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك: ٢٢]؟! ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فَاطِر: ١٩-٢٢]؛ لهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يتعلَّم لينمِّي عقله، وأن يبتعد من كلِّ ما يضعف لبَّه، أو يفقده هداه، أو ينحرف به عن الصِّراط السَّويِّ.

والإسلام يريد من المسلم قوَّةً في الرُّوح، فلا تلهيه مشاغل الحياة عن

تفكيره بربِّه ومخلوقاته، ولا تبعده مشاغل حاضره من تفكيره بمستقبله، ولا تشغله دنياه عن آخرته.

وقوَّة الخلق تُقرِّبُ الإنسان من النَّاس ومن الله، فالمؤمن من يُحِبُّ الخير لأخيه ويعامل النَّاس بما يُحِبُّ أن يعاملوه به، لتشيع فيهم المحبَّة والإخاء والتَّراحم، ولتكون الأمَّة كالبنيان يشدُّ بعضه، قوَّةً متماسكةً بالحقِّ تصمد أمام القوى كلِّها، وقد أخبرنا النَّبيُّ الكريم عن فضل حسن الخُلُق والمعاملة، فقال: «**إنَّ من أحبِّكُم إليَّ وأَقربكُم منِّي مجلسًا يوم القيامة أَحَاسِنَكُم أخلاقًا**»[1].

وقوَّة الإيمان أعلى القوى مرتبةً، ومنها تتفرَّع سائر القوى، وتثمر الثِّمار الحسنة، والإسلام لا يريد لأمَّته تلك القوَّة الباغية الظَّالمة الغاشمة المعتدية، فإنَّ الله لا يُحِبُّ المعتدين ولا الظَّالمين، وإنَّما يريد لأمَّته القوَّة المؤمنة المهتدية الهادية الَّتي تقف مع الإيمان بالمرصاد لأهل الإلحاد والفساد، يريدُ لهم قوَّةً في العقيدة والجسم والعدَّة وفي تماسك المجتمع وفي التَّربُّص للأعداء، وفي كتمان هذا التَّربُّص قوى تحفظ على المسلمين - في أوطانهم جميعها - كرامتهم وعزَّتهم وحرِّيَّتهم ودينهم وأوطانهم.

والمؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ، والمتَّقونَ يجعل الله لهم فرقانًا، ويكفِّر عنهم سيِّئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، كيف لا والله ﷻ أنعم على أولئك الَّذين كانوا مستضعفين في الأرض، يخافون أن يتخطَّفهم النَّاس، فآواهم وأيَّدهم بنصره، ورزقهم من الطَّيِّبات، وكثَّرهم بعد أن كانوا قِلَّة، وأغناهم بعد أن كانوا عالة، ومكَّن لهم في الأرض،

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٨). وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

ووعدهم بالحفظ متى حافظوا على إيمانهم وصالح أعمالهم؟!

إنَّ المسألة ليست مسألة أمانيَّ ولا رغبات، فليس في الإسلام أمانيُّ، والله تعالى لام اليهود في أمانيِّهم، فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النِّساء: ١٢٣]، ولا هي مسألة إقليم أو ألوان أو جنسيَّات، ولكنَّ المسألة مسألة إيمانٍ وعزيمةٍ، إنَّها سعيٌ وراء المصلحة، وجهاد الظُّلم والظُّلمة، ومكافحة قوى باغية معتدية، ودفاع عن النَّفس والكرامة، وجهادٌ في سبيل الله، ومتى عَرَفَ الإنسان نقاط الضَّعف في هذه عَرَفَ معاني القوَّة فيها، وقديمًا قيل: وبضدِّها تتميَّز الأشياء، وبعدُ:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وأقول لكم: أيُّها الإخوة المسلمون! إنَّكم تريدون نصر الله، والله ﷻ كتب على نفسه أن ينصر من ينصره، ومن ينصره الله فلا غالب له، وقد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: ٥٥]، فأين أولئك من طاعة الله، والانتهاء عن نواهيه؟!

إنَّ الله ﷻ تعهَّد بنصر الأقوياء بإيمانهم، الَّذين ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النُّور: ٣٧]، وتعهَّد بنصر الأشدَّاء على الكفَّار، الرُّحماء بينهم، الَّذين يُحِبُّهم الله ويُحِبُّونه، نعم تعهَّد لهم بالنَّصر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [محمَّد: ٧-٨].

حبُّ الوطن من الإيمان

أرسل الله الرُّسل مبشِّرين ومنذرين، ونظَّم بهم الحياة رحمةً للعالمين، بعثهم بالدِّيانات؛ ليجمع بها المتنافرين، ويهذِّب بها نفوس المتوحِّشين بتعاليم رشيدة روحيَّة وزمنيَّة.

والإسلام خاتم الأديان كلِّها، فهو علم وعمل، وعبادات ومعاملات، بعث الله به خاتم الأنبياء محمَّدًا ﷺ، وأنزل عليه كتابه الكريم الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، ومحا بهذا الدِّين العصبيَّة والعنصريَّة والتَّفاضل، وجعل «**النَّاس سواسية كأسنان المشط**»[١]، «**لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى**»[٢]، والمسلمون «**مثل الجسد الواحد**»[٣]، و«**المسلم أخو المسلم**»[٤]، و«**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»[٥].

حافظ المسلمون الأوَّلون على الإسلام بمعناه ومبناه؛ حافظوا على أوامره فنفَّذوها، وعلى نواهيه فابتعدوا منها، وكانوا بذلك كما وصفهم القرآن: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، ثمَّ صدموا بصدمات أحدثتها فرق مدسوسة على الإسلام، جاءت لتقويض دين الإسلام، فكان

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سبق تخريجه.

المسلمون أمامها كالطَّود[١] الشَّامخ أمام العواصف والزَّوابع، ثُمَّ جاءت صدمات الحروب الصَّليبيَّة في مصر والشَّام، وصدمات الحرب التَّتريَّة في الشَّرق وبغداد، ففكَّكت عظمةَ المسلمين، وفرَّقتهم دولًا وأحزابًا، وجهَّلتهم في دينهم، فكانوا شيعًا، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وقد تغلَّب المسلمون عليها بتماسكهم وتكاتفهم وتعاونهم، والقرآن حدَّثنا، والتَّاريخ أخبرنا، أنَّ الأمم الَّتي نكصت[٢] على عقبيها برفض دينها كان خذلانها نتيجةً لهذا الرَّفض، ولاستخفافها بماضي مجدها؛ لأنَّ الدِّين هو الَّذي يجمع النَّاس ويؤلِّف بين قلوبهم، فإذا ذهب الدِّين من النُّفوس ذهب الجامع بينها، وضاع التَّآلف الَّذي يلمُّ شملها.

والدِّين يدفع الإنسان بغيرته وعقيدته إلى الدِّفاع عن وطنه؛ لأنَّ حبَّ الوطن والعزَّة من الإيمان، والدِّفاع عن الكرامة من الإيمان، ومتى فُقِدَ الإيمان في شخصٍ فَقَدَ دينه كلَّه! والوطن مجتمع الأمَّة، وهيكل الوطن قائمٌ ثابتٌ، وأهله به أعزَّة محترمون بحرمة الوطن، فمتى هُتِكَت حرمة الوطن ذهبت عزَّة أهله، ومتى داس العدوُّ أرضه داس كرامتهم وهدم مجدهم، والوطن قبل ذلك كلِّه مسقط الرَّأس، ومدبُّ الطُّفولة، وملعب الصِّبا، ومسرح الشَّباب، ومقرُّ الأهل والخلَّان، ومدفن الآباء والأجداد، في تربته ينبت الإنسان، وفي نعمته يتربَّى، وإلى اسمه ينتسب، وفي ظلاله يرتع، وكلُّ واحد منَّا يعدُّ حياته الدُّنيا من وطنه وإلى وطنه، بل كلُّ واحد منَّا يرجو أن يموت في وطنه ويدفن في ترابه.

(١) الطَّود: الجبل أو عظيمه، المتطاوِل في السماء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٣٢٥).

(٢) النُّكُوصُ: الإحجامُ والانقداعُ عن الشَّيء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ١٠١).

والإنسان يُحِبُّ، والمحبَّة ثمنٌ لإحسانٍ تقدَّمَ، فنحن نُحِبُّ الله؛ لأنَّه المنعم على عباده بالحياة، وما أكثر ما في الحياة من نِعَم! ونُحِبُّ رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الله هدانا به، ونُحِبُّ أبوينا؛ لأنَّهما سبب وجودنا، ونُحِبُّ بعد ذلك كلَّ محسنٍ؛ لإحسانه، ونكره كلَّ مسيء؛ لإساءته، وإذا كان الأمر كذلك فالوطن أولى بمحبَّتنا بعد الله ورسوله؛ فإنَّ أرضه مبدؤنا، وفيها منشؤنا، وإليها نهايتنا.

وكم رأينا وقرأنا في التَّاريخ مغلوبين ثاروا على الغالبين، ليخرجوهم من ديارهم ويطهِّروا أرض الوطن من رجسهم ونجاسة أقدامهم، فكانوا يثورون للأنفة من الغلبة، ولحفظ العزَّة من الإهانة، وليتخلَّصوا من مشاركة الغالبين في الرِّزق، وما يزال الصِّراع قائمًا بين غاصب حقٍّ ومطالب به، والمرء لا يتنازل عن رزقه وكرامته وأرضه إذا كان قادرًا على الاحتفاظ بها لنفسه، وإذا ضعف فلا بُدَّ له أن يُجدِّد قواه، أو يوصي بها من بعده ليستردَّ الحقَّ القائم في قلوب النَّاس.

واليوم كلُّ واحدٍ منَّا يدَّعي في نفسه الوطنيَّة وحبَّ الوطن والعزَّة والكرامة، وكلُّ من قال ذلك فهو صادق؛ لأنَّه لا يخلو قلبٌ في الدُّنيا - مهما كان قاسيًا -من حبِّ الوطن إلَّا قلب لئيم، ولا تخلو نفسٌ من عزَّةٍ وكرامةٍ مهما كانت ذليلة، وكلُّنا يريد لوطنه السَّعادة والخير وحفظ الكيان والعمران والرُّقيَّ والثَّروة والامتداد، وإذا أردنا ذلك لوطننا فإنَّما نريده لنا ولمن بعدنا؛ لأنَّ حقَّ وجود الوطن ليس لنا وحدنا؛ لهذا كان علينا أن نطلب العزَّة لنا؛ ليعتزَّ الوطن والمواطنون بأجيالهم المقبلة، والله ﷻ جعل العزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين، فمن أذلَّ نفسه طائعًا فليس بمسلم، فالمسلم لا يرضى بالهوان ولا يقبل الظُّلم.

ومن الدِّين أن يستعمل الإنسان القوَّة في مواجهة الظُّلم ومكافحة الطُّغيان، وقد عاب الإسلام قومًا رزحوا[(١)] تحت سيطرة الطُّغيان فظلموا أنفسهم، فكانت عاقبتهم النَّار والخسران، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النِّسَاء: ٩٧].

ونحن اليوم أمام أعظم إهانة - وأستغفر الله؛ لأنَّ المسلم لا يهون، ولكنَّها نكبة - حاقت بنا في عصرنا هذا، وأكبر طعنة وُجِّهَت إلينا في زماننا هذا، وليس أفظع من أن يعيش المسلمون في بلادهم يتحكَّم فيها أعداء دينهم، وتهان أمامهم مقدَّساتهم، والإسلام يرتفع بالمسلم عن هذه المهانة، فلا يخضع ولا يُذَلُّ، ولا يخنع لغيره من المحتلِّين اللِّئام، وقد وصف الله المسلمين بأنَّهم أعزَّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله أعداءَ الله، ويكافحون لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته.

والمسلم يستعدُّ ويُعِدُّ ليثأر لأمَّته، وينتقم لكرامته، فعلينا - أيُّها المسلمون - أن نتدرَّعَ بالدِّين، فبه قوَّتنا، وفيه عزَّتنا وسيادتنا وكرامتنا، وإذا كنَّا مؤمنين حقَّ الإيمانِ فلن يجعل الله للكافرين سبيلًا علينا؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّسَاء: ١٤١]، وليعش المسلم بعد ذلك حرًّا في نفسه، آمنًا في داره، عزيزًا في دنياه، به تكون كلمة الله العليا، وبه تكون كلمة الَّذين كفروا السُّفلى.

الدِّين هو الَّذي يجمع النَّاس، ويؤلِّف بين قلوبهم، فيجعل من

(١) رزحت الناقة: سقطت من الإعياء هزالًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٣٩١).

المسلمين أمَّة واحدة ضدَّ العدوِّ، بالعقيدة والدِّين، ويحفظ الله بهذه القوَّة الوطن والدِّين، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

أدب الإسلام ومراقبة الله في العمل

يقول الله جلَّ شأنه في كتابه العزيز: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

ثمَّ يخبرنا جلَّ شأنه في كتابه هذا بأنَّ نصره يكون للَّذين مكَّنهم في الأرض فأقاموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠-٤١].

المؤمن مأمور دائمًا بأن يتأدَّب بآداب الإسلام ويتحلَّى بها، حتَّى يكون من خير أمَّةٍ أُخرجَت للنَّاس، فإن كان راعيًا ومكَّنَهُ الله في أمر عباده وجب عليه أن يرعى الأمَّة برعاية الإسلام طبقًا لآدابه وتعليماته، ويجعل من سيرة المصطفى وسيرة الخلفاء أسوة له وقدوة؛ لأنَّه محاسبٌ إن قصَّر، ومأجورٌ إذا أحسن، وله فوق ذلك أضعافٌ مضاعفة من الثَّواب، ليس لأحدٍ غيره مثلها، فقد أخبرنا الصَّادق المصدوق ﷺ أنَّ الإمام

العادل يظلُّه الله في ظلِّه، فقال: «**سبعةٌ يظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه: الإمام العادل**»[١]، وقال: «**إنَّ أحبَّ النَّاس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسًا: إمامٌ عادل**»[٢]، وقال لنا: «**إنَّ اللَّه مع القاضي ما لم يَجُرْ، فإذا جار تخلَّى عنه**»[٣]، و«**يومٌ من إمامٍ عادلٍ أفضل من عبادة ستِّين سنة**»[٤]، نعم، أفضل من عبادةٍ ستِّينَ سنةً بقيام ليلها وصيام نهارها؛ لأنَّ الإمامَ العادل يحمل تبعة ثقيلة، وأمانة عظمى، ناءت بحملها السَّماوات والأرض؛ وهي السَّير بالأمَّة إلى ما يحفظها في دينها ودنياها.

وإن كان ربَّ أُسرةٍ وجب عليه أن يبتعد بأسرته من مزالق السُّوء، ومهاوي الخسران، فيأخذهم بنصحه، ويعدل بينهم، ولا يُفَضِّل أحدًا على أحدٍ، ويكفيهم شرَّ الحاجة إلى غيرهم، ويعوِّدهم القناعة في الأمور المعيشيَّة، فإنَّ القناعة كنزٌ لا يفنى.

وإن كان موظَّفًا وجب عليه أن يجتهد في أداء الأمانة الَّتي وكِّلت إليه، فلا يؤخِّر عمل اليوم إلى غد؛ لأنَّ للغد أعماله، ومن ترك عمل اليوم إلى غد ثقلت عليه الأحمال، وتراكمت عليه الأعمال؛ نتيجة الإهمال، والرَّسول ﷺ قالَ: «**كلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته، فالإمام راعٍ في الأمَّة ومسؤولٌ عن رعيَّته، والرَّجل راعٍ في بيته ومسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولةٌ عن رعيَّتها، والخادم راع في مال سيِّده ومسؤول عن رعيَّته، وكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته**»[٥]، فمن فرَّط

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٦٠)، ومسلم، رقم: (١٠٣١).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٣٢٩)، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
(٣) رواه الترمذي، رقم: (١٣٣٠)، وقال: حديثٌ غريبٌ.
(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٦٦٤٩).
(٥) سبق تخريجه.

فيما وُكِّلَ إليه من رعاية فقد أساء؛ إلى الله الَّذي مكَّنه ورعاه في هذه الرَّعيَّة ووكَّلَ إليه أمرها، وإلى الضَّمير والوجدان إن كان له ضمير ووجدان، ومن قصَّر فقد باء بسخط من الله، وظلَمَ نفسه.

إنَّ مَن أحسن الرِّعاية فيما استرعاه الله فذلك مع الله، والله معه، فإن عاش كانَ محبوبًا عند من عرفوه، واسترعاه الله فيهم، وإن مات فهو مرحوم بألسنتهم، باقٍ ذكرُه فيهم، بخلاف الَّذي أساء الرِّعاية، فهو مكروهٌ ما عاش، ملعونٌ بألسنتهم، وإن مات كان مذكورًا فيهم بالسُّوء، محرومًا من ترحُّمهم عليه ودعائهم له، فالنَّاس دائمًا يذكرون أهل الخير بالخير وأهل الشَّرِّ بالشَّرِّ، وألسنة الخلق أقلام الحقِّ، وهي دليلٌ على عاقبة الإنسان، يدلُّ على ذلك ما روي في الحديث: أنَّ جنازةً مرَّت والنَّاس جلوسٌ حول رسول الله ﷺ فأُثنِيَ عليها خيرًا، فقال نبيُّ الله ﷺ: «**وجبت وجبت وجبت**»، ومرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها شرًّا، فقال ﷺ: «**وجبت وجبت وجبت**»، ولمَّا سُئِلَ ﷺ عن ذلك قال: «**من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنَّة، ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النَّار**»(١).

والعاقل من النَّاس من أراد الخير لنفسه وابتعد بها من الشَّرِّ، و«**الكيِّسُ من دان نفسه وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ من أَتبَعَ نفسه هواها وتمنَّى على اللَّه**»(٢).

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٩٤٩).
(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢٤٥٩)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته

لقد غزانا دعاة الإلحاد بضلالهم، ووجدوا في شبابنا قبولًا لتضليلهم؛ لأنَّ هذا الشَّباب جاهلٌ بدينه، لا يعرف قيمه ولا تعليماته، والدُّعاة يحاولون تدمير هذه القيم واقتلاعها من صدور النَّاشئة والشَّباب؛ حتَّى يصبح الجيل - الَّذي يكون فيه هؤلاء الشَّبابُ رجالًا - هدفًا لكلِّ ناهبٍ، ومكسبًا لكلِّ محاربٍ، ومن أجل هذا فتح الغرب بوساطة دعاته أبواب ثقافته، ودعا الأمَّة المسلمة في المشرق والمغرب ليتبادلوا معه الثَّقافة، والمسلمون الجاهلون بدينهم فرحوا بهذه المنَّة، وفتحوا لوفد الغرب - من هؤلاء الدُّعاة - الصُّدور؛ لبثِّ سمومه في القلوب والعقول.

الإسلام الحنيف أولى هذه النَّاحية أمرها، ووجَّه عناية المسلمين لها، وحثَّ على تربية الصِّغار، وجعل كلَّ فردٍ في الأمَّة راعيًا، وكلَّف كلَّ راعٍ العناية برعيَّتِه، فقال المبعوث بهذا الدِّين ﷺ مبلِّغًا ومعلِّمًا: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته**»[1]، وإذا أهمل المسؤولون هذا الأمر ضاع النَّشء، وضاع بضياعه مستقبل الأمة، إذن فليكن المسؤول - والدًا كان أو أخًا أو معلِّمًا - مثلًا صالحًا لمن هم تحت مسؤوليَّته، يأمرهم بالخير، ويفعله أمامهم، ولا يفعل ما يخالفه من المنكر، لا سيَّما إذا كانوا أطفالًا؛ لأنَّ الأطفال أكثر خضوعًا واستجابةً للنِّداء، بنين كانوا أو بنات، وللأطفال مرونة قابلة للتَّكييف، يتقبَّلون التَّوجيه، ويرتاحون له متى كان الموجِّه صالحًا يعرف كيف يستخدم عناصر التَّشويق استخدامًا طبيعيًّا لا

(١) سبق تخريجه.

تصنُّع فيه ولا افتعال، فإذا أمر المربِّي طفله بالصِّدق فلا يكذب، وإذا أمره بالعدل فلا يظلم، وإذا نهى عن شيء فلا يفعله؛ لأنَّ الطِّفل كالمرآة تنعكس عليها أفعال من هو أكبر منه، فيفعلها تقليدًا له من حيث لا يعلم، ولأنَّ الطِّفل يعتقد الكمال بمربِّيه، ويفخر على أقرانه بأنَّه يقلِّد أباه أو عمَّه أو خاله أو أخاه الأكبر، وكثيرًا ما تنغرس أفعال الأب في فكر ابنه النَّاشئ، حتَّى إذا كبر فعل ما كان يفعل أبوه من قبل دون رابط أو ضابط، لا يعبأ بالنَّتائج، ولا يبالي بالعواقب، وكثيرًا ما انحرف شباب وفسد فتيان وفتيات من هذا التَّقليد؛ لأنَّهم لم يجدوا من يقوِّم اعوجاجهم، أو يهديهم إلى صواب، فالأب منهمكٌ في ملذَّاته، منكبٌّ على شهواته، ساعٍ إلى إشباع رغباته، لا يهمُّه من أمر البنين والبنات إلَّا أن يقدِّم لهم ولهنَّ الطَّعام والكساء ظنًّا منه أنَّ ذلك كلُّ شيءٍ في الحياة، فترك لهم الحبل على الغارب، فنشؤوا على هذا الانحراف والزَّيغ، وكانت العاقبة سيِّئة في الأسرة وشرًّا في المجتمع.

ومن أين للنَّاشئ أن يعرف دينه إذا كان المربِّي لا دين له؟ ومن أين له أن يحتفظ بالآداب إذا كان المسؤول لا أدب له؟ ومن أين له أن يتمسَّك بتقاليده إذا كان وليُّه قد ضرب بالتَّقاليد العربيَّة عرض الحائط، وعبد التَّقاليد الغربيَّة؟ ومن أين للنَّاشئ الغضِّ أن يجد في دينه ما يستهويه ويثير انتباهه وتحمُّسه ويحظى بإعجابه ورضاه إذا كان المسؤول عنه جاهلًا كلَّ شيء في ذلك؟!

إنَّ الحال لا تختلف عنه في مكان آخر، فهو في البيت كما هو في المدرسة، وهو عند الأب كما هو عند المدرِّس، فلا آمر بمعروف يأمر أو يأتمر، ولا ناهٍ عن منكر ينهى أو ينتهي، ولا شعائر للدِّين تقام هنا أو

هناك، ولا يعنيهم أمرها عند هؤلاء وأولئك، وهكذا ضاع الشَّباب بين البيت والمدرسة، وظلَّ أثر الدِّين يتضاءل عندهم شيئًا فشيئًا، ودعاة الإلحاد ساهرون يترقَّبونَ الفرص لبثِّ سمومهم، وقد حانت الفرص، وكان لهم ما أرادوا، وهكذا ذوى غصن الدِّين حتَّى تلاشى في القلوب، وحلَّ محلَّه الإلحاد والزَّيغ والباطل.

لقد تعوَّدَ شبابنا - وقد بلي بما بلي من إهمال - أن يرى النُّور ظلامًا، والرُّشد غيًّا، حتَّى أبدل أسماء الفضائل بأقبح الأسماء، فسمَّى الدِّين رجعيَّة، والتَّمسُّك به جمودًا. ولا لوم عليه، إنَّما اللَّوم على المسؤولين الَّذين أعرضوا عن الدِّين، وأساؤوا إليه.

إنَّ ديننا - ولله الحمد - وضَّاءٌ مشرقٌ، فهو في كلِّ وقتٍ ومكانٍ يُشرق بالهدى والإصلاح والخير، ولكنَّ جهلنا بحقيقة عقائده ومبادئه جعلَنا نُدخِل فيه ما ليس منه؛ عنادًا منَّا أو تقليدًا لأئمَّة جهَّال أدخلوا في الدِّين ما ليس منه، فضلُّوا وأضلُّوا.

والإسلام - والحمد لله - عقل كلُّه، جاء به محمَّد ﷺ من عند الله لقوم يعقلون، وهو اليسر لا عسر فيه، وهو السَّهل لا صعب فيه، وهو الهدى لا ضلال فيه، وهو كما وصفه سيِّد المرسلين «**محجة بيضاء ليلها كنهارها**»[(١)].

فيا أخي في الإسلام! تعال إلى الإسلام، فإنَّ لك فيه النَّجاة والفلاح وسعادةَ الدُّنيا والآخرة، وانظر معي في أمورنا جميعها وأحوالنا كلِّها، حتَّى نحدِّد موقفنا على ضوء ما نجده في ديننا؛ لنرى هل نحن حقًّا

(١) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٢).

مسلمون؟ بل هل نحن حقًّا جديرون بهذا النِّداء الكريم؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحْريم: ٦].

سلاح المسلم إيمانه

إنَّ من واجب المسلم أن يتَّعِظ بكلِّ ما يحدث من حوله، ويجعل من كلِّ حادث درسًا يفيده في كلِّ ما له وعليه، والإسلام أمر المسلم بأن يكون في يقظةٍ دائمةٍ، وحذرٍ مستمرٍّ، فلا يؤتى من حيث أتى، و«**لا يُلدغ من جحرٍ واحدٍ مرَّتين**»(١)؛ لأنَّ «**المؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ**»(٢)، ونحن ما زلنا نعيش في آلام النَّكسة الَّتي أصابت المسلمين في أعزِّ مقدَّساتهم، وفي ممتلكاتهم، وشعارنا عند المصائب: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦]، وعلينا أمام المصيبة ألَّا نيأس؛ لأنَّ اليأس كفرٌ، و﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يُوسُف: ٨٧]، وعلينا ألَّا نقنط من رحمة الله، ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحِجر: ٥٦]، والقنوط موتٌ لروح الأمَّة، غلٌّ لعزيمتها، قيدٌ لتقدُّمها وانطلاقها.

إنَّ الخسارة كبيرة وهي في معنويَّاتها أكبر؛ لأنَّ ثلاثة ملايين مشرَّد من شذَّاذ الآفاق انتصروا على مئة مليون مسلم، وقد احتلُّوا ديارهم وأهانوا مقدَّساتهم، ولعلَّنا نُعلِّل النَّفس فنقول: ليس اليهود وحدهم قتلونا، إنَّما

(١) سبق تخريجه.

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٦٨٩).

قاتلنا من ورائهم دول الغرب العظمى، ولهؤلاء الدُّول عددهم وعدَّتهم واعتدادهم، ونعلِّل النَّفس أيضًا فنقول: إنَّهم باغتونا بعد أن أمنونا و«**الحرب خدعة**»[1]، ولم نكن منها على استعدادٍ، نعم، إنَّنا أدركنا ذلك كلَّه، وأدركنا ظروف المعركة وملابساتها، لكن لا ننسى أنَّ النَّصر من عند الله، وأنَّ من كان مع الله كان الله معه، وأنَّ الخسارة الكبيرة تهون وتصغر إذا أُخِذَت منها العبرة.

نقول: نحن مسلمون، ولكنَّنا ابتعدنا من الإسلام كثيرًا، فواقعنا وحقيقتنا ليست مع الإسلام في شيءٍ؛ لأنَّنا لا ندري ما الإسلام، فالأفكار الإلحاديَّة حلَّت في عقول شبابنا وشوابِّنا، وسموم الشُّيوعيَّة والوجوديَّة والماسونيَّة وغيرها من المبادئ الهدَّامة اعتقدها بنونا وبناتنا، ودليل ذلك ما نراه يوميًّا في الصُّحف والمؤلَّفات الَّتي تتداولها أيدي هؤلاء الشَّباب، وتجد فيهم رواجًا وتشجيعًا، والمعاملات في الأسواق بين التُّجَّار، وفي المصارف مع الدَّائنين والمديونين، وفي البيوت بين الأزواج، وفي الأُسَرِ بين ذوي الأرحام كلُّها بعيدة من الإسلام ونظامه، بلا خجلٍ ولا خوفٍ من ربِّ السَّماء، وبلا تفكيرٍ في الرُّجوع بها إلى الإسلام.

استبدلنا بأحكام التَّقاضي في المحاكم شرائعَ لم يشرعها دين الله، ولا أرسل الله بها أحدًا من المرسلين، وإنَّما هي أفكار وضيعة كتبها مخلوق، وما زلنا كلَّ يوم نقع في أغلاطها ونقاسي الشَّرَّ من ويلاتها، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، الظَّالمون، الفاسقون.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٠٣٠)، ومسلم، رقم: (١٧٤٠).

والذُّنوب والمعاصي جاهر أهلها بها دون خجلٍ ولا حياءٍ، فلا تناهٍ عن المنكر، ولا تآمر بالمعروف، والنَّاس يعلمون أنَّ علاقتهم معَ خالقهم هي طاعته، وأنَّ الله مع الَّذين اتَّقوا وأحسنوا، والرَّسول ﷺ قال: «**لتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنهَوُنَّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أن يبعث عليكم عقابًا منه ثمَّ تدعونه فلا يُستجاب لكم**»(١).

أمَّا المسجد الأقصى والأرض المباركة الَّتي هي مهبط الوحي ومبعث الرُّسل ومجمع الأنبياء ومعبد الصَّالحين ومسرى محمَّد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فهي للمسلمين عامَّة، وليست لطائفةٍ دون طائفة، ولا لأمَّةٍ دون أخرى، ولا لجنسٍ مفضَّلٍ على غيره، مقدَّساتٌ لها مع المسلمين ذكريات مباركةٌ؛ ذكرى أوَّل قبلةٍ للمسلمين، وذكرى إسراء النَّبيِّ الأمين، وذكريات كثيرة كان لها شأنٌ في تاريخ خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، ولقد استردَّه عموم المسلمين من أيدي الصَّليبيين، ويجب أن نستردَّه اليوم من الصَّهاينة المجرمين، فقد آن الأوان لاجتماع كلمة الإسلام ليعملوا على استرداد المسجد الأقصى، مسرى نبيِّ الإسلام ومبدأ معراجه إلى السَّماوات العُلا، لقد آن الأوان لتخرج هذه القضيَّة من نطاقها الضَّيِّق إلى النِّطاق الواسع، إلى نطاق الإخوة الإسلاميَّة والعالم الإسلاميِّ كلِّه بطوله وعرضه؛ لِتُطَهَّر الأرض المقدَّسة من دنس اليهود ورجسهم، وتكون كلمة الإسلام العليا، ويعلنها المسلمون حربًا مقدَّسةً شعارها: الله أكبر، تباع فيها الأرواح غالية، والثَّمن الجنَّة، والمشتري هو الله وحده، ورضوان الله ربحٌ، ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصَّف: ١٣].

---

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢١٦٩)، وقال: حديثٌ حسنٌ.

لقد مضى عشرون عامًا والإذاعات تعلن، والصُّحف تنشر، والكتَّاب يكتبون، وكلُّهم يقول: إنَّنا سننتصر، ونسينا كلمة: إن شاء الله، ونسينا أن النَّصر لا يأتي إلَّا من الله، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، والنَّصر لا يكون إلَّا بإعداد واستعداد، وعقيدة للمؤمن بها معنويَّة الإيمان، والإيمان قوَّة لا تضاهيها قوَّة، والمؤمن دائمًا وأبدًا سلاحه الإيمان، فهو إن قَتَلَ أو قُتِلَ مجاهد في سبيل الله، تجارته مع الله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، ونحن مقصِّرون في إعدادنا لهذه القوَّة، قوة الإيمان الَّتي لا قوَّة فوقها، إلى جانب تقصيرنا بإعداد القوَّة الماديَّة.

لقد أكثرنا القول، وأقللنا الفعل، وكشفنا المستور من أمرنا، وهذا خلاف ما أمرنا به ديننا، إنَّ ديننا يأمرنا أن نفعل ما نقوله؛ حتَّى لا نكون من الَّذين قال الله فيهم: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣]، وأمرنا بأن نكون دائمًا مع الله؛ ليكون الله دائمًا معنا.

المواساة عند الشَّدائد

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾ [الحديد: ٢٢-٢٤].

إنَّ هذا الوجود مخلوق بدقَّة وتقدير، بحيث لا يقع فيه حادث إلَّا وهو مقدَّرٌ في الأزل، ومحسوبٌ حسابه في علم الله، لا مكان فيه للمصادفة، ولا محلَّ فيه للجزاف كما يعتقد الشُّيوعيُّونَ ويدَّعون، وكلُّ حادث سيظهر في وقته المقدور له لا يتقدَّم عنه ولا يتأخَّر، علمنا شيئًا منه أو لم نعلم، ونحن في ذلك كلِّه لا نملك الإدراك ولا نعلم من الغيب شيئًا، حتَّى إنَّ الله جلَّ شأنه أنزل على نبيِّه محمَّد ﷺ في كتابه العزيز هذه الآية نافيًا عن أيِّ إنسانٍ في الوجود علم الغيب، فقال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمل: ٦٥]، ولو أنَّه ﷺ كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، ولم يمسَّه السُّوء في غزوتَي أحد وحنين، ويقصُّ القرآن على لسان النَّبيِّ ﷺ قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وكلُّ مصيبةٍ تقع في الأرض هي في كتاب الله الأزليِّ، من قبل أن يبرأ الله الأرض ومن عليها في صورتها الَّتي ظهرت بها، وكلُّ مصيبةٍ تقع هي في الوقت نفسه شرٌّ على ناسٍ خيرٌ لآخرين، و﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحجّ: ٧٠].

ثمَّ يوصي الباري عباده بقوله لهم: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد: ٢٣]؛ لأنَّ الأمر خارج على مقدور الإنسان، فلا تجزع الجزع الَّذي يذهب بعقلك ولُبِّك، وتذوب به حسرة إذا أصابك شرٌّ، ولا تفرح الفرح الَّذي يفقدك اتِّزانك وإنسانيَّتك إذا أصابك خير، واستحضر في نفسك دائمًا أنَّ القدر محيطٌ بك، وأنَّه لن يصيبك إلَّا ما كتب الله لك أو عليك، وأنَّك ذرَّة في هذا الوجود ولا مخرجَ لك منه، والمؤمن لا يخرجه الألم على توجُّهه إلى الله، ولا يخرجه الفرح كذلك على توجُّهه إلى ربِّه، فالله وحده هو المحمود في

السَّرَّاء والضَّرَّاء، وليس أحدٌ في هذا الوجود كائنًا من كان إلَّا وهو يفرح ويحزن، والفرق بين المؤمن وغير المؤمن أنَّ المؤمن إذا فَرِحَ شكر الله وحمده، وإذا حزن صبر وحمد الله، وهذا الاعتدال هو اعتدال الإسلام، أمَّا غير المؤمن فالأسى يخرجه على الصَّبر، وتطير نفسه شعاعًا من الألم والحسرة، لا يعي ما يقول، والفرح يفقده الاتِّزان، وربَّما قال: إنَّما أوتيته على علمٍ عندي، كما قال قارون من قبل، ثمَّ يختال ويفخر ويبخل ويأمر بالبخل ويطغى، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

ونحن اليوم - أيُّها الأخ المسلم - في زمنٍ يجب علينا مواساة إخوة لنا أصابهم ما تعلمون، وقد تكوَّنت جمعيَّات تعاونيَّة تعمل لمواساة هؤلاء، فأنفِقوا في مواساتهم ما تجود به أيديكم من دنانير أو دراهم أو ألبسة أو طعام، «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»[(١)]، وما أنفقتم من نفقةٍ فالله يخلفها مضاعفة لكم، لا سيَّما إذا كانت هذه النَّفقة ممَّا تُحِبُّون، فإنَّه ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبإ: ٣٩]، فمن ينفق فإنَّما ينفق لنفسه، ومن يستجب فإنَّما يستجيب لمصلحته، والله هو الغنيُّ، وليس له حاجة إلى عباده الفقراء، والله هو الحميد، ولا يناله من حمد الحامدين شيء.

وإنَّنا اليوم أيضًا نقاسي ممَّا أصابنا ألمًا في القلوب يفجعها، وفي النُّفوس يؤلمها، وذلك في كتاب من قبل أن يبرأها الله، ولعلَّ ذلك بلاء أو امتحان، كما قال لنا ﷻ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٣٠)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: ١٨٦]، ابتُلينا في كلِّ شيءٍ وفي أعزِّ شيءٍ، تلك هي كرامتنا، فلنصبر ولا نجزع، ولنقدِّم ولا نتخاذل، ولنعتبر من ذلك، وليكن درسًا نتفادى منه تخاذلًا في المستقبل، ولنعدَّ العدَّة الَّتي أمرنا الله بها، فالعاقل من تجنَّب غلطه وغلط غيره، وأخذ من ماضيه لمستقبله درسًا يفيده في نفعٍ أو يقيه من ضرٍّ.

خواطر مسلم

انطباعات رحلة

للمسلمين صفاتٌ ليست لغيرهم من الأمم؛ لأنَّ دينهم الحنيف منبع كلِّ خيرٍ وهدى وإصلاح، والدِّينُ الإسلاميُّ أراد للمسلمين أن يكونوا خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس بالألفة ومكارم الأخلاق، فالحمد لله ربِّ العالمين الَّذي جعلنا من المسلمين، ونسأله تعالى أن يهدينا لاتِّباع أوامر ديننا، ويعيننا على التَّخلُّق بأخلاق السَّلف الصَّالح من المسلمين، ويوفِّقنا للاتِّصاف بصفاتهم.

للمسلمين أخلاقٌ من خير أخلاق النَّاس، وتقليدات من أحسن تقليدات البشر، ولهم طبائعُ وصفاتٌ ليست لغيرهم من الأمم، ففيهم: برُّ الوالدين، وعادةُ الضِّيافة، وبذلُ العون والرِّفد[1] للقريب والغريب، وصلة الرَّحم، والإصلاح بين النَّاس، والحفاظ على العرض، وإكرام الجار، والوفاء للصَّديق، وحسن الحديث، إلى غير ذلك من صفاتٍ لو أردت حصرها لاحتجت إلى وقتٍ قد يضيق به موقفي هذا.

حمدت الله تعالى على ذلك كلِّه؛ إذ لم أجد هذه الأخلاق إلَّا في وطني العربيِّ المسلم وفي بني قومي وأبناء ديني، وأحمد الله تعالى على سلامة العودة ولقاء الأهل والأحبَّة بعد أن عدت من رحلتي إلى تلك البلاد النَّائية الَّتي اختلطت فيها بغرباء في الدِّين والجنس والوطن، وهناك

---

(١) الرِّفد: العطاء والصِّلة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ١٠٧).

في تلك البلاد رأيت مظاهر ديني والحمد لله ربِّ العالمين، فقد أثلج صدري ودمعت له فرحًا عيني؛ إذ سمعت المؤذِّن يدعو بكلمة: حيَّ على الصَّلاة، ويشهد بوحدانيَّة الله وبرسالة محمَّد ﷺ في قلب واشنطن عاصمة الولايات المتَّحدة، لقد سمعت صوته يدوي مجلجلًا من مِئذنة تعلو في قلب هذا البلد، ينادي: أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله، وصلَّيتُ الجمعة في مسجد فخم غصَّ بالمصلِّين في جناحين؛ للنِّساء جناحٌ، وللرِّجال جناحٌ، وخطيب الجمعة يقول من منبره بلسانٍ عربيٍّ مبين: الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله، ويصلِّي على النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ثمَّ يلقي موعظة الخطبة باللُّغة الإنجليزيَّة لغة البلاد؛ لأنَّ أكثر المصلِّين لا يعرف العربيَّة.

وقد استبشرتُ أيضًا بخبر سمعته من مندوبنا الدَّائم لدى هيئة الأمم، وهو أنَّ الدُّول الإسلاميَّة قد أسهمت في بناء مسجد فخم في وسط نيويورك، نعم نيويورك، البلد الَّذي لا أبالغ إذا قلت إنَّ نفوذ الصُّهيونيَّة الاقتصاديَّ وغيره سائدٌ فيها، في هذا البلد سيقام للمسلمين مسجدٌ يؤذَّن فيه، وتقام فيه الصَّلوات، ويجمع شمل المسلمين بوصفه مركزًا إسلاميًّا لهم، وستُسهِمُ دولتنا الرَّشيدة بالقسم الأوفر والنَّصيب الأكبر في تشييده، وسيكون - كما قيل - مسجدًا أعظم من الَّذي شاهدته في واشنطن، فقريبًا سيجهر المؤذِّن بكلمة لا إله إلَّا الله على منارة في قلب نيويورك بشعائر التَّوحيد، بالكلمة المحبَّبة إلى قلب كلِّ مؤمنٍ موحِّد لله، تلك الكلمة الَّتي تضمُّ ألفاظها حقيقةً عظمى غفل عنها المسلمون، فالله وحده خَلَقَ الموتَ والحياةَ، بيده وحده العطاءُ والمنعُ، والضُّرُّ والنَّفعُ، والمرض والشِّفاء، والشَّقاء والهناء، خلق ذلك جميعه، وسبَّب أسبابه، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، والحمد لله على نعمه، والحمد لله الَّذي جعلنا

من أهل دينه، والحمد لله الَّذي وفَّقنا إلى مكارم الأخلاق، أمَّا بعدُ:

فإنَّه «**لا دين لمن لا خُلُق له**»(١)، فالنَّبيُّ ﷺ بعثه الله «**ليتمِّم مكارم الأخلاق**»(٢)، وقد كان صلوات الله عليه كما وصفته خديجة: «**يحمل الكلَّ، ويكسب المعدوم، ويعين على النَّوائب، ويصل الرَّحم، ويقري الضَّيف، ويمشي في حاجة أهله وصديقه**»(٣)، ولا أبالغ إذا قلت: إنَّ هذه الأخلاق عرفناها في وطننا وبين صحبنا وأصدقائنا؛ لأنَّهم مسلمون، ولهم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ، ولم نرَ هذه الأخلاق إلَّا في البلاد العربيَّة المسلمة.

وصلنا إلى الوطن وقد فتحت المدارس أبوابها لأفلاذ أكبادنا بنينا وبناتنا، وقد جُهِّزت بكلِّ ما يحتاجون إليه من حاجةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ، حتَّى التَّمريض، غير أنَّ لي كلمةً أحبُّ أن أقولها لعلَّها تجد لدى المسؤولين قبولًا، أقول: لكلِّ مادَّةٍ درس، فللتَّاريخ والجغرافيَّة والحساب والهندسة واللُّغة وغيرها دروسٌ تُدرَّس، وتُعاد في الأسبوع مرَّتين أو أكثر، لكنَّنا - أيُّها الإخوة - مسلمون، ورثنا الإسلام أبًا عن جدٍّ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، وبالإسلام كنَّا أمَّة بين الأمم، وبه رفعَنا الله، وفضَّلنا على كثيرٍ من خلقه تفضيلًا، وكنَّا خير أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، أفلا يحقُّ لهذا الدِّين الَّذي فضَّلنا الله به أن يكون مادَّةً تُدرَّس، فيتلى كتابه ترتيلًا، ويفهم معناه فهمًا دقيقًا، وتدرَّس نظمه وموادُّ أحكامه درسًا موضَّحًا، حتَّى يعرف الطَّالب ما هو دينه، وما مدى تغلغل هذا الدِّين في

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (١/ ١٦٤).

حياة الإنسان، وأنَّه لم يترك شأنًا من شؤون الحياة إلَّا وله فيها أمر أو نهي، وأنَّه نظَّم الحياة نظامًا صالحًا للإنسانيَّة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؟! إنَّ الدِّين هو الوازع الحقيقيُّ للإنسان المتديِّن، يحميه من أن يرتكب ما منه منع، وهو الدَّافع الصَّادق له لأن يفعل جميع ما أُمِرَ به، وهو الحارس الأمين، يُعلِّمُ النَّاس كيف يصونون إنسانيَّتهم من الانحطاط، ويرفعون معنويَّاتهم من الدُّنوِّ، ويحفظون حياتهم من التَّردِّي في مهاوي الرَّذائل والذُّنوب والهلاك، وصدق من قال:

قَسَمًا أُدِيْنُ بِهِ الْإِلَا ... هَ وَلَسْتُ أَحْنَثُ بِالْيَمِيْن
إِنَّ الْحَيَاةَ بِغَيْرِ دِيْـ ... ـنٍ لَيْسَ فِيْهَا مَا يَزِيْن[١]

صلة الرَّحم

روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أحبَّ أن يبسط له في رزقه وينسأ[٢] له في أثره فليصل رحمه**»[٣]، وروى الحاكم عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**من سرَّه أن يُمَدَّ له في عمره، ويوسَّع له في رزقه، ويُدْفَع عنه ميتة السُّوء فليتَّق الله وليصل رحمه**»[٤]، نفهم من هذين الحديثين أنَّ صلة الرَّحم لها

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما لدي من مصادر.
(٢) النَّسء: التَّأخير، ومنسأة في الأثر هي مفعلة منه؛ أي: مَظِنَّة له وموضع. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٤٦١).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٥٩٨٦)، ومسلم، رقم: (٢٥٥٧).
(٤) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٧٢٨٠).

آثارٌ طيِّبةٌ يرجوها كلُّ إنسانٍ، فهي بسطةٌ في الرِّزق، وامتدادٌ للأجل، ودفعٌ للبلاء.

والإسلام الَّذي جاء بالخير للمسلمين أحكم وثاق الأسرة بمن تربطهم بها قربى، وسمَّاها: رحمًا، وأوجب صلة هذه الرَّحم، وجعل التَّعاون فيما بينهم واجبًا حتمًا؛ حتَّى يعصم هذه الصِّلة من التَّفكُّك، ويبعدها من الانحلال والزَّوال، وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله خلق الخلق حتَّى إذا فرغ منهم قامت الرَّحم، فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك لكِ**»، ثمَّ قال الرَّسول ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمَّد: ٢٢-٢٣]»(١).

وصلة الرَّحم تنفي العداوات الَّتي كثيرًا ما تشغل في عصرنا هذا قاطعي الأرحام، فيقضون بسبب القطيعة أوقاتهم في المحاكم، ويستنفدون كثيرًا من أرزاقهم في الرَّشاوي وأجور المحامين؛ كيدًا لقرابتهم، وتأكيدًا لعدائهم.

والمرء إذا وصل رحمه استجلب محبَّتهم ومودَّتهم، وذكروه بالخير في كلِّ مكانٍ وعند كلِّ إنسانٍ، وفي الحديث إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ الأجل يمتدُّ بصلة الرَّحم، إلَّا أنَّنا نقرأ في القرآن آيات كريمة تخبرنا أنَّ الأجل محدودٌ لا يتأخَّر، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقد يكون معنى الحديث أنَّ الله يهب واصل الرَّحم بركةً في العمر، فتكون له حياة

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٧٥٠٢)، ومسلم، رقم: (٢٥٥٤).

حافلة بالأعمال الطَّيِّبة، مقرونة بمضاء العزيمة، ورجاحة العقل، وقوَّة الجسم، فهي حياةٌ طويلةٌ بالعمل الصَّالح، وإن كانت قصيرةً في الشُّهور والأعوام، والحياة المباركة لا تكون بمدَّتها، وإنَّما بجلائل الأعمال وكثرة الآثار، فكم من شخصٍ عاش عمرًا مديدًا وكأنَّه لم يكن، وآخر عاش عمرًا قليلًا ولم يزل حيًّا بذكره، باقيًا بأعماله الَّتي خلَّفها، والمرء إذا وصل أقرباءه أَجَلُّوه واحترموه وأحبُّوه، وحدَّثوا النَّاس بحسن صنيعه، فتمتلئ نفسه سرورًا، ويشعر بمكانةٍ عاليةٍ في المجتمع، والسُّرور ينشط، والشُّعور بالمكانة يُسعِد.

وقد يكون في أفراد الأرحام من لا يشكر معروفًا، فيسيء إلى من أحسن إليه، وينكر صلة من وصله، والإسلام يأمرنا بالإحسان إلى المسيء، قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عليهم ويجهلون عليَّ، فقال ﷺ: «**إن كنت كما قلت فكأنَّما تُسِفُّهُمُ الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**»(١)، والملُّ: الرَّماد الحارُّ.

وفي الأحاديث الَّتي ذكرناها في هذه الكلمة ترغيبٌ في الحياة الطَّيِّبة، فالإنسان ما عاش يُحِبُّ بسطة العيش، وصلة الرَّحم مجلبة للعيش الهنيِّ، والإنسان يُحِبُّ الذِّكر الحسن، وصلة الرَّحم وسيلةٌ إلى هذا الذِّكرِ، والإنسان يرغب في العمر الطَّويل، وصلة الرَّحم منسأةٌ في العمر، وقد جاء أيضًا في الحديث الشَّريف قوله ﷺ: «**تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون**

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٥٨).

به أرحامكم، فإنَّ صلة الرَّحم محبَّةٌ في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»(١)، ويعجبني قول الشَّاعر المقنع الكنديِّ:

وَإِنَّ الَّـذِيْ بَـيْـنِـيْ وَبَـيْـنَ بَـنِـيْ أَبِـيْ ... وَبَـيْـنَ بَـنِـيْ عَـمِّـيْ لَـمُـخْـتَـلِـفٌ جِـدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِيْ وَفَرْتُ لُحُوْمَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِيْ بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيْمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا!(٢)

هذا، وأسأل الله الكريم جلَّ شأنه أن يجعلنا من عباده الصَّالحين الواصلين الرَّاشدين المرشدين.

كفالة اليتيم

روى الطَّبرانيُّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أحبَّ البيوت إلى الله بيتٌ فيه يتيمٌ مُكرَّمٌ**»(٣)، وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**خير بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُحسن إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه**»(٤).

واليتيم من النَّاس من مات أبوه قبل بلوغه؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ أخبرنا أنَّه: «**لا يُتمَ بعد احتلامٍ**»(٥)، والاحتلام أوَّل مرحلة البلوغ والنُّضوج، هذا إذا

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩٧٩)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.
(٢) انظر: الأغاني، للأصفهاني (١٧/ ١١١)
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٣٤٣٤).
(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٦٧٩).
(٥) رواه أبو داود، رقم: (٢٨٧٣).

كان البالغ قد كَمُلَ عقله، وتمَّ رشده، واستطاع أن يقوم بمصالح ماله، وإلَّا فإنَّه ليس برشيدٍ، قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦]، واليتيم إنسانٌ فقد أباه الَّذي كان يرعاه بنفسه وماله، ويُحِبُّه من أعماق قلبه، ويؤثر مصلحته على مصلحته، فيخشى عليه محن الحياة وصروف الدَّهر، ويرجو له وليًّا صالحًا مرشدًا يرعاه كرعايته، ويسوسه كسياسته، ويجد عنده من العناية بمصالحه ما يخرجه رجلًا صالحًا في الحياة، يملأ ذكره السَّمع، وينشرح لرؤيته الصَّدر.

ورعاية اليتيم حسنة دعانا إليها ديننا الكريم، وقد جاء في كتاب الله العزيز قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٠]، وسواء أكان اليتيم غنيًّا أم فقيرًا فللَّذي يكفله ويحسن إليه ثوابٌ عند الله عظيم، وينال صحبة الرَّسول ﷺ في جنَّات النَّعيم، فقد روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن سهم بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنَّة هكذا**»(١)، وأشارَ بالسَّبَّابة والوسطى، وفرَّجَ بينهما شيئًا.

وكافل اليتيم هو الَّذي يتعهَّده، فيهذِّب نفسه، ويعوِّضه عن والده كافلًا رفيقًا، وراعيًا رحيمًا، ويصلح ماله إن كان له مال، وقد ذمَّ الله في كتابه العزيز ذلك الَّذي يُكذِّب بالدِّين، فيسيء إلى اليتيم فلم يرحمه، ولم يحسن إليه، بل يدعُّه دعًّا، وقد روى الإمام أحمد في مسنده أنَّ رجلًا شكا إلى النَّبيِّ ﷺ قسوة قلبه فقال له: «**امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين**»(٢)، ولم يقصد النَّبيُّ ﷺ بمسح رأس اليتيم أن يضع يده على رأسه، وإنَّما قصد بذلك رعايته وبرَّه؛ لأنَّ اليتيم مظهر من مظاهر العطف

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٠٠٥).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٩٠١٨).

والرَّحمة الَّتي تذكِّر الإنسان بأنَّ أولاده بعده عرضة لأن يكونوا كذلك بعد موته، فليختر لأولاد إخوانه المسلمين ما يختار لأولاده، والبرُّ لا يبلى، والإحسان لا يضيع، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النِّساء: ٩]، وفي الحديث الَّذي رواه التِّرمذيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن الرَّسول ﷺ قال: «**من قبض يتيمًا من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنَّة البتَّة، إلَّا أن يعمل ذنبًا لا يغفر**»(١).

ومن كان له أولاد وفي بيته يتيم أو يتامى فليُعَلِّم أولاده الرَّحمة، وليحذِّرهم من كسر خاطر اليتيم، وليجتهد في تربيته، وليعمل في إصلاحه كما يعمل لأولاده، يشهد لهذا قول النَّبيِّ ﷺ: «**خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرُّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه**»(٢)، وهو الحديث الَّذي تقدَّم ذكره، وسواء كان الكافل قريبًا كأخ أو عمٍّ، أم صديقًا ضمَّ إليه ابن صديقه اليتيم، أم أجنبيًّا حتَّى ولو كان أمًّا، فلهذا الكافل أو الكافلة المكانة الَّتي حدَّثنا عنها الرَّسول ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنَّة كهاتين**»(٣)، وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعيِّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أنا وامرأة سفعاء الخدَّين كهاتين يوم القيامة**» - وأشار بإصبعيه الوسطى والسَّبَّابة - «**امرأةٌ آمت**(٤) **من زوجها**

(١) رواه الترمذي، رقم: (١٩١٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) آمت؛ أي: صارت أيِّمًا لا زوج لها. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (١/ ٨٥).

ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتَّى بانوا»[١]، ويشرح رسول الله ﷺ لنا في حديثٍ آخرَ من هي سفعاء الخدَّين، إنَّها امرأةٌ تبادره الدُّخول من باب الجنَّة: «**أنا أوَّل من يُفتَحُ له باب الجنَّة، إلَّا أنَّه تأتي امرأةٌ تُبَادرُنِي فأقول لها: ما لكِ؟ وما أنتِ؟ فتقول: أنا امرأةٌ قعدت على أيتامٍ لي**»[٢].

وهناك أطفالٌ في حكم الأيتام؛ آباؤهم وأمُّهاتهم أحياء، وصفهم لنا الشَّاعر أحمد شوقي بقوله:

لَيْسَ الْيَتِيْمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ مِنْ ... هَـمِّ الْـحَـيَـاةِ وَخَـلَّـفَـاهُ ذَلِـيْـلَا

إِنَّ الْـيَـتِـيْـمَ هُـوَ الَّـذِيْ تَـلْـقَـى لَـهُ ... أُمًّـا تَـخَـلَّـتْ أَوْ أَبًـا مَـشْـغُـوْلَا[٣]

إنَّهم طفولة مشرَّدة، شرَّدهم التَّخلُّف وسوء الأخلاق وعدم الشُّعور بالمسؤوليَّة، داء هذه الطُّفولة أبٌ ترك زوجته واستبدل بها زوجةً أخرى، فترى الأمَّ بائسةً تعاني لقمتها ولقمة طفلها، فلا تدري ماذا تفعل مع ذلك الأب الَّذي نزع الله الرَّحمة من قلبه، وما أكثر الأولاد الَّذين يتشرَّدون من قسوة قلوب الآباء، أو من جفوةٍ تكون بين الأزواج والزَّوجات! فبؤسًا لأمٍّ لم تصبر أمام جفوة الحياة لتؤدِّي واجبها نحو أولادها، وتعسًا لآباء رُزقوا بنينَ وبناتٍ، وجعلوا حياة أولادهم كالجحيم، وأولى بهؤلاء أن يُحرموا من نعمة الأبوَّة والأمومة.

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٥١٤٩).

(٢) أورده العسقلاني في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، رقم: (٢٥٦٤).

(٣) انظر: شعر شوقي في ميزان النقد، لمحمد المجذوب (١/ ٨٢).

أكبر الكبائر شهادة الزُّور

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحجّ: ٣٠-٣١]، وقد روى البخاريُّ ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر، فقال: «**الشِّرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النَّفس، فقال: ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزُّور أو قول شهادة الزُّور**»(١).

والزُّور في اللُّغة: الكذب والباطل والافتراء، وقد أكبر الرَّسول ﷺ خطر قول الزُّور وأعظم جرمه، فقال ﷺ: «**ألا أنبِّئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزُّور، ألا وشهادة الزُّور، ألا وقول الزُّور**»، وكان متَّكئًا، فجلس، فما زال يكرِّرها حتَّى قلنا: ليته سكت، رواه البخاريُّ ومسلم(٢). نعم، جلس عليه السلام بعد اتِّكاء؛ اهتمامًا بخطر الإثم وعظمه، وكرَّر كلمته حتَّى شقَّ على نفسه، وبدا الغضب في وجهه، وتمنَّى أصحابه لو أنَّه سكت.

وكتاب الله قرن قول الزُّور بالشِّرك في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحجّ: ٣٠]، وقد وصف الرَّحمن جلَّ شأنه عباده بأنَّهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفُرقان: ٧٢].

وشهادة الزُّور شهادةٌ باطلة، والحكم بها حكمٌ جائرٌ؛ لأنَّها ترمي

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

البريء بما هو منه بريء، وتأخذ الحقَّ من صاحب الحقِّ فتعطيه إلى غير صاحبه بالباطل، وربَّما خربت بيوتًا عامرة، وهتكت أعراضًا طاهرة، وسفكت دماءً بريئةً، فكم من نفسٍ مظلومةٍ ذهبت إلى ربِّها تشكو ظلم هذا المزوِّر الَّذي سبَّب هلاكها! وكم من عينٍ دامعةٍ وفؤادٍ حزينٍ وزوجةٍ أرملةٍ ووليدٍ يتيمٍ وأمٍّ ثكلى سببُ مصائبهم شاهد زور! وقد روى أبو داود عن خريم بن فاتك رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**عُدِلَت شهادةُ الزُّور بالإشراك بالله**»، قالها ثلاث مرات، ثمَّ قرأ: ﴿...فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ [الحج: ٣٠-٣١]»[١].

شاهد الزُّور دلَّ بوقاحته على أنَّ الخجل قد نُزِعَ منه، والحياء قد اجتثَّ[٢] من قلبه، ودلَّ بجرأته في شهادته على عدم حيائه من الله تعالى، فهو بذلك مصيبةٌ في المجتمع الَّذي يعيش فيه؛ لأنَّه أساء بشهادته الباطلة إساءاتٍ كثيرةً: أساء أوَّلًا إلى نفسه؛ فقد باع إخوته بدنيا غيره، ومَنْ أكثرُ خسارًا ممَّن يبيع جنَّةً عرضها السَّماوات والأرض بحظٍّ من الدُّنيا قليلٍ لا يُغني من فقرٍ، ولا يُشبعُ من جوعٍ؟! وأساء إلى من شَهِدَ له؛ إذ أعانه على الظُّلم، وأوقعه في الإثم، وأساء إلى من شهد عليه؛ فقد أضاع حياتَه، وخذله وقت حاجته إلى ناصرٍ يعينه، وأساء إلى القاضي؛ فقد أضلَّه عن طريق الهدى، وطمس عليه معالم الحقِّ، وأساء إلى الأمَّة؛ بزلزلة الحقوق فيها، ونشر الفوضى بين أفرادها، وعدم اطمئنان النَّاس إلى العدالة، وأساء إلى الإسلام؛ فقد خالف أوامره، ورفض هديه، فخَسِرَ

---

(١) رواه أبو داود، رقم: (٣٥٩٩)، والترمذي، رقم: (٢٢٩٩)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٢) اجتَثَّ: اقتَلَعَ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ١٢٩).

الدُّنيا والآخرة، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمَر: ١٥]، وأخيرًا أساء إلى سمعته؛ فهو حقيرٌ، لم يزل ينحطُّ درجةً بعد درجةٍ، لا يجد من يثق به حتَّى ذلك الَّذي شَهِدَ له؛ لأنَّه شاهد زور.

والشَّهادة أمانة، والمحافظة على الأمانة أدبٌ من آداب الإسلام، وحفظٌ لمكانة الإيمان بالقلب، أوجبه الله على كلِّ مسلمٍ، فقد ثبت في الحديث الشَّريف أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»، رواه البخاريُّ ومسلم(١).

وشاهد الزُّور كذب بشهادته، وخان أمانته، والإسلام الكريم عندما حرَّم قول الزُّور قرنه بأعظم أنواع المعاصي، فقد قرنه بالشِّرك وعبادة الأوثان، فقال جلَّ شأنه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحَجّ: ٣٠]؛ ليعلِّمنا جلَّ شأنه مبلغ كرهه لهذه المعصية، وكره فاعلها، فكما أنَّ عبادة الأوثان فيها كذبٌ على الله، وخذلانُ حقٍّ، وانتصارُ باطلٍ، وفسادُ ضميرٍ، فكذلك قولُ الزُّور.

والإسلام يدعو أمَّته إلى مكارم الأخلاق، ويعلن للمسلم أنَّه مسؤولٌ عن سمعه وبصره؛ ليُطَهِّر لسانه فلا يقول إلَّا الحقَّ، وليطهِّر وجدانه وضميره فلا يشهد إلَّا باليقين، وليطهِّر قلبه فلا يعتقد إلَّا بالخير، وليطهِّر كلَّ عضوٍ من أعضائه طهارةً ظاهرةً وباطنةً، حتَّى يجنِّب نفسه وحواسَّه وأعضاءه جميعها من الزُّور، وبالله التَّوفيق، وهو نِعمَ المولى ونِعمَ النَّصير، وصلَّى الله وسلَّم على النَّبيِّ الكريم عبده ورسوله إلى النَّاس أجمعين.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٣)، ومسلم، رقم: (٥٩).

النِّفاق والمنافقون

روى البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النِّفاق حتَّى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(١)].

ولنبدأ أولًا بتعريف النِّفاق: وهو دخول المرء من بابٍ وخروجه من بابٍ آخر، ومنه قول العرب: نافق اليربوع، يعنون: دخل من باب وهرب من آخر.

والإسلام وَصَفَ من أسلمت ألسنتهم وكفرت قلوبهم بالنِّفاق، فإذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤]، ولقد لعنهم الله وذمَّهم وتوعَّدهم بأليم العذاب في الدَّرك الأسفل من النَّار، ووصفهم بصفاتٍ ذميمةٍ يتلوها المسلمون في كتابهم جيلًا بعد جيل، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [النُّور: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ﴾ [المنافقون: ٤]، فمن

---

(١) سبق تخريجه.

صفاتهم: خلف الوعود، ونقض العهود، وخيانة الأمانة، ودأبهم: الغشُّ، والمكر، والخداع، وخُلُقُهم: الفساد في الأرض، والكذب في الحديث، والغيبة، والنَّميمة، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّساء: ١٤٢]، ويخادعون قومهم وأعداء قومهم، وهم طلَّاب مصلحةٍ ولو فيما يضرُّ أمَّتهم، أخلصوا للأعداء؛ طمعًا فيما يصيبونه في حطامٍ زائلٍ.

وقد حذَّر القرآن رسول الله ﷺ وأصحابه ﵃ من خبث المنافقين، وكشف عن نيَّاتِهم، وذكر من كيدهم ما ذكر. وفي المنافقين عربٌ من أهل المدينة، وفيهم من اليهود، وفيهم من عايش عهد رسول الله ﷺ، وكانوا يكيدون للإسلام وأهله في خفاءٍ، ويعملون للإضرار به وبأهله، لكنَّ الإسلام - والحمد لله - قضى على مصالحهم، وأبطل ما دبَّروا من مؤامراتٍ، فنشر دينه، ودخل النَّاس فيه أفواجًا، لكنَّ المنافق باقٍ يعمل ويكيد، وهو عون لأعداء الإسلام دائمًا وأبدًا.

والرَّسول ﷺ عَلِمَ أنَّه لا تخلو أمَّةٌ من منافقٍ يعيش فيها ما دامت هذه الدُّنيا، فحذَّر أمَّته من المنافق، ووصفه بأنَّه إنسانٌ اجتمعت فيه أربع صفاتٍ: كذبٌ وخيانةٌ وغدرٌ وفجورٌ، ومن كانت فيه خصلةٌ واحدةٌ من هذه الصِّفات الأربع كانت فيه خصلةٌ من النِّفاق، وهذا الحديث تفسيرٌ لآيتين كريمتين في وصف المنافقين؛ أوَّلهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾ [المنَافِقون: ١-٢]، والآية الثَّانية قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ

وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤-٢٠٦]، وهذا هو النِّفاقُ الدِّينيُّ.

وهناك نفاقٌ اجتماعيٌّ، أخبرنا عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**تجدون شرَّ النَّاس ذا الوجهين الَّذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ**»، رواه البخاريُّ ومسلم[(١)]، فتجده حلو الحديث معك، يفديك بروحه، حريصًا على مصلحتك، ساعيًا في منفعتك، عدوًّا لعدوِّك، فتغترُّ بقوله، وتنخدع بوشيه، فتبوح له بسرِّك، وإذا فارقك ذهب إلى عدوِّك، وأفشى سرَّك، وطعن في عرضك، ونال من شرفك، وهكذا من نمَّ لك نمَّ عليك، ومن كانت هذه صفته فهو عند الله من الأشرار، وحريٌّ به أن يكون من أهل النَّار، وقد ثبت في قول الرَّسول ﷺ أنَّ: «**من كان له وجهان في الدُّنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار**»، رواه أبو داود عن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه[(٢)].

وقرأت لبعض الحكماء القدماء هذه الكلمة: إنَّ في النَّاس من لهم ألسنةٌ أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصَّبر، لبسوا للنَّاس جلود الضَّأن من اللِّين؛ ليحرزوا الدُّنيا بالدِّين.

قال الشَّاعر:

يُعْطِيْكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً وَيَرُوْغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوْغُ الثَّعْلَبُ[(٣)]

ومن النِّفاق أيضًا أن يلتمس المرء رضاء النَّاس بما يُغضِبُ ربَّه،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤٩٤)، ومسلم، رقم: (٢٥٢٦).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٤٨٧٣).
(٣) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، للمهدي (١/ ٦٦٧)، ويُنسَب البيتُ إلى عليِّ بن أبي طالبٍ.

فيوافق الظَّالم على ظلمه، ويحسِّن له سيِّئاتِه، ويكون دائمًا مع القويِّ على الضَّعيف، فحذَّرنا رسول الله ﷺ أيضًا من هؤلاء بحديثٍ أخرجه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة: «**أعاذك الله من إمارة السُّفهاء**»، قال كعب: وما إمارة السُّفهاء يا رسول الله؟، قال ﷺ: «**أمراء يكونون بعدي، لا يهتدون بهديي، ولا يستنُّون بسُنَّتي، فمن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مِنِّي ولست منهم ولا يَرِدُونَ عليَّ حوضي، ومن لم يصدِّقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مِنِّي وأنا منهم وسيردون عليَّ حوضي**»(١).

نصيحة

بمناسبة المعركة الانتخابيَّة ويوم الانتخاب القادم يوم السَّبت (٢٣/ ١/ ١٩٧١م) من شهرنا الحاليِّ أحبُّ أن أقول هذه الكلمة للشَّعب الكريم:

أيُّها المواطنون النَّاخبون! الوطن والشَّعب ومستقبلهما أمانةٌ بأيديكم في هذه المعركة الانتخابيَّة، ومستقبل أربع سنوات عمر طويل، تجري فيها أحداث خيرٍ وشرٍّ، والأمانة يجب أن تُسلَّم إلى أهلها الَّذين يعرفون حقَّها ويحفظونها ويرعونها، ونحن - أيُّها المواطنون الكرام، كما يقول مثلنا الشَّعبي - عيال قرية، كلٌّ يعرف أخيه.

وقد مرَّت بنا أربع سنوات مع مجلس انقضى عهده، عَرَفنا فيه الطَّيِّبَ وغيره، والأمين وضِدَّه، والَّذين يقولون ويفعلون والَّذين يقولون ما لا

(١) رواه أحمد، رقم: (١٤٤٤١).

يفعلون، والَّذين وعدوا ووفوا والَّذين وعدوا ولم يوفوا، وجرَّبنا فيه صلاح الصَّالحين، وإخلاص المخلصين، ودعوى المدَّعين الكاذبين، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وكأنِّي بكم - أيُّها المواطنون - رأيتم النَّاس أصنافًا: صنفًا لا يريد في انتخابه إلَّا شرف العضويَّة ولقب النِّيابة؛ ليدخل مع الدَّاخلين إلى المجلس، ويخرج منه مع الخارجين، يملأ كرسيًّا فارغًا، وهو مع الأكثريَّة، فإذا صوَّتوا رفع يده معهم لا يدري لماذا رفعها، ولهذا شرفه المؤقَّت لا يلبثُ أن يزول، ثمَّ يعود هذا العضو الكريم المحترم إلى اسمه الأوَّل بلا كرامة ولا احترام ولا عضويَّة، وقبلًا قيل: كلُّ منصوبٍ معزول، وصنفًا ثانيًا أنانيًّا نفعيًّا يريد أن يستغلَّ منصبه، فيصل بهذه العضويَّة إلى مصالحه الشَّخصيَّة، ولا يهمُّه أمر الشَّعب جاع أو شبع، ولا أمر المواطن عُزَّ أو ذُلَّ، ولا يلبثُ مثل هذا حتَّى ينكشف أمره، ويخيب فأله، ويسقط مع السَّاقطين في وسط مواطنيه، يقول الشَّاعر زهير بن أبي سلمى:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيْقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ(١)

والرَّسول ﷺ قال لنا: «**إنَّما الأعمال بالنِّيَّات وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى**»(٢).

وصنفًا ثالثًا هو الَّذي جاء إلى العضويَّةِ لا لتُشَرِّفَه، ولكن ليُشَرِّفَها، ويرفع من شأنها، همُّه عزَّة وطنه وكرامته ونفع شعبه وحرِّيَّته، لا يقول إلَّا

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي (٥/ ٤٣٢).
(٢) رواه البخاري، رقم: (١).

حقًّا، وإذا قال فعل، فبهذا الصِّنف - أيُّها الإخوة المواطنون - أدُّوا الأمانة، فبه تُحفَظ الأمانات، والله جلَّ شأنه أمرنا بكتابه العزيز أن نؤدِّي الأمانات إلى أهلها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النِّساء: ٥٨].

والكويت - أيُّها الكويتيُّونَ الكرام - وطنٌ غالٍ علينا، ذُلُّه ذُلُّنا، وعزُّه عزُّنا، فلا يدفعنا حبُّ شخصٍ إلى انتخابه ممثِّلًا لنا في مجلس الأمَّة وهو غير كفء للنِّيابة، وغير جدير بالتَّمثيل، ولا يسوقنا كره إنسان فارس في الميدان سديد في الرَّأي عليم بالمنافع إلى تركه لأنَّنا نكرهه.

أناشدكم الله - أيُّها الإخوة المواطنون - أن تطيعوا أمر الله، فإنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها، ولا يجرمنَّكم عداء رجل جدير بالعضويَّة، أو كره إنسان كفء لها على ألَّا تنتخبوه، فالله ﷻ قال لنا: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ [المائدة: ٢]، ويقول: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أيُّها المواطنون! كلُّنا يعرف كلَّنا، فيجب ألَّا يغرَّنا المغرور المادح نفسه، والحريص على مصلحته، والجاهل الَّذي لا يعرف ماذا يقول، ولكلٍّ منهم مضارٌّ لَمَّحْتُ إليها أوَّلَ كلامي هذا، والحُرُّ تكفيه الإشارة، ويجب ألَّا تغرَّنا الدِّعايات والإعلانات واللَّافتات، ولننظر إلى ماضي المُرَشِّحِ نفسه، فالماضي دليل على الحاضر والمستقبل، والله في ذلك من وراء القصد.

وأنتم أيُّها المحظوظون بالفوز يوم الانتخاب! راعوا الله فيما حملتم من أمانة، هي أعظم أمانة عرفها البشر؛ وطنكم، وشعبكم؛ دماؤهم

وأموالهم وأعراضهم، فاتَّقوا الله في ذلك كلِّه، فلا تظلموا ولا تجهلوا، وليعلم كلُّ محظوظٍ في هذه الدَّورة أنَّ ألسنة الخلق أقلام الحقِّ، فإنَّ الشَّعب - وما أدراك ما الشَّعب؟! - يحصي عليكم أعمالكم، ويعدُّ عليكم نوى التَّمر الَّذي تأكلون، فمن وجد منه الشَّعب خيرًا نال حمدًا وذكرًا طيِّبًا خالدًا، ومن وجد منه غير ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه؛ إذ ستلوكه الألسنُ بالذَّمِّ والهجاء، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: ٩٤].

أسبوع الصِّحَّة

خرجت من بيتي إلى مكتبي صباحًا كعادتي كلَّ يوم، وإذا بالشَّوارع قد مُلِئَت بالإعلانات مُعَنوَنة بهذه الكلمات: وزارة الصِّحَّة تحتفل بأسبوع الصِّحَّة. وإذا بسيَّارات الصِّحَّة وعليها مكبِّرات الصَّوت ترشد النَّاس إلى ما يحفظون به صحَّتهم من نظافة البدن، والوقاية؛ فهي خيرٌ من العلاج، إلى غير ذلك من الإرشادات، فقلت في نفسي: إنَّنا مسلمون، ولكنَّا غرباء عن ديننا، فكأنَّنا لم نقرأ في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وكأنَّنا لم نقرأ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١].

ديننا يأمرنا بالنَّظافة ويجعلها من الإيمان، فقد قال لنا ﷺ: «**تخلَّلوا، فإنَّه نظافةٌ، والنَّظافة تدعو إلى الإيمان**»[1]، ويجعل إماطة الأذى عن

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٣١١).

الطَّريق من شعب الإيمان، فأخبرنا ﷺ: «**إماطة الأذى عن الطَّريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١)، ويأمرنا بالسِّواك عند كلِّ صلاة، فقال: «**لولا أن أشقَّ على أمَّتي لأمرتهم بالسِّواك مع كلِّ صلاة**»(٢)، ويجعل الطَّهارة شرطًا للعبادة، ويؤكِّد الاغتسال، ويقول نبيُّ الإسلام ﷺ: «**أيُّها النَّاس أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتَّى تكونوا شامة في النَّاس**»(٣).

إنَّ ديننا دين الحياة، إنَّه يقول للَّذين آمنوا: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وهل تكون حياة بغير صحة؟! والدِّين الإسلاميُّ هو الدِّين الفذُّ بين الأديان الَّذي أمر بالتَّداوي عند نزول الأدواء، قال رسول الله ﷺ: «**تداووا يا عباد الله فإنَّ الله لم ينزل داءًا إلَّا أنزل معه دواء، إلَّا داء واحد؛ الهرم**»(٤)، والإسلام وحدَه بين الأديان جميعها نهى عن تعذيب النَّفس والإضرار بها، وهو الدِّين الوحيد الَّذي أباح لأمَّته الطَّيِّبات من المآكل والملابس؛ إكرامًا للنَّفس وتقوية للجسم، فنجد أنَّ سنة المسلمين ماهي إلَّا أسابيع صحَّة، وليس في شرع الإسلام أسبوع واحد في العام اسمه أسبوع الصِّحَّة.

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٣٥).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٨٨٧)، ومسلم، رقم: (٢٥٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه أحمد، رقم: (١٨٤٥٥).

عيدُ الأمِّ

دخلت غرفة الطَّعام للإفطار صباح يوم (٢١) آذار سنة (١٩٦٢م)، فوجدت زوجتي وحدها خلافًا للعادة، فسألتها عن الأولاد، فقالت: لَمَّا يأتِ أحدٌ. وإذا بهم - بارك الله فيهم - يدخلون علينا في طابورٍ، يتقدَّمُهم أكبرهم، ويحمل كلُّ واحدٍ في يسراه هديَّة ملفوفة بورقٍ جميلٍ، ثمَّ يتقدَّم إلى أمِّه، ويضع يده اليمنى على كتفها الأيسر، ويقبِّلُ رأسها قائلًا: عيدكِ مبارك، وكلُّ عامٍ وأنتِ بخيرٍ. ثمَّ يضع الَّذي بيده اليسرى أمامها على المائدة، ثمَّ يتبعه الآخر فيفعل كما فعل أخوه، وهكذا حتَّى تكامل عددهم: ذكورهم وإناثهم.

أمَّا أنا فكنت اليوم على الهامش، لم أظفر حتَّى بكلمة: صباح الخير. قلت: ما بالكم؟ قالوا: اليوم عيد الأمِّ، وقد أُعلِنَ عنه بالصُّحف والإذاعات. قلت: أيُّها الأعزَّاء! نحن - والحمد لله - مسلمون، وللأمِّ عندنا في كلِّ يوم عيدٌ، وللأب كذلك، ألم تقرؤوا في كتاب الله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]، فمن لم يرضِ والديه لا يرض الله عنه، وليس ثمَّةَ دين من الأديان قرن طاعة الوالدين بطاعة الله غير الإسلام، وإنَّه خصَّ الأمَّ بالبرِّ أكثر من الأب؛ لأنَّها حملت الولد وهنًا على وهن؛ فهو ضعيف وهي ضعيفة؛ وحملته كرهًا؛ لثقله على أحشائها، ووضعته كرهًا؛ لما في الوضع من آلام، وسهرت ومرضت لمرض ولدها، وضحكت لضحكه، وبكت لبكائه

وتألَّمت لألمه، فكافأها الإسلام بأن جعل برَّها أضعاف برِّ الأب.

أما سمعتم - أولادي - قصَّة ابن عمر الَّذي رأى رجلًا حجَّ بأمِّه، وحملها على ظهره، فسأله: هل كافأ أمَّه بهذا، وأدَّى حقَّها؟ فكان جوابه: «**لا، ولا حتَّى طلقة أو زفرة واحدة**»(١).

إنَّني - يا أولادي - لا أحسد أمَّكم على ما صنعتم معها هذا اليوم، إنَّما أشكر لكم ذلكَ وأُهَنِّئُها بكم، وأرجو أن تكونوا مسلمين حقًّا، لتجعلوا أيَّام السَّنة كلَّها أعيادًا لأمِّكم، إنَّ دينكم جعل الجنَّة تحت أقدام الأمَّهات، فكونوا أبناء بررة تهنأ حياتكم، وتنالوا المكافأة العاجلة العادلة من برِّ أولادكم بكم.

قوموا إلى أعمالكم، بارك الله بكم.

خاتمة وإهداء

الحمد لله الَّذي بنعمته وفضله وكرمه تتمُّ الصَّالحات، والصَّلاة والسَّلام على المبعوث رحمةً للعالمين، بعثه الله هاديًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وعلى آله وصحابته، ومن سلك سبيلهم، واهتدى بهداهم، أمَّا بعد:

فأقدِّم لك - أيُّها الأخ المسلم - هذه الأحاديث في كتاب سمَّيته: «**أحاديث**»، وهي أحاديث إسلاميَّة، قيلت في مناسبات مختلفة، وكلُّها ذكريات تعود بك إلى أيَّام مجيدة، ووثيقة الصِّلة بماضيك المجيد، تقرأها

(١) انظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا (١/ ٧٨).

فتطلُّ بقراءتها على كلِّ جميل، وتتلوها فتبصر بتلاوتها كلَّ جليل، والإسلام بتاريخه وتعاليمه جميل جليل، ولا تخلو هذه الأحاديث من نصائح استوحيتها من كلام الله تعالى وكلام رسوله الأمين عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم، وإنَّ من سعادتي وسعادتك وسعادة كلِّ مسلمٍ يؤمن بكتاب الله دينًا وبرسوله ﷺ هاديًا أن يتذكَّره، وأيُّ تذكيرٍ أبلغ من قولٍ الله وقول رسوله ﷺ؟! و﴿ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذّاريات: ٥٥]، ولعلَّ في أحاديثي هذه ذكرى، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرّعد: ١٩]، فلَكَ - يا أخي المسلم - أقدِّم هذه الأحاديث هديَّةً، أسأل الله تعالى أن ينفع بها القارئ والسَّامع، ويتقبَّلها خالصةً لوجهه الكريم، وبالله التَّوفيق، وهو نعم المولى ونعم النَّصير، وصلَّى الله على النَّبيِّ الكريم سيِّدنا محمَّد عبده ورسوله للنَّاس أجمعين وعلى آله وصحبه وسلَّم.

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

المحمديات

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

الإهدَاء

إلى

سَيِّدي الوالد المرحُوم الشَّيخ

محمَّد النُّوريِّ

أسكنَه الله فسِيح جَنَّاتِه وتغمَّده بوَاسِع رحمتِه

مقدِّمة

الحمد لله وصلَّى الله وسلَّم على رسوله ومصطفاه وعلى آله وصحابته ومن والاه واتَّبع هُداه، وبعد:

فقد كان من عادة الكويتيِّينَ فيما مضى من الأزمان الاهتمام باليوم الثَّاني عشر من شهر ربيع الأوَّل، يوم ميلاد النَّبيِّ ﷺ، واليوم السَّابع والعشرين من شهر رجب - يوم الإسراء أو يوم المعراج - كانوا في نهارها وليلها يعقدون الاجتماعات في مجالسهم أو مساجدهم، يقرؤون قصَّة المولد بمناسبة ذكرى المولد، أو قصَّة الإسراء والمعراج بمناسبة ذكراهما؛ وهاتان القصَّتان لا تتعدَّيان ما كتبه السَّيِّد البرزنجيُّ وغيره في قصص المولد أو المعراج ممَّا يُباع في الأسواق يومئذٍ.

وفي سنة ألفٍ وثلاثمئةٍ وخمسين كان المرحوم الحاجُّ سلطان الكليب قد كُلِّف من جماعةٍ أخيارٍ بترميم مسجد السُّوق، فأنهى بناءه في مستهلِّ ربيع الأوَّل من تلك السَّنة، وفي مجلسٍ من المجالس حضر جماعةٌ حريصون على دينهم مُحِبُّون لنبيِّهم ﷺ، تحابُّوا في الله، فاقترح عليهم سلطان الكليب رَحِمَهُ اللهُ إقامةَ حفلةٍ لذكرى المولد بمناسبة انتهاء ترميم المسجد، يقوم في هذه الحفلة خطباءُ يدلُّونَ النَّاسَ على سُنَّة النَّبيِّ ﷺ، ويرشدونَهم إليها؛ لأنَّ الحفلات الَّتي تقام في المساجد والبيوت لا فائدة منها، وقد ملَّ النَّاس سماعها؛ إذ ليس فيها سوى الغناء بالشِّعر، والتَّغنِّي بقراءة السِّيرة، وأوَّل حفلةٍ أُقِيمَت

في المعنى الصَّحيح تلك الَّتي أُقِيمَت مساء (١٢) ربيع الأوَّل سنة (١٣٥٠هـ)[١] في مسجد السُّوق؛ قرأ فيها المرحوم عبد العزيز حمادة والمرحوم سلطان الكليب، وأحمد الخميس، وعبد الله النُّوريُّ، وغيرهم من شباب ذلك اليوم، ثمَّ استمرَّ الحال حتَّى أُسِّستْ دائرة الأوقاف، وتعهَّدت بالقيام بهذه الحفلات.

أمَّا حفلات المعراج فأوَّل حفلةٍ أُقِيمَت في المدرسة المباركيَّة تلك السَّنة على منوال حفلات المولد، وكانت غير سنويَّة؛ إذ إنَّ مصاريف الحفلات شاقَّةٌ، وليس هناك من يقوم بها، أو يُسهِم بإقامتها.

وأُقِيمت حفلات لذكرى (١٧) رمضان - ذكرى بدر - مرَّتين أو ثلاث مرَّات في المباركيَّة، وهذه الحفلات كلُّها استلمتها الأوقاف بعد تأسيسها، واستمرَّت في إقامتها والصَّرف عليها، لكنَّ ذكرى سبعة عشر رمضان تُركَت وأُقِيمَ بدلًا منها حفلات لذكرى أوَّل محرَّم، وهي الذِّكرى الَّتي اتَّفق عليها سائر المسلمين، وأسمَوها ذكرى الهجرة.

وكنت أشترك في هذه الحفلات جميعِها، ولم أترك الاشتراك فيها إلَّا نادرًا؛ إذ أكون مريضًا أو مسافرًا، وقد اقترحت سنة (١٣٨١هـ)[٢] على رئاسة الأوقاف بتدوين كلماتٍ لائقةٍ تُقال في هذه الحفلات ينتفع بها القارئ والسَّامع، لكنَّ الأوقاف لم تعمل بهذا الاقتراح.

---

(١) أي: سنة (١٩٣١م).

(٢) أي: سنة (١٩٦١م).

ولمَّا كنت حريصًا على جميع ما قلته في هذه الحفلات من كلماتٍ في ذكرى المولد، أو الإسراء، أو الهجرة، فقد أحببت أنْ أنشر هذا لعلَّ قارئًا ينتفع، أو سامعًا يعتبر ممَّا قيل في حفلاتِ الذِّكرى، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: ٥٥].

وقد انتقيت ممَّا قلت هذه الكلمات الَّتي تراها أيُّها الأخ في هذا الكُتَيِّب، ولعلَّك تقرأ فيها كلمات ليست هي في الموضوع؛ لتعلم أنَّني أترقَّب الفرص وأتحرَّاها؛ لأُسمع الإخوة كلمات أنصحهم بها، مكتفيًا بما يقوله الإخوان في موضوع الحفلة.

أسال الله أنْ يجعل ما قلته ونشرته أمامك خالصًا مخلصًا لوجه الله ينتفع به مَن بُلِّغَ ومن سمع فوعى.

عبد الله النُّوريُّ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لماذا أنا مسلم؟(١)

١- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ الإسلام قال: إنَّ الله تعالى هو الأحدُ الصَّمدُ، ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، خالقُ كلِّ شيءٍ ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وتصوِّره الأديان الأخرى فتجسِّده اليهوديَّة، وتثلِّثه المسيحيَّة، وتثنِّيه المجوسيَّة، وتحدِّده الصَّابئيَّة، وتحلُّه وتمثِّله البوذيَّة، بينما الدِّيانة الإسلاميَّة تحكم الفطرة بأنَّ الله الخالق القادر العالم السَّميع البصير المسيطر ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشّورىٰ: ١١]، وهو الرَّحمن الرَّحيم.

٢- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ تعاليم الإسلام كفيلةٌ برُقِيِّ متَّبعيها، فقد بُعِثَ النَّبيُّ محمَّد عليه السلام في أمَّةٍ مفكَّكةٍ متناحرةٍ متباغضةٍ تقوم الحروب بين قبائلها لأتفه الأسباب، فأخرج بتعاليمه الإسلاميَّة منها أمَّةً موحَّدةً قويَّةً عزيزةً مرهوبةَ الجانب، أشادت مجدًا دوليًّا لم تشده قبلها أمَّة، ومكَّنت حضارة عالميَّة وفكريَّة وعمرانيَّة لم يلحق شأوها(٢) أحد:

---

(١) لماذا أنا مسلم: مقتبسة من كتاب لماذا أنا مسلم للأستاذ عبد الرحمن العيسوي.

(٢) الشأو: السبق، وشأوت القومَ شأوًا: إذا سبقتهم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٨/ ٣٤٥).

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النُّور: ٥٥].

٣- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ دين الإسلام دين مكارم أخلاق وعبادات، فقد قال نبيُّ الإسلام ﷺ: «**أشرفُ الإيمانِ أن يأمَنكَ النَّاسُ، وأشرفُ الإسلامِ أنْ يَسلَمَ النَّاسُ من لِسَانِكَ ويَدِكَ**»(١)، وقال: «**لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له**»(٢)، وقال: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه**»(٣) وإنَّه دينُ عبادةٍ وخلقٍ؛ لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

٤- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ دين الإسلام دين دنيا وآخرة، وهاكم خير الدُّعاء دليلًا على صحَّة ما أقول: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٠١] دعاء يدعوه المسلم في كلِّ صلاةٍ وفي كلِّ عبادةٍ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجُمُعَة: ١٠].

٥- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ الدِّين الإسلاميَّ يأمر المسلم بالحفاظ على نفسه وماله، فيقول: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير، رقم: (١٠).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٣١٩٩).
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٣)، ومسلم، رقم: (٤٥).

[الأعراف: ٣١]، ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]، ويقول النَّبيُّ عليه السلام: «**نفسك مطيَّتك فارفق بها**»(١)، ويقول ﷺ: «**إنَّ لجسدك عليك حقًّا**»(٢).

٦- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ دين الإسلام يرشد متَّبعيه للعناية بظواهرهم كعنايتهم بسرائرهم، فيقول لهم: «**والنَّظافة تدعو إلى الإيمان**»(٣)، ويقول: «**أحسِنُوا لباسَكُم وأصْلِحُوا رِحَالَكُم حتَّى تكونوا كأنَّكُم شأمةٌ**(٤) **في النَّاس**»(٥)، ويقول كتاب الإسلام - كتاب الله -: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

٧- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ الإسلام دينُ صبرٍ وشجاعةٍ، والصَّبر والشَّجاعة من أخصِّ الصِّفات الَّتي يجب أنْ يتخلَّق بها المسلم، فالصَّابرون في البأساء والضَّرَّاء، وهما الفقر والمرض، والصَّابرون

(١) أورده السرخسي في المبسوط (٣٠/ ٢٦٩).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٦١٣٤).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٣١١).
(٤) شأمة: وهي الخال، وأراد: كونوا في أحسن زيٍّ وهيئة كما تظهر الشأمة ويُنظَر إليها دون باقي الجسد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/ ٤٨٣).
(٥) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (١٢١٩).

حين البأس في الحرب والخوف: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والصَّبر على الآلام والمصائب والكوارث ممَّا لا طاقة للبشر على ردِّه أمرٌ لا بدَّ منه، وهو ما شرحه لنا الدِّين، وعرَّفه بأنَّه الصَّبر الجميل، والصَّابرون عليه هم الَّذين أشار إليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

أمَّا التَّقاعد عن دفع المكروه ممَّا يدخل تحت الطَّاقة البشريَّة بالطُّرق المشروعة والوسائل المعروفة فهذا ممَّا لا يرضاه الشَّرع، كأن يُصاب بمرضٍ مؤلمٍ، وله علاجٌ نافعٌ ومعروفٌ عند الأطبَّاء، ويقول: سأصبر؛ لأنَّ الصَّبرَ محمودٌ، أو يُصاب بفقرٍ وله عيال يتضوَّرون جوعًا، وأسباب الرِّزق مُيَسَّرَةٌ لديه ولم يفعلها؛ أو يعتدي عليه معتدٍ، وفي إمكانه دفع هذا الاعتداء فلا يَرُدُّه، فهذا وأمثاله ليس بصبرٍ، وإنَّما هو جبنٌ وذِلَّةٌ، وهما ليسا من خصال المسلم، ولا يرضى بهما الإسلام.

٨- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ الإسلام دينُ أعمال لا دين أقوال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصَّف: ٢-٣].

والدِّينُ الإسلاميُّ جعل البشر كلَّهم في خُسرٍ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر: ٣]، ولهذا قال لأهل بيته: «**لا يَأْتِ النَّاسُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ وتأتون بأثقالِ**

فَأَعرِضُ عَنكُم»[١]، وأبوابُ العمل كثيرةٌ، وكلُّها جهادٌ في سبيل الله إنْ أراد الإنسان بها وجه الله والنَّفع العامَّ، وعلى المرء أن يختار منها ما كان أكثر نفعًا وأحسن أثرًا في مصالح المجتمع الإسلاميِّ، فالزِّراعة مثلًا تحتاج إلى أيدٍ عاملة مع الشَّخص الَّذي يجهِّز هذه الأيدي، والتِّجارة تحتاج إلى أعمال تُعِين التَّاجر في وصول المال إليه أو خروجه من يده، والصِّناعة والبناء والمقاولات كذلك.

أمَّا الرِّبا فليس فيه ما يفيد غير اثنين؛ دائن ومدين، ولهذا حرَّمه الله، أمَّا العمل في أشياءَ عقيمةٍ لا تفيد المجتمع ولا يعمُّ نفعها الإنسانيَّة فهذا جهلٌ وحمقٌ، فقد ورد في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ في فضل الزِّراعة ما معناه: «**مَا مِن رَجُلٍ يَغرِسُ غَرسًا إلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الأَجرِ قدر مَا يَخرُجُ مِنْ ثَمرِ ذلك الغِرَاس**»[٢]، وورد في فضل العمل: «**مَن أَمسَى كالًّا مِن عَمَلِ يَدَيهِ أَمسَى مَغفُورًا لَهُ**»[٣]، وقد أثنى الصَّحابة رضوان الله عليهم على رجلٍ كان يصوم النَّهار، ويقوم اللَّيل، ويكثر الذِّكر، فسمع النَّبيُّ عليه السلام قولهم، فقال لهم: «**فَمَنْ كَانَ يَكْفِيهِ صَنْعَتَهُ؟**»، حتَّى ذكر: «**وَمَنْ كَانَ يَعْلِفُ جَمَلَهُ أَوْ دَابَّتَهُ؟**» قالوا: كلُّنا يا رسول الله، فقال عليه السلام: «**فكُلُّكُم خَيرٌ مِنهُ**»[٤]، وفي الحديث أيضًا ما معناه: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يومَ القيامةِ المَكفِيُّ الفارغُ**»[٥].

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤٥٤٧).
(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٥٢٠).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٧٥٢٠).
(٤) رواه أبو داود في المراسيل، رقم: (٣٠٦).
(٥) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (١٨٧٨).

٩- أنا مسلمٌ؛ لأنَّ شخصيَّة نبيِّ الإسلام ﷺ أعظم شخصيَّات التَّاريخ في استقامته وفي خَلْقِهِ وخُلُقِهِ، فقد كان ﷺ أوَّل المتقيِّدين بتعاليم شريعته ونصوص رسالته، فكان في خلقه رحيب الصَّدر، عريض الكتفين، وهاتان الصِّفتان تدلَّان على الحلم، وضبط النَّفس، وهما من صفاته ﷺ، وكان إذا مشى يَتَكَفَّأُ كأنَّما يَنحَطُّ من صيب[1]، ما يدلُّ على قوَّةٍ وعزمٍ وحيويَّةٍ وهمَّةٍ، فلم يكن في مشيته ﷺ ما يدلُّ على الخُيَلاءِ[2]، ولا الزَّهو[3]، ولا العتوِّ[4] شأن الجبَّارين، أو الميوعة، أو الضَّعف شأن المعجبين بأنفسهم، وكان ﷺ إذا التفت التفت كلَّه، وإذا تحدَّث كان حديثه لو عدَّه العادُّ لأحصاه، فلم يكن من خصاله عدم الاهتمام بمحدِّثه أيًّا كانت مكانته، ولم يكن من خصاله أن يَشُقَّ على سامعيه؛ فلا يدغم الحروف، ولا يسرع في حديثه، وكان إذا صافح أحدًا ترك يده حتَّى يكون هو الَّذي ينزع يده، و«**كان ﷺ فخمًا مفخَّمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أَزَجَّ[5] الحواجب، أقنى العرنين[6]، معتدل**

(١) الصيب: السحاب ذو الصوب. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٢١١).
(٢) الخيلاء: الكبر. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ٤٦٠).
(٣) الزهو: الكبر والتيه والفخر والعظمة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ١٨٨٢).
(٤) العتو: التجبر والتكبر. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٨٠٤).
(٥) الزجج: تقوُّس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٦/ ٩).
(٦) أقنى العرنين: أي: الأنف، وقيل: رأس الأنف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٩١٦).

الخلق، سواءَ البطن والصَّدر»[١]، ومن هذه الصِّفات الَّتي دلَّت على جمال خِلْقة المصطفى ﷺ ورواها آله وأصحابه، نفهم أنَّه كان مهيبًا، ولكنَّه محبوبٌ، يألف النَّاس شكله ووسامته، وتستملحه مشاعر النَّاس، وفي شخصه جاذبيَّة تُحبِّبه لكلِّ من يراه، وتجذب إليه من يلاقيه، وإذا سمعَه السَّامع اطمأنَّت نفسه لجمال صوته، وثباتِ نُطقِهِ، وبساطة مظهره، وصِدقِ عبارته، وحُسنِ أدائه لقوله.

ومن أخلاقه ﷺ أنَّه لـمَّا دانت له جزيرة العرب، وأحلَّ الله له الغنائم، وأتته الدُّنيا صاغرةً ذليلةً، ظلَّ هو كما هو لم يتغيَّر، فكان المتواضع العطوف المواسي لأصحابه وعشيرته، رقيق الوجدان، وضَّاء الرُّوح، شجاعًا ولكنَّه يكره سفك الدِّماء، ومن عظيم خلقه ﷺ أنَّه لمَّا فتحَ مكَّة ظافرًا منصورًا وكان أهلها قد آذوه وأخرجوه من وطنه، فوقف فيهم خطيبًا، وقال: «**ما تَرَونَ أنِّي صانعٌ بكُم؟**» قالوا وهم أعلم بكريم خُلُقِهِ وعلوِّ نفسه وعفوه عند المقدرة: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قال: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاءُ**»[٢]، ولم يوحِ بنصب المشانق، ولا بتجريد السُّيوف، ولم يُغلِق عليهم أبواب السُّجون.

ومِن خُلُقِه ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند قبره: «**بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال:** ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فلقد وُطِئ ظهرك، وأُدمي وجهك، وكُسِرَت رباعيَّتك،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (٤١٤).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٨٢٧٦).

فأبيت أن تقول إلَّا خيرًا[(١)]، فقلتَ: **اللَّهُمَّ اهْدِ قَومِي فإنَّهم لا يَعلَمُون»**[(٢)].

ولمَّا أُصِيبَت قريش بالقحط وكانوا معه على حرب، جمعَ الأقوات، وأرسلها إلى أبي سفيان وهو أعدى أعدائه وزعيم الأحزاب في حربهم معه، فهل سمع أحدٌ بمثل هذا في التَّاريخ القديم والحديث؟ كلَّا والله، ولن يُسمع بمثل محمَّد ﷺ، إنَّ محمَّدًا عليه السلام جمع الأقوات، وأرسلها إلى قريش، وهو على هلاكهم يومئذٍ بالجوع والسِّلاح قديرٌ، وهو الَّذي قطعت قريش عنه وعن أصحابه الزَّاد، وحبسوه في شُعَبِ أبي طالب - من شعاب مكَّة - وتعاهدوا فيما بينهم أنْ يموت هو وأصحابه وأهله جوعًا، وعلَّقوا صحيفة معاهدةٍ فيما بينهم على ذلك في الكعبة، ولكنَّ الكريم ابن الكريم أَبَى إلَّا أن يدفع السَّيِّئة بالَّتي هي أحسن، فلم يعاملهم بسوء أعمالهم، بل عاملهم بالحلمِ وسعةِ الصَّدر، وعظمةِ النَّفس؛ وليس هذا بكثيرٍ على مَن كان خُلُقه القرآن.

أيُّها المسلمون! هذه غَرْفَةٌ من محيط أخلاق النَّبيِّ عليه السلام، ومن عدَّ موج البحر عدَّ طويلًا، هذا النَّبيُّ الكريم علَّمنا كيف يكون خُلُقُ المؤمن الحقِّ، فقال: **«إنَّ من أخلاقِ المؤمنِ: قوَّةً في دينٍ، وحزمًا في لينٍ، وإيمانًا في يقينٍ، وحِرصًا في عِلمٍ، وشَفَقَةً في مِقة**[(٣)]،

(١) أورده الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٠٤).
(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٣٧٥).
(٣) المقة: المحبة. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٤٩٢٧).

وحِلمًا في عِلمٍ، وقَصدًا في غنًى، وتجمُّلًا في فاقةٍ، وتحرُّجًا عن طمعٍ، وكسبًا في حلالٍ، وبرًّا في استقامةٍ، ونشاطًا في هُدًى، ونهيًا عن شَهوةٍ، ورحمةً للمَجهُود، وإنَّ المؤمن من عبادِ الله لا يحيفُ على من يُبغِضُ، ولا يأثَمُ فيمن يُحبُّ، ولا يُضَيِّعُ ما استُودِعَ، ولا يحسدُ، ولا يطعَنُ، ولا يلعَنُ، ويعترفُ بالحقِّ، وإنْ لم يُشهَد عليه، ولا يَتَنابَزُ بالألقاب، في الصَّلاة متخشِّعًا، إلى الزَّكاة مسرعًا، في الزَّلازِل(١) وَقُورًا، في الرَّخاء شَكُورًا قَانِعًا بالَّذي له، لا يدَّعي ما ليس له، ولا يَجمَعُ في الغَيظِ، ولا يَغلِبُهُ الشُّحُّ عن معروفٍ يُريدُهُ، يخالط النَّاس كي يعلمَ، ويُنَاطِقُ النَّاسَ كي يفهمَ، وإنْ ظُلِمَ وبُغِيَ عليه صَبَرَ حَتَّى يكون الرَّحمن هو الَّذي ينتصرُ له»(٢)، هكذا علَّمنا الَّذي أرسله الله ليُتَمِّمَ مكارم الأخلاق، وليُرِينا كيف يكون خُلُقُ المؤمن، فأين المسلمون من هذا اليوم؟!

أيُّها السَّادة! لقد درستُ عن اليهوديَّة شيئًا، وخالطتُ المسيحيِّينَ، فعرفتُ من دينهم شيئًا، وقرأتُ ممَّا كُتِبَ عن الصَّابئيَّة، وشيئًا ممَّا كُتِبَ عن المجوسيَّة، فلهذا لم أكن من أولئك الَّذين وجدوا آباءهم على أمَّةٍ وكانوا بآثارهم مقتدين، بل إنَّني ذكرتُ لكم من فضائل دين الإسلام؛ لأنَّ القرآنَ الَّذي جاء به محمَّدٌ نبيُّ الإسلام ﷺ هو الكتاب السَّماويُّ المنزَّل من الله على البشريَّة بالحقِّ، وأفخر بأنِّي مسلمٌ.

---

(١) الزلازل: البلايا والشدائد والأهوال. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٩/ ١٣٣).
(٢) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٤٧٩٥).

العظيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المَائدة: ١٩].

وكان العالم في تلك الفترة يَرْسِفُ(١) في أغلال الظُّلم والعسف والاضطهاد، وما كان الإنسان يأمن على نفسه أنْ يُصبح سالـمًا، أو يُمسي سالـمًا، فالأعراضُ مهتوكةٌ، والدِّماءُ مسفوكةٌ، والضَّعيفُ ذليلٌ، والقويُّ غالبٌ، والأموالُ منهوبةٌ، والمحارمُ مستباحةٌ، والحروبُ قائمةٌ، والشَّهواتُ غالبةٌ، والأهواءُ مستحكمةٌ، فالعرب كانوا يعبدون ما ينحتون من تماثيلَ وأصنامٍ، وما ينصِّبون من نصائب وأوثان يتَّخذونها أربابًا من دون الله، وقد بلغ من تعظيمهم لها أن اتَّخذ أهلُ كلِّ دارٍ صنمًا يعبدونه؛ فإذا أراد الرَّجل سفرًا تمسَّح به حين يركب، فإذا قَدِمَ من سفره تمسَّح به حين ينزل، وكان المسافر إذا نزل منزلًا التقط أربعة أحجارٍ اتَّخذ أجملها ربًّا له، واتَّخذ الثَّلاثة

(١) الرسف: هو المشي في القيد رويدًا. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣/ ١٦٤٣).

الباقية أَثَافِيَّ(١) لِقِدْرِهِ، فلمَّا بَعَثَ الله رسوله ﷺ بالتَّوحيد، قال الله على لسانِ قريش مُتعجِّبَةً: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥].

وفي فارس أيضًا كان مذهب مَزْدَك الَّذي أحلَّ النِّساء، وأباح الأموال، وجعل للنَّاس شركةً فيهما؛ كاشتراكهم في الماء والنَّار والهواء، وكان هناك الظُّلم الاجتماعيُّ، فالأكاسرة يزعمون أنَّ دمًا إلهيًّا يجري في عروقهم، وأنَّهم بسبب ذلك أربابٌ، والرَّعيةُ عبيدٌ عندهم، فكان النَّاس طبقات، على كلِّ طبقةٍ أن تقنع بمركزها الاجتماعيِّ، فلا تتشوَّفُ إلى(٢) ما فوقها، ولهذا كانت الهوَّةُ(٣) بين الطَّبقات لا قرارَ لها.

ويروي لنا التَّاريخ أنَّ المغيرة بن شعبة لمَّا طُلِبَ منه مقابلة القائد رستم في معركة القادسيَّة حاول الجلوس معه على سريره، فأنزلوه بالقوَّة، فقال: «**لا أرى قومًا أسفَهَ منكم! إنَّا معشر العربِ سواءٌ، لا يستعبدُ بعضُنا بعضًا إلَّا أنْ يكون محاربًا لصاحبه، فَظَنَنتُ أنَّكُم تُوَاسُون قَومَكُم كما نَتَواسَى، وكانَ أَحسَنَ مِنَ الَّذي صَنعتُم أنْ**

(١) الأثافي: هي الحجارة التي تُنصب وتجعل القِدر عليها يُقال: أثفيت القِدرَ: إذا جعلت لها الأثافي، وثفيتُها: إذا وضعتها عليها. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٢٧).

(٢) تشوفت إلى الشيء: أي: تطلَّعتُ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٣٦١).

(٣) الهوة: ما انهبط من الأرض، وقيل: الوهدة الغامضة من الأرض. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٤٧٢٩).

تُخبِرُونِي أنَّ بعضكم أربابُ بعضٍ، وإنِّي لم آتِكُم، ولكنَّكم دَعَوتُمُوني، وإنِّي الآن قد عَلِمتُ أنَّ أمرَكُم مُضمَحِلٌّ، وأَنَّكُم مَغلُوبُون على أَمرِكُم، وأنَّ مُلكًا لا يَقُومُ على هذه السِّيرَةِ، ولا على هذهِ العُقُولِ»[١].

وأمَّا في بلاد الرُّوم فليس الحال خيرًا منها في فارس، كانت هناك المسيحيَّة الزَّائفة المُحرَّفة المنقسمة إلى قسمين، كلُّ قسمٍ يُكفِّرُ القسمَ الآخر؛ بسبب الخلاف بينهم في المسيح وشخصيَّته، هل هو إلهٌ في طبيعة إلهٍ، أو هو إلهٌ في عنصر بشرٍ؟ ومن الطَّبيعي أنْ يَلحَق هذا الفساد في العقيدة انحلالٌ في الأخلاق، وفسادٌ في الإدارة، وظلمٌ في المجتمع، وانتهاكٌ للحرمات، وتفاوتٌ في الطَّبقات بين عبيد ومستعبدين، ولـمَّا أراد الله جلَّ جلاله أن يُمزِّق حجب هذه الضَّلالات، ويُبَدِّدَ غشاوة هذه الظُّلمات، ويُقِيمَ الميزان القسطاس، بدأت الإرهاصات لأعظم انقلاب يأتي به نبيٌّ عظيمٌ، فالعظمةُ سرٌّ من أسرار الله يستمدُّه العظيم من روح الله، فتكسبه جمالًا في الخَلْق والخُلق، وثقةً في النَّفس، وقوَّةً في الإرادة، وجلالًا في المكانة، فتَعنُو[٢] له الوجوه، وتُطَأطِئُ[٣] له الرُّؤوس، وتنقاد له النُّفوس.

(١) انظر: تاريخ الطَّبري، للطَّبري (٣/ ٥٢٢).

(٢) عنت الوجوه: استأسرت، وقيل: ذَلَّت، وقيل: نَصِبَت له وعَمِلَت له. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ١١٥).

(٣) طأطأ رأسه طأطأة: طَامَنَه، وتطأطأ: تطامن، وطأطأ الشيء: خفضه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٣٢٣).

إنَّ العظمةَ في العظيم تولد معه وتعيش معه، وتصحبه في كلِّ أحواله وحركاته وأنفاسه، في مراحه ومغداه، وفي مصبحه وممساه، ولهذا كانت نواحي العظمة في رسول الله ﷺ عديدة الجوانب، فقد وُلِدَ عليه السلام عظيمًا، وعاش عظيمًا، وتوفِّي عظيمًا، واعترف الكون بعظمته، وشهدت أحداث التَّاريخ له بالعظمة وصدق النُّبوَّة، ولقد أثَّرت عظمته في صحابته جميعِهم، فكانوا عظماء تختلف عظمتهم بقدر زمن تأسِّيهم به، وكان زمنه عظيمًا، حتَّى إنَّ المؤرِّخين جعلوا زمن رسول الله عليه السلام حدًّا فاصلًا بين عهدين عظيمين وحدثين جسيمين من أحداث التَّاريخ.

ففي ذلك الزَّمن الَّذي غلبت عليه الوثنيَّة والضَّلال والجهل والفساد وُلِدَ ﷺ يتيمًا، وعاش شطرًا من حياته في حجر أمِّه، ثمَّ ماتت أمُّه، فكفله عمُّه أبو طالب بعد موت جدِّه، وخصَّه بكثيرٍ من برِّه وعطفه وحنانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦-٨]، وبعد بلوغه الأربعين من عمره ظهرت فيه بوادر نبوَّته، فطلع فجرها، وظهر أمرها، فبُشِّرَ بها وأُنذِرَ، وبدأ بعشيرته الأقربين، وإذا به ينادي بهم يومًا: «**يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ، اشتَرُوا أنفسكم من الله، لا أُغنِي عَنكُم من الله شَيئًا، يَا بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغنِي عَنكُم مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا عَبَّاسَ بن عَبدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغنِي عَنكَ من اللهِ شَيئًا، يَا صَفِيَّة عَمَّة رَسُولِ اللهِ، لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، يَا فَاطِمَة بِنت رَسُولِ اللهِ، سَلِينِي بِمَا شِئتِ لَا أُغنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا**»[(١)]، وهكذا ظهر الإسلام، ثمَّ عمَّت دعوته النَّاس؛ لأنَّه

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٠٦).

عليه السلام بُعِثَ بدين النَّاس جميعًا، وبدين الإنسانيَّة عامَّة؛ ليخرج العالم ممَّا كان يتخبَّط فيه من جهلٍ، إلى علم ومعرفةٍ، ومن ضلالٍ إلى هدايةٍ، ومن ظُلمٍ إلى عدلٍ، ومن باطلٍ إلى حقٍّ، ومن فسادٍ إلى إصلاحٍ، ومن استبدادٍ واستعبادٍ إلى حرِّيَّةٍ في الفكر وثقةٍ في النَّفس.

وجاء محمَّدٌ ﷺ بالقرآن كتاب الله الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]؛ ليبلغه النَّاس، فيأتمروا بما فيه من أوامر، وينتهوا عمَّا فيه من نواهٍ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [صَ: ٢٩]، وما القرآن إلَّا مفتاحٌ لأقفال القلوب، وجلاءٌ لصدئها، وشفاءٌ لأمراضها، ومحطِّمٌ لأغلاقها، وممزِّقٌ لحجبها، حتَّى تزول الغفلة الجاثمة عليها، وتحلَّ المواهب محلَّها، فتغدو سميعةً بصيرةً مدركةً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجُمُعَة: ٢-٤].

أيُّها السَّادة! جاء الإسلام بنظام الأخوَّة، ونظام المساواة، وهو نظامٌ يخالف ما كان عليه العرب من تعصُّب للجنس العربيِّ، فقد جاء الإسلام بعدِّ المسلم مسلمًا، لا بعدِّه عربيًّا، أو فارسيًّا، أو حبشيًّا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحُجرَات: ١٣]، «**فالمسلم أخو المسلم**»(١) مهما كان أصله وجنسه، وأكرم

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٥١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٠).

النَّاس عند الله أتقاهم لله، «**لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأحمر على أسود إلَّا بالتَّقوى**»(١)؛ فجعل الإسلام المسلمين كلَّهم أمَّةً واحدةً، والمسلم جزءٌ من هذه الأمَّة، يسعى لصالحها، وتسعى لصالحه، ويألم لألمها، وتألم لألمه: «**فالمُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيَان يشدُّ بعضُهُ بعضًا**»(٢) وفي حديثٍ آخر: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مَثَلُ الجسدِ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهرِ والحمَّى**»(٣)، وأيضًا: «**وَالمسلمون يدٌ على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، ويجير عليهم أدناهم، ويردُّ عليهم أقصاهم**»(٤).

وعلى هذا الأساس جاء محمَّد ﷺ من عند الله رسولًا نبيًّا، أُرسل إلى النَّاس كافَّةً بدين الهدى والحقِّ الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دينٍ صالحٍ لكلِّ أمَّة في كلِّ زمانٍ وكلِّ مكانٍ، ليُبنَى العالم من جديد على أُسُسٍ متينةٍ من توحيد الله وتوحيد المجموعة الإنسانيَّة، وعلى قواعدَ ثابتةٍ من العلم والمعرفة، ومن الثِّقة بالنَّفس والإيمان بالعقيدة، ومن العدالة والكرامة والعزَّة، واطمئنان النَّفس، فيربِّي في نفوس أتباعه السُّموَّ الرُّوحيَّ بالصَّلاة، ويبعث في نفوسهم الإيمان بالتَّفكُّر والتَّأمُّل، ويُثقِّف عقولهم بمعاني القرآن وألفاظه، فيكون كلُّ واحدٍ منهم شجاعًا في جهاده، عابدًا في محرابه، وقورًا

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٤٨١)، ومسلم، رقم: (٢٥٨٥).

(٣) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٦).

(٤) رواه أحمد، رقم: (٦٦٩٢).

في عُسره، شكورًا في يُسره، قانعًا بقسمته، عادلًا في شهادته، مُنصفًا في حكومته، أمينًا في ولايته، مُتقنًا لعمله، رحيمًا في رعيَّته، ساميًا في مبدئه، صادقًا في قوله، حافظًا لأمانته، أدَّبهم بأدب القرآن؛ فسَمت أرواحهم، ودمثَت[1] أخلاقهم، وصَفَتْ قلوبهم، روَّضَهم على طاعة الله والانقياد لأوامره، وأخذهم بالصَّبر على الأذى في سبيل الله، فتحرَّروا من سلطان المادَّة، وأخلصوا لله العليِّ القدير: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النُّور: ٥٢].

أيُّها الإخوان! إنَّ العالم الإسلاميَّ يحتفل هذا الشَّهر بذكرى مولد الرَّسول ﷺ، هذا العالم الطَّويل العريض بمساحته، الضَّيِّق في حدوده ومداخله وتقسيماته، أيُّها السَّادة! إنَّ المسلمين:

مَوَاطِنُهُمْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ أَشْغَلَتْ ... ثَلَاثًا مِنَ الْقَارَاتِ فِيهِنَّ تَعْمُرُ

وَلَكِنَّهَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ بِرَحْبِهَا ... وَهَلْ تَسَعُ الْأَوْطَانُ مَنْ لَا يُسَيْطِرُ؟!

أيُّها السَّادة! هذا العالم الإسلاميُّ يحتفل اليوم وغدًا؛ فرحًا بذكرى المولد النَّبويِّ الشَّريف؛ فهو النَّبيُّ الَّذي أنقذ الإنسانيَّة فأخرجها من الضَّلال إلى الهدى، ومن الجهل إلى العلم، ومن الظُّلمة إلى النُّور، ومن العداوة إلى المحبَّة، ومن الانقسام والفرقة إلى التَّآلف والوحدة، ومن الشِّرك بالله إلى توحيد الله، لكن ما فائدة هذه الاحتفالات ونحن ما نزال في ضلالٍ وجهلٍ وانقسامٍ؟!

(١) الدَّماثةُ: سهولةُ الخُلُق. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٥/ ٢٥١).

إنَّ محمَّدًا ﷺ قد جاءنا بدينٍ لا يبلى، جديدٍ منذ ألفٍ وأربعمئةِ عامٍ، وبعد ألفٍ وأربعمئةِ عامٍ، وبقانونٍ صالحٍ لمن كان قبلنا ولمن سيكون بعدنا، وجاءنا بكتابٍ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فُصّلَت: ٤٢]، عَمِلَ به الأقدمون، ففازوا وملكوا وحطَّموا أغلال الضَّلال، وكشفوا ظلمات الجهل، وعَلَت يدهم على من سواهم، ومكَّن الله لهم في الأرض، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مَريَم: ٥٩]، فتفرَّقوا من بعد ما جاءتهم البيِّنات، ولعبت بهم الأهواء والفتن والضَّلالات، وحُقَّت عليهم كلمة العذاب، ولو أنَّهم أطاعوا الله والرَّسول واتَّبعوا ما أنزل إليه ونبذوا ما سواه لفازوا في دنياهم بالتَّمكين في الأرض، كما مكَّن لسلفهم، وفازوا في الآخرة بالنَّعيم المقيم.

أيُّها السَّادة! إنَّنا نحتفل اليوم بذكرى المولد النَّبويِّ الشَّريف بخطبٍ تُلقى وكلمات تُقال، وقصائد تُنشد، ومُكبِّر صوت يُنصَب، وأنوار تُشعَل، ومحافل تُحضر، فهل هذا هو المقصود من الذِّكرى؟! ولو أنَّنا بدل هذا أطعنا الله ورسوله، وآمنَّا بالله ورسوله، وعملنا بما أمرنا الله به، لكنَّا احتفلنا كلَّ يومٍ بمولد رسول الله، وبِعثته ونصره.

أيُّها السَّادة! أنا لا أنتقد الاحتفالات هذه، ولكنِّي أقول ما قاله الله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزَاب: ٢١]. إنَّ في هذه الاحتفالات ذكرى للمتذكِّرين، ووعظًا للمتَّعظين، وتنبيهًا للغافلين، وإرشادًا للضَّالِّين، و﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: ٥٥].

عباد الله! قولوا واعملوا، فإن الله يقول لكم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣] ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التّوبة: ١٠٥].

رسول الحقِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

السَّلامُ عليك يا سيِّدي يا رسول الله، السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمة الله وبركاته، وصلَّى الله عليك وسلَّم تسليمًا كثيرًا، أشهد أنَّك رسول الله حقًّا، بلَّغت رسالة ربِّك، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الإنسانيَّة، وجاهدت في سبيل الحقِّ حقَّ الجهاد حتَّى بعثت أُممًا، وأنقذت أُممًا، وأحييت أُممًا، وأقمت دُنيا؛ بعثت أُممًا من موت الفقر والعوز إلى حياة الدَّعة والغنى، وأحييت أُممًا من موت الجهالة فرفعتها إلى حياة العلم والعرفان، وأنقذتها من ظُلمات الضَّلالة فأخرجتها إلى نور الهدى، فكانت كلُّها أمَّةً واحدةً، هي خيرُ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، تأمر بالمعروف، وتَنهى عن المنكر، وتُقِيم عدلًا وتَهدِمُ ظُلمًا، وتبني حقًّا، وتدكُّ[١] باطلًا، وتمهِّد سبيلًا، وتقيم دليلًا، وتهتك ظلامًا، وتنشر نورًا وعلمًا وسلامًا، وتُشيِّد فضائل، وتُزِيل رذائل.

(١) الدك: الدَّقُّ والهدم، ودك الشيء: ضربه وكسره حتى سوَّاه بالأرض. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ١٥٠).

إنَّ في سيرتك - يا أبا القاسم - من آيات الأخلاق الكريمة والفضائل النَّفيسة ما يعدُّ لنا عِظةً وذكرى، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، فصلَّى الله عليك يا رسول الله، صلَّى الله عليك كلَّما طيَّب ذكرُكَ مَحْفَلًا، ونطقَ باسمك مِقْوَلٌ[١]، وسمع اسمك مسْمَعٌ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أيُّها السَّادة! إنَّ ثلاثًا وستِّين سنة عمرٌ عاديٌّ، لم يبلغ من عاشه سِنَّ المعمَّرين، وإنَّ رسول الله ﷺ عاش من العمر ثلاثًا وستِّين سنة فقط، قضى منها ثلاثًا وعشرين نبيًّا ورسولًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦]، ولكنَّه كان عمرًا من أطول الأعمار؛ والأعمار تقاس بما تثمره من عملٍ جليلٍ، وأثرٍ حميدٍ نافعٍ، أجل والله، إنَّ حياته ﷺ في أطوارها كلِّها عامرةٌ بالهدى والخير والخلق العظيم، تجلَّى هذا الخلق فيما احتمله صاحبها عليه السلام في سبيل دعوته من الشَّدائد، وما عامل به المدعوِّين من صبرٍ على أذاهم، وإحسانه مقابل إساءتهم.

قام في مكَّة، وهي يومئذ مجمع الأصنام، وحصن الوثنيَّة، ومحجُّ عبادها، يدعو النَّاس إلى توحيد الله، ونبذ ما سواه، وسبِّ الأوثان، وتسفيه عقل من اتَّخذها آلهةً من دون الله، قام في دعوته هذه وهو يتيمٌ لا يعتمد إلَّا على ربِّه، وهو فقيرٌ صابرٌ لا يملك المال ولا الثَّروة، معدمٌ لا يملك إلَّا إيمانه بمبادئه، وثقته بنفسه، وحيدٌ خذله أدْنى الأقربين إليه، وليس له من دون الله ناصرٌ ولا معينٌ، قام في

(١) المِقْوَل: اللِّسَان. انظر تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ٢٩٦).

مكَّة هذه يدعو قومًا أشدَّاءَ أغنياءَ، أخذتهم العزَّة بالإثم، ألفوا ما وجدوا عليه آباءهم، واعتزُّوا بمالهم وسلطانهم وشجاعتهم، فاستهانوا به أوَّلًا، ولكنَّهم رأوا فيه عزيمةً لا تعرف الفتور، وقلبًا لا يتسرَّب اليأس إليه؛ فوضعوا العقبات في طريقه، وسدُّوا السُّبل في وجه دعوته، وآذوه بكلِّ ما استطاعوا من أنواع الأذى، وتفنَّنوا في تعذيب المستضعفين من أتباعه، وهذا لم يزده إلَّا تمسُّكًا بدعوته، وثباتًا على إيمانه، حتَّى غلب حقُّه باطلهم، وعلت كلمته كلمتهم، فأبدله الله بأُمَّةٍ تعدُّ بمئات الملايين، وبذكرٍ سيبقى في الآخرين، وبدوام اسمه أبدَ الآبدين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضّحىٰ: ٦-٨].

سادتي! أوَّل ما دعا إليه هذا النَّبيُّ الكريم هو عبادة الله وحده، ونبذ الشُّركاء من الأوثان والأنصاب والكُهَّان والخرافات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيّنة: ٥]، فإنَّ المؤمن الحنيف هو من لا يشرك في عبادته لربِّه وثنًا، ولا يرائي فيها بشرًا، ولا يصدِّق كاهنًا ولا منجِّمًا ولا ساحرًا، عقيدتُه: لا يعلم مَن في السَّموات ومَن في الأرض ولا يعلم الغيب إلَّا الله، لا الطَّوارق بالحصى، ولا قرَّاء الكفِّ، ولو أنَّ أحدًا عَلِمَ من الغيب شيئًا لاستكثر من الخير وما مسَّه السُّوء، ولو أنَّ هذا الدَّجَّال أو السَّاحر أو عامل الطِّبِّ - كما نسمِّيه نحن - يستطيع جلب الخير لجلبه لنفسه، أو لو يقدر على دفع الضُّرِّ لما رضي بحالته الَّتي هو فيها من فقرٍ مدقعٍ ومرضٍ موجعٍ، ويكفي العاقل أنْ يرى ما يراه من سوء حالهم، وشظف عيشهم، إذ ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَإ: ١٤]، والذُّلِّ والشَّقاء.

وكما أمرنا ديننا بتوحيد الله ونبذ ما سواه، أمرنا أنْ نتعلَّم العلم؛ لأنَّ العلم نورٌ للعقل، وسعةٌ في الإدراك، وغذاءٌ للألباب، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، هي أوَّل ما جاء به محمَّدٌ ﷺ من عند ربِّه، وأوَّل ما بلَّغ به النَّاس من دينه، فاسمعوا أيُّها السَّادة، وعلِّموا أولادنا أيُّها المعلِّمون، علِّموهم القرآن الَّذي هو دستور ديننا الَّذي فضَّل العالم على الجاهل، واللَّبيب على الخامل، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، علِّموا أولادنا - أيُّها المعلِّمون - أنَّ ديننا يأمرهم أن يتفقَّهوا في الدِّين؛ ليعرفوا كيف يعبدون الله، وليعلموا ما أحلَّ لهم وما حرَّم عليهم، فإنَّ القرآن علَّمنا التَّاريخ بما قصَّه علينا من أخبار الأمم الماضية، وأمرنا أن نتعلَّمه؛ لنعرف الأسباب الَّتي دهورت الأمم وأهلكتهم، فنتجنَّبها، والأسباب الَّتي رفعت الأمم وأعزَّتها فنعمل بها، فإنَّه لا يرث الأرض إلَّا الصَّالحون: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [الرُّوم: ٤٢].

وعلَّمنا الطِّبَّ؛ لنجنِّبَ أنفسنا الأمراض والأوبئة، فلا نلقي بأيدينا إلى المهالك، فقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ﴾ [الأعراف: ٣١]، وأمرنا أنْ نتعلَّم الفلك والجغرافيا؛ لنعلم قدرة الله وعِظَمَ ملكوته فيما خلقه من عوالم وأبعاد وشموس وأقمار، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [ق: ٦-٧]، وقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وأمرنا أن نتعلَّم علم الطَّبيعة في الإنسان والحيوان؛ لنتوصَّل إلى معرفة قدرة الخالق ﷻ، كيف يُنشئ من الحبَّة شجرًا، ومن الشَّجرة ثمرًا، ومن النُّطفة بشرًا، ومن الماء مُزْنًا، ومن المزن ماءً، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٨]، ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الواقعة: ٦٣]، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الواقعة: ٦٨]، وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، وأمرنا أن نتاجر ونعمل في كسب قوتنا؛ لنحفظ ماء وجوهنا عن مذلَّة السُّؤال، فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: ١٥].

أيُّها السَّادة! إنَّ هذا الدِّين الَّذي جاء محمَّدٌ ﷺ بكتابه دلَّنا على أمورٍ كثيرةٍ عمل بها آباؤنا الأوَّلون، وخلَّقنا بأخلاق تحلَّى بها أسلافنا الصَّالحون، فكانت الحرِّيَّة ملكهم، والسُّؤدد حصنهم، والعزَّة شعارهم، والأنفة دثارهم، فأحرى بنا أن نسلك ذلك النَّهج، ونخلف ذلك السَّلف، ونجيب هذا الدَّاعي الَّذي جاء بقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المُمتحنة: ١]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴿٩١﴾ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا

تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وإنَّ أمَّةً جعلت دستور أخلاقها القرآن لجديرةٌ بأن تحتلَّ صدور النَّاس، قبل أن تحتلَّ بلادهم.

أيُّها السَّادة! منذ عشرات السِّنين ونحن نحتفل بيوم مولد المصطفى، ويقف فينا الخطباء والشُّعراء، فينصحون ويعظون ويرشدون ويحثُّون على العمل النَّافع المفيد، ونحن نسمع من هذا وذاك، فهل انتصحنا بنصح النَّاصحين، أو اهتدينا بإرشاد المرشدين؟! هذا بحثٌ لا أريد الخوض فيه، ولكنِّي أقول: إن أجاد هذا قولًا شكرناه، و إنْ أحسن إلقاءً مدحناه، وإن لم يحسنهما عِبناه.

أيُّها السَّادة! ما لهذا خُلِقنا، إنَّ محمَّدًا ﷺ يريد منَّا أن نكون أمَّة عملٍ، أمَّةً إن قالت أيَّدت قولها بالفعل، ويقول لنا كتابه الكريم: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ويقول لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصَّف: ٢]، ثمَّ يعيب عليهم الأمر الشَّائن، والقول بلا عمل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحجّ: ٧٨].

أيُّها السَّادة! اعتصموا بدينكم، وتمسَّكوا بكتاب ربِّكم، فإنَّه والله لا حياة لكم إلَّا بالرُّجوع إلى ما جاء به محمَّدٌ، ولا نجاة لكم إلَّا

بتمسُّككم بقرآن محمَّدٍ، ولا سعادة لكم إلَّا بنصرة دين محمَّدٍ، ولا حرِّيَّة لكم إلَّا بطريق دين محمَّدٍ، ولا عزَّة لكم إلَّا إذا سلكتم السَّبيل الَّذي مهَّده لكم محمَّدٌ ﷺ.

قد أطلت عليكم الحديث، وأخيرًا أقول: إنَّ محمَّدًا ﷺ جاء بالنُّور كتاب الله الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفتح لنا على ضوئه طريق المجد والهدى، والرَّخاء والغنى، وقال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النِّساء: ١٧٤-١٧٥] صدق الله العظيم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الصَّلاة

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّساء: ١٦٣].

بعث الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ إلى الخلق كافَّةً داعيًا ومبشرًا ونذيرًا، وأوحى إليه كتابًا هو حجَّته البالغة، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فُصّلَت: ٤٢]، جمع بين دفَّتيه أصول السَّعادة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة لسلامة الفرد والعائلة والمجتمع، ولم يدع من فضيلةٍ إلَّا حثَّ عليها، ولا رذيلةً إلَّا نفَّرَ منها؛ وأهاب بالإنسان أنْ يقلِّب فكره في ملكوت السَّموات والأرض، وما أودع في الكون من بديع الصُّنع، وآيات الإحكام والإتقان، وحثَّ على تعلُّم العلم وتعليمه، ومدح العلماء الَّذين يدركون من أسرار هذا الكون، فرفع من قدرهم، يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عِمران: ١٦٤]، ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عِمران: ١٩٠]، فجعل العبادة طريقًا مؤدِّيةً إلى تطهير النَّفس من السَّيِّئات والآثام، وجعلها حرَّة بين العابد والمعبود، فلا وسيط ولا زلفى كما هو موجود في الدِّيانات الأخرى من اتِّخاذ أحبارهم ورهبانهم وسطاء بينهم وبين الله؛ لأنَّ العلماء مكلَّفون بتعليم من لا يعلم، فلا يكتمون

العلم عن طالبيه، ولا يبخلون به على راغبيه، ولقد ذمَّ من بخل بعلمه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٩-١٦٠].

بُنِيَ الإسلامُ على خمسٍ: «**شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وحجِّ البيت، وصوم رمضان**»(١)، وجعل الشَّهادتين رأس هذا الأمر، وجعل عموده الصَّلاة.

وما دمنا نحتفل بذكرى ليلة الإسراء والمعراج فقد اخترت موضوع حديثي هذه اللَّيلة عن الصَّلوات الخمس؛ لأنَّ أهمَّ ما تلقَّاه نبيُّنا عليه السلام في تلك اللَّيلة المباركة هو أمر مولاه العليِّ الكريم بفريضة الصَّلوات الخمس الَّتي هي عماد الدِّين، وأوَّلُ ركنٍ من أركان الإسلام بعد الإيمان بالله ورسوله، وقد أشبع صاحب الفضيلة شيخ المعهد الدِّينيِّ - حفظه الله - الحديث في ذكرى الإسراء والمعراج، وبيَّن لكم أهمِّيَّتها دينيًّا ودنيويًّا، فلا يسعني أن أعيد الحديث فيه.

وأخبرنا رسول الله ﷺ أنَّ: «**الصَّلاة لوقتها، ومن ترك الصَّلاة فلا دِينَ لَهُ، والصَّلاةُ عِمَادُ الدِّينِ**»(٢)، فمن أقام الصَّلاة أقام الدِّين، ومن تركها هدم الدِّين، والعهد الفارق بين الكفر والإسلام هو الصَّلاة،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٨)، ومسلم، رقم: (١٦).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٢٥٥٠).

وقال ﷺ: «**إنَّ بين الرَّجل وبين الشِّرك والكفر ترك الصَّلاة**»[١] والصَّلاة - أيُّها السَّادة - معناها الدُّعاء، وإظهارُ الحاجةِ، والافتقار إلى المعبود بالقول أو الفعل، واستدرارٌ لنعمته، ورجاءٌ لدفع نقمته كما يفعل أولئك الَّذين يقفون بين أيدي الملوك ناكسي الرُّؤوس، يخرُّون أمامهم سُجَّدًا يُقبِّلون الأرض، ويلثمون الأقدام، أليس الباعث على هذا خشية العقوبة يطلبون رفعها، أو خوفًا على نعمةٍ يتوقَّعون سلبها فيلتمسون بقاء النِّعمة ويرجون دفع النَّقمة؟! ولكنَّها من عباد الله المؤمنين لربِّ العالمين غير أولئك الخاضعين للظَّلمة المتكبِّرين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل: ٦٠].

والصَّلاة - أيُّها السَّادة - امتثالٌ لأمر المعبود في أداء ما أوجبه على عبده، واستحضارٌ لمعنى الألوهيَّة في نفس المصلِّي الَّذي يجعل مخافة الله نُصبَ عينيه، فيمتنع عن مخالفة أمر الله، فتصفو نفسه، ويزكو خلقه، ويستقيم سرُّه وعلانيته، ويقوى عنده عنصر الخير على صدِّ عادية الشَّرِّ، فلا يبغي على أحدٍ في نفسه أو ماله أو عرضه، ولا يخلف وعدًا، ولا يلوي في حقِّ غيره، أو حقٍّ فرضه على نفسه أو التزم به لأحد، ولا يجزع من النَّوائب، ولا تبطره النِّعمة، ولا تخيِّب النَّعمةُ رجاءه بربِّه، ويبذل معونته ورفده[٢] لمن يراه مستحقًّا لهما، ويعظِّم الحقَّ وأهله، ويحتقر الباطل وجنده، ولا يرضى أنْ يكون عبدًا لغير الله، ولا يعتزُّ بأعداء دينه، ولا يتولَّى أهل البغي

(١) رواه مسلم، رقم: (٨٢).
(٢) الإرفاد: الإعانة والإعطاء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ١٠٨).

والعدوان، ولا يرضى لنفسه ولأمَّته الذِّلَّة والهوان، ولا يرضى أن يكون حلسًا[١] في بيوت الدَّعارة والقمار، وهذا معنى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وكانت الصَّلاة مفروضة في الأديان السَّابقة على معتنقيها، ولم أعثر على مصدر أثق به في كيفيَّة صلواتهم، وكيف كانت تؤدَّى، وإنَّما وجدتُ في القرآن قوله تعالى حكايةً عن عيسى ﷺ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، وعن زكريا ﷺ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وعن إسماعيل ﷺ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، وعن إبراهيم ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وعن مريم: ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان من يسمُّونهم الحنفاء من العرب قبل البعثة يصلُّون، ولم أعرف أيضًا عن كيفيَّة صلاتهم شيئًا، ولكنَّ الصَّلاة في الإسلام قد أظهرها الإسلام في أفضل أشكالها، فهي أقوالٌ وأفعالٌ، تُفتتح بالتَّكبير، وتُختتم بالتَّسليم، على نحو ما جاءت به السُّنَّة المتواترة في أفضل ما يُعَبِّر به العبد الخاضع الذَّليل من قنوتٍ وخشوعٍ للمعبود القادر الجليل، فمتى أقام المصلِّي صلاته على وجهها بخشوعه واطمئنانه، فاستحضر قلبه بالنِّيَّة، وكبَّر بلسانه متدبِّرًا، وقرن أقواله

(١) انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٥/ ٥٤٦).

بأفعاله ناطقًا بقلبه قبل أنْ ينطق بلسانه، متوجِّهًا بكلِّيَّته إلى ربِّه حتَّى تنتهي صلاته، شعرت نفسه بعظمة الله، واطمأنَّت لأداء ما فرضه عليه، وكان ممَّن قاموا لله قانتين، أمَّا إن خَلَتْ الصَّلاة من هذا المعنى، فجاءت بحركاتٍ وأقوالٍ مجرَّدةٍ من الخضوع والاطمئنان، فهي صلاةٌ مسلوبةُ الرُّوح مهدومةُ العماد، وقد سُئِل أحد العلماء عن الصَّلاة ما هي؟ فقال: هي عملٌ بالجوارح، وحضورٌ بالقلب، واستشعارٌ للخشية.

أمَّا إن كان ينطق ولا يفقه ما ينطق به، أو لا يلحظ بذهنه معنى ما يلفظ بلسانه، فقد صلَّى، ولكنَّه لم يقم الصَّلاة، أو كانَ من المصلِّين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٥]، وقد ورد في الأثر: «**ليس لك من صَلَاتِكَ إلَّا ما لَغَوتَ**[١]»[٢].

والصَّلاةُ - أيُّها السَّادة - تهذيبٌ للنَّفس، ولاسيَّما نفوس المتكبِّرين الَّذين يأنفونَ من مسِّ الأرض بأرجلهم، فضلًا عن جباههم، فتراهم يقفون خاضعين لله مع سائر عباد الله على اختلاف طبقاتهم الدُّنيويَّة، وهي تعوِّد النَّاس على النِّظام والمحافظة على المواعيد؛ لأنَّها نظامٌ إلهيٌّ، وتوقيتٌ إلهيٌّ، وتذكِّر الغافلين المنهمكين في أعمالهم بمولاهم، وبنعمه، وبعلمه بشؤونهم، كما أنَّها تجبر الإنسان على النَّظافة بالطُّهور، وأخذ الزِّينة عند كلِّ مسجدٍ.

---

(١) لغا: تكلَّمَ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٩/ ٤٦٣).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (١١١١).

كان السَّلف الصَّالح لا يرون شيئًا من الأعمال تركُه كفرٌ إلَّا الصَّلاة، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: ٥٩]، فقلَّ عدد المصلِّين، وندر المحافظون على أوقات الصَّلاة، وأصبح الإسلامُ دعوةً لجنسيَّةٍ معيَّنةٍ، لا لعقيدة دينيَّة، فالاستمساك بهذه الدَّعوة مدحُ الكبراء والزُّعماء والحكَّام وإنْ غفلوا عن إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام الإسلاميَّة، فمن لَغَا بمدحهم، أو ذمَّ عدوًّا لهم عُدَّ من مناصري الإسلام وإنْ كان لا يعرف ذلك الممدوح حقيقة الإسلام، وإن كان لا يعرف المادح عقيدة الممدوح، وهل يقيم أركان دينه أم لا .

ثمَّ ماذا كان من أثر ترك الصَّلاة، والتَّهاون بأمور الدِّين؟ انحلَّت الرَّوابط بين المسلمين، وحلَّت محلَّها الشُّعوبيَّة والعداء، وزال التَّكافل بالمصالح، وفُقِدَت الثِّقة بين النَّاس، وفُقِدَ الأمن بالمدن والقرى، وكَثُرَ الاعتداء بالسَّلب والنَّهب والقتل والسَّرقة، وكَثُرَ الاختلاس بالغشِّ والتَّدليس وتطفيف الكيل والميزان، وفَشَتِ الفواحش والمنكرات، وغصَّت بيوت الفجور بالنَّاس، وكَثُرَت حانات الخمور، وأصبح بيعه في المدن رسميًّا وجهارًا، وأصبح النَّاس عبيدًا للمال، فلا يبالون في جمعه ومنعه ودفعه، وقُبِضَت الأيدي عن أعمال الخير، وانبسطت في أعمال الشَّرِّ، وصدق فينا قول الله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: ٥٩].

أمَّا أنا فلست ممَّن يتشاءم بالحاضر، ولا ممَّن ييأس من رحمة الله، وإنَّ الأمم تمرض، لكنَّها لا تموت، وإنَّ دين الإسلام هو القرآن، والقرآن كتاب الله، والله قد وعد بحفظ كتابه، والله لا يخلف وعده، إنِّي متفائلٌ بأن سيأتي في القريب العاجل زمانٌ يظهر الله فيه من ينصر دينه، فيعيد للإسلام بهجته، وللمسلمين رابطتهم، ويظهر دين الحقِّ على الدِّين كلِّه، وسيتمُّ نوره، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصَّف: ٩].

أدب النُّبوَّة

في مثل هذا الوقت يعجز البليغ مهما أوتي من فصاحة لسانٍ، وقوَّة جنانٍ، أنْ يستقصي ما يتطلبه موقفه من تفصيل المعاني، وسحر الألفاظ، وسموِّ الإبداع في وصف من لم يستطع الواصفون وصفه والمادحون مدحه، وإنَّ ممَّا يحضرني الآن قول الزَّهاويِّ في قصيدةٍ ألقاها في حفلة المولد سنة (١٣٢٧هـ)(١):

قَالُوا: امْتَدِحْ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدًا   بِقَصِيْدَةٍ تَشْدُوْ بِرِفْعَةِ شَأْنِهِ
فَأَجَبْتُهُمْ: مَاذَا أَقُوْلُ بِمَدْحِ مَنْ   أَثْنَى عَلَيْهِ اللهُ فِيْ قُرْآنِهِ(٢)

وعلى كلٍّ فمن عدَّ موج البحر عدَّ طويلًا.

أيُّها السَّادة! ولِدَ محمَّدٌ ﷺ فولد معه تاريخٌ جديدٌ لعالمٍ جديدٍ، سبقه الرُّسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم؛ كنوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى، فكان كلُّ رسولٍ منهم يأتي إلى البشريَّة بالقاعدة الأساسيَّة، وهي ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النِّساء: ٣٦]، فالله وحده هو المعبود في السَّموات والأرض، لا معين له ولا ناصر، وليس بينه وبين البشر واسطةٌ، وقد يأتي النَّبيُّ بتعاليم تناسب زمان رسالته، وقد يأتي بإضافاتٍ من وحي الله إليه تكون صالحةً

(١) أي: سنة (١٩٠٩م).
(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.

لأمَّته، فيقودهم بها إلى ما يسعدهم، ولم نعرف من هذه الدِّيانات شيئًا إلَّا ما قصَّه علينا القرآن، وإنَّ هذه الدِّيانات تعظ بتحرير الإنسان من قيود الشِّرك، وتجريده من لذائذ الدُّنيا ونعيمها، وتفريغه للعبادة، حتَّى كان دور عيسى عليه السلام، ووقوع الفترة بعده، ومدَّتها نحو (٥٥٠) سنة أو أقلَّ، رجعت فيها الأمم إلى الشِّرك، وأنكرت فيها ربَّها، وانقسمت الأديان السَّماويَّة إلى أقسام متعدِّدة.

آنئذ ولد محمَّدٌ ﷺ، وبعد الأربعين من عمره بُعِثَ، فصدع[(١)] كما صدع الأنبياء من قبله بالتَّوحيد، ودعا إليه بالسِّرِّ والجهر، وباللِّين والشِّدَّة، فهدى الله به من هدى إلى الإيمان، ولكن هل كان دينُ محمَّدٍ ﷺ دينَ توحيدٍ وعبادةٍ فقط؟ الجواب: لا، إنَّ دين محمَّدٍ ﷺ دينُ توحيدٍ وعبادةٍ وحكمٍ وقيادةٍ ومعاملات، دينٌ يصحِّح معنى الحقِّ، ويتمِّمُ مكارم الأخلاق، ويحرِّر النُّفوس من ظلمات الجهالة والشُّرور والتَّوحُّل في أوحال الإثم، ويدعو إلى معاملة النَّاس بالحسنى، هو دينُ المساواة والعدالة والحرِّيَّة والقوَّة والصِّحَّة، دينُ العلم وتحرير العقل والفكر، وها هو يقول ﷺ: «**إنَّما بُعِثتُ لأتمِّمَ صالح الأخلاق**»[(٢)]، ويقول عليه السلام: «**أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي**»[(٣)]، ويقول أيضًا: «**إنَّما بُعِثتُ معلِّمًا**»[(٤)].

أيُّها السَّادة! ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟

(١) صدع بالأمر: إذا جاهر به. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢١/ ٣٢٢).
(٢) رواه أحمد: (١٤/ ٥١٣).
(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٦٤).
(٤) رواه ابن ماجه، رقم: (٢٢٩).

ﵟٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ﵞ [الأحزاب: ٢١]؛ فلنقرأ صفحةً من صفحات هذا السِّفر الكبير، سِفْرِ القدوة الحسنة، لعلَّ فيها ذكرى لمن يتذكَّر، ﵟوَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِﵞ [البَقَرَة: ٢٦٩].

ذكر البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: ﵟكُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَﵞ [آل عِمرَان: ٧٩]، «**حلماء وفقهاء**»، وفسَّر البخاريُّ قول ابن عباسٍ: كلمةُ الرَّبانيِّ؛ أي: الَّذي يُرَبِّي النَّاس بصِغَارِ العلم قبل كباره[1]، وصغار العلم هو ما وضح من مسائله، وإنَّني إذ أختار لحديثي هذه اللَّيلة المباركة موضوع التَّربية النَّبويَّة، لا لأتعمَّق في الموضوع، وإنَّما لأستشهد بآيات من كتاب الله ﷻ، الَّذي جاء به محمَّدٌ ﷺ كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، لمَّا سُئِلَت عن أخلاق النَّبيِّ ﷺ، فقالت: «**كان خُلُقُه القرآن**»[2].

أيُّها السَّادة! إنَّ الإنسانَ حيوانٌ بالطَّبع، يشارك الحيوان في إدراكه - إن كان له إدراكٌ - ويشاركه في طبائعه؛ فالحيوان يفزع ويضطرب ويغضب وينفر ويهجم ويتألَّم، والإنسان كذلك، ولكنَّ الله تعالى خلق في الإنسان شيئًا لم يخلقه في الحيوان ومَنَّ عليه به، وسمَّاه العقل، ومدحه في كثير من آيات القرآن الكريم، فقال: ﵟإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِﵞ [الرّعد: ١٩]، وقال: ﵟوَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِﵞ [البَقَرَة: ٢٦٩]، كما مدح من استعمل هذا العقل في تزكية نفسه وتربيتها، فقال ﷻ: ﵟوَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١/ ٢٤).

(٢) رواهُ أحمد، رقم: (٢٥٨١٣).

﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: ٧-١٠]، أمَّا من غلبت نفسه أو شقوته عقله فذلك حيوان لا يعقل الحقَّ، كالبهائم: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفُرقان: ٤٣-٤٤]، والأخذ بما جاء في الكتاب والسُنَّة النَّبويَّة يُربِّي العقل ويكسبه حقائق من المعارف والآداب والأخلاق، ينتفع بها الإنسان في نفسه، وفي بيته، وفي مجتمعه.

أيُّها السَّادة! كتاب الله تعالى بين أيدينا، يقرؤه من يقرؤه، ويسمعه من يسمعه، فلنلتقط الآن من جواهره، ولنقرأ من آياته ما يرشدنا إلى أدب الإنسان مع أخيه الإنسان، قال الله تعالى ينهى المؤمنين عن بذاءة اللِّسان والسَّبِّ والشَّتم: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النِّسَاء: ١٤٨]، ونهى ﷻ عن السُّخرية والتَّنابز بالألقاب وسوء الظَّنِّ والتَّجسُّس والغيبة، وغير ذلك ممَّا ينفِّر الإنسان من أخيه الإنسان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [الحُجرَات: ١١-١٢].

وحثَّنا القرآن أيضًا على مقابلة الإساءة بالإحسان، والذَّنب

بالغفران، والغضب بالحلم، والغيظ بالكظم، وإنَّ لهذه الصِّفات ثمارًا يجنيها الإنسان في الحياة، وثوابًا كبيرًا يناله في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤-٣٥]، وأرشدنا إلى حسن المعاملة بيننا، وإلى أهمِّ أسباب المودَّة والإخاء، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٦]، وعلَّم الله تعالى نبيَّه لطف معاملة اليتامى والضُّعفاء والأذلَّاء؛ ليكون قدوةً لمتَّبعيه، يأتمُّون به، وينسجون على منواله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١٥-٢١٦]، ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضُّحىٰ: ٩-١١]، وحثَّ على حسن المعاملة مع النَّاس؛ بالعفو عن مذنبهم، والصَّفح عن مسيئهم، ولا سيَّما الأقارب، فقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النُّور: ٢٢].

وعلَّمنا أدب الزِّيارة، وعدم دخول البيوت إلَّا بإذن أهلها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النُّور: ٢٧-٢٩].

وأشار إلى أكمل آداب المجالسة وأفضلها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: ١١]، ومن آداب المحادثة قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء: ٥٣]، فاللِّسان خطره عظيم، ولا نجاة من خطره إلَّا أنْ تقيِّده بقيد العقل، وتقف به عند حدود الآداب الَّتي أدَّبك بها الشَّرع، وعلَّمك إيَّاها في محادثاتك ومخاطباتك.

فمن أدب الإسلام في المحادثة ألَّا يطلق المسلم لسانه إلَّا فيما ينفعه، وينفع المجتمع الإسلاميَّ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يكفَّه عن كلِّ ما يخشى غائلته[1] في العاجل وفي الآجل، ذلك بأنْ يعقله إلَّا عن حقٍّ يوضِّحه أو باطلٍ يدحضه، أو كلمةٍ ينشرها، أو نعمةٍ يذكرها، وألَّا يتكلَّم إلَّا بقدر الحاجة، وألَّا يغالب أحدًا على كلامه، وأنْ يجتنب في محادثته ثلاثة أشياء، هي أعظم الأشياء خطرًا في القول: الكذب والغيبة والنَّميمة، وألَّا يرفع صوته على من هو أكبر منه سنًّا أو قدرًا: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل: ١٠٥].

أيُّها السَّادة! هذا قطرة من بحر أدب القرآن الَّذي أدَّب به الله

---

(١) غائلة: أي: أمر داهٍ منكرٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١٣١).

سبحانه نبيَّه محمَّدًا ﷺ، وجعله أسوةً حسنةً لأصحابه وتابعيهم، ومن اهتدى بهديهم، واقتدى بسنَّتهم؛ فليس بدعًا إذن أنْ يكون ﷺ خير أسوةٍ لأصحابه، في مواقف البرِّ والإحسان، والبطولة والتَّضحية، وأنْ يكون المثل الأعلى لهم في الفضائل ومكارم الأخلاق، وأعظم قدوةٍ للمربِّين في التَّربية والتَّأديب وحسن الرِّعاية للأطفال، يحدب(١) على صغارهم، ويترفَّق في توجيههم وإرشادهم، ويتلطَّف في محادثتهم وإيناسهم، ويفسح لهم المجال في اللَّعب المباح، ولا يُضيِّق عليهم، ويعطيهم ثقته وحُسنَ تقديره، ويندبهم للمهمَّات؛ تشجيعًا لهم، وإذكاءً لمواهبهم، أمَّا الشُّبَّان وذوو الكفاءات الممتازة فقد كانوا يلقون من تكريمه وتقديره ما يكون أقوى حافزٍ لهم على الإمعان في التَّفوُّق والتَّبريز، وكان يمنح الكهول والشُّيوخ من عطفه وعنايته ما يكون خيرَ عونٍ لهم على بلوغ الدَّرجة الَّتي ترشِّحهم لها مؤهِّلاتهم.

أيُّها السَّادة! هذا عرضٌ صغيرٌ للتَّربية النَّبويَّة، وهذه بعض آثار تربيته المملوءة بالكنوز الثَّمينة، إنَّها التَّربية الَّتي جعلت من المؤمنين السَّابقين الأوَّلين أبطالًا يستعذبون الموت، ويلاقون أشدَّ العذاب في سبيل العقيدة الحقَّة، ويخوضون من أجلها أهوال الحروب والأخطار، إنَّها التَّربية الَّتي آخت بين المهاجرين والأنصار مؤاخاةً صارت مضرب المثل في الحبِّ والوفاء والإيثار، وجعلت المسلمين الأوَّلين يتسابقون في بذل أعزِّ ما يملكون من ثروات ونفوس،

---

(١) يحدب: يعطف. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/ ٢٤٧).

وجعلت المسلمات السَّابقات يتبارين في تقديم أغلى ما لديهنَّ من حُليٍّ وزينةٍ، ويضحِّين بِفِلْذَاتِ أكبادهنَّ وهم راضيات مغتبطات، إنَّها التَّربية الَّتي تمخَّضت عن أولئك الخلفاء العظام الَّذين بَسَطوا لواء الإسلام على أكثر أقطار المعمورة، ونشروا العدل والحرِّيَّة والمساواة في أرجاء الدُّنيا بظلِّ العدل والحرِّيَّة والمساواة، وأنجبت من الأعلام والعباقرة النَّابهين تلك النُّخبة الممتازة الَّتي وضعت أقوى الأسس والدَّعائم لأعظم تشريع، وأنضر حضارةٍ عرفها التَّاريخ، ولن يعرف مثلها، إنَّها التَّربية الَّتي أخرجت رجالًا من سكَّان الصَّحراء ملوكًا على العروش، قوَّادًا في الميادين، دهاةً في السِّياسة، روَّادًا في حقول التَّعليم والعلم، هداةً في الإرشاد.

أيُّها السَّادة! لعلِّي أطلت، وفيما ذكَّرت الكفاية، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]، ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣-١٩٤].

الإسراء والمعراج

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

أيُّها السَّادة! لقد ابتلينا في هذه العصور - عصور الزُّور والإثم - بقومٍ يدَّعون الكمال، فيعارضون كلَّ ما جاءت به الدِّيانات ممَّا خالف عقلهم المحدود، أو عملهم المادِّيَّ، وقد يرى كثيرٌ من النَّاس كمال أولئك النَّاس وحسن منطقهم، فيصدِّقونهم مدَّعين أنَّ لهم من التَّجديد ما يسوِّغ لهم هذا التَّصديق، ولكن فاتهم أنَّ هؤلاء المتفيهقين(١) المتحايلين على الدِّين إنَّما برزوا في المحسوسات من علوم الطَّبيعة؛ ولكن هناك علمٌ آخر، اسمه: ما وراء الطَّبيعة، وأولئك هم أجهل به، فلمَّا لم يمكِّنهم أو لم يستطيعوا أنْ يكذِّبوا على علم الطَّبيعة كذَّبوا على ما وراءها، فكانوا كالمدلِّس لا ضمير له ولا منطق إلَّا فيما يعلم، ولعلَّه يريد أن يؤيِّد حجَّته بعلمٍ، فيخلط الحقَّ بالباطل،

(١) رجلٌ متفيهقٌ: مُتَفَتِّحٌ بالبذخ متَّسعٌ. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٣١٥).

والصَّحيح بالعاطل؛ فيخون العلم، ويغشَّ النَّاس جهلًا بالدِّين، وبغضًا فيه، وتحاملًا عليه بثرثرةٍ فارغةٍ ليس فيها ظلٌّ من برهان، ولا أثارةٌ[1] من علم، هؤلاء وأشباههم أنكروا أشياء تمسُّ الدِّين؛ لكي يتوصَّلوا إلى هدمه، ومن ذلك إرسال الرُّسل، ونزول الوحي، والإسراء والمعراج، وما أشبه ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحجّ: ٨-٩]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحجّ: ٣-٤].

مع أنَّ العلم في عصرنا الحاضر يقرُّ بمثل هذه الأشياء، وقد أقرَّ العلم باتِّصال الأثير بالأشياء البعيدة؛ فهذا المذياع واللَّاسلكيُّ يسمعنا الأصوات البعيدة منَّا، والتِّلفاز أمكننا أنْ نرى الأشياء البعيدة أيضًا، وربَّما يمكِّننا أيضًا أن نرى ما هو أبعد منها، ومثل ذلك رجلٌ احتجَّ على أحد العلماء، فقال له: كيف تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم يوم القيامة، وليس لها لسانٌ؟ فمرَّ بأسطوانةٍ تغنِّي، فقال: الَّذي أنطق هذه في الدُّنيا يُنطِقُ هذه في الآخرة، وأشار إلى يده.

وفي هذه الحرب استطاع أحد العلماء المخترعين أنْ يُسلِّط تيَّارًا كهربائيًّا من مدينة سدني بأستراليا على سفينةٍ تجاريَّةٍ كانت راسيةً في ميناء البندقيَّة في إيطاليا، وليس ذلك بغريبٍ على مخترعات العهد

(١) أثارة من علم: بقيَّة من علم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٠/ ١٨).

الحاضر، ليس بالغريب أنْ يرى رجلٌ من سدني سفينةً في البندقيَّة، وليس بالغريب أن نسمع صوت أمريكا ونحن في الكويت، وليس بالغريب أن يرى أهل لندن مَنْ في محطَّة باريس الإذاعيَّة، وليس بالغريب أن يسافر الإنسان من القاهرة إلى لندن في ثلاث ساعات، وثلث السَّاعة في الطَّائرة النَّفَّاثة، وإنَّما من الغريب أن يُسرى برسول الله ﷺ من مكَّة إلى بيت المقدس! ألا، تبَّت أيدي المعرضين والمكابرين والملحدين.

فيا أيُّها السَّادة! قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، آمنت بالله وبرسوله، وأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وسيأتي - أيُّها السَّادة - يومٌ يؤيِّد فيه العلم الحديث وعلوم الاختراع وعلوم الطَّبيعة وما وراء الطَّبيعة هذا الحادث بأكثر ممَّا ذكرته، وربَّما يوجد فيكم من يستطيع أن يؤيِّد حادث الإسراء والمعراج بدليلٍ من علم الطَّبيعة أقوى ممَّا ذكرته؛ لأنِّي جاهلٌ بهذا العلم، وما ذكرته من أدلَّةٍ هو شيءٌ اطَّلعت عليه، فخُيِّلَ إلي أنَّني قد توصَّلت إلى دليلٍ أستطيع أنْ أُحبط به مزاعم المبطلين ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

أيُّها السَّادة! اختلف العلماء في الإسراء والمعراج؛ هل كانا بالرُّوح أم الجسد؟ وهل كان الإسراء وحده بالرُّوح أم بالجسد؟ وهل كان المعراج وحده بالرُّوح أم بالجسد؟ وهذا الخلاف بين الصَّحابة،

وحتَّى بين العلماء من صدر الإسلام إلى وقتنا الحاضر، يقول بعض العلماء: إنَّ الإسراء كان بالرُّوح، ويستشهد بالآية الكريمة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ لأنَّها في سورة الإسراء، ولكنَّ المهمَّ في ذلك - أيُّها السَّادة - ألَّا يكذب الإنسان وألَّا يَشُكَّ في حادثٍ وقع لرسول الله ﷺ، وأيَّده الكتاب الكريم، وأفرد له سورةً سمَّاها سورة الإسراء، وسواء كانت رؤيا بالرُّوح أم بالجسد فإنَّها معجزةٌ يجب علينا تصديقها، ولنذكر لكم طرفًا من هذه القصَّة: في السَّنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين كان رسول الله ﷺ في بيت أمِّ هانئ، وهي هند ابنة أبي طالب رضي الله عنها، فقالت هند: «**إنَّ رسول الله ﷺ، نام عندي تلك اللَّيلة في بيتي، فصلَّى العشاء الآخرة، ثمَّ نام وغفا، فلمَّا كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله، فلمَّا صلَّى الصُّبح وصلَّينا معه، قال: يا أمَّ هانئ لقد صلَّيت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثمَّ جئت بيت المقدس فصلَّيت فيه، ثمَّ قد صلَّيت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين، فقلت: يا نبيَّ الله لا تحدِّث بها النَّاس فيكذِّبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدِّثنَّهم**»(١).

ولم يكن العرب من أهل مكَّة وغيرهم ليستطيعوا إدراك معنى ما جاء به رسول الله ﷺ؛ لذلك ما لبث أن حدَّثهم حديث إسرائه حتَّى انقسموا بين مُصدِّقٍ - وهم قليلون - ومكذِّبٍ، وحتَّى ساور أتباعه بعض الرَّيب فيما يقول، وقال كثيرون: هذا والله مصداق الأمر

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، للعسقلاني (٨/ ٣٣٢).

البيِّن، والله إنَّ العير لتُطرَد شهرًا من مكَّة إلى الشَّام مدبرةً وشهرًا مقبلةً، أيذهب محمَّدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكَّة؟ فارتدَّ كثيرٌ ممَّن أسلم، وذهب بعض من أخذتهم الرَّيبة في الأمر إلى أبي بكر، وحدَّثوه بحديث صاحبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أقال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: «**لئن قال ذلك فقد صدق**»، قالوا: أتصدِّقه أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟ قال: «**نعم، إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ أو روحةٍ**» **فلذلك سُمِّي أبا بكر الصِّدِّيق**(١).

أيُّها السَّادة! ثلاثة أيَّام في حياة النَّبيِّ ﷺ كانت أعظم أيَّامه، وحياةُ النَّبيِّ ممتلئةٌ بالأيَّام العظيمة، ومن هذه الأيَّام صباح ليلة الإسراء، ويوم الهجرة، ويوم الخندق، وهناك تتجلَّى العظمة بأعظم مظاهرها، وهناك ينتصر الحقُّ على الباطل، وهناك يقول الحقُّ قولته، ويرجع الباطل خاسئًا مدحورًا، ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

أمَّا اليومُ الأوَّل فصباح ليلة الإسراء، وها هو يقف وحده أمام جموع المستهزئين من المشركين، والَّذين في قلوبهم مرضٌ، والمرتابين ممَّن أسلموا، فيضحك به أولئك، ويقف هؤلاء موقف الرَّيبة والهزء، فيقف وقفة الرَّجل العظيم، لا يأبه لهذا أو ذاك؛ لأنَّه علم يقينًا أنَّ الله معه.

وأمَّا اليوم الثَّاني فيوم الهجرة، أصبح في الغار مع صاحبه ليس معهما إلَّا عون الله، وقد بذلت قريش الثَّروة والغنى لمن يأتي به أو

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٤٤٠٧).

يدلُّ عليه، ويرى هو وصاحبه الطَّلبة يجولون حول الغار، فيقول له صاحبه: «**لو أنَّ أحدهم نَظَرَ إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه**»، فيقول له رسول الله ﷺ: «**يا أَبَا بَكرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[1]، ويخلِّد القرآن هذا الموقف: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

أمَّا اليوم الثَّالث فيوم الخندق، أو يوم الأحزاب، يوم جاءت قريش بخيلها ورجلها وحلفائها، تريد المدينة، والقضاء على كلمة الحقِّ فيها، وفي ذلك الوقت يتَّفق اليهود والمنافقون السَّاكنون مع المسلمين في المدينة، فيجتمع العدوُّ داخلًا وخارجًا ضدَّ المسلمين، فيقول الله ﷻ في وصف حالة المسلمين يومئذ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

أيُّها السَّادة! إنَّ في تاريخ رسول الله عبرةً، وفي أيَّامه عظمةً، وإنَّنا نجتمع اليوم في هذا المكان المقدَّس للذِّكر، فإنَّ الذِّكرى تنفع المتذكِّر الَّذي يؤمن بالله ورسوله ويتَّخذ من الرَّسولِ أسوةً حسنةً،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٦٦٣)، ومسلم، رقم: (٢٣٨١).

حتَّى إذا اطمأنَّت قلوبنا لهذه الذِّكرى واهتزَّت هزَّة إجلالٍ لصاحبها الَّذي نحبُّه حبَّ طاعةٍ واقتداءٍ، رجعنا إلى أنفسنا، ثمَّ نظرنا إلى أخطائنا في بيوتنا وعوائدنا وأخلاقنا وتربية أولادنا في أفرادنا ومجموعتنا، فصَحَّحناها.

أيُّها السَّادة! إنَّها ظلماتٌ كثيرةٌ من أمامنا وخلفنا، وعن أيماننا وشمائلنا، وإنَّه نورٌ واحدٌ هو نورُ القرآنِ، فهل نستطيع أنْ نبدِّد تلك الظُّلمات بالنُّور، فنسير في النُّور على صراطٍ مستقيمٍ؟ تالله لا سعادةَ ولا هدايةَ بغير نور القرآن، وتذكَّروا قول نبيِّكم عليه السلام حين قال: «**تَرَكتُ فِيكُمْ شَيئَينِ لَنْ تَضِلُّوا بَعدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُم بِهِمَا: كتاب الله وسُنَّتي**»(١).

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٩).

رحمة الله

بزغ هلال ربيع الأنور، فعمَّت أنواره العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلى أقصاه، وتهلَّلت وجوههم بشرًا بمقدم هذا الشَّهر الكريم، فهو شهرٌ شرَّفه الله تعالى بميلاد المرشد الأعظم، والنَّبيِّ الأكرم، سيِّد الكائنات، عليه أشرف الصَّلوات.

إنَّ اليوم الثَّاني عشر من هذا الشَّهر يومٌ عظيمٌ، يومٌ يجب على المسلمين أن يتَّخذوه عيدًا عظيمًا، يحتفلون به كاحتفالهم في سائر الأعياد، يكثرون فيه الشُّكر لربِّهم ﷻ الَّذي أنقذهم من ظلمة الشِّرك إلى نور التَّوحيد، هو يومٌ يجب على المسلمين - ولا سيَّما العرب منهم - أن يعقدوا فيه الاجتماعات لإظهار الأفراح سرورًا وابتهاجًا بمولد من أنقذهم من شرور الانشقاق إلى خيرات الاتِّفاق، وأخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والعرفان، ومن رذائل الأخلاق إلى مكارمها، ومن عبادة الأحجار والأشجار والنُّجوم إلى عبادة بارئها وخالقها.

إنَّنا نحتفل هذا اليوم بميلاد الرَّسول ﷺ، ويشاركنا في ذلك العالم الإسلاميُّ بأسره، ويُقدَّر عدد المسلمين بأربعمئة مليون مسلم، يشاركوننا هذا اليوم بذكرى مولد المصلح الأعظم والمنقذ الأكبر الَّذي ما عرف العالمُ ولن يعرف خيرًا منه، ونحتفل هذا اليوم أيضًا بذكرى مَن أرسله الله إلى العالم بشيرًا ونذيرًا؛ لينقذه من الكفر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحقِّ، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن المهانة والذُّلِّ إلى أوج الرِّفعة والكمال.

وُلِدَ ﷺ في مثل فجر هذه اللَّيلة، ويوم ولادته ظهرت خوارق عدَّة، من ذلك أنَّ أمَّه رأت ليلة مولده نورًا، أضاءت له قصورُ الشَّام، يقول رسول الله ﷺ: «**وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**»(١)، وذلك دليلٌ على أنَّ مُلك أمَّته سيمتدُّ، وستظهر كلمة دينه على تلك القصور، وقد ظهرت كلمة لا إله إلَّا الله محمَّدٌ رسولُ الله على الشَّام.

أجل، إنَّ كلمة الإخلاص لمَّا حفظها أهلها، وعملوا بواجباتها وأركانها وشروطها، وأخلصوا الحبَّ والطَّاعة لمن جاء بها، ظهروا على كلِّ من ناوأهم، وانتصروا على كلِّ من عاداهم، فكانت كلمتهم العليا، وكلمة معاديهم السُّفلى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأذَّن المؤذِّن، فقال: الله أكبر، لا إله إلَّا الله، في قلب أوروبَّة، وأواسط الصِّين في الشَّرق الأقصى، وفي معظم إفريقيَّة، قبل أنْ يمرَّ على الإسلام قرنٌ كاملٌ؛ ذلك لأنَّ الدِّين الإسلاميَّ سهلٌ في تكاليفه، صالحٌ بطبيعته لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، لا يكابره إلَّا معاندٌ، ولا يجحد فضله وصلاحيَّته إلَّا عدوٌّ حسودٌ؛ ولأنَّه دينُ أخوَّةٍ ومساواةٍ، لا فرق عنده بين تابعٍ ومتبوعٍ، ورئيسٍ ومرؤوسٍ.

ونذكر هنا كلمة جعفر بن أبي طالب لملك الحبشة عندما هاجر إلى بلاد الحبشة بأمر النَّبيِّ ﷺ، لمَّا اضطهدته قريش مع جماعةٍ من الصَّحابة، فبَعَثَت قريش إلى النَّجاشيِّ رجلين بهدايا مستطرفة من متاع

(١) رواه أحمد، رقم: (١٧١٦٣).

مكَّة، تطلب إليه جعفرًا ومَن معَه، وقالا له: «أيُّها الملك، إنَّهُ قد صَبَا إلى بلدك منَّا غِلمَانٌ سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ولا أَنت، فأرسل النَّجاشيُّ إليهم وسألهم: ما هذا الدِّينُ الَّذي فارقتم فيه قَومَكُم ولم تَدخلوا في ديني ولا في دين أحدٍ من هذه الأُمَمِ؟ فقال له جعفرُ بنُ أبي طالبٍ: أيُّها الملك، كنَّا قومًا أهل جاهليَّةٍ، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكلُ القويُّ مِنَّا الضَّعيف، فكنَّا على ذلك، حتَّى بعث الله إلينا رسولًا منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى؛ لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كُنَّا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرَّحم، وحُسنِ الجوار، والكفِّ عن المحارم والدِّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزُّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبدَ اللهَ وحدهُ لا نشركُ به شيئًا، وأمرنا بالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام، قال: فعدَّد عليه أمورَ الإسلام فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحدهُ، فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحلَلنَا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبُونا وفتَنُونا عن ديننا؛ ليرُدُّونا إلى عبادة الأوثان، ونستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا وظلمونا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واختَرنَاكَ على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألَّا نُظلَمَ عندك أيُّها الملك، فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأهُ عليَّ. فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١] فبكى - والله - النَّجاشيُّ حتَّى أخْضَلَ

لحيَتَهُ، وبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حتَّى أَخْضَلُوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا والَّذي جاء به موسى ليخرج من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا فوالله لا أسلِّمهم إليكم أبدًا»(١)، ثمَّ أسلم.

أيُّها السَّادة! إنِّي لا أرى دينًا يحثُّ على الرَّحمة كدين الإسلام، فإنَّه يقول: «**صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»(٢)، ولا شكَّ أنَّ محمَّدًا الَّذي جاء بهذا الدِّين هو أرحم أهل الأرض؛ إذ إنَّ قريشًا لمَّا أكثرت أذاه، وأضرَّت بالمستضعفين من أصحابه، طلب أصحابه منه أن يدعو عليهم، فدعا لهم، وقال: «**اللَّهمَّ اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون**»(٣)، ولمَّا طلب أصحابه أن يدعو على ثقيف، قالوا: يا رسولَ الله أَخْرَقَتْنَا نبالُ ثَقِيفٍ، فَادْعُ اللهَ عليهم، فقال ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا**»(٤).

لكنَّنا اليوم ضدَّ هذا، فقد انتُزِعَت الرَّحمةُ من القلوب، وحلَّت محلَّها القساوةُ والغلظةُ وحبُّ الذَّات والكبرياء، بعد أن كان الضَّعيف والقويُّ عند النَّبيِّ سواءً، أصبحنا لا نعرف إلَّا القويَّ، أمَّا الضَّعيف فإنَّه محتقرٌ مهانٌ مأكولٌ حقُّه مجحودٌ فضله، فأمر ﷺ بالرِّفق، وحثَّ عليه، ونهى عن العنف، وهذا عكس ما يحدث اليوم؛ إذ إنَّ أحكامنا لا تأتي إلَّا بالعسف على الضُّعفاء منَّا.

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٢٤٩٨).
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٧٤٥٢).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (١٣٧٥).
(٤) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٤٢) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

ولم يكن ﷺ «يجري بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، بل يعفو ويصفح»(١)؛ امتثالًا لأمر ربِّه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، ولكنَّا اليوم أشغلنا قضاتنا ومحاكمنا على أقلِّ سيِّئةٍ تبدرُ من صديقٍ أو قريبٍ أو جارٍ؛ حبًّا في الانتقام وإشباعًا له.

وكان ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكره، ويزور الضُّعفاء من المسلمين؛ تلطفًا بهم وإيناسًا لهم، ويعود مرضاهم شريفهم ووضيعهم، ويشهد جنائزهم، على عكس ما نحن عليه الآن؛ فإنَّ الشَّريف أو الغنيَّ لا يتنازل لزيارة ضعيفٍ أو فقيرٍ؛ لأنَّه يرى نفسه أرفع جاهًا، وأجلَّ قدرًا منه، وقد يموت الفقير فتبقى جنازته لا يشيِّعها أحد، وربما شيَّعها أنفار لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، وربَّما عرَّضوا أنفسهم لخطرٍ أو مرضٍ، بينما ترى جنازة الغنيِّ وذي الجاه يتهافت النَّاس إلى تشييعها زُرَافَاتٍ(٢) ووحدانًا.

وكان ﷺ يردف العاجز والفقير وأمثالهما على ظهر دابَّته؛ تواضعًا لهم، ويحثُّ على معونتهم، والرِّفق بهم، فإنَّه عليه السلام لم يهزُّه طيشٌ ولم تبطره الدُّنيا، وقد جاءت إليه بحذافيرها وكنوزها طائعةً صاغرةً، فُتِحَت له البلاد، ودَانَت له الرِّقاب، ومع ذلك فإنَّه ﷺ ما ضرب خادمًا، ولا انتهر(٣) أَمَةً، بل كان يأكل مع الفقير، ويخدم أهله

(١) رواه الترمذي، رقم: (٢٠١٦)، وقال: هذا حديث حسنٌ صحيح.

(٢) الزَّرَافَةُ: العَشَرَةُ منهم، وفي بعض النُّسخ: العشيرةُ منهم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٣٨٢).

(٣) نهرته وانتهرته: إذا استقبلته بكلامٍ تزجره عن خبرٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٣١٦).

وضيفه، ويقضي حاجة الأرملة والعاجز، ويمسح رأس اليتيم رحمةً به، ويبادر إلى عمل خاصَّته بنفسه، ويقول ﷺ: «**آكُلُ كما يأكل العبدُ، وأجلسُ كما يجلس العبدُ؛ فإنَّما أنا عبدٌ**»(١).

وكأنِّي بالمسلمين اليوم إذا تملَّك أحدهم الزَّهيد من حطام الدُّنيا الفانية شمخ بأنفه تكبُّرًا، وتعاظم على من هو دونه، وربَّما أبى ردَّ السَّلام أيضًا، وأنكر على من لم يعظِّمه ويبجِّله، ورأى في نفسه أنَّه أكبر النَّاس وأعظمهم، وما هو إلَّا وعاءٌ خالٍ من كلِّ شيءٍ إلَّا الأوساخ، أوَّله قذرٌ وآخره قذرٌ، ويحمل في جوفه وعروقه القذر، وأشكال هؤلاء كثيرون، فلنترك ذكرهم؛ ترفُّعًا عنهم، ولقد قال في حقِّهم من نحن بذكره ﷺ: «**يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذَّر في صور الرِّجال، يغشاهم الذُّلُّ من كلِّ مكانٍ، يساقون إلى سجنٍ في جهنَّم، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النَّار، طينة الخبال**»(٢)، وقال أيضًا عليه السلام حاثًّا على التَّواضع: «**تبسُّمكَ في وجه أخيكَ صدقةٌ**»(٣).

فهذا رسول الله ﷺ الَّذي فضَّله الله على العالمين ما أبطرته الدُّنيا وما تكبَّر، وهذا صاحبه وخليفته أبو بكر الَّذي سار على سُنَّته واتَّبع هَديَه، وخليفته عمر الَّذي دوَّخ الرُّوم والفرس أعظم دول أهل الأرض كان يتوسَّد القبور، وينقل على رأسه التُّراب والطِّين؛ لترميم مسجد النَّبيِّ ﷺ استصغارًا لنفسه واحتقارًا، مع أنَّه هو العظيم في

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٥٥٧٢).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٣٢٣٦).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٨٣٤٢).

نفوس أصحابه، حتَّى قال له عبد الرَّحمن بن عوف وهو أقرب الصَّحابة إليه: «**والله إنِّي أهابك يا أبا حفص، فقال: الحمد لله الَّذي جعلني مهابًا**»(١)، ومُذ ولي الخلافة ما زال يكرِّر قوله: «**ويلٌ لعمر إن لم يغفر له**»(٢).

وما أحسن قول أبي محمَّد التَّيميِّ:

تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيْعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعُ(٣)

وقول الحكيم: لا يتكبَّر إلَّا ذليلٌ، ولا يتواضع إلَّا عظيمٌ، وما قيل في المثل المعروف: رحم الله رجلًا عرف قدر نفسه فوقف عنده.

ونهى ﷺ عن احتقار العبد والأَمَة؛ تطييبًا لخاطرهما، وتلطُّفًا بهما، وحثَّ على الإحسانِ إليهما، فقال: «**إخوانكم خَوَلُكُم**(٤)**، جعلهمُ اللهُ تحتَ أيديكُم**»(٥)، فقد شدَّ عُرَى الأخوَّة بين عموم المسلمين على اختلاف أممهم وأجناسهم؛ لتكون منهم أمَّةً قويَّةً، تعتزُّ باسم الإسلام، فقال: «**المسلم أخو المسلم**»(٦)، وقال: «**المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضًا**»(٧)، و«**مثل المؤمنين في**

(١) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.
(٢) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤٤/ ٤٤٤).
(٣) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٣/ ٢٤٦).
(٤) الخَوَلُ: حشمُ الرجل وأتباعه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٨٨).
(٥) رواه البخاري، رقم: (٣٠).
(٦) رواه البخاري، رقم: (٢٤٤٢)، ومسلم، رقم: (٢٥٦٤).
(٧) رواه البخاري، رقم: (٤٨١).

توادِّهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى»(١)، وبيَّن أنَّ الفضل ليس بالعشيرة والجاه والمال، بل باتِّباع هذا الدِّين، فقال: «**لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أحمرَ إلَّا بالتَّقوى**»(٢).

أيُّها السَّادة! إذا احتفلنا بميلاد محمَّدٍ ﷺ فلا لنزيده بذكرنا فضلًا وشرفًا، أو لنرفع من قدره ﷺ، وما عسانا نقول فيمن قال في حقِّه القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ولكن نحتفل بمولده صلوات الله عليه؛ لنجعل لنا من أخلاقه الكريمة قدوةً حسنةً، يسير عليها من ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]، ولقد كان في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لأصحابه وتابعيهم، ولمن خاف عذاب الله وارتجى ثوابه، وفَّقنا الله للاقتداء بسُنَّته، آمين.

عَمَّ هَذَا الْكَوْنَ أَنْوَارُ الْهَنَا يَوْمَ مِيْلَادِ إِمَامِ الْمُرْسَلِيْن

اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه أحمد، رقم: (١٨٣٨٠).

(٢) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

مساواةُ الإسلام

لا شعوبيَّة ولا تفاضل

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أُحيِّيك يا ربيع، وأُحيِّي فيك نورك الوهَّاج، وتحيِّيك الملايين من النَّاس بالإعجاب والإكبار، وتحيِّيك الملايين من القلوب بالعزَّة والفخار، فمرحبًا بك وأهلًا، وأعادك الله على الأمَّة الإسلاميَّة بما يرفع شأنها ويعيد مجدها، ويحيي مواتها، ويعلي مكانتها، وبعد:

سادتي! إنَّنا نُحيي ليلة المولد العظيمة في شأنها، الكبيرة في مقامها؛ لكونها ليلةً ولد فيها سيِّدُ الكائنات، ومخلِّص الإنسانيَّة من الجهالات والضَّلالات، ومطهِّر البشريَّة من الوثنيَّة والخرافات، فقد كانت الجاهليَّة ضاربةً أطنابها[1] على الأرض، مخيِّمةً على القلوب والعقول والأفكار، فتنبَّأ المتنبِّئون بأن قد آن الأوان ليظهر نبيٌّ يغيِّر وجه الأرض، ويقيم الدُّنيا ويقعدها، وإذا بذلك اليوم قد حلَّ، ويولد النَّبيُّ الكريم الَّذي أحاطت به رحمةُ الله، فكان رسوله إلى النَّاس جميعًا، وكان رحمةً للعالمين، وُلِدَ ﷺ من أبوين كريمين؛ وحديث ولادته معلومٌ لدى كلِّ مسلمٍ، ولا حاجة لتكرار المعلوم.

---

(١) الطنب: عرق الشجر، وهي عروق تتشعب من أرومتها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٢٧٩).

لا شعوبيَّة ولا تفاضل في الإسلام

سادتي! يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرَات: ١٣].

وقد قرَّر الإسلام أنَّ النَّاس كلَّهم بنو أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، فهم أشقَّاء يجري في عروقهم دم الأخوَّة الإنسانيَّة «**عربهم وعجمهم، أسودهم وأحمرهم، لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلَّا بالتَّقوى**»(١)، والعمل الصَّالح، والنَّفع العامِّ للوطن الإسلاميِّ والمجتمع الإنسانيِّ.

بهذه الكلمة حطَّم الإسلام أغلالًا من الباطل، الَّتي غلَّت بها الأغراض الظَّالمة أيدي النَّاس، ومنعتها من التَّعاون الخيريِّ المؤسَّس على العدل والإنصاف، فقد قَسَمَت الأغراض الظَّالمة النَّاس قسمةً لا سند لها من عقل ولا فطرة ولا واقع، وفضَّلوا بعضهم على بعضٍ بالوهم والغشْم والظُّلم، وجعلوا النَّاس أجناسًا، وفرَّقوا بينهم بفوارق الأنانيَّة والأثَرة والتَّعالي الكاذب وظُلم الإنسان لأخيه الإنسان، كما نراه الآن في الهند الَّتي قسمت النَّاس أقسامًا: أعلاها البراهمة، وأدناها المنبوذون، ينفصل بعضها عن بعض في كلِّ شيءٍ من مرافق الحياة؛ في الطَّعام والشَّراب والزَّواج وغير ذلك، وليس لواحدٍ من هذه الطَّبقات أن يتطلَّع إلى غير طبقته، ولم يسلم العرب في جاهليَّتهم من التَّعصُّب والتَّفاخر بالأحساب والأنساب،

(١) سبق تخريجه.

حتَّى جاء الإسلام، فدكَّ بقوَّته تلك الحواجز الوهميَّة، وأبطل تلك الفروق الجاهليَّة، فنادى بصريح كتابه على لسان رسول الله ﷺ: يا أيُّها النَّاس، يا بني آدم - ولم يقل: يا أيُّها الأشراف، أو يا أيُّها الأوباش -: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فأنتم أشقَّاء الأبوَّة لآدم، والأمومة لحواء، وخلقناكم شعوبًا وقبائل؛ لتعارفوا لا لتتفاخروا وتتباهوا، وإنَّما الكرامة والفوز عند الله يوم الحساب والجزاء والمكافأة، وهي للأتقى.

وأخبرنا رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ لا ينظُرُ إلى صورِكُم وأموالِكُم، ولكن ينظُرُ إلى قلوبكُم وأعمالِكُم**»[(١)]، والقلوب هي مراكز التَّقوى، والله جلَّ جلاله لا يسألنا عن أحسابنا، ولا عن أنسابنا يوم القيامة، وإنَّما نُحاسب على التَّقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، فإنَّها أعمالنا يحصيها لنا.

سادتي! كلُّنا في الانتساب إلى أبٍ واحدٍ بمنزلةٍ واحدةٍ في النَّقص والبعد من غاية التَّمام، وإنَّ أحدنا مهما نظر إلى كماله فإنَّ التَّقيَّ يؤمن بوجود رجلٍ أتقى منه، ولكن هناك ميزانٌ واحدٌ هو التَّقوى، والوازن هو الله الَّذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غَافر: ١٩]، يروي الإمام أحمد في «مُسنده» أنَّ رجلًا قام إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال يا رسول الله: من خيرُ النَّاس؟ فقال ﷺ: «**أتقاهُم للرَّبِّ، وأوصلُهُم للرَّحم، وآمرُهُم بالمعروفِ، وأنهاهُم عن المُنكَرِ**»[(٢)]،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٦٤).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، رقم: (٧٥٧٨).

ويروي الإمام أحمد أيضًا عن أبي ذرٍّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «**انظر فإنَّك لستَ بخيرٍ من أحمر ولا أسود إلَّا أن تفضُلَهُ بتقْوى**»(١)، وإنَّ أوَّل من فضَّل نفسه على غيره إبليس، فلعنه الله؛ إذ قال إبليس: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

أيُّها السَّادة! جاءت سنَّة النَّبيِّ ﷺ ومبدؤها: «**لا فضلَ لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لأحمرَ على أسود إلَّا بالتَّقوى**»(٢)، وقد اشمأزَّت عصبيَّة قريش من هذا المبدأ، وعابت على النَّبيِّ ﷺ التفاف الموالي من السَّابقين الأوَّلين حوله؛ كبلال وصهيب وخبَّاب، فطلبوا إليه أن يطردهم عنه؛ ليجالسوه بتعصُّبهم لحسبهم ونسبهم ومالهم، وقد مال النَّبيُّ ﷺ إلى شيءٍ من ذلك؛ طمعًا في جلبهم إلى الخير، ولكنَّ الله ﷻ أبى للنَّبيِّ ذلك، فأنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٢٨٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

ومدح رسول الله ﷺ أبا ذرٍّ الغفاريَّ، فقال: «**ما تُقِلُّ الغَبرَاءُ، ولا تُظِلُّ الخَضرَاءُ**[(١)] **مِن ذِي لَهجَةٍ أَصدَقَ مِن أَبِي ذَرٍّ**»[(٢)]، وقد سمع منه يومًا أنَّه عيَّر أحد الموالي بقوله: يا ابن السَّوداء، فقال النَّبيُّ: «**يا أبا ذرٍّ، إنَّك امرؤٌ فيك جاهليَّةٌ**»، فقال أبو ذرٍّ: هذه من كِبَرِ السِّنِّ؟ فقال ﷺ: «**نعم، هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده، فليطعمه ممَّا يأكل، وليلبسه ممَّا يلبس، ولا يكلِّفه من العمل ما يغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فليُعِنهُ عليه**»، وأبو ذرٍّ رضي الله عنه هو الَّذي روى الحديث عن رسول الله ﷺ[(٣)].

أيُّها السَّادة! روى التِّرمذيُّ عن أبي حاتم المزنيِّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد**»، قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فأنكحوه**» ثلاث مرات[(٤)].

والآن - أيُّها السَّادة - وقد رأينا تلك الشَّجرة الخبيثة الَّتي اجتثَّها الإسلام قد عادت، وتعهَّدها من أحيا العادات الجاهليَّة، فأنبتت جذورها، وعاد بنا إلى تلك الجاهليَّة الأولى.

أيُّها السَّادة! يقول الإمام مالك رضي الله عنه: «**إنَّه لا يصلح آخر هذه**

---

(١) الغبراء: الأرض، والخضراء: السماء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٤٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم: (٥١٤٨).

(٣) رواه البخاري، رقم: (٦٠٥٠)، ومسلم، رقم: (١٦٦١).

(٤) رواه الترمذي، رقم: (١٠٨٥) وقال: هذا حديث حسن غريب.

الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها»[١]، وإنَّ لنا في كثيرٍ من رجال ديننا وذوي النَّبتة الصَّالحة من إخواننا وبني وطننا وفي كثيرٍ من أبنائنا وإخواننا أملًا في أن يعيدوا إحياء ما اندثر من مجد ديننا، وإنَّ لنا رجاءً في رحمةِ ربِّنا، أن يستدير الزَّمان لنا، فيعود للمسلمين عزُّهم بالتَّمسُّك بدينهم، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥).

المساجد والإسلام

المساجد والدِّين الإسلاميُّ جسدٌ وروحٌ لا يقوم أحدهما إلَّا بالآخر، فالمساجد لا يقيمها إلَّا الدِّين، والدِّين علامته المساجد، ومبدأ الدِّين الإسلاميِّ وحدةٌ وهدفٌ وأخوَّةٌ، والوحدة لا توطَّد بغير اجتماع، وقد كان الرَّسول الكريم ﷺ يجتمع بأصحابه بعد البعثة وقبل الهجرة في دار الأرقم ابن أبي الأرقم، حتَّى إذا لم يَرَ في مكَّة جوًّا صالحًا لإتمام رسالته استأذنَ ربَّه في الهجرة إلى المدينة، فأَذِنَ له، ولمَّا وصل إلى قباء كان أوَّل عملٍ يقوم به هو بناء أوَّل مسجدٍ أُسِّسَ على التَّقوى، وخطبَ فيه في أوَّل اجتماع أُقِيم في الإسلام، وكان هو وأصحابه يجتمعونَ فيه معظم أوقات نهارهم، وبعض أوقات ليلهم، ولمَّا دخل المدينة كان أوَّل ما شرع فيه هو بناء مسجده المعروف وسط المدينة قريبًا من النَّاس، واشترى أرضه من يتيمَين، وساعد العاملين بنقل التُّراب والحجارة، وارتجز معهم بقوله: «**اللَّهمَّ لا عيشَ إلَّا عيشُ الآخرهْ، فاغفر للأنصارِ والمهاجرهْ**»[(١)]، إنَّه لم يَبْنِ مستشفًى، ولم يفتتح ناديًا، ولم يُشيِّد مدرسةً، ولم يُقِم ملجأً، بل افتتح مسجدًا تُقَام فيه الصَّلوات الخمس في أوقاتها، ثمَّ يكون مركزًا يجتمع فيه النَّبيُّ ﷺ مع أصحابه للتَّحدُّث والذِّكر والتَّشاور فيما يفيد دينهم ويرفع مكانتهم، ولتلقِّي الدُّروس العلميَّة والعمليَّة من النَّبيِّ ﷺ

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٧٩٦) ومسلم، رقم: (١٨٠٥).

الَّذي يعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويزكِّيهم بما يُسدي إليهم من نصائح؛ ليعلِّمهم الثَّبات والصَّبر، ويُرشدهم إلى الإيمان الحقِّ القائم بتوحيد الله، وبوحدة المبدأ، وكان هذا المسجد أيضًا مجلسًا عسكريًّا؛ فكم من غزوةٍ غزاها الرَّسول ﷺ انطلاقًا من المسجد! وكم من سريَّةٍ عقد لواءها فيه! وكان محكمةً لفضِّ الخصومات وحَسْمِ الدَّعاوى وحلِّ المشكلات، وقال ﷺ قولته المأثورة فيه: **«إنَّكم تختصمون، وإنَّما أنا بشرٌ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحنَ بحجَّته من بعضٍ، فإنَّما أقضي بينكم على نحو ما أسمع منكم، فمن قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئًا، فلا يأخذه، فإنَّما أقطعُ لهُ قطعةً من نار جهنَّم يأتي بها يوم القيامة»**(١).

وكان المسجدُ مستشفًى تُنصب فيه خيامٌ لجرحى الحرب، وقد ذكر التَّاريخ أنَّ سعد بن معاذ الأنصاريَّ رضي الله عنه كان من جرحى غزوة الخندق، فنُقِلَ من المسجد إلى منازل بني قريظة ليقضي حكمه فيهم لمَّا انتدبه النَّبيُّ حكمًا بينهم ﷺ(٢)، وكان المسجدُ ملجأً للعجزة والضُّعفاء ولمن لا مأوى لهم، وقد أمر الرَّسول ﷺ ببناء جناحٍ لهم في الجهة الشَّماليَّة الغربيَّة من المسجد؛ ليكون مأوًى لهم.

وإنَّ عمارة المساجد في البلاد دليلٌ على تمسُّك أهلها حكومةً وشعبًا بدينهم، وحرصهم على إقامة شعائره فيهم، فهي البيوت الَّتي أذن الله أنْ تُرفع ويذكر فيها اسمه؛ ولأنَّها هي الميدان الأوَّل لإقامة

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير،رقم: (٩٠٦).
(٢) انظر: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، للقتيبي المصري (١/ ٢٩٩).

الصَّلاة الَّتي من أقامها فقد أقام دينه، ومن تركها فقد ضيَّعه، وإنَّ الدِّين الإسلاميَّ دينٌ روحيٌّ وصوريٌّ، وكما أنَّ الصَّلاة عماد الدِّين، فالمساجد أيضًا عماده، وإذا كانت الصَّلاة عمادَه الرُّوحيَّ، فالمساجد عماده الصُّوريُّ؛ فالصَّلاة عماد الدِّين في الإنسان، والمساجد عماد الدِّين في الأوطان، يقول تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

ويحكي لنا التَّاريخ أنَّ الرَّسول ﷺ أرسل الوليد بن عقبة ابن أبي معيط عاملًا لجباية زكاة بني المصطلق ليأخذها من أغنيائهم، ويردَّها على فقرائهم، ولمَّا استبطأ بنو المصطلقِ عامل رسول الله جمعوا زكاتهم، وأرسلوها مع وفدٍ منهم إلى المدينة ليدفعَها لرسول الله ويستفهم منه عن سبب تأخُّر العامل؛ خشية أن يكون الرَّسول ﷺ قد غضب عليهم، أو أنَّه نزل فيهم شيءٌ من القرآن الكريم.

ورأى الوليد الوفد قادمًا إلى المدينة، فداخله سوء الظَّنِّ في أنَّ بني المصطلق عصوا وتجهَّزوا، فرجع بهذا الخبر إلى رسول الله ﷺ، غير أنَّ الرَّسول ﷺ لم يغضب لهذا النَّبأ، لما يعلم من حسن إسلام بني المصطلق، بل أمر خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يستعدَّ للغزو، وفي تلك السَّاعة نزل الوحي على رسول الله ﷺ بآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحُجرَات: ٦]، وأمر خالدًا أن يسير ليلًا، ويَكْمُن(١) نهارًا حتَّى يفاجئ القوم في منازلهم عند الفجر، وإنْ سمع منهم أذانًا أظهر لهم

(١) كمن كمونًا: اختفى. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٣٥٩).

سلامًا وإلَّا قاتلهم، وقد عمل خالد بوصيَّة رسول الله ﷺ، وسمع منهم الأذان، وعلم أنَّ القوم على إيمانٍ كاملٍ وطاعةٍ لله وللرَّسول(١).

تسعى الحكومات اليوم في إقامة المدارس للصِّبيان والمعاهد للشُّبَّان، وكانت المساجد مركزًا يتعلَّم فيه الصَّغير والكبير من الرِّجال والنِّساء، والمساجد في الإسلام تُعلِّم العلم الصَّحيح، ولا تتقاضى على التَّعليم أجرًا، فأدَّت خدمتها للأمَّة الإسلاميَّة، فخرجت منها طائفةٌ رفعت ذكر الإسلام والمسلمين، منهم: عمر بن الخطَّاب، وسعد بن أبي وقَّاص، وجمهور الصَّحابة العظماء، وعمر بن عبد العزيز، وصلاح الدِّين، وغيرهم، تخرَّج هؤلاء وألوفٌ غيرهم في المساجد بأرواحٍ زكيَّة، وهممٍ عليَّةٍ، وعقولٍ نيِّرةٍ، وشجاعةٍ نادرةٍ، ونيَّةٍ حسنةٍ؛ ففتحوا البلاد، وقضوا على الطُّغاة، ونشروا العدل، وسعوا في الإصلاح، فبذلوا الخير، وأنقذوا من الشَّرِّ، وكانوا كيدًا على الظُّلم والظَّالمين.

فالمساجد بيوت الله الَّتي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبِّحونه فيها بالغدوِّ والآصال، فهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النُّور: ٣٧]، فهي مراكز للصَّلاة في أوقات العبادة، وهي مراكز تعليميَّة تُثقِّف العقول، وتهيِّئ الرِّجال في سائر الأوقات.

(١) انظر: تفسير القرآن، للسمعاني (٥/ ٢١٧).

من ليس له ماضٍ لا يكون له مستقبل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحَجّ: ٧٧-٧٨].

أيُّها السَّادة! دعا الله عباده المؤمنين أنْ يركعوا له ويسجدوا، ويعبدوه حقَّ العبادة، ويفعلوا الخير، ثمَّ دعاهم ليجاهدوا في سبيل الله جهادًا حقًّا خالصًا لوجهه، لا يخشَون فيه لومةَ لائم، ولا بطش باغٍ غاشمٍ، ولا خوف لئيم ظالم؛ لأنَّ الله تعبَّدَهم بهذا الدِّين، ولم يجعل عليهم فيه ضيقًا، بل وسَّع عليهم فيه، وجعل لكلِّ ذنبٍ مخلَصًا، ولكلِّ ضيقٍ سعةً، وقال لعباده: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وجعله صراطًا مستقيمًا، ودينًا قيِّمًا، وسمَّانا المسلِمينَ، كما سمَّى ملَّة إبراهيم أبي العرب، سمَّانا المسلمِينَ بالكتب القديمة، وبالكتاب الَّذي نزَّله على نبيِّنا محمَّد ﷺ.

وجعل الحياة في هذا الدِّين حياة الأمَّة، والفرد يذوب في مجموعة الأمَّة، فيكون عضوًا فيها؛ يتألَّم لألمها، ويشقى لشقائها، ويسعد لسعادتها، فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

﴿تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال الرَّسول ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى**»(١)، ولِمَا لهذه الوحدة من قوَّة فلا بُدَّ أنْ تكون لها شوكة وسلطان؛ لهذا قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفسَّر بعضهم شهداء بمعنى: سادة(٢).

ولمَّا كان العدو - وما يزال - يتربَّص بنا الدَّوائر أمرنا الله أنْ نكون حذرين، نحسب للعدو أكثر ممَّا يحسبه لنا، ونعدُّ له من القوَّة ما نستطيع، فقال لنا جلَّ جلاله: ﴿خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّساء: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد علَّمنا ﷺ كيف نأخذ الحذر، وكيف نعدُّ القوَّة، وكيف نغتنم الفرصة، وإنَّ في أعماله وغزواته وتعليمه وإرشاده لعماله وقوَّاد جيوشه خيرَ درسٍ لمن تدبَّر واتَّعظ.

أيُّها السَّادة! لقد جُبِلَت طينة العدوِّ من الغشِّ والخديعة والكذب والخيانة والغدر، وقد عرفنا فيه هذه الصِّفات من معاملته لنا؛ لأنَّ تاريخه معنا أسود، فعرفنا ما أدركناه، وعلمنا ما لم ندركه.

ولقد ساعدناه في حربه مع الألمان وحلفائهم سنة (١٩١٤م)، وكان قد اشترط لنا حرِّيَّتنا وخلاصنا من عدوِّه وعدوِّنا، فلمَّا انتصر بسلاحنا ودمائنا ورجالنا قلب لنا ظهر المِجَنِّ، فجرَّدنا من عتادنا،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٥٨٦).

(٢) لم أقف عليه ولم أجده فيما توفر لي من مصادر.

واستعبدنا، واستعمر بلادنا، وأكل أموالنا، ثمَّ أعاد الكرَّة، ووعدنا في الحرب الثَّانية سنة (١٩٣٩م)، وانتصرنا له بعد أن ملأ أكفَّنا بالمواعيد، ولكنَّه أخلف وعده، وهذا دأبه في إخلاف الوعد.

فلقد ساعد العرب فرنسا وإنكلترا بالمال والرِّجال ضدَّ أعدائهما، فلمَّا انتصروا وطالبهم القوم بالوفاء قتلوا أبناء العراق بجيوش الأردن، وأعطوا فلسطين لليهود، وذبحوا أبناء الشَّام بجنودهم في تونس، ثمَّ جوَّعوا أبناء تونس وقتلوهم، وقتلوا أهل مرَّاكش، وطردوا ملكهم، وأهلكوا أبناء الجزائر، وتمركزت جنودهم في طرابلس؛ لتكون شوكةً قويَّةً في ظهر مصر إذا طالبت بحرِّيَّتها، وقتلوا أبناء مصر وجنودها بالسِّلاح الفاسد الَّذي باعوه لهم في حرب فلسطين.

أيُّها الإخوة! ماذا يريد بنا عدوُّ الله؟ كلُّنا يعرف أنَّه لا يريد بنا خيرًا، بل يريدنا أن نشقى ويسعد على حسابنا، ونجوع ويشبع من خيراتنا، ونفتقر ويثرى بأموالنا، وإنَّه يريد أجسادنا درعًا لجنوده، يتَّقي بها سلاح أعدائه، إنَّه يريد خيرات بلادنا؛ ليحارب بها أعداءه، ويجهِّز بها مصانعه، ويرفِّه بها مواطنيه، ويتقوَّى بها، ويقاتلنا إذا طالبناه بحقوقنا، إنَّ الغرب بغير الشَّرق معدمٌ جائعٌ، يدلُّ على ذلك سوءُ حالته اليوم بعد أن سُدَّت الطُّرق في وجهه، وامتنع عليه نفط العرب وأقوات الهند، إنَّ العدو يريد أعراضنا، وقد حدثت قصصٌ في مصر والعراق إبَّان الحرب الثَّانية هلك بسببها كثيرٌ من الرِّجال والنِّساء من وحشيَّة جنود العدوِّ وسوء أخلاقهم.

إنَّ العدوَّ يريد أنْ ننسى ماضينا، وكلُّ أمَّةٍ تنسى ماضيها لا يكون

لها مستقبلٌ، وإنَّ ماضينا مجيدٌ عظيمٌ، وإنَّنا إذا نسينا ماضينا تجرَّدنا من إيماننا وخسرنا الثِّقة بأنفسنا، والمؤمن يجب ألَّا ينسى؛ لأنَّ الله نهى المؤمنين عن النِّسيان بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر: ١٩]، ويقول مخبرًا عن قومٍ نسوا إيمانهم وماضيهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤]، وإنَّنا نخشى - أيُّها الإخوان - أن تكون عاقبتنا مثل أولئك، فلقد دخل العدوُّ بلادنا، وفتح كنوزها، وألهانا بما يسَّر لنا من أسباب العيش، ورفاهية الحياة، وهذا ما فَعَلَهُ في الهند وفلسطين، حتَّى إذا فترت الهمم وتعوَّد النَّاس التَّرف وفرحوا باليسر ونسوا ذكر الله وفضَّلوا المادَّة على الدِّين وجرَّدوا الحياة من الدِّين، أخذهم بغتةً؛ فتخلَّى عنهم، وسلَّط عدوَّهم عليهم؛ لأنَّهم تخلَّوا عن ماضيهم، وتركوا دينهم.

إنَّ العدوَّ يريد أن يجرِّدنا من ديننا وقوميَّتنا؛ لئلَّا يبقى لحماةِ بيضة الإسلام والعرب ذكرٌ، والرَّسول ﷺ يقول: «**إذا ذَلَّت العربُ ذَلَّ الإسلامُ**»[1]، فمتى قُضِي على عزَّة العروبة قُضِيَ على دين الإسلام، والإسلام هو العدوُّ الأكبر لهم؛ لأنَّ الإسلام يريد للبشريَّة الخير، وهو ما لا يريده العدوُّ، يريدنا الإسلام أن نحيا، ونسود، ونعتزَّ به، ونحافظ على المجد، ونذكر الماضي، ونكون خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، ونأمر النَّاس بالمعروف، وندلَّهم على سُبُل الصَّلاح

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٣٩١٩).

والسَّلام، وننهى النَّاس عن المنكر، ونقيهم مواطن الشَّرِّ والهلاك.

إنَّ العدوَّ يريدنا خاضعِينَ خانعِينَ لا ننطق بالحقِّ أمام الباطل، ويريدُنا أن نبجِّلَه ونمدحه في الوقت الَّذي يؤذينا ويسيء إلينا، أمَّا إذا أحسنَّا إلى أنفسنا، أو دعونا إلى ديننا، أو طالبنا بحقوقنا، أو دافعنا عن شرفنا وقوميَّتنا وعرضنا وبلادنا وحرِّيَّتنا، جعل تلك إساءةً كبرى في حقِّه منا؛ فجهَّز لنا أساطيله، وجهَّزَ جيوشه، وحشد حشوده، وأشعل نيرانه حربًا علينا، يحصد بها ألوف الأرواح، وهذا ما فَعَلَهُ في كلِّ قطرٍ طالب أهله باستقلالهم، وهذا ما يفعلُهُ الآن في الجزائر، فإذا هدأت الحال، واستقرَّ له الأمر، جعل تلك حسنةً منه علينا، وأوجب علينا فيها شكره، وألزمنا بغرم ما صرفه في تلك الحملة الَّتي قضى فيها على الأموال والأنفس، مع أنَّه لم يصرف عليها إلَّا من مالنا، ومن خيرات بلادنا.

إنَّ العدوَّ يريد أن يجرَّ بنا عجلة التَّاريخ إلى الوراء، فيفرِّقنا كما فرَّقنا من قبل، ويقسِّمنا إلى دويلات متناحرة، ثمَّ يُلهِب نار العداء فيما بينها، ويطمع بعضها في بعضٍ، حتَّى إذا أكل قويُّها ضعيفها، وتعب ذلك القويُّ، أكله لقمةً سائغةً لا نَصَب فيها ولا تعب، ولكنَّ الله يأبى ذلك، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التّوبَة: ٣٢]، إنَّ الله يأبى أن يهلك المسلمون إذا اتَّبعوا أوامر الإسلام، وانتهوا عمَّا نهى عنه الإسلام، وأطاعه المسلمون فيما يريده لهم، إنَّ الله يريد أن نعتبر بالماضي ليكون لنا درسًا في المستقبل، إنَّ الله يقول لنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ

أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، إنَّ الله يريد أن نهتدي بهدي القرآن، وننتهي عمَّا نهى عنه القرآن، حتَّى لا يكون القرآن حجَّةً علينا عند اللِّقاء، إنَّ الله يريد أن نتَّحد قلبًا وقالبًا؛ لأنَّ ذلك من تمام إيماننا، وشرطٌ في إسلامنا، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، إنَّ الله يريدنا حذرين مستعدِّين متيقِّظين؛ لئلَّا يكون للعدوِّ مطمعٌ، ولا يجد له مدخلًا، فإذا أعددنا له العدَّة خاف، وإذا تيقَّظنا فشل، وإذا أخذنا الحذر نكص على عقبه(١)، إنَّ الله يأبى أن نركن(٢) إلى الظَّالمين، ونستمع لأقوال المرجفين(٣)، وننضمَّ إلى النَّفعيِّينَ المغرضِينَ والمنافقين المادِّيِّين، فيقول لنا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، إنَّ الله يريد منَّا أن نغتنم الفرص قبل فواتها؛ لأنَّ الفرص إذا فاتت ولم تُغتَنم تكون غصصًا، والنَّبيُّ ﷺ أمرنا باغتنام الفرص، وأوصى بها، وفي حديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمس**»(٤) دليلٌ على ذلك، وإنَّ في غنى العرب وفراغهم

---

(١) نكص على عقبيه: رجع عمَّا كان عليه من خير. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨/ ١٩٠).

(٢) ركن إلى الشيء: مال إليه وسكن. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ١٨٥).

(٣) المرجفون: الذين يولِّدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطرابٌ في الناس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٣/ ٣٢٥).

(٤) رواه النسائي، رقم: (١١٨٣٢).

وصحوتهم وتجاوبهم لبعضهم وتألُّمهم لآلام إخوانهم لخير غنيمةٍ لهم، يخيفون بها أعداءهم، ويقهرون بها خصومهم.

أيُّها السَّادة! إنَّ الأمم تمرض ولا تموت، وإنَّ لنا ماضيًا مجيدًا، سُدنا فيه الأمم، ونشرنا فيه العدل بعد موت، ونصرنا فيه الحقَّ بعد خذلان، وأزهقنا فيه الباطل بعد انتصار، ونصرنا فيه الضُّعفاء، وأرجعنا حقوقهم، وهدينا الضَّالَّ إلى السَّبيل المستقيمة، وعلَّمنا الجاهل، وأمَّنَّا الخائف، ومهَّدنا الطَّريق، فيجب علينا أن نذكر هذا الماضي؛ ليكون لنا عبرةً في مستقبلنا.

إنَّ عصر النُّبوَّة من ماضينا، وعصر النُّبوَّة هو عصر القرآن، وهو العصر الَّذي أُنزِلَ فيه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، وأُنزِلَ فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، فالقرآن ينزل على النَّبيِّ ﷺ وهو بين أصحابه الَّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعلِّمون النَّاس الذِّكر، وإنَّ عصر الخلفاء الرَّاشدين من ماضينا، وهو عصرٌ مجيدٌ، فيه ولَّت قوى البغي والعدوان أمام قوى الإسلام، وانخذلت أمام جنوده جنود الفرس والرُّومان، وفتح المسلمون فيه مصر والشَّام وبلاد الفرس، وإنَّ عصر بني أميَّة من ماضينا، وهو العصر الَّذي انتصر فيه الإسلام على أغلب المعمور من الأرض، فكان لكلمة: الله أكبر جلجلةٌ يسمعها من كان بين الصِّين والمحيط الأطلسيِّ، وإنَّ عصر الرَّشيد من ماضينا، وهو العصر الَّذي خاطب فيه الرَّشيد الغمام يقول لها: أُمطُري حيث شئتِ فسوف يأتيني خراجك. وسمع في هذا العصرِ

المعتصمُ صوتَ الهاشميَّة الَّتي استنجدت به عندما دهمها جنود البغي والعدوان، فصرخت بأعلى صوتها: وامعتصماه! فأوطأ بسَنَابِكِ[١] خيله أرض العدو وهو يقول: «**لبَّيك لبَّيك**»، حتَّى أنقذها وأنقذ مثلها آلافًا مؤلَّفة ممَّن حاق بهم الظُّلم، ونزل فيهم العدوان[٢].

إخواني لا تنسوا الماضي، فإنَّ أمَّةً تنسى ماضيها ليس لها مستقبلٌ، وإنَّ في ماضينا لعبرةً للمعتبرين، وإنَّ فيه لذكرى للذَّاكرين.

(١) سنابك: جمع سنبك، وهو طرف الحافر وجانباه من قُدمٍ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ٢١٣).

(٢) انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٦/ ٣٨).

أفضل التِّجارات

(قيلت في مسجد الحمد أيَّام الاعتداء الثُّلاثيِّ على بورسعيد)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٠-١٣].

أَيُّها السَّادة المسلمون! ربُّكم يناديكم إلى خيرٍ ورضوان كبير، وتجارةٍ ذات أرباح لا يُحَدُّ حسابها، ولا يُقاسُ مقدارُها، تلك هي تجارة الجهاد في سبيل الله بالمال أو بالنَّفس، أَعطِ ما شِئت من درهمك أو دينارك، من زادِك أو لباسِك، من حليِّك أو متاعِك، من قليلك أو كثيرك، أو جاهد بالنَّفس واذهب إلى المعركة مقاتلًا أو مساعدًا، طبيبًا أو مسعفًا، خادمًا أو سائقًا، كيفما شِئت.

هذه هي التِّجارة لا تجارة الأسواق، هذه هي التِّجارة لا التَّوريد والتَّصدير، هذه هي التِّجارة التي تَدرُّ الأرباح، أرباح الحرِّيَّة والعزَّة

والنَّصر، أرباحًا رُبَّما لا تجنيها في حياتك، وإنَّما يتحقَّق ذلك لجيلٍ يأتي بعدك ينعمُ فيها بحياته، ويعتزُّ بمكانته، وتدرُّ أرباحه في حياته، وينجو المجاهد من عذابٍ أليمٍ في الآخرة، وينعم بثواب الله ورضاه؛ لأنَّهُ جاهد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله.

وسبيلُ الله واسعةٌ لا تحدُّها حدودٌ، ولا تقوم بها شروحٌ، ولا تحيط بها تفصيلات، فهي إنقاذٌ للبشريَّة من الطُّغيانِ والظُّلم والاستبداد، وتخليصٌ للوطن من الكفَرةِ المستعمرِينَ الباغين، وإنقاذٌ للدِّين من الملحدِينَ المارقين(١)، الَّذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]، وأَن يضلُّوا عن طريق الحقِّ بما يظنُّونه تبشيرًا وهداية.

سبيلُ الله إنقاذٌ للأُمَّة من المستَهزئين الإباحيِّينَ الَّذين يهتكون مكارِمَ الأخلاق في أسواقِ العَهْر والدَّعارة، وسبيلُ الله فيهِ سعادةُ الوطنِ والمواطنين، وفي الجهاد في سبيل الله نجاةٌ من الذِّلَّة، وفيه أيضًا قهرُ العَدْوِّ المستعمر، والظَّالم المستعبد، وفيه الفوز بالنَّعيم المقيم، وفيه النَّجاةُ من عذابٍ أَليم، ويُقال للمجاهِد في سبيلِ الله إذا قَدِمَ على الله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وفي الجهاد نصرٌ يحبُّه النَّاسُ، وهو نصرٌ من الله وفتحٌ قريب، تلك هي البشرى العظيمة الَّتي بَشَّرَ الله بها عباده من فوقِ سبعِ سماوات، فقالَ لهم: ﴿وَأُخْرَىٰ

---

(١) المروق: الخروج من شيءٍ من غير مدخله، والمارقة: الذين مرقوا من الدين لغُلُوِّهم فيه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/ ٣٤١).

﴿تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصَّف: ١٣].

أيُّها السَّادة! إنَّ الله بعث محمَّدًا ﷺ ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢]، فكوَّن منهم أُمَّةً كانَتْ خَيْر أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ، أذابها في بوتقةِ[1] الإيمان، وسبكها[2] سَبِيكَةً واحدةً مُطهَّرةً من خُبْث العادات الجاهليَّة والعصبيَّات القَبليَّة والجنسيَّة والإقليميَّة، «**فالمسلم أخو المسلم**»[3] أينما كان وكيفما كان، و«**لا فَضْلَ لأحدٍ على أحد إلَّا بالتَّقْوى**»[4]، فالتَّقْوى ميزانُ الكرامة، وبقدرها يكون الفضل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَـرَة: ١٤٣].

ثُمَّ انتقلَ هذا النَّبيُّ الكريم ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى بعدَ أَنْ بلَّغَ رسالةَ رَبِّهِ، وأدَّى الأمانةَ، وكمَّل هذا الدِّين، وكان آخر ما أُوحي إليه ألَّا يبقى دينان في جزيرة العرب، وخصَّ هذه الوصيَّة بجزيرة العرب، وبقيت هذه الأمَّة تحكمُ بالعدلِ، وتنصرُ الحقَّ، وتُزهِقُ الباطِل، وتأمرُ بالمعروفِ، وتنهى عن المنكر، وتُعِينُ على النَّوائِب، وتنشرُ

(١) بوتقة: وعاءٌ على شكل قدح تصهر فيه الفِلِزَّات وغيرها من المواد، أو تسخن إلى درجات عالية من الحرارة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٢٦٠).

(٢) سبكه: أذابه وأفرغه في القالب، من الذَّهب والفضة وغيرهما. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٧/ ١٩٣).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

الفَضائِل، وقد طهرت جزيرة العرب من كُلِّ دينٍ إلَّا الإسلام، وكان إمام المسلمين وخليفتهم في المدينة، ثُمَّ انتقل إلى دمشق، ثُمَّ بغداد، وامتدَّ رواق الإسلام على جزيرة العرب كُلِّها والشَّام والعراق والأناضول وبلاد فارس والهند والأفغان، حتَّى دخل الصِّين، ثُمَّ شمال إفريقيَّة، وجنوب أوروبَّة، إلى أن عَمَّ نوره أغلبَ البلادِ المعمورة حينها، فإذا أَذَّنَ المؤَذِّنُ في العاصمةِ ردَّد صدى هذا الأذان مَنْ في المشرِق ومَنْ في المغرِب بِخُشوعٍ وإخلاص، لكن الأمدَ طال عليهم فقست قلوبهم، وتأثَّروا بدُنْيا المادَّة لا دُنْيا الحياة، دنيا الطَّمع لا دُنْيا الحرِّيَّة، دُنْيا التَّكاثُر بالمالِ والجاهِ وحُبِّ الذَّات لا دُنْيا البَذْل والإيثار على النَّفسِ لمصلحة المجموع، لكنَّهم انصرفوا إلى تلك الأمور وتركوا ما كان عليه سَلفُهم الصَّالح.

أجل! ورَبِّ مُحمَّدٍ لقد ضَيَّع الخلف تراث ذلك السَّلَف، فتركوا الدِّين واشتغلوا بالدُّنيا، فأضاعوا الدِّين ولمْ يحفظوا الدُّنيا ثُمَّ استغفلهم عَدوَّهم، فغزاهُم في عُقْر دارهم بجيشٍ جَرَّارٍ من المنافقين الَّذين ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، و﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، فتقرَّبوا من ذوي الحكم والسِّيادة والجاه بالدَّسِّ[١] وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، وفتنوهم بزخارف الحياة، ثمَّ جاءت جنود الصَّليبيِّين بعددها وعتادها، فغزوهم بعد أن فرَّقوهم بحروبٍ دامية، أهلكت الأموال والأنفس،

(١) الدَّس: دَسُّكَ شيئًا تحت شيء وهو الإخفاء. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٨٢).

وأكلت الأخضر واليابس، ولكنَّها لم تقضِ على العزَّة الإسلاميَّة، ولم تقتل الإباءَ العربيَّ، ولم تستعبد العربَ والمسلمين، وقد أيس العدوُّ يومئذ أن يستعبدنا؛ فسعى في تفْرقَتِنا إلى دولٍ وحكوماتٍ صغيرة، وبَذر[1] فيما بينها العِداء، ثُمَّ أَطمَع القويَّ بالضَّعيف، حتَّى أضعَفَتْهُم الحرب الَّتي أُهدِرَتْ فيها الدِّماء، وذهبت فيها الأموال، ونَفِدَت فيها القوى، ثُمَّ بعدها عدا علينا العدوُّ بخيله وسُفُنِهِ ورِجالِه من البرِّ والبحر، واستعمرنا وقضى على شوكتنا، وصرنا عبيدًا بعد أن كُنَّا سادة، وذهبت من قلوبنا هيبة الدِّين الحَقِّ الَّذي كنَّا نحيا به، وهذا ما كان يسعى إليه العدوُّ منذُ البداية؛ لأنَّه يريدُ أَنْ يُجرِّدَنا من دينٍ يأمرنا بالجهاد والسَّعي وراء القوَّة والثَّروة، ويأمرنا بطلبِ العلمِ، والمحافظةِ على النَّفسِ، ويأمر بالصِّناعة والزِّراعة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأمر بالعدل في الحكم، والأمن في البلاد، وقد نجح العدوُّ، وخسرنا تلك المميِّزات الإسلاميَّة، وأصبحت لا أثر لها بيننا، اللَّهمَّ إلَّا أن تكون فصولًا تُقْرَأ في كتب الفقه، وتبقى سرًّا بين التِّلميذ ومعلِّمه، أمَّا أنْ يُعملَ بها فلا، بقينا بلا جهادٍ ولا قتالٍ، إلَّا أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضًا، بقينا بلا صناعةٍ ولا عملٍ، إلَّا ما يعمله الفلَّاحون للإقطاعيِّين الَّذين يُصَدِّرون مواردَ أراضيهم لأسيادِهم المستعمرين، بقينا جُهَّالًا بِلا علمٍ، ضعافًا بلا قوَّة، مرضى بلا صحَّةٍ، خائفين بلا أمنٍ، جياعًا من غير طعامٍ، رعيَّةً بعد أن كُنَّا رُعاةً، وهكذا نجح العدوُّ في القضاءِ على ديننا؛ دين الدَّولة ودين

(١) بذرت البذر: زرعته، وبذر الشيء بذرًا: فرَّقه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٥٠).

الحياة، ولكنَّه - والحمد لله - لم يستطع القضاء على عقيدتنا ولا على عروبتنا وأخلاقنا، فسعى إلى ذلك بأن فتح في البلاد مدارس سمَّاها مدارس تبشيريَّة، وقال لنا: إنَّه فتحها لكي يُعَلِّم أبناءنا ما يحفظُ مستقبلهم، ويُعلِّي مَركَزهم، وينفعهم في حياتهم، والحقيقة أنَّه فتحها ليقضي على العقيدة الإسلاميَّة والأخلاق العربيَّة في قلوب النَّاشِئة، وجعلَ من المعلِّمين في هذه المدارس وفودَ سوءٍ تسعى لإفساد الأخلاق والقلوب، وهتك العروبة، وتبغيض أبنائِها لها؛ ما وَلَّدَ بين أبناءِ العرب ردَّ فِعلٍ، فاستيقظَ الوعيُ القوميُّ وعيُ العروبة وارتباط الشُّعوب العربيَّة ببعضها، ولكنَّه استيقظ ضعيفًا بعد طولِ سُباتٍ، وقَدْ أحسَّ المستعمر بذلك، فخافَ وسعى للقضاءِ عليه في مأواه بشتَّى الوسائل، ومنها هذه الحدود الإقليميَّة بين الحكومات الوهميَّة، ذات الأسماءِ المصطنعة الَّتي فرَّق بها الوطن العربيَّ، وسمَّاها بأسماءِ بلادها، فجعل من الشَّامِ أربع دولٍ: هي الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان، وجعل السُّوريَّ في الأردن غريبًا، واللُّبنانيَّ في سوريا غريبًا، وفرَّق اليمن إلى عدن وتِهامة وحضرموت واليمن، وقسَّم حضرموت وحدها إلى تسع مشيخات سمَّاها المحميَّات التِّسع، ووُصِفَ مَنْ دخلَ فيها مِنْ غيرِ بلدهِ بأنَّهُ غريبٌ، وفرَّق عمان والسَّاحل إلى عشر حكومات صغيرةٍ، جعل لكُلِّ حكومةٍ منها عَلَمًا وحاكمًا، وسمَّاها دَوْلَةً مُستقِلَّةً، لها حُدودها ووضعها، وعمل كُلُّ أميرٍ أو ملكٍ أو حاكمٍ في هذه الإمارات لنفسه ما يشاء تحت ستار الاستعمار الغاشم، فالرَّعيَّة أغنامٌ يرعاها أَميرها، ويَصْرِفها برَأْيِ غير رأيه، فينعم ذلك الأمير على حساب رعيَّته البائسة، ويعيشُ النَّاسُ بلا

عِلْمٍ، ولا خُلقٍ، فحدود تفكيرهم لا تتجاوز السَّاعة الَّتي يعيشونها مشبعين نفوسهم بالملذَّات والهوى والشَّهوات، ومع هذا اشتدَّ الوَعْيُ العربيُّ ونشط، بعد ذلك فَكَّر المستعمر بإيجاد دَوْلةٍ بيْنَ العرب تكونُ شوكةً سامَّةً في جسمِ العرب، تؤلمهم كُلَّما تَحرَّكوا، وتَنْفُثُ سُمومَها فيهم كلَّما صَحوا، حتَّى تقضي على العرب وهُم في أوطانِهم، وكانت هذه الفكرة هي الصُّهيونيَّة، ثُمَّ صارت دَوْلَةُ إسرائيل اليهوديَّة أَشدَّ النَّاسِ عداوةً للَّذين آمَنوا، ولقد بُنيت بجماجم العرب، وعُجِنَت طينتها بدمائهم، وأُسِّسَ صرحها على جُثَث ضحاياهُم؛ وشُرِّدَ بسببها الملايين من العرب، وما زالوا فرائس للجوعِ والعُري والمرضِ والجهلِ.

وكُلُّكم - أَيُّها الإخوان - مدركٌ كيف وُلِدَت هذه الدَّوْلةُ الغاصبة، وكيف نشأت، وكيف دَبَّرت مؤامرتها ضِدَّ العرب، وكيف حَصلَت تلك الحروب الصُّوريَّة في الدُّول العربيَّة السَّبع، وكيف عرقلوا تقدُّم جيوشها، وكيف قاوموها، وكيف حَصلَت مذبحة دير ياسين، وكيف كان تسليم اللِّدِّ والرَّملة، وتعرفون أَيضًا قضيَّة الأسلحة الفاسدة الَّتي سُلِّحت بها جيوش مصر، والخيانة المدَّبرة من القائد العامِّ.

ومع كُلِّ ذلك لم يَمُت الوعي العربيُّ، بل شَبَّ قويًا، ومنه حصلَتْ ثورةُ مصر العربيَّة، هذه الثَّورة الَّتي ربطت البلاد العربيَّة ببعضها، وأصبحت مصر قلب العرب النَّابض، يشعر بمصاب العرب، ويَأْلمُ لنكباتهم، ويفرحُ لفرحهم، ويَسعدُ لسعادتهم، ويشقى لشقائهم، ولم نَجْهَل ما حَلَّ بتونس ومرَّاكش والجزائر، وما حَلَّ

بغيرها من البلاد العربيَّة، فلم يصرخ لمصابِهم من البلاد العربيَّة غير مصر، لكنَّ المستعمر لم يغفل عن ذلك، فأراد أن ينتقم من العرب بضرب مصر والقضاء على قلب العرب النَّابض، فجرحه، وكُلُّنا نَأْلَم لهذا الجرح.

أجل أَيُّها الإخوان! لقد غزا المستعمر بلاد مصر للقضاء على العروبة بجرح قلبها، والجسم إذا جُرِحَ قلبهُ مات، إِنَّه لم يغزُ مصر، ولكنَّهُ غَزا البلاد العربيَّة كُلَّها والمسلمين جميعًا، وقد كان أهلُ مصر له بالمِرْصاد، فهل يا ترى نجحت خطَّته؟! كلَّا والله إِنَّه خاسر، وقهرته القاهرة، ولم يسعد بميناء بورسعيد، ولا نجحت سياسته بالسُّويس، وكان النَّاس يعرفون ظاهره، أمَّا الآن فقد عرف العالم كُلُّه ظاهره وباطنه، وعرفوا كذبه وغدره، وخَسِرَ الرِّجال والعَتاد، وسُدَّتْ في وجههِ السُّبُل، فخَسِرَ الصَّادِرَ والوارِد، وإِنَّ فِعْلَتَهُ هذه هي الوقود الَّذي سيُشعل ثورة العرب والإسلام، ويجعلهم مصمِّمِينَ على أَخذ الثَّأْر غدًا، وإِنَّ غدًا لناظره قريب.

أَيُّها الإخوان! لقد خابَتْ محاولةُ العدوِّ، وخابَتْ آماله، وتَبَّتْ يداهُ، وما أَغْنت عنه طائراته وأساطيله، وإذا أعطى مواثيق وعهودًا كعهوده السَّابقة فعلى المؤمن ألَّا يثقَ بها؛ لأنَّ «**المؤمن لا يُلدَغُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين**»[1]، والعدوُّ يَعِدُ ويُخلِفُ، ويُعاهِدُ ويغدُرُ، قالَ تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٧١]، ينبِّهنا أنَّنا في خطرٍ، والخطرُ محيطٌ بِنا من الجهاتِ جميعِها: ديننا، وعُروبتنا، وحُرِّيَّتنا،

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٦١٣٣)، ومسلم، رقم: (٢٩٩٨).

ومُستقبلنا، وتاريخنا، كُلُّ ذلك في خطرٍ، والخطرُ في الوطنِ والميدانِ والسُّوقِ والمدرسةِ، فالخطرُ معنا أَينَما كُنَّا، ولكنَّ اليقظَ لا يقع، فانتبهوا.

أَيُّها المسلمون! جاهِدوا بأموالِكم وأنفُسِكُم، وأقلامِكُم وألْسِنَتِكُم، وبكُلِّ ما تَملكونَ من قوَّةٍ ودفاعٍ، وربُّوا أبناءكم على بُغْضِ الأعداءِ، وعَلِّمُوا تلامِذَتكُم كره الكُفرِ والكُفَّار والاستعمار، وقاطعوا الأعداء مُقاطعةً اقتصاديَّةً، وحاربوه حربًا مادِّيَّةً، فلا تُصَدِّروا إِليه، ولا تستوردوا منه، ولا تُعامِلوه أو تُبايعوه، ولا تُعامِلوا من يُعامِلهُ، فكُلُّ من وَالَى العدوَّ صارَ مثلهُ.

أَيُّها الإِخوان! إِنَّكُم بالعربِ ومع العربِ أغنياء، والعدوُّ لا غنى لَه عنكُم، فهو فقيرٌ مُعدَم جائِعٌ، لا تغنيه بلاده، ولا تشبعهُ أرضهُ، وهذا البَنْكُ البريطانيُّ الجاثِمُ على صدورِكُم يَمْتَصُّ أرباحكم، ويسْتَبِدُّ بكم، قد أعطاكم الله بَدَلُه بنكًا وطنيًّا، رَأْسُ مالهِ من أموالكم، وأرباح مُعامَلاته تعودُ عليْكُم وعلى مواطنيكم، فحرامٌ عليكُم أَنْ تتعاملوا مع بنوكِ عدوِّكم ما دام غيرهُ بين أيديكم؛ يقضي حوائجكم، ويَكفِيكُم أعمالكم، ويقوم بشؤونكم.

أَيُّها القوم! إِنَّه ليس من العدلِ ولا من الإنسانيَّة أَنْ نشربَ كدرًا، ويشربَ عدوُّنا نميرًا(١) صافيًّا، وليسَ من الإباءِ العربيِّ ولا من الفطرةِ الإسلاميَّة أَنْ نشربَ مِلحًا أُجاجًا، ويشرب هو عذبًا فراتًا، وليس من العدلِ أَنْ نُكَبَّل بالقيودِ، وتُطلق يدهُ فينا، يستثمر بلادنا، ويأكل

(١) النَّمير من الماء: النَّاجع في الرَّيِّ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٤/ ٢٩٤).

خيراتها، ويُحاربنا بمنتجاتِها.

أَيُّها المسلمون! إنَّ الله وعدَ من جاهدَ في سبيلهِ بالنَّصرِ والتَّوفيقِ والهدايةِ، فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عِمرَان: ٩].

أَيُّها المسْلِمون العرب! إنَّ قلوبَ العرب وجنودهم مع مصر، وإنَّ الأردن وسوريَّة والجزيرةَ العربيَّة كلَّها مع القيادة العامَّة في مصر، وإنَّ مصر تطلبُ معونتَكُم، فليتقدَّم كُلُّ عربيٍّ مُسلم بالمعونةِ لها، ويمدَّ لها اليد السَّخيَّة، فإنَّ كلَّ درهمٍ تقدِّمه لها يكونُ رصاصةً في صدرِ العدوِّ المستعمر.

أَيُّها المسْلِمون! انطلقوا إلى الجهادِ والحرِّيَّة والعونِ والكرامةِ، وجاهدوا بأَموالِكُم وأَنفسِكُم في سبيلِ الدِّين والوطن والعروبة والأعراض، جاهِدوا في سبيل الله ولإعلاءِ كلمة الله، جاهِدوا لنصر الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ، جاهدوا لأجل حاضرنا ومستقبلنا، أيقظوا في قلوبِ أولادِكُم حُبَّ الدِّينِ الإسلاميِّ، وحُبَّ الوطنِ، واغرسوا في قلوبهم كره العدوِّ الكافِر، وعلِّموهُم غَدره ومساوئه، وكونوا - أَيُّها المسلمون - مع الحقِّ دائمًا، فإنَّ الله يقولُ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبيَاء: ١٨] فالحقُّ لا يُغلب، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنَافِقون: ٨]، والله أكبر ولله الحمد.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العَنكبوت: ٦٩]

قِيلت في مسجدِ ابن بحر أيَّامَ الاعْتِداء الثُّلاثيِّ على بورسعيد

قَسَّمَ علماء المسلمين الجهادَ إلى ثلاثةِ أنواعٍ:

الأوَّل: جهادُ النَّفسِ والشَّيطان؛ فالنَّفسُ أَمَّارةٌ بالسُّوءِ، لحوحَةٌ في أمرِها، شهواتها كثيرةٌ، ومطامعها باهِظةٌ، والشَّيطانُ عدوٌّ باطِنٌ، يجري في الإنسان مجرى الدَّمِ في عرقهِ، يراكَ ولا تراه، فمتى قاومتَ نفسكَ، فَمَنَعْتَها شَهَواتها ومطامعها، وطهَّرتْها من الأخلاقِ الذَّميمةِ والأوصافِ السَّيِّئَة، وقاوَمَت شيطانَك الَّذي يأمرُ بالفحشاءِ، ورددتهما عن مطالبهما، وانتصرتْ عليهما، فقد جاهدَتْ الجهادَ الأكبر.

الثَّاني: جهادُ إخوانِكَ المواطنين المنتمين إلى دينك، المتهاونين في أحكامهِ وتعاليمهِ، الَّذين حملوا اسم الإسلام، وتساهلوا في أداءِ واجباتهِ من غَيْرِ إنكارٍ ولا جحودٍ، فتنتهم زخارف الحياة، وسَكِروا بحلاوةِ الملذَّات، حتَّى أصبحوا أَسارى للشَّهوات.

فإذا أرشدتهم إلى الطَّريقِ، ورغَّبتهم في فعلِ الخيرِ، وأَمرتهم

بالمعروفِ، ونهيتهم عن المنكر، وجادلتَهم بالَّتي هي أحسن، فقد جاهدتَ في سبيلِ الله، و«**لأنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا، خيرٌ لك من حمر النَّعم**»(١)، وقَدْ ذَكَرَ لنا رسول الله ﷺ أنَّ النَّاس قسمان: «**قسمٌ قائمٌ بحدودِ الله، وقِسمٌ واقِعٌ فيها، وأَنَّ مثل هؤلاء وهؤلاء، كمثلِ قومٍ استهموا في سفينةٍ فكان بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، وكان الَّذين في أسفلها إذا استَقَوْا من الماءِ مرُّوا على من فوقَهم؛ فقالوا: لو أَنَّنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإِنْ تَركوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعًا، وإِنْ أَخَذوا على أَيديهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا**»(٢).

أمَّا النَّوعُ الثَّالث من أنواعِ الجهاد: فهو جهادُ عدوِّ الدِّين الَّذي يريدُ إخلالك، وتكونَ لهُ عبدًا مُسخَّرًا؛ ليحتلَّ بلادَك، ويأكُل خيراتها وخيرات يدك، ولقد أتى هذا الجهاد بأحسن النَّتائِج لمَّا أُحكِمَتْ وسائله، ونُظِّمَتْ أساليبه، وقامَ بواجبه سَلَفُنا الصَّالح.

فجهادُ النَّفسِ والشَّيطان، وجهادُ الدَّعوة إلى الله، وجهاد العدوِّ الَّذي يريد إضلالك واستعبادك، كلُّها جهادٌ في سبيلِ الله، ومَنْ جاهد في سبيل الله كان اللهُ مَعَهُ؛ لأنَّهُ قال وهو أَصدقُ القائلين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، والدِّينُ الإسلاميُّ لم يجعل الحرب وسيلةً لنشر الدِّين كما يقولُ أعداء

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٩٤٢).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٤٩٣)، بلفظ: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل...**».

هـذا الـدِّيـن؛ لأَنَّـه قـال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: ١٢٥]، ولكنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ أَقرَّ الحرب على أَنَّها وسيلةٌ لحلِّ المشكّلات الاجتماعيَّة، فقد منعت قريش قوَّةً غاشمةً، أخرجت المسلمين من ديارهم وأموالهم، ووقفت سدًّا منيعًا أمامَ دعوة الحقِّ، وقد منعت دولتا الفرس والرُّوم نشر الإسلام في بلادٍ كان أهلها أقوى أنصار الإسلام بعد أَن استجابوا له.

وقد كان المسلمون مطمع الطَّامعين؛ لقلَّتهم، وقلَّة عدَّتهم، ولقد أقرَّ الإسلام الحرب لهذا، ولأسبابٍ أُخرى منها حماية نشر الدَّعوة، وردُّ المعارضين لها، وجعل لهذا الإقرار شروطًا منها:

١- أَلَّا يبدأ المسلم عدوَّه بقتالٍ، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ [البَقَرة: ١٩٠].

٢- لو حصلَ بين المسلمين وعدوِّهم قتالٌ ثُمَّ اعتزلَ الكفَّار القتال جنوحًا إلى السَّلم، منعَ اللهُ يدَ المسلم أَنْ تبطِش بِعَدوِّهِ الكافر، فقالَ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النِّساء: ٩٠].

وعليكَ - أَيُّها المسلم - أَنْ تأخذَ بأسبابِ الحذر دائمًا، وأَلَّا تأمن جانب عدوِّكَ في الدِّينِ؛ لأنَّ عدوَّك في الدِّين يريدُكَ كافِرًا: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النِّساء: ٨٩]، وإلَّا فيريد أَنْ يستعمر بلادك ويستعبدك، ويجعلك موردًا له لا ينقطع، يريدك زارعًا أو صانعًا، يريد خيرات بلادك، يريدكَ سُخْرةً له يصرفكَ في شؤونهِ،

يريدُك هدفًا لسلاحِ أعدائه يتَّقيها بصدرك وبدنك، يريد أَنْ يُجرِّدك من أخلاقِكَ وعاداتك وقوميَّتك وعقيدتك، يريدك جاهلًا بلا علمٍ، جائعًا بلا زادٍ، إلَّا ما يمنُّ به عليك لتسُدَّ به رمقك، يريدك فقيرًا بلا مالٍ؛ لهذا حذَّرنا ربُّنا جَلَّ جلاله من عدوِّنا، فقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٧١].

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ كيف نحذرُ أعداءنا، فقد أمر أحد أصحابه أَنْ يتعلَّم لغة العدوِّ؛ ليدخل بلادهم ويتتبَّعَ أخبارهم، وأرسل إلى اليمن من يتعلَّم صناعة السِّهام وبعض الأسلحة المعروفة يومئذٍ، وكانت لديه شبكةٌ جاسوسيَّةٌ يأتيه بأخبارِ أعدائِهِ دونَ أَنْ يعلم الأعداء من ذلك شيئًا، ولم يحدِّد الدِّينُ الإسلاميُّ هذا الحذر؛ لأَنَّ لكُلِّ زمانٍ لبوسًا(١)، ولكُلِّ وقتٍ حالةً، فواجب المسلمين اليوم أَنْ يأخذوا حذرهم بصناعة الأسلحة والطَّائرات والدَّبَّابات والقنابل والمصفَّحات على اختلاف أنواعها وأشكالها وأحجامها؛ ليعدُّوا لعدوِّهم العُدَّة إذا دهمهم أو باغتهم؛ امتثالًا لأمر ربِّهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفَال: ٦٠]، بالله ما الَّذي يشغل المسلمين اليوم عن تعلُّم الكيمياء وعلوم الطَّبيعة وتركيب المواد المتفجِّرة والغازات السَّامَّة الَّتي يرهبنا بها عدوُّنا؟! وماذا يمنعهم من أن يعدُّوا أسلحة البرِّ والبحر والجوِّ على اختلاف أنواعها؛ لئلَّا يعتدي عليهم معتدٍ، ولا يأمن جانبهم طامعٌ؟! ما الَّذي يقعدهم عن تعلُّم الصِّناعات على اختلاف أنواعها وفي بلادهم الغنيَّة موادُّ الخام المعدنيَّة والزِّراعيَّة

---

(١) اللَّبوسُ: الثِّيابُ والسِّلاحُ. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (١٦/ ٤٦٨).

والحيوانيَّة كلُّها؛ لئلَّا يحتاجوا إلى عدوِّهم بما قَلَّ وجَلَّ؟!

إِنَّ العدوَّ يُثَبِّطُ هممهم؛ ليكونوا محتاجين إليه في كلِّ حينٍ، فهو يمنعهم عمَّا ينفعهم، ويقولُ: أنا أكفيكم شؤونكم؛ فلا تُكَلِّفوا أنفسكم، بل انعموا وكلوا واشربوا وناموا ولا تستيقظوا، فما فاز إلَّا النُّوَّمُ، قال الشَّاعرُ معروف الرُّصافيُّ:

نَامُوا وَلَا تَسْتَيْقِظُوا مَا فَازَ إِلَّا النُّوَّمُ(١)

ولكنَّ العدوَّ في الحقيقةِ لا يريد بنا خيرًا، إنَّه يريدُنا أَنْ نكونَ صمًّا بكمًا كالأنعامِ؛ لا نشعرُ، ولا نعلمُ، ولا نفهمُ، ولكنَّ ديننا أرادَ لنا غير ذلك، فالإسلام يأمرُ المسلمين أَنْ يأخذوا حذرهم لكي يخافهم عدوُّهم، فتكون الأمَّة الإسلاميَّة آمنةً في عُقْرِ دارِها عزيزةَ الجانبِ منيعةَ الحمى، كما قال ﷺ: «**نُصِرت بالرُّعب مسيرة شهرٍ**»(٢)؛ ولهذا قال الله جَلَّ جلاله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والوحدةُ أقوى سلاحٍ يخافه العدوُّ، بحيث تنسجم الأُمَّة في قالبٍ واحدٍ، فتكون جسمًا واحدًا، كما قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى**»(٣)، أَمَّا إذا تفكَّكت الأُمَّة - والعياذُ باللهِ - أو دبَّتْ فيها العداوة والبغضاء فتلكَ أُمَّةٌ تقطَّعت أوصالها

(١) انظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش (٥/ ١٨٠).
(٢) رواه البخاري، رقم (١/ ٧٤).
(٣) سبق تخريجه.

وماتت وإنْ ملكت من الأسلحة والعتاد ما ملكت، فلو حصلَ اعتداءٌ من جانبِ العدوِّ على جهةٍ من جهاتِ المسلمين الآمنين في ديارهم، وَجَبَ القيامُ على المسلمين جميعًا لنصرةِ إخوانهم المُعتَدى عليهم؛ لئلَّا يقف الآمن مكتوف الأيدي، يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١﴾ [النِّسَاء: ٧١]؛ ومعناه: انفروا جماعةً إثر جماعةٍ إذا كان العدوُّ قليلًا، أو انفروا جميعًا إذا جاءَ العدوُّ بقوَّته كلِّها، وذلك حسب مقتضيات الحال.

إنَّ المسلمين قد تركوا الجهاد في سبيلِ الله منذُ زمنٍ طويلٍ؛ لأنَّه لا حكومة إسلاميَّة تقضي بالقرآن وتنفِّذُ واجباته، بإعداد العدَّة للحرب، والأخذ بالأُهْبَة لها، والتَّحذير من الكفرة وأعداء الدِّين، والدِّين الإسلاميُّ جعل الحرب من ضروريَّات الحياة، وسببًا لبقاءِ الدَّولة، وحفظًا لكيانها، ووسيلةً لحلِّ المشكلات الاجتماعيَّة، ودحر القوى الغاشمة الَّتي تقف عائقًا أمام دعوة الحقِّ، ولكنَّه مع ذلك أحاط الحرب بسياجٍ من الرَّحمةِ لم يعرفها الكافر المستعمر في هذا القرن الَّذي سمَّوه القرنَ العشرين، وكان الحقُّ فيه للأكثر قوَّة.

نحنُ الآنَ في حربٍ مع الكافرِ المستعمرِ، فإنَّ في مصر - قلب الإسلام وقلب العروبة النَّابض - إخوانًا لكم ذاقوا مرارة الحرب، وقاتلوا فقُتِلُوا، وقُتِلَ منهم كثيرون، وقُتِلَ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ لم يحضروا المعركة، ولم يدخلوا الميدان، قُتِلُوا بقنابل العدوِّ، ومقذوفات طائراته في القاهرة والإسكندريَّة وغيرهما من البلاد الآمنة المطمئنَّة، قُتلوا من غير ذنبٍ إلَّا أنَّهم آمنوا بالله ورسوله، وأرادوا

الحياةَ الشَّريفة وألَّا يُذَلُّوا لغير بني دينهم ووطنهم وجنسهم، قُتِلوا لأَنَّهم أَبوا أَنْ يكونوا مستعمرين؛ لأنَّهم جرَّبوا الاستعمار سبعين عامًا، وعرفوا ظُلم المستعمرين الَّذين سخَّروهم، وامتصُّوا دماءهم، وهتكوا أعراضهم، وقتلوا رجالهم، وأهانوا دينهم وعزَّتهم، وأذاقوهم مرارة العيش وبؤس الحياة.

وبعد ثورات ومفاوضات بالشِّدَّة تارةً وباللِّينِ أخرى نالوا الحرِّيَّة وأجلوا عملاء الاستعمار، وكأنَّ العدوَّ نَدِمَ؛ فغزاهم في عُقْر دارِهم، وسَفَكَ الدِّماء، وقتلَ الرِّجالَ والنِّساءَ والأطفال، وأيْتَمَ وأَثْكَلَ وشَتَّتَ وأرمَلَ، وهكذا يعمل الآن في الجزائر العربيَّة، وما يزال رجال الجزائر حتَّى الآن يقاتلون في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من الرِّجال والنِّساء والأطفال الَّذين لا يستطيعون حيلةً ولا خَلاصًا من ظلم العدوِّ المستعمر إلَّا بالرِّجال المجاهدين، وسينصر الله الحقَّ ويحقُّه، وسيزهق الباطل ويبطله، والباطل خاسئٌ خاسرٌ، وناصر الباطل لا بدَّ من أنَّه خائبٌ مُخفِقٌ، يقول أبو القاسم الشَّابِّيُّ:

إِذَا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ ... فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَجِيْبَ الْقَدَرْ

وَلَا بُدَّ لِلَّيْلِ أَنْ يَنْجَلِيْ ... وَلَا بُدَّ لِلْقَيْدِ أَنْ يَنْكَسِرْ[1]

أمَّا نحن البعيدون من ميدان المعركة فعلينا أن نساعد إخواننا المحاربين بالمال، فإنَّ المالَ عصبُ الحياة، وبه تُذلَّل الصِّعاب، وله تخضع الرِّقاب، فعلينا أَنْ نجاهد معهم بما تجود به أيدينا، وتطيب به

(١) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق، للمهدي (١/ ٢٨١).

نفوسنا، بالمال الَّذي يقوم به أَوَدُهم، فيَسُدُّ جَوْعَةَ الجائع، ويقضي حاجة المحتاج، ويشبع اليتيم الَّذي فَقَدَ أباه، والثَّكلى الَّتي هَلَكَ ولدها، والأرملة الَّتي قُتِلَ زوجها وعائلها، فراحوا شهداء في سبيلِ واجب المحافظة على كرامة الأُمَّة والوطن، وقد يشتري أخوك المجاهد بهذا المال سلاحًا؛ ليكون في صدورِ أعدائك رصاصًا، وفي ظهورهم حرابًا، وعلى رؤوسهم دمارًا، وفي أعقابهم خذلانًا واندحارًا، وهذا نوع من حربك أَيُّها الأخ المسلم.

وهناك حربٌ ثانيةٌ تؤازر بها أخاك في الميدان وأنت في بيتك، أو محلِّ تجارتك، أو وظيفتك، أَيُّها الأخ! هي حربُ اقتصادٍ، أو حربُ مقاطعةٍ، فعليك - أَيُّها المسلم - أن تُضعِف عدوَّك بالمقاطعة، فلا تستورد منه ولا تصدِّر إليه، قَاطِعْ بضائعه ومنتجاته؛ فإِنَّك إذا قاطعته أفقرته، والفقر ضعفٌ، والفقير ضعيفٌ ذليلٌ.

أَيُّها المواطن! قَاطِعْ عدوَّك الكافر، وقَاطِعْ مَنْ يعامله، فإِنَّهما في العداءِ سواء، وإِنَّ ربَّك يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المَائدة: ٥١]، وإِنَّ الله وبَّخَ أولئك المسلمين الَّذين كانوا يعاملون أهل مكَّة بتجارتهم؛ لأَنَّ تجارتهم كانت تُستَهلكُ في مكَّة، فأمرهم أَنْ يقاطعوا أولئك الأعداء الَّذين كانوا يتربَّصون بالمؤمنين الدَّوائر، وأمرهم أَنْ يهجروهم بما فيهم الأبناء والآباء والإخوان والعشيرة، ومنعهم من معاملتهم تجاريًّا، وبيَّن لهم أَنَّ حُبَّ الله ورسوله والجهاد في سبيله أَفضلُ وأَدومُ، وأَنَّ حُبَّ أولئك الَّذين استحبُّوا الكفر على الإيمان من أسباب غضبِ الله، وأَنَّهُ داعٍ لنزول

البلاء، وأَنَّ مَنْ فَضَّلَ الكافرين على المؤمنين، وفضَّلَ الدُّنيا ونعيمها على حُبِّ الله ورسوله، يكون عُرضةً لعذاب الله وعقوبته في العاجل أو في الآجل.

وإنَّ حاجة العدوِّ إلينا أكثر من حاجتنا إليه؛ فإذا قاطعناه أضعفناه، وإنَّ الله تعالى يقول لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ [التَّوبة: ٢٣-٢٤].

يا قوم! إنَّنا مسلمون، وآباؤنا المسلمون ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفَتْح: ٢٩]، وإنَّنا عربٌ، وقد كان أسلافنا أشدَّاء على أعدائهم، يكسبون المعدوم، ويعينون على النَّوائب.

فلماذا لا نتمسَّك بسُنَّةِ الآباء؟ لماذا لا نكون أشدَّاء على أعدائنا الكفَّار المستعمرين؟ لماذا لا نكون رحماء فيما بيننا نحمل الكَلَّ ونكسب المعدوم ويعين بعضنا بعضًا على النَّوائب، فنوقِّر الكبير، ونرحم الصَّغير، ونعطي الفقير، فنكون يدًا واحدةً قويَّةً على من عادانا، شديدةً على من قاتلنا؟! لماذا نصادق الكفَّار ونواليهم ونقرِّبهم، ونتقرَّب إليهم، والأولى بنا أَنْ نقاطعهم، ونحرمهم من أموالنا وأرباحنا، ونترك بضائعهم، فلا نستهلك منها شيئًا؟! لماذا هذه البحبحة في المعيشة؟! لماذا هذا التَّرف الَّذي جاءنا به الغرب،

وأدخله إلينا مع بضائعه الكماليَّة، وأقنعنا باستهلاكها، وليس هذا التَّرف من سُنن ديننا، ولا من عوائد آبائنا وأسلافنا، ونحن خلف أولئك الأشدَّاء المسلمين؟!

أَيُّها الإخوان! كلُّنا متعطِّشٌ لسماع الأخبار هذه الأيَّام، حتَّى المرأة في خِدْرها، والصَّبيُّ في مدرسته، كُلُّنا متعطِّشٌ لأخبارِ مصر، وماذا فعل بهم العدوُّ، وماذا فعلوا بالعدوِّ، وإِنَّ العدوَّ قد أَرْجَفَ(١) بالأخبار، وكذَّب وفجر، ولا غرابة في ذلك، فقد عوَّدنا الكذب، ومصر ما كذَّبتنا في أخبارها، ولقد خاب العدوُّ، وخاب - واللهِ - عملاؤه الَّذين يثقون به، وينسبونه إلى مكارم الأخلاق والوفاء بالعهد والصِّدق في القول، خابوا وشاهَت وجوههم، وقد عرفوا اليوم غدر صديقهم، وما أكبره من غدرٍ! إِنَّهم بعد أَن أمن القوم وقالوا لهم: لن نَتَدَخَّلَ في شؤونكم، هاجموهم؛ فقتلوا الآمنين، وأمطروهم بقنابل المدافع ومقذوفات الطَّائرات، وهاجموهم من البحر والبرِّ والجوِّ، فأين العهد والوفاء به؟! ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤].

إخواني! لا تستمعوا لأراجيف(٢) الأعداء، ولا تخافوهم ما دُمتُم على حقٍّ، والله - جَلَّ جلاله - يُحِقُّ الحَقَّ ويُبطِلُ الباطِلَ، وقد قال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]،

(١) أرجف القوم: إذا خاضوا في أخبار الفتن، ونحوها من الأخبار السَّيِّئة. انظر: تاج العروس، للزَّبيديِّ (٢٣/ ٣٢٥).
(٢) أراجيف: الأخبار. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٩/ ١١٣).

إِنَّهم مُفسِدون والله لا يصلح عمل المفسدين.

وبعدُ:

فلنعد إلى الوراء قليلًا، ولنَنْظُر حالنا قَبْلَ أربعين سنة بعد الحرب العُظمى، يوم كان العدوُّ يتصرَّف فينا تصرُّف الرَّاعي بسائِمَتِهِ، ويتقاسمنا كما يتقاسم المشتركون في الذَّبيحة، ثمَّ لننظر جهادنا منذ ذلك اليوم إلى الآن، لقد تحرَّرت سوريَّة ولبنان واستقلَّت مرَّاكش وتونس بعد أَن ذاقوا جميعًا من الفرنسيِّين ألوان الذُّلِّ والهوان، ونالت مصر والأردن استقلالهما من الإنكليز بعد أَن فتكَ بهم وأذاقهم مرارة الشَّقاء والعبوديَّة، ونالَ الجميعُ استقلاله بعد التَّضحية بالغالي والنَّفيس، وما زالت الجزائر وغيرها تجاهد وتناضل في سبيل الله وفي سبيل الحرِّيَّة، وفي سبيلِ المستضعفين من الرِّجال والنِّساء والأولاد، وإِنَّ العرب اليوم هم أقوى منهم بالأمس؛ لتقارب قلوبهم، «**وإِنَّ يدَ الله مع الجماعة**»[1]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

(١) رواه التِّرمذي، رقم: (٢١٦٦)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

دين الإسلام ثورةٌ على المساوئ

الحمد لله، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله الَّذي اصطفاه، وعلى آلهِ وصحبهِ كافَّةً، ومن اتَّبع هداه، أَمَّا بعدُ:

فإِنَّ ذكر الأبطال من أحبِّ الذِّكرِ، والحديثُ عنهم من أطيبِ الأحاديث؛ لأَنَّهم أعلام الهدى في تاريخ البشريَّة، ولأَنَّهم البارزون بأعمالهم في تاريخ الإنسانيَّة، قد سُجِّلَت أسماؤهم في سجلِّ الخلود، وفازوا بالذِّكر الباقي ببقاء الحياة على وجه الأرض، ولاسيَّما الأنبياء الَّذين بعثهم الله رحمةً للنَّاس، وأعظم هؤلاء أولو العزم؛ نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم النَّبيِّين محمَّدٌ صلَّى الله عليهم أجمعين، والأنبياء ناس من البشر، اصطفاهم الله لهداية البشر، وإنقاذهم من الوثنيَّة، أو من عبادةِ البشر، أو من الظُّلم والطُّغيان، ومن الفوضى والجهالة، وأفضل الأنبياء وأعظمهم محمَّدٌ ﷺ الَّذي وُلِدَ في وقتٍ لم يكن الإصلاح فيه أعسر ولا أبعد منالًا منه.

فقد كان النَّاس في جاهليَّةٍ طاغيةٍ، والعالم في ضلالٍ داجٍ، والبشريَّة بين عبدٍ مُسَخَّرٍ لا يملك من أَمرِه شيئًا، وبين سيِّدٍ جائرٍ، وكانَ العربُ بينَ أُمَّتين ضالَّتين ظالمتين؛ أُمَّةٍ تعبدُ الصَّليب، وأُمَّةٍ تعبد النَّار، وكلاهما يتنازع السَّيطرة، والعرب في غفلةٍ ساهون،

يعبدون الأشجار والأحجار، متفرِّقون في فيافي[١] الجزيرةِ وشعابِها، ومُشتَّتون في سهولها وجبالها، لا جامعة تجمعهم، ولا مصلح يصلحهم، وهم بين سالبٍ ومسلوب، وقاتلٍ ومقتول، مزَّقت العداوات شملهم، وأذهبت الفوضى ريحهم، وقضى الجهل عليهم.

وبينما هم في الظُّلمات غارقون إذ بخبرٍ ينتشر في شعاب مكَّة عن مولودٍ وُلِدَ في بيت عبد المطَّلب بن عبد مناف، لقد وُلِدَ في تلك اللَّيلة وقبلها وبعدها كثيرون، ولكنَّ ولادة محمَّدٍ ﷺ ليست كغيرها من الولادات، فقد كان لها بشائر ونبوءات ذكرها التَّاريخ، وعرفها كثيرٌ ممَّن قرأ وسمع، وكان ﷺ عظيمًا في مولده ونشأته، عظيمًا في شبابه وكهولته، عظيمًا برسالته، فقد وُلِدَ في بيتٍ كان منتجًا، وكان الأولاد فيه كثيرين، ولكنَّ الفرح لولادة محمَّدٍ كان أكثر منه في غيرها، فقد وُهب المبشِّرون، وأُطلق المسترقون، وأُطعم الجائعون، وسجد الشَّيخ عبد المطَّلب جدُّ المولود العظيم؛ شكرًا لله عندما بُشِّرَ به، وطاف به حول الكعبة، وقال وهو يطوف به: «**أُعيذُكَ بالواحدِ من شرِّ كُلِّ حاسدٍ**»[٢].

نشأَ عظيمًا؛ لأنَّه كان يحسُّ في نفسه العظمة، وكان يوضع لعبد المطلب فراشٌ في ظلِّ الكعبة، ومحمَّدٌ ﷺ هو الوحيد من البنين والحفدة الَّذي يجلس - وهو غلامٌ - على فراش جدِّه، فيأخذه

(١) الفيفاء: الصحراء الملساء، وهفَّ الفيافي. انظر لسان العرب، لابن منظور (٩/ ٢٧٤).

(٢) انظر: أنساب الأشراف، للبلاذري (١/ ٨١).

أعمامه وبنو أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطَّلب: «**دعوا ابني، فوالله إنَّ له شأنًا**»[1]، ورافق عمَّه أبا طالب في رحلةٍ تجاريَّة وهو في الثَّامنة من عمره، فظهر لمن رافقه في الرِّحلة ما يدُّل على عظمة هذا الصَّغير الكبير، وشبَّ عظيمًا، وقد توسَّمت ذلك خديجة فيه، واختارته زوجًا لها، وهي من عُرِفَتْ في قريش بشرف الأَرُومة[2]، وعلوِّ النَّسب، ووفرةِ المال والجمال، وعظمِ الجاه.

وُلِدَ ﷺ في بيئة كانت الأوثان فيها منتشرةً في كُلِّ مكانٍ، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنم، ولكُلِّ أسرة صنم، ولكُلِّ بيت صنم، ولا أبالغ إذا قلت: لكُلِّ فرد صنم، ولكنَّه ﷺ عرف الله منذ طفولته في هذه البيئة، ولم يكره شيئًا مثل كرهه للأصنام.

وعاش ﷺ في بيتِ رئاسةٍ متوارثةٍ عن هاشم، عن عبد مناف، عن قصيٍّ الَّذي دانت له الرِّقاب، واستأثر في مكَّة بالسُّلطان، واختصَّ أولاده بالقيام على دين العرب: سدانة[3] الكعبة، والسِّقاية، والرِّفادة، ورعاية الأصنام، إلى غير ذلك من المناصب الَّتي ترفع الذِّكر في طول البلاد العربيَّة وعرضها، ولكنَّ نفس هذا الفتى لم تسكن إلى شيءٍ من ذلك، ولم يؤثِّر فيها، بل مال إلى الحقِّ لا إلى غيره، ووجد في الحقِّ أعظم حبيبٍ إلى نفسه.

---

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصَّحابة، للجزري (١/ ٢٢).
(٢) الأرومة: الأصل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ١٤).
(٣) سدانة الكعبة: خدمتها وتولي أمرها وفتح بابها وإغلاقه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٥/ ١٨٠).

شبَّ على مكارم الأخلاق، وكان في صدقه ووفائه وعفَّته المثَّل الأعلى، فسمَّاه قومه بالصَّادق، ولقَّبوه بالأمين، واحتكموا إليه في خصوماتهم، وأْتَمَنُوْهُ على أموالهم.

كان يحبُّ السَّلام، ويكره الظُّلم والظَّالمين، وما تحمَّس لعملٍ في الجاهليَّة مثل تحمُّسه لحلف الفضول، وقال: «**لَقَد شَهِدْتُ في دارِ عَبدِ اللهِ بنِ جدْعَانَ حِلفًا ما أُحبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمرَ النَّعَمِ، ولو أُدْعَى به في الإِسلام لَأَجَبْتُ**»[(١)]، وحلف الفضول أشرف حلفٍ عرفه العرب في جاهليَّتهم، دعا إليه بنو هاشم يوم عَلِموا أَنَّ العاص بن وائل السَّهميَّ ظَلَمَ رجلًا من زبيد في مكَّة بثمن سلعةٍ كان العاص قد ابتاعها من الزَّبيديِّ، فتعاقد الهاشميُّون مع جماعةٍ من أشرافِ مكَّة، وتعاهدوا أَلَّا يجدوا بمكَّة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر النَّاس إلَّا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتَّى تردَّ إليه مظلمته.

هكذا نشأَ محمَّدٌ ﷺ، وهكذا أدَّبه ربُّه، وقال ﷺ: «**أدَّبني ربِّي فأحسن تأديبي**»[(٢)] ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٦-٧]، حتَّى إذا أراد الله إظهار الحقِّ الَّذي اختار الله له محمَّدًا ﷺ و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بعثه الله رحمةً للعالمين، وقد شرَّفَ الله العرب بأَن جعل منهم آخر رسله، وخاتم أنبيائه، وأنزل كتابه بلغتهم، واستكمل فيهم رسالته الخالدة، وحمَّلهم أمانتها، ليمدُّوا العالم بالحضارة والعلم والإصلاح الَّذي لا

---

(١) رواه البيهقي في السُّنن الكبرى، رقم: (١٣٠٨٠)

(٢) سبق تخريجه.

بُدَّ لكُلِّ أمَّةٍ منه، أمرهُم أَنْ يكونوا المثلَ الأعلى، والقدوة في العدل والإخاء والوفاء بالعهود ونشر السِّلم والتَّضامن والتَّعاون على تثمير خيرات الأرض؛ ليكونوا خير أُمَّةٍ أخرجت للنَّاس، وفي ذلك يقول ربُّ محمَّدٍ ﷺ لأُمَّة الإسلام: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨]، و﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، و﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]، إلى غير ذلك ممَّا جاء به القرآن من تعاليم عالية اتَّبعها الأسلاف، ففازوا بالسَّعادة والرِّفعة والتَّمكُّن في الأرض، فنشأت منهم أُمَّةٌ عظيمةُ المجد، رفيعة الجاه، واسعة الملك، فتحت البلاد، ونشرت الأمن والعدل، وأذاقت العالم لذَّة الحرِّيَّة والمساواة، وهناء الاستقرار، ونعمة الأمن في الأوطانِ.

أَيُّها السَّادة! لقد أشرقت شمس شريعة نبيِّنا ﷺ من مكَّة، فسارت بنور ربِّها، حتَّى وصلت بضوئها وسهولتها وعدالتها إلى أقصى بقاعِ الأرض، لا يردُّها غضب مسيطرٍ، ولا قوَّة مستأثرٍ، ولا جهالة جاهلٍ، ولا حسد حسودٍ، ثبتت على الدَّهر رغم ما أحاط بأبنائها من

ضعفٍ وتشتُّت شملٍ، ورغم ما حَلَّ بهم من هرمٍ وتقهقرٍ فأرواحهم لا تضعف، وإنَّما ضعفت الأجسام، فالأرواح لا تفنى، وإنَّما تفنى الأشباح، ولهذا فإنِّي لا أندب الإسلام؛ لأَنَّه دينٌ حيٌّ لا بُدَّ أَنْ ينصره ربُّه، وأن يظهره على الدِّين كلِّه كما وعد، ويحفظهُ من كيدِ الكائدين ومكر الماكرين.

لقد حارب أهلُ الإلحاد شريعةَ النَّبيِّ ﷺ، فما فازوا منها بطائل، وحاربها اليهود وأذناب اليهود والفرس والصَّليبيُّون المبشِّرون، فلم ينالوا منها مرم، ولكنَّهم انقلبوا على أعقابهم خاسرين، وحاربها آخرون، وأبى الله إلَّا أن يتمَّ نوره ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصَّف: ٩].

أَيُّها المسلمون! لن يَضعُفَ دينُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه ثورةٌ على كُلِّ نقيصةٍ، وحربٌ على كُلِّ سيِّئةٍ، وثورةٌ على الظُّلم والظَّالمين، وحربٌ على البغي والباغين؛ ولأَنَّه يأمرُ بالعدل والإحسان، إنَّه دينُ عزَّةٍ للإيمان والمؤمنين؛ لأَنَّه ثورةٌ على الذُّلِّ، وحربٌ على أتباعه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إنَّه دينُ علمٍ وعرفان؛ لأَنَّه ثورةٌ على الجهل، وحربٌ على الجاهلين.

إنَّه دينُ عملٍ وتوكُّلٍ؛ لأَنَّه ثورةٌ على البطالةِ، وحربٌ على الكسل والتَّواكل.

إنَّه دينُ قوَّةٍ؛ لأنَّه ثورةٌ على المرضِ، وحربٌ على الخور والجبن.

إِنَّه دينُ نظامٍ وطاعةٍ؛ لأنَّه ثورةٌ على البغض، وحربٌ على الفتن.

إنِّه دينُ سخاءٍ ومواساةٍ؛ لأنَّه حربٌ على البخل، وثورةٌ على الشُّحِّ.

إِنَّه دينُ تعاونٍ على البرِّ والتَّقوى؛ لأنَّه ثورةٌ على التَّفرُّق والنَّفعيَّة والأثرة.

إِنَّه دينٌ يُربِّي العقول ويفتحُ البصائر؛ لأنَّه ثورةٌ على الأوهام، وحربٌ على الخرافات.

إِنَّه دينُ رُقيٍّ ومدنيَّةٍ ونشاطٍ؛ لأَنَّه ثورةٌ على الجمود والتَّخاذُل والميُوعة.

إِنَّه دينٌ يأمرُ بإحقاقِ الحقِّ، وإِبطالِ الباطلِ، والعدل في الأحكام؛ لأَنَّه ثورةٌ على الجور، وحربٌ على المحاباة.

إِنَّه دينٌ يأمرُ المسلم أَنْ يعمل لدنياه جادًّا مستقيمًا عزيزًا، ويعملُ لآخرته مخلصًا صادقًا نقيًّا، فيغدو بذلك عضوًا صالحًا في وطنهِ وأُمَّتِهِ؛ صلاحًا ذاتيًّا بقواه، وصلاحًا اجتماعيًّا بجدِّه وعرقه، فيعرف ما يجب له، وما يجب عليه نحو ربِّه والعباد.

أَيُّها السَّادة! لقد آمن أسلافنا الأوَّلون بكُلِّ ما ذكرت لكم إيمانًا جعل من ضعيفهم قويًّا، ومن أعزلهم مسلَّحًا، ومن عاجزهم مندفعًا، فهزِئوا بِكُلِّ كارِثَةٍ، وصمدوا لكلِّ نازِلة، وتغلَّبوا على كُلِّ صعوبةٍ، ومَهَّدوا كُلَّ وعرٍ، لقد قضوا على الطُّغيان والطُّغاة، وهدُّوا صروح الفوضى، وثاروا على الضَّلال، ونوَّروا السَّبيل، وحكموا بالعدل، لقد كان قاضيهم عادلًا، وكان واليهم مخلصًا، وكان تاجِرُهم

صادقًا، وكان فقيرهم قانعًا، وكان عاقِلُهم ناصحًا، وكان غنيُّهم سخيًّا.

وهكذا أدَّبَ النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ أصحابه، وهكذا أراد الله أن تكون أُمَّة محمَّدٍ ﷺ، وهكذا كانت، ولقد طال الأمدُ على المسلمين؛ فقست قلوبهم، ونبذوا كتاب ربِّهم، وتركوا تعاليم نبيِّهم، وضعف أمرهم، وتمزُّق شملهم، وجاءهم عدوُّهم، فوجد منفذًا له، فدخل فيهم، وشقَّ بفتنته وحدتهم، وفرَّق بين صفوفهم، وأولاه بعضهم، واستعان به ضدَّ أخيه المسلم، حتَّى أضعفهم، ثُمَّ جعل منهم أممًا متباينة ودويلات مُتَفَرِّقة، لكُلِّ دويلةٍ رعيَّةٌ، ولكُلِّ إقليمٍ عميدٌ وحدودٌ وعلمٌ ونظامٌ، وكلُّ فردٍ من هذه الدُّويلات غريبٌ في غير دولَتِه، غريبٌ إذا خرجَ من حدودِ أرضهِ أو دخلَ في حدودِ غيرهِ.

لَنَا فِي الشَّرْقِ أَوْطَانٌ وَلَكِنْ   تَضِيْقُ بِنَا كَمَا ضَاقَتْ حُدُوْدُ

تَنَازَعَ أَهْلُهَا فَلِكُلِّ حِزْبٍ   حَمًى، وَلِكُلِّ مَمْلَكَةٍ عَمِيْدُ

وهكذا ضعفنا، واستحوذ العدوُّ علينا، ورَأَينا فيه القويَّ العظيم، والعالم الجَليل، ومن عادة البشر، بل هي الفطرة، أنْ يقلِّد كلُّ ناقصٍ مَن يرى فيه الكمال، ولقد رأينا الغربيَّ أكمل منَّا؛ لأنَّه سادنا وتحكَّم فينا، والمسود يُقلِّد السَّيِّد؛ تَقَرُّبًا إليه، فقلَّدناه، ولكنَّا أخطأنا، ذلك لأنَّ أمرهُ غير أمرنا، وعاداته غير عاداتنا، ولغته غير لغتنا، ودينه غير ديننا، وقوميَّته غير قوميَّتنا، قلَّدناه فخسرنا، ولم نستفد شيئًا ممَّا قلَّدناه به، ولم نُبقِ شيئًا ممَّا كنَّا عليه، ولم يَبقَ لنا من الدِّين والقوميَّة إلَّا اسمهما.

المسلمُ يأتمر بأمر ربِّه، وينتهي عن نهيه، ويسترشد بإرشاداته، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصح لله ولرسوله، ويجاهد في سبيل الله والحقِّ، فأينَ هذا ممَّا نحن عليه اليوم؟ ونحن بين الأديان مسلمونَ! والعربيُّ له عاداته الكريمة، فهو يصل الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويكسب المعدوم، ويحافظ على العرض، ويحمي الجار، فأين هذه الأخلاق منَّا الآن ونحن في الأمم عربٌ.

دخل بنا العدوُّ فحَكَّمناهُ فينا، وتحاكمنا إليه، ولكنَّه حكَّم فينا مطامعه الَّتي لم تقف عند حدٍّ، فاستعمرَنا واسْتَعبَدَنا، واستثمر بلادنا، ثُمَّ قتل نفوسنا بإذلالنا، وقتل ضمائرنا بإفقارنا، واستعان علينا بعد ذلك بتجهيلنا وتجويعنا، كما هو شأنه في استعمار الأمم.

ولكنَّ سُنَّةَ الله في خلقه أَنَّ الأُمم تمرض ولا تموت، وها هي بوادر نقاهة الأُمَّة العربيَّة من مرضها تظهر، والحياة فيها تدبُّ، فهذه مصر والشَّام قد تخلَّصتا نهائيًّا من الاستعمار والمستعمرين، وتلك ثورةٌ في الجزائر، وانتفاضة في المغرب وتونس، ونضالٌ في عمان، ونحنُ نرى هذه الصَّحوة في البلاد العربيَّة جميعِها، في الصِّغار والكبار، في الذُّكور والإناث، وعمَّا قليل سَيهبُّ الرَّاقدون، ويستيقظ الغافلون، ويسقط الظَّالمون، ويهلك المستعمرون، ويفوز المجاهدون، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العَنكبوت: ٦٩]، وعمَّا قليل سنحرِّر البلاد، ونطرد اليهود، ويزهق الباطل، وعمَّا قليل سنرى هذه الحدود قد هُدِمَت، وهذه الحواجز قد أُزيلَت، وعمَّا قليل سنرى العالم الإسلاميَّ بصفةٍ عامَّةٍ،

والعالم العربيِّ بصفةٍ خاصَّةٍ، قد تلاقت الأفئدة، واتَّحدت الصُّفوف، واجتمعت الكلمة، وأصبح النَّاسُ بنعمةِ الله إخوانًا، كما أراد الله لهم وما ذلك على الله ببعيد.

أمَّا بعدُ:

فاللَّيلة وغدًا يلتقي العالم الإسلاميُّ شرقه وغربه، بذكرى مولد النَّبيِّ ﷺ، ذكرى عطرة، تخطر في أذهانِ المتَّقين، يذكِّر بها المسلم أخاه، ويهنِّئ بها المؤمنُ المؤمنَ، ويقول الخطيب، ويُنشِد الشَّاعر، ويستمع السَّامع، والنَّاس فيها بين صنفين: مستمع تأثَّر بما سمع وبقي في ذهنه شيءٌ، ومستمعٍ لم يسمع شيئًا.

فيا أَيُّها الإخوان! ليست الذِّكريات في حفلاتٍ وأناشيد وهتافاتٍ، وإِنَّما الذِّكريات أَنْ تستمع القول فتتَّبع أحسنه، وتعمل بِما عَلِمَت، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريَات: ٥٥].

في الدِّين شفاء من أمراض المجتمع

لقد كرَّم اللهُ الإنسانَ بأن بعث له أنبياءَ من بني جنسه لدعوته إلى الحقيقةِ الَّتي تنادي بتوحيد الله، وهي: لا إله إلَّا الله، ولا ربَّ سواه، ومعناها: ألَّا يكونَ الإنسانُ عبدًا لغير الله، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]، فالرِّسالاتُ الإلهيَّةُ تكريمٌ للإنسان عن أن ينحطَّ لعبادةِ بني جنسه؛ كمن عبدوا البشر، أو لعبادةِ ما هو أحطُّ منه؛ كمن عبدوا البقرَ والشَّجرَ والأصنامَ، أو لعبادة الأجرام السَّماويَّة العليا؛ كمن عبدوا الشَّمسَ والقمر والنُّجومَ، وهي - أي: الرِّسالاتُ - أساسٌ للعمران؛ لأنَّها تُشعِرُ الإنسانَ بكرامته، فيسعى إلى رفعة شأنه، وهي تعميمٌ للخير؛ إذ يشعر الإنسان بأخوَّة الإنسان، فيتبادلون النَّفع.

حتَّى جاء سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ بالتَّوحيدِ الكاملِ؛ توحيدِ الله، والمبدأ، والغايةِ، والحكمِ، والمجتمعِ، والتَّشريعِ، والرَّأي، والدَّعوةِ، وتوحيد كلِّ شيءٍ؛ لكي تكون كلمةُ المسلمين هي العليا، وكلمة الَّذين كفروا هي السُّفلى.

ودعا ﷺ إلى هذا التَّوحيد على أساسِ المساواةِ والحرِّيَّةِ والسَّلامِ؛ لأنَّ المساواةَ سبيلٌ إلى العدل، وغايةُ العدلِ الأخوَّة والتَّعاونَ، والحرِّيَّةُ سبيلٌ إلى الكرامة، وغايةُ الكرامةِ عزَّةُ النَّفسِ وشعورٌ بالحياة، والسَّلامُ سبيلٌ إلى الرَّخاء، وغايةُ الرَّخاءِ سعادة

المجتمع، فالمساواةُ والحرِّيَّةُ والسَّلامُ هي الثَّالوثُ الَّذي تسعى إليه الأمم، وتُعقَد له المؤتمراتُ والمجتمعات، وتضجُّ به الصُّحفُ والإذاعاتُ، وتحلم به الإنسانيَّةُ منذ أن انتشرت المدنيَّة.

أيُّها السَّادة! آمن بمحمَّدٍ ﷺ وبما جاء به أقليَّةٌ ضُعفاء، استضعفهم الأقوياء وآذوهم، فصبروا وصابروا؛ إذ علموا أنَّ محمَّدًا ﷺ صادقٌ فيما جاء به من ربِّه، جاءهم بالإخاء الشَّامل، والعدل الكامل، والسَّعادة الحقَّة، ثمَّ عَلِمُوا أنَّ دينَهم يدعوهم إلى الإخاء والمساواة والعدل، فلا فوارقَ لونيَّة، ولا فروقَ جنسيَّة، ولا عصبيَّة، ولا طائفيَّة، ولا قوميَّة، وإنَّما هي رحمةٌ بالإنسانيَّة، وتزكيةٌ للبشريَّة، وهذا ما أشار إليه النَّبيُّ ﷺ بقوله: «**ليس لعربيٍّ على عجميٍّ فضلٌ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ فضلٌ، ولا لأسودَ على أبيض، ولا لأبيض على أسود فضلٌ إلَّا بالتَّقوى**»(١).

وتمرُّ السَّنوات وإذا بأولئك الضُّعفاء ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، تحوَّل خمولُهم إلى نباهةٍ، وغموضُهم إلى شُهرةٍ، وضَعَتُهم إلى رفعةٍ، وضعفُهم إلى قوَّةٍ، وأشرقَ نورُ دينِهم على الكونِ كلِّه، وتوحَّد العربُ بعد التَّفرقة، وأصبحَ رعاةُ الغنمِ رعاةً للأمم، وصارت كلمةُ دينِهم يدوي صداها على المنابر، ما بين الصِّين والمحيطِ الأطلسيِّ: اللهُ أكبر الله أكبر، لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله.

أيُّها الإخوان! ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، رقم: (١٨/ ١٢).

كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤]، وضلالُ النَّاسِ اليومَ أشدُّ منه في الجاهليَّة الأولى، وحالتُهم أشبهُ بحالتهم في الماضي؛ عداءٌ، وانقسامٌ، وخصامٌ، وفرقةٌ، وضعفٌ، وخمولٌ، وجمودٌ، وجهلٌ، وجهالةٌ، ولن يُنجينا من هذه الأمراض إلَّا الَّذي نجَّانا منها من قبلُ، فهذه الدَّعوةُ قانونُ السَّماءِ وكتابُ اللهِ، ومنهج الحياةِ الَّذي إذا طبَّقناه في أنفسنا وأولادنا وبيوتنا وأموالنا وعباداتنا ومعاملاتنا، وفيما يجب لنا وما يجب علينا وخواصِّنا وعوامِّنا ومحاكمنا ومنابرنا وشؤوننا جميعها، أَفْلحَنا في حياتنا، ونِلْنَا رضا الله، قال ابن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ولن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»(١)، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنِّي قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلُّوا بعدهما: كتاب الله وسُنَّتي**»(٢).

أيُّها المسلمون! كانتْ حياةُ الرَّسولِ ﷺ كلُّها عدالةً وقوَّةً، وكذلك كانت حياةُ صحابته، فحيثما مضى الإسلامُ في غزواتِه وفتوحاتِه ودعواتِه، كانت القوَّةُ والعدالةُ تسيرانِ في ركابه، وقد طبَّق ﷺ نظامَ العدالةِ بقوله: «**والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيده، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقتْ لَقطعتُ يدَها**»(٣)، وطبَّقها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «**مذ كم تعبَّدتم النَّاسَ، وقد ولدتهم أمَّهاتُهم أحرارًا**»(٤)، وكانت قوَّةُ الإسلامِ في زمن النَّبيِّ ﷺ معه في هجرته وغزواته، وكانت مع أبي بكرٍ في

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٩).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٤٣٠٤)، ومسلم، رقم: (١٦٨٨).
(٤) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٦٠١٠).

أيَّام الرَّدَّة، وبعثاته وجهاده، وكانت مع عمر في القادسيَّة واليرموك، يومَ غلبت الألوفُ مئاتَ الألوفِ، وليست قوَّة الإسلام في كثرة العدد، ولكنَّها تكمنُ في قوَّةِ الرُّوح، وقوَّة الإيمان تساعدها قوَّة في البدن، ومع كلِّ هذا فقد قال ﷺ: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأَحَبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضَّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ**»(١).

أيُّها الإخوانُ! لا أدري بمَ أَختَتِمُ كلمتي، والكلامُ كثيرٌ، وخيرُ الكلام كلامُ الله تعالى؛ إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

(١) رواه مسلم، رقم: (٢٦٦٤).

عِظةٌ وذكرى

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١].

وحديثُ الإسراء والمعراج مجمعٌ على صحَّتِه، ولا يستطيعُ أحدٌ إنكارَه، ولا حاجةَ إلى أن نُطِيلَ الكلامَ فيه؛ لأنَّ علماءَ المسلمين كتبوا فيه وأكثروا، وإنَّما علينا أن نقفَ قليلًا عنده؛ لنستفيدَ من حادثةِ الإسراء والمعراج ونتَّخذها عِظةً وذكرى.

١-وقع الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنةٍ أو سنتين، حتَّى يعلم النَّبيُّ ﷺ الَّذين صدقوا، ويعلمَ الكاذبين، ففريق الصَّادقين جديرٌ بصحبته ﷺ إلى دار هجرته، ومشاركته بما يتحمَّلُه من أعباءٍ وتكاليف نشرِ الدَّعوة، والكفاحِ في سبيلها، ليستضيءَ بنورها هذا الكوكبُ الَّذي نسكنه، ويهتدي بِهَدْيها ساكنوه.

٢-إنَّ اللهَ أرى نبيَّه من آياتِه، وأَطْلَعَهُ على كثيرٍ من المشاهد الَّتي لا تصل أذهان البشرِ إلى إدراكِ كُنْهِهَا، وأَطْلَعَه على أرض هذا الكون وسمائه؛ ليكونَ درسًا عمليًّا، يتعلَّم فيه النَّبيُّ الكريم بالمشاهدة؛ ليقومَ بأعباء الرِّسالة الَّتي أراده الله لها، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ولمَّا كان عقلُه ﷺ لائقًا لأنْ يتحمَّل

تكاليفَ الرِّسالةِ ومشاقَّها كان تعليمُه بالمشاهدةِ أجدى أنواعِ التَّعليم.

٣-إنَّ لروحانيَّةِ الأنبياء أحكامًا لم يصلِ العقلُ البشريُّ إلى تحديدِها، وإبداءِ الرَّأي فيها، وإنَّها تفوقُ إدراكَنا، والأجدرُ بنا أن نقفَ عند هذا الحدِّ أمام هذه الرُّوحانيَّة العظيمة؛ لأنَّنا نعجزُ عن استقصاءِ آثارها، وإدراكِ حقيقتها.

٤-جاء في حديث الإسراء أنَّه ﷺ صلَّى إمامًا بالأنبياء، وهذا إرشادٌ إلى أنَّه ﷺ جاء بشريعةٍ ضمَّتِ الشَّرائعَ الَّتي قبلها، وأنَّ أنبياءَ تلك الشَّرائع ألقوا بالزَّعامة إليه، وصاروا مُؤْتَمِّين به، فهو سيِّد الأنبياء وخاتمهم، وإنَّ في آيةِ الإسراء منًّا وتذكيرًا بنعمة الله على رسوله وأمَّته، فسبحان الَّذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام في مكَّةَ إلى المسجد الأقصى في أورشليم، ورجع به في ليلته، سبحانه وهو على كلِّ شيءٍ قدير، سبحانه وهو السَّميع البصير، لا تخفى عليه خافيةٌ من أمرِ عباده، ولا يعزب[1] عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، أحصى خلقه عددًا، وأحاط به علمًا، فسرُّهم عنده كعلانيتهم، وبواطنهم في علمه كظواهرهم.

أيُّها الإخوان! إنَّها موعظةٌ وذكر، ولكن ممَّا يُؤسَفُ له أنَّ المسلمينَ في البلادِ الإسلاميَّةِ جميعِها جعلوا من هذه الذِّكرى احتفالاتٍ تُعقَد، وخُطبًا تُلقَى، وقصائدَ تُنشَد، وموشَّحاتٍ وأناشيدَ تُرنَّم وتُلحَّن، ثمَّ لا يكون أثرُها في السَّامعين غير هتافٍ وتصفيقٍ، أو استعادة أبياتٍ، أو تعجُّبٍ وحزنٍ، يَعقبُها بعد ذلك نسيانٌ، ثمَّ عودةٌ

(١) لا يعزب: لا يغيب عن علمه شيء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٣٦٢).

إلى الغفلة، بينما نحنُ أمَّةُ ذلك النَّبيِّ الكريم الَّذي قال: إنَّه بُعِثَ فعَّالًا، ولم يُبعَث قوَّالًا، والَّذي أَنزَلَ عليه ربُّه جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣]، فواجبٌ علينا - ونحنُ أمَّتُه - أن نفعلَ قبل أن نقول، أو لا نقول إلَّا ما نفعل.

أيُّها الإخوان! إنَّها عظةٌ وذكرى نوَّرَ بها البصائر، وأنارَ بها السُّبلَ، وأخرجَ بها الإنسانيَّة من الظُّلماتِ إلى النُّور؛ فقد أخرجهم من ظلماتِ الضَّلالة إلى نور الهدى، ومن ظُلماتِ الجهالةِ إلى نورِ العلمِ، ومن ظلماتِ الفرقة إلى نور الوحدة والأُلفةِ، ومن ظلماتِ الخوفِ إلى نور الأمن والاطمئنان، ومن ظلماتِ الفقر والعسر إلى نور الأمن والدَّعةِ واليسر، ومن ظلماتِ البؤس إلى نورِ النَّعيم، كانت ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، فجاء ﷺ بنور دينه الوهَّاج، فهتَكَ حُجُبَها، وفرَّق دياجيرها[(١)]، وجلا دُجَاها، وقال: «**لقد تركتكم على مثل البيضاءِ، ليلُها كنهارِهَا، لا يزِيغُ عنها إلَّا هَالِكٌ**»، رواه ابن ماجه عن العرباض بن سارية[(٢)]، وقال ﷺ أيضًا: «**بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمْحَة، ومَن خَالفَ سُنَّتي فليسَ منِّي**» رواه السُّيوطيُّ عن جابر بن عبد الله[(٣)].

---

(١) الدَّياجير: جمع ديجور، وهو الظَّلام. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٧٨).

(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٤٣).

(٣) رواه السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (٦٠٨٦).

إخواني! إنَّها عظةٌ وذكرى علينا أن نجعلَ منها درسًا عمليًّا نستفيدُ منه، ونفيدُ في حالنا ومستقبلنا، فنتذكَّرُ صاحبَ الذِّكرى صلواتُ الله عليه، في نشأتِه وشبابِه ونبوَّتِه ورسالته، وفي دعوتِه وجهادِه، وفي صبرِه ومُصابرته، في مسراه ومعراجِه، وقد رأينا ذلك بعقولِنا، وتحدَّثنا به، واهتززنا هزَّة الإجلال لذكره، فإذا رجعنا إلى أنفسنا أفرادًا وأمَّةً، ثمَّ سألنا أنفسنا: هل نحنُ مقتدون؟ ثمَّ فكَّرنا وقدَّرنا، فإذا الجواب: لا.

إذن فلْنَنظرْ إلى أخطائنا في أنفسِنا، ومجتمعِنا، وبيوتِنا، ومدارسِنا، وأسواقِنا، وعملِنا، وقضايانا، وشؤوننا جميعها، ولنُسرِعْ لإصلاح ما فسد منها، وتقويم ما اعوجَّ، وإكمالِ ما نَقُصَ، وتأليف ما اختلفَ، لا نريدُ بذلك إلَّا خدمةَ المجتمع العامِّ، لا نريد به إلَّا تجديدَ ما اندثرَ من معالمِ الإسلام، ولا نريدُ إلَّا إخراجَ النَّاسِ من الظُّلماتِ إلى النُّور كما أراده ربُّ العالمين، ودعا إليه سيِّدُ المسلمين ﷺ، وكما فعلَه السَّلفُ الصَّالحُ من المسلمين؛ امتثالًا لأمرِ اللهِ الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأمره تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أيُّها الإخوان! إنَّها عِظةٌ وذكرى، فأين المتَّعظون والمتذكِّرون؟! وإنَّ في سيرةِ وجهادِ رسول الله ﷺ لذكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فمتى يا قومُ نرجع إلى الإسلام؟ ومتى

نتأسَّى بسيرة نبيِّ الإسلام ﷺ؟ ومتى ننهضُ بالدَّعوة إلى الله؛ ليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور؟ فإنَّ ظلماتِ اليوم لا تشبهُ ظلماتِ الأمسِ البعيد يوم مبعث صاحب الذِّكرى ﷺ، لقد كانت الظُّلمات يوم ذاك جهلًا وضلالًا وفقرًا وخوفًا واختلافًا، أمَّا ظلمات اليوم، فإنَّها فسادٌ في العقيدةِ، والأخلاقِ، وضلالٌ في العقولِ، وعبوديَّةٌ واستعمار وظلم وقسوة وتفرقة، وحدود إقليميَّة، ظلماتٌ حجبتِ البصرَ والبصيرة، وأطفأتْ ضياءَ العقول، وليس لمحو هذه الظُّلمات إلَّا نور الإسلام، ولن يُطهِّرَ هذه القلوب إلَّا ما طهَّر قلوبَ الأسلاف: «**ولن يُصلِحَ آخرَ هذه الأمَّة إلَّا بما صلحَ به أوَّلها**»(١).

أيُّها الإخوان! إنَّها عظةٌ وذكرى ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقبل أن يتوفَّى اللهُ نبيَّه بأقلَّ من مئةِ يوم وفي موقفِ عرفة أو منى أنزلَ عليهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، فعَلِمَ ﷺ قرْبَ أجلِه، ووقفَ يخطُبُ في النَّاسِ خطبةً طويلةً سمَّاها أصحابُه خطبةَ الوداع؛ لأنَّه قال فيها: «**لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا**»(٢)، وحثَّ أمَّتَه فيها على العمل الصَّالح في سبيل مصلحة الأمَّة، وبيَّنَ فيها حقَّ الفردِ في المجتمع، وحقَّ المجتمع على الأفراد، وممَّا قاله ﷺ: «**يا أيُّها النَّاسُ، ألَا إنَّ ربَّكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحدٌ، ألَا لا فضْلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه النسائي، رقم: (٤٠٠٢).

عـربـيٍّ، ولا لأحـمـرَ عـلـى أسـود، ولا لأسـودَ عـلـى أحـمـرَ إلَّا بالتَّقوى»(١)، و«**النَّاسُ بنو آدم وآدم من تراب**»(٢)، وقال ﷺ أيضًا: «**المسلمون إخوة، ولا يحلُّ لامرئٍ من مالِ أخيهِ إلَّا ما أعطاهُ عن طيبِ نفسٍ، ولا تظلموا، ولا ترجعوا من بعدي كُفَّارًا يَضرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ**»(٣)، و«**إنِّي تركتُ فيكم، ما إنْ أخذتم به لن تَضِلُّوا؛ كتاب اللهِ، وعِتْرَتي**(٤) **أهلَ بيتي**»(٥)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجرَات: ١٠].

إذن فالوحدة أمرٌ أَمَرَ فيه الإسلام منذ ألفٍ وأربعمئةِ عامٍ، وأمر الله به رسوله، فما دامت الوحدة دام الإسلامُ، وما أمروا بالجهاد إلَّا للوحدة، فالوحدة هي سبيل الله، والدَّعوة أيضًا جهادٌ في سبيل الله، وهي حبل الله، ومن اعتصم به هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم، وهي السِّلْم الَّذي دعا الله عباده المؤمنين للدُّخول فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨].

هكذا كان الإسلام، وهكذا كانت أواصر الأخوَّة والوحدة في الإسلام، وعليها أُسِّسَت دولتُه، ورُفِعَت رايتُه، وعليها اعتمد رسولُ الله ﷺ في تكوين أمَّةٍ صابرتْ وصبرتْ أمام هجماتِ الوثنيَّة الحاقدة،

---

(١) رواه أحمد، رقم: (٢٣٤٨٩).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٣٩٥٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٣١٨).

(٤) عِتْرَة الرجل: أَخَصُّ أقاربه. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ١٧٧).

(٥) رواه الترمذي، رقم: (٣٧٨٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

واليهوديَّة الحاسدة، وأمام سائر الخصوم المتربِّصين، ثمَّ خرجت بعد جهاد طويل وهي رفيعة العماد، وطيدة الأركان، وبعدُ:

فوحدةُ المسلمين فريضةٌ، كفريضةِ الصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّ اللهَ أوجبها في كتابه بقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال ﷺ: «**مَن خرجَ مِن الطَّاعة وفارقَ الجماعةَ فماتَ، ماتَ ميتةً جاهليَّةً**»[١]، وقال ﷺ: «**يد الله مع الجماعة، ومَن شذَّ شذَّ إلى النَّار**»[٢]، وأعداءُ الإسلام حريصونَ على أَنْ يفرِّقوا بين أبناءِ الإسلام في عقائدهم، وأقاليمهم، وشعوبهم، وأهوائهم، وجماعتهم، بل حتَّى أفرادهم، والمسلم مَن جاهدَ في الإصلاح، ورأبَ[٣] الفتقَ، وجبرَ الكَسْر، ووضعَ لبنةً في بناء وحدةِ أمَّته، وأَختَتِمُ كلمتي بهذه الأبيات:

---

(١) رواه مسلم، رقم: (١٨٤٨).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (٢١٦٧)، وقال: هذا حديث غريب.

(٣) رأب: أصلحَ. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢/٤٥٦).

إنَّ الحياة بذلَّة عَيشُ الرَّدِي

يـا شـهـرَ إسـراءِ الـنَّـبـيِّ مُـحـمَّـدِ ... فـاخِـرْ بـهـذا الـعـامِ شـهـرَ الـمـولـدِ
عـيـدانِ: عـيـدٌ لـلـنَّـبـيِّ ووحـدةٌ(١) ... يـسـعـى لـهـا الـبـطـلانِ سـعـيَ مـجـدِّدِ
غـرسَ الأوائـلُ غـرسَـهـا بـجـهـادِهـم ... ونـضـالِـهـم، وبـعـزمـةٍ لـم تـبـردِ
شُـكـرِي تـعـهَّـدَ غـرسَـهـا بـدفـاعِـه ... وجـمـالُ أنـمـاه بـطـيـبِ الـمـوردِ
مـصـرٌ وسـوريَّـا كـيـانٌ واحـدٌ ... بـكـفـاحِـهِ ودفـاعِـهِ والـمـقـصـدِ
بـلـوائِـه وبـجـيـشِـه وحـدودِه ... ومُـشـرِّعِـيـهِ وشـعـبِـه والـسَّـيِّـدِ
فـالـيـومَ لا بـغـضـاءَ تَـفْـرُقُ بـيـنَـنـا ... الـشَّـرُّ ولَّـى فـسـادِ الْـمُـفـسِـدِ
الـقـاهـريُّ يـقـولُ: شـامٌ مـوطـنـي ... وحما تقولُ: سعودُ طنطا مسعدي
وغـدًا ستنضمُّ الشُّعوب جميعُها ... ويصافحُ السُّوريُّ مسقطَ باليدِ
فـشـمـالُـنـا لـجـنـوبِـنـا وعـراقُـنـا ... لِـمُـرَاكِـشٍ بـسـهـولِـهـا والأنـجـدِ
عـربـيـةٌ بـلـسـانِـهـا وبـروحِـهـا ... ودمـائِـهـا وبـديـنِـهـا والـمـقـصـدِ
وجـمـيـعُـهـم فـي نـهـضـةٍ عـربـيَّـةٍ ... رفـضـوا حـيـاةَ الـذُّلِّ لـلـمـسـتـعـبِـدِ

* * *

هـذا الـعـدوُّ بـمـكـرِه ودهـائِـه ... دفعَ الشُّعوبَ إلى خصامٍ أنكدِ
وإذا الـبـلادُ غـنـيـمـةٌ وغُـزاتُـهـا ... قـومٌ لـئـامُ الأصـلِ خـبـثُ الـمـولـدِ

(١) أصل الوضع: عيدانِ: عيدُ النَّبيِّ ووحدة، والتَّعديل لسلامة الوزن من الكسر.

وإذا بـهـم أمـمٌ تُـفَـرِّقُ بـيـنَـهـم ... شتَّى الحدودِ، ولا سميعَ لِمُرشِدِ
واليومَ أشرقَ صبحُها، وظلامُها ... ولَّى، وعافَ الشَّعبُ طِيبَ المرقدِ
تـلـكَ الـدِّمـاءُ بِسُوْرِيَا وجزائـرٍ ... وعلى ضفافِ الرَّافدينِ بمشهدِ
وبِبُورسعيدَ وتونُسٍ وبمغربٍ ... وبذلك البلدِ الشَّهيدِ الموأدِ(١)
سُفِكَتْ لطردِ الغاصبِينَ عن الحِمَى ... ودعتْ لأخذِ الثَّأرِ أجيالُ الغدِ
قالوا: اطردوا المحتلَّ عن أوطانِكم ... لن تسعدوا واللهِ إنْ لم يُطرَدِ
فبلادُنا ليستْ له بمواطنٍ ... وتُراثُنا ليستْ له بالموردِ
لبَّى النِّداءَ جمالُها وبعزمِه ... أجلى عن الوطنِ العزيزِ المعتدي
وأمينُها شُكْرِي المجاهدُ مَن رعى ... شملَ العروبةِ بعدَ طولِ تبدُّدِ
والمخلصونَ أولو المواقفِ مَن رأَوا ... أنَّ الحياةَ بذلَّةٍ عيشُ الرَّدِيْ

* * *

مَن قائلٌ لذيولِ الاستعمارِ في ... أوطانِنا: بُوؤُوا بسوءِ المقصدِ
حكْتُمْ حبائلَكم فمزَّقَ حَوْكَها ... شملٌ تجمَّعَ ضدَّ عادٍ معتدي
حافلتمُ ضدَّ الشُّعوبِ عدوَّها ... كي تحكموها في حِمَى المستعبدِ
فهمُ إذا حكموا عبيدُ حليفِهم ... وهمُ وإن نَهَلُوا فأقبحُ موردِ
وشقيُّهمْ يشقى لخيبةِ سعيه ... الماءُ راقَ وعونُه لم يُصطَدِ

* * *

وابنٌ لإسرائيلَ إنَّ زوالَهم ... آتٍ ولن ترعاه نجدةُ منجدِ

---

(١) البلد الشهيد الموأد المراد: فلسطين.

وغدًا تُطَهَّرُ أرضُنا من رِجْسِهِمْ ... ويعودُ أهلُ الدَّارِ بعدَ تَشَرُّدِ
فَعُتُوُّهَا قاضٍ على أطماعِها ... وفسادُها في الأرضِ شرُّ مبدِّدِ
وغدًا سيدفعُها إلى بحرِ الفنا ... قومٌ أولو بأسٍ شددٍ مرعدِ
قومٌ إذا انتسبوا فأمَّةُ يعربٍ ... وهمُ إذا افتخروا فجندُ محمَّدِ

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]

إنَّ لكلِّ حدثٍ ذكرى نافعة توقِظُ الغافلين، وتُنهِضُ المُتكاسلين، وتحفِّزُ السَّاعين، فإن كانوا في شرٍّ باعدَتْهم منه، وقرَّبتهم من الخيرِ، وإنْ كانوا في خيرٍ ساقتهم إلى المزيد من هذا الخير، وإنَّ القرآن دعانا إلى الذِّكرى، وحثَّنا عليها، فقال لنا: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، فمن الَّذي كثَّرنا بعد قِلَّةٍ؟ ومن الَّذي ألَّف بين قلوبنا بعد عداء؟ إنَّه الله وحده، بعث محمَّدًا ﷺ بالدِّينِ الحنيف، فجمَّعَنا بعد شَتات، وكُنَّا قليلين بالتَّفرقة، فكثرنا بالاجتماع، فكُنَّا أُمَّةً واحدةً؛ مبدؤها واحدٌ، وغايتُها واحدةٌ: إيمانٌ باللهِ، ودعوةٌ إلى الحقِّ، وتطهيرٌ للبشريَّة من كُلِّ ما يدنِّسها، أو يَمسُّ كرامتها.

وها نحنُ في هذهِ اللَّيلة المباركة وفي هذا المحلِّ الطَّاهر الشَّريف نجتمع لذكرى كريمةٍ عزيزةٍ علينا، مقدَّسة في قلوبنا، هذه الذِّكرى الزَّكيَّة المقدَّسة في ذكرى مولد النَّبيِّ العربيِّ محمَّد بن عبد الله، فحيَّا الله هذه الذِّكرى؛ ذكرى الميلاد الَّذي نصر الله فيه أُمَّة العرب على أصحاب الفيل، وحفظهم وحفظ كيانهم من دعاةِ الضَّلال وجنودِ الأباطيل، ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ٣-٥]، حيَّا الله هذه الذِّكرى؛

ذكرى الميلاد الَّذي نَكَسَ أعلام الشِّرك، وهزم جنود البغي، وقوَّض[١] صروح الظُّلم، ودكَّ حصون الأكاسرة والأباطرة، وفتح عيون النَّاس للحقِّ والحرِّيَّة، حيَّا الله هذه الذِّكرى؛ ذكرى الميلاد الَّذي غيَّر أوضاع الحياة؛ فحرَّر بعد عبوديَّة، وعَلَّم بعد جهلٍ، وعَدَلَ بعد ظلمٍ، وساوى بعد تفاضُلٍ، ووحَّد بعد تفرقةٍ، وارتفع بالإنسانيَّة إلى المكان اللَّائق بها، حيَّا الله هذه الذِّكرى؛ ذكرى الميلاد الَّذي انتصر به الحقُّ الأعزل على الباطل المُسلَّح، فكان أنْ حقَّ الله الحقَّ بكلماته، وقطع دابر[٢] الكافرين: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨].

إنَّها ذكرى عزيزةٌ علينا، حبيبةٌ إلى نفوسنا، مُقدَّسة في قلوبنا، نُحِبُّ صاحبها؛ لأَنَّه أحسنَ إلينا، فهدانا بعد ضلال، وبصَّرنا بعد عمى، وأسعدنا بعد شقوة، وجمعنا بعد فرقة، وأحيانا بعد ممات، نُحِبُّ صاحبها؛ لأَنَّه جاءنا بنورٍ من الله وكتابٍ مُبين ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [المَائدة: ١٦]، وقد كانت والله ظلمات كثيرة، جهالة جهلاء، وحميَّة عمياء، وعقائد فاسدة، وقلوب غُلْف[٣]، وخرافات مضلِّلة، وعادات جافَّة، وظلم غاشم، وقسوة وفرقة وسَفَه، ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا

---

(١) قوَّض: نقضه من غير هدم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٢٢٤).

(٢) الدَّابر: الأَصل ؛أَي: أذهب اللَه أَصله. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/ ٢٦٨).

(٣) غلف: عليه غشاء عن سماع الحق وقبوله. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٢٢٥).

فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النُّور: ٤٠]، بدَّدها محمَّد بن عبد الله ﷺ بالنُّور المُبين، والمشعل المضيء الوهَّاج، فأخرجنا من الظُّلمات إلى توحيد الخالق، إلى العلم، إلى وحدة الصُّفوف وتأليف القلوب، إلى تطهير النُّفوس والعقائد وتصحيح العقول، إلى العدل، إلى الإيثار، إلى نكران الذَّات، إلى الفداء في سبيل الله وسبيل الحقِّ، إلى إحسان المعاملة، وهذا ما يعلمه المسلمون كلُّهم ولا ينكرونه، ولكنَّهم لا يتذكَّرونه، وكان الواجب عليهم أن يتذكَّروه ولا ينسوه.

إنَّنا نحبُّ محمَّدًا ﷺ ونُحِبُّ ذكراه؛ لأنَّه نعمةٌ حَبَا اللهُ بها العرب خاصَّةً، والأُمَمَ الأُخرى عامَّة، فجعلَ من أُمَّةِ العرب والَّذين اتَّبعوه أُمَّةً عادلةً في الحكمِ، ماحيةً للظُّلمِ، آمِرةً بالخيرِ، ناهيةً عن الشَّرِّ، قائمةً بالقسطِ، باذلةً للنَّفعِ، أنقذت العالمَ من الاستعباد إلى الحرِّيَّة، ومن الاستبدادِ إلى العدالةِ، ومن الفوضى إلى النِّظام، ومن الشَّرِّ إلى الخير، ومن الخوفِ إلى الأمن، ومن الظُّلمات إلى النُّور، وكانت أُمَّة محمَّدٍ ﷺ كما أراد الله لها خير أُمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، تأمرُ بالمعروفِ، وتنهى عن المُنكر، وتُؤمِنُ باللهِ.

إنَّنا نُحِبُّ محمَّدًا ﷺ، ونُحِبُّ ذِكراه؛ لأنَّنا نَدِينُ لله تعالى بِحُبِّه، ولن نُؤمِنَ حتَّى يكون ﷺ أَحَبَّ إلينا من أبنائنا وآبائنا وأُمَّهاتِنا وأموالنا، وحتَّى من أنفسنا الَّتي في أجسادنا؛ يقول ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أحدكم حتَّى أكون أحبَّ إليه مِنْ ولدِهِ ووالده والنَّاس أَجمَعِينَ**»(١)، وإِنَّ المسلم إذا قال: أشهد أَن لا إله إلَّا الله، لا تتمُّ شهادته إِلَّا إذا

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤)، ومسلم، رقم: (٤٤).

قال: وأَشهدُ أَنَّ محمَّدًا رسول الله، وإذا قال المؤذِّن: أشهدُ أَن لا إله إلَّا الله، لن يتمَّ أذانُهُ حتَّى يقول: أشهدُ أَنَّ محمَّدًا رسول الله، والمُصلِّي إذا قال في تَشهُّدِهِ: أَشهدُ أَن لا إله إلَّا الله، لا تتمُّ صلاته حتَّى يتمَّها بقولهِ: وأشهدُ أَنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وإِنَّنا نُحِبُّ محمَّدًا ﷺ؛ لأَنَّه وصلَ شعوبًا في المشرق بشعوبٍ في المغرب، فجعل مِنهم أُمَّةً واحدةً تربطها لغةٌ واحدةٌ، هي لغةُ القرآن بل القرآن وحده؛ إِنَّه رِباطٌ عجزت فطاحل السِّياسة وأقطابها في أزمانها جميعها أَن تأتي بِمِثْلِهِ، إِنَّه أقوى من رباط القُربى ورباطِ الدَّم، إِنَّه رباط العقيدة والإسلام.

أَيَّها الإخوة الكرام! إِنَّنا نُحِبُّ محمَّدًا ﷺ؛ لأَنَّه جاءنا من عند الله بدينِ الحقِّ؛ دينٍ أَجْمَلَهُ ربُّنا جلَّ جلالهُ بكتابهِ، وفصَّلَهُ ﷺ بسُّنَّتِه، فهو دين القوَّة والعمل، دينُ اليقظة والحذَر، دين العزَّة والكرامةِ، دين التَّفاني في سبيلِ الحرِّيَّة والدَّعوة إلى الحقِّ، وليس دين مظاهر خدَّاعة، ولا دين أقوالٍ فارغة، ولا دين انقطاع عن الدُّنيا، ولا دين تقشُّف ورهبنة، ولا دين تخاذُل وتواكل أو تكايا وزوايا، ولا دين أناشيد وموسيقا، ولا دين تغزُّل في أوصاف نبيٍّ كريم نهانا مَن أرسله لهدايتنا أن نخاطبه كما نخاطب أحدًا من النَّاسِ، فقال لنا: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النُّور: ٦٣]، ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ [الحُجرَات: ٢].

أَيُّها السَّادة! إنَّ من الواجب علينا أن نتحدَّث عن سيرة هذا النَّبيِّ الكريم في يومِ ذكراه، لا لنسمع قصَّة رجلٍ عظيم وُلِدَ، فعاشَ، ثمَّ مات، ولكن لنجعل هذه السِّيرة ذكرى تنفعنا في مستقبلنا إن كنَّا مؤمنين، ذكرى تقرِّبنا من الخير وتزيدنا منه، وتباعدنا من الشَّرِّ وتمنعه عنَّا، فلنتَّخذ من سيرته وسيرة أصحابه الَّذين تخرَّجوا في مدرسته مدرسةِ النُّبوَّةِ قدوةً فاضلةً، وأُسوةً طيِّبةً حسنةً، ونعمل بدين الله الَّذي جاءنا به، ونَسِرْ على الشَّرعِ الَّذي هدانا إليه، ونتمثَّل بالسُّنَّن الَّتي سَنَّها لنا، ونتَّبع الأخلاق الَّتي أوصانا بها، فإذا عملنا بما شرَّع الله لنا من دينه وأخلصنا لله في أعمالنا، نجحنا؛ «**فلن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»(١).

أَيُّها الأخوة! ها هي طلائع النَّصر قد ظهرت، وها هي شمس الحريَّة بالنُّور أشرقت، وليعلم العرب في مشارق الأرض ومغاربها أَنَّ العروبةَ إِنَّما اعتزَّت بالإسلام، وأَنَّ مجدَ العربِ بناه الإسلام، وأنَّ سلطانهم قام بالإسلام، وامتدَّ حينما تمسَّك السَّلف بالإسلام، وإذا تمسَّك الخلف به حقَّق الله لهم وعده، كما حقَّقه لأسلافهم، يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النُّور: ٥٥]، وبعد:

(١) سبق تخريجه.

أَيُّها المستمعون الكرام! فإِنَّ لِكُلِّ حدثٍ ذكر، وإِنَّ من أعظم الذِّكريات في تاريخ الإسلام - بل في تاريخ البشريَّة كلِّها - ذكرى هذه اللَّيلة؛ إذ فيها أعظمُ حدثٍ مرَّ عليه في مثلها، منذ أربعة عشر قرنًا وُلِدَ سيِّدُ الأنام صلوات الله وسلامه عليه، وإِنَّ ميلاده ذكر، وإِنَّ في نشأته ذكر، وإِنَّ في حياته وفي جهاده وفي عشرته لأهله وفي تعليمه وفي معاملاته وفي كلِّ شأنٍ من شؤونه ذكريات كريمة، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذّاريات: ٥٥].

من ذكرى الهجرة

وحول عام (١٣٨٠هـ)(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدَّثر: ١-٧].

كلماتٌ مقدَّسة، وآياتٌ بيِّنات نزَلَ بها الرُّوح الأمين، بأمر ربِّ العالمين، على المبعوث محمَّد الأمين ﷺ، وقد جاء قريبًا من غار حراء في جبل خارج مكَّة، ليقول لأهله: زمِّلوني دثِّروني؛ لأنَّه رأى ما لا عهد له به؛ رأى جبريل قد نزل عليه يقول له: اقرأ، ولمَّا قال له: ما أقرأ؟ ضَمَّهُ إليه ضمَّةً قويَّة حتَّى بلغ منه الجهد، ثمَّ أرسله، وقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: ١-٥]، هذا شيءٌ لم يكن له عهدٌ فيه، فقد كثرت الخرافات والكُهَّان في هذا العصر، فخاف ﷺ أن يكون ذلك شيطانًا أو جنًّا أو وهمًا، فقالت له زوجه البارَّة الكريمة خديجة بنت خويلد: كلَّا! لا يخزيك الله أبدًا، ثمَّ أخذته إلى ورقة بن نوفل - رجل قرأ الكتب السَّماويَّة وكتبها،

(١) أي: سنة (١٩٦٠).

وعَلِمَ من العلم ما فتح الله به عليه بصيرته - فقصَّ عليه ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: هذا النَّاموس الَّذي نزلَ على موسى، يا ليتني كنت فيها جذعًا إذ يخرجك قومك.

أجل، يتمنَّى هذا الرَّجل الشَّيخ الَّذي تقوَّس عوده وعُمِيَ بصره أن يكون شابًّا جلدًا لِيَقِيَ هذا النَّبيَّ بنفسه حين يخرجه قومُه من بلده.

هذا النَّبيُّ الَّذي نُزِّلَ عليه ما نُزِّلَ على موسى سيكره قومه ما جاء به، وسيعادونه ويؤذونه، وسيمكرون به؛ ليقتلوهُ، أو يخرجوهُ، قال ﷺ - وقد أنكر كلمة ورقة؛ لأنَّه يعرفُ أنَّه المحبوب في قومه، الأمينُ على أموالهم، المُحكم في خصوماتهم -: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُم؟**»، قال ورقة: «**نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلَّا عُوديَ، وإن يُدرِكنِي يومُكَ أنصُركَ نَصرًا مؤزَّرًا**»(١)، وينتهي الحديث هنا ويسكت التَّاريخ عن ذكر ورقة بن نوفل إلَّا عن خبر وفاته، ويمضي يحدِّثنا عن دعوة النَّبيِّ لأهل بيته، ثُمَّ لعشيرته، ثُمَّ لأهل بلده، ثُمَّ يتعرَّض للقبائل في المواسم، يدعوهم إلى الله وتوحيده مُنذرًا المُعْرِض، ومُبشِّرًا المستجيب، دعا إلى الله كما دعا الأنبياء قبله ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النِّساء: ١٦٣]، وقد عُودِيَ، وأُوذِيَ أصحابه، وعُذِّبوا، وهاجر قسمٌ منهم الهجرةَ الأولى إلى الحبشة، وهاجروا الهجرة الثَّانية إلى الحبشة، وآواهم مَلِكُها، وأحسن إليهم ودافع عنهم، ثُمَّ كانت بيعة العقبةِ الأولى في السَّنةِ الثَّانية قبل الهجرة، وفي موسم الحجِّ جاء ناسٌ من

(١) رواه البخاري، رقم (٣)، ومسلم، رقم: (١٦٠).

الأوس والخزرج سكَّان يثرب يومئذٍ - وهي المدينة المنوَّرة اليوم - ليحجُّوا، فاجتمع بهم، ودعاهم إلى الإسلام، ولأمرٍ أراده الله استجابوا للدَّعوة، وآمنوا بالحقِّ الَّذي بُعِثَ به، ثُمَّ كانت بيعة العقبة الثَّانية في الموسم الثَّاني للحجِّ، وقبل الهجرة بأشهرٍ قليلةٍ وَفَدَ جمعٌ من الأوس والخزرج، وقد عرفوا دعوته من الوفد الأوَّل، وبايعوه ﷺ سرًّا، على أن يحموه ويمنعوه ممَّا يمنعون منه نساءهم وأبناءهم إذا قدم عليهم، وبدأت الهجرة بعد الموسم، فصار المسلمون يتسلَّلون؛ خوفًا من المشركين أهلِ مكَّة، قد هجروا دورهم وديارهم وأهليهم، وتركوا أموالهم، وخرجوا فرارًا بدينهم؛ ليتمكَّنوا من عبادة ربِّهم أحرارًا، لا يمنعهم من ذلك مانعٌ ما دام في ذلك رضا الله ورضا رسوله، حتَّى إذا أَذِنَ الله لنبيِّه بالهجرة سارع إلى دار صاحبه أبي بكرٍ ليُبشِّره، لكنَّ الصِّدِّيق رضي الله عنه سأله الصُّحبة، وذلك ما كان يريده الله لنبيِّه، وقد سجَّل القرآن هذا الفخر للصَّاحب الصِّدِّيق في سورة التَّوبة في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد آمن أهلُ المدينة بهذا المهاجر الكريم، وآثروا أصحابه على أنفسهم مع حاجتهم لما بذلوه، والإيثارُ على النَّفس مع الحاجة قِمَّةٌ عُليا، فهو كرمٌ بلغه الأنصار بلوغًا لم تشهد البشريَّة له نظيرًا، فلنتأمَّل قليلًا هاتين الآيتين من سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨-٩]، وهكذا كان القوم، فقد تبوَّؤوا دار الهجرة قبل المهاجرين، وتبوَّؤوا فيها الإيمان، فأحبُّوا رسول الله وأصحابه الَّذين هجروا ديارهم فرارًا بدينهم، وهاجروا إليهم فتسابقوا إلى إيوائهم، ولمَّا كان عدد الرَّاغبين في الإيواء أكثر من عدد المهاجرين، فقد قِيل: إِنَّه لم ينزل مهاجر في دار أنصاريٍّ إلَّا بقرعةٍ.

بهذا الحبِّ الكريم، والبَذل السَّخيِّ، والكرم السَّمح، والمشاركة الرَّضيَّة، والتَّسابق إلى الإيواء، والإيثار الَّذي جاوز الغاية من النُّبل، بهذا كلِّه - والأنصارُ يرون أنفسهم مُقصِّرين أمام رسولِ الله الَّذي شرَّفهم بالهجرة إليهم - صدقت نبوءة ورقة بن نوفل حين قال: «**لم يأتِ رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلَّا عُوديَ، وإن يُدرِكنِي يومُكَ أنصُركَ نَصرًا مؤزَّرًا**»(١).

وإِنَّها سنَّة الأنبياء من قبل نبيِّنا ﵇، فقد نبتْ بهم ديارهم، وأهينوا في قومهم وعشائرهم، فصبروا وصابروا؛ إرضاءً لربِّهم الَّذي اختارهم لرسالته، وأخيرًا هجروا الدُّنيا والأموال والأهل والعشيرة، وهاجروا بدينهم، ولم يطلب أهل المدينة من رسول الله معجزاتٍ كما طلب أهل مكَّة، فقال أهل مكَّة: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ﴾ [الفرقان: ٧-٨]،

(١) سبق تخريجه.

وقالوا أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، لم يطلب أهل المدينة مثل ذلك، وإنَّما آمنوا بالنُّور الَّذي نفذ إلى بصائرهم، ووصل إلى عقولهم وأعماق قلوبهم، وآمنوا بأنَّه الحقُّ؛ لأنَّه يأمرُ بالخير، وينهى عن الشَّرِّ، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأمر بنصر الحقِّ، وإذلال الباطل، وآمنوا بأنْ لا نجاة لهم ممَّا هم فيه من عداء طال أمره إلَّا أن يتمسَّكوا به وينصروه، وما هو إلَّا زمنٌ يسيرٌ فإذا بالقوم قد أبدل الله عداءهم ألفةً، وذُلَّهم عِزًّا، وجهلهم علمًا، وضلالهم هدًى، وعدمهم غنًى، وإذا بهم على اختلاف طبقاتهم وشعوبهم أُمَّة واحدة، هي خير أُمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس، أمرت بالمعروف، ونهت عن المنكر، وجاهدت في سبيل هذا الدِّين، واستماتت في الذَّود عنه، واستعذبت العذاب في الدَّعوة إليه، وباعت الأرواح في سبيل نصرته.

نشرت تلكم الأمَّة دين الله، فجاهدت مع رسول الله حتَّى لحق بالرَّفيق الأعلى، ثُمَّ جاهدت مع خلفائه، فبلغت الدَّعوة مشرق الأرض ومغربها؛ لأنَّ تلكم الأمَّة آمنت بأنَّ الدِّين الَّذي جاء به محمَّدٌ ﷺ دينٌ عامٌّ عالميٌّ، لا يختصُّ بأُمَّةٍ دون أُمَّةٍ، ولا بطائفةٍ سوى دونَ غيرها، ولا بزمانٍ، ولا بأهلِ لغةٍ دون أُخرى، فالنَّبيُّ الَّذي جاء به بُعِثَ إلى النَّاس كافَّةً، والقرآن الَّذي نزل عليه نزل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ

نَذِيرًا﴾ [الفُرقان: ١]، وهو بلاغٌ للنَّاس، لينذروا به، وليعلموا أنَّ الله واحدٌ.

إنَّه كتاب الله الَّذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢]، ودينٌ هذا كتابه لا يضعف مع الضَّعيف، بل يقوى به المؤمن الضَّعيف؛ لأنَّ المؤمن يزداد به قوَّةً، وقد ذكَّرهم بنعمتهِ عليهم، وأمرهم بأنْ يعتصموا بهذا الدِّين الَّذي ألَّف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، وكانوا ﴿عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣] فأنقذهم منها؛ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣].

أَيُّها السَّادة! ولقد تشعَّب بنا الحديث، إنَّنا خلفٌ لذلك السَّلف، فعلينا ألَّا نكون شرَّ خلفٍ لخير سلفٍ، لقد آمن سلفنا بهذا الدِّين وبكتابه، فصلحت أحوالهم بعد فساد، واجتمعوا بعد شتات، وأَمِنوا من خوف، وسادوا بعد عبوديَّة، وعزُّوا وأعزُّوا، واستفادوا وأفادوا، «**ولن يصلُح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صَلَحَ به أوَّلها**»(١)، ولقد صلح سلفنا الأوَّل بالقرآن؛ إذ اتَّخذوه دستورًا لهم، فأحلُّوا حلاله، وحرَّموا حرامه، ونفَّذوا أحكامه، وكان معهم أينما كانوا؛ في محاكمهم، ودواوينهم، ومجامعهم، ومتاجرهم، ومدارسهم، ودورهم، يأتمرون بما أمر به، وينتهون عمَّا نهى عنه، فعمَّروا ذلك المجد الزَّاهر، وشيَّدوا صرحه على قواعد متينة، وأقاموا الدَّولة

---

(١) سبق تخريجه.

الإسلاميَّة، وحكموا بالعدل، فهل يا ترى يستنُّ هذا الخلف سُنَّة ذلك السلَّف، فيشيِّد له مجدًا على قواعد ذلك المجد التَّليد؟! هذا ما نسأل الله جلَّ جلاله أن يحقِّقه، وهو الهادي إلى طريق الصَّواب.

أَيُّها السَّادة! أُهنِّئكم بالعام الهجريِّ الجديد، وأسأل الله لنا وللمسلمين عامَّة العودة لأمثاله والأُمَّةُ الإسلاميَّة قد فتحت بصيرتها، فجعلت من كتاب ربِّها دستورًا لحياتها، ومن تاريخها دليلًا لمستقبلها، ومن دينها نورًا يضيء لها السَّبيل.

لن يَصلُح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صَلح به أوَّلها

أَيُّها السَّادة! من هذا المكان الطَّاهر المقَّدس، من بيت من بيوت الله الَّتي ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ﴾ [النُّور: ٣٦]، من هذا المعبد الَّذي تسجد فيه الجباه لله، أدعو المسلمين ليجعلوا من ذكرى هذه اللَّيلة عبرةً وذكرى، فوهبَ اللهُ لنا عقولًا، وأوصانا باستعمالها، وجعل في هذا العالم حوادث وتغيُّرات وتقلُّبات، كلُّها مواعظ لمن تبَّصر، وكلُّها نصائح لمن تذَّكر، و﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

واليوم أَيُّها المسلمون في كُلِّ مكان! إنَّنا نعيشُ في ضجيج حياةٍ عبثيَّةٍ، وفي خلافٍ شديدٍ بين دعوات صاخبة لمبادئ حزبيَّة متباينة، وأهواء مختلفة، منها الهدَّام للأخلاق والفضائل، ومنها السِّياسيُّ وغير السِّياسيِّ، وكُلٌّ منهم يدَّعي لنفسه الكمال، وكُلٌّ يدَّعي أَنَّه على حقٍّ، وكلُّهم بعيدٌ عن الكمال والحقِّ، إلَّا من وافق الحقَّ، وبين هذه الأصوات الصَّاخبة تقفُ دعوةُ الله ساخرةً من كلِّ داعيةٍ مهما كان صوته شديدًا، وجنده قويًّا، وناصره عنيدًا، وأهل الدَّعوة إلى الله غافلون، وبعضهم يائسون، ومنهم العاجزون، ولو أَنَّهم عملوا واستعانوا بالله لنجحوا كما نجح أسلافهم السَّابقون الأَوَّلون، ولو

أخلصوا لله لفازوا بالدَّعوة كما فاز بها المخلصون، وما أشبه اللَّيلة بالبارحة!

وُلِدَ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه والمجتمع العربيُّ خاصَّةً، والعالم عامَّةً يتأرجحُ فوق بركانٍ ثائرٍ بالعادات المختلفة، والعباداتِ الزَّائفة، والتَّقاليد المتباينة، وقد أفقدت العداوات أمنهم، وسلبت أقواتهم، وأكلت الحروب رجالهم، واستعبدت نساءهم وأطفالهم، أُممٌ أهواؤها شتَّى، وشعوب نوازعها مختلفة، إِن هي إلَّا كالحيوان؛ لأنَّها تنافس الحيوان في بناء البقاء في هذه الحياة العالميَّة الصَّاخبة، وفي هذه القبائل المتناحرة المتعادية والأُمَّة الأُمِّيَّة الجاهلة يُولَدُ محمَّد ﷺ، وينشأ ويشبُّ وقد تخلَّق بأخلاق امتاز بها على قومه جميعهم، فكان أفضلهم بها، فلم يسجد لصنمٍ قطُّ، ولم يكذب، ولم يقرب فاحشةً، ولا قارب إثمًا، ولا شربَ مسكرًا، ولم يخلف وعدًا، ولم يخن أمانةً ولا عهدًا، كَلَأَهُ الله بعنايته، ورعاه برعايته، وأدَّبه فأحسن تأديبه، فهو كما وصفه قومه قبل البعثة بالصَّادق الأمين، وهو كما قالت عنه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها: «**يصل الرَّحم، ويحمل الكلَّ، ويكسب المعدوم، ويقري الضَّيف، ويعين على نوائب الحقِّ**»[(١)].

ويبعث الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ ليبعث به الإنسانيَّة عامَّة، والأمَّة العربيَّة خاصَّة من رقادٍ طال أمده، فيخرجها من ضلالٍ إلى هدى، ومن فرقة إلى تآلفٍ، ومن جهالة إلى معرفة، ومن ظلام إلى نور، وإذا بالأُمَّة

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٣٤٦).

العربيَّة أُمَّةِ النَّبيِّ الكريم تحمل المشعل الَّذي أضاء للأُمم جوانب حياتها المظلمة، فكانت لها الحياة، وإذا بها قد ظهر منها رجالٌ قادةٌ، تواصوا مع جنودهم بالحقِّ، وتواصوا بالصَّبر، وشقُّوا الطَّريق نحو المجد والكمال بخطوات ثابتةٍ، فكان الله معهم كما وعدهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨﴾ [محـمَّد: ٧-٨]، علَّموا كما علَّمهم نبيُّهم ﷺ، فدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وصبروا وصابروا، وقاتلوا دفاعًا عن الدَّعوة إلى الله، وقُتِلُوا في سبيلها، وعلموا أَنَّ الحياة لا تكون إلَّا بالاستقرار، والاستقرار لا يكون إلَّا بالتَّآلف، فجمعوا الشَّمل، ووحَّدوا القصد، وعمدوا إلى بناء الوحدة في نفوس الشُّعوب، فكان لهم ما أراده لهم الله؛ استخلافًا في الأرض، وتمكينًا لدينهم، وأمنًا في أوطانهم، وامتدادًا لسلطانهم، حتَّى أذَّن المؤذِّن في جبال القفقاس، وعلى شواطئ الأطلسيِّ، وردَّد صدى هذا الأذان مَن في وديان بخارى وطشقند، وسهول السِّند والبنجاب.

اهتمُّوا بالدَّعوة لدينهم، فبيَّنوا للنَّاس سماحته وعدله، وأوضحوا لهم محاسنه، وشرحوا أحكامه، وهدوا به إلى صراطٍ مستقيم، وطال الأمد، ومرَّ خير القرون، ثُمَّ الَّذين يلونهم، ثُمَّ مرَّت قرونٌ أُخرى، وإذا بهذه الأُمَّة - الدَّاعية إلى الله والحقِّ، الآمرة بالمعروف، النَّاهية عن المنكر - قد نامت تحت وطأة الزَّمن، واستيقظت أُممٌ غيرها، لماذا؟ لأنَّ النَّوايا تبدَّلت، فحلَّ الطَّمع محلَّ الإيثار، وحُبُّ الرِّياسة والشُّهرة محلَّ الإخلاص، وزُيِّن لهم حُبُّ الشَّهوات، واقتنعوا بالتَّرف

والنَّعيم، ووكَّلوا أمرهم إلى غيرهم، ومع هذا تتشدَّق هذه الأُمَّة وتقول: إنَّها خير أُمَّة أخرجت للنَّاس، وتسخِّر لهذا قول الله ورسوله ﷺ في زمنٍ بلغ فيه أهل العلم مبلغًا، سخَّروا لمنافعهم الرِّيح والكهرباء والأثير والذَّرَّة والقوى جميعها، والمسلمون في العالم كثيرون، ولكنَّهم شيعٌ وأحزابٌ ما تعارفوا ولا تقاربوا، أمرهم دينهم بالاعتصام بحبله فاختلفوا، أمرهم بالتَّآخي والتَّآلف فتنازعوا، أمرهم بالعلم وطَلَبِه فجهلوا، وجهلوا حتَّى دينهم، وجهلُهم بدينهم سلبَهم الغيرة عليه، فلا يدعون إليه، ولا يدافعون عنه، وإنَّ جهلنا بديننا - أيُّها السَّادة - صيَّرنا إلى حالةٍ لم يسبقنا إليها دينٌ من الأديان، وقد حذَّرنا من ذلك رسول الله ﷺ إذ قال: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتَّى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ النَّاس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا**»[(١)]، وفي أكثر بلاد المسلمين اليوم ترى رؤوسًا جاهلةً، سترت جهلها بالزِّيِّ الخادع؛ سُئِلَت فأبت أن تقول: لا أدري، فأفتت بغير علم، فضلَّت وأضلَّت، ومع هذا نخادع أنفسنا ونقول: إنَّنا خير أُمَّة أخرجت للنَّاس، وقد استغلَّ عدوُّنا جهلنا بديننا، فقسَّمَنا إلى قوميَّات، ولم يكفهِ ذلك، بل قسَّمنا إلى أقاليم، فمزَّق وحدتنا الَّتي أرادها الله لنا، وشتَّت شملنا، وفرَّق جمعنا، بل قتلَنا بعداءٍ بثَّه فينا، ولم يكفه ذلك حتَّى جعل من بعضِ الرُّؤوس الضَّالَّة المُضلَّة الَّتي لا علم لها ولا دين، محرِّفًا معنى قرآننا وسنَّة

(١) رواه البخاري، رقم: (١٠٠)، ومسلم، رقم (٢٦٧٣).

نبيِّنا، داسًّا في ديننا ما ليس من الدِّين، حتَّى اشتبه علينا الباطل بالحقِّ، ثُمَّ اتَّبع ذلكَ سبلًا فرَّقتنا عن سبيلِ الله، حتَّى تُهنا في بيداء ضلالٍ لا نور فيه لبصيرة، ومسلكٍ وَعِرٍ لا سلامةَ فيه لسالك، فضعنا وهُنَّا، ومع هذا نخادع أنفسنا ونقول: إنَّنا خير أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاس.

نعم والله أَيُّها السَّادة! لقد كان سلفنا أهلُ القرون الأولى من المسلمين خير أُمَّة أخرجت للنَّاس؛ لأنَّها سلكت بالنَّاس سبيلَ الخير، فعدلت في الحكم، وعلَّمت الجاهل، وأرشدت الضَّالَّ، ونصحت لله ولرسوله وللمسلمين كافَّةً، ولو أَنَّ هذا الخلف سلك سبيل ذلك السَّلف، فأخلصوا لدينهم، وتضامنوا ونبذوا الخلافات، ووحَّدوا الكلمة، ونفَّذوا أوامر الدِّين كلَّها، لأصبحوا - والله - قوَّةٌ لا تقهر، وأُمَّةٌ لا تُغلَب، ولواجهوا حركة الدُّنيا، وتحكَّموا في مصير العالم كُلِّه.

أَيُّها المسلمون! إنَّ أُممَ العالم كلَّها تكالبت ضدَّ الإِسلام على اختلاف مللها ونحلها، وكلُّها ترى الإسلام خطرًا عليها، فهي تكيد له، وتحيك مؤامراتها ضدَّه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

وأنتم أيُّها العرب! فيكم ظهر الإسلام، وبه أعزَّكم الله، فمجد العروبة ودولتها وإمبراطوريَّتها وتاريخها وحضارتها وثقافتها وأدبها وفلسفتها وانتفاضتها ما قامت إلَّا بالإسلام، وجديرٌ بنا بعد هذا كلِّه أَن نعتزَّ بالإسلام، ونفخر بنبيِّ الإسلام، وتتشرَّف الزَّعامة العربيَّة بالانتساب إليه، ونعدَّه المثل الأعلى في حياتنا، فليس أحد أعظم

فضلًا وأكرم يدًا على الأُمَّة العربيَّة والمجتمع العربيِّ من النَّبيِّ الكريم ﷺ.

جديرٌ بنا أن نعود إلى الإسلام لنعمل به، فبه بدأ مجدُنا، ولن يعود لنا مجدٌ إلَّا به، «**فلن يصلُحَ آخر هذه الأُمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلـهـا**»(١)، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمَّد: ٧]، و﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمَّد: ٣٨].

أيُّها السَّادة! يحتفل العالم الإسلاميُّ اللَّيلة وغدًا بذكرى ميلاد النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، فتُقام لذلك الحفلات، ويتبارى الخُطباء والشُّعراء بما يلقونه من منظومٍ ومنثورٍ في المجتمعات أو في الإذاعات، فنسمع ثُمَّ ننسى، شأننا في ذلك شأن ما قِيل في أعوام خَلَت لذكريات احتُفلَ بها، والإسلام - أيُّها المسلمون - لا يريد ذلك؛ لأنَّ الاحتفالات لا تُرهِب عدوًّا ولا تمنع اعتداءً، والخُطب البليغة والقصائد الرَّنَّانة لا تردُّ كيدًا ولا تبني مجدًا، والكلام المعسول لا يبعث أُمَّة.

إنَّ الإسلامَ ونبيَّه يريدان منا أفعالًا، إنَّهما يأمرانِ أن نعمل ثمَّ نعمل، والرَّسول الله ﷺ بُعِثَ فعَّالًا ولم يُبعَثُ قوَّالًا، والإسلام الَّذي بُعِثَ به يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصَّف: ٢-٣].

---

(١) سبق تخريجه.

نعمة الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٩﴾ [الصَّف: ٩]

أَيُّها السَّادة! نحن الآن أمام ذكرى عظيمة مقدَّسة، حبيبة إلى نفوسنا، عزيزة علينا، هي ذكرى إسراء حبيبنا العظيم الكريم محمَّدٍ - الَّذي بعثه ربُّه رحمةً للعالمين - ومعراجه.

ذلك الإسراء الَّذي أنعم الله به على عبده، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الَّذي بارك حوله، وأراه في هذا الإسراء من آياته ما شرح به صدره، ورفع به ذكره، وأعانه على تبليغ الرِّسالة، وأداء الأمانة، وذلك المعراج الَّذي رفعه إلى المكان الأعلى الَّذي لم يصل إليه أحد قبله من الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقرَّبين، فكان كما قال ربُّ العزَّة جلَّ جلاله: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النَّجم: ٧-١٨]، وإنِّي أترك الحديث عن الإسراء والمعراج

لإخواني أصحاب الفضيلة الكرام؛ لأنِّي جعلت موضوع كلمتي هذه: الدِّين الَّذي جاء به هذا النَّبيُّ الكريم نعمة من الله.

أيُّها السَّادة! كان النَّاس قبل بعثة محمَّد ﷺ في حروب طاحنة، وعداء مستحكم، وظلمات من الجهالة، وفقر من مقوِّمات الحياة، جوعٌ أضمر أجسامهم، وعريٌ أيبس أجسادهم، وخوف هلعت له قلوبهم، غنيُّهم يظلم فقيرهم، وقويُّهم يأكل ضعيفهم، لا جامعة تجمعهم، ولا صلة تربطهم، ولا قوميَّة توحِّد كلمتهم، ولا وطنيَّة تؤلِّف بينهم، لا يهنؤون بعيشٍ، ولا يطمئنُّون إلى حياةٍ، وجاء الله بهذا الدِّين، فألَّف به بين القلوب، وزكَّى به النُّفوس، وأنارَ به العقول، وأبدلهم بالخوف أمنًا، وبالفزع طُمأنينةً واستقرارًا، وبالتَّفرقة وحدةً وتماسكًا، وبالعداوة أُلفةً وإخاءً، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وأخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نورِ العلم، ومن ظلمات الضَّلال إلى نور الهداية، ومن ظلمات العبوديَّة إلى نور الحرِّيَّة، ومن ضيق العُسرة إلى سعة الميسرة، وحفظهم من الجوع والخوف، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قُريش: ٤].

جاء الله بهذا الدِّين، فوحَّد به في ثلث قرن الجزيرة العربيَّة مع ما جاورها من العراق والشَّام تحت علمٍ واحدٍ، وعقيدةٍ واحدةٍ هي عقيدة التَّوحيد الَّتي حرَّرت العقول من قيود الخرافات والجهالة، وطهَّرت القلوب من رواسب المذلَّة والأوهام، هذه الجزيرة الَّتي

كانت ميدان فوضى واضطراب، وأَتُّون[1] عداوة وبغضاء، يهلك بحروبها الشُّيوخ والكهول، وتلتهم نيرانها الشَّباب، وتسلبُ لقمة العيش من أكباد الجائعين، وتحيل الحرَّة العزيزة إلى أَمَةٍ ذليلةٍ، والسَّيِّد المطاع إلى أسيرٍ مُهان.

صنع الله بهذا الدِّين من أهل هذه الجزيرة رجالًا غيَّروا مجرى التَّاريخ، فانطلقوا من بواديها إلى أنحاءِ المعمورة يحملون للإنسانيَّة المعذَّبة مشعل النُّور؛ ليضيئوا به للنَّاس سبيل الحياة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠]، نعم والله ظهر من هذه الجزيرة رجالٌ أضاؤوا للنَّاس بمشعل الإسلام سبيل الحياة، فكانوا أمنًا للخائفين، وعلمًا للجاهلين، واستقرارًا للتَّائهين، ورشدًا للحائرين، وهدايةً للضَّالِّين، وعَدلًا للمظلومين، وعزًّا للمضطهدين، وحرِّيَّةً للمستعبدين، وحربًا على الظَّالمين، وقوَّةً قاهرة للباغين، ولقد أعاد الله بهم للمظلومين حقوقهم، وللمهضومين كرامتهم، وللمستعبدين إنسانيَّتهم، فرفع مكانتهم بين الأُمَّم بهذا الدِّين، وزكَّى نفوسهم، وكرَّم أخلاقهم، فكانوا أنفع الخلق للخلق، به صلحوا وأصلحوا، ورشدوا وأرشدوا، وانتفعوا ونفعوا، وأحسنوا، وأُسعدوا، وكانوا لجميع النَّاس مصدرًا للطُّمأنينة والأمن، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

(١) الأتُّون: الموقد. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤/ ١٥٥).

هذا الدِّين الَّذي نعرفه، بل نعتقد به يخبرُنا التَّاريخُ والواقع أَنَّه أينما حلَّ، حلَّ معه الأمن والاستقرار والعدل والطُّمأنينة، وإذا حلَّ العدل والطُّمأنينة في وطنٍ حلَّ معهما الرَّخاء، فكان هذا الدِّين حياةً للنَّاس، وكان لهم أمنًا في هذه الحياة الَّتي بعدها سيُخلَّدون في جنَّات النَّعيم.

أَيُّها السَّادة! لا ننكر أنَّ هذا الدِّين فضلُهُ على الإنسانيَّة عامَّة، إلَّا أنَّ فَضْلَهُ على العرب أكثر، وخيره لهم أعمُّ وأوفر، فقد انتشرت العروبة بفضله في العالم، بعد أن كانت محصورة في الجزيرة العربيَّة، فكان لها أينما حلَّ مكانةً ساميةً، كما كانت للدِّين.

دخل الإسلام بلاد فارس الَّتي نسمِّيها الآن إيران، ودخلت معه العربيَّة، وكان فيها علماء وشعراء وأدباء خدموا الدِّين واللُّغة، وها هي مؤلَّفاتهم في لغة العرب يرجع إليها الباحث، ولا يستغني عنها الكاتب، ودخل الإسلام الأندلس الَّتي نُسمِّيها الآن إسبانيا، ودخلت معه العربيَّة، وكان فيها علماء وشعراء وأدباء، ملأت المكتبات الإسلاميَّة مؤلَّفاتهم العربيَّة الَّتي ذهب منها كثيرٌ وبقي منها كثير، وها هي العروبة في شمال إفريقيَّة تُجاهد وتُناضل، وقد ربطتنا روابط وحدة اللُّغة والدِّين، ولكنَّ السِّياسات المفرِّقة وضعف الدَّولة العربيَّة وانقسامها ودعاة السُّوء نهبت الأندلس من العروبة والإسلام، وسلبت إيران من العروبة، وما تزال في أجزاء من إيران حتَّى اليوم عروبةٌ وإسلامٌ، ودعوةٌ إلى العروبة، وأناسٌ - رغم مقاومة السُّلطات الظَّالمة الغاشمة - تقدِّر العروبة، وتحتفظ لها بالمكانة السَّامية.

وللإسلام فضله في حفظ لغتنا العربيَّة، فقد أكسبها دَيْمُومَةً وإشراقًا، ووهبها طاقةً خارقةً جعلت منها جبَّارًا لا يهاب الكوارث، بسط سلطانه على الوطن العربيِّ الكبير بقوَّة لا تُغلب، وحياةٍ لا يعتريها فناء، فهي في المشرق مشرقةٌ وضَّاءَةٌ، كما هي في المغرب شمسٌ لا تستسلم لغروب، واللُّغة العربيَّة باقيةٌ بقاء الإسلام.

أيُّها السَّادة! للإسلام كتاب حفظه الله جلَّ جلاله، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وبحفظه حُفِظَت العربيَّة، وقد بَلِيَت لغات غيرها ولم تبلَ، وورثت غيرها ألسنة ولم ترث، وتفرَّقت أُمَمٌ بسبب اختلاف اللَّهجات، ولكنَّ الإسلام وحَّد لهجات العرب، فليس بعد الإسلام لسانٌ إلَّا لسان القرآن، وليس هناك لهجةٌ قيسيَّةٌ أو سبئيَّةٌ، وليس هناك شاميَّةٌ أو يمنيَّةٌ، فقد جمعها القرآن في لهجةٍ موحَّدةٍ، كما جمع إلى العرب أُممًا أَلَّفت بين قلوبهم، فأحبُّوا لغة الإسلام وتفاهموا بها وإن اختلفت لهجاتهم وتباعدت أوطانهم وفرَّقهم العدوُّ إلى أقاليم، فهذه اللُّغة بل هذا المارد الجبَّار كَادَ لَهُ المشركون، وحاولوا باستعمارِهم الانتقام منه، وإشفاء غليل حقدهم، ودفنه في رمال الدَّهناء، ولكنَّهم باؤوا بالإخفاق.

وجاءت فرنسا لشمال إفريقيَّة، وحاولت باستعمارها فَرْنَسَة العرب ومحو لغتهم، وحرَّمت تعلُّم القراءة والكتابة، ولكنَّ لغتنا كانت منيعة المنال، صامدةً أمام جبروت الدَّولة الغاشمة الكبرى، متألِّقة على صفحات قلوب أبنائها العرب تألُّق دينهم، وما حفظ هذه اللُّغة، ولا حفظ عروبة أبناء هذه اللُّغة، ولا ربط بينها في وطنها الكبير من

الخليج إلى المحيط إلَّا الإسلام، ويتحدَّث أبناء العرب في بلادهم جميعها هذه الأيَّامَ في موضوع الوحدة، وتتحدَّثُ الأُمم كلُّها غير العربيَّة في موضوع وحدةِ العرب، والنَّاس فيها بين مُحِبٍّ وكاره، أو مؤيِّد ومقاوم، وكلُّنا يعرف أَن لا سعادة للعرب إلَّا بالوحدة، ولا عزَّة ولا نجاة ولا نجاح إلَّا بالوحدة، والدِّين يدعو إلى الوحدة، لا وحدة العرب فقط، بل وحدة جميع من انضمَّ تحت لواء الإسلام، وآمن بنبوَّة محمَّد ﷺ، فالدِّين يدعو إلى وحدةٍ يتفانى فيها النَّاسُ لمصلحة المجموع، ويدعو إلى وحدةٍ مُبرَّأة من الشُّعوبيَّة والطَّائفيَّة، والخلافات المذهبيَّة أو الحزبيَّة، والحدود الإقليميَّة، والفوارق الجنسيَّة أو اللَّونيَّة، فهل تكون الوحدة في الوطن العربيِّ جميعه من خليجه إلى محيطه إذا لم يقم بها داعية دين؟! وهل يستجيب لها النَّاس في الأقطار العربيَّة جميعها ما لم تُبْنَ على أساس دين؟!

ورأيي الخاصُّ - ولعلَّكم تشاركوني هذا الرَّأي - أَنَّ الوحدة الشَّاملة لن تتمَّ إلَّا باسم الدِّين، فلا وحدة إلَّا بالدِّين، ولا قوَّة إلَّا بالوحدة، ولا عظمة إلَّا بالقوَّة، وإنِّي أتفاءل أنَّ العرب سيشعرون بحاجتهم إلى دينهم، وأَنَّه لا خلاص لهم من شرور الحزبيَّة والشُّعوبيَّة والطَّائفيَّة وغيرها، إلَّا إذا حكَّموا فيهم الدِّين، وستتمُّ الوحدة، وترتفع راية العروبة بل راية الإسلام في أجزاء هذا الوطن، وستنضمُّ إليها رايات باسم الدِّين، وإذا حكم الدِّين ستخرس ألسنة دعاة السُّوء والضَّلال والتَّفرقة.

وأَمَّا دعاةُ السَّلام أو من يسمُّونهم الأقطاب فإِنَّهم دعاة مصلحة،

ومهما عقدوا من مؤتمرات أو دعوا إلى مجتمعات فلن يكون السَّلام حتَّى يُظهِر الله الإسلام، وترتفع بجهاد العرب رايته، إنَّها ليست أمانيَّ وإنَّما هي عقيدةٌ، هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده، إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التّوبة: ٣٣]، وسيظهر الله دينه كما وعد، رَضِيَ العدوُّ أم كره، ولكنَّ الإسلام ابتُلِيَ في عصوره جميعها بأفراد يدَّعون الإسلام، وما هم إلَّا وبالٌ على الإسلام، ضلَّلوا القول بمعسول أقوالهم، وحرَّفوا معاني الكلم حسب شهواتهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصَّف: ٨]، يريدون أن يشوِّهوا معنى الإسلام، ويضعفوا من شأنه، ويحطُّوا من مكانته في قلوب أبنائه، يريدون أن يُضِلُّوا كما ضلُّوا، إذ قال قائلٌ منهم: إنَّ الدِّين ذهب بأمن الحياة، ولمَّا سُئِلَ عن معنى كلمته هذه قال: إنَّ سلوك أهل الأديان جميعًا لنصرة أديانهم كان على النَّاس وبالًا ذَهَبَ بسلام الحياة، وقال أيضًا: إنَّ الدِّين صفاءٌ لا يلبث النَّاس أن يضعوا أيديهم فيه فيتعكَّر. أعوذ بك اللَّهمَّ من الضَّلال، ونسألك اللَّهمَّ الهِداية إلى سواء السَّبيل.

أَيُّها السَّادة! سؤالٌ قبل أن أختم كلمتي هذه؛ متى كان النَّاس في أمنٍ من الحياة؟ أكانوا قبل نزول أديانهم، أم بعد أن ألَّفت الأديان بين قلوبهم؟ أكانوا في أمن من الحياة في العصر الحجريِّ أم أيَّام وحشيَّتهم في الغابات، أم أيَّام بداوتهم في البوادي أم في عصورهم الوسطى؟ أكانوا في أمنٍ من الحياة في عصر البخار والكهرباء، أم في هذا العصر الَّذي أذهبت مخترعاته المدمِّرة أمن الحياة؟ هل مع

القنابل الذَّريَّة أو الهيدروجونيَّة، أم مع الصَّواريخ العابرة للقارَّات أمن الحياة؟ فلماذا يُتَّهم الدِّين بأنَّه ذهب بأمن الحياة، ولا يُتَّهم النَّاس الَّذين هم أذهبوا أمن الحياة؟ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمران: ٨].

أَيُّها الإخوة! قد علم عدوُّنا وأيقن أنَّ عزَّنا بتمسُّكنا بديننا، وأن لا قضاء علينا إلَّا إذا تخلَّينا عنه وخذلناه؛ لهذا صنع الكافر بتعاليمه المنحرفة معاول، واصطنع عمَّالًا ممَّن يدَّعون الإسلام، وكان آباؤهم يدينون بالإسلام؛ ليحفروا قبر هذا الدِّين، بعد أن يدَّعوا أنَّهم من أبنائه، ولكنَّ هذا الدِّين أبعدُ منالًا من أن تمسَّه أيديهم بسوء، وأنَّ الإسلامَ سينتصر، والعروبة ستستيقظ، وستعلم أنَّه لن يعود النَّصر إلَّا إذا رجعت إلى دينها وناصرت الإسلام، وأنَّ مجدها سيعود بالإسلام، وألفتها ستكون بالإسلام، ووحدتها لا يبنيها إلَّا الإسلام، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عِمران: ١٦٠]، وأختم كلمتي هذه بما بدأتها به، يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

وعدُ الله

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ١٣﴾ [محَمَّد: ١٣].

وقريته مكَّة من أشهر المدن في بلاد العرب، بل في بلاد الدُّنيا جميعًا، وسمَّوها أمَّ القُرى، وأيَّد الله جلَّ جلاله هذا الاسم في كتابه المبين؛ لأنَّ فيها الكعبة بيت الله الحرام، أوَّل بيت بُنِيَ في الأرضِ لعبادة الله وحده، وكانت البيوت قبله تُبنى لعبادة غيره من أوثان وكواكب وحيوان ونار، وغيرها، وهو أوَّل بيْتٍ وُضِعَ للنَّاس؛ ليطَّوَّفوا ويحجُّوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، من مشارق الأرض ومغاربها، وأوَّل بيْتٍ حرَّم الله فيه القتال والخصام والجدال، ومن أجله سمَّى مكَّة البلد الأمين، وجعله الله قبلةً للمسلمين، يتَّجهون إليه في صلاتهم أينما كانوا ومهما تباعدت بلادهم واختلفت جهاتهم، فضَّله الله على سائر المساجد، وحرَّم دخوله على المشركين، وجعله حرمًا آمنًا، لا يلجأ إليه خائف إلَّا أَمِنَ، ولا يدخله داخلٌ إلَّا أحسَّ بأنَّه في حصنٍ حصينٍ من حماية الله.

في هذا البلد وُلِدَ رسول الله ﷺ، وفيها دبَّ ودرج، وشبَّ واكتمل، أحبَّه أهلها؛ لأنَّه عُرِفَ بينهم بصدق الحديث، والوفاء بالوعد والأمانة، واصلًا للرَّحم، كريمًا للضَّيف، حمَّالًا للأعباء العظام، مُعينًا على النَّوائب، قضَّاءً للحوائج، حتَّى إنَّهم ائتمنوه على

أموالهم، وحكَّموه في خصوماتهم، ثُمَّ سمَّوه بالأمين، وإذا بهذا الأمين ﷺ بعد أنْ أتمَّ الأربعين عامًا يدعو النَّاس إلى توحيد الله بالعبادة، ونبذ الأصنام، وصلة الأرحام، والصِّدق، وتحرير الفكر من الخرافات، والمساواة، فلا فضل لأحد على أحد إلَّا بالعمل الصَّالح، وأين هذا ممَّا اعتادوا عليه؟ لقد ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرُّوم: ٤١]؛ فالأصنام والأنصاب تُعبَد، ونيران الحروب توقد، والبنات توأد، والخرافةُ دينٌ يُعتقَد، والحقُّ للقوَّة وإن كان باطلًا، والصِّدق في قول الأقوياء وإن كان كاذبًا، والأمانة مُهانة، والمرأة متاعٌ، والعبيد سائمة، فهم حيوان، ولعلَّ الحيوان في ذلك الوقت أشرف من العبد، ولقد فتح الله بصائر قومٍ عرفوا الحقَّ فاتَّبعوه، وتحدَّثوا به جهرًا، وأخذ المستضعفون يستمعون إلى أنباء هذه الدَّعوة الَّتي تأخذ بيدهم إلى الحرِّيَّة، فيتنسَّمون فيها روح الأمل الَّذي يهبُّ عليهم، فيطمعهم في حياةٍ أفضل، ومنزلةٍ أكرم، ومستقبلٍ أسعد، وإذا بهم يقبلون على دين الله.

ويسيء ذلك أهل مكَّة، ويستهينون بمحمَّد ﷺ ودعوته، ويقولون: إنَّه شاعر وكاهن وساحر، ويرون محمَّدًا ﷺ يهتمُّ بهؤلاء الأتباع، ويعدهم بالنَّصر والفتح، ويجلس إليهم، ويرتفع بهم إلى مستوى السَّادة، ويسمع أهل مكَّة يقولون: هذا دين السُّفهاء، و﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، ويضحكون من المؤمنين كلَّما رأوهم، وينزل الله على رسوله كتابًا يُتلى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ

﴿٣٣﴾ [المطفّفين: ٢٩-٣٣]، ثمَّ يُرسَّخ الإيمان في القلوب، ويتزايد عدد المؤمنين.

أزعجت دعوة محمَّد ﷺ أهل مكَّة، فاستخفُّوا بها، ولمَّا لم يأبه باستخفافهم أثارتهم وأغاظتهم، ولم يجدوا متنفَّسًا لغيظهم إلَّا أن يثوروا بالضُّعفاء من المسلمين، فحبسوا وعذَّبوا بالضَّرب والجوع والعطش والنَّار والرَّمضاء(١)؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، ومنهم من يعصمه الله فيتصلَّب في دينه، وأثمر هذا التَّعذيب ثمرته حينما رأى بعضُ الشَّباب قوَّة العقيدة عند هؤلاء المعذَّبين، فآمن نفرٌ منهم، وأعزَّ الله بهم الإسلام، فأَذِنَ ﷺ لبعض أصحابه بهجرتين إلى الحبشة؛ خوفًا على أصحابه من الفتنة، كان في الأولى (١١) رجلًا و(٤) نساء، وكان في الثَّانية ثمانون غير النِّساء والأطفال، أقاموا هناك خير مقام، ولم يعش المسلمون في الحبشة بمعزلٍ عن النَّاس، ولا بمنأى من الحوادث؛ إذ إنَّ «**المؤمن إلفٌ مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف**»(٢)، ولعلَّ ما رآه النَّجاشيُّ من حُسنِ أخلاق المهاجرين إلى بلاده رغَّبه في الإسلام، فقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ نعاه يوم مات، وقال لأصحابه: «**مات اليوم رجلٌ صالحٌ، فقوموا فصلُّوا على أخيكم**»(٣)، وخرج بهم إلى المُصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر أربع تكبيرات، وصلَّى عليه صلاة

(١) الرَّمضاء: شدَّة الحرِّ، وقيل: هو حرُّ الحجارة من شدَّة حرِّ الشِّمس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٨/ ٣٦١).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم (٢٦٩٧).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣٨٧٧).

الغائب، وصلَّى المسلمون معه، على أَنَّ هجرة الحبشة لم تقف نتائجها عند هذا الحدِّ، بل كانت كلُّها خيرًا وبركةً على الإسلام والمسلمين، فأشاعت في مكَّة جوًّا من الخوف بَلبَلَ الأفكار، وزلزل القلوب، وترك رجال قريش حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون، فقد أحسُّوا أَنَّ الزِّمامَ أخذ يفلت من أيديهم، وأَنَّ هؤلاء الَّذين احتموا بأرض الحبشة سيكونون بلا شكٍّ دعاية حسنة لدعوة الإسلام، فليس ببعيد أبدًا أن يتأثَّر الأحباش بدعوتهم، فيسلموا معهم، فتقوم للإسلام دعوة في بلاد الحبشة، ويعود المسلمون أقوياء بهذه الدَّولة، وقد يغيرون بها على قريش، فيقضون بها على دينها وسلطانها، فإن لم يكن هذا فإنَّ هؤلاء المهاجرينَ سيجعلون دأبهم الطَّعن في دين قريش وعاداتها، ويعيبون آلهتها عند الأحباش، كما كانوا يعيبونها في مكَّة، وبذلك تتزعزع مكانة هذه الأصنام في نفوس الأحباش، ونفوس غيرهم من الأُمم الَّتي تحيط بهم، وتربطها بالعرب روابط المصلحة والجوار، وعلى كلٍّ فقد تركت هذه الهجرة أهل مكَّة في اضطراب دائم، وبلبلة مستمرَّة، وأغلقت منافذ التَّفكير على ذوي الرَّأي فيها، وحرمتهم التَّوفيق في كلِّ ما كانوا يأتون ويدَّعون من الأمر، فكانوا يُقدمون على كلِّ أمرٍ يظنُّون أنَّ فيه نيلًا من رسول الله وصدًّا عن سبيله، فينقلب عملهم خيرًا له وشرًّا عليهم، وتمضي الأيَّام طويلةً قاسيةً على المستضعفين من المسلمين، وييأس النَّبيُّ ﷺ من دخول أهل مكَّة في الإسلام، ويبدأ بالتَّعرُّض لحجَّاج القبائل في مواسم الحجِّ، يدعوهم إلى الله ﷻ، ويخبرهم أَنَّه نبيٌّ مرسلٌ، ويسألهم أن يصدِّقوه حتَّى يبيِّن لهم ما بُعِثَ لأجله.

وكانت قريش قد عرفت ما عزم عليه من عرض دعوته على القبائل، فأجمعت رأيها وجنَّدت دعاتها وسفهائها على تشويه هذه الدَّعوة عند القبائل، وتحذيرها من سحر محمَّد، وما ينجمُ عنه من الفرقة والخلاف بين الأهل والعشيرة والأب والأبناء، ولخير يريده الله بالمدينة وأهلها يجتمع نفرٌ من حُجَّاجها بالرَّسول ﷺ، فما كاد ﷺ يكلِّمهم ويعرض عليهم دينه حتَّى آمنوا به وصدَّقوه، ورجَوا أن يصلح الله ذات بينهم، ثُمَّ انصرفوا راجعين إلى بلدهم مؤمنين، فلمَّا قَدِموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتَّى فشا فيهم؛ فلم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ، ثُمَّ كانت بيعة العقبة الأولى، فاجتمع لها مع رسول الله ﷺ عشرة من الأوس واثنان من الخزرج في سنة (١٢) من البعثة، وبعث لهم من يعلِّمهم دينهم ويُقرِئهم القرآن، وبعدها كانت بيعة العقبة الثَّانية سنة (١٣) من البعثة، وبعد موسم الحجِّ من سنة (١٣) للبعثة أخذت المدينة المنوَّرة تستقبل المهاجرين كما تستقبل دعوة محمَّد ﷺ بقلوب متفتِّحة للإيمان ونفوس راغبة في التَّضحية، وها هم أهلها من الأوس والخزرج مستعدُّون لإيواء محمَّد وأصحابه، فقد آن أوان الخروج من مكَّة، ﴿مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النِّسَاء: ٧٥]، إلى البلدة الطَّيِّبةِ حيث الحرِّيَّة والاطمئنان، حيث النُّفوس المستعدَّة لتقبُّل دين الله والتَّضحية في سبيله، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: ٩]، فأخذ المسلمون يتسلَّلون تباعًا؛ فرارًا بدينهم إلى إخوانٍ لهم في الدِّين، وكان بعضهم يلاقي أشدَّ

الأذى من رجال قريش فلا يبالي، فقد ضحَّوا بكثيرٍ في سبيل هجرتهم، فأمُّ سلمة فرَّقوا بينها وبين ابنها وزوجها، ولكنَّ الله جمعهم بعد عامٍ في المدينة آمنين مطمئنِّين لا يخافون إلَّا الله، وصهيب بن سنان سلبوه مالَه كلَّه، ولكنَّه فرَّ إلى المدينة بدينه لا غير، وعيَّاش بن أبي ربيعة عُذِّب وجُلِد مئة جلدة، وأُوثِقَ بالحبال، ولكنَّ نصر الله جمعهم، وأنجز لهم وعده الَّذي وعدهم حيث قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ﴾ [النُّور: ٥٥]، وتوجَّست[(١)] قريش خيفةً من هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، فقد صار أصحابه كثيرين، وخلت ديار مكَّة من المسلمين، حتَّى هُجِرَت دورٌ بأسرها، وغُلِّقَت أبوابها، وكان لا بُدَّ لقريشٍ من عملٍ سريعٍ حاسمٍ تقضي به على محمَّدٍ حتَّى تتخلَّص منه ومن دينه الَّذي يزداد خطرهُ يومًا بعد يوم، ولكنَّ الرَّسول ﷺ رسم خُطَّتَه، وقريش رسمت خُطَّتها وأعدَّت عدَّتها، وترصَّد فتيان لها أشدَّاءُ دارَ النَّبيِّ ﷺ لتغتاله في عقر داره، وتنفَّسَ الصُّبح، وانكشفَ الظَّلام، وقام النَّائم من فراشه، فإذا هو عليُّ بن أبي طالب، وليس محمَّد بن عبد الله، فجُنَّ جنون القوم، وطار صوابهم، وأخذوا يسألون كُلَّ غادٍ ورائح عن محمَّدٍ، ويقطعون الأرض شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، يسألون: أين ذهب محمَّد؟ يتتبَّعون آثار الأقدام في كلِّ طريقٍ بحثًا عن أثر محمَّد، لكنَّهم لم

---

(١) الوجس: الفزع يقع في القلب أو في السَّمع من صوتٍ أو غير ذلك. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٢٥٣).

يصلوا إلى محمَّد، فالله معهُ ومَن كان الله معه فلن تصل إليه يد كافرٍ، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، وأترك البحث في تفاصيل الهجرة لأخوةٍ لي كرام تكلَّم بعضهم وسيتكلَّم آخرون، ولكن أُثبت هنا كلمةً قالها ﷺ حين خرج مع صاحبه أبي بكرٍ من مكَّة، فإنَّه نظر إليها نظرة وداع حارَّة، ثمَّ قال: «**عَلِمتُ أَنَّكِ خيرُ أَرضِ الله، وأحبُّ الأرضِ إلى الله** ﷻ، **ولولا أَنَّ أَهلَكِ أَخرَجُوني منكِ ما خَرَجتُ**»[1]، ثمَّ قال: «**اللَّهمَّ إنَّك أخرجتني من أحبِّ البلاد إليَّ، فأسكنِّي أحبَّ البلاد إليك**»[2].

وتمضي الأعوام سراعًا متوَّجةً بنصرٍ إثرَ نصرٍ ثمانيَ سنينَ، يدخل رسول الله ﷺ في الثَّامنة منها فاتحًا مكَّة بجيشٍ عرمرم، ويطهِّر بيتها من الأصنام، وأهلها من الشِّرك والجهل والضَّلالِ، فيهلك الشِّرك وأهله، وتدول دولته، ويظهر الله دين الحقِّ على الدِّين كلِّه.

ويقف ﷺ على باب الكعبة خطيبًا فيقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربِّنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[3]، ثمَّ يقول لأهل مكَّة: «**ما ترون أنِّي صانعٌ بكم؟**»، قالوا: خيرًا، أَخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، قال: «**اذْهَبُوا**

(١) رواه أحمد، رقم: (١٨٧١٧).
(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم: (٤٢٦١).
(٣) رواه البخاري، رقم: (١٧٩٧)، ومسلم، رقم: (١٣٤٤).

فأنتمُ الطُّلقاءُ»(١)، ويحقِّق الله وعده لنبيِّه، ويذكر المسلمون تلك الآية الكريمة الَّتي نزلت في سورة محمَّد؛ تسليةً لسيِّدنا محمَّد ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمَّد: ١٣].

---

(١) رواه البيهقي، رقم: (١٨٢٧٦).

وقدرة الله فوق الشَّكِّ والتُّهم

إذا تحدَّث النَّاس عن ذكرياتهم الخالدة أطنبوا في الحديث، فلا يملُّ متكلِّمٌ من تكرار كلام، ولا يملُّ سامعٌ من تكرار حديث، ويستمع المستمع، وينصت، ويلذُّ له السَّماع، ويطيب له الإنصات، ويقع الحديث في الأفئدة قبل وقوعه في الأسماع، وتستمع إليه القلوب قبل استماع الآذان.

وللإسلامِ - أيُّها المسلمون - ذكرياتٌ خالدة هي كالنَّسائم النَّديَّة، تهبُّ في اليوم القائظ[1]، وللحديث عنها روعة كروعة الإشراق بعد ظلام، فلها ضياء يهدي، وهدًى يفيض على القلوب، وجرسٌ على الأسماع، وسرُّ ذلك هو دينٌ أكمل يدعو إلى الحقِّ والحياة، والنَّبيُّ هو الإنسان الكامل الَّذي جاء بهذا الدِّين؛ ليخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ويخرج بني الإنسان من الحيوانيَّة إلى البشريَّة.

وذكريات الإسلام - يا مسلمون - عظيمةٌ، إذا أردنا أن نحصيها فلن نستطيع لها عدًّا، هي كالنُّجوم في السَّماء إضاءةً ورفعةً، وهي كالنُّجوم في العدد كثرةً، لا يحصيها حاسب، ولا يحصرها حساب، ففي كلِّ يومٍ من أيَّام الإسلام ذكرى، وفي كلِّ ذكرى روعةٌ وعظةٌ ودرسٌ، هي في القلوب هدايةٌ، وللعقول نورٌ، وللنُّفوس تزكيةٌ،

(١) القيظ: صميم الصيف. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٤٥٦).

وتلك صفة دينكم أيُّها المسلمون: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢].

أمَّا نبيُّ الإسلام - صلوات الله عليه - فإنَّه نال من المدد الإلهيِّ ما لم ينله قبله ولن يناله بعده إنسان، فهو الصَّفوةُ المختارة من البشر، بل إنَّه المصطفى مِن خَلقِ الله، التقت القلوب والعقول والنُّفوس على التَّقدير لشخصيَّته ﷺ، وكلَّما طال بنا الزَّمن زاد هذا التَّقدير، ولقد تشعَّبت المذاهب، وتعدَّدت الاتِّجاهات، وتنوَّعت الثَّقافات، ومرَّت الأزمان، وتقدير هذا الإنسان يزداد رسوخًا وقوَّةً، وليس هناك إنسانٌ مجَّد الإنسانيَّة، أو عاقلٌ مجَّد الفكر، أو كريمٌ مجَّد الحرِّيَّة، إلَّا وقفَ من محمَّدٍ ﷺ موقف الإعظام لرجولته، والتَّقدير لشخصيَّته، وإن عادَوْا دينه، وليس هناك أحد أجمع أعداؤه على الثَّناء عليه وتعظيمه وإجلاله والإشادة بذكره غير محمَّد عبد الله ورسوله ﷺ، وهذه حقيقةٌ عرفها النَّاس، لا تحتاج إلى دليل، والفضل ما شهد به الأعداء، وعقيدتنا - نحن المسلمين - أنَّ محمَّدًا ﷺ جاء من عند الله بشيرًا ونذيرًا، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزَاب: ٤٦]، لا يريد للنَّاس إلَّا الخير، ولا يبغي لهم إلَّا الإصلاح، ولا ينشد لهم إلَّا الهداية، ففي يده من الحقِّ سلاح، وفي قوله لهذا الحقِّ دليلٌ، وفي قلبه من الإيمان قبسٌ محا عن البائس بؤسه، وردَّ في نحر الظَّالم ظلمه، وطهَّر المجتمع الإنسانيَّ من آلامه الَّتي بثَّها فيه بنو الإنسان، فمحا الأحقاد، وربط بين القلوب، وصرفها إلى الفطرة الصَّافية، والأخوَّة الواقية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا

رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ونحن اليوم - أَيُّها الإخوة - في ذكرى من تلك الذِّكريات الخالدة لهذا الدِّين الخالد، ولهذا النَّبيِّ الخالد، هي ذكرى الإسراء من المسجد الحرام في مكَّة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، ولقد شاء الله أنْ يكرِّم عبده محمَّدًا ﷺ بالإسراء والمعراج، وأن يجعل من الحادثَينِ مصداقًا لكلِّ ما يبلِّغه عن ربِّه، وأراه في تلك اللَّيلة من الآيات ما فيه عظات وعِبر للأجيال الَّتي تأتي، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، فقد رأى قومًا يزرعون ويحصدون في آنٍ واحدٍ، وكلَّما حصدوا زرعهم عاد كما كان، فعلم أنَّ هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله، والعاملون لإعلاء كلمة الله، تضاعف لهم الحسنات، ويخلف الله عليهم ما أنفقوا، ورأى قومًا بين أيديهم لحمٌ ناضجٌ طيِّبٌ، ولحمٌ نِيْءٌ قذرٌ، وهم يأكلون النِّيء القذر، ويدعون النَّاضج الطَّيِّب، فعلم أنَّهم قومٌ تركوا ما أحلَّ الله لهم من الطَّيِّب الحلال، وأتوا الخبيث الفاحش، ومرَّ برجلٍ قد حزم حزمةً عظيمةً من الحطب لا يقدر على حملها وهو ما يزال يزيد عليها أثقالًا، فعلم أنَّه رجلٌ تكون عنده الأمانات لا يقدر على أدائها ثمَّ يريد أن يحمل غيرها، ورأى قومًا تقرض ألسنتهم بمقاريض من نار، كلَّما قرضت عادت، فعلم أنَّ هؤلاء هم خطباء الفتنة، يقولون ما لا يفعلون، ورأى قومًا يُقطَّع

اللَّحم من جنوبهم فيطعمون منه، فعلم أنَّهم الَّذين يشيرون لعيوب النَّاس ويشيعونها، ولا ينظرون إلى عيوبهم، ورأى غير ذلك أشياء كثيرة، ذكرتها كتب السُّنَّة النَّبويَّة مُفصَّلة.

وجديرٌ بنا - أيُّها المسلمون - أن نحتفل بهذه الذِّكرى المجيدة، ونجعل منها عبرةً ودرسًا، ولا نستمع لمكابر من أعداء ديننا وجد فرصة للطَّعنِ فيه، فأظهر حقده، ونبش أضغانه، فبثَّ تمائمه؛ ليكذِّب خبرًا ثبت، وتناقلته الأجيال جيلًا بعد جيل، لقد جاء الإسلام بكتاب من عند الله، ما فرَّط فيه من شيء، وأتت بعد الإسلام عصورٌ يتلو بعضها بعضًا، كلَّما مرَّ عصرٌ أيَّدَ الإسلامَ بدليل حسِّيٍّ.

ولقد حدَّثنا الإسلام عن نبيِّ الله سليمان عليه السلام بأنَّ الرِّيح سُخِّرت له تجري بأمره رخاء في غدوِّها شهرًا وفي رواحها شهرًا، ولقد ركبنا الطَّائرات تغدو مُسَيَّرةً شهرًا للرَّاكب، وتروح مسيَّرةً شهرًا له، وتأتي بعد الطَّائرات ذات المحرِّكات الطَّائراتُ النَّفَّاثة الَّتي تسبق سرعتها سرعة الصَّوت، وها هي الصَّواريخ ظهرت، وكأنَّها تقول لنا: عودوا يا قوم إلى عصر البُراق، إنَّه يضع حافره عند منتهى طرفه، فقل لهذا الجاحد - أيُّها المسلم -: أكان للنَّاس عجبًا أنْ كرَّم الله عبده ورسوله محمَّدًا بفيضٍ من عنده، فسخَّر له ما سخَّر من الرُّوحانيَّات، وليس بعجيب ما نرى من هذه الحسِّيَّات؟! ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والله يا قوم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

مدَّةٌ من الزَّمن هي جزءٌ من ليلة، ذهب بها النَّبيُّ ﷺ على متن

البراق من مكَّة إلى بيت المقدس، وصلَّى هناك، وعاد قبل أن يُفتَقَد، حادثةٌ جحدها أعداء الدِّين، فبثَّ دسائسه في قلوب الَّذين ضعف إيمانهم، فأعرضوا عن الحقِّ، وضلُّوا سواء السَّبيل، وإنَّما بغيهم على أنفسهم، ويمتدُّ الزَّمن ويصل بالإنسان إلى عصر الذَّرَّة أو عصر الصَّواريخ، وعدوُّ الإسلام لم يزل حقده ينمو، وإنكاره يشتدُّ، وما زال يقف في وجه استمرار الدَّعوة الإسلاميَّة، والعلم الحسِّيُّ يؤيِّد حادثة المعراج الرُّوحيِّ، فأصبح في زماننا الصَّاروخ يعلو ليخرج من الكرة الأرضيَّة، فيرتفع عشرات آلاف الأميال في ثوانٍ معدودة، ويستمع إليه النَّاس في الأرض باعثًا إشارات لاسلكيَّة، فشكرًا لهذا العلم الَّذي يؤيِّد الإسلام، وشكرًا لهذا العقل الَّذي يستنير بالعلم، فيعلو بصاحبه على البشر، وبأمَّته على سائر الأُمم، يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١].

أيُّها المسلمون! أرضُ الإسراء قدَّسها الله بأن بعث منها سائر أنبيائه، وبارك الله حولها فسجدت فيها جباه الأنبياء، وهمَّت فيها دموع الأولياء والأصفياء، وامتلأت رحابها بذكر الله العليِّ الكبير، والإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى يهيب بالمسلمين في بقاعِ الأرض جميعها أنَّ القدسيَّةَ للحرمَينِ، وما بين الحرمين لا يتجزَّأ، والأرض الَّتي بينهما لا تنقسم، فقد رُبط بينهما برباط الطَّهارة والشَّرف، فالمسجد الحرام أوَّل بيتٍ وضع للنَّاس، والمسجد الأقصى هو المسجد الَّذي بارك الله حوله، ولقد صلَّى نبيُّنا عليه السلام أوَّل ما صلَّى مُستقبِلًا المسجد الأقصى، ثمَّ استقبل المسجد الحرام، ولقد بعث ﷺ في المسجد الحرام، ثمَّ أُسرِيَ به إلى المسجد الأقصى،

ولكليهما قدسيَّةٌ كبرى في قلوب المسلمين توجِب عليهم ألَّا يتفرَّقوا أمام العدوِّ الَّذي يتربَّص بهم الدَّوائر، ويتهدَّدهم بالويل، وتهيب بهم أن يكونوا حشدًا حاشدًا، وجمعًا متساندًا، وجندًا واحدًا؛ ليربطوا برباط الحرِّيَّة والعزَّة والشَّرف والقدسيَّة بين أكرم مسجدين؛ المسجد الحرام أوَّل مسجد وضع للنَّاس، والمسجد الأقصى الَّذي بارك الله حوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسرَاء: ١].

أيُّها المسلمون! علينا أن نقف أمام الإسراء والمعراج موقف تبجيلٍ واحترام، ونقدِّر الله حقَّ قدره؛ إذ كرَّم نبيَّه بهما، ونترك البحث في أمرهما، هل جرى على ناموس من نواميس(١) الطَّبيعة الَّتي بثَّها الله في هذا الكون أم جرى على غير ناموس؟ فهو أمرٌ في حدود قدرة الله العليَّة، نعم أيُّها المسلمون! إنَّ قدرةَ الله العليَّة وسعت كلَّ شيء، والأرض والسَّماوات جميعًا قبضته، وقدرة الله فوق الشَّكِّ والتُّهم.

(١) النواميس: جمع ناموس: القانون أو الشريعة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٣/ ٢٢٨٥).

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]

في يومٍ من أيَّام ربيع الأوَّل سنة (١٣٥٠هـ)(١)، وفي مجلسٍ ضمَّ جماعةً، كلُّهم مرحومٌ إن شاء الله، قال أخٌ لنا هو المرحوم سلطان الكليب: لماذا لا نقيم حفلةً لذكرى المولد النَّبويِّ، يقوم فيها خطباء يرشدون النَّاس إلى سنَّة النَّبيِّ؟! فإنَّها والله خيرٌ من هذه الموالد الَّتي لا يسمع النَّاس فيها أكثر من شَدْوٍ وغناءٍ، وليس فيها والله أيُّ غنى، وكانت أوَّل حفلةٍ أُقِيمَت ليلة (١٣) ربيع الأوَّل سنةَ (١٣٥٠هـ) في هذا المكان المقدَّس، كان الخطباء فيها خمسة، وتبرَّع بمصاريفها ذوو البرِّ والإحسان.

واستمرَّ الحال على ذلك حتَّى كان ربيع الأوَّل سنة (١٣٦٩هـ)(٢)، وقد أُسِّست دائرة الأوقاف عمرَّها الله بسلامة الدَّولة وعزِّ ولاتها، ووفَّقها لصالح العمل وبذل النَّفع وخدمة الدِّين، فاستلمت الحفلة كما استلمت كلَّ ما هو من شأن المساجد، وقامت بها خير قيامٍ، وزادت عليها حفلة لذكرى المعراج، ثمَّ حفلة لذكرى الهجرة في كلِّ عامٍ.

وكان لهذه الحفلات شأنٌ، ولو أنَّنا وفِّقنا إلى جمع ما أُلقِي فيها

(١) أي: سنة (١٩٣١م).

(٢) أي: سنة (١٩٥٠م).

من كلمات وقصائد لجمعت مطوَّلات، فقد تطرَّق الخطباء والشُّعراء فيها إلى بحوث دينيَّة شتَّى، هدفها الدَّعوة إلى الله، والاقتداء بسُنَّةِ رسوله ﷺ، واستخلاص العبرة من سيرته، واستيحاؤها من الجهاد لإعلاء كلمة الله، ومنذ عهدٍ قريبٍ شاركت دار الإذاعة في نقل هذه الحفلات على أمواج الأثير؛ لتعمَّ فائدتها، ويسمعها من لا يستطيع حضور المسجد، ولقد حاولنا أن ندوِّن ما يُقال في هذه الحفلات من نظم ونثر، وننشره في كتب يستفيد منها القرَّاء، ولكنَّ عسر الحال وقلَّة النَّقد حالا بيننا وبين ذلك، وإنِّي أقترح على دائرة الأوقاف الموقَّرة أن تبدأ منذ اليوم بتدوين ما يستحقُّ التَّدوين ممَّا يُقال في هذهِ الحفلات ما دُمنا في مبدأ عهدٍ زاهر، لاسيَّما أنَّ هذه أوَّل حفلةٍ دينيَّةٍ تُقام بعد الاستقلال، وأن يكون لكلِّ عامٍ سجلًّا يقرأ فيه النَّاس صفحات البطولة المحمَّديَّة، وآيات العظمة النَّبويَّة؛ لتكون موضِع عِظَة، ومبعث همَّةٍ، وعبرة للمعتبر، وذكرى للمؤمنين.

سادتي! وإنِّي إذ أقف هذا الموقف من ذكرى هذه اللَّيلة، أتحدَّث إليكم عن صاحبها، ونحن في مستهلِّ عهدٍ زاهرٍ، ومطلع نهضةٍ موفَّقة، أرجو أن يكون بناؤها على أساسٍ من الأخلاق الكريمة، والمُثل الفاضلة الَّتي رسمها لنا هذا الرَّسول الكريم ﷺ، ونماذج حيَّة في أقواله وأفعاله.

أيُّها السَّادة! إنَّ من واجبنا ونحن مجتمعون للاحتفال بذكرى سيِّد الكائنات ﷺ أن نذكر ماضينا، ونستعرض حاضرنا؛ لنكون على بصيرةٍ من أمرنا، فقد كان للعرب في جاهليَّتهم تقاليد وعادات لا تخلو من نقائص، هذَّب الإسلام محاسنها، واستثمر قواها الكامنة،

وعيَّن لها أهدافها، وكانت الأمَّة العربيَّة مشتَّتةً فوحدَّها، ومستعبدةً فحرَّرها، وفوضويَّةً فنظَّمها، وكان العربيُّ أنانيًّا لا يعرفُ إلَّا نفسه، فيقتل رجلًا إذا سَلَبَ منه شيئًا، وإذا هو بفضل الإسلام يشعر بأنَّه فردٌ من الأمَّة، له عليها حقوق، ولها عليه حقوق، وكان العربيُّ يتعصَّب لقبيلته، وقد يقتل خالَهُ أو أخاه لأمِّه البعيدَين من قبيلته في سبيل بني عمِّه، فجعل الإسلام هذا العربيَّ اجتماعيًّا، يتحمَّس لأمَّته ودينه، وإذا به راعٍ، و«**كلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيَّته**»(١)، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢]، أمَّا في حاضرنا، فقد أصبح الإسلام هدف الأذى وغرض الاعتداء، وليس البلاء في أن يهاجم الإسلام - فلقد هُوجِم منذ بُعِثَ نبيُّه - ولكنَّ البلاء في ألَّا يجد الإسلام من أبنائه نصيرًا.

قام الإسلام لمحاربة الشِّرك وتحطيم الأوثان، ولكنَّ بعض المسلمين في عهودٍ مضت وفي عهدنا الحاضر عادوا إلى الشِّرك، فعبدوا هياكل بشريَّة، قدَّسوا من قدَّسوا، ووحَّدوا من وحَّدوا، وعظَّموا من عظَّموا، ومن هذه الهياكل البشريَّة مَن شوَّه تاريخ الإسلام، وزهد في أبطاله، وحارب أوامره ونواهيه، وجاء الإسلام بنظامٍ حدَّد فيه الحدود، وأوجب فيه الواجبات، ونهى فيه عن النَّواهي، وقال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﷻ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٨٩٣)، ومسلم، رقم: (١٨٢٩)، بلفظ: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيَّته ... إلخ».
(٢) رواه أحمد، رقم: (١٠٩٥).

ولكنَّ بعض من يدَّعي الإسلام غيَّر هذا النِّظام وبدلَّه، وأوجب على النَّاس طاعته فيما غيَّر وبدَّل، ولمَّا نصحه النَّاصح طغى وكفر، ثُمَّ عبس في وجهه وبسر، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدَّثِّر: ٢٣].

الإسلام حارب الرَّذائل، وهذه الرَّذائل بأنواعها جميعها لها أسواق وسماسرة وزبائن في بلاد الإسلام، فالإسلام غريبٌ في دياره، وكلُّ مسلمٍ مسؤولٌ عن غربته، ولعلَّ بعضًا ممَّن يستمعون إليَّ يعدُّ كلامي هذا رجعيَّة، لكنِّي لا أبالي به، وأقول: إنَّ الإسلام غريبٌ في دياره؛ لأنَّنا اليوم لا نرى آمرًا بمعروفٍ، ولا ناهيًا عن منكرٍ في بلاد المسلمين كلِّها، مع أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والنُّصح لكلِّ مسلمٍ من دعائم الإسلام، ولو رأيناه في بلدٍ ما فلن يكون كما أراد الإسلام، فالإسلام يريدك إن أمرت بالمعروف أن تأمر بمعروفٍ، وإن نهيت عن منكرٍ أن تنهى بمعروفٍ، ومن دعائم الإسلام أيضًا تنشئة النَّاشئة على الدِّين، ومدارس النَّاشئة في بلاد الإسلام جميعها خاليةٌ من دروس الدِّين، فلا تهتمُّ بعقيدة الطَّالب إذا كانت صحيحة أو فاسدة، ألسنا مسلمين؟! ألم نقرأ في كتاب ربِّنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التَّحْريم: ٦]، بينما المدارس الأجنبيَّة التَّبشيريَّة المعلوم أمرها تبدأ في صباح كلِّ يوم بالصَّلاةِ للمسيح والصَّليب، ولاسيَّما إذا كان هناك طلَّابٌ مسلمون؛ لتخرِّج نفرًا منهم يكونون على الإسلام أعدى من الكافرين، كما رأينا من خرِّيجي المدارس الأمريكيَّة والفرنسيَّة وغيرها، ومن البليَّة أن يعدَّ هؤلاء في عداد المسلمين.

أيُّها المسلمون! الإسلام لم يُذلَّ إلَّا عندما ذلَّ العرب، ولم يكن غريبًا في دياره إلَّا عندما أصبح العرب غرباء في ديارهم، وقد حذَّرنا نبيُّنا ﷺ من ذلك فقال: «**إذا ذَلَّتِ العربُ ذَلَّ الإسلامُ**»(١)، وأيُّ ذلَّةٍ شرٌّ ممَّا نحن فيه اليوم؟! لقد رضينا بالذِّلَّة حتَّى في عقر دارنا، وها هي الصُّهيونيَّة أشدُّ النَّاس عداوة للَّذين آمنوا قد اغتصبت جزءًا مقدَّسًا من بلادنا، ومسرى محمَّد بن عبد الله ﷺ، وأوَّل قبلةٍ في الإسلام، والأرض المباركة المحيطة بالمسجد الأقصى، وشكَّلت فيها دولتهم إسرائيل، وجمعت لها شعبًا من شتَّى الأُمم نُبذوا من بلادهم نبذَ القذاة(٢)، وحكوماتنا تحيط بهذه الدَّولة من جهاتها جميعها، لا تملك لمحوها حولًا ولا قوَّة، إلَّا كلامًا تتفوَّه به الأفواه، أو وعودًا تذهب بها الرِّياح، والعدوُّ وإسرائيل معه يضحكان لأقوالنا ووعودنا، وإخوان لنا في الجزائر تعدهم فرنسا بالاستقلال وتطلبهم للمفاوضة، ثُمَّ تقلب لهم ظهر المجنِّ بغارة تقضي على المئات بين قتلى وجرحى، ثمَّ لا يرتوي ظمؤها من دماء أبناء الجزائر حتَّى تباغت بغارة جويَّة قريةً عزلاء من قرى تونس الآمنة المطمئنَّة، فتهدم على رؤوس أهلها دورهم، وتُرَمِّل نساءهم، وتُيتِّم أطفالهم، فلا ترحم صغيرًا لصغره، ولا شيخًا فانيًا لعجزه، وكلُّ ذلك ثمرة غفلتنا واتِّكالنا على غيرنا وإعراضنا عن أوامر ديننا الَّذي أمرنا بأن نكون أُمَّةً واحدةً، نعتصم باليقظة والحذر، ونعدُّ للكوارث العدَّة، ونتعاون على البرِّ والتَّقوى.

سادتي! إنَّ هذه الرَّدَّة عن الإسلام في مجتمعنا لا يعالجها إلَّا

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٣٢).

(٢) الأقذاء: السفلة من الناس. انظر: تاج العروس، رقم: (٣٩/ ٢٨١).

عودةٌ صادقةٌ صريحةٌ إليه؛ في مدارسنا ومناهجنا، في بيوتنا وأسواقنا، في حُكمنا وقضائنا، وفي كلِّ شأن من شؤوننا، حتَّى في مساجدنا؛ لتكون المساجد كما كانت فيما مضى دور صلاةٍ وعلمٍ، ولا أقصد بقولي هذا بلدًا دون بلد، وإنَّما أعني بقولي العالَم الإسلاميَّ كلَّه، فإنَّ الطامَّة عامَّة، أقول: لا يعالجنا ممَّا نحن فيه إلَّا عودةٌ صادقةٌ إلى الإسلام، تستهدف صون العقيدة الإسلاميَّة الصَّحيحة القائمة على العزَّة العربيَّة، وقد اجتمعتُ هذا العام بداعيةٍ مسلم من دعاة الهند وتطرَّق بنا البحث إلى الدَّعوة، فقال: إنِّي أعتقد يقينًا أن لا عودة لمجد الإسلام إلَّا بسعي العرب، ولن ننجح في مسعانا حتَّى تقوم نهضة إسلاميَّة عربيَّة، وقد سمعت هذا الكلام من داعية هنديٍّ آخر في المدينة منذ ستِّ سنوات.

إذن أيُّها المسلمون العرب! كلُّنا مسؤول عن هذا التَّردِّي؛ علماؤنا ورعاتنا وأتباعنا، وكلُّ فردٍ منَّا مسؤولٌ بقدر مكانته في المجتمع، وعارٌ علينا - واللهِ - أن نخلع ثوبًا صنعناه بأيدينا، وعُرِفنا به، وأُكرِمنا لأجله، ونستعيرَ بدله ثوبًا من أجنبيٍّ لا يليقُ بنا؛ فقد يكون واسعًا، وقد يكون ضيِّقًا، مع أنَّنا نعلم أنَّ كلَّ مُعارٍ معادٌ لأهله، فإذا لم نشعر بحالنا، ونعد إلى ماضينا، فقد نكون يومًا ما عرايا، ما الَّذي جعل وزارات المعارف في البلاد الإسلاميَّة جميعها تُهمل تدريس النَّاشئة حياة نبيِّهم بالمعنى الصَّحيح، لتكون نبراسًا للنَّاشئة وضياءً لحياتهم؟! لماذا فكَّرت وزارات المعارف في البلاد الإسلاميَّة جميعها في تدريس سير رجال ليس في تاريخهم سوى القهر وإذلال الخلق بالقوَّة، أو تدريس نبوغ في فنٍّ من الفنون، وأعرضت عن سير

أصحاب محمَّد الَّذين ملؤوا الدُّنيا علمًا وعدلًا ورجولةً؟! وسيبقى شبابنا في تفكيرٍ محدودٍ ونظرٍ ضيِّقٍ لا يتجاوز أرنبة الأنف، وسيبقى شبابنا أعمى البصائر أصمَّ الآذان - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: ١٧٩] - فاتر الهمَّة، خائر القوى، ركيك العزيمة، ما دام لا يُغذِّي مداركه بدراسة سيرة نبيِّه العربيِّ؛ ليجعلَه مثالًا أعلى لحياته، متمثِّلًا أمر الله جلَّ جلاله في كتابه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

أيُّها السَّادة! نحن مرضى وعلاجنا الإسلام، فهو مصدرُ قوَّتنا، وسرُّ بقائنا، وسببُ نهضتنا، وأساسُ مجدنا، فإذا أعرضنا عنه وجدنا الذُّلَّ والضَّياع والفشل، وقد ترك لنا نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ ما لو اعتصمنا به فلن نضلَّ ولن نشقى، «**فلن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»[1]، ففي رسالة محمَّدٍ ﷺ علمٌ ينير العقل ويهدي من ضلال، وفي رسالة محمَّدٍ ﷺ مدنيَّةٌ فيها حقٌّ قائمٌ وخلقٌ مستقيمٌ، وإنسانيَّةٌ تخلع على السُّكون جمالًا وبهجةً، ودينٌ وأمَّةٌ ودولةٌ، فمَن لهذه الرِّسالة، ومن لهذه الأمَّة إلَّا قوم محمَّد ﷺ وأحفادهم من عباد الله المخلصين؟!

يا عباد الله، يا أمَّة محمَّد! إنَّها ليلة ذكرى لو تنفع الذِّكرى، وهي ليلةُ ذكرٍ لمن أحدثَ انقلابًا في الفكرِ والدِّينِ والدُّنيا، ليلة ذكرى تحرير الإنسانيَّة من قيود الظُّلم والظَّالمين، ليلةٌ تذكِّرنا كيف بنت أيدي العرب أسس المجد والسُّؤدد[2]، وكيف تألَّفت القلوب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) السُّؤدد: المجد والشرف. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٨/ ٢٢٤).

وتلاشت الأطماع، ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، إنَّها ليلة تذكِّرنا بانهيار صرح الطُّغيان حين سقطت شرفات الإيوان في فارس، وتذكِّرنا بانجلاء ظلم الضَّلال والعبوديَّة في الشَّام منذ أضاءت بنوره قصورها.

يا سادة! إنَّ اسم محمَّد ﷺ يملأ النَّفس خشوعًا؛ لأنَّه عظيم جدًّا، ويملأ القلوب حياة؛ لأنَّه رجلٌ هدى اللهُ به أمَّةً، وبنى به دولة، اختاره الله لهداية البشر فأنزل عليه كتابه، فهدى به من وُفِّق للهداية، وفي العالم اليوم ما يزيد عن ستِّمئة مليون مسلم، وفيهم من يحتفل هذه اللَّيلة وغدًا، كما تحتفلون أنتم بذكرى ولادته ﷺ، ويحبُّونه حبًّا ليس فوقه حبٌّ إلَّا حبُّهم لله، حُبًّا لا يعدله حبُّ الأهل والولد، فاللَّهمَّ اجعل هذه اللَّيلة مصدر خيرٍ وبركةٍ وعزَّةٍ وحرِّيَّة وكرامةٍ وهدايةٍ لنا وللمسلمين جميعًا، وأعاد علينا أمثالها بالخير والسَّعادة والبركة والهناء والعفو والعافية، اللَّهمَّ وفِّق ولاتنا ورؤساءنا وحكَّامنا للسَّير على سُنَّته، والاهتداء بهديه، واتِّباع طريقته، والتَّأسِّي به في أقواله وأفعاله، واجعل فاتحة عهد استقلالنا مبدأ خيرٍ وبركةٍ علينا، وعلى إخواننا المسلمين عامَّة، والعرب خاصَّة، وادفع الشَّرَّ عنا بإيماننا بك، وحبِّنا لنبيِّك، إنَّك سميعٌ مجيبٌ.

بين الماضي والحاضر

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

أيُّها السَّادة! بعث الله محمَّدًا على فترة من النُّبوَّات والرُّسل، وقد ظلَّت النُّبوَّات قبل هذه الفترة دهورًا طوالًا في بني إسرائيل، وظلَّت القدس أو ما تسمى أورشليم - ومعناها دار السَّلام - وفيها المسجد الأقصى مهبطَ الوحي وموطن الرِّسالات، حتَّى إذا طال الأمد على بني إسرائيل وبطروا، وقالوا: نحن أبناء الله وأحبَّاؤه، ولم يتناهوا عن المنكر، ولم يأمروا بالمعروف، وحلَّت عليهم اللَّعنة، وُجِّهت الرِّسالة إلى أمَّة غير أمَّتهم، وهبط الوحي في بلد غير بلدهم، وهذا ما كان في علم الله قبل أن يكون، وهذا ما عناه ﷺ بقوله: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطِّين**»[(١)].

وبُعِثَ محمَّدٌ ﷺ في أمَّة العرب، وفي وطن العرب في بلد المسجد الحرام، وورث تعاليم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وآمن بالرِّسالات كلِّها، وقال الله له: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [النِّساء: ١٦٣]، ويتَّصل الحاضر بالماضي؛

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء رقم (٢٠١٧).

حاضر مبعث النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ بالماضي السَّحيق ماضي بدء الخليقة وبدء الرِّسالات، يتَّصل في نظام حياة الإنسان؛ إذ يبدأ هذا النِّظام بأن لا إله إلَّا الله وحده، ولا معبود بحقٍّ سواه، وأنَّ الإنسان أخو الإنسان أحبَّ أم كره، فلا فضل لأحد على أحد إلَّا بصالح العمل وكثرة النَّفع، وينتهي هذا النِّظام - نظام حياة الإنسان - بأنَّه مجزيٌّ بعمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وإذا بالمسجد الأقصى حرمٌ مقدَّسٌ، والنَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ يستقبله في صلاته، كما استقبله الأنبياء قبله، ويجب أن يُصان ويطهَّر؛ لأنَّ الله شرَّفه، فأهبط فيه وحيًا، وأنزل به كتبًا، وبعث منه أنبياء، وأرسل منه رسلًا.

وينتقل إليه خاتم الأنبياء في ليلة الإسراء، فيكون هذا الانتقال احترامًا للإيمان الَّذي درج في رحابه من الأنبياء الَّذين بعثوا منه، ومن أصحابهم الَّذين آمنوا بهم وصدَّقوهم، ويجمع الله الرُّسل السَّابقين الَّذين حملوا رسالة الله إلى عباده، وبلَّغوا الهداية السَّماويَّة لأهل الأرض، يجمعهم في البقعة الطَّاهرة، بقعة المسجد الأقصى، ليستقبلوا حامل الرِّسالة الخاتمة لرسالاتهم والمصدِّقة لهم، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

وثبت أنَّه ﷺ صلَّى إمامًا بالأنبياء في المسجد الأقصى ركعتين، فكانت هذه الإمامة إقرارًا بأنَّ كلمة الله الأخيرة هي هذا الدِّين الَّذي

بدأه برسالات الأنبياء قبل محمَّد ﷺ، وختمه برسالته، فهو أوَّلهم بالفضل وخاتمهم بالرِّسالة والنبوَّة، وليس معنى ختم النُّبوَّات بنبوَّة محمَّد ﷺ هو ترك الدَّعوة إلى الله، أو إهمال البشريَّة، فإنَّ الله ﷻ حمَّل أمَّة محمَّد دعوة النَّاس إلى دين محمَّد، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]، هذه الأمَّة الَّتي أراد الله لها أن تكون خير أمَّة أخرجت النَّاس كلَّفها بالدَّعوة، وقال لها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحجّ: ٧٨]، كلَّف الله أُمَّة محمَّد بالدَّعوة لدِّين محمَّد خاتم الأنبياء، وأراد لها أن تكون خير أُمَّة أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله؛ ذلك لأنَّ الإسلام دين الأبد والفطرة والعقل السَّليم، وليس أبغض إلى الله من أن يفتري أحدٌ على الله فيأتي بقيد ينسبه إلى الدِّين، والدِّين بريءٌ منه، يفسد به على النَّاس عقولهم، ويقيِّد به حريَّتهم، وينكِّد عليهم حياتهم، ويترك النُّفوس مسجونةً مغلولةً كئيبةً، والإسلام بريءٌ ممَّا اصطنعه النَّاس من أوثان أو نصب أو قبور أو أشخاص يتوجَّهون إليها في قضاء حوائجهم؛ لأنَّ الله وحده الأحد الصَّمد، قادر على كلِّ شيءٍ، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الإسلام بريء من كلِّ طقوس صنعها بنو الإنسان، واستغلُّوا بها البسطاء من النَّاس، ومن كلِّ رهينة، فلم يحرِّم

الإسلام زينة الحياة الدُّنيا، ولم يحرِّم زواجًا، إنَّما أوجبه على كلِّ قادر على الكسب، وحرَّم الذِّلَّة والمسكنة وسُؤَالَ النَّاس، والإسلام بريءٌ من كلِّ ما لعبه أعداء الحقيقة الَّذين جاؤوا بدسائس شوَّهوا بها وجه الدِّين أمام الجهلة بالدِّين، والإسلام بريءٌ من كلِّ ما ابتدع من مذاهب ونِحَل، احتضنها أعداء الدِّين؛ ليعوِّقوا بها المسلمين عن التَّقدم، وليفرِّقوا بها شملهم، والإسلام بريءٌ من كلِّ ما ابتدعه الاستعمار من أنبياء جاء بهم لهدم هذا الدِّين وإهانة أهله.

أيُّها السَّادة! جاء رسول الله ﷺ والنَّاس في ظلمات بعضها فوق بعض؛ ضلالٌ وجهلٌ وفقرٌ وخوفٌ وشقاءٌ وحروبٌ وفسادٌ وفوضى، فأخرجهم من هذه الظُّلمات إلى الهدى والمعرفة والغنى والأمن والسَّعادة والسَّلام والإصلاح والنِّظام، ولكنَّ الأمد طال بنا كما طال على بني إسرائيل، فجهلنا ديننا، وبَطِرنا بالنَّصر الَّذي ناله آباؤنا، وأخيرًا أخذنا نفتخر بما كان عليه أسلافنا واكتفينا بذلك، فلم نتأسَّ بهم، ولا سِرْنَا على صراطهم، ولا عملنا عملهم، واستغلَّ عدوُّنا كلَّ ذلك، فألقى العداء فيما بيننا، ونسينا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ونسينا قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، فأخذنا نحارب بعضنا، والعدوُّ ينظر إلينا حتَّى ضعفت شوكتنا، وأصبحنا لقمةً سائغةً له بعد ضعفنا، فأكلنا، ولم يكتفِ بذلك كلِّه، بل أخذ يطعن في ديننا على مرأى ومسمع منَّا.

أيُّها السَّادة! لم يكتفِ العدوُّ بهذا، بل إنَّه استخدم من المسلمين

في بلادهم رجالًا سمَّوا أنفسهم مسلمين؛ ولكن ليس لهم أخلاق المسلمين، وما هم بمسلمين، مكَّنهم هذا العدوُّ من رقاب شعوبهم، واستعان بهم على إذلالهم، وكم حكى لنا التَّاريخ عن كثير منهم، ماتت ضمائرهم إلَّا عن مصالحهم، وجهلوا كلَّ شيءٍ إلَّا منافعهم! فلا سعادةَ إلَّا أن يسعدوا ولو شقيت الأمَّة كلُّها، ولا هناء إلَّا أن يشبعوا ولو جاع الشَّعب كلُّه، إن أصابت الأمَّة حسنة ساءتهم وخافوا منها، وإن أصابها شرٌّ فرحوا به؛ لأنَّهم علموا أنَّ عزَّهم في إذلال شعوبهم، وبقاءهم في إماتة قومهم، والمكر السَّيِّئ دائمًا لا يحيق إلَّا بأهله، ولا يصيب إلَّا صاحبه، والله للماكرين بالمرصاد، فهذا النَّوع من النَّاس ابتليت به الأمَّة الإسلاميَّة منذ قرون، فكان منهم مع الرُّوم على المسلمين، ومنهم مع الفرس، ومنهم مع التَّتار، ومنهم مع الصَّليبيِّين، وكان منهم المسيطر والجاسوس والمرجف، حتَّى عهدنا هذا، ولم يخلُ عصر من العصور من فئات منهم تعمل مع العدوِّ، وفي صالح العدوِّ، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٦].

وإنَّنا - أيُّها السَّادة - في ظلمات غير ظلمات الأمس البعيد، يوم مبعث النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ لأنَّ ظلمات الأمس كانت جهالة وضلالًا وفقرًا كما قلنا، أمَّا اليوم فإنَّ الظُّلمات فسادٌ في العقيدة والأخلاق؛ عبوديَّة، استعمار، ظلم، تفرقة، حدود إقليميَّة وقبليَّة وشعوبيَّة، ظلمات حجبت العقول والبصيرة، وليس لمحو الظُّلمات هذه إلَّا الإسلام، ولن يطهِّر هذه القلوب إلَّا دين الإسلام الَّذي طهَّر قلوب الأسلاف من المسلمين.

أَيُّها السَّادة! يجزع أحدنا إذا خسر في تجارته، أو فَقَدَ شيئًا من ثروته، أو صُدِمَت سيَّارته، أو تلفَ ثوبه، أو تعطَّلت ساعته، أو مرض ولده، أمَّا خسارتنا الكبرى ففي ديننا وقوميَّتنا وعاداتنا وتقاليدنا، فلا تهمُّنا، وها إنَّنا في كلِّ يوم نخسر ونخسر، حتَّى استسلمنا لهذه الخسائر الَّتي مسَّت حرِّيَّتنا وكرامتنا وديننا وعروبتنا، وكلُّ ما لم يمسَّ جيوبَنا لا يهمُّنا.

فيا أَيُّها السَّادة! إنَّنا بحاجة إلى رجال بكلِّ ما في الكلمة من معنى الرُّجولة، رجال أشدَّاء أقوياء، لا تهزُّهم النَّوائب، ولا تجزعهم المصائب، يحيط بقلوبهم إطار من الصَّلابة والقوَّة، يحميهم من الخضوع لمتاعب هذه الحياة ومكافحة قوارعها(١)، فإن لم نسدْ بهؤلاء في الحياة فلنفقد معهم الحياة، قال الشَّاعرُ عنترة بن شدَّاد:

مَاءُ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ   وَجَهَنَّمٌ بِالْعِزِّ أَشْرَفُ مَنْزِلُ(٢)

أيُّها الإخوة! لا يربِّي النَّفس على القوَّة والتَّضحية غير الدِّين، ولا يأبى لك الهوان والذِّلَّة إلَّا الدِّين، فلنصلح أنفسنا بالدِّين، «**فلن يصلح آخر هذه الأمَّة إلَّا بما صلح به أوَّلها**»(٣)، والله وليُّ التَّوفيق.

---

(١) القرعاء: الشَّديدة من شدائد الدَّهر والجمع: القوارع. انظر: تاج العروس، رقم: (٢١/ ٥٤٤).

(٢) انظر: جواهر الأدب في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب، للمصطفى الهاشميِّ (٢/ ٢٦٥).

(٣) سبق تخريجه.

لا إله إلا الله محمَّد رسول الله

إنَّ إشراق شمس الهداية الرَّبَّانيَّة على المجموعة البشريَّة دليلٌ على أنَّ الله لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يتركهم سُدًى، ولعلَّ فيما تكلَّم حضرات السَّادة أصحاب الفضيلة في موضوع الرِّسالة والولادة كِفايةً، وقد رأيت أن أحصر موضوعي في الكلمة الَّتي بُعِثَ بها رسول الله ﷺ؛ كلمة الإسلام: لا إله إلَّا الله، محمَّدٌ رسول الله، كلمة تهتزُّ لها المشاعر وتطمئنُّ لها القلوب وترتاح لسماعها العقول، فالعرب تلك الأمَّة الَّتي أجدبت فيها العقول والنُّفوس من كلِّ ما يغذِّيها من معرفةٍ أو تربيةٍ أو تهذيبٍ، أمَّة عاشت في زمنٍ طغى فيه الجور والظُّلم حتَّى ألفته، فلا يعرف النَّاس معنىً للرَّحمة أو العدل، أمَّة اعتادت الفوضى، همُّها أن يقتل بعضهم بعضًا، أو يسلب بعضهم بعضًا، فأصبح بفضل كلمة لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله جلُّ أفرادها مصابيحَ معرفةٍ، وهداةَ حقٍّ، وقضاة عدل، ورعاة رحمةٍ، وقادة عزٍّ وسؤدد، وإذا بهم دعاة خير، ومصاحف تهدي مَن ضلَّ، ودساتير تسعد من شَقِيَ.

«**لا إله إلَّا الله**» الشَّطر الأوَّل من كلمة الإسلام أخرجتهم من كلِّ عبوديَّة، فلا عبوديَّة إلَّا لله وحده، ولا ينبغي أن يعبد ويطاع إلَّا الله وحده، فهو القويُّ المدبِّر لهذا الكون، إذ لا تدبير لبشرٍ في صغيرة ولا كبيرة إلَّا أن يشاء الله العون، فلا يطلب من أحد إلَّا من الله،

فقوى الأرض ينبغي أن تتَّجه إلى الله، وأن تسير بتدبير الله، لا هداية لأحد إلَّا بهُدى الله، فهو وحده الَّذي يُهتدى بهديه، ويُسترشد بنوره، فإذا أطعنا أولياء أمورنا فإنَّنا نطيعهم بأمر الله، وإذا ائتمرنا بأوامر رؤسائنا فإنَّ ذلك طاعة لأوامر الله، وإذا أصلحنا شؤوننا وحسَّنَّا أحوالنا فذلك كلُّه طاعة لله، وإذا خدمنا أمَّتنا ووطننا وحافظنا على كياننا فكلُّ ذلك بأمر الله، وإذا جاهدنا في سبيل عزَّتنا وكرامتنا وحريَّتنا فذلك أمرٌ يريده الله، وإذا قاتلنا عدوَّنا وكافحنا المعتدي على حدودنا وأعراضنا وأموالنا كان ذلك طاعة لأمر الله.

«**لا إله إلَّا الله**» رابطة بين الإنسان العبد والرَّبِّ المعبود، رابطة بين الإنسان الفرد ومجتمعه من بني الإنسان، إنَّها رباط إلهيٌّ وضعه الله في الأرض لتنتظم به الحياة؛ حياة الفرد، وحياة المجتمع، فيأمن الفرد على نفسه من شرِّ مجتمعه، ويأمن المجتمع من شرور الفرد، وبذلك تُحفظ للنَّاس جميعًا المصالح والحقوق والواجبات.

أمَّا الشَّطر الثَّاني من شهادة الإسلام فهي «**محمَّد رسول الله ﷺ**»؛ ومحمَّد رسول الله هو المصدر الثَّابت الَّذي أخذنا عنه كلام الله وفهمنا منه معناه، وهو القدوة الَّتي نقتدي بها، والمثل الكامل الَّذي ننظر إليه، إنَّنا - معشر المسلمين - حيثما ولَّينا وجوهنا شرقًا أو غربًا، شمالًا أو جنوبًا، نبحث عن قدوة نتأسَّى بها، أو مثال نقتدي به، فلن نجد أفضل من محمَّد ﷺ، فهو إمامنا وأُسوَتُنا.

إنَّه عبد الله ورسوله، اصطفاه الله ليكون معلِّم البشريَّة وهاديها إلى النُّور في جوانب حياتها كلِّها؛ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، إنَّه إنسانٌ شأنه

كشأننا لا ملكًا منزَّلًا إنَّه الإنسان الَّذي نقتدي به في حياتنا الفرديَّة، وهو الزَّوج الَّذي نقتدي به في حياتنا الأسريَّة، وهو الأب الَّذي نقتدي بتعاليمه في تربية أبنائنا وحياتنا البيتيَّة، وهو القاضي الَّذي نقتدي به في حكوماتنا وفصلِ قضايانا، وهو القائد الَّذي نقتدي به في دفاعنا عن حرِّيَّتنا وعزَّتنا ومجدنا، وهو المجاهد الَّذي نتأسَّى به في التَّضحية والتَّفاني في نصر الحقِّ، وهو المتعبِّد الَّذي نقتدي به في توجُّهنا إلى ربِّنا، وهو الرَّاعي الَّذي نقتدي به في تدبير الرَّعيَّة وفي رعاية ما نحن مسؤولون عنه في حياتنا، وهو روحانيَّة صافية في مزاجٍ بشريٍّ كامل، وطبيعة إنسانيَّة مشرقة، شملَ اتِّجاهات البشر كلَّها بطهارة وصفاء، ذلك هو الإنسان الَّذي ينبغي أن يقتدي به كلُّ إنسانٍ بقدر ما تطيقه نفسه البشريَّة، وهو المقياس الَّذي يجب على كلِّ إنسان أن يقيس عليه حياته؛ ليعرف إلى أيِّ مدًى هو مصيب في اقتدائه، وإلى أيِّ مدًى هو في اقتدائه مخطئ.

أيُّها السَّادة! إنَّ كلمة الإسلام «**لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله**» ليست ألفاظًا ينطق بها لسان الإنسان، ولا شعورًا يتلذَّذ به النَّاطق أو يهتزُّ له بدنه، ولا وجدًا يشعر به السَّامع والمتكلِّم، وإنَّما توحيدٌ عمليٌّ نحو عقيدةٍ صادقة، تُسخَّر لها جوارح الفرد، وتتأثَّر بها نفوس المجتمع، وتقوم عليها حياة الأمَّة.

والإسلام - أيُّها السَّادة - ليس للمسجد أو المصحف أو الصَّوْمعة(١) أو المعبد فقط، إنَّما هو دين ودنيا، أسألكم بالله شيبًا وشُبَّانًا، هل سمعتم بدين يُثِيب على الأكل والشُّرب والزَّواج، ويُكَافِئ على السَّعي إلى العيال وصلة الأقارب، وزيارة الأصدقاء، والسَّلام على الرِّفاق؟! هل سمعتم بدين يُثِيب على حسن النِّيَّة، وبشاشة الوجه، وسلامة الصَّدر، ويجزي خير الجزاء على المحافظة على الصِّحَّة، وطهارة البدن، وزينة الملبس؟! هل خطر على بالكم أنَّ دينًا يقول لأتباعه: إنَّ كلَّ عمل تعمله محتسبًا فيه رضا الله لك فيه أجرٌ، وكلَّ مُصابٍ تُصابُ به في دنياك من همٍّ أو ألم أو مُصيبةٍ لك فيه ثوابٌ، وكلَّ خيرٍ تفعله لإنسان أو حيوان لك فيه فلاحٌ؟! هذا الدِّين هو الإسلام، هو دين «**لا إله إلَّا الله محمَّد رسول الله**».

بهذا الدِّين عملت أمَّةٌ كانت خير أمَّة أخرجت للنَّاس وأمرت بالمعروفِ وأتَمَرَتْ به، ونهت عن المنكر وامتنعت عنه، وعلَّمت وعمِلت، فخلَّد الله ذكرها في كتابه العزيز بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عِمرَان: ١١٠].

أيُّها السَّادة! إنَّ الله قد بعث محمَّدًا بالإسلام، وجعله خاتمًا للنَّبيِّين؛ لأنَّه - جلَّ جلاله - أراد البقاء للإسلام، وجعله دينًا صالحًا لكلِّ زمان ومكان، لم يحرِّم فيه زينةً ولا نعمةً ولا حياةً، أراد فيه

(١) الصومعة: هو موضع الراهب. انظر: لسان العرب لابن منظور، رقم: (٦/ ١٨٦).

القوَّة للمسلمين، والعزَّة والكرامة لهم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ولا أريد أن أُطيل القول؛ لأترُكَ المجال للأخوةِ الكرام، ولكنِّي أختم كلمتي بقول الله جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمران: ١٩]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمران: ٨٥].

العظمة في شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ

أيُّها السَّادة! اعتاد المسلمون في السَّنوات الأخيرة أن يحتفلوا في أوَّل يوم من مُحرَّم مبدأ كلِّ عامٍ هجريٍّ بذكرى الهجرة، وقد يسمُّونه يوم الهجرة، أو عيد الهجرة، وقد تكلَّم الإخوان أصحاب الفضيلة بما فتح الله عليهم في موضوع الهجرة، وسيتكلَّم آخرون على الهجرة وفضلها، وإنَّها مبدأ فتح الإسلام، ولا عجب؛ فالله جلَّ ذكره خلَّد ذكرها في كتابه الكريم، وأعظم أمرها، وأظهر أثرها في الآية الكريمة من سورة التَّوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

أمَّا موضوعي الَّذي اخترته لهذه الذِّكرى فهو:

العظمة في شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ

أيُّها السَّادة! أراد الله - ولا رادَّ لإرادته - أن يظهر العرب على غيرهم من الأمم - وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابه - فأعدَّ العرب في جزيرتهم لممارسة فنون القتال في حذقٍ ومهارةٍ في التَّدريب عليها سنين طويلةً فيما قام بينهم من حروبٍ متواليةٍ لم يضع لها حدًّا إلَّا

بعثة محمَّد ﷺ، ودعوته العرب إلى نبذ الحروب واتِّحاد الكلمة، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ومن حكمته جلَّ شأنه أن جعل العرب ينظرون إلى قريش نظرة تقديرٍ وتوقيرٍ لمكانتهم الدِّينيَّة؛ لكونهم سدنة[١] البيت وحرَّاسه، وينظرون إلى لهجتهم نظرة إكبارٍ وإجلالٍ، حتَّى إنَّها كانت سيِّدة اللَّهجات بين قبائل العرب كلِّها، بل كانت اللَّهجة الرَّسميَّة، تُنشَد بها القصائد وتُلقى بها الخطب، وقد أتمَّ الله نعمته على قريش، فبعث منهم نبيَّه محمَّدًا خاتم النَّبيِّين، وأكمل الله فضله على لغتهم - وهكذا كانوا يسمُّونها - فأنزل بها كتابه، وتعهَّد بحفظه؛ لتبقى بقاءه وتُحفظ به.

وعظمة محمَّد ﷺ لا يستطيع أحد أن ينكرها، ولا أن ينكر ما وُصِفَ به من أخلاقٍ سامية، ولا ما امتاز به من ملكات فاضلة استقرَّت في نفسه، فصدرت عنها أفعاله وتصرفاته الَّتي هيَّأتهُ، بل هيَّأَهُ الله لأن يكونَ النَّبيَّ الرَّسول، والزَّعيم القائد.

نشأ محمَّد ﷺ في مكَّة، ووُلِدَ وترعرع وأيفع وشبَّ فيها، وكانت مكَّة مَباءَة[٢] ملذَّات وفسق، والقوافل تحمل إليها البضائع النَّافعة في

---

(١) السَّدنة: حُجَّاب البيت، وقال أبو عبيدة: سدانة الكعبة خِدمتها وتولِّي أمرها وفتحُ بابها وإغلاقه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٣/ ٢٠٧).
(٢) تبوَّأ المكان: حلَّه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١/ ٣٩).

رحلتي الشِّتاء والصَّيف، وفي الوقت نفسه كانت تحمل إليها الخمور، والرَّقيق، والجواري اللَّواتي يهيم بهنَّ أغنياء مكَّة، ويفتتنُ بهنَّ شبابها، ويصبحن وسائل الضَّلال والتَّحاسد والتَّباغض، ولكنَّ محمَّدًا ﷺ عفَّ وسما عن ذلك كلِّه سموًّا جعل له بين قومه منزلةً مرموقةً، فكان موضع إعجاب النَّاسِ جميعًا وحبِّهم، وكان في طفولته قبل أنْ يشبَّ موضع احترام أعمامه، حتَّى إنَّهم كانوا لا يقربون مجلس أبيهم عبد المطلب، ولكنَّه ﷺ يدنو منه أحيانًا، ويجلس فيه أحيانًا، وكان الزُّبير بن عبد المطلب أكبر أعمامه يحاول أن يردَّه، فيقول عبد المطلب: «**دَعُوهُ، فإنَّ لابني هذا شأنًا عظيمًا**»(١)، ولُقِّبَ وهو في ريعان شبابه بالصَّادق الأمين، في مجتمع محصور، تتناقل فيه الأنباء، وتشيع فيه الأخبار، وتروى فيه الحوادث عند وقوعها، وإنَّ الَّذي يكذب إنسانٌ يشعرُ في نفسه بخوفٍ أو نقصٍ، فيحاول ستر فعلته بالكذب، والَّذي يخون شخصٌ افتقرت نفسه، وصغرت همَّته، أمَّا الصَّادق الأمين فهو إنسانٌ أكمل الله خَلْقه وخُلُقه، وليس بنفسه صغار أو خوف أو نقص، ولا هو في حاجة أو فقر، ولم يعرف أهلُ مكَّة الَّذين نشأَ فيهم أنَّه كذب مرَّة في حديث حدَّث به، أو أخلف وعدًا وعده، أو خان أمانة اؤتُمِنَ عليها؛ لذلك انطلقت ألسنة القوم حين رأوه داخلًا عليهم من باب الصَّفا: هذا الأمين رضيناه، وذلك يوم انتهوا من بناء الكعبة إلى الموضع الَّذي يوضع فيه الحجر الأسود، واختلفوا فيمن يضعه حتَّى كادوا أن يقتتلوا، وأخيرًا اتَّفقوا

---

(١) سبق تخريجه.

على تحكيم أوَّل داخل من باب الصَّفا، فكان ﷺ أوَّل داخل، وما إن رأوه داخلًا حتَّى انطلقت ألسنتهم بصوت واحد قائلين: «**هذا الأمين رضيناه، هذا محمَّد**»[(١)]، ولم لا يرتضونه وهو الحكم الفاضل العادل الَّذي وقاهم الله بمجيئه شرَّ فتنة عمياء يطولُ أجلُها وتقضي على الشُّيوخ والشَّباب؟!

وهذا هو في صدر شبابه يشترك مع عمومته في حلفٍ يسمَّى حلف الفضول، تحالفت فيه قبائل قريش ألَّا يجدوا بمكَّة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم إلَّا قاموا معه وكانوا على من ظلمه، حتَّى تُردَّ مظلمته، فيقول ﷺ بعد رسالته: «**لقد شَهِدْتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلْفًا ما أحبُّ أنَّ لي بِهِ حُمْرَ النَّعم، ولو أُدْعَى به في الإسلام لأجبتُ**»[(٢)].

ولقد أنبأتنا كتب الصِّحاح - على مُؤَلِّفيها رحمةُ الله - أنَّه ﷺ ليلة عاد من غار حراء يرجف فؤاده بعد أوَّل وحي نزل عليه أخبر خديجة رضي الله عنها خبر الملك الَّذي نزل عليه بالوحي، وقال: «**لقد خشيت على نفسي**»[(٣)]، فقالت له السَّيِّدة الكريمة والزَّوجة الوفيَّة خديجة البارَّة الخبيرة المجرِّبة الَّتي أربت سنُّها على الخمسين، وعاشرت زوجها محمَّدًا وعرفت حاله وأخلاقه وخبرته في عسره ويسره، وحلِّه وترحاله: «**يا بن عمِّ! كلَّا والله ما يُخزِيكَ الله أبدًا، إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتَكسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضَّيف، وتُعينُ**

(١) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، للجوزي (٢/ ٣٢٦).
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، رقم: (١٣٠٨٠).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٣).

على نوائبِ الحقِّ»[1].

هذه - أيُّها السَّادة - أخلاق محمَّد ﷺ قبل أنْ يشرِّفه الله برسالته، ومَن كانت هذه أخلاقه الَّتي فَطَرهُ الله عليها فلن يخزيه، ولن يذلَّه، وإنَّ لكلِّ صفة من هذه الصِّفات حديثًا، لو أردتُ أن أبحث فيه لطال بي الزَّمن، وقد أخذ محمَّد ﷺ نفسه بالجدِّ الصَّارم الَّذي لا يشوبه هزل أو تهكُّم أو سخرية، ولكنَّه مع ذلك كان رقيق الحاشية مع أصحابه، لطيف المعشر معهم، يمازحهم ولا يقول إلَّا حقًّا، ويضحك معهم وكان ضحكه ابتسامة، وربَّما أغلظ عليه القول أعرابيٌّ جافي الطِّباع، فلا يغضبُ، وإن غضب عليه أحد أصحابه عمل على تسكين غضبه؛ لأنَّ أكثر الأعراب لا يعقلون، ولأنَّه ﷺ يعرف طباع العرب في جفائهم وشدَّتهم، والأعراب أشدُّ كفرًا ونفاقًا، فهو يتقبَّل منهم ذلك؛ استمالة لهم، وتأليفًا لقلوبهم، لا عن ضعف وتخاذل، وإنَّما عن رحمةٍ وحكمةٍ وسياسةٍ رشيدة.

ولاقى النَّبيُّ في سبيل الدَّعوة من العذاب والاضطهاد والدَّسِّ والمؤامرات والمغالطات والمُقاطعة والمُدابرة ألوانًا، وعُذِّبَ أصحابه أشدَّ العذاب، وتفنَّن الأقوياء في تعذيب المستضعفين من أصحابه، ولكنَّه صبر، وحثَّ على الصَّبر، وسارت الدَّعوة في طريقها موفَّقة مؤيَّدة بنصرِ الله حتَّى وصلت إلى غايتها بالهجرة من مكَّة إلى المدينة، وانتقل الإسلام بالهجرة من مكَّة إلى المدينة، وزال بكلمته ما كان بين الأوس والخزرج من عداء، وتآخى المهاجرون

(١) رواه البخاري، رقم: (٦٩٨٢)، ومسلم، رقم: (١٦٠).

والأنصار، ثمَّ أصبح العرب في أنحاء جزيرتهم جميعها أمَّةً واحدةً تعتنق عقيدةً واحدةً، وتتَّبع دينًا واحدًا هو دين الإسلام البريء من أدران الوثنيَّة، الخالص من شوائب الشِّرك؛ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وأقبلت الوفود تستعجل دخولها ودخول قومها في هذا الدِّين الحنيف، ولم يلحق الرَّسول ﷺ بالرَّفيق الأعلى إلَّا وقد طهرت جزيرة العرب من رجس الوثنيَّة، وتخلَّصت من العصبيَّة القبليَّة وحميَّة الجاهليَّة.

وبعد، فقد أطلت الحديث، والحديث عن رسول الله ﷺ لا يملُّ، فبذكر الرَّسول ﷺ تحيا قلوب المؤمنين، لكنَّ الوقت محدود والحرَّ شديدٌ، والأولى أنْ أترك المجال للإخوةِ الكرام، فقد حاولتُ أن أذكر بحديثي من نواحي العظمة في شخصيَّة الرَّسول ﷺ: سموَّ نفسه، وعفَّته، وصدقه في حديثه، وأمانته، ووفاءه، وتضحيته في سبيل الصَّالح العامِّ، وعونه على نوائب الحقِّ، وصبره على المكاره، وقد أردت أكثر من ذلك، ولكنَّ المجال لا يسمح، وأختمُ حديثي بثناء الله جلَّ شأنه على نبيِّه، إذ خلَّد هذا الثَّناء في كتابه العزيز الَّذي سيتلى ما بقيت الأرضُ والسَّموات: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

أَذكر الآن بيتين قالهما الزَّهاويُّ شاعرُ العراق حين طُلب منه إنشاد قصيدة للاحتفال الَّذي أقامته جمعيَّة الهداية الإسلاميَّة في بغداد في ذكرى مولد الرَّسول عليه السلام سنة (١٣٤٩هـ)(١)، قال رحمه الله:

قَالُوا: امْتَدِحْ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَحْمَدًا بِقَصِيْدَةٍ تَشْدُوْ بِرِفْعَةِ شَأْنِهِ
فَأَجَبْتُهُمْ: مَاذَا أَقُوْلُ بِمَدْحِ مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ اللهُ فِيْ قُرْآنِهِ؟!

(١) أي: سنة (١٩٣٠م).

النَّبيُّ المبشِّرُ

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٣١-٣٢].

«لا يؤمن أحدكم حتَّى أكونَ أَحبَّ إليهِ من وَلدِهِ ووالَدِهِ والنَّاسِ أجمعين»(١).

أيُّها السَّادة! إنَّنا بوصفنا مسلمين يجب علينا أن نعتزَّ بشخصيَّة النَّبيِّ محمَّد ﷺ، لا بوصفهِ نبيَّ الإسلام، ولكن بوصفه المبعوث للنَّاسِ كافَّةً بشيرًا ونذيرًا، أخرج الإنسانيَّة من الظُّلمات إلى النُّور، ومن الجهالة إلى المعرفة، ثمَّ أخذ بها من حياة البؤس والشَّقاء إلى الحياة الصَّحيحة والعيش الكريم.

وحُبُّنا لشخصيَّة النَّبيِّ ﷺ يوجب علينا أن نضعه في الإطار الَّذي صنعه الله له دون مغالاة أو مبالغة، وحسبه من تعظيم الله له أن كلَّفه بتبليغ رسالةٍ خالدةٍ خلود السَّموات والأرض، عامَّةٍ للنَّاسِ، لم تُقَيَّد بشعب ولا بإقليم، وأيَّدهُ بمعجزةٍ خالدةٍ هي كتابه الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسيظلُّ هذا الكتاب آية لتأييد رسالته، حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) رواه البخاري، رقم: (١٤)، ومسلم، رقم: (٤٤).

وكثيرٌ من النَّاسِ يغالون في تقديسِ شخصيَّة الرَّسُول ﷺ، بل ربَّما رفعوه عن مكانة البشر، يظنُّون أَنَّهم بذلك يرفعون من قدره، مع أنَّ الوضع الَّذي رضيه الله له يجعله في أعلى مراتب التَّقدير، فمُحمَّد ﷺ - لا شكَّ - بشرٌ بكلِّ ما في هذه اللَّفظة من معنى البشريَّة، وبكلِّ ما ينطبق عليها من سُنن الكون وظروف الطَّبيعة، وُلِدَ من أبوين، وحملت به أمُّه تسعة أشهر كما يولد البشر، وعاش كما يعيشون، ومرض ومات كما يمرضون ويموتون، ولم يشذَّ عن سنَّةِ الطَّبيعة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال ﷺ: «**لا تُطرُوني**[١]**، كما أطرت النَّصارى ابنَ مريمَ، فإنَّما أَنا عبدهُ، فقولوا: عبد اللهِ ورسولُهُ**»[٢]، وقال ﷺ: «**هَوِّن عليكَ، فَإِنِّي لستُ بمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابنُ امرأَةٍ تَأكُلُ القَدِيدَ**»[٣]، ولكنَّه امتازَ عن البشر وعن سائر الأنبياء الَّذين أرسلوا قبله بأنَّه حمل أعباء رسالةٍ عامَّةٍ ليبلِّغها البشر كافَّةً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

كان ﷺ نبيًّا ورسولًا بكلِّ ما في هذه الكلمة من معنى، وكُلِّف مهمَّة التَّبليغ كما كُلِّفها غيره من الأنبياء قبله، وَأْتَمَرَ بأوامر الوحي، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ

(١) الإِطراء: مجاوزة الحدِّ في المدح، والكَذب فيه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٣/ ١٢٣).
(٢) رواه البخاري، رقم: (٣٤٤٥).
(٣) رواه ابن ماجه، رقم: (٣٣١٢).

﴿أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف: ٩]، حرصَ أولئك القوم على أن يضيفوا إلى حياة الرَّسُول آلاف المعجزات ممَّا لم يؤيِّده كتاب ولا سنَّة، وربَّما بالغوا فقالوا: إنَّه كان ينمو في طفولته نموَّ السَّنة في شهر، وإنَّه لا ظلَّ لشخصه إذا مشى في الشَّمس، وإنَّه لا ينطق عن الهوى قبل بعثته، وإنَّه كان مقيَّدًا بتوجيه الله له في كلِّ لحظة من لحظات حياته.

أيُّها الإخوة! إنِّي إذ أقول هذا لا أريد أن أحطَّ من قدر النَّبيِّ ﷺ، فإنِّي مؤمن به وبرسالته، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسول الله، وأريد الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، إنَّ محمَّدًا ﷺ قال: «**أدَّبني ربِّي فأحسنَ تَأديبي**»(١)، فكان قبل نُبوَّته وبعدها على خُلُقٍ عظيم، وامتازَ ﷺ بفضائل سامية من قبلِ بعثته، فُضِّلَت بها على الشَّخصيَّات الَّتي دخلت التَّاريخ كافَّةً، ثمَّ اختاره الله بأن بعثه برسالةٍ شاملةٍ للنَّاسِ، ستبقى ويبقى بها ذكره على الرَّغم من تقلُّبات الزَّمان وتوالي الأيَّام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشَّرح: ١-٤]، وإنَّ الله ﷻ حدَّثنا في كتابه العزيز عن معجزات أيَّد بها رسله عليهم السَّلام؛ كجعل النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم، والآيات التِّسع البيِّنات لموسى، وإبراء المرضى وإحياء الموتى لعيسى، والطُّوفان لنوح، وغيرها، وهي معجزات انتهت بانتهاء حدوثها، ولم تزد الكافرين بأنبيائهم إلَّا عتوًّا ونفورًا وفرارًا، أمَّا المعجزة الخالدة فهي

---

(١) سبق تخريجه.

تلك الَّتي أيَّد بها خاتم رسله؛ هي مُعجزة القرآن، جاءت للإنسان بعد أن بلغت الإنسانيَّة سنَّ الرُّشد لتخاطب العقول، فقد أصبح الإنسان لا يصلح لإقناعه سوى المنطق السَّليم، والقرآن الكريم تكفَّل بذلك، فألجم المعارضين بحجَّته، وأفحم الكافرين بمنطقه.

والرَّبُّ العظيم جلَّ جلالُه الَّذي جعل من العصا حيَّة لموسى، وفي النَّار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وفي الطِّين الجماد طيرًا لعيسى؛ قادرٌ على أن يجعل مثل ذلك وأعظم منه معجزات لخاتم أنبيائه ﷺ؛ ولكنَّه سُبحانه لم يَشأ ذلك، وإنَّما ترك كتابه الخالد معجزةً باقيةً، يتولَّى مهمَّة حفظ الرِّسالة بحججه العقليَّة، وبيانه الرَّفيع، وبراهينه القاطعة، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

والله يعلم أنَّ انشغال النَّاس بالأمورِ الخارقةِ - لاسيَّما بعد أن بلغ الإنسان رشده - ضربٌ من ضروب ضياع الوقت، مع أنَّ قريشًا طالبوا محمَّدًا ﷺ بشيء من هذه المعجزات، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقالوا أيضًا: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ

فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان: ٧-٨]، ولكنَّ الله جلَّ جلالُه أجابهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وما كانت المعجزات تصلح من قبل وسيلة للإقناع، فقد زادت النَّار الباردة في طغيان قوم إبراهيم، وأيقظت الحيَّة كبرياء فرعون وقومِه وحسدَهم، وكُلمَّا جاءهم بآية من آياته زادتهم عتوًّا ونفورًا.

إذن: فمهمَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ ليست إلَّا الدَّعوة إلى الله ﷻ في حدود الإنذار والتَّبشير، قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٩﴾ [البقرة: ١١٩]، فقد كلَّفه الله أن يوضِّح للنَّاس طريقي الهدى والضَّلال، مبلِّغًا ما أُرسل إليه من ربِّه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقد أكرم الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالإسراء، وقصَّ القرآن لنا ذلك بقوله جلَّ جلالُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، ولقد أراهُ الله ليلة الإسراء من آياته الكبرى ما أراه، فأتاح له فرصة الاطِّلاع على مظاهر قدرته، حتَّى ملأَ قلبه ثقةً بما كُلِّف؛ ليواجه قوى الكفَّار المتألِّبة، ويهاجم سلطانهم القائم، كما حكى القرآن لنا عن المعراج في سُورة النَّجم قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ

ﭐلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النّجم: ١٣-١٨]. هل كان الإسراء والمعراج بالرُّوح والجسد أم بالرُّوح فقط؟ إنَّه خلاف بين العلماء ومؤرِّخي السِّيرة النَّبويَّة، ونحن نؤمن بأنَّ الله جلَّ شأنه أكرم نبيَّه ﷺ، فأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمَّ عرج به حتَّى بلغ سدرة المنتهى، وأنَّهُ ركب في مسراه مخلوقًا تفوق سرعته سرعة الصَّوت الَّذي اخترعه النَّاس أخيرًا، وقد امتطى البُرَاق؛ وهو كائنٌ يضع خطوه عند أقصى طرفه ويمشي بسرعة الضَّوء، ولعلَّ اسمه اشتُقَّ من البرق، فكأنَّ قوَّةَ الضَّوء وسرعته سُخِّرت في هذه الرِّحلة لنبيِّنا محمَّد ﷺ بإعداد خاصٍّ برأهُ باري الكون، وسخَّرهُ لخاتم رُسله ﷺ، ثمَّ تقصُّ لنا كتب السُّنَّة بأنَّ الله جمع المرسلين السَّابقين من حملة الهداية السَّماويَّة في هذه الأرض؛ ليستقبلوا صاحب الرِّسالة الخاتمة، وفي هذا دليل على أنَّ الرِّسالات يصدقُ بعضها بعضًا، ويمهِّد السَّابق منها للَّاحق، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عِمرَان: ٨١]، فصلَّى بهم ركعتين إمامًا في المسجد الأقصى، فكانت هذه الإمامة إقرارًا سماويًّا بأنَّ كلمة الله إلى خلقه تمَّت بالإسلام على يد محمَّدٍ ﷺ بعد أن وطَّد لها رسالات رُسله الأوَّلين، وتخبرنا السُّنَّة أيضًا أنَّ الإسلام دين الفطرة، وعلم ذلك رسول الله ﷺ حين جاءه ليلة إسرائه إناءان؛ في أحدهما خمر، وفي الآخر لبن، قال: «**فأخذتُ اللَّبنَ فقيل: هي الفطرةُ الَّتي أنتَ**

عليها وأُمَّتُك»(١)، وشُرعت الصَّلوات الخمس في ليلة المعراج في السَّماء؛ لتكون معراجًا يرقى بالنَّاس إلى المعالي كلَّما تدلَّت بهم شهوات النُّفوس إلى الدَّنايا، والصَّلاة طهور للإنسان الحيِّ لا للجُثَّة العفنة والقلوب الميِّتة الَّتي لا تقنت بالصَّلاة ولا تجديها الصَّلاة فتيلًا، واعتياد الصَّلاة يفيد المُصلِّي، كالمريض يُداوم استعمال دوائه فيُكسبه الشِّفاء، والرَّسول ﷺ يأمرنا أن نشهد بالإيمان لمن يعتاد المساجد.

أيُّها السَّادة! إنَّ حُبَّنا لرسول الله ﷺ واعتزازنا بشخصيَّته وتعظيمنا وتقديسنا له، لا تكونُ إلَّا بطاعته وامتثال أمره فيما أمر، واجتناب نهيه عمَّا نهى؛ لأنَّ طاعة الرَّسول طاعةٌ لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النِّساء: ٨٠]، وظهور حُبِّنا للرَّسول ﷺ يكون بالتَّأسِّي به في أقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، ومصداق حُبِّنا له ﷺ أن نتأدَّب عند ذكره، ونكثر من الصَّلاة والسَّلام عليه عند سماع اسمه كما أمرنا الله سُبحانه بذلك، أمَّا أن نصفه بأكثر ممَّا وصفه به ربُّه، أو أن نعطي لشخصيَّته صفات لا تليق بكمال بشريَّته، فهذا ممَّا لا يرضاه الله لنبيِّه ﷺ، ولا يرضاه هو لنفسه، فقد روى البُخاريُّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال: «**لا تُطرُوني، كَما أطرت النَّصارى ابنَ مريم، فإنَّما أنا عبدُهُ، فقولُوا: عَبدُ اللهِ ورسولُهُ**»(٢).

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٨٨٧).

(٢) سبق تخريجه.

أمَّا بعد:

أيُّها النَّاس! فقد تقدَّمت بالنَّاس الحضارة، وأنكر النَّاس بها الإسلام، والإسلام لا ينكر الحضارة، والحضارة لا تنافي الإسلام، وإنَّما أيَّدها وأيَّدته، ولكنَّ حبَّ المادَّة وطغيانها غلَّف القلوب، ورانت على العقول من حُبِّها ظلمةٌ، واستغلَّ الكافر جهل المسلمين بدينهم، فأشغلهم بالمُتع، وزاغ بهم عن طريق الخير، وصرفهم عن النَّظر إلى محاسن دينهم، فوسوس إليهم بأنَّ الدِّين قيد، وأنَّ الدِّين شيء والدُّنيا شيء آخر، واستغلَّ الدَّجَّالون الفرص، فداروا على الدِّينار ودوَّروه، وخدعوا النَّاس باسم الدِّين، والدِّين منهم بريء، وأحدثوا فيه ما ليس منه، وليس أبغض إلى الله من أن يفتري على الله مُفترٍ فَيُحْدِثَ في الدِّين أمرًا ليس هو من الدِّين، فيكذب على النَّاس، ويفتري قيودًا باسم الدِّين تترك النُّفوس في سجونها مغلولة كئيبة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: ١٨].

لا وازع مثل الدِّين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

احتفل العالم الإسلاميُّ الأسبوع الماضي بميلاد مُنقذ البشريَّة من الضَّلال ﷺ، وقد تفنَّن النَّاس في احتفالاتهم بهذه الذِّكرى، و﴿كُلٌّ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، واحتفلت الكويت بذلك، ولكنَّها - ولله الحمدُ - ترفَّعت باحتفالها عن كلِّ ما يخالف الدِّين، وقد بعث الله نبيَّه ﷺ يتلو على النَّاس آياته، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢]؛ ليخرجوا من ضلال إلى هدى، ومن جهالة إلى علم، ومن شقاء إلى سعادة، ومن خلاف إلى وفاق، ومن تفرقة إلى وحدة، ومن جفوة وفوضى إلى هدوء وراحة.

والله - جلَّ شَأنه - قد باين أعمال النَّاس، وربط بين هذا التَّباين؛ ليعمرَ الكون، فكان فيهم حاكم ومحكوم، وصحيح ومريض، وموظَّف، ومسؤول عن الأمن والمحافظة على الحدود، ووالد وولد، وعائل ومعول، وجعلَ كلَّ فرد من هؤلاء مسؤولًا عن عمله الَّذي كُلِّف به أمام الإنسانيَّة وأمام من هو أكبر منه، وكلُّ فرد من النَّاس يطمئنُّ إذا حصل على حقِّه من هذه المسؤوليَّات، وتقرُّ عينه إذا علم أنَّ مواطنيه قد ائتمروا بما وجب عليهم أمام الشَّريعة والقانون، وهذه الأعمال لا غنًى لأيِّ فرد من الأُمَّة عنها، وهل من الممكن أن تقيم الحكومات حارسًا على كلِّ فرد مسؤول ليقوم بعمله

وفق القواعد السَّليمة؟! كلَّا، إنَّ هذا أمرٌ صعب، إنَّما جعل الله ﷻ مع كلِّ إنسان حارسًا يرشده إلى الخير ويبعده عن الشَّرِّ، ذلك هو الدِّينُ، وذلك هو الوازع الدِّينيِّ، وليس أقوى منه جالبًا للخير ودافعًا للشَّرِّ، ولك بعد كلِّ ذلك لجنة، ومحافظ الأمن يتولَّى مراقبة النِّظام ونشر الأمن داخل البلاد؛ حتَّى لا يعبث عابث، ويرجف مرجف، وهو مسؤول عن رعيَّته؛ لأنَّ دينهُ يقول له: «**خيرُ النَّاسِ أنفعُهُم للنَّاسِ**»(١) ويقول: «**كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته**»(٢)، وضابط الحدود يدافع عن وطنه، ويدفع شرور المعتدين، ودينه يبشِّره بالفلاح وبنظرةٍ إلى وجه الله الكريم؛ لأنَّهُ سهر طاعةً لله ولرسوله ﷺ، وقد وعد الله المُرابطين بالجنَّة، والأعين السَّاهرة بالحراسة بنظرة إلى وجه الله الكريم، والطَّبيبُ أقسم يوم نال شهادته بالمُحافظة على شرف المهنة، فمَن يراقبه إن لم يكن له دينٌ يدفعه إلى البرِّ بهذا القسم؟! وربُّ العائلة كلَّفه الله أمانةَ رعايةِ أسرته، ووهبه الله هبةً هي ذُرِّيَّته، فإذا كان له دِينٌ يدفعه إلى القيام بواجب هذه الأسرة حفظًا لكرامتها، فستعيش هذه الأسرة سعيدة وسيهنأ الأبناء بتربيةِ هذا الأب الصَّالح، والتَّاجر يبيع ويشتري، ويُدِين ويَستدِين، ويقضي ويقتضي، وقد ينسى بعض النَّاس حقوقهم، وقد يغفل كاتبٌ كَتبَ معاملة، والإنسانُ معرَّضٌ للنِّسيان، لكنَّ الدِّين يحفظُ كلَّ ذلك، والوازع الدِّينيُّ يبعدُ المتعاملين من غشٍّ يجرُّ إلى طمع، ويأمرُ بالسَّماحة، فيقول: «رَحِمَ

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (١٢٥٤).

(٢) سبق تخريجه.

اللهُ رَجلًا سَمحًا إذا باعَ، وإذا اشتَرى، وَإذا اقتضَى»[١]، «**وَمَن غَشَّ فليسَ منَّا**»[٢]، والموظَّف أمينٌ على وظيفته، فإذا كان عنده دِينٌ أدَّى الأمانة، «**فلا إيمان لمن لا أمانة له**»[٣].

أيُّها الإخوة! يعيش النَّاس آمنين مُطمئنِّين في ظلِّ الوازع الدِّينيِّ، وفي وجود الحاكم المسلم المتمسِّك بدينه تهدأ النُّفوس وتأمن من خوف؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ حُكومتهم مع الله، و«**من كان مع الله كان الله معه**»[٤]، ومن كان الله معه أمن من فوضى وخوف، وعاش حياته طيِّبة.

أيُّها النَّاس! ما زلنا في أيَّام ذكرى، فلنأخذ عبرةً منها، وإنَّ خيرَ ما نُكرِّم به صاحب الذِّكرى ﷺ هو أن نأتمر بما أمر به، وننتهي عمَّا نهى عنه، وذلك الخيرُ كلُّه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٤].

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٢٠٧٦).

(٢) رواه الترمذي، رقم: (١٣١٥)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه أحمد، رقم: (١٢٣٨٣).

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، رقم: (٢٥٧٨).

ترجمَة المرحُوم الشَّيخ محمَّد النُّوريِّ

أبو عبد الله ضياءُ الدِّين محمَّد النُّوريُّ بن ملَّا أحمد بن محمَّد المُلقَّب (جرجس) ابن أحمد بن زَكريَّا، المُوصليُّ المولد والمنشأ والتَّعليم، اشتهرت أسرته في الموصل باسم (فر مزبك) المحرَّفة عن الفارسيَّة (بير مرد)، ومعناها الشَّيخ الرَّجل، أو الشَّيخ الشُّجاع، وسببها أنَّ جدَّه العاشر كان من عساكر السُّلطان مراد فاتح بغداد ومخلِّصها من الفرس، فأظهر من الشَّجاعة ما أوجب أن يسأل عنه قائد قوَّات إيران بقوله: من هذا الشَّيخ الرَّجل؟ ولمَّا علم بذلك السَّلطان مراد أبقى عليه هذا اللَّقب، وجعله لقب شرف، وأَنعم عليه بلقب بك، وأقطعه أَراضي في محلٍّ يُقال له: جبل مقلوب، وحدَّثنا الوالد أنَّه أوَّل من تحضَّر، وأنَّ أصله من عَشيرة العَبيد، وهي فخذ من شمر القحطانيَّة، ولا تزال تسكن شمال غرب الموصل، وأنَّ أصل اسمه عقاب، وقد لُقِّب في الموصل باسم يعقوب، ولُقِّب بأبي يوسف، حتَّى غطَّى عليه لَقب (فر مزد)، ثمَّ مع الزَّمن ذهبت دالها، فأصبحت فرمز، والله أعلم بالحقيقة.

ولد رَحِمَهُ اللهُ في (١٥) رمضان سنة (١٢٨٥هـ)[١]، وختم القرآن، وتعلَّم الخَطَّ على والده الملَّا أحمد، ثمَّ واصل دراسته العلميَّة على

---

(١) أي: سنة (١٨٦٨م).

أستاذه المرحوم الشَّيخ عبد الوهَّاب الجواديِّ، وأجازه سنة (١٣١٧هـ)[١] في احتفالٍ كبيرٍ جمع علماء الموصل ووجوهها، ولَقَّبَهُ بضياء الدِّين، ثمَّ واصل دراسته على الشَّيخ محمَّد الرَّضوانيِّ، وأجازه سنة (١٣١٨هـ)[٢] بالتَّدريس، وفي السَّنة نفسها سافر إلى بغداد، واتَّصل بالشَّيخ عبد الرَّحمن القره داغيِّ، وأجازه أيضًا بالتَّدريس، واتَّصل بالشَّيخ إبراهيم الرَّاويِّ الرِّفاعيِّ، وبكثير من علماء بغداد، وأوَّل وظيفة شغلها هي التَّدريس بالزُّبير، بدأ بذلك في ربيع الثَّاني سنة (١٣١٩هـ)[٣] حتَّى رمضان (١٣٢٧هـ)[٤]؛ إذ حصل الانقلاب العُثمانيُّ، وأُلغيت الوظائف جميعها.

وفي مُحرَّم (١٣٢٧هـ) عُين مُدرِّسًا في جامع السَّيف في البَصرة، وأُضيف إليه في مُحرَّم (١٣٢٨هـ)[٥] إمامة جامع القبلة وخطابتها، وبقي في الوظيفتين إلى أن بدأ الاحتلال الإنجليزيِّ للعراق (٣) مُحرَّم (١٣٣٣هـ)[٦] الَّذي انحلَّت به وظائف موظَّفي الأتراك جميعها، فبقي بلا عمل، وأخلصُ طلَّابِه إليه وأكثرُهم مُلازمةً له المرحومان: الشَّيخ عبد الغفور، والشَّيخ عبد الرَّؤوف آل الإمام، لازماه حتَّى ما بعد الاحتلال.

---

(١) أي: سنة (١٨٩٩م).
(٢) أي: سنة (١٩٠٠م).
(٣) أي: سنة (١٩٠١م).
(٤) أي: سنة (١٩٠٩م).
(٥) أي: سنة (١٩١٠م).
(٦) أي: سنة (١٩١٥م).

بقي بعد الاحتلال يشتغل في البَصرة في البيع والشِّراء سنتين، ويَؤُمُّ المصلِّين، ويُدرِّس من يرغب في الدَّرس، وفي مُحرَّم (١٣٣٥هـ)[1] كاتبه جماعة من أهل سوق الشَّيوخ - وهي قريةٌ تابعةٌ للواء النَّاصريِّة في العراق - على أن يتولَّى الإمامة والخطابة والإفتاء فيهم، فوافق، وسافر إليهم في صَفَر من تلك السَّنة، وفي أوَّل آذار (١٩١٩م) عُيِّن في مدرسة سوق الشَّيوخ الأميريَّة مُعلِّمًا للُّغة العربيَّة، وفي تشرين الأوَّل (١٩٢١م) سافر إلى الموصل في وظيفة مُدرِّس للُّغة العربيَّة في ثانويَّتها، وعاد إلى سوق الشَّيوخ في وظيفته الأُولى في تشرين الأوَّل (١٩٢٢م) تمهيدًا للخروج من العراق؛ لأنَّه اتَّصل بنفرٍ من أهل الكويت حبَّبوا إليه الهجرة إليها، وفي شعبان (١٣٤١هـ) الموافق لـِ آذار (١٩٢٣م) استقال من وظائف الحكومة في العراق، وسافر إلى الكويت، وقد استقبله أهل الكويت استقبالًا حافلًا، وهيَّؤوا له المسكن بأثاثه ومؤونته، وبعد وصوله رغبت الهيئة الإداريَّة المباركيَّة أن يكون مُدرِّسًا للُّغة العربيَّة والدِّين، ورغَّبه أيضًا حمد الخالد بأن يتولَّى الإمامة والخطابة والوعظ في مسجد آل يعقوب الَّذي عَمَّرهُ آل خالد في تلك السَّنة، وقد وافق على ذلك، وقام بالعمل الَّذي أُسنِدَ إليه خير قيام، حتَّى توفَّاه الله، وكان قد تزوَّج رَحِمَهُ اللهُ من امرأة نجديَّة الوالد عراقيِّة الوالدة والمولد، هي أُمُّ أولاده كلِّهم، وقد تُوفِّيت بعده بعامين.

كان رَحِمَهُ اللهُ يمتاز بعذوبة صوته إذا قرأ القرآن، ويحسن الأداء في القراءة، وكانت قراءته ترتيلًا لا ترنيمًا ولا إيقاعًا، وقد أُثر عن

(١) أي: سنة (١٩١٧م).

المرحوم الشَّيخ محمَّد أمين الشَّنقيطيِّ نزيل الزُّبير أنَّه قال يومئذ وهو في الكويت: لا أُصلِّي خلف إمام غير الشَّيخ النُّوريِّ مادام في الكويت، وكان يطيل القيام في الصَّلوات الجهريَّة؛ لأنَّه يعلم أنَّ المؤتمِّين به يتلذَّذون بقراءته، وكان على جانب عظيم من الورع والتَّقوى، كريمًا كلَّ الكرم، سخيًّا كلَّ السَّخاء، صادقًا في وعده، أمينًا على عهده، لا يخاف في الله لومة لائم.

قدَّم له أثرياء الكويت يوم جاء إليهم من زكاتهم كثيرًا، فردَّ قائلًا: إنَّ لي من كسبي ما يكفيني وأهلي، فحرام عليَّ أن أُطعمهم ما لا أستحقُّ ولا يستحقُّون، وفي الكويت من هم أحوج منِّي لهذا، وكان شجاعًا في قوله، يقول الحقَّ لا يهاب فيه ظالمًا، ولا يخاف إلَّا الله، ولا يلحن في قوله أبدًا، مع أنَّه نشأ في العراق، وأهل العراق معروفون بعدم اهتمامهم بإعراب ما يقرؤون.

عاش ﵀ بقيَّة عمره في الكويت إلى أن انتقل إلى جوار ربِّه مساء يوم الخميس الموافق (١٥) رمضان (١٣٤٥هـ)(١)، وقد صلَّى العشاء وتسليمتين من التَّراويح إمامًا، ودُفن بعد صلاة الفجر من صباح يوم الجمعة (١٦) رمضان (١٣٤٥هـ)، وشيَّعه جمهور غفير من الكويتيِّين لا يقلُّ عن ثلاثة آلاف، وقد صلَّى عليه الشَّيخ عبد الله الخلف، ووقف على قبره جمهور من العلماء؛ منهم الشَّيخ عبد الله الخلف، والشَّيخ محمَّد الشَّنقيطيُّ، تغمَّدهم الله برحمته، وأسكنهم فسيح جنَّته.

---

(١) أي: سنة (١٩٢٦م).

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

المعجزة الخالدة

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي

الإهداء

إلى الَّذين أطاعوا الله ورسوله.

إلى الَّذين أحبُّوا الله فأحبَّهم ورضي عنهم ورضوا عنه.

إلى الَّذين آمنوا بالله ورسوله فوجدوا حلاوة الإيمان.

إلى الَّذين ناداهم ربُّهم بأحبِّ صفاتهم إليه وإليهم.

إلى الَّذين آمنوا، إلى أخوتي في الله.

أهدي هذه الرِّسالة

عبد الله النُّوري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٢٧) رجب سنة (١٣٨٩هـ) - (٩/ ١٠/ ١٩٦٩م)

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحۡزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩]

المقدِّمة

أحمد الله الَّذي لا إله إلَّا هو، وأشهد بوحدانيَّته في علاه، فلا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، سبحانه أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الَّذي بارك حوله؛ ليريه من آياته إنَّه هو السَّميع البصير، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه كافةً ومن سنَّ سننهم، واقتفى أثرهم، واتَّبع نهجهم، واهتدى بهداهم.

أيُّها السَّادة الحاضرون، السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فقد طلب منِّي الإخوان في جمعية الإصلاح الاجتماعيِّ الكرام أن أتكلَّم هذه اللَّيلة عن الإسراء والمعراج، ولحسن حظِّي وافق ميعادُ كلمتي هذه ليلةَ الإسراء في ذكراها لهذا العام عام (١٣٨٩هـ)، وقد مضت ذكريان قبلها في رجبين وهذه الذِّكرى الثَّالثة تمرُّ في رجبها الثَّالث والمسجد الأقصى مدنَّسٌ باحتلال اليهود أعداء البشر وأعداء الأديان.

مضت ذكريان وهذه الثَّالثة تمضي بكلِّ ما فيها من يُمْنٍ وجلالٍ وسناءٍ

وسلام، والخَبَثُ الصُّهيونيُّ جاثمٌ على المسجد الأقصى المبارك فهو أولى القبلتين وثالثُ الحرمين ومبعثُ الأنبياء ومهبِطُ الوحي على الرُّسل ومزارُ البشريَّة المتديِّنة، وقد دنَّسه هؤلاء الصَّهاينة بخبثهم ورجسهم(١) وكفرهم؛ فقد قال الله فيهم: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ولكن أتتهم العزَّة من غيرهم، عِزَّةٌ لهم ظاهرة، تواطأ عليها النَّاس فأوجدوا فيهم شوكة ومهدوا لهم وطنًا، ويزيد في مضاضة(٢) المصيبة وشدَّة وقعها على النُّفوس تعرُّض الأقصى الشَّريف في الشَّهر الماضي للحريق؛ سعيًا في تخريبه، ومواصلةً لإهانة المسلمين.

والذكرياتُ الميمونةُ الَّتي نحتفل بها في كلِّ عام هجريٍّ، ذكرياتٌ عزيزةٌ علينا، يجب أن نَعْتَبِر بها، فإنَّ فيها لذكرى لمن كان له قلبٌ، ذكرى لقوم يعقلون.

النُّور والظُّلمة لا يجتمعان

إنَّ النُّور يمحو الظُّلمة، والحقُّ إذا جاء أزهق الباطل، والخير يمحق الشرَّ، ولم نسمع في يوم من الأيَّام أنَّ الظَّلام والنُّور اجتمعا في غرفة واحدة، والله ﷻ مع الحقِّ دائمًا، وقد قال في كتابه العزيز: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ

(١) الرِّجس: بالكسر: القذر أو الشيء القذر، ويُحرَّك وتفتح الرَّاء. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٦/ ١١٣).
(٢) مضاضة: مضض كفَرِح: أَلِمَ من مصيبة. انظر تاج العروس، للزبيدي (١٩/ ٥٩).

وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨].

وحياة الذِّلة لا يرضاها إلَّا مَنْ نُزِعَت عنه صفةُ الإيمان ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقديمًا قال شاعر العرب عنترة العبسيُّ:

لا تسقني كأس النَّعيم بذلَّة ... بل فاسقني بالعزِّ كأس الحنظل

نعمى الحياة بذِلَّة كجهنَّم ... وشقاؤها بالعزِّ أشرف منزل[1]

فلا يرضى بالذِّلة إلَّا قومٌ قال الله فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولعلَّ فيما وقع عبرةً تذكِّر المسلمين بماضيهم، وتدفعهم إلى ربِّهم، فيتوبوا من سيئاتهم، ويؤوبوا إلى ربِّهم، ويعلموا حقَّ العلم أنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتَّى يغيِّروا ما بأنفسهم، وأنا على يقين أنَّ كلَّ مسلم يؤمن حقَّ الإيمان بأنَّ الله ليس بظلَّامٍ للعبيد، وأنَّ زارع الشَّوك لا يجني العنب، وأنَّ الَّذي أصابنا من سوء أعمالنا كما قال الله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصِّلت: ٤٦].

أيُّها السَّادة: قلت لكم: إنَّ جمعية الإصلاح الموقَّرةَ طلبت منِّي أن أتكلَّم في هذه اللَّيلة عن ذكرى الإسراء والمعراج، وكم في الإسلام من ذكرياتٍ خالدةٍ باقيَّةٍ بقاءَ الدَّهر، تكلَّم فيها المتكلِّمون فلم يملُّوا تكرارها،

(١) جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، للهاشميِّ(٢/ ٢٦٥)، وورد البيت الثاني بلفظ:

ماءُ الحياة بذلَّةٍ كجهنَّمٍ ... وجهنَّمٌ بالعزِّ أطيب منزلِ

واستمع إليها المستمعون فلم يملُّوا سماعها، وهي تزداد جدةً كلَّما طال الزَّمان، وتزداد عذوبةً كلَّما طالت القراءة والاستماع، ذلك لأنَّ موضوع هذه الذكريَّات هو الإسلام ونبيُّه.

الإسلام الدِّين الكامل الذي يدعو إلى الحقِّ وإلى الطَّريق المستقيم، ونبيُّ الإسلام محمَّدُ بنُ عبد الله هو النَّجمُ الإنسانيُّ الَّذي بعثه الله؛ ليُخرجَ النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، وهو الصَّفوة الممتازة بل صفوة الصَّفوة من خلق الله أجمعين.

الإسراءُ رحلةُ ليل

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وقد اختير اللَّيلُ لهذه الرِّحلة؛ لأنَّ اللَّيلَ ساترٌ لا جلبةَ فيه ولا ضوضاءَ بل فيه الحذر والحيطة.

المناقشات في الرِّحلتين

وأثار الإسراء والمعراج كثيرًا من المناقشات بين علماء المسلمين، فبعضهم رأى ذلك معجزةً حصلت فعلًا لشخص النَّبيِّ ﷺ حيث أُسرِيَ بروحه وجسده وعرج بهما، أمَّا الآخرون فيرون أنَّ الرَّوح وحدها هي الَّتي أُسرِيَ بها وعرج بها إلى السَّماء، ولكنَّني أعتمد الآية الكريمة

القائلة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ولم تقل بروح عبده ومعنى ذلك أنَّ الإسراء كان بالجسد.

أمَّا المعراج فلا أستطيع أن أقول فيه إلَّا أنَّ عبد الله ورسوله محمَّدًا ﷺ قد وصل إلى ما لم يصل إليه نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقرَّبٌ، فقد قال الله فيه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النّجم: ٨-١٨]، أجل، لقد رأى من آيات ربِّه الكبرى في الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعروجه من الأرض إلى السَّماء.

وإن كانت حادثةُ الإسراء والمعراج معجزةً له ﷺ إلَّا أنَّهما لم تكونا معجزةَ تحدٍّ وإنَّما كانتا رحلةً روحيَّةً استضاف الله بها عبده في رحاب ملكوته العظيم؛ ليشهد ما لم يشهده أحد من قبله ولن يشهده أحد من بعده.

وهل كان الإسراء والمعراج في ليلةٍ واحدة؟ سؤال جاء جوابه في روايات شتَّى. روايات كثيرة ثار حولها جدل كثير.

على أنَّه لا يعنينا إذا كانا في ليلة واحدة أو في ليلتين، إنَّما يعنينا أن نعلم أنَّ الله ﷻ أكرمَ نبيَّه ﷺ فأكمل به الدِّينَ، وآتاه من العون الإلهيِّ نصيبًا لم يؤته إنسانٌ قبلَه أو بعدَه.

فهذه أمَّةُ محمَّد ﷺ في وطنها الإسلاميِّ الكبيرِ على اختلاف ألوانها ولغاتها وتعدد ثقافاتها وتنوع مذاهبها واتِّجاهاتها التقت قلوبُها وعقولُها ونفوسُها على محبتِه وتقديرِه والإكبارِ لشخصه ووجوب طاعته، وأجمعت

على عصمته من الخطأ والزَّلل وتنزيهه عن كلِّ ما يسيء أو يعيب، وتلك صفةٌ خاصَّة به ﷺ لم يظفر بها أحدٌ قبله، ولن يظفر بها أحد بعده ﷺ، وهذه حقيقةٌ ناصعةٌ بيضاءُ لا تحتاج إلى بلاغة تشرحها أو بيان يزينها.

محمَّد صلى الله عليه وسلَّم والحقُّ

ومحمَّد ﷺ أوتي سلاحًا من الحقِّ، به يهدي الضَّالَ إلى الهدى، ويمحو البؤس عن البائس، ويقوِّمُ اعوجاجَ المعوَّج، ويكافحُ جبروتَ الظَّالمِ، ويطهِّرُ المجتمعَ من أرجاسه وأدناسه وآلامه، ثمَّ يربط قلبَ الإنسان بربِّه، فيعبد الإنسانُ ربَّه كأنَّه يراه، فلا يجور إن وُلِّيَ، ولا يطغى إن استغنى، ولا يترك سواء السَّبيل؛ لأنَّ الله دائمًا معه فلا يحبُّ أن يراه حيث نهاه.

هذه هي رسالة محمَّد ﷺ وتلك هي غايتها، لا يريد للنَّاس إلَّا الخيرَ، ولا يبغي لهم إلَّا الصَّلاحَ، ولا ينشد إلَّا الهدايةَ، وهذا ما نجده في كتاب الله ﷻ حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمُعَة: ٢].

النَّبيُّ الأسوة لأمَّته

وبعد هذا كلِّه يدعونا جلَّ جلاله لِأَن نتَّخذ من هذا النَّبيِّ الكريم أسوةً حسنةً إذا كنَّا نرجو الله واليوم الآخر، فيقول في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

الرِّحلة المعجزة

الإسراء: هو النَّقلة العجيبة قياسًا إلى مألوف البشر، والرِّحلة الَّتي اختارها اللَّطيف الخبير لعبده البشير النَّذير، إنَّها نقلةٌ حدودُها المسجد الحرام والمسجد الأقصى كما جاء في أوَّل سورة الإسراء، وتربِط بين عقائد التَّوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب إلى مبعث محمَّد خاتَم النَّبيِّين ﷺ، وبين الأماكن المقدَّسة، ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، مهابط الوحي ومعابد التَّوحيد، وكأنَّما أراد الله بهذه الرِّحلة العجيبة أن يعلن أنَّ محمَّدًا هو الوارثُ الأخيرُ لمقدَّسات الرُّسل من قبله، وأنَّ رسالته قد شملت هذه المقدَّسات، وربطتْ بعضَها ببعض، وأنَّ المسجد الأقصى مَعلَمٌ من معالم الإسلام كالمسجد الحرام، يجب على المسلمين أن يجعلوهما آيتين من آيات الإسلام في وطن الإسلام يستظلُّ المسلمون بظلِّهما، ويقومون على صيانتهما من كلِّ دنسٍ،

ويعملون على عمارتهما وتأمين السُّبل وتمهيدها إليهما، وهذه الرِّحلة كانت رحلة قصيرة ذات مسافةٍ طويلةٍ، انطوت في برهة وجيزة، ارتحلها محمَّد ﷺ ذهابًا وإيابًا لم يبرد فيها فراشه، فكشفت له عن الطَّاقات المخبوءة في هذا الكون، وأعدَّته ليستقبل فيضَ القدرة الَّذي به كُرِّمَ وفُضِّلَ، فكان إمامَ الأنبياء وخاتمهم وسيِّدَهم وآخرهم، والشَّاهدَ عليهم وعلى أممهم، خَتَمَت رسالتُه جميعَ الرِّسالات، وكانت أمَّتُه هي الشَّاهدةُ على كلِّ تلك الأمم، وهي آخر الأمم.

ظروف سبقت الرِّحلة

وحصلت قصَّة الإسراء في أشدِّ ظروف الدَّعوة حرجًا، فقد مات أبو طالب عمُّ الرَّسول ﷺ وحاميه المدافع عنه، الَّذي لم يملَّ ولم يسأم، وكان قد تجاوز الثَّمانين من عمره، وبعد موت أبي طالب بأيَّام ماتت خديجة أمُّ المؤمنين، وفَقَدَ الرَّسولُ ﷺ بموتها رفيقته المثاليَّة الَّتي وهبت نفسها له وهو فقير، وكانت أوَّلَ نفس آمنت به حين أعلن دعوته، وهي الَّتي كان يُسِرُّ إليها بآماله وأمانيه، وهي الَّتي واسته في رفق ومودَّة في كلِّ ساعات الشدَّة والحرج، وبعد هاتين الكارثتين زادت شِرَّةُ[١] قريش على النَّبيِّ ﷺ وزاد عنادهم، فخرج بدعوته إلى الطَّائف - والطَّائف بلد معروف في شرقيِّ مكَّة على بعد (١١٥) كيلو مترًا تقريبًا، ويسكنها يومئذٍ

(١) شرة، بالكسر: الحرص والرغبة والنشاط. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١٢/ ١٥٦).

بنو ثقيف - وعمد إلى حيث يجتمع ساداتهم، فجلس إليهم، وكلَّمهم فيما جاء له من نصرة دعوته، وبدأ حديثُه يأخذ بأفئدة الحاضرين، وفجأة قطع حديثَه ثلاثةٌ من بني عمرو بن عمير الثَّقفيِّ، وردُّوا عليه ردًّا قبيحًا، وأثاروا عليه سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة، وهو يسقط مرَّة ويقوم أخرى بين سخرية الدَّهماء[1] وعبثهم، حتَّى وصل في النِّهاية إلى بستان مسوَّر فوجد داخله مأمنًا، وهناك جلس وليس معه أحد إلَّا زيدُ بنُ حارثة، فاستظلَّا بظلِّ شجرة، وفي تلك الآونة وفي ذلك الأوان رفع رسول الله ﷺ طرفه إلى السَّماء قائلًا: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**»[2].

النَّبيُّ الرَّحيم

وفي تلك الحال الشَّديدة اليائسة، ينزل جبريل مرسلًا من ربِّ السَّماء فيقول له: «**إنَّ الله أمرني أن أطيعَك في قومك لما صنعوه معك**»[3]، فيقول الرسول ﷺ: «**اللَّهمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[4]. فقال جبريل

(١) الدَّهماء: العدد الكثير وجماعة الناس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٢/ ١٩٢).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم (٣٦١٣).

(٣) انظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للباجوري (١/ ٦١).

(٤) رواه البخاري، رقم: (٣٤٧٧)، ورواه مسلم، رقم: (١٧٩٢).

عليه السَّلام: «صدق من سمَّاك الرَّؤوف الرَّحيم»(١).

الجنُّ والقرآن

وفي طريقه إلى مكَّة في مكان اسمه نخلة، صرف الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن وينصتون له؛ إذ قال الله في كتابه: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ولَّوا إلى قومهم من الجنِّ يبشرونهم بكتاب ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وكانت المعجزة

وبعد هذا كانت المعجزة التي يطيب بها خاطر الرَّسول الكريم ﷺ، لئن ضاقت بك يا رسول الله رحابُ مكة، فدونك القدس مبعث الأنبياء من قبلك، ولئن أوصدت دونك مدنُ قومك وأبوابُها، فستفتح لك أبوابُ السَّماء، ولئن أعرض النَّاسُ عنك فستكون إمامَ الأنبياء، وأُسرِيَ به وعاد، واللَّيل على حاله، والفراش الشَّريف لم يبرد.

وأصبح الصُّبح، وخرج الرَّسول ﷺ مُشرِقَ الوجه من الفرح، ورآه أبو

(١) انظر: السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، لأبي شهبة (٢/ ٦٣٩)

جهل رأسُ الكفر وعدوُ اللهِ ورسولهِ المبين، وسأله: هل من خبر جديد يدهش؟ فقال ﷺ: نعم أُسرِيَ بي الليلةَ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وصاح أبو جهل في النَّاس وتجمَّعوا، وأخبر النَّبيُّ ﷺ المتجمِّعين عمَّا رأى، فأنكروه وعجبوا من قوله، وصار بعضهم يضع يده على رأسه استنكارًا، وبعضهم يصفق استهزاءً، وقالوا: إننا نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس شهرًا في الذهاب وشهرًا في الإياب، وأنت تزعم أنَّك ذهبت إليه وعدت في ليلة واحدة، إنَّ هذا لشيء عُجَابٌ، ثم قال قائل منهم: أحضروا صاحبه أبا بكر فليسمع قوله، فجاء أبو بكر فسمع من النَّبيِّ ﷺ فقال: «صدقت»، ثمَّ التفت إليهم وقال: «**إنِّي أصدِّقه بخبر السَّماء يأتيه بلحظة واحدة**»(١) فسُمِّيَ يومئذ بالصِّدِّيق، ثم قال مشركو قريش: إنَّا نعرف أوصاف بيت المقدس، فصفه لنا إن كنت ذهبت إليه.

الإسراء والإيمان

وحديثُ الإسراء اختبارٌ عمليٌّ لإيمان المؤمنين؛ لأنَّ المؤمنَ لا يكون مؤمنًا برسول الله حتَّى يُصدِّقَ كلَّ قول يقوله، ويُسلِّمَ به دون أن يفكِّرَ فيه أو يشكَّ في شيء ممَّا يقوله إنَّه يؤمن أنَّه أمينُ السَّماء، وأمينُ السَّماء لا يكذب أبدًا، وهنا يحسن بي أن أذكر الحديث الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لما كذبتني قريش في الإسراء قمت في الحجر فجلى اللهُ لي بيتَ المقدس أخبرهم عن آياته وأنا**

(١) انظر: الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، لعبد الجبار: (٩/ ٦٦١).

أنظر إليه»[١].

نعم أيُّها الإخوة لقد كشف الله لنبيِّه محمَّد ﷺ وهو في حجر إسماعيل بجوار الكعبة حتَّى رأى بيت المقدس أمامه ينظر إليه، فكان ﷺ يجيبهم عن كلِّ سؤال عن أوصافه، وأبوابه وجهاته، وغيرها حتَّى قالوا آخرًا: أمَّا النعتُ فقد أصاب، ولكنَّهم لم يؤمنوا، فقد ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة.

محمَّد ﷺ إمام الأنبياء

وهنا في بيت المقدس صلَّى إمامًا بالأنبياء وكان فيهم موسى، وعيسى، وإبراهيم عليهم السَّلام.

وقد وصف نبيُّنا الكريم ﷺ موسى بأنَّه رجلٌ ضَرْبٌ؛ أي: خفيفُ الجسم ماضي العزيمة قويُّ الإرادة وشعرُه جَعْدٌ كأنَّه من رجال شنوءة[٢]، ووصفَ عيسى عليه السَّلام بأنَّه أقربُ النَّاس شبهًا بعروةَ بنِ يوسف الثَّقفي رضي الله عنه.

وشبَّهَ إبراهيمَ عليه السَّلام بشخصه الكريم ﷺ، وقال عنه: «**أَشْبَهُ النَّاسِ به صاحبُكُم**»[٣] يعني نفسَه ﷺ.

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٧١٠).
(٢) شنوءة: قبيلة من اليمن؛ سميِّت لشنآن؛ أي: تباغض وقع بينهم، أو لتباعدهم عن بلدهم. انظر: تاج العروس، للزبيدي (١/ ٢٨٨).
(٣) رواه مسلم، رقم (١٧٢).

ولمَّا حان وقتُ الصَّلاة أذَّن جبريلُ، واجتمع الأنبياءُ، وصلَّى النَّبيُّ إمامًا بهم صلوات الله عليهم أجمعين.

نعم إنَّ الله جمع أنبياءه لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وعليهم في مبعث الأنبياء ومَهْبِط الوحي عليهم؛ ليتقرر في ضمائر النَّاس أنَّ رسالةَ الأنبياء واحدةٌ، فهم جميعًا استمدوا نورهم من مشكاة واحدة؛ ليحققوا للبشر جميعًا حياة سعيدة، ويضمنوا لهم آخرة سعيدة، فقال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورىٰ: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٦٣].

نعم! تقدَّم خاتمُ الأنبياء فصلَّى إمامًا بالأنبياء، لعلَّ أتباع أولئك الأنبياء ينجون من ضلال التَّحريف الذي ابتليت به أديان أولئك الأنبياء، وسيبقى الإسراء والمعراج حدثين هائلين يغذِّيان القلوب بنفحات من الإيمان، لا يصيبها وَصَبٌ(١) من ضعف، ولا هزال من فتور.

المعراج والعلم الحديث

ذلك أنَّ العلم البشري تقدَّم واستطاع الإنسانُ أن يصعد بآلته حتَّى

(١) وصب: الألم الشديد، أوالألم الدائم، أوالمرض. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤٣/٤).

يرتفع ويخرج من نطاق جاذبيَّة الأرض، وأخيرًا استطاع أن يحطَّ بمركبته على القمر، ويطأ بقدميه سطحه، وصفَّق النَّاس في كلِّ معمور من الأرض لهذا الحدث الغريب، ورأوا في شاشة التلفاز ما رأوا.

ووقف الإنسان العاقل يعتزُّ بخبرته وقدرته، وتهاوت(١) عقول ضعيفة أصابها البلبال(٢)، وضلَّت قلوب رخوة تُكذِّب ما رأت.

وسمعنا من وراء ذلك كلِّه أقوامًا تاهوا في ظلمات الإلحاد ونطقوا بالكفر وأنكروا الحقَّ، وقالوا: لقد عرج الإنسان إلى السَّموات العُلى، فلا فضل لأحد على أحد، وقال قائل منهم: لا معجزة بعد اليوم.

ولكن أيُّها الأخوة، إنَّ الفضاء سرٌّ محجَبٌّ، وما بلغه الإنسان من اكتشافه شيءٌ ضئيلٌ بالنسبة إلى مجموعته، ولنضرب مثلًا بالمجموعة الشَّمسيَّة الَّتي منها عالمنا الأرضيُّ، إنَّ أقصى كوكب عرفه العلم من هذه المجموعة الشَّمسيَّة هو بلوتو، فلو ركبنا في صاروخ تبلغ سرعته مليون كيلو مترًا في السَّاعة، فإننا لن نصل إليه إلا بعد ثمانية عشر شهرًا، والشَّمس هي أمُّ الأرض لو أعددنا لها هذا الصَّاروخ فلن نصل إليها إلا بعد خمسة عشر عامًا أو تزيد وهذه المجرَّة القريبة منَّا والمجرَّات كثيرة لو أردنا اجتيازها من طرفها إلى طرفها وركبنا في صاروخ تبلغ سرعته مليون كيلو مترًا في السَّاعة، فإنَّنا نحتاج إلى هذه الرِّحلة سبعين مليون سنةً، لكنَّ محمَّدًا ﷺ عرج به في سويعات، واجتاز بهذا العروج السَّموات العُلى

---

(١) تهاوت: من هوي، وهوى الشيء يَهوى: سقط من فوق إلى أسفل كسقوط السَّهم وغيره. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٤٠/ ٣٢٥).

(٢) البلبال: البرحاء في الصَّدر وهو الهمُّ والوساوس. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٨/ ١١٤).

البعيدة كلَّ البعد عن السَّماء الدُّنيا، حتَّى وصل إلى سدرة المنتهى، فسمع صريف[١] الأقلام.

لقاء الأنبياء في السَّماء

وهناك في السَّموات رأى بعضَ أنبياءِ الله الكرام فرأى في الأولى آدم، وفي الثَّانية رأى يحيى وعيسى، وفي الثَّالثة رأى يوسُف، وفي الرَّابعة رأى إدريس، وفي الخامسة رأى هارون، وفي السَّادسة رأى موسى، وفي السَّابعة رأى إبراهيم عليه وعليهم السلام كما ثبت ذلك في «**الصحيحين**» وفي كتب السنَّة، روى حديثَ المعراج الإمامُ أحمدُ[٢] والشَّيخان[٣] عن أنس بنِ مالك رضي الله عنه، ورواه الطَّبرانيُّ[٤] والحاكم[٥] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أحمد والشَّيخان والنَّسائي عن مالك بن صعصعه رضي الله عنه[٦].

(١) صريف الأقلام: أي صوت جريانها. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٢٤/ ٢٣).
(٢) بالحديث رقم: (٢٣٠٦٢).
(٣) البخاري بالحديث رقم (٢٣٠٦٢)، ومسلم بالحديث رقم (١٦٨).
(٤) بالحديث رقم (٥٩٨).
(٥) بالحديث رقم (٣٣٨٠).
(٦) أحمد بالحديث رقم (٢٠٥٩٧)، والبخاري بالحديث رقم (٦٦١٣)، ومسلم بالحديث رقم (١٦٨)، والنسائي بالحديث رقم (١٣٣٢).

الغاية والعقل

لقد وصل سيدنا رسول الله ﷺ إلى نهاية لم يصلها أحدٌ من خلق الله قبله، لا من الأنبياء المرسلين ولا من الملائكة المقرَّبين ولن يصلها أحد بعده.

اخترق الحجبَ الَّتي تحول دون رؤية المستور إلى أن وصل إلى حجاب الوحدة، فرأى هناك ما لا تراه الأعين ولا خطر على قلب بشر.

فتح الله عينيَ قلبه؛ ليمنحه القدرةَ على مشاهدة هذا الجمال ثم قرَّبه اللهُ حتَّى كان قاب قوسين أو أدنى.

والعقل البشريُّ مهما جمع من خياله، واشتدَّ في طمعه، فإنَّه لا يأمل أن يرتفع بصاحبه إلى أن يقطع في الزمن القليل ما قطعه محمد ﷺ في معراجه، وإذا كانت الصَّواريخُ والأقمارُ الصِّناعيَّةُ والمركَبات الفضائيَّة ارتفعت بمخترعيها إلى حيث ارتفعت، فإنَّ الارتفاع بمحمَّد ﷺ لا يفقد شيئًا من جلاله، ولا ينقضي سرَّ الإعجاز فيه، وسيبقى هذا الحدث الإسلامي برهانًا قاطعًا يشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ الله.

الصَّلوات الخمس والمعراج

وهناك في السَّموات العلى فرَض اللهُ على عباده الصَّلاةَ، ففرَضها؛ لتكونَ معراجًا للنَّاس يرتفعون به عن الرَّذائل والدَّنايا، والصَّلاة تنهي عن

الفحشاء والمنكر، فرضها الله خمسَ صلوات في اليوم واللَّيلة على البشر؛ لتمكِّنهم من الرَّاحة التَّامة يوميًا خمس مرات، فتحول بينهم وبين الانفعالات والعواطف، فلا يغالون في فرح، والفرح يطغى بالأنفس الضَّعيفة ويفسدها، ولا ينهارون في حزن، فقد يذهب الحزن بالضَّعيف ويؤدِّي به إلى اليأس وكلاهما أمر يأباه الإيمان للمؤمنين، فهذه خمس صلوات فرضها الله على المسلم يؤدِّيها في صحته ومرضه، في حلِّه وترحاله، في عسره ويسره، يؤدِّيها لله وحده، ليس بينه وبين الله وسيط ولا شفيع، يسجد المرء فيها لله فيكون قريبًا من الله وهو ساجد، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «**أقربُ ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء**»[(١)] رواه مسلم.

وهي الرَّابطة الدَّائمة بين المسلم والإسلام، وعلامة الإيمان، وعماد الدِّين، فمن أقامها فقد أقام دينه، ومن تركها فقد هدم دينه، يؤدِّيها المسلم بنفسه، لا ينوب عنه في أدائها أحدٌ، ولو كان من أقرب النَّاس وأحبِّهم إليه، فالإنسان المسلم يقبل على الصَّلاة بوجدانه، وقلبه، ومشاعره، وسَرعان ما يحسُّ بأنه ليس وحيدًا في هذه الدُّنيا، ولا هو شيء ضائع، وإنما هو إنسان مكرَّم، فضَّله الله وكرَّمه على جميع خلقه بأن اختاره لعبادته، وسخَّر له كلَّ مخلوقاته، فيزداد ثقةً بنفسه، ويقوِّي عزمه وتصميمه على مواجهة الحياة بطمأنينة وثبات، فهذا - أيُّها الإخوة - هو النَّفع الرُّوحي والفائدة المعنويَّة اللذان يحسُّ بهما كلُّ من يقيم الصَّلاة إيمانًا واحتسابًا، والنَّفع في الصَّلاة يتجسد في أقوال الإنسان وأفعاله،

---

(١) رواه مسلم، رقم: (٤٨٢).

فأمَّا النفعُ في أقواله فالأمرُ معروفٌ، وأمَّا النَّفع في أفعاله ركوعًا وسجودًا وقيامًا وقعودًا، ففيه فائدةٌ صحيَّةٌ للجسم كما يقول الأطباء وكفانا شاهدًا على ذلك أن نرى مرونة عضلات الذين حافظوا على الصَّلوات، وإن بلغوا من العمر عتيًا، ولا تصحُّ صلاةٌ بلا طهارة، والطَّهارة وضوء واغتسال، إنها نظافة مستمرة للجسم بكلِّ ما تعنيه كلمة النَّظافة، ولا بدَّ لها من طهارة الثياب وطهارة المكان، وهي مظهرٌ ترتاح له نفس الرَّائي، وفيها فوائد صحيَّة واجتماعيَّة، فالنَّظافة من الإيمان، والنظافة عنوان الإسلام.

ومن فوائد الصَّلاة أنَّها تقوي أواصر المحبة بين المسلمين وذلك عن طريق صلاة الجماعة، فما هي صلاة الجماعة؟ هي صلاة يقف فيها المسلمون صفًّا واحدًا إذ ينصهرون في بوتقة واحدة، فلا غني ولا فقير، ولا كبير ولا صغير، ولا أمير ولا مأمور، فيقف الكلُّ على قدم المساواة، يتحرَّكون بحركة الإمام الواحد، يكبِّرون إذا كبَّر، ويركعون إذا ركع، ويسجدون إذا سجد، وقد تقام هذه الصَّلاة في المسجد، والأرضُ كلُّها مسجدٌ؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»(١).

---

(١) رواه البخاري، رقم: (٤٣٨)، ومسلم، رقم: (٥٢١).

الصَّلوات وقبلة المسلمين

وهنا أحببت أن أمرَّ بكم على مشهد من مشاهد صلاة الجماعة، رأيته في مكَّة المكرَّمة في المسجد الحرام، في موسم الحجِّ (١٣٨٧)هـ، فقد صليت في السَّطح الأعلى وكنت أتلذذ برؤية الطَّائفين حول الكعبة، هؤلاء الَّذين جاؤوا من كلِّ فجٍّ[١] عميق؛ ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله عند بيته الحرام، ثمَّ أذَّن المؤذِّن لصلاة المغرب وأُقِيمت الصَّلاةُ، وتحلَّق النَّاسُ حولَ الكعبةِ دوائرَ تَكْبرُ كلَّما ابتعد النَّاس عنها، رأيتها بعينيَّ حولَ الكعبة، ومركزُ الدَّوائر هو البيتُ العتيقُ ثم خرجت بعقلي من ساحة الحرم وابتعدت وابتعدت، حتَّى خرجتُ من مكَّة إلى أطرافها وكلَّما ابتعدتْ هذه الدَّوائر عن الكعبة اتَّسعت حتَّى ساح بي الفكر وأخذني إلى عوالم أخرى وهذه الحلقات تكبر وتكبر كلَّما ابتعدتُ عن الكعبة، ولسان حالي يقول: الله أكبر ما أطوع المسلمين! لأوامر الإسلام، هذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤] ثمَّ رجعت إلى الحرم أنظر هذه الجموع خاشعةً حولَ الكعبة يؤمُّها إمام واحد لا يكاد يشرع في القراءة حتَّى يخشعوا صامتين، مئات الألوف من المسلمين يتحرَّكون بحركة إمامهم كما لو كانوا إنسانًا واحدًا، لأنَّ الإسلام علَّمهم هذا النِّظام، والإسلامُ كلُّه نظام، وعلَّمهم الطَّاعة والإسلام طاعة، ولكنَّه طاعةٌ في غير معصية الله، فالإسلام قال: ﴿أَطِيعُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ٣٢] ولكنَّه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٢] وإمام المسلمين قال: «**أطيعوني**

---

(١) فجٌّ: كلُّ طريق بَعُدَ فهو فجٌّ. انظر تاج العروس، للزبيدي (٦/ ١٣٧).

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (١٤٨٧٥).

ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»[١].

الخاتمة

أيُّها الإخوة: كان الإسراء بمحمَّد النَّبيِّ العربيِّ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، من المسجد الحرام أوَّل بيت وُضِعَ للنَّاس إلى المسجد الأقصى الَّذي بارك ربُّ العالمين حوله، مسجدان كريمان سجدت فيهما جباهٌ، وفاضت فيهما من خشية الله دموعٌ، وامتلأت رحابُهما بالعاكفين والطَّائفين والذَّاكرين من العباد الصَّالحين.

كان هذا الإسراء بين المسجدين؛ ليشعر المسلمون بأنَّ مساجدَ الله واحدةٌ، وأن الحرمَ ممتدٌ، وأن الكلَّ مسؤول عن حماية الحرمين المقدسين، فللمسجد الأقصى قداسةٌ، وللمسجد الحرام قداسةٌ، وما بينهما مسجدُ المدينة له قداسةٌ، فلا يهن المسلمون أمامَ غازٍ ظالم، ولا يتفرَّقون تُجاه عدو متربصٍ، ولا يخشون من يهددهم بالويل أو يتربَّص بهم الدَّوائر، سعى اليهود بكلِّ ما لديهم من قوَّة للوصول إلى بيت المقدس منذ أجلاهم عنه بختنصر، ولكن سعيهم باء بالفشل، وقد مكَّن اللهُ المسلمين من بيت المقدس وفتحوه في خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه وبقي في يدهم، وسعى اليهود بعد هذا الفتح كما سعوا قبله للحصول عليه بكلِّ ما لديهم من حيل وفتن وحركات هدَّامة، وأشعلوا نيران الحروب الصليبيَّة ضد المسلمين؛ ليجدوا مدخلًا يستطيعون به امتلاك الأقصى وبيت

(١) أورده المتَّقي الهندي في كنز العمَّال، رقم: (١٤١١٤).

المقدس، ولكن سعيهم باء بما باء به السَّعي الأول، وقد نال اليهود اليوم مرادهم بما بذلوه من مال وما أمدَّتهم به السِّياسة الغربيَّة وسيأتي اليوم الذي يبسط فيه الإسلامُ سلطانَه على قلوب أبنائه، فيستردون قبلتهم الأولى إلى الإسلام، ويطهِّرونها من رجس اليهود ونجسهم.

أيُّها الإخوة: نعود إلى المسجد المغتصب، المسجد الأقصى، مبعث أنبياء الله وأولي العزم منهم، ومسرى نبينا الكريم، وأول قبلة لأمة محمَّد، وثالث حرم مقدس لهم، المسجد الأقصى الَّذي اغتصبه أعداء البشر عبدة العجل قتلة الأنبياء مصَّاصُّو دماء البشر أعداء الحق مثيرو الفتن بين الأمم، وقَّادو نيران الحروب.

أوصافٌ لهم لم أبتدعها من نفسي، بل وصفهم بها التَّاريخ، والتَّاريخ لا يكذب، وأنزل الله بها قرآنًا يتلى ما دامت على الأرض حياة.

نعم، أيُّها الإخوة المسلمون، هؤلاء هم الَّذين اغتصبوا المسجد الأقصى لا بحول لهم ولا قوة فيهم، فهم الذين غُلَّت أيديهم ولعنوا، وهم الَّذين لا يقاتلون إلا من وراء جدر، وهم الَّذين اغتصبوا المسجد الأقصى بمعونة من النَّاس، بوساطة وعد بلفور، ووعود أخرى، ومعونات مُدَّت لهم من هنا وهناك.

لو قرأتم معي الآيات من أول سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ إلى قوله: ﴿...وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء: ٦].

ففي بداية الأمر قضى عليهم بعباده أصحابِ محمَّد، ولمَّا أعرض خَلَفُهم عن الصَّلاة واتَّبعوا الشَّهوات ردَّ لليهود الكرَّةَ عليهم فأمدَّتهم الدُّولُ بالأموال والعتاد والبنين من جنودٍ وفنِّيِّين، وهذا ما وجدناه في نكبة

(٤٨) ونكبة (٦٧)، وكانت بينهما اعتداءات ذهبت بها أوطانٌ وشُرِّدَت الألوف العربيَّة المسلمة، بل مئاتها، وأُزْهِقَتْ أرواحٌ وسُفِكت دماءٌ وهُتِكَت أعراضٌ، وضاعت حقوقٌ، واغتصبت أموالٌ، وفُتِنَ ناسٌ بدينهم وأخلاقهم، ونحن ماذا عملنا؟!

قال الله لنا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩]، فرفعنا الاحتجاجات تلو الأخرى، وما هذه الاحتجاجات إلَّا حبرٌ على ورقٍ، وقال الله لنا: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ [النِّسَاء: ١٠٤]، فعقدنا المؤتمرات على اختلاف مستوياتها، وكتبنا التَّوصيات ورفعناها، وما هي إلَّا حبرٌ على ورق، وقال الله لنا: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ [محمَّد: ٣٥]، فدَبَّجْنَا[1] الخطابات بأفصح الكلمات والعبارات، وأنشدنا القصائد الرَّنَّانة وكتبناها بحبرٍ على ورق، ثمَّ أقمنا الحفلات، ثمَّ قلنا: نحن بنو خير أمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس، نحن بنو أولئك الَّذين قال الله فيهم: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦]، فأين نحن منهم؟

إنَّ الله جلَّ شأنه ربط لنبيِّه محمَّد ﷺ بين حرميه: حرم مكَّةَ وحرم القدس، ويجب على المسلمين أن يربطوا برباط من الطَّهارة والشَّرف والحرِّيَّة بين أكرم وأقدم مسجدين بعث الله منهما أنبياءه، وأنزل فيهما عليهم وحيَه.

فعلى المسلمين أن يكونوا حشدًا حاشدًا وجمعًا متساندًا، ويستمعوا

(١) دبج الارض: روَّضها؛ أي: زينها بالرياض. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٥/ ٥٤٦).

قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

وأختم كلمتي هذه بالدُّعاء لي ولكم ولجميع المسلمين في بقاع هذه المعمورة، سائلًا الله ﷻ ورافعًا إليه كفَّ الضَّراعة: (اللَّهمَّ أحينا مسلمين، وأمتنا مسلمين، وابعثنا إليك يوم البعث مسلمين، ووفِّقنا في هذه الحياة، حتَّى نتأسى بالنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ وأصحابه المهتدين، وارض عنَّا أجمعين، واحفظ اللَّهمَّ بلدنا هذا وبلاد المسلمين من الزَّيْغ والغيِّ والضَّلال والطُّغيان، ووفِّق ولاتنا جميعًا إلى سلوك صراطك المستقيم)، والحمد لله ربِّ العالمين.

جمعية الشيخ عبدالله النوري الخيرية
Sheikh Abdullah Al Nouri Charity Society

الأعمال الكاملة

لفضيلة الشيخ

عبدالله النوري

المتوفى سنة (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) رحمه الله تعالى

البهائية سراب

اعتنى به

د. تركي محمد حامد النصر

فكرة وإشراف

د. عبدالمحسن عبدالله الجارالله الخرافي

الإهداء

إلى أولي البصائرِ الَّذين يقرؤون فيعقلون ما يقرؤون.

إلى من ينشدُ الحقيقةَ فيسلُك سبيلَها المستقيمَ.

إلى كلِّ من قرأ كتابي هذا فعَرَفَ الخطأ من الصَّوابِ ثمَّ اهتدى إليه.

عبد الله النُّوري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة الطَّبعة الثَّانية

الحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ﴾ [الفتح: ٢٨] والصَّلاة والسَّلام على الرَّسول الكريم الَّذي جمعَ اللهُ به القلوبَ المتنافرةَ، وألَّفَ به بينَ النُّفوسِ المتباينة، وعلى آله الَّذين آمنوا برسالته، وساروا على نهج دعوته، فكانوا - بشهادة القرآن - ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وبعد:

فقد كانَ المجتمعُ الإسلاميُّ في عهدِهِ الأوَّلِ يشعرُ بالتَّوحيدِ الخالصِ والإيمانِ الصَّادقِ، وأنَّهم يسيرونَ على نَهجِ الإسلامِ الصَّحيحِ، وكان أفرادُه يعملونَ في شعورٍ تامٍّ بأنَّهم لله وحدَه، تحكمهم جميعًا شريعتُه الطَّاهرةُ، وينظِم حياتَهم الخاصَّة والعامَّة دستورُه المُحكَم، فلا يستذلُّهم بشرٌ، ولا تطغى عليهم رهبةُ وثنٍ ولا صنمٍ، كانوا يعملونَ جميعًا في ظلِّ الدَّعوةِ المحمَّديَّة، لا يَحِيدونَ عن دائرتِها، ولا يزيغونَ عن محيطِها، فعاش الجميعُ في ظلِّ الإخاءِ الإنسانيِّ والعدالةِ المطلقةِ، والشُّعورِ بالرَّحمةِ والسَّلام والخيرِ في حياةٍ آمنةٍ عزيزةٍ فاضلةٍ، ولكنَّ هذا الخيرَ والرَّحمةَ والسَّلامَ الَّذي عاشَ المسلمونَ الأوَّلونَ في ظلِّه الوارفِ أثارَ أحقادَ مَنْ يُحِبُّ أن يعيشَ النَّاسُ في ظلامِ الفُرقةِ والانقسامِ، ويعجبهم أن يصطليَ النَّاسُ

بنارِ العداواتِ، وأن يحيَوا عبيدًا للضَّلالاتِ، وأسارى للأوهام، فأخذوا يبذُرونَ في المسلمينَ بذورَ العصبيَّةِ القبليَّةِ، ويروِّجونَ للتَّحزُّبِ والأحقاد؛ لتظلَّ لهم السَّيطرةُ الباغيةُ على نفوسِ المسلمينَ فيسخِّرونَهم لأهوائهم وشهواتِهم، وبدأت روحُ الفُرقَةِ والعداواتِ تدبُّ - بصورةٍ واضحةٍ سافرةٍ - في المسلمينَ بعدَ مقتلِ عثمانَ بنِ عفَّانَ رضي الله عنه، فتلقَّفها اليهودُ وغيرُهم من أعداءِ الإسلامِ فنشروها وجنَّدوا من أجلها الأعوانَ والمالَ لتوسيعِ دائرتِها، فيضعِفُوا كيانَ المسلمين، ويشتِّتُوا وحدتَهم، ويهدِموا ذلك الصَّرحَ العظيمَ الَّذي بناهُ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الأبرار، فيقيمونَ على أنقاضِ ذلكَ الصَّرحِ دولةَ البغي والاستعلاءِ والألوهيَّةِ واستعبادِ البشرِ.

ثمَّ أخذت هذه الفِرقَةُ تعملُ على مرِّ الأيامِ حتَّى تفرَّعت منها فِرَقٌ أخرى عديدةٌ، واتَّخذتْ كلُّ فِرْقَةٍ دينًا وشريعةً لها استحدَثتهَا من الخرافاتِ والبِدَعِ، وذهبَ زعيمُ كلِّ فِرْقَةٍ يدَّعي النُّبوَّة، وأنَّ الوحيَ يتنزَّلُ عليهِ من السَّماءِ، فأخذَ يفتاتُ[1] كلامًا يصلُ إلى حدِّ السُّخفِ، وفوق ذلك يسمِّيه وحيًا يشرِّع به للنَّاسِ العقائد؛ فيحلِّلُ ويحرِّمُ ويمنعُ ويبيحُ، وقد نسي هؤلاء المدَّعونَ الكذبَ أنَّ الله تعالى جعلَ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم خاتمَ الأنبياءِ، وجعل رسالتَهُ خاتمةً للرِّسالات السَّماويَّةِ السَّابقةِ جمعاء، وأنَّه تعالى بيَّنَ كمالَ الدِّينِ، وأوضحَ تمامَه بالآية الَّتي تلاها جبريلُ على نبيِّنا في حِجَّةِ الوداع: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائدة: ٣]، وبذلك تكونُ رسالةُ محمَّدٍ أبديَّةً عامَّةً للبشر جميعًا، ولا ينبغي لإنسانٍ أيًّا كان أن يدَّعي

(١) افتات الكلام: ابتدعه. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٥/ ٣٥).

أنَّه نبيٌّ بعدَ سيِّدنا محمَّدٍ، وذلك كما جاءَ بالأحاديثِ النَّبويَّةِ: «**أَنَا محمَّدٌ النَّبيُّ - ثلاثًا - ولا نبيَّ بعدي**»(١)، «**أُرسِلْتُ إلى الخلقِ كافَّة وخُتِمَ بيَ النَّبيُّونَ**»(٢)، ولم يكتفِ هؤلاء بادِّعاءِ النُّبوَّةِ فقط، بل تطوَّر أمرُهم إلى حدٍّ اِدَّعَو فيه الألوهيَّة من دونِ اللهِ تعالى.

والكتابُ الَّذي نقدِّمُه للقارئ - في طبعتِهِ الثَّانيةِ - يتناول بينَ دَفَّتَيهِ تاريخَ فِرقَةٍ من هذهِ الفِرْقِ الضَّالَّةِ وهي البهائيَّة، نتناولُ فيه تاريخَها وعقيدَتَها، وزعامَتَها وأهدافَهَا، وصِلَتَها بغيرها من دعاةِ الباطلِ والزَّيف.

قامت البهائيَّةُ على أنقاضِ البابيَّة بعدَ مقتلِ زعيمِها المعبودِ الميرزا علي محمَّد، الملقَّب بالبهاء وهو حسين علي ميرزا، ولقد وجدَ الاستعمارُ وأعداء الإسلام في دعوة البهائيَّة - كما وجدوا في البابيَّة - أرضًا خِصبَةً للقضاءِ على الإسلام ومقوِّماتِه وروحِه، فشجَّعوها وأمدُّوها بكلِّ الإمكانيَّات؛ لتظلَّ لهم السَّيطرةُ الاستعماريَّةُ على بلاد الإسلام، فيسهل لهم نهبُ خيراتِها، وسرقةُ موارِدِها، وسلبُ حرِّياتِها.

ولا يخفى على المسلمِ اللَّبيبِ أنَّ البهائيَّة قناعٌ باطنيٌّ أراد الشَّرَّ للإسلام ودولته، فإنَّ سِجِل التَّاريخِ يكشف لنا مدى صلةِ الصُّهيونيَّةِ بالبهائيَّةِ، وذلك من تفاسيرهم للتَّوراةِ والقرآن، فهي إذن صلةٌ قديمةٌ بدأت معَ معبودَةِ البابيَّة قرَّة العين.

وإلى القارئ ما يقوله بهائيٌّ كبير عن هذه الصِّلةِ: أقبلَ فوجٌ عظيمٌ على هذا الأمرِ واعتنقوهُ، ودخلوا في ظلِّ البهائيَّة، وأصبحوا يُشارُ

(١) رواه أحمد، رقم: (٦٦٠٦).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٥).

إليهم بالبنانِ في جميعِ بُلدانِ إيرانَ، وكانَ أوَّلَ مَنْ بذرَ بذورَ تلك التَّطوُّراتِ هناك قرَّةُ العين.

وها هي الدَّولةُ الصُّهيونيَّةُ الآن احتضنَتِ الدَّعوةَ البهائيَّةَ لمناهضَةِ الإسلام، كما أنَّها أمدَّتِ الميرزا بما جاءَ في أسفارِها عن بهاءِ الله بعد أن لقَّبَتْهُ بهِ، ودفعَتْه ليزعمَ أنَّه المرادُ بلقبِ البهاءِ، يقول بهائيٌّ كبير: المرادُ من بِشاراتِ الكتبِ المقدَّسةِ هو ظهورُ بهاءِ اللهِ الأبهى، فإنَّه - جلَّ ذكره - هو وحدَه ادَّعى أنَّ ظهورَه هو ظهورُ الله الموعود، ووجهَه هو وجهُ اللهِ المعبودِ، ويومَه هو يومُ اللهِ المعهودِ.

وبعد:

فإنَّ غايتَنا من هذا الكتابِ أن نكشفَ السِّترَ عن حقيقةِ هذه النَّزعةِ الضَّالَّةِ - البهائيَّة - الَّتي احتضنها الاستعمارُ والصُّهيونيَّة، فنشروها وزيَّنوهَا في عيون الجُهَّال، وعلَّموها كيفَ تُلْبِسُ الكفرَ ثيابًا برَّاقةً منَ الإيمانِ الجميلِ؛ ليهدموا صروح الإسلام العظيمةِ، ويقوِّضوا بناءَ حضارتِه الزَّاهرةِ، ولعلَّي بهذا الكتابِ أُسْهِمُ في تنبيهِ شبابِنَا ومجتمعِنَا إلى خطرِ الفسادِ الَّذي ينشُرُه أعداءُ الإسلامِ في كلِّ مكانٍ وبأقنعةٍ مختلفةٍ، محاولينَ تشويهَ عقائدِ الإسلامِ وأخلاقِهِ وأفكارِه، ولعلِّي أسهمُ أيضًا في إنقاذِ المجتمعِ الإسلاميِّ من هذا السَّرابِ البهائيِّ الَّذي يُغريهم ويَخدَعُهم بمعسولِ الكلامِ.

عبد الله النُّوري

الكويت

(٢٥) ربيع أوَّل سنة (١٣٩٠هـ)

(٣٠) مايو سنة (١٩٧٠م)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة الطَّبعة الأولى

الحمدُ لله، وصلاةُ اللهِ وسلامُهُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ، محمَّدٍ عبدِهِ ورسولِهِ وعلى آله وأصحابه كافَّةً، ومن سلَكَ سبيلَ هُداه.

وبعد:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، ثمَّ إنَّه من الطَّريفِ الممتعِ أن يطَّلِعَ الإنسانُ على شيءٍ من الأديانِ المختلفةِ، ولا سيَّما الأديانُ الوضعيَّةُ؛ ليعرفَ قلَّةَ متَّبعيها، وعقليَّةَ مَنْ جاؤوا بها أو وضعوها.

وفي عقيدَتِنا نحن - المسلمينَ - أنَّ الأديانَ السَّماويَّة الباقية ثلاثةٌ: اليهوديَّةُ، والنَّصرانيَّةُ، والإسلام.

فأمَّا اليهوديَّة فقدِ انتهى زمنُها وحُرِّفَ كتابُها ودخلَ فيها من الموضوعاتِ المخالفةِ لها الشَّيءَ الكثيرَ، وكذلك النَّصرانيَّةُ، وأمَّا الإسلامُ فهو باقٍ بقاءَ كتابِهِ؛ لأنَّه النَّاسخُ للأديانِ السَّابقةِ جميعِها، وهو الصَّالِحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، وهناكَ أديانٌ قيل: هيَ شبه سماويَّةٍ منها:

الصَّابئيَّة، والزَّردشتيَّة المجوسيَّة، والبوذيَّة، وقيل: إنَّ لهم كتبًا أو أشباه كتبٍ.

وعقيدتُنا أيضًا أنَّ محمَّدًا ﷺ خاتمُ النَّبيِّين كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكما قالَ هو عليه السلام عن نفسِهِ: «**لا نبيَّ بعدي**»[١]، وقال أيضًا: «**خُتِمَ بيَ النَّبيُّونَ**»[٢].

وقدِ ادَّعى النُّبوَّةَ منذُ بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ حتَّى هذا اليوم كثيرونَ، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وأوَّلهم مسيلمةُ والأسودُ العنسيُّ وسُجَاحُ، وبعدهم كثيرون، فكان لهم أتباعٌ ومصدِّقون، إلَّا أنَّهم انقرضوا وانقرض أتباعهم، وفي أواخر القرن الماضي ادَّعاها الباب وبعده البهاء في إيران، ومن ثَمَّ ظهر القاديانيُّ في الهند، وقبل ثلاثين سنة ظهر في جزيرة جاوة أيضًا من ادَّعى النُّبوَّة، وقد قابله شيخنا المرحوم عبد العزيز آل رشيد وكتب عنه في مجلَّة الكويت.

وقد اتَّصلتُ بالبهائيَّة اتصالًا وثيقًا، وتعرَّفت إلى كثيرٍ منهم، وجالستهم وحضرت صلواتهم، وكاتبوني وكاتبتهم حتَّى توهَّموا - أو أوهمتهم - أنِّي صرتُ واحدًا منهم، خالطتهم في الكويت والبصرة، ودَرَستُ ديانتهم من كتب البهاء نفسه، ومن كتبهم المترجمة عن

(١) رواه البخاري، رقم: (٣٤٥٥).
(٢) رواه مسلم، رقم: (٥٢٣).

الإيرانيَّة بلغة عربيَّة ركيكة، أو ما وضع منها بالعربيَّة، كما قرأت في كتبهم المترجمة عن الإنكليزيَّة والهولنديَّة.

وهاكم ما وصلت إليه في دراستي هذه، وما توفيقي إلَّا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أنيب، وأستغفر الله وهو حسبي ونعم الوكيل.

إيمان البهائيَّة

يؤمنون بالله وكتبه ورسله والقيامة والباب والبهاء، فأركان الإيمان عندهم:

١- الإيمان بالله.

الإيمانُ باللهِ هو رأسُ الإيمانِ عندَهم، لكنَّه ليسَ كإيمانِ المسلمين، فالمسلمون يشهدونَ بأنَّهُ لا إله إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، اتَّصَفَ بصفاتٍ لا يمكنُ لمخلوقٍ أن يتَّصفَ بها، إذ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، وأنَّ كلَّ ما في الوجودِ قائمٌ به مُفتَقِرٌ إليه.

أمَّا البهائيَّة فيقولون: إنَّ اللهَ حيٌّ قادرٌ قيُّومٌ ليسَ كمثلِه شيءٌ، إلَّا أنَّه ليس له وجودٌ مطلقٌ بأسمائِه وصفاتِه(١) الَّتي وصف بها نفسه على ألسنة أنبيائه، ولا سيَّما في القرآن، وإنَّما وجودُه مفتقرٌ إلى مظاهرِ أمرِه، وهم الأنبياءُ والرُّسل يظهر فيهم ويتجلَّى لعباده فيهم كما تتجلَّى الشَّمس في المرآة الصَّافية، وحينئذٍ يكونُ هذا النَّبيُّ أو الرَّسول قد

(١) إنَّ القول بأنَّ الله ليس له وجود مطلق بأسمائه وصفاته يدلُّ على مدى جهل البهاء بحقيقة هذه الأسماء ودلالاتها العظيمة في قلب كلِّ مسلم، فالله تعالى موجود بأسمائه وصفاته، وقد طلب من عباده أن يدعوه بها؛ لما في هذا من مظاهر العبودية وإظهار الذل والافتقار إليه فقال جلَّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. المعلق.

انمحى وجودُه بمن تجلَّى فيه، كما تنمحي تلك المرآةُ الصَّافية، ويكون هو الله، فإذا خاطبْتَه فإنَّما تخاطبُ اللهَ، وإذا كلَّمك كانَ المتكلِّم هو الله(١).

ويقولون أيضًا: إنَّ الله مفتقرٌ إلى خلقه كافتقارِ الملكِ إلى رعيَّتِه(٢)، فكما أنَّه لا ملك بلا رعيَّةٍ كذلك لا خالقَ بلا مخلوقٍ، ولا رازقَ بلا مرزوقٍ؛ لذا فإنَّهم يعتقدون أنَّ الكون أزليٌّ أبديٌّ كأزليَّة الله وأبديَّته.

(١) القول بأنَّ الله - سبحانه - مفتقرٌ إلى أنبيائه ورسله ليتجلَّى لعباده في أشخاصهم جرأةٌ وعدوان على مقام الله تعالى، ويدلُّ على عقيدة باطلة من جنس عقيدة وحدة الوجود الَّتي يدين بها بعض المنتسبين للإسلام في هذا الزَّمن حين خلطوا الفلسفة بالدِّين، هذه العقيدة الَّتي تجعل الله يتجلَّى في الأعيان والموجودات حتَّى في مرابض الغنم والأماكن الخربة والموبوءة - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - ونعوذ بالله أن ندين بمثل هذا، وإنَّما نحن ندين ونؤمن بأنَّه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وأنَّه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشّورىٰ: ١١]، وأمَّا مخلوقاته فتدلُّ على عظيم قدرته، وتشهد بأنَّه واحد أحد فرد صمد.

(٢) إذا صحَّ أن ننسب الافتقار إلى الملك حين يفتقر إلى رعيته فلأنَّ الملك مخلوق ضعيف ومحتاج إلى من يعاونه في إدارة ملكه، وجهده قاصر عن الإلمام بشؤون مملكته كلِّها، لكنَّ الله تعالى لا يصحُّ أن ننسبَ إلى ذاته العليَّة صفة الافتقار فنقولَ: إنَّه مفتقر إلى خلقه كافتقار الملك إلى رعيَّته؛ لأنَّ الله هو الغنيُّ وكلُّ خلقه فقراء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، كما أنَّ الدُّنيا على عظمتها واتِّساعها لا تساوي عند الله جناح بعوضة كما جاء في الحديث القدسيِّ، فكيف يفتقر الله إلى خلقه؟! وكيف يسوغ لمن يعرف قدر الله ويعرف قيمة الدُّنيا بالنِّسبة لجناح البعوضة أن يصف الله بالافتقار والعوز والاحتياج؟! سبحانه وتعالى عن ذلك. المعلق.

٢- الإيمان بالكتب السَّماويَّة.

يؤمنون بالكتب السَّماويَّة - وهي عندهم كثيرةٌ - وأنَّ الله حفظها كما هي ولم يدخل عليها التَّحريف مستدلِّين بقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤] ويقولون: إن كان تحريفٌ فهو في عدم إدراك المعنى أو فهمه، فالتَّوراة لم تحرَّف، وكذا الإنجيل، ولكنَّ عقولَ البشرِ القاصرةِ عن إدراكِ معناه وفهمِه فَسَّرَتْه بغيرِ ما أراد مُنَزِّلُه فحرَّفته، وهذا معنى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: ٤٦]، وأنَّ البهاءَ فسَّره كما أراد الله منزِّلُه - هذا هو اعتقادهم - ومن الكتب السَّماويَّة الَّتي يؤمنون بها كتب بوذا وإبراهما، وزرادشت، والصَّابئة، وحمورابي، وربَّما أفلاطون وسقراط؛ لأنَّ البهاء عظَّم أفلاطون وسقراط فيما كتبه عنهما في لوح الحكمة، وكلُّ هؤلاء عندهم أنبياء أو رسل، أو مظاهر أمرٍ كما يسمُّونهم.

٣- الإيمان بالأنبياء والرسل.

تؤمن البهائيَّة بالأنبياء والرُّسل، وهم باعتقادهم مظاهرُ أمرِ الله، وأنَّ الله مفتقرٌ إليهم ليتجلَّى لعباده فيهم، ودليلهم على ذلك - كما يدَّعون - قول الله لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ [طه: ٤١]، وقوله لمحمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وقوله له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؛ يعني: أنَّ يدَكَ الَّتي تبايع بها النَّاس هي يدُ الله، فالنَّبيُّ عندهم يتكلَّم بلسان الله، ويصافحُ بيد الله، وله عندهم صفتان: بشريَّةٌ

عندما يأكل وينام ويمرض ويموت، وروحانيَّة - كما يسمُّونها - أو إلهيَّة، فأنت إذا خاطبته تخاطب الله، وإذا سجدت له فإنَّما تسجد لله، وتعالى الله عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ٧٩]، والرَّسولُ الصَّادق عندهم هو من تكون كلمتُه ثابتةٌ كالشَّجرة الطَّيِّبة، وأمَّا الكاذب فعمر دعوته قصيرٌ، ويعتقدون أنَّه ليس بين محمَّد ﷺ والباب نبيٌّ، ولا أدري ما يقولون في نبيِّ السِّيخ، ونبيِّ القاديان وأتباعهما يفوقون البهائيِّين عدًّا؟ وعمر دعوة الأوَّل طويل بلغ خمسة قرون، وأتباع الثَّاني قد انتشروا في أكثر بقاع المعمورة.

وإنَّهم يقولون: كلُّ الأنبياء والرُّسل جاؤوا ليبشِّروا بالمظهر الأبهى الَّذي سمَّى نفسَه فيما بعد بهاءَ الله، والَّذي هو - على زعمهم - موعودُ كلِّ الأزمنة، وكلُّ الأديان الَّتي جاء بها الأنبياء إنَّما هي تمهيدٌ لدينه، وكلُّها ناقصةٌ لا يكمِّلها إلَّا دين البهاء.

٤-الإيمان باليوم الآخر.

وعقيدتهم فيه تخالف كلَّ الأديان السَّماويَّة إذ يقولون: إنَّ الإنسان إذا مات قامت قيامته، فهو بعد الموت إلى نعيم مقيمٍ، أو إلى عذابٍ أليمٍ، وأمَّا الأجساد فتفنى في الأرض وتعود إليها كما بدأت منها، وما العذابُ والنَّعيم إلَّا للأرواح؛ لأنَّها المسيِّرةُ لهذه الأجسام، ويستدلُّون على ذلك بآياتٍ وأحاديثَ إسلاميَّةٍ يؤوِّلونها كما يشاؤون،

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، ويعتقدون بأنَّ الله يخلق لهذه الأرواح أجسادًا تليق بالنَّعيم أو العذاب، وأنَّ هذا العذاب ينتهي، ويسمُّون هذه القيامة - الموت فما بعده - القيامة الصُّغرى، أمَّا البعث والسَّاعة والحشر فيسمُّونها القيامة الكبرى، وهي انتهاء أمرِ رسول وأمَّته وبعث رسولٍ جديدٍ، وكلُّ قيامة أنبأ بها الأنبياء هي عندهم تعني بعث البهاء.

٤- الإيمان بالباب والبهاء.

ولنتكلم على شيء من تاريخهما تمهيدًا للوصول إلى البهائيَّة.

الباب

ولد في شيراز في (١) محرم سنة (١٢٣٥هـ) الموافق لـ (٢٠) تشرين الأوَّل سنة (١٨١٩م) مولودٌ للسيِّد محمَّد رضا بزاز في شيراز، أسماه بعد ولادته علي محمَّد، ويقولون: إنَّه يتَّصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وهذا ما نصَّت عليه كتبهم، والله أعلم.

وقال غيرهم: مات أبوه وهو طفلٌ لم يُفطَم، فكفَله خالُه وكان تاجرًا ضعيف الحال اسمه ميرزا سيِّد علي، وفي السَّنة الخامسة أدخله خاله الكُتَّابَ، فتعلَّمَ ما يتعلَّمه أبناء الفقراء في كتاتيب إيران، ولكنَّه برز في الخطِّ حتَّى كان نادرةَ زمانِه جودةً في الكتابة والسُّرعة والتَّنسيق، وقبلَ أن يبلغَ الحلم ترك المدرسة لاحتياج خاله إليه؛ لأنَّه كان يصرف معظم أوقاتِه في السَّفر ما بين شيراز وأبى شهر، ولمَّا بلغ السَّابعة عشر من عمره استقلَّ بعمله عن خاله وأقام في أبى شهر تاجرًا خمس سنين، ثمَّ رجع إلى شيراز، وانقطع للعبادة على الطَّريقة الصُّوفيَّة، ثمَّ رجع إلى أبى شهر، وزعم أنَّه يستطيع تسخيرَ روحانيَّات الكواكب، وكان يقضي معظَم نهارِه فوقَ سطح منزله حاسرَ الرَّأس، تاليًا الأوراد، منهمكًا في تلاوة الأذكار تحت شمس أبى شهر المحرقة، فاعتراه بسبب ذلك ذهول حطَّم قواه، فأرسله خاله إلى كربلاء مستشفيًا بزيارة المقامات الشَّريفة هناك، وفيها لقيَ السَّيِّد

كاظم الرَّشتيَّ خليفةَ الشَّيخ أحمد الإحسائيَّ[١] زعيم الشَّيخيَّة، الَّذي مزج التَّصوُّف والفلسفة بالشَّريعة، والَّذي قال: إنَّ الغائب المنتظر المسمَّى بالمهدي هو الآن من سكان عالمٍ روحانيٍّ غيرِ هذا العالم الجسمانيِّ، وإنَّ جسمه كأجسام الملائكة نورانيٌّ، وقد قال الباب بقول شيخه هذا، ثمَّ انقطع فجأة عن مجلس الشَّيخ، وعكف على العبادة ولازم الرِّياضة بالمسجد مدَّةً، ثمَّ ظهر للنَّاس بمظهرٍ جديدٍ، قال فيه بمعنى حديث: «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها**»[٢]، وأنَّ الوصول إلى الله لا يمكن إلَّا عن طريق نبيٍّ، ولا يمكن الدُّخول في هذا الطَّريق إلَّا من الباب، وأنَّه هو الباب، ثمَّ ادَّعى أنَّه الباب للمهدي المنتظر، وبعد مدَّةٍ ادَّعى أنَّه المهديُّ نفسُه الَّذي بشَّر به الأنبياء،

(١) هو زعيم فرقة الشَّيخيَّة ولد عام (١١٧٥هـ-١٧٤٤م) وقد قرَّر الإحسائيُّ أنَّ البعث روحانيٌّ لا جثمانيٌّ؛ لأنَّ الرُّوح جوهر الجواهر، أمَّا الجسم فمصيره الفناء الأبديُّ؛ لأنَّه مؤلَّف من عناصر الأرض، كما إنَّه يقول: الشَّخصيَّة الإنسانيَّة الَّتي تميِّز الأفراد من بعضهم ليست أكثر من مجموعة صفات وأخلاق إن وجدت تامَّةً في شخصية أخرى في أيِّ زمان أو مكان دلَّت على رجوع الشَّخصيَّة السَّابق وجودها إلى الوجود، ولقد أنكر الإحسائيُّ رجعة الإمام الغائب المنتظر المسمَّى بالمهدي كما يفهمها الإثنا عشرية، وحكم بموت الإمام الثَّاني عشر ابن الحسن العسكري، وبأنَّ روحه طارت إلى الملأ الأعلى، ولكنَّها ستعود مرَّة أخرى بكلِّ خصائصها في إنسان جديد يُولَد ولادة حقيقيَّة من أب وأمٍّ جديدين غير والدي الإمام الثاني عشر الغائب المزعوم؛ لهذا ثار عليه شيعة إيران، لكنَّهم عجزوا عن إثبات تهمة إنكاره رجعة المهدي ضدَّه، إذ كان يغلِّف آراءه بالرَّمزيَّة والإبهام. المعلق.

(٢) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٣٢٩٧٩).

ومحمَّد ﷺ، وفي (٥) جمادى الأولى سنة (١٢٦٠هـ) الموافق لأيار (١٨٤٤م) ادَّعى أيضًا أنَّ الله اختاره لمقام البابيَّة، ومعناه - كما زعم البهائيُّون - أنَّه جاء رسولًا من عند الله مبشِّرًا بظهور شخصٍ مُحتَجبٍ خلفَ ستارِ الغيبِ الإلهيِّ، وسيكون رسولًا من الله إلى البشريَّة؛ لإنقاذهم من الفتن والحروب، وإدخالهم في السِّلم كافَّة، وهذا ما قاله البهائيُّون في كتبهم عند ترجمة الباب.

أمَّا البابيُّون أنفسهم فينكرون ذلك ويقولون: لم يأتِ الباب مبشِّرًا برسول، وإنَّما منع الرِّسالةَ بعدَه لمدَّة ألفي سنة عدد حروف المستغاث بالأبجديَّة، قال في البيان: كلُّ من ادَّعى أمرًا قبل سنين المستغاث فهو مفترٍ كذَّابٌ، اقتلوه حيث ثقفتموه.

وادَّعى البابُ في آخر أيَّامه الألوهيَّة، مُسمِّيًا نفسَه الأعلى، وبعضُهم يقول عنه: الرَّبُّ الأعلى، وسمَّى نفسه النُّقطة، ويعني بها النُّقطة الَّتي تحتَ باء باسم الله؛ لأنَّ الباء للاستعانة بالله، ولا يمكن الاستعانة باسم الله إلَّا بواسطته، أمَّا البهائيَّة ففسَّروها على حسب هواهم، وجعلوه النُّقطة الفاصلة بين نهاية أمر محمَّد عليه السلام وظهور غيره وهو البهاء.

وبعد أن أعلن الباب دعوته مقتنعًا بها اجتمع حولَه ممَّنِ استجابوا له ثمانية عشر وزَّعهم على البلاد وسمَّاهم حروف الحي؛ لأنَّ الحاء بالأبجديَّة ثمانية، والياء عشرة، ومنهم الملَّا حسين البشرونيُّ الَّذي سمَّاه باب الباب، وهو أشدُّهم إخلاصًا في الدَّعوة، وقيل: إنَّه المحرِّك لها، وإنَّها من فِعاله، ومنهم أيضًا الملَّا عليٌّ البارفروشيُّ

الَّذي سمَّوه القدُّوس، والملَّا عليٌّ البسطاميُّ أيضًا واحدٌ منهم.

ثمَّ تابعتهم بعد ذلك زرين تاج بنت ملَّا صالح القزويني البرقاني الَّتي كانت تسمَّى هند، وتكنَّى بأمِّ سلمى خانم، ولجمالها سمِّيت زرين تاج؛ يعني: التَّاج الذَّهبي، وسمَّاها البابُ قرَّة العين، ثمَّ الطَّاهرة، وكان لها مواقفُ عظيمةٌ في نصرة البابيَّة حتَّى نفتها الحكومة الإيرانيَّة إلى العراق، وحبستها الحكومة التُّركيَّة في بيت الشِّهاب الألوسيِّ، فأقامت حوالي شهرين ثمَّ رجعت إلى إيران، وهناك اشتدَّت دعوتها وقويت عصبيَّتها، وصار لها جيشٌ لَجِبٌ يُخشى بأسُه، ويُرهَبُ جانبُه، وأصبحت تعيث في الأرض إلى أن قبضت عليها الحكومة بعد مقاوماتٍ عدَّة، فقُتِلَت ثمَّ أُحرقت سنة (١٢٦٤هـ)[١].

وبقي البابُ في دعوته هذه سبعَ سنين اجتهد بها هو وأتباعه في نشرِ مبدئهم والقتالِ دونَه، وتمكَّنتِ السُّلطة منه، ومن بعض أتباعه، وتفننَّ أولياء الأمور في حبسهم وضربهم وتعذيبهم وتقتيلهم، ولاقى هو من الحجر والحبس ما لاقى، إلى أن نُفِيَ إلى أذربيجان، وفي اليوم الثَّامن والعشرين من شعبان سنة (١٢٦٦هـ)[٢] أُعْدِمَ البابُ رميًا بالرَّصاص في مدينة تبريز هو وأحد أتباعه، وطرحت جثَّتاهما على حافَةِ الخندق، وفي اليوم الثَّاني فُقدت الجثَّتان فلم يرهما أحد، فقيل: إنَّ الكلاب أكلتهما، لكنَّ البهائيِّين زعموا أنَّ أتباع الباب سرقوا الجثَّة وأخفوها زمنًا طويلًا داخل صندوقٍ في مصنع رجل

(١) أي: سنة (١٨٤٨م).

(٢) أي: سنة (١٨٥٠م).

ميلانيٍّ إلى أن أمنوا، فنقلوها إلى حيفا بفلسطين، ودفنوها في سفح جبل الكرمل في مدفن فخم هناك، وقيل: إنَّ الجثَّة المدفونة ليست جثَّته الحقيقيَّة، والله أعلم بالحقيقة.

دعوى الباب

كان الباب يعيب على العلماء طمَعهم ونفوذهم، ويعيب على الوزراء ورجال الحكم استبدادهم، ويعيب على المتَّصلين بذوي السُّلطة نفاقَهم(١)، ويدَّعي أنَّه أعلم العلماء، وأنَّه أوتي فتحًا من الله، وقد كتب كثيرًا وتكلَّم أكثر، إلَّا أنَّ كلامه كان خارجًا عن حدود البلاغة والفصاحة والتَّركيز على شيءٍ معيَّنٍ، فمن كلامه في لوح كتبه إلى الملَّا علي محمَّد البارفروشي: قد قضى عدد النَّفر في النَّفي إلَّا الله وحقٌّ على كلِّ نفس أن تثبتنَّ ألف ثبات فيما أنتم فيه، وأنَّ ذلك يومئذٍ عند الله كلُّ الأمر للَّذين هم به يؤمنون، فليتقين التُّقى وليثبتن الإثبات على حقٍّ أنتم عليه مقتدرون(٢).

(١) وإن تعجب فعجب أن يعيب الباب على العلماء والوزراء الطَّمع والنُّفوذ والاستبداد، في حين كان هو نفسه واقعًا في العيب نفسه، حيث كان يتطلَّع إلى الطَّمع والنُّفوذ والاستبداد، ألم يدَّعِ النُّبوَّة كذبًا وافتراء؟ ألم يدَّعِ الألوهيَّة ليتحكَّم برقاب ملايين المسلمين؟ ألم يكن مستبدًّا يشرِّع للنَّاس بهواه وبوحي من شيطانه؟ وهل بعد ذلك طمعٌ ونفوذ واستبداد؟! فكيف إذن يعيب على العلماء والوزراء ويذمُّهم وهو واقع في العيب نفسه، بل في أكثر منه؟ فإنَّ عيبه كان ادِّعاءَه الألوهيَّة من دون الله، وهذا من الشِّرك الخطير، أمَّا العلماء والوزراء فكانت عيوبهم دون الإشراك، فذنبهم إذن مغفور، أمَّا هو فلا، كما يقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النِّساء: ٤٨]. المعلق.

(٢) كلام مبعثر الهدف، وعبارات ضعيفة، وجمل مفكَّكة الأوصال لا يتَّصل بعضُها =

وهذا شيءٌ من بيانه: لعمري أولَّ من سجد لي محمَّد، ثمَّ علي، ثمَّ الَّذين هم شهداء من بعده، ثمَّ أبواب الهدى، أولئك الَّذين سبقوا إلى أمر ربهم، وأولئك هم الفائزون، وأنَّ أوَّل ذلك الأمر أو يوم القيامة - يعني قيامه بالدَّعوة - كلٌّ على الله يعرضون - يعني يعرضون عليه - إنَّ الَّذين عرضوا عليَّ وهم كانوا بالله وآياته مؤمنين، فأولئك هم أصحاب الرِّضوان قد جزيناهم في الكتاب بأحسن مما اكتسبت أيديهم وكذلك نجزي المخلصين، ثمَّ يقول فيه: وإنَّا قد نزَّلنا من قبل أنَّه لا إله إلا أنا إيَّاي فاتَّقون، لتوقنُنَّ أن لم يكن أوَّلًا قبلي، ولا آخرًا بعدي، ولا ظاهرًا غيري ولا باطنًا دوني، ولا آيةً من عندي، كذلك يمحِّص الله النَّاس كلَّهم أجمعون، ولعمري إنَّ أمر الله في حقِّي أعجب من أمر محمَّد رسول الله من قبلُ لو أنتم فيه تتفكَّرون، قل إنَّه رُبِّي في العرب، ثمَّ من بعد أربعين سنة قد نزَّل الله عليه الآيات وجعله رسوله إلى العالمين، قل إنِّي رُبِّيتُ في الأعجمين، ونزل عليَّ من بعد ما قضى من عمري خمسةً بعد عشرين سنة آياتي الَّتي كلٌّ عنه يعجزون[1].

= ببعضٍ لتكون كلامًا عربيًّا مفيدًا، وليس في كلامه ما يدلُّ على أنَّه يعلم بأصول العربيَّة وبلاغتها، أو يفهم للُّغة الفصحى وقواعدها لغة العرب التي جاءت معجزة لبلغاء العرب وفصحائهم، فأثبت بذلك عجزه وكذب دعواه. المعلق.

(١) بيان ينمُّ عن جهل وغفلة وغرور، فقد جعل الباب نفسه فوق إمام المهتدين، وسيِّد البشر محمَّد ﷺ، وفوق خلفائه الرَّاشدين، بل إنَّه جعل نفسه في مقام الألوهيَّة، والكلُّ له ساجدون طائعون مقهورون، وماذا ترك الباب لفرعون وزعمه؟ ألم يقل فرعون لرعيَّته: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات: ٢٤]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: ٣٨]، وهكذا فعل الباب. المعلق.

وقد جمعته الحكومة الإيرانيَّة بعلماء الشِّيعة ومجتهديها، فناقشوه وناظروه فلم يقنع، واشتدَّ عنادًا وطغيًا، ولمَّا عابوا عليه عدم فصاحته قال: إنَّ القرآن خالف فصاحة العرب، وقال أيضًا: إنَّ الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزَّمن الأوَّل، وعوقبت على خطيئتها بأن قيِّدت في سلاسل الإعراب، وبما أنَّ بعثتنا جاءت رحمة للعالمين فقد حصل العفو عن جميع المذنبين والمخطئين، حتَّى الحروف والكلمات، فأطلقت من قيدها تذهب إلى حيث شاءت من وجوه اللَّحن(١).

وقرَّر الباب وأنصاره في مؤتمرهم الَّذي عقدوه في صحراء

(١) لم يخالف القرآن فصاحة العرب كما يزعم الباب، بل إنَّ القرآن نزل بلغة العرب؛ لأنَّهم كانوا أهلَ فصاحة وبلاغة وبيان، فأراد الله تعالى أن يتحدَّاهم بمعجزةٍ من جنس ما بلغته قواهم العقليَّة والخياليَّة من إتقانٍ في اللُّغة والفصاحة؛ ليفحمهم ويقنعهم بصحَّة الدَّعوة المحمَّديَّة، وهكذا الشَّأن مع كلِّ نبيٍّ ورسولٍ كان يرسله الله إلى قومه، أيَّده بمعجزاتٍ من جنس ما كان مشهورًا عند القوم من صناعة وفنون، وليقرأ القارئ الكريم قول الله تعالى حين يبيِّن أنَّ القرآن نزل بلغة العرب: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣-١٩٥]، كما ينفي القرآن مخالفته لفصاحة العرب ولغتهم وانتفاء العوج والانحراف منه فيقول العزيز الحكيم: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٢٨]، ولا ندري أيَّ عقل يحتفظ بفطرته السَّليمة يقول: إنَّ الحروف والكلمات كانت قد عصت واقترفت خطيئة في الزَّمن الأوَّل وعوقبت على خطيئتها بأن قُيِّدت في سلاسل الإعراب، ثمَّ جاء هو وفكَّ عنها قيدها فعادت إلى عجمتها؟ أيُّ عقل راجح سليم يقول هذا؟! وهل للحروف والكلمات عقولٌ تفكِّر بها؟! إنَّ مثل هذا القول لا يصدر إلَّا من جاهل بقواعد الفصاحة العربيَّة، أو من عقل لامسه الخبل والجنون. المعلق.

بودشت سنة (١٢٦٤هـ)(١) نسخَ الدِّيانة الإسلاميَّة؛ لأنَّ للباب الخيارَ المطلقَ في تغيير الأحكام وتبديلها؛ لذا كان عليه أن يأتي بصلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ، وكان لقرَّة العين في هذا المؤتمر الصَّوت الأعلى، واللِّسان الأطول.

وقد خالف الباب المسلمين في الأذان والصِّيام والأعياد والمواريث، وجعل من كلِّ سنةٍ خمسةَ أيَّام سمَّاها أيَّام الحرِّيَّة، يفعل البابيُّ فيها ما يشاء بلا قيد ولا شرط(٢).

---

(١) أي: سنة (١٨٤٨م).

(٢) هكذا يزعم الباب أنَّه نسخ الدِّيانة الإسلاميَّة، وأنَّ له مطلق الحريَّة في تغيير الأحكام وتبديلها، أمَّا نسخه للدِّيانة الإسلاميَّة فهو ادِّعاء باطل؛ لأنَّ الدِّين الإسلاميَّ جاء ناسخًا للأديان السَّابقة، فهو دين إنسانيٌّ خالد فضَّله الله على الأديان كلِّها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وجعله نعمة على الإنسانية كلِّها فقال جلَّ ذكره: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، كما يتوعَّد الله ﷻ مَن يعبده بغير دين الإسلام بالخسران، فيقول تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، أمَّا حديثه عن تبديل الأحكام فلا ندري أيُّ سلطانٍ سوَّغ له ذلك؟! إنَّ الرَّسول نفسه لم يستطع أن يغيِّر أو يحرِّف شيئًا ممَّا كان ينزل عليه لإبلاغه للنَّاس، فإنَّ مهمَّته كرسول لم تتجاوز تلقِّي الوحي من جبريل، ثمَّ إبلاغ مضمونه للنَّاس كما هو دون زيادة أو نقصان لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، كما أنَّ مهمَّته هي التَّبشير والإنذار، فلم يستطع عليه الصَّلاة والسَّلام أن يفعل شيئًا يخالف به حدود الله وشرعه، وإلى القارئ ما =

صفة الباب وتآليفه

كان حنطيَّ اللَّون ربعة من الرِّجال، مقرون الحاجبين، طلق المحيَّا، عصبيَّ المزاج، بين البدين والنَّحيل، وألَّف كثيرًا من الكتب أشهرها البيان، وكلُّ كتبه هذه خاليةٌ من الجزالة، مفكَّكة الأوصال، كتب بعضها بالعربيَّة، وبعضها بالفارسيَّة، ووضع أيضًا تفسيرًا لسورة يوسف، والعصر، وألَّف كتاب الأسماء القدسيَّة أيضًا، وكلُّها على حدٍّ سواء.

= قصَّه علينا القرآن مبيِّنًا وظيفة الرَّسول: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧]، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [النّحل: ٨٢]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النَّازعَات: ٤٥] أسلوب قصر وتخصيص؛ أي: أنَّه تعالى قصر مهمَّة النَّبيِّ على الإنذار والتَّبشير، هذا هو الرَّسول الأمين، رسول الهدى والخير، لم يستطع أن يغيِّر شيئًا ممَّا يوحى إليه، فكيف أعطى الباب لنفسه حقَّ التَّغيير ونسخ الإسلام؟ ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٥]. المعلق.

البهاء

واسمه: ميرزا حسين علي المازندراني النُّوري، وأبوه: الميرزا عبَّاس، ويسمِّيه البهائيُّون ميرزا بوزرك، ومعناه: الميرزا الكبير، ومعنى كلمة ميرزا: أمير زاده بالتُّركيَّة أو ابن الأمير بالعربيَّة، وهي كلمة تركيَّة الأصل يمنحها السَّلاطين الأتراك والفرس لمن يشرِّفونه، وأمَّا لقبُ النُّوريِّ فهو نسبة إلى بلدة نور، من ضواحي مازندران في شمال إيران قرب بحر قزوين، منحها ملوك القاجار لأجداد البهاء الَّذين نُسبوا إليها، ولم تُنسب إليهم.

يقول البهائيُّون في ترجمته: إنَّه ولد بطهران يوم الثُّلاثاء (٢٠) محرَّم سنة (١٢٣٣هـ) الموافق لـ(١٢) تشرين الثَّاني سنة (١٨١٧م)، أي: أنَّه ولد قبل الباب بسنتين كاملتين، وكان ثاني أولاد أبيه وهم: محمَّد حسن، وحسين علي البهاء، فموسى، فتقي، فرضا قلي، فيحيى المسمَّى صبح أزال، ثمَّ محمَّد قلي، وكان حسين علي ويحيى ومحمَّد قلي أشقاء، وقد نشؤوا جميعًا في حجر أبيهم بطهران فتعلَّموا ما تيسَّر لهم من العلوم في وقتهم، وكان أبوهم من كُتَّاب البلاط القاجاري، لكنَّ البهائيِّين يقولون: إنَّه كان من الوزراء في سلطنة فتح علي شاه فأراد أن يسند إليه منصب أبيه فأبى، ولمَّا أعلن الباب دعوته اتَّبعه البهاء، ولاقى في ذلك من التَّعذيب ما لاقاه البابيُّون فصودرت أملاكه، وعُذِّبَ وسُجِنَ ونُفِيَ، وقال أتباعه أيضًا: إنَّ أعظم

قيدين قُيِّدَ بهما البهاء كانا في سجن طهران، ويوم إعدام الباب كان مسجونًا فيه أيضًا.

وذكر محمَّد زوندي في كتابه أنَّ البابَ لمَّا علمَ بقُربِ أجله وأنَّه سيُعدَمُ جمعَ مخطوطاتِه، وخاتَمَه، ومقلمَتَه، ومصحَفَه في جَعبةٍ، وأرسلها في صحبةِ مُلَّا باقر ليسلِّمَها إلى الملَّا عبد الكريم القزوينيِّ في مدينة قُمَّ، ولمَّا وصلتِ الأمانةُ إلى الملَّا عبد الكريم قال: إنَّه مأمورٌ بإيصالها إلى الميرزا حسين علي المازندراني، وبسببِ ذلكَ انتزعَ الميرزا حسين علي من كبار البابيِّينَ مقامَ الرِّئاسةِ عليهم، وسمَّى نفسَه بهاءَ الله.

وهناك أخبارٌ تثبتها التَّواريخُ، ويُلَمِّحُ إليها البهائيُّون في بعض كتبهم فيقولون: التقى البهاءُ البابَ أوَّل مرَّةٍ بينَ قُمَّ وقزوين حينَ كانَ البابُ منفيًّا إلى أذربيجان، فأغرى بالرِّشوةِ رئيسَ حرسِ سجنِهِ المسمَّى جابارجي، فجمعهُ به وكانَ معَ البهاءِ أخوه يحيى الَّذي سُمِّيَ بعدُ صبح أزل، فبايعاه على تصديقه، وعاهداه على الدَّعوةِ إليه.

وقبل أن يُعدَمَ البابُ عَرَّضَ بأنَّ الَّذي سيخلُفُهُ شابٌّ اسمه يحيى الملقَّب بصبح أزل وهو شقيق البهاء المتقدِّمُ ذكرُهُ، ولما شدَّد الشَّاه عليهم بعد مقتل الباب وتعقَّبَهُم بالقتل في الأماكن جميعها فرَّ كثيرٌ منهم إلى بغداد، وكانت حكومة طهران قد نفت يحيى صبح أزل، وحسين علي البهاء في آل بيتِهما ونفرًا من أتباعهما إلى بغداد، فالتفَّ الفارُّونَ عليهما معتقدين أنَّ خليفة الباب فيهم هو يحيى صبح أزل، إلَّا أنَّ صبح أزل قد اختفى عن أعينِ النَّاس بإقناع أخيه البهاء،

وادَّعى أنَّه حاضرٌ بينَهم، ويراهم من حيث لا يرونه؛ لأنَّه لا تدركه الأبصار وهو يدركها.

يقال: إنَّ الإنكليز أخفَوه، حيث أخذوه إلى جزيرة قبرص ليستريحَ منه أخوه حسين علي، وفي أثناء هذا الغياب والاحتجابِ أعلن البهاءُ للمُخلِصين إليه أنَّه الموعود به وذلك في (٢١) نيسان سنة (١٨٦٣م)[١] في الموضع المعروف بباع رضوان أو حديقة الرُّضوان، فقال: إنَّه هو الَّذي بشَّرَ به الباب، وإنَّ البابَ منه بمنزلة يحيى من عيسى، وأنَّ عيسى وموسى ومحمَّد إنَّما بُعِثُوا ليبشِّروا بمجيئه، وظهورِ الله فيه، إلى غير ذلك مِمَّا يدَّعيهِ.

ثمَّ قال: إنَّ الدِّيانات جميعَها جاءت مقدِّماتٍ لظهوره، وأنَّها ناقصةٌ لا يكمِّلها إلَّا دينه، وأنَّه المتَّصفُ بصفاتِ الله من دون الله، وهو مصدرُ أفعال الله، وأنَّ اسمَ اللهِ الأعظمَ اسمٌ له، وأنَّه المعنيُّ بربِّ العالمين، وأنَّه المعنيُّ بـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القِيَامَة: ٢٢-٢٣]، وأنَّه المعنيُّ بوجه الله، والنَّبأ العظيم، وبقبَّة الله، وأنَّه جمالُ الله الأبهى، ومظهرُ الله الأكمل، وأنَّه الموعودُ، وجمالُ القدم، والجمالُ المبارك.

وكما نسخَ الإسلامُ الأديانَ الَّتي سبقته فالبهائيَّة تنسخُ الإسلام[٢]، وأنَّه المعنيُّ بربِّ الجنود، وربِّ المماليك في التَّوراة، وأنَّ مجيئه هو السَّاعة الكبرى، وقيامه هو القيامة، ورسالته هي البعث، وفي اتِّباعِهِ

(١) أي: سنة (١٢٧٩هـ).

(٢) رددنا على هذه الفِرية بهامش (ص١١) السابقة.

الجنَّةُ، وفي مخالفتِه النَّارُ، ولذلك كان البهاءُ ومن تبعه يتظاهرون باحترام الأديان الأخرى؛ ليوحيَ إليهم أنَّ دينَكُم جاء مُبشِّرًا بدعوتي أو بقيامي.

وبقيت دعوةُ البهاء في بغداد سرًّا لا يعرفها إلَّا من أخلص له، ومنهم أخوه موسى الَّذي لقَّبَهُ بالكليم، ثمَّ أوعزت حكومة طهران إلى حكومة تركيا أنَّ بقاءَ مُدَّعي النُّبوَّةِ في بغدادَ خطرٌ، فطلبته تركيا إلى الأستانة، وطال السَّفر من بغداد إليها ثلاثة أشهر، لَقِيَ فيها منَ العذابِ أَشَدَّهُ، وأقام في الأستانة أكثر من سنةٍ ونصفٍ هو وأخوه وعائلتُهما وأتباعُهما، وكانوا أكثرَ من سبعين تعرَّضوا للعذاب والسِّجنِ والبرد تحتَ مراقبةٍ شديدةٍ، إلَّا أنَّ السَّلطنة توجَّسَتْ منهم شرًّا فنفتهم إلى أدرنة، وفيها دعا صبح أزل النَّاسَ إلى ضلالة الباب، فامتَعَضَ(١) البهاءُ خوفًا على دعوته وطمعًا في الأمر لنفسه، وما أشار على أخيه بالاحتجاب، - أو كما قلنا: أخفاه الإنكليز في قبرص - إلَّا ليستبدَّ بالأمر دونه.

قيل: إنَّ سبب ظهور صبح أزل للنَّاس أنَّ البهاء دسَّ له السُّمَّ في طعامه، فأحسَّ صبح أزل بذلك، وعلم أنَّ احتجابَه قد يضرُّ بدعوته، وهنا وقع الشِّقاقُ(٢) بين الأخوين، وادَّعى كلٌّ منهما أنَّ أخاه كذَّاب

---

(١) معض من ذلك الأمر: غضب وشقَّ عليه. انظر: لسان العرب، ابن منظور (٦/ ٤٢٣٣).

(٢) الشقاق: العداوةُ بين فريقين والخلافُ بين اثنين. انظر: لسان العرب، (٤/ ٢٣٠١).

دجَّال، وبخلافهما انشقَّ البابيُّون في أدرنة إلى فرقتين: أزليَّة اتَّبعت صبح أزل، وبهائيَّة اتَّبعتِ البهاء، في حين كانت فئةٌ ثالثة وهي البابيَّة الأصليَّة، والقرتيَّة بقايا أتباع قرَّة العين، ومن العجيب أنَّ الأزل والبهاء لم يقفا عند هذا الحدِّ من تكذيب بعضهما، بل ادَّعى كلٌّ منهما أنَّه نبيٌّ مرسلٌ أوحيَ إليه بشرعٍ جديدٍ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما أنزل عليه ما يكذِّب أخاه، فكان الأزل يلقِّب أخاه بالعجل، ويقول - زاعمًا أنه - أُنزِل عليه: ولقد جاءكم نورين من لدنَّا مصدِّقًا لما معكم منَ الكتاب أنِ اتَّقوا الله ولا تتَّخذوا العجلَ من بعده وأنتم تعلمون، خذوا ما أظهرنا بقوَّةٍ ثمَّ أعرِضوا عن الإثم لعلَّكم ترحمون، إنَّ الَّذين يتَّخذون العجل من بعد نور الله أولئك هُمُ المشركون.

ويقول البهاء - وكان ينعت أخاه بالكافر أو المشرك -: إيَّاكم أن تتمسَّكوا بالَّذي كفر بلقاء الله وآياتِه وكان من المشركين في كتابٍ كان بإصبع الحقِّ مرقومًا، أيقن بأنَّه ما أراد إلَّا أعظميَّة هذا الظُّهور على المذكور والمستور.

وأخيرًا أحسَّتِ الدَّولة العثمانيَّة بالشَّرِّ، فاتَّفقت مَعَ سفير الشَّاه في القسطنطينة على تغيير مكان نفيهما والتَّفريقِ بينَهما، فنفتِ الأزل وحزبَه إلى قبرص، ونفتِ البهاء وحزبه إلى عكَّا وسجنتهم في قلعتها، وبثَّت عيونًا من حزب الأزل على البهاء، ومن حزب البهاء على الأزل، يرصدون أعمالها ويخبرون بها الدَّولتين، إلَّا أنَّ البهاء كان أشدَّ يقظةً من أخيه، فأباد رقباء الأزل في ليلةٍ واحدةٍ طعنًا بالحِرَابِ وضربًا بالفؤوس، وبذلك تضعضع شأنُهُ وخفَتَ صوتُه، وقويَ أمرُ

البهاء وانبسط نفوذه، وادَّعى خلافةَ الباب، ثُمَّ النُّبوَّة، فالمسيحيَّة، وأنَّه عيسى قد نزل من السَّماء، ثمَّ بعد ذلك ادَّعى الرُّبوبيَّة، فالألوهيَّة.

ولم تقتصر دعوى الزَّعامة البابيَّة على البهاء وصبح أزل، بلِ ادَّعاها كثيرون غيرُهم حتَّى بلغوا المئات، وكلُّ زعيمٍ له أتباع، والأتباع حيارى لا يدرون ماذا يفعلون، حتَّى انتهت إلى ماَ ذكرنا.

وكان نفيُهم من أدرنة إلى عكَّا سنة (١٢٨٥هـ)، وفي عكَّا كبِّل بالحديد هو وأفراد من حزبه، وأُلْقُوا في ظلمات السِّجن يُسامون الخسفَ وسوءَ العذاب، ثمَّ أُطلِق سراحهم تحت الرَّقابة الشَّديدة شهورًا وأعوامًا، ولكنَّ ضعفَ الدَّولة وانشغالَها بالفتن الدَّاخليَّة والشَّفيع القويِّ - وهو الدِّينار - خفَّت تلك الرَّقابة، فانبسط نفوذُ البهاء وعَظُمَ سلطانه واستمرَّ يعمل لدعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، حتَّى مات في (٢٨) مايو سنة (١٨٩٢م) الموافق لذي القعدة سنة (١٣٠٩هـ)، وعمره (٧٥) سنةً شمسيَّةً أو (٧٦) سنةً وعشرةَ أشهرٍ قمريَّة، قضاها في التَّشرُّد والعذاب والسَّجن، قال أتباعه: إنَّ البهاء مات بالحمَّى تشبيهًا بموتة النَّبيِّ محمَّد ﷺ، كما هي عادتهم في التَّشبيه، ويقولون: إنَّ التَّاريخ يعيد نفسه.

وبعد موته بتسعة أيَّام، اجتمعتِ الأسرة وبعض الأتباع وفضُّوا الوصيَّةَ الَّتي هي كتاب العهد وفيها: إذا غيض بحر الوصال، وقُضِيَ كتابُ المبدأ والمال، توجَّهوا إلى من أراد الَّذي انشعب من هذا الأصل القديم، يريد به عبَّاس.

وقد قام عبَّاس بالأمر بعد أبيه كما قام به في حياة أبيه، ودان له البابيُّون والبهائيُّون، وقدَّسوه تقديسَهم لأبيه، ومحا من أحكام أبيه ما محا، وأثبت ما شاء إثباته، وكتب وصنَّف، إلَّا أنَّ أخاه محمَّد علي انشقَّ عنه متمرِّدًا عليه، وانضمَّ إليه بعض الأتباع، وأنكروا على عبَّاس إثباتَه ومحوَه، ولكنَّ عبَّاسًا كان أقوى عزمًا، وأعظمَ دهاءً ومكرًا، وأكثرَ أتباعًا، فَكَادَ لأخيه حتَّى أبعده، وسمَّاه ناقصًا ومارقًا حتَّى هلك.

وللبهاء خمسة بنين:

الأول: عبَّاس، لُقِّبَ بغصنِ الله الأعظم، وبالفرع الكريم المتشعِّب من الأصل القديم، وسمَّى نفسه بعد موتِ أبيه عبدَ البهاء، ولد في (٥) جمادى الأولى سنة (١٢٦٥هـ).

الثَّاني: مهدي، لقَّبه أبوه بغصن الله الأطهر، سقط من سطح البيت في بغداد فمات، وأبَّنه أبوه وعدَّه فداءً للأمَّة البهائيَّة، كالمسيح عند النَّصارى.

والثَّالث: محمَّد علي، لُقِّبَ بغصن الله الأكبر، وهو مَن خرجَ على أخيه عبَّاس وضياء الله وبديع الله، ولُقِّبَا بالغصنين، وكلُّهم ماتوا ولم يُعْقِبُوا[١]، وله من البنات أربعٌ فقط.

---

(١) أعقب الرجل: إذا مات وترك عقبًا؛ أي: ولدًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣/ ٤٠٠).

صفة البهاء

أمَّا فيما يخصُّ صفة البهاء فلم أعثر على شيءٍ من ذلك في كتب البهائيَّة، فهو عندهم محاطٌ بالتَّقديس، وقيل عنه: إنَّه ربعةٌ من الرِّجال، جميلٌ واسعُ العينين ساحرُهما، أسودُ الشَّعر حتَّى في أيَّامه الأخيرة، ولعلَّه كان يصبغ بالأسود، وكان نتاجه في الكتابة غزيرًا، وأغزر من نِتَاجِ الباب، ولعلَّ طولَ عمرِهِ جعلَ له هذه المكتبة من التَّآليف، وسمَّى كلَّ مؤلَّفاتِه الألواحَ، وما وضعه في الأدعية سمَّاه المناجاة.

شيء من تفسير البهائيَّة للقرآن

والبهائيُّون يتَّبعون في تفسيرهم للقرآن الكريم المغالطةَ والتَّدليسَ، ولا غرابة! فقد سبقهم من يتَّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ومن تفسيراتهم هذه:

المثال الأوَّل:

تفسيرهم للآيات (٢٨ و٢٩ و٣٠) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٠].

يفسِّرها القومُ أنَّه متى انتهى دورُ رسولكم يُبعَثُ رسولٌ غيرُه، فتنقسمون إلى فريقين كما انقسمتم أمامَ رسولِكم لمَّا دعاكم، فريقٌ استمع له وآمن بدعوته فاهتدى، وفريقٌ أعرضَ فحقَّت عليه الضَّلالة فشقي، فهم يفسِّرون قولَ الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، ويتركون ما قبلَها للمغالطة، فهم - والحال هذه - يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

المثال الثَّاني:

وتفسير الآيات (٤٦ إلى ٤٩) من سورة يونس: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ

ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٦-٤٩].

فسَّرها القوم أنَّ ذلك إنذارٌ بنهاية أجل محمَّد ﷺ، وأنَّه لمَّا سئل عن ذلك قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠] و﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] وإنَّما ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]، وهنا تناقضٌ في قول الجماعة! فإذا كان محمَّد هو الله كما يقولون - تعالى الله عن ذلك - في زمنه، فكيف لا يعرف جواب مثل هذا السؤال الَّذي لا يصعب على الإله؟! وكيف يقول: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ولمَّا قال كفَّار قريش: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧-٨] قال له ربه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

المثال الثَّالث:

وتفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

﴿...(٣٥)﴾ [الأعراف: ٣٥]، يقولون: إنَّها إنذار بإرسال الرُّسل بعد محمَّد ﷺ؛ لأنَّ «إمَّا» تأتي للمستقبل.

ولو تتبَّع حضرة القارئ الآيات في القرآن الكريم وقرأها من أوَّل الآية (٣١): ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣١] إلى آخر الآية: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (٣٧)﴾ [الأعراف: ٣٧] لَفَهِمَ المعنى المقصود منها، ولكنَّهم آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ، وحرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه كما تملي عليهم أهواؤهم، فهم كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النَّمل: ٢٤]، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزُّمر: ٢٣].

المثال الرَّابع:

ومن طريف تفسيرهم سورة التَّكوير: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ (٣) وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ (٤) وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ (٥) وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ (٧) وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ (٨) بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ (١١)﴾ [التّكوير: ١-١١] فسَّروها بما أختصره:

كوِّرتِ الشَّمس؛ أي: ذهبت شمسُ أحكامِ دين محمَّد، وأُبدلَتْ بأحكامٍ وضعيَّةٍ، وانتصرَ الحكمُ الوضعيُّ على السَّماويِّ الشَّرعيِّ، ويفسِّرون دائمًا السَّماء والشَّمس بالدِّين أو العلم.

وانكدرتِ النُّجوم: النُّجوم هم العلماء؛ أي: ضَعُفَ أمرُ علماءِ أمَّة محمَّد.

وسُيِّرَتِ الجبالُ: ذُلِّلت وعُبِّدَتْ فركبتها السَّيَّارة، وخرقتها القُطُر، ولم يبقَ طريقٌ صعبٌ بها.

وعُطِّلَت العشارُ: وهي الإبل الَّتي استُبدِلت بالمراكب النَّاريَّة والكهربائيَّة.

وحُشِرت الوحوشُ: أي: جُمِعَت بحدائق الحيوان، وعرف الإنسان ما كان يجهل منها.

وزوِّجت النُّفوس: الحيوانيِّة والنَّباتيَّة، وظهر منها حيواناتٌ ونباتاتٌ ذاتُ مُمَيِّزاتٍ وصفاتٍ لم تُعرَف من قبلُ.

وسُجِّرَتِ البحارُ: أي: بما سار فيها من مراكبَ ناريَّة، أو بما فُجِّرَ فيها من قنابلَ وطرابيد(١).

ونشرت الصُّحف: ويعنون بها الجرائد والمجلَّات.

وكشطتِ السَّماء: أي: عُرِفَ أن ليس هناك جرمٌ صلبٌ، وإنَّما هو لا نهاية، أو أنَّ سماء العلم المحمَّديِّ كُشِطَت، وعلى هذه الحال ساروا في تحريف الكلم عن مواضعه، وتأويل الآيات بغير ما أُنزِلت له.

---

(١) طرابيد: مفردها: طُربيد، وهي قذيفة ضخمة تطلقها غواصة أو زورق أو طائرة على سفن العدو، أو مواقعه، مصممة للانفجار عند التلامس، أو مجاورة الهدف. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (٢/ ١٣٩٢).

المثال الخامس:

وتفسير الآيتين (٢٧/ ٢٨) من سورة الجاثية: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٧-٢٩].

عرفتم فيما سبق أنَّ السَّاعة يَعْنونَ بها البهاءَ، فقالوا في تفسير الآيتين: إذا قام البهاء خسر المبطلون الَّذين أعرضوا عنه، وحَكَم بين البهاء وكلَّ أمَّةٍ كتابُها المرسل به رسولُها، وقيل لهم: هذا كتابنا الَّذي بعثناه مَعَ رسولكم ينطق عليكم بصدق دعوى البهاء، لكن ماذا يقول البهائيُّ في آخر الآية: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]؟ أعرض عنها؛ لأنَّها لا تفيده في تحريفه الباطل، ولأنَّه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فالتَّأويل الموافق لهواه يأتي به، والمخالف يتركه.

المثال السَّادس:

ومن الحوارات الَّتي حصلت بيني وبين واحد منهم في تفسير الآية (٥٥) من سورة النُّور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾ [النُّور: ٥٥].

يقولون: إنَّ هذه الآية وَعْدٌ لهم، وإنَّهم لا بدَّ ظاهرون ومنتصرون.

قلت: يقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [النُّور: ٥٥] أي: يا أمَّة

محمَّد، قال قائلهم لي: نعم، الَّذين آمنوا منكم يا أمَّة محمَّد بالرَّسول الجديد، موعودِ الأنبياء والرُّسل كلِّهم.

قلت: الموضوع خلاف ذلك، فاقرأ الآيات من أوَّلها، ثمَّ فتحتُ القرآنَ وقرأتُ له: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النُّور: ٥١] إلى آخر الآيات، وقلت: الموضوع هو أنَّ الرَّسول أمر بأمرٍ فأطاعه قومٌ وعصاه آخرون، فقال الله للجميع: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ﴾ [النُّور: ٥٤]، ثم يقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [النُّور: ٥٥]، أي: بما جاء به محمَّد ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ [النُّور: ٥٥] أي: الطَّائعين من قبلهم.

قال: هو كما قلت، ولكنَّ الآية وعدٌ لنا، فإن أطعتَ محمَّدًا واتَّبعت الموعودَ نجوتَ، وإلَّا فهلاكك محقَّقٌ.

قلت: ما قولك بالآية: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؟

قال: الآيةُ ظاهرةٌ، ونحن لا ننكر أنَّه خاتم النَّبيِّين، فكما أنَّ الخاتم حِلْيَةُ اليدِ فكذلك محمَّدٌ حِلْيَةُ الأنبياء، ولو فرضنا أنَّ محمَّدًا خاتِم النَّبيِّين - بالكسر - فليس هو خاتم المرسلين.

قلت: أليس كلُّ رسولٍ نبيٌّ؟

قال: لا، هذه عقيدتُك وليست عقيدتَنا؛ لأنَّ مظاهر الأمر إمَّا نبيٌّ فقط، أو رسول فقط، أو نبيٌّ رسول.

وبعد سكوت قصير قال: نحن نعظِّم محمَّدًا أكثر منكم.

قلت: كيف؟

قال: لو أنَّ محمَّدًا قال لي: يا فلان، لقلت: لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك.

قلت: أستغفر الله من ذلك.

قال: لأنَّه ينطقُ بلسانِ اللهِ، ولا ينطقُ عنِ الهوى، فيدُه يدُ الله، ولسانُه لسانُ الله، وأمرُه أمرُ الله، ووجهُه وجهُ الله.

فقمتُ وأنا أستغفر الله من ذلك وأقول: اللَّهمَّ ثبِّت قلبي على دينك، وأتلو هذه الآية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١١٥].

المثال السَّابع:

ويفسِّرون الفتحَ في سورة النَّصرِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾﴾ [النّصر: ١]، بظهور أمرهم، وأنَّه متى دخلَ رجلٌ منهم بلدًا ليس فيها بهائيٌّ فقد فتحها، سواءٌ اِتَّبعه أحدٌ أمْ لا.

المثال الثَّامن:

ويفسِّر الآية السَّادِسةَ بعد المئة من سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البَقَرَة: ١٠٦] أنَّ النَّسخ هو استهانةُ النَّاس بالحكم القرآنيِّ واستخفافُهم به، فمتى حصل ذلك فالدِّينُ البهائيُّ أو بيتُ العدل يشرِّعُ للنَّاس ما هو خيرٌ منه.

المثال التَّاسع:

ومن تأويلهمُ المضحكُ - وشرُّ البليَّةِ ما يُضحك - لآياتٍ من سورة الرَّحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحمٰن: ١-٤].

أنَّ الرَّحمن علَّم محمَّدًا القرآن، وخلق الإنسان؛ أي: الباب، وعلَّمه البيان؛ أي: كتاب البيان الَّذي تنزَّل الشَّيطانُ به على الباب، ومن العجب أنَّهم يدَّعون ربوبيَّة الباب، فهل نزَّل البيانَ على نفسه؟! أم هو مَنْ علَّمَ نفسَه؟! سؤالٌ جوابه عند البابيِّين، ومِنْ خلفهم البهائيُّونَ.

المثال العاشر:

ويستدلُّون على ظهورِ أمرِهم بظهورِ دولةِ إسرائيل قائلين: إنَّ القرآن أقرَّ بذلك وأعوذ بالله من هذا، فالقرآنُ أجلُّ من أن يدَّعي هذا، فاليهود ألدُّ أعداء دين الله وقرآنِه، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء: ٤-٧](١).

(١) هذه الآيات تقصُّ علينا وقوع الفساد مرَّتين من بني إسرائيل نتيجة علوِّهم وكثرة =

والآيات كما يقول بعض المفسِّرين: إنَّها شرحٌ للتَّاريخ الَّذي ذكرته كتبُ بني إسرائيل من فتحِ البابليِّينَ بيتَ المقدسِ أيَّامَ نبيِّهم دانيال، ثُمَّ استعادتَهم ملكَهُم، ثُمَّ طغيانَهم وتفرُّقَهم، ثُمَّ فتحَ الفرسِ لبلادهم في المرَّةِ الآخرة، أمَّا البهائيُّون فيقولون: إنَّ وعدَ الآخرة هو وعدُ قيامةِ البهاءِ، وإنَّهم - أي: بنو إسرائيل - ليسوءوا وجوهَكم يا بني الإسلام، ويدخلوا المسجدَ كما دَخلوهُ أوَّلَ مرَّةٍ، فيشكِّلون فيه حكومَتَهُم كما شكَّلوها من قبلُ في عهدِ داودَ وسليمانَ عليهما السَّلام، وهذه من تفاسيرِهِمُ الجديدةِ، تفسيرُ ما بعدَ الحربِ طبعًا، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التّوبَة: ٣٢].

أمَّا رأيي في تفسيرِ هذه الآياتِ الكريمةِ أنَّها نزلت في مكَّة، والمسلمون ما يزالون ضِعافًا لم يهاجروا، فنزلت إخبارًا عمَّا سيقع من إفساد، فاللَّام في ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ [الإسرَاء: ٤] و﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ [الإسرَاء: ٤] للمستقبل، و﴿فَإِذَا﴾ [الإسرَاء: ٥] للمستقبل أيضًا، وبنو إسرائيل قومٌ

= أموالهم، وأنَّ الله أرسل عليهم في المرَّة الأولى من هذين الفسادين من قضى على بغيهم وفسادهم، فقهرهم ودمَّرهم، أمَّا في المرَّة الثَّانية فسيرسل الله عليهم من يقضي على فسادهم وظلمهم ويقهرهم ويدمِّر علوَّهم، هذا ما تقوله هذه الآيات من سورة الإسراء دون زيادة أو نقصان في المعنى، وعلى ذلك، فإنَّها لا تدل لفظًا ولا معنًى ولا إشارةً على ظهور أمر البهائيِّين، أو أنَّ ظهورهم مرتبطٌ بظهور دولة بني إسرائيل، ولكنَّ البهاء ربط هذه الآيات بظهوره وظهور بني إسرائيل في فلسطين، ليُثبت - كذبًا - حقيقة وجوده، والمعروف باستقراء حوادث التَّاريخ أنَّ الصُّهيونيَّة استخدَمت دعوة الباب ومِن بعدِه دعوة البهاء، كقنطرةٍ للوصول إلى أغراضها، وإثبات مزاعمها في أحقيَّتها لأرض فلسطين. المعلق.

فُطِرُوا على الكيدِ والمكرِ والبغيِ، سواءٌ أكانوا سادةً أم عبيدًا، ولمَّا هاجرَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة كان فسادهم شرَّ فسادٍ في الأرض، فلم يقصِّروا في الكيد برسول الله ﷺ وإيذائه، ومالؤوا[1] المنافقين عليه، وحالفوا المشركين في محاربته، وحاولوا اغتياله، فسلَّط الله عليهم عبادًا له أولي بأسٍ شديدٍ.

والقرآنُ الكريمُ إذا نسب لله عبدًا، كانت هذه النِّسبةُ نسبةَ تكريمٍ كما تذكر الآياتُ الكريمةُ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النّجم: ١٠]، وقال جلَّ شأنُه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩﴾ [الحجر: ٤٩]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزُّمَر: ١٦]، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨﴾ [الزّخرُف: ٦٨] وأَوْلَى النَّاسِ بهذه الصِّفة وهذه النِّسبة هم أصحاب محمَّدٍ ﷺ، الَّذين كانوا خيرَ عبادٍ في أرضه، فقد سلَّطهم على هؤلاء فجاسوا خلالَ الدِّيار، ديارِهم في المدينة، وديارِهم في خيبرَ، وديارٍ قريبةٍ منها، وكان وعدًا مفعولًا.

ولَمَّا ضَعُفَ شأنُ هؤلاءِ المسلمين وقلَّ إيمانُهم، أراد اللهُ أن يعاقبهم بأن يردَّ لليهود الكرَّةَ عليهم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٦] تفيد بأنَّ الَّذين جاسوا خلال الدِّيار مسلمون، والكرَّةُ رُدَّت عليهم عندما

(١) مالأ صديقَه على الأمر، في الأمر: ناصره وماشاه وساعده. معجم اللغة العربية، لأحمد مختار عمر (١/ ١٨٤).

أعرضوا عن دينهم، وقست قلوبهم وفسدوا، فأمدَّ الله عدوَّهم بأموالٍ وبنينَ ومساعداتٍ تُآزرهم بها دولُ البغي والمكرِ والعدوانِ في أوروبة وأمريكا، وشكَّلوا دولتهم في فلسطين، واحتلُّوا المسجدَ الأقصى، وأخذوه من يد المسلمين أحفادِ أولئك الَّذين جاسوا خلال الدِّيار.

ولمَّا كان الكيدُ والمكرُ والبغيُ والظُّلمُ طبائعَ في بني إسرائيلَ، فلن يتركوها ولو طالَ الأمدُ عليهم، لا سيَّما أنَّهم مفطورون على الكفرِ والكُنُودِ[1].

وقد تقرَّرَ أنَّهم سيرجعونَ إلى طبيعتهم وفطرتهمُ الَّتي فُطِروا عليها، وسيأتي الوعد الَّذي يبعث الله فيه عبادًا له، يسوءون وجوههم ويدخلونَ المسجدَ بأمنٍ وسلامٍ، كما دخلوه أوَّل مرَّةٍ بأمنٍ وسلامٍ، وليتبِّروا ما عَلَوا تتبيرًا.

وأظنُّ - والله أعلم - أنَّ هذه الآيةَ إشارةٌ إلى الحديثِ الشَّريف الَّذي أخبر بقتل المسلمينَ اليهودَ، وأنَّ المسلمينَ سيجيئونَ بقوَّةٍ قاهرةٍ ورجالٍ أشدَّاءَ، وسلاحٍ وعتادٍ ويمانٍ صادقٍ، وبأسٍ غالبٍ مُدَمِّرٍ يأتي على بني إسرائيل فلا يحميهم حجرٌ ولا شجرٌ من عباد الله المسلمين[2]، ولكن متى يكون؟ ذلك عِلْمُهُ عند الله، ولن يكونَ إلَّا إذا رَجَعَ المسلمون إلى الإسلام، وكان جهادهم لله وفي سبيل الله

(١) الكُنود: كفران النعمة. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٩/ ١١٤).

(٢) رواه البخاري، رقم: (٢٩٢٦) بلفظ: «لا بقوم الساعة حتى تقاتلو اليهود ... الخ»، ومسلم، رقم: (٢٩٢٢)، بلفظ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ... الخ»

ولإعلاء كلمة الله، يقول ابن مالك ﷺ: «**لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها**»[١].

المثال الحادي عشر:

يقولون: إنَّ الحروفَ في أوائل السُّور مثل: ﴿الٓمٓ ١﴾ [البقرة: ١]، ﴿الٓمٓرۚ﴾ [الرعد: ١]، ﴿حمٓ ١﴾ [غافر: ١] تدلُّ على عمر الأمَّة المحمَّديَّة إذا ما حُسِبَت بالجمل الأبجديَّة، ولكنَّهم خصَّصوا منها ما نزل بعد الهجرة، وتركوا ما نزل قبل الهجرة، واستدلُّوا به على أنَّ عمرَ الدِّين المحمَّديِّ (١٢٦٠) سنةً فقط، أمَّا أنا فحسبته فزاد[٢].

وللحساب الأبجديِّ عندهم شأنٌ، فلو قرأتَ كتابَهُمُ الأقدس فإنَّك لا تجدُ فيه أعدادًا إلَّا بالحروف الَّتي تشير إلى العددِ المقصودِ، فمثلًا: المقت: (٥٤٠)، والبهاء: (٩)، وحي: (١٨)، ويقولون: إنَّ سنة (١٩٦٣م)[٣] هي زمنُ انتشارِ دينِهم في بقاع الأرض جميعها،

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥). ومع ذلك فإن الأمل يحدونا، والرجاء يدفعنا في نصرة الله لنا، فنحن أمَّة إسلاميَّة، تاريخها مملوءٌ بالانتصارات، وغلبتنا على أعدائنا في المستقبل مقرَّرةٌ إن شاء الله، ولو بعد حين.

(٢) نعم، هو في زيادة مستمرة، فها نحن في أواخر القرن الرابع عشر الهجري وما زالت الدعوة المحمدية تنبض بالحركة، وتفيض بالحيوية، وتعيش بين الناس، تزودهم جميعًا بزاد الهدى والخير والفضائل، وتنهاهم عن المنكر والباطل، إنَّ الدعوة المحمدية دعوة إنسانية أبدية خالدة، وباقية بقاء الدنيا، والقول: إن عمرها ١٢٦٠ عامًا فقط دليل واضح على قصر نظر القائل، وضيق أفق تفكيره. المعلق.

(٣) أي: سنة (١٣٨٣هـ).

ولهم على ذلك أدلَّةٌ في التَّوراةِ كأدلَّتهم السَّابقة في القرآن، والزَّمن آتٍ والعزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين كما وعد، وقد مضت سنة (١٩٦٣م) وما بعدها، وما يزال دينُهم قابعًا في أديرتهم، ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: ٨].

ما هي البهائيَّة

سُئِلَ عبَّاس عبد البهاء عن معنى البهائيَّة فأجاب: لَأَن تكون بهائيًّا يجب أن تحبَّ العالم، وتحبَّ الإنسانيَّة، وتجتهدَ في خدمتها، وتعملَ للسَّلام العامِّ، والأخوَّة العامَّة.

ولقد أخذ الجاهلون بالإسلام هذا القولَ أحسنَ مأخذٍ، ووضعوه في الدَّرجة العليا؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ البهائيَّةَ جاءت بشيءٍ جديدٍ لِمَا رأَوا مِن اضطراب العالم، وارتباك جوِّه بعواصف الحروب ونيران الطَّمع.

والحقيقة أنَّ البهاءَ لم يأتِ بجديدٍ، بل كلُّ ما أضافه إنَّما سرقه من الإسلام منبعِ الفضائل ومصدرِ المحاسن، فلقد جاء القرآن قبل ألفٍ وأربعمئة عامٍ بما هو خيرٌ مِمَّا جاء به البهاءُ وعبدُه عبَّاس، فقد قال الله لنا في القرآن: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨]، ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمرَان: ١٠٣]، ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفَال: ٤٦]، ويقول تعالى أيضًا: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٩٣]، ويبدأ المسلم دخولَه المسجد بالسَّلام، ويختِمُ صلاتَه أينما كان بالسَّلام، ويقول نبيُّ الإسلام عليه السَّلام: «**لن تؤمنوا حتى تحابُّوا**»(١)، ويقول: «**لا يؤمن**

(١) رواه النسائي، رقم: (٥٩٢٨).

أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(١)، لكنَّ المسلمين جهلوا دينهم، واتَّخذ الدُّعاةُ هذا الجهلَ ذريعةً لنشر ضلالهم، وبثِّ فسادهم.

فمهلًا يا عبَّاس ويا أتباع عبد البهاء، إن كنتم أتيتم بما يعجب النَّاس، فإنَّها ليست من وضعكم ولا من وضع بهائكم، وإن حكمتم أحكامًا وسننتم سُننًا فإنَّما هي من تشريع الله في القرآن الكريم، سرقتم فبدَّلتم، وغششتم بها عقولَ الضُّعفاءِ الجاهلين دينَهم، وأضللتم بها من أضلَّ الله، ومن يضلل الله فلن تجد له هاديًا، ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢]، ولنختصر الطَّريق إلى معرفة شيءٍ من هذا الدِّين البرَّاقِ ظاهرُه، المظلم باطنُه، الَّذي تطفَّل واضعُهُ على موائد غيره، فأخذ من كلِّ دينٍ سُنَّةً، ومن كلِّ تشريعٍ شريعةً، وجاء بها مُرقَّعةً لا تتَّصل بالحقِّ بأيِّ صلةٍ، مدَّعيًا أنَّ الله أوحى إليه بها، فهو كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ٩٣]، والحقيقة أنَّ الشَّياطين تنزَّلت بها، والشَّياطين لا تتنزَّل إلَّا على كلِّ أفَّاكٍ أثيم، ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

ولنورد بعضَ فِقْرَاتٍ قالها البهاء في أقدسه الَّذي ضمَّنه أحكامَ شريعته، وإليك ما قاله بحرفه ولحنه:

قال البهاء في تربية الأولاد: كُتِبَ على كلِّ أبٍ تربيةُ ابنه وبنته

(١) رواه البخاري، رقم: (١٣).

بالعلم والخطِّ وما دونها، والَّذي ترك ما أمر فللأُمَنَاء أن يأخذوا منه ما يكون لازمًا لتربيتهما إن كان غنيًّا، وألَّا يرجعَ إلى بيت العدل، إنَّا جعلناه مأوًى للفقراء والمساكين، إنَّ الَّذي ربَّى ابنَه، أو ابنًا من الأبناء، كأنَّه ربَّى أحدَ أبنائي، عليه بهائي وغايتي ورحمتي الَّتي سبقت العالمين.

هذا ما يقوله البهاء في التَّربية، فقد ترك تنميةَ العقلِ وتثقيفَه وإصلاحه، فأين هذا الهراء ممَّا جاء به الإسلام؟! إنَّه يأمر بتهذيبِ العقلِ وتشذيبِ أفكارِه قبل تحصيل العلم؛ إذ لا فائدةَ للعلمِ دون عقلٍ راجحٍ، وفكرٍ ثاقبٍ قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرَّعد: ١٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزُّمَر: ٢١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢].

ويقول البهاء في عزَّة النفس: قد حُرِّمَ عليكم تقبيلُ الأيادي في الكتاب، هذا ما نُهيتُم عنه من لدن ربِّكم العزيز الحكَّام.

لم أعرف مرادَه من قوله: تقبيل الأيادي، هل قَبول النِّعمة؟ أي: أنَّ الأيادي كناية عن النِّعمة، أو أنَّ اليد جمع اليد؛ أي: العضو

الجسدي، وكلامه شاذٌّ لم يرِد في اللُّغة إلَّا نادرًا.

وقال أيضًا ما ترجمته عن الفارسيَّة: يا ابن الرُّوح، خلقتك غنيًّا كيف تفتقر؟! وصنعتك عزيزًا لِمَ تستذلَّ؟! ومن جوهر العلم أظهَرْتُك لم تستعلم عن دوني؟! ومن طيفِ الحبِّ عجنتكَ كيف تشتغل بغيري؟! فأرجعِ البصرَ إليكَ لتجِدَني فيكَ قائمًا مُقتدرًا قيُّومًا.

وإذا تأمَّل حضرةُ القارئ الفِقْرَةَ الأخيرةَ من هذه العبارة يجد فكرةَ وحدةِ الوجود قائمةً فيها، والقرآن أخبر المؤمنين بما هو خيرٌ من ذلك، إنَّه يقول: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٩]، ويقول نبيُّ الإسلام ﷺ: «**إنَّ من أخلاق المؤمن قوَّةً في دينٍ، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وحرصًا في حلم، وشفقةً في مقتٍ، وحلمًا في علم، وقصدًا في غنى، وتجمُّلًا في فاقةٍ، وتحرُّجًا عن طمع، وكسبًا من حلالٍ، وبرًّا في استقامةٍ، ونشاطًا في هدًى، ونهيًا عن شهوةٍ، ورحمةً للمجهود**»(١).

ولو قرأ القارئ سورةَ الأنفالِ وتأمَّلَ معناها، لَرَأى من أوامر الإسلام العظيمة في عزَّة النَّفس ما يغنيه عن كلِّ ما أُلِّف من مجلَّداتٍ في ذلك.

وعلى كلِّ حالٍ، فنبيُّ الإسلامُ ﷺ يقول: «**المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ**»(٢)، ويقول

(١) أورده المتَّقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٦٦٩).

(٢) رواه مسلم، رقم: (٢٦٦٤).

أيضًا: «**مِن اعتزَّ بالعبيد أذلَّه الله**»(١).

ويقول البهاء في لوحه المسمَّى لوحَ الطِّبِّ في المحافظة على النَّفس: لا تتركوا العلاج عند الاحتياج، ودعوه عند استقامة المزاج.

ويقول في كتابه الأقدس: إذا مرضتم فارجعوا إلى الحُذَّاقِ من الأطباء، إنَّا ما رفعنا الأسباب بل أثبتناها من هذا القلم.

أمَّا الدِّين الإسلاميُّ، فقد أمر بالمحافظة على النَّفس والابتعاد عن كلِّ ما يقرِّب من المرض أو الهلكة تطبيقًا لمعنى: الوقاية خيرٌ من العلاج، وكلُّنا يعرف قصَّة الصَّحابيِّ الَّذي شُجَّ في رأسه، ثمَّ احتلم، فلم يرخِّص له أصحابه التَّيمُّم، فاغتسل فمات، فلمَّا قدموا على النَّبيِّ ﷺ وأُخبر بذلك قال: «**قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنَّما شفاء العيِّ السُّؤال، إنَّما كان يكفيه أن يتيمَّم ويعصبَ على جرحه خِرقة، ثمَّ يمسح عليها ويغسل سائر جسده**»(٢) فلم يُرِدْ رسولُنا الكريم أن يتأذَّى المرء في سبيل تطبيق ما قاله ديننا الحنيف، بل رُخصُ الله كثيرةٌ، والأمر فيه متَّسعٌ وراحةٌ.

ولمَّا كانتِ المعدة بيتَ الدَّاء فقد قال القرآن العظيم: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: ٣١]، ويقول نبيُّ الإسلام ﷺ: «**إنَّ لِكُلِّ دَاءٍ دواءً، فإذا أُصِيبَ دواءُ الدَّاءِ بَرِئَ بِإِذْنِ اللهِ**»(٣).

(١) أورده المتَّقي الهندي في كنز العمال، رقم: (٢٥٠٤٢).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٣٣٦).
(٣) رواه النسائي، رقم: (٧٥١٤).

ويقول البهاء في أقدسه في المُسكرات: ليس للعاقل أن يشربَ ما يُذهِبُ العقلَ، وله أن يعمل ما ينبغي للإنسان، لا ما يرتكبه كلُّ غافل مريب، وفي موضع آخر من الأقدسِ نفسِه يحرِّم الأفيون تحريمًا قطعيًّا[١].

ويظهر من كلامه أنَّه لا بأس بشرب ما يذهب العقل، إنَّما ينبغي للإنسان ألَّا يرتكبَ ما يرتكبُه الغافلُ المريبُ فيُكْثِر ويسكر.

وإذا أخذنا بكلام البهاء، فلا بأسَ بشربِ القليلِ من المسكرات، ما دامت لا تُذهب العقلَ، ولا تغير السُّلوكَ العاديَّ.

لكن ما ينبغي لنا علمه أنَّ مَنْ شَرِبَ الكثيرَ من المشروباتِ فسَكِرَ، فالقليلُ منه حرامٌ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ: «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**»[٢].

كما أنَّ المعوَّل عليه ليس في مادَّة الخمر نفسِها، بل فيما تؤدِّيه أيَّةُ

---

(١) حين يحرِّم البهاء في أقدسه الأفيون تحريمًا قاطعًا دون باقي المسكرات، فإنَّه لم يأتِ بجديد من عنده، ولا سابقة ينفرد بها عن غيره، فقد سبقه النَّبيُّ ﷺ إلى تحريم كلِّ ما هو مسكرٌ، إذا كان أفيونًا أو غيره ممَّا يكون في تعاطيه ذهاب بالعقل وخروج بالإنسان عن طبيعته، فقد روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قوله ﷺ: «**كلُّ مسكر خمرٌ وكلُّ خمرٍ حرام**»، وروى الإمامُ أحمد في «مسنده» وغيره عن جابر بن عبد الله، وعن عبد الله بن عمرو أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام**»، إنَّ الإسلام سبق البهاء في تحريم كلِّ ما يخامر العقل من أفيون وغيره فلا يوهم البهاء النَّاس أنَّ في دعوته من المحاسن والخير ما يغريهم باتِّباعها. المعلق.

(٢) رواه النسائي، رقم: (٥٠٩٧).

مادَّة تلبس لبوس الخمر، وتُسكِرُ من يتعاطاها وتفقده اتِّزانَه، وتذهب بعقله فإنَّ كلَّ ما أسكر فهو خمرٌ؛ لأنَّه يخامر العقل، ويستره عن رؤية الأشياء على طبيعتها.

ويقول في أقدسه في بحث النَّظافة والتَّجمُّل: إنَّا ربَّيناكم بسياط الحكمةِ والأحكامِ حفظًا لأنفسكم، وارتفاعًا لمقاماتكم، كما يربِّي الآباء أبناءهم، لعمري لو تعرفون ما أردناه لكم من أوامرنا المقدَّسة لَتُفْدُنَّ أرواحكم لهذا الأمر المقدَّس العزيز المنيع.

ويقول أيضًا: تمسَّكوا باللَّطافة - يعني: النَّظافة - في كلِّ الأصول؛ لئلَّا تقعَ العيونُ على ما تكرهه أنفسُكم وأهلُ الفردوس، والَّذي تجاوز عنها يحبط عمله في الحين.

ونراه يوجب الاغتسالَ بالماء والصَّابون، أو ما يقوم مقامَه مرَّةً في كلِّ أسبوعٍ، كما أنَّه يوجبُ على أتباعه تعلُّمَ الصِّناعة، فيقول في كتابه الأقدس: يا أهل البهاء، قد وجب على كلِّ واحدٍ منكم الاشتغال بأمر من الأمور من الصَّنائع والاقتراف وأمثالها، إنَّا جعلنا اشتغالكم بها نفس العبادة لله الحقِّ، تفكَّروا يا قومي في رحمة الله وألطافه، ثمَّ اشكروه بالعشيِّ والإشراق، لا تضيِّعوا أوقاتكم بالبطالة والكسالة، واشتَغِلوا بما تنتفع به أنفسُكم وأنفسُ غيرِكم، كذلك قُضِيَ الأمرُ في هذا اللَّوح الَّذي لاحَت من أُفُقِهِ شمس الحكمة والبيان، أبغضُ النَّاس عند الله من يقعد ويطلب، تمسَّكوا بحبال الأسباب متوكِّلين على الله مسبِّبِ الأسباب.

ولعلَّ قارئًا يقول: ليس في الإسلام من ذلك شيءٌ؛ لأنِّي أرى

أغلب الشَّاذِّين من المسلمين لجهلهم دينَهم قال ذلك، ولكنَّ الحقيقةَ أنَّ الدِّين الإسلاميَّ حرَّم السُّؤالَ على المسلمين، حيث قال ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ أَوْ خُدُوشٌ**»(١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سيُّدنا محمَّد ﷺ: «**إنَّ المسألة لا تصلح إلَّا لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دمٍ موجع**»(٢).

ويقول أيضًا ﷺ: «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، فيبيعها خير له من أن يسأل رجلًا أعطاه أو منعه**»(٣).

والدِّين الإسلاميُّ يأمر في أحاديثَ كثيرةٍ ذَكَرتها كتب السُّنَّة بالزِّراعة والصِّناعة والتِّجارة والعمل، ولقد شارك النَّبيُّ ﷺ أصحابه في أعمالهم، وقال: «**أشدُّ النَّاس عذابًا يوم القيامة المكفى الفارغ**»(٤).

وأمَّا النَّظافة والتَّجمُّل فقد حثَّ الدِّين الإسلاميُّ عليهما، ونكتفي بذكر هذه الآية الكريمة الجامعة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

(١) رواه الدارقطني، رقم: (٢٠٠٠).
(٢) رواه ابن ماجه، رقم: (٢١٩٨).
(٣) رواه البخاري، رقم: (٢٠٧٤).
(٤) أورده السيوطي في الجامع الصغير، رقم: (١٨٧٨).

ولم يحرِّم البهاءُ في أقدسه ما حرَّم الله تعالى في القرآنِ من أخوات أو بنات أو عمَّاتٍ أو خالاتٍ، وإنَّما حرَّم زوجات الآباء فقط فقال: قد حرَّمتُ عليكم أزواجَ آبائكم، إنَّا نستحي أن نذكر حكم الغلمان، اتَّقوا الرَّحمن يا ملأ الإمكان، ولا ترتكبوا ما نهيتم عنه في اللَّوح، ولا تكونوا في هيماء[١] الشَّهواتِ من الهائمين.

ولعلَّه ترك تحريم الباقيات من الأمَّهات والبنات وغيرهنَّ إلى قرار أعضاء بيت العدل، كما استحى من ذكر حكم الغلمان من تقبيحٍ أو تسويغٍ أو تحريمٍ، ولعلَّه رأى أنَّ ذلك من مكمِّلات المدنيَّة كما كان في عهودٍ مضت لبعضِ الطَّوائف.

وقيل: - والله أعلم - إنَّ قضيَّة التَّحريم كانت سببَ الشِّقاقِ بين عبَّاسٍ وأخيه محمَّد علي؛ إذ لم يرَ محمَّد علي إثباتَ حكمِ البهاءِ في تحريمِ زوجاتِ الآباءِ، وأنَّ عباسًا أبطلَ حكمَه في ما يتعلَّقُ بنكاحِ الأختِ وغيرِها.

وفي المواريث: ينزع من التَّركة - بعد تجهيز الميِّت تجهيزًا كاملًا - من كلِّ مئةٍ تسعة عشر سهمًا لبيت العدل، والباقي يوزَّع على اثنين وأربعين سهمًا؛ ثمانية عشر منها للأولاد يساوى فيها بين الذَّكر والأنثى، وللزَّوج أو الزَّوجة ستَّةُ سهامٍ ونصفٌ، وللأب خمسةُ سهامٍ ونصفٌ، وللأمِّ أربعةٌ ونصفٌ، وللإخوة ثلاثةٌ ونصفٌ، وللأخوات

---

(١) الهيماء: الفلاة التي لا يهتدى فيها للطريق. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٤/ ١٤٧).

سهمانِ ونصفٌ، وللمعارف سهمٌ ونصفٌ(١).

وفي دفن الموتى يكفَّنُ الميِّتُ دونَ غسلٍ في أنقى ملابسه البيضاء، ويُجعَل في إصبعه خاتم من العقيق، ويُوضَعُ في صندوقٍ من خشبٍ أو حديدٍ أو نحاسٍ أو بلَّورٍ، وأَبْرَكُها عندَهم ما اتُّخِذَ من البِلَّور، ثُمَّ يُصلَّى عليه صلاة الميِّت الَّتي سيأتي ذكرها فيما بعد، ثمَّ يُدفَنُ في أبعدِ عمقٍ ممكنٍ من الأرضِ، وإن شُقَّ له في الصَّخر كان أبركَ(٢).

وفي القِبْلَةِ قال: وإذا أردتم الصَّلاةَ ولُّوا وجوهَكُم شطرَ الأقدسِ المقام المقدَّس - يريد مكانَه في عكَّا أو حفرتَه بعد موتِه - الَّذي جعله الله مطافَ الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البقاء، ومصدر الأثر لمن في الأرضين والسَّماوات.

ويقول في الصَّلاة: قد كتب عليكم الصَّلاة تسع ركعات(٣) لله

(١) وهل أغفل الإسلام في تشريعاته الشَّاملة لجوانب الحياة كلِّها الأحكامَ الخاصَّة بتوزيع المواريث والتَّركات حتَّى يأتي البهاء ويبيِّنها للنَّاس؟! إنَّ الإسلام سبق البهاء في بيان هذه الأحكام وتوضيحها، فليرجع من يشاء معرفتها إلى الآيات الموضِّحة لها في سورة النِّساء.

(٢) وكلُّ هذا أيضًا بيَّنَتْه كتب السُّنَّة النَّبويَّة في كتاب الجنائز قبل أن يتكلَّم البهاء عنه هذا الكلام الَّذي تبدو فيه الغرابة والتَّعقيد؛ لخروجه عن هدي النُّبوَّة السَّهل اليسير. المعلق.

(٣) إنَّ الصَّلوات الَّتي فرضها الله على عباده المؤمنين هي خمس فرائض يؤدُّونها في اليوم واللَّيلة، وليس فريضة من هذه الخمسة ما يشتمل على تسع ركعات كما يشرِّع البهاء لأتباعه، بل هي كما بيَّنها رسول الله ﷺ: ركعتان صباحًا، أربع ركعات في الظُّهر، ومثلها في العصر، وثلاث ركعات في المغرب، وأربع =

منزِّل الآيات حين الزَّوال، وفي البكور والآصال، وعفونا عن عدَّة أخرى في كتاب، إنَّه لهو الآمر المقتدر المختار.

ويسمِّي هذه الصَّلاة الصَّلاةَ الكبرى، وهي مشروحةٌ في كتبهم، لها تلاواتٌ خاصَّةٌ، وركوعٌ بلا سجودٍ، يصلِّيها الإنسان مرَّةً واحدةً في اليوم، شرطَ أن يكونَ فارغَ القلبِ من الشَّواغل جميعِها.

أمَّا الصَّلاةُ الَّتي تسمَّى عندهم بالوسطى فهي ركعةٌ واحدةٌ، وجلسةٌ واحدةٌ، يصلِّيها الإنسانُ مَعَ الفجرِ، وفي الظُّهر، وبعد غروب الشَّمس، يتوجَّه فيها شطر عكَّا، وتشتمل على قيامٍ وركوعٍ وقنوتٍ وقعودٍ، وكلماتٍ يقولها في تعظيمِ البهاءِ وأتباعِ البهاءِ، وكلٌّ صلواتِه لا سجودَ فيها.

وهناك صلاةٌ صغرى للعمَّال وأشباههم ممَّن تكثر شواغلهم، وهي كلماتٌ يقولها القائلُ وهو مقابلَ القِبْلَةِ الَّتي هي قبر البهاء(١)، وتكون وقتَ الزَّوالِ فقط.

وهناك صلواتٌ للجنائز شرَّعها الباب وأثبتها البهاء، يقول البهاء في أقدسه: قد نزلت في صلاة الميِّتِ ستَّةُ تكبيراتٍ من الله منزِّلِ

= ركعات في العشاء، هذا بخلاف صلوات التَّطوع والنَّوافل المبيَّنة في كتب السُّنَّة طلبًا لزيادة الأجر والقربى من الله. المعلق.

(١) ليس للمسلمين قبلة أخرى يتَّجهون إليها في صلاتهم سوى البيتِ الحرام الموجود في مكَّة، وذلك كما يأمر الله تعالى نبيَّه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البَقَرَة: ١٤٤]. المعلق.

الآياتِ، والَّذي عنده علم القراءة له أن يقرأ ما نزل قبلها.

يشير بذلك إلى ما كتبه الباب في بيانه بأن يكرِّرَ بعدَ كلِّ تكبيرةٍ تسعَ عشرةَ مرَّةٍ: إنَّا كلٌّ لله عابدون، بعد الأولى، إنَّا كلٌّ لله ساجدون بعد الثَّانية، إنَّا كلٌّ لله قانتون، بعد الثَّالثة، إنَّا كلٌّ لله ذاكرون، بعد الرَّابعة، إنَّا كلٌّ لله شاكرون، بعد الخامسة، إنَّا كلٌّ لله صابرون، بعد السَّادسة(١).

كتب في أقدسه عن الحجِّ: قد حكم الله لمنِ استطاع منكم حجَّ البيت - ويقصد به مدفنه في عكَّا - دونَ النِّساء، عفا الله عنهنَّ رحمةً من عنده، إنَّه لهو المعطي الوهَّاب. انتهى.

ولهم مزاران مقدَّسان: الأوَّل في شيراز، وهو مولد الباب، والثَّاني في بغداد، وهو المكان الَّذي أذن فيه البهاء بضلاله.

وممَّا قاله في أقدسه عن شهور السَّنة: إنَّ عدَّة شهور السَّنة تسعةَ عشرَ شهرًا في كتاب الله، قد زيَّن أوَّلها بهذا الاسم المهيمنُ على العالمين؛ أي: يعني اسم نفسه.

وأسماء الشُّهور هي: بهاء، جلال، جمال، عظمة، نور، رحمة، كلمات، كمال، أسماء، عزَّة، مشيئة، علم، قدرة، قول، سائل،

---

(١) يبدو أنَّ البهاء لم يطَّلع على صلاة الجنائز الَّتي كان يصلِّيها رسول الله ﷺ، والَّتي علَّمها لأصحابه، وتلقَّاها المسلمون من بعده بالقَبول والاتِّباع، فقد أغنانا الإسلام عن كلِّ تعاليم الباب ومبادئه، وخلفه البهاء، وعن صلاة الجنازة، فصلاة الجنازة مبسوطةٌ في كتب السُّنَّة في كتاب الجنائز، وفيها الخير الكثير. المعلق.

شرف، سلطان، ملك، علاء، وكلُّ شهرٍ من هذه الشُّهور تسعةَ عشرَ يومًا، والأيَّامُ الخمسةُ الباقية يسمِّيها: أيَّام الهاء، وهي أيَّامُ راحةٍ وحرِّيَّةٍ وزياراتٍ وأُنْسٍ.

وكما غيَّر حساب السَّنَةِ وبدَّلَ أسماء الشُّهور فجعل لكلِّ يومٍ من أيَّام الأسبوع اسمًا جديدًا، فسمَّى الأحد جلال، والإثنين جمال، والثُّلاثاء كمال، والأربعاء فضال، والخميس عدال، والجمعة استجلال، والسَّبت استقلال.

ويقول في أقدسه في بحث الصِّيام: يا قلم الأعلى، قل: يا ملأ الإنشاء، قد كتبنا عليكم الصِّيامَ أيَّامًا معدوداتٍ، وجعلنا النَّيروزَ عيدًا لكم بعد إكمالها، كذلك أضاء شمسُ البيانِ من أفقِ الكتابِ من لدن مالك المبدأ والمآب، واجعلوا الأيَّام الزَّائدةَ عنِ الشُّهور قبل شهر الصِّيام، إنَّا جعلناها مظاهرَ البهاء بين اللَّيالي والأيَّام، ينبغي لأهل البهاء أن يطعموا فيها أنفسَهم وذوي القربى، ثمَّ الفقراء والمساكين، ويهلِّلوا ويكبِّروا، ويسبِّحوا، ويمجِّدوا ربَّهم بالفرح والانبساط.

فهو بذلك جعل أيَّام الهاء أو الأيَّام الخمسة الباقية من السَّنَةِ أيَّام فرحٍ وانبساطٍ وإطعامٍ، ولعلَّ القارئ الكريم يؤوِّل كلمة مظاهر الهاء بين اللَّيالي والأيَّام باللَّهو؛ لأنَّ البابَ مِن قبل البهاء قد جعلها أيَّام حرِّيَّةٍ وتحرُّرٍ.

وبعد ذلك، وفي (٢) آذار يبدأ الصِّيام وينتهي باليوم العشرين منه، واليوم الحادي والعشرين من آذار هو يوم العيد، والعيد يكون موافِقًا ليوم النَّيروز - عيد الفرس القوميِّ - ولا يخفى ما في ذلك من

شعوبيَّةٍ تعيد لنا ما اندثر من ذكر الموبذان، وبيوت النِّيران، وكيفيَّة الصِّيام عندَه كما قال في أقدسه: كفُّوا أنفسكم عن الأكل والشُّرب من الطُّلوع إلى الأفوال، إيَّاكم أن يمنَعكم الهوى عن هذا الفضل الَّذي قُدِّر في الكتاب[١].

(١) إنَّ كلَّ ما ذكره البهاء في أقدسه فيما يخصُّ الحجَّ وأسماء شهور السَّنة والصِّيام، وإطعام الفقراء والمساكين والأعياد في الصَّفحات من (٥٨-٦٠) كلُّ تلك الأحكام والوصايا والأوامر جاءت بها الشَّريعة الإسلاميَّة في القرآن والسُّنة، وبيَّنتها مُرتَّبةً بأوضح بيان، وأدقِّ تفصيل دون خلط ولا خبط. المعلق.

من أحكام البهاء أو حدوده

حكمه في الزَّاني والزَّانية:

قال في أقدسه: قد حكم الله لكلِّ زانٍ أو زانيةٍ ديةٌ مسلَّمةٌ إلى بيتِ العدلِ، وهي تسعةُ مثاقيلَ من الذَّهب، وإن عاد مرَّةً أخرى فعودوا بضعفِ الجزاءِ، هذا ما حكمَ به مالكُ الأسماءِ في الأولى وفي الأخرى، قُدِّر لها عذاب مهين.

ومن هذه العبارة نفهم أنَّ الرَّجلَ إذا عاد يضاعَفُ عليه الجزاءُ في الغرامةِ أو الضَّريبةِ، والمرأة إن عادت يُقَدَّرُ لها العذابُ المهينُ.

حُكمُه في السَّارق:

قد كتبتُ على السَّارق النَّفيَ والحبسَ، وفي الثَّالث فاجعلوا في جبينه علامةً يُعْرَفُ بها؛ لئلَّا تقبله مدنُ الله وديارُه، وإيَّاكم أن تأخذَكمُ الرَّأفةُ في دين الله، اعملوا ما أُمِرْتُم به[1].

---

(١) إنَّ أحكام الزِّنا والسَّرقة وسائر المخالفات والمحرَّمات الَّتي يرتكبها الإنسان بيَّنتها الشَّريعة في مصدَريها - الكتاب والسُّنة - بما فيه الكفاية من الرَّدع والجزاء الأوفى، وما ترك القرآن والسُّنَّة ثغرةً لمرتاب ليضعَ لهذه المخالفات حدودًا أخرى، فالقرآن كما وصفه العليم الحكيم: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فُصّلَت: ٤٢]، أمَّا السُّنَّة المطهَّرة فقد وصف الله صاحبها عليه السَّلام بأنَّه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النّجم: ٣]، إذن فليس للبهاء ولا لغيره من دعاة التَّشريع فضلٌ في هذا، فقد أكمل الله على العباد دينهم، وأتمَّ عليهم نعمته. المعلق.

حكمه في نفي النَّجاسة مطلقًا:

قال في أقدسه: وكذلك رفع الله حكمَهُ دونَ الطَّهارة عن كلِّ شيءٍ، وعن مِلَلٍ أخرى موهبةً من الله، إنَّه لهو الغفورُ الكريمُ، قدِ انغمستِ الأشياءُ في بحرِ الطَّهارةِ في أوَّل الرِّضوان، إذ تجلَّينا على مَنْ في الإمكانِ بأسمائنا الحسنى وصفاتِنا العليا، هذا من فضلِ الَّذي أحاطَ العالمين.

البيت البهائيُّ

يحتِّمُ البهاءُ الزَّواجَ على منِ استطاعَ ذلك، فيقولُ في أقدسه: قد كتبَ الله عليكُمُ النِّكاحَ، إيَّاكم أن تُجاوِزوا حدَّ الاثنين، والَّذي اقتنَعَ بواحدةٍ من الإماء، استراحت نفسُه ونفسُها. . .إلى آخر ما ذكره في هذا الموضوع الَّذي سنفصِّلُهُ.

فكما نلاحظ أنَّه يشترطُ لصحَّةِ الزَّواج عند البهائيِّينَ رضاءُ ستَّةٍ: الزَّوجين، وأَبَوَي الزَّوجِ، وأَبَوَي الزَّوجةِ إن كانوا على قيد الحياة، أو من كان منهم حيًّا، ويحدِّدُ المهورَ فيجعلُها للقرويِّ والبدويِّ تسعةَ عشرَ مثقالًا من الفضَّة إلى خمسةِ أضعافِها، ويجعلها للمدنيِّ تسعةَ عشرَ مثقالًا من الذَّهبِ إلى خمسة أضعافها.

ويقول في أقدسه: والَّذي اقتنع بالدَّرجة الأولى خيرٌ له في الكتاب، ومن كره صحبتَها أو كرهت صحبَتَه يفترقانِ سنةً كاملةً - يسمُّونها مدَّة الاصطبار - لعلَّهما يندمان، فإن لم يتَّفقا فلا بأسَ من إيقاعِ الطَّلاق، الَّذي يجب أن يكونَ في غيرِ المحفلِ المحليِّ.

وعدَّة الطَّلاقِ هي مدَّة الاصطبار، وإن لم يتزوَّجا بعدَ الطَّلاق فللزَّوجِ حقُّ استرجاعِ زوجتِه مهما طال الأجل، ولكن بعد مراجعة المحفل.

أمَّا عدَّةُ الوفاةِ، فقد أُوقِفَت مدَّتُها ليقرِّرَها بيتُ العدل، وإذا

اختلفا في السَّفر من بلدهما فعليه أن يعيدَها إلى أهلها أو بلدها، ويعطيها نفقةَ سنةٍ كاملةٍ، وإذا سافر الزَّوج من بلدِه عليه أن يحدِّدَ أَجَلَ سفرِه، وإذا تأخَّر عنِ الأجلِ عليه أن يخبرَها بتأخُّرِه، وإلَّا كانَ لها الحقُّ أن تشكوه إلى المحفل[١].

(١) كلُّ ما ذكره البهاء عن الزَّواج ومشكلاته وحلوله أوضحته الشَّريعة الإسلاميَّة على نحوٍ يضمن الاستقرار لبيت الزَّوجيَّة، ويكفل السَّعادة والاستقرار للعائلات والأسر، ولا يحقُّ لأحدٍ - كائنًا من كان - أن يشرِّعَ مَعَ الله، فمن الشِّرك الخطير أن ينازع اللهَ أحدٌ حقَّ التَّشريع للنَّاس بعد أن أوضح الله لهم التَّشريع في القرآن. المعلق.

النِّظام الإداريُّ

أمَّا النِّظامُ الإداريُّ البهائيُّ فلم أجدْ فيه جديدًا، وإنَّما كلُّ ما جاءَ به البهاءُ ومَنْ بعدَه مأخوذٌ من كتاب جمهوريَّة أفلاطون، والقرآن الكريم، وسير الخلفاء الرَّاشدين، لكنَّ المختلف في نظامهم أنَّ البهائيَّة ليس فيها قتالٌ ولا نظامٌ عسكريٌّ، إضافةً إلى أنَّ المحورَ الَّذي يدور عليه نظامُ البهاء هو وحدةُ الجنسِ البشريِّ، وهذا أمرٌ مستحيلٌ ومخالفٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

يقول البهاء فيما تُرجِمَ عنِ اللُّغةِ الفارسيَّةِ: في كلِّ شريعةٍ إلهيَّةٍ قد ركَّزَ نورُ التَّوجيه الإلهيِّ فيها على موضوعٍ معيَّنٍ، وفي هذه الشَّريعةِ قد ركَّز على الشُّعورِ بتحقيقِ وحدةِ الجنسِ البشريِّ، وهذا هو أساس ديانتها.

وفي موضعٍ آخرَ من كتبه، يخبرنا بأنَّ تحقيقَ هذا الأمرِ لن يكون سهلًا، ولكي نصلَ إلى القِمَّة يجب أن نتدرَّج في الصُّعود إليه خطوةً خطوة، حيث يريدُ البهاءُ أن يقضيَ على الحكم الفرديِّ المطلقِ دون أن يقاومَ الحاكمَ، ولا مانعَ لديه أن يكون الحكمُ ملكيًّا أو جمهوريًّا، وإنَّما المهمُّ بالأمر أنْ لا حكمَ للفرد[1]، بل للبرلمان الَّذي سمَّاه بيتَ

(١) إنَّ البهاء قد وقع في التَّناقض مع نفسه، فهو يأمر النَّاس بالبرِّ وينسى نفسه، وإلَّا =

العدلِ، فالحكمُ له، وأعضاؤه معصومون بأمر الله، والحاكمُ الَّذي يُقِرُّه بيتُ العدلِ أميرًا أو ملكًا أو رئيسًا معصومٌ(١) أيضًا بأمر الله.

ولنذكرْ طرفًا من نظامهم الحاليِّ الَّذي يجوز أن يتغيَّر مَعَ الزَّمنِ، ونبدأ من الأعلى.

١- الرَّأس الأعلى:

وهو في هذا النِّظام وليُّ الأمرِ والزَّعيمُ الدِّينيُّ الأوَّلُ، يُسمَّى بمحبوب الجميع، وليس له من الأمور إلَّا الزَّعامةُ الدِّينيَّة ورئاسةُ بيتِ العدلِ، رجلٌ مقدَّسٌ معصومٌ عصمةً اكتسابيَّةً صغرى، ولا مانعَ من أن يُخاطَبَ وليُّ الأمرِ بالواحدِ الأحد، وأن تقول إذا وصلت إلى قصرِه: حَضَرْتُ ساحةَ قدسِهِ، وطاعته واجبةٌ محتَّمةٌ، ومركزُه الدَّائم جبل الكرمل، وولايةُ الأمرِ هذه وراثةٌ في أغصانِ البهاءِ أو أفنانه، وهم أبناءُ الأبناءِ، أو أبناءُ البناتِ، وقد تصل الولاية إلى الفنن؛ أي: السِّبط، أو الغصن؛ أي: الحفيد بعهدٍ من السَّلَفِ إلى الخَلَفِ.

= فكيف يرفض البهاء الحكم الفرديَّ وهو الذي نصَّب نفسه إلهًا وحاكمًا بأمره يشرِّع لأتباعه ويقنِّن لهم ويأمرهم وينهاهم؟ أليس في هذا مظهر من مظاهر الحكم الفرديِّ الاستبداديِّ المطلق؟ المعلق.

(١) إنَّ العصمة لله وحده، فهو وحده جلَّ وعلا المعصوم من كلِّ ما يعتري البشريَّة من الخطأ والنِّسيان قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مَريَم: ٦٤].

أمَّا كل البشر، فهم ليسو معصومين من الخطأ، حتى الأنبياء والمرسلين ليسوا معصومين، إلا فيما يتصل بأمر إبلاغ رسالاتهم فقد عصمهم الله من الخطأ لضمان إبلاغ رسالاتهم، وحمايتهم من أعدائهم، ولا ندري بأي حق خلع البهاء على نفسه العصمة ثمَّ على أعضاء بيت العدل؟. المعلق.

٢- بيتُ العدلِ:

وهو بمنزلةِ عصبةِ الأممِ، أو جامعةِ الشُّعوبِ العالميَّةِ، ومركزُه جبلُ الكرمل أيضًا، ويمثِّلُ كلَّ أمَّةٍ فيها رجلٌ أو رجلانِ، ورئاسةُ بيتِ العدلِ ثابتةٌ في وليِّ الأمرِ، ولا يُشَكَّلُ بيتُ العدلِ حتَّى يعمَّ دينُهمُ الكرةَ الأرضيَّةَ، وهذا حلمٌ لن يتحقَّقَ، وإن قالوا: إنَّه سيكونُ في سنة (١٩٦٣م)(١).

٣- المحافل المركزيَّة:

وهي صورةٌ مصغَّرةٌ عن بيوت العدل، وتكونُ في عواصمِ الحكوماتِ، فعلى سبيل المثال المَحفِلُ المركزيُّ العراقيُّ يكونُ في بغدادَ، والسُّوريُّ في دمشقَ، وينتخبُ أعضاءَ هذا المَحْفِلِ(٢) المحافلُ الصَّغيرةُ في المدنِ والقرى، كما ينتخبُ المحافلَ في العواصم جميعِها أعضاءُ بيتِ العدلِ.

٤- المحافلُ الرُّوحانيَّةُ المحلِّيَّةُ:

وهي محافلُ في المدنِ والقرى، ينتخبها البالغونَ سِنَّ الرُّشدِ من البهائيِّينَ في تلكَ المدينةِ أو القريةِ، وأعضاؤها يجب أن يكونوا تسعةً، ولا مانع من كونهم أكثرَ إذا اقتضى الأمرُ.

---

(١) أي: في سنة (١٣٨٣هـ).

(٢) المحفل: الموضع الذي فيه جمع من الحفل وهو الجمع. انظر: تاج العروس، للزَّبيدي (٢٨/ ٣٠٩).

٥- المحافلُ الأسبوعيَّةُ والتِّسعة عشريَّة:

يجتمع فيها أهلُ المَحَلَّةِ وأهلُ القرية، وتجبُ فيها الضِّيافةُ ولو اقتصرت على الماء، ولا أجرة على العضويَّة في بيوت العدل أو المحافل بدرجاتها الثَّلاث، يقول البهاء في أقدسه: قد كتب الله على كلِّ مدينةٍ أن يجعلوا فيها بيتًا للعدل، وليجتمع فيه من النُّفوس على عددِ البهاءِ، وإن زادَ فلا بأسَ، ويرونَ كأنَّهم يدخلونَ محضرَ الله، ويرونَ من لا يرى، وينبغي لهم أن يكونوا أُمناءَ الرَّحمنِ بينَ الأماكنِ، ووكلاء الله لمن على الأرضِ كلِّها، ويشاوروا في مصالحِ العبادِ لوجهِ اللهِ، كما يشاورونَ في أمورهم، ويختارونَ من هو المختار.

أمَّا الانتخابُ، فيجب أن يكونَ حرًّا وسرِّيًّا لا يعلمُ النَّاخبُ من سينتخبه، ولو كانَ من أهلِ بيتِه، ويشتركُ في هذا الانتخاب كلُّ من أتمَّ الواحدة والعشرين سنةً من عمره، ذكرًا كان أو أنثى، ويحرَّمُ تحريمًا باتًّا على البهائيِّ أن يرشِّحَ نفسَه لعضويَّة محفلٍ أو بيتِ عدلٍ، كما يُحرَّمُ عليه أن يدعو لشخصٍ آخرَ قريبٍ منه أو بعيدٍ، وسِنُّ النَّاخب والمنتَخِبِ إحدى وعشرينَ سنةً شمسيَّةً، وهو سنُّ الرُّشدِ والتَّكليفِ الإداريِّ، وأمَّا بيوتُ العدلِ أو المحافلُ المركزيَّةُ أو الرُّوحانيَّةُ تنتهي في (٢٠) نيسان من كلِّ سنةٍ، ويبدأ خلفَها في (٢٢) منه.

ووظيفة بيت العدل تعيينُ الأمناءِ، وهمُ الحكَّامُ في مختلفِ البلادِ، وتُعَيِّنُ المحكمةُ الكبرى - وهي محكمةٌ دَوليَّةٌ - للنَّظرِ في

الخلافِ بينَ الأممِ والشُّعوبِ، وتشريعِ الأحكامِ ممَّا لم ينصَّ عليه البهاءُ في أقدَسِه من تحريمٍ أو إباحةٍ.

من عقائدهم

ومن العقائد الَّتي يؤمنون بها:

١- أنَّ البهاء ربُّ الأربابِ وسيِّدُ المظاهر، والعالِمُ المحيطُ علمُهُ بكلِّ شيءٍ، وأنَّه هو الله، قال عبدُ البهاءِ عن أبيه: تجلَّى ربُّ الأربابِ، والمجرمونَ خاسرونَ، وهو الَّذي أنشأ لكم النَّشأةَ الأخرى، وأقامَ الطَّامَّة الكبرى، وحَشَرَ النُّفوسَ المقدَّسةَ في الملكوتِ الأعلى، وكتب البهاء عن نفسه: يا أهل النِّفاقِ، قد ظهر من لا يعزب[1] عن علمه شيءٌ.

وقال أيضًا عن نفسه: لا يُرَى في هيكَلِي إلَّا هيكلُ الله، ولا في جمالي إلَّا جمالُهُ، ولا في كينونتي إلَّا كينونَتُهُ، ولا في ذاتي إلَّا ذاتُه، قل: لم يكن في نفسي إلَّا الحق، ولا يُرَى في ذاتي إلَّا الله[2].

---

(١) أليس من الغرور أن يصف البهاء نفسه بأنه لا يعزب عن علمه شيء؟! إن الذي لا يعزب عن علمه شيء، هو الله وحده، لأنه أحاط بكل شيء علما، فهو الخالق، ومالك الملك، وبيده أمر كل شيء، وأمَّا الذين من دونه فهم مخلوقون، ولا يملكون من أمرهم، ولا من أمر غيرهم شيئًا، ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، ويقول عن إحاطته بعلم كل شيء: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. المعلق.

(٢) يدين البهاء بما دان به أصحاب عقيدة وحدة الوجود، وقد ورد في كتاب نصوص الحكم التَّفصيل الكامل لهذه العقيدة، وأصحابها يؤمنون بأنَّ وجود الله =

٢- أنَّ توجيهَ العبادةِ يكونُ إلى مَظهرِ الأمرِ الَّذي هو النَّبيُّ أو الرَّسولُ، وأنَّ اللهَ يتجلَّى فيه كما تتجلَّى الشَّمسُ في المرآةِ، ويخاطَبُ بما يخاطَبُ به الله.

٣- أنَّه لا معجزات للأنبياء؛ لأنَّهم يؤمنون بأنَّ الأنبياءَ آلهةٌ، وأنَّهم مظاهرُ أمرِ اللهِ إذن فلا حاجةَ للمعجزاتِ، ويقولون في معجزات موسى: العصا هي عصا الأمر، والحيَّةُ هي ثعبان المقدرة، واليدُ البيضاء هي بيضاء المعرفة، ويقولون في معجزات عيسى في إبرائه الأكمَهَ والأبرص، ويعنونَ بالأكمَهِ الجاهلَ، وإبراؤه بالعلم، والأبرص يعني الضَّالَّ، وإبراؤه بالهداية، وأوَّلوا إحياءَ سيِّدنا عيسى للموتى بتعليم الجُهَّال.

٤- أنَّه لا انقطاعَ للوحيِ، وقد كتبَ البهاءُ في رسالته السُّلطانيَّة ما معناه: إنَّ هؤلاءِ العبادَ لا يقولون باستحالةِ تبدِّي مظاهرِ الأحديَّةِ. ولو أنَّ قائلًا قال بهذا فأيُّ فرقٍ بينَه وبين قومٍ يقولون: يد الله مغلولة؟!

= هو عين وجود الموجودات الثَّابتة، وهم لا يفرِّقون بين الظَّاهر والمظاهر، أو بين الخالق والخلق، بل إنَّهم يحكمون على أحدهما بعين الآخر، ويؤمنون بالعينيَّة المطلقة بين الله والعالم، فالعالم هو الله، والله هو العالم، فإذا رأيت أيَّ موجود في الأرض إنسانًا أو حيوانًا أو جمادًا أو نباتًا فقد رأيت الله في عين هذه الموجودات. نعوذ بالله من هذه العقائد الزَّائغة الباطلة، ونبرأ إلى الله من أصحابها، فنحن نؤمن بأنَّ الله واحدٌ أحد فرد صمد، ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ونؤمن كذلك بأنَّه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. المعلق.

٥- أنَّهم يقولون بانقطاعِ الوحيِ بعدَ محمَّدٍ، وهذا ليس له سندٌ في منطقِ الواقعِ.

٦- أنَّه لا بعثَ لهذه الأجساد، وإنَّما للأرواحِ فقط، فكلُّ من ماتَ قامت قيامَتُه، وهو إلى نعيمٍ أو عذاب، والعذابُ ينتهي والنَّعيمُ دائمٌ أبديٌّ.

٧- أنَّ القيامةَ الكبرى قيامةُ نبيٍّ وانتهاءُ دورِ النَّبيِّ الَّذي قبلَه، أو أنَّها قيامُ أمَّةٍ وهلاكُ أخرى.

٨- أنَّ الملائكةَ قومٌ عاشوا صالحينَ فرضِيَ عنهم إلههم، فقرَّبَ أرواحَهُم إليه، وضدُّهم الشَّياطين، وشيطانُ الإنسانِ نفسُه الخبيثةُ، وأمَّا الجانُّ، فهي حيواناتٌ خبيثةٌ لا تُدْرِكها الأبصارُ، ولعلَّهم يقصدون بذلك الجراثيم.

٩- أنَّه لا رسلَ منَ الملائكةِ تتنزَّلُ على الأنبياءِ أو الرُّسلِ، وينكرونَ أنَّ جبريلَ نزلَ على محمَّدٍ ﷺ، ويقولون: ليسَ في القرآنِ دليلٌ على ذلك، فأين هم من قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٣] أو ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النَّحل: ١٠٢]، وأنَّ الله مُتَجلٍّ في محمَّدٍ، فنطق محمَّدٌ بالقرآن، وكذلك تجلَّى الله أيضًا في البهاء، ومعنى ذلك أنَّ هذا النَّبيَّ ينطقُ بلسان الله، أو أنَّ الوحيَ ينبعُ من داخل نفس المظهر؛ لأنَّ المظهرَ هو الله. أستغفرُ الله من إفكهم وضلالهم، ونعوذ بالله من عقائدهم.

ولا أعلم ماذا يقول البهائيُّون في هذه الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البَقَرَة: ٩٧]، لا شكَّ أنَّهم سيؤوِّلونَها حسبَ أهوائهم محرِّفين الكَلِم عن مواضعه، أو أنَّهم سيتَّجهون إلى ما عوَّدوا أنفسَهم عليه في الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالآخر، أو يجعلون جبريلَ اسمًا من أسماء الله.

١٠- أنَّ لله في الأرضِ بيتين، الأوَّل في شيراز، وهو الَّذي أعلنَ فيه البابُ دعوتَه، والثَّاني في بغداد، وهو الَّذي أعلنَ فيه البهاءُ دعوتَه، وكلاهما يجب أن يبقى، ويقول البهاءُ في أقدسه: وارفعن البيتين في المقامين، والمقامات الَّتي استقرَّ فيها عرشُ ربِّكم الرَّحمن - يعني البيوت الَّتي نزل فيها أو سُجِنَ فيها - كذلك يأمركم مولى العارفين، إيَّاكم أن تمنعكم شؤونات الأرض عمَّا أمرتم من لدن قويٍّ أمين، وقد امتلك البهائيُّون السِّجن الَّذي سجن فيه الباب في طهران، ويحاولون أن يمتلكوا بيت بغداد وغيره.

١١- أنَّ البهاءَ واحدٌ أحدٌ ليس له شريكٌ في العصمةِ، ولا في عِظَمِ الشَّأنِ، يقول البهاء في أقدسه: ليس لمطلعِ الأمرِ شريكٌ في العصمةِ الكبرى، إنَّه يظهر بفعلِ ما يشاءُ في ملكوت الإنسان، قد خصَّ الله هذا المقامَ لنفسه، وما قُدِّرَ لأحدٍ نصيبٌ من هذا الشَّأنِ العظيمِ المنيعِ.

١٢- أنَّ البهاءَ إلهٌ، وقد صرَّح هو نفسه في أقدسه بقوله: يا ملأ الإنشاء، اسمعوا نداءَ مالكِ الأسماءِ، إنَّه يناديكم من شطرِ سجنِهِ الأعظمِ أنَّه لا إله إلَّا أنا المقتدرُ المتكبِّرُ المتسخِّر المتعالي العظيم الحكيم.

وقد كتب لي أحد المقرَّبينَ من وليِّ الأمر هذه العبارةَ لمَّا رآني مصغيًا لأقواله وهُرائِه، مُسجِّلًا بعضَ كلماته فقال: وفي الحالِ عرضتُ إلى ساحةِ قدسِ مولانا المحبوبِ حضرةِ وليِّ أمرِ الله كلَّ ما شاهدتُه فيكم من الإخلاصِ والانجذابِ في سبيلِ خدمةِ ربِّنا البهيِّ الأبهى، وتمنَّيتُ من ساحتِه القُدسيَّةِ لكمْ بكلِّ تضرُّعٍ وابتهالٍ تأييداتِه الإلهيَّةِ - يعني: تأييدات وليِّ الأمر - ولا شكَّ في أنَّ حضرتكم بعنايةِ حضرةِ جمالِ القدمِ - يعني: البهاء - جلَّ جلالُه سوفَ تنالونَ فتوحاتِه الباهرةَ والانتصاراتِ العظيمةَ في سبيلِ خدمةِ أمرِ المحبوبِ الأبهى، وذلك بفضلِهِ ومَنِّهِ وعنايتِه. . .إلخ.

أيَّامُ الأعيادِ والعطلِ

وهي تسعةُ أيَّامٍ في السَّنةِ، يحرَّم فيها العمل، أوَّلُ محرَّمٍ وثانيه، وهي ميلاد الباب والبهاء - ويعلم القارئ أنَّ شهرَ المحرَّم من الأشهر القمريَّة للسَّنةِ الهجريَّة - وخامس جمادى الأوَّل، وهي بعثة الباب - وأستغفر الله من قولهم، وأقول: يوم افترائه - ويوم (٢١) آذار، وهو عيد الفطر أو يوم النَّيروز، ويوم (٢١) نيسان، وهو يوم دعوةِ البهاءِ أو بعثتِه؛ أي: يوم افترائه على الله، ويوم (٢٩) نيسان متابعٌ لأيَّام البعثة المفتراة، ويوم (٢) أيَّار، يومُ إعلانِ الدَّعوةِ، وختامِ أيَّام الرِّضوان، ويوم (٢٩) أيَّار يومُ موتِ البهاءِ، ويوم (٢٨) شعبان يومُ موت الباب.

وبعدُ:

فهذه نُبذةٌ عنِ الدِّين الجديد، الدِّين البهائيِّ، وضَّحتُ فيها بعض ما علمته عن دينهم بمخالطتهم ومسايرتهم، حتَّى ظنُّوا أنِّي صرت واحدًا منهم، فقد خبرتهم سبعةَ شهورٍ، حضرتُ محافلَهم وصلواتِهم ومناجاتِهم، وقرأت بعضَ كتبهم، أعرضها للقارئ الكريم؛ ليكون على بصيرةٍ من أمرهم، وحذرًا من زيغهم وضلالهم وإفكهم وافترائهم، تعالى الله عمَّا يأفكون، ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا

يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

البهائيَّةُ دجلٌ

امتدَّتِ الفتوحاتُ في الشَّرق والغرب، فَسَادَ نفوذ الإسلام السَّياسيُّ على فارس والرُّوم، فودَّع الرُّوم جزيرةَ العربِ، وبقي فيها اليهود، وقد فقدوا سلطانَهم الرُّوحيَّ على الأمِّيِّين، ودألت(١) دولةُ الفرسِ، وخمدتْ نيرانُ المجوسِ، وانمحتْ ظلمةُ الشِّركِ.

فحَقَدَ أحبارُ اليهودِ وكهَّانُ الفرسِ والرُّومِ لزوالِ عزَّتهم، وقامَتْ منهم طوائفُ أو جمعيَّاتٌ يمكرون بالفاتحين، وبدينهم مجتمعين أحيانًا، ومتفرِّقين أحيانًا أخرى، وأوَّل هذه الجمعيات تلك الَّتي قتلت عمرَ بنَ الخطَّاب رضي الله عنه، ثمَّ الَّتي أشعلت نارَ الفتنة الظَّالمة الَّتي قَضَتْ على عثمانَ رضي الله عنه، وفرَّقتِ المسلمينَ إلى فئتينِ متقاتلتينِ، ثمَّ انتهت بقتل عليٍّ، ثمَّ تكاثرت تلك الجمعيَّاتُ السِّرِّيَّة الهدَّامة، تظهر حينًا وتختفي حينًا آخر، وتتَّخذُ لهذا الظُّهور وهذا الاختفاء مختلفَ الأسماءِ والغاياتِ، فتارةً تنادي باسم الدِّينِ، وتارةً باسم الخلافة، وتَلْبَسُ لكلِّ حالةٍ لَبوسًا، والهدف واحد والغاية محدَّدة، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢] وكانت بلاد فارس أعظمَ مهدٍ لهذه

---

(١) الدأل: الختل، وهي مشية شبيهة بالختل ومشي المثقل. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١١/ ٢٣٣).

الجمعيَّات - إيران - وفارس مملوءة بالعجائب، ولها في كلِّ عصرٍ مولودٌ جديدٌ يسعى لهذه الغايات؛ لأنَّ فارسَ بعيدةٌ عن مركزِ الخلافةِ، وميدانُها واسعٌ، وأقاليمُها كثيرةٌ، وأهلُها أتباعُ كلِّ ناعقٍ.

وأخيرًا لا آخرًا، يظهر من شيراز دجَّالٌ اسمه علي محمَّد، يدَّعي النِّسبةَ إلى السُّلالةِ النَّبويَّة الطَّاهرة، وما أكثرهم في كلِّ عصر وفي كلِّ قطر!

وقد قدَّمنا للقارئ ترجمة حياته، حيث لقَّبَ هذا الدَّجالُ نفسَه بالباب، وأنه بابُ مدينةِ العلم، ثمَّ ادَّعى أنَّه المهديُّ مستدِلًّا بحديث: «**المهدي من عترتي**»[(١)]، ثمَّ بعد ذلك ادَّعى النُّبوَّةَ أو الرِّسالةَ ثمَّ الألوهيَّة، فلم يترك مقامًا إلَّا وادَّعاه لنفسه، فكيف استوى له أن يكونَ من السُّلالةِ ثمَّ يصبحَ نبيًّا ثمَّ أن يكون المهديَّ، ثمَّ أن يكونَ الإلهَ؟! ثمَّ هَلْ صَدَقَ في واحدةٍ منها؟! لا شكَّ أنَّ من كذب في واحدةٍ فهو في الجميع كاذبٌ، وفي نهاية المطاف قُتِلَ محكومًا بكفره على أيدي الأرمن أو الكرج[(٢)]، وممَّا سطَّرَهُ في كتبه: أنَّ منِ ادَّعى الرِّسالةَ قبلَ مرورِ ألفي عامٍ كاذب فاقتلوه، وإذا بالدَّجال الثَّاني بعد مرورِ اثني عشَرَ عامًا يدَّعي الرِّسالة بعد أن ادَّعى خلافَةَ سَلَفِهِ، ويدَّعي أنَّ سلفه جاء مبشِّرًا به، وأنَّه بالنِّسبَة إليه كيحيى لعيسى، ثمَّ بعد قليل يدَّعي الألوهيَّة، لكنَّ يحيى وعيسى قالا: إنَّهما عبدان لله،

(١) رواه أبو داود، رقم: (٤٢٨٤).

(٢) الكرج: وهي مدينة بين همذان وأصبهان في نصف الطريق. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (٤/ ٤٤٦).

فيحيى كان صدِّيقًا نبيًّا، وعيسى قال لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المَائدة: ٧٢]، وقال لربه: ﴿سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المَائدة: ١١٦-١١٧]، أمَّا البابُ والبهاءُ، فقد أمرا النَّاس بعبادتهما، ولا سيَّما البهاء، فقد أمرَ النَّاسَ أن يتوجَّهوا له بالدُّعاء، وأن يخصُّوه بالعبادة، واصفًا نفسَه بأوصاف الله الكريمة جمعاء، وتسمَّى بأسماءِ اللهِ الحسنى، وأمر أتباعه أن يولُّوا وجوهَهُم شطره في صلاتهم، ووصف نفسه بالقدرة المطلقة قائلًا: إنَّه على كلِّ شيء قدير، ولكن العجبَ من أولئك الطَّغامِ[1] الَّذين اتَّبعوه مُقرِّينَ بربوبيَّته، على أنَّهم يرونَ عجزَهُ عن خلاصِهم وخلاصِ نفسِه من التَّعذيبِ والتَّشريدِ والإهانةِ والضَّربِ والسَّجنِ، وإلَّا فما قيمةُ إلهٍ لا يدفعُ عن نفسه أذى عباده؟! ولا يملك القدرة على حماية نفسه؟!

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ[2]

ولقد بالغَ البهاءُ وعبدُه في تزويقِ بهائيَّتِهما، وطَلَياها بالدِّهان الخادعِ، ونوعَّا ألبسَتَها، فهي مَعَ المسلم بلباسٍ، ومَعَ اليهوديِّ بلباسٍ، في حين أنَّ لها مَعَ المسيحيِّ والبوذيِّ والمجوسيِّ ألبسةً

---

(١) الطغام: أرذال الناس وأوغادهم. انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٢/ ٣٦٨).

(٢) ينسب هذا البيت لراشد بن عبد ربه السلمي الصحابي رضي الله عنه. انظر: شرح شواهد المغني، للسيوطي (١/ ٣١٧).

أخرى متباينةً، وهكذا فلها مع كلِّ قومٍ وجهٌ، ومَعَ كلِّ دينٍ مقابلة، إنَّها مبدأ تشكيك تستغلُّ جهل الجاهل في دينه، فتفتح له باب التَّأويل الَّذي له مكانةٌ كبيرةٌ عند العامَّة؛ لأنَّهم أخطؤوا الفهم بأنَّ القرآن نزل عربيًّا غيرَ ذي عوجٍ، وفسَّروا قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] فوصلوا الآية وقطعوها عند قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فجعلوا الرَّاسخين في العلمِ شركاءَ مَعَ اللهِ في علمِهِ(١)، أمَّا أولئك الَّذين يلوون ألسنتهم بالكتاب فقالوا على الله الكذب، واتَّبعوا ما تشابه من التَّنزيل، وأوَّلوه بما يتوافق وحاجاتهم وأهوائهم ابتغاءَ

(١) والبهائيون ليسوا وحدهم من جعل الراسخين في العلم شركاء مع الله في علمه، بل إن بعض المنتسبين إلى الإسلام اليوم يعتقدون هذا ويؤمنون به، والذي عليه جمهور المفسرين لهذه الآية - وهو التفسير الصحيح الذي يطابق الحقيقة - هو أن «الواو» في قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] ليست للعطف بل للمغايرة؛ أي: إنَّها ليست للعطف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]، بل جاءت لتبيِّن أنَّ علم الراسخين في تأويل المتشابه من التنزيل يغاير علم الله تعالى، والآية: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] جملة استئنافية. وعلى ذلك، فإنه يجب الوقوف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]، ثم تُستأنَفُ القراءةُ من قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ...﴾ [آل عمران: ٧] فهذا الوقف لازمٌ، حتى يكون العلم بتأويل هذا المتشابه مقصورًا على الله وحده، أمَّا الراسخون في العلم فهم والجاهلون سواءٌ في هذا المتشابه، لا يملكون حياله إلا التسليم بالعجز، ولا يملكون إلا أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ...﴾ [القصص: ٥٣]؛ أي: آمنا بهذا التشابه كما هو دون تأويل؛ لأنه هو والمحكم على سواء عندنا ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ...﴾ [آل عمران: ٧]. المعلق، بتصرف.

الفتنةِ، فقلبوا الحقائق، وخدعوا الجاهلين، وضلُّوا وأضلُّوا.

ولقد قدَّمنا لحضرة القارئ عشرة أمثلة من تفسير البهائيين للقرآن سُجِّلَت في بعض كتبهم، أو سمعناها في مجالسهم، ولعلَّ فيما نذكره الآن دليلًا على العقول القاصرة عن الفهم الصَّحيح، أو على التَّبعيَّة العمياءِ لأولئك الَّذين ساروا وراءهم دون هدًى أو بصيرةٍ.

وقد تقدَّمَ للقارئ الكريم أنَّهم يفسِّرون الشَّمسَ بالدِّينِ، والسَّماءَ بالعلمِ، والقمرَ والجبالَ برجالِ العلمِ، وقد فسَّر قائلهم: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التّكوير: ١] أي: عمى الدِّين الإسلاميِّ؛ لأنَّ كور باللُّغةِ الفارسيَّةِ: الأعمى.

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨﴾ [التّكوير: ٨] أي: النُّطفةُ الَّتي تُقتَل باستعمال العَقَّارِ المانعِ للحملِ.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾ [التّكوير: ٣] أي: علماء الأمَّة سيَّرَتْها قوانينُ الدُّولِ الوضعيَّة، فلا يستطيعون تعدِّي حدودِها مهما بلغوا من العلم.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ [الانفطار: ٤] أي: قبورُ الفراعنةِ بعد أن ظلَّت سرًّا مجهولًا آلافَ السِّنين.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩] أي: أنزلَ منها قرآنًا أو ألواحًا، ولعلَّه يعني هنا بالسَّماء بهاءه.

﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣﴾ [الانشقاق: ٣] وهنا يعني بالأرض: القلوب، ويفسِّر ﴿مُدَّتۡ﴾ [الانشقاق: ٣] بمعنى: لانت، وهل هذه لغة فارسيَّةٌ؟! لا أدري!

﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزُّمَر: ٧٤] أي: أنَّ الأرض عكَّا، والجنَّة دين البهاء، وقال قائلهم يومًا في مجلس حَضَرَهُ كثيرٌ منهم: إنَّ تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النَّازعَات: ٦-١٤] أنَّ الرَّاجفة الحربُ العالميَّة الأولى سنة (١٩١٤م)(١)، والرَّادفة هي الحرب العالميَّة الثَّانية سنة (١٩٣٩م)(٢)، والسَّاهرة هي الحربُ المقبلةُ مجهولةُ التَّاريخ، ولهم مثل هذا التَّفسير للإنجيل والتَّوراة، كما يفسِّرون الأحاديثَ النَّبويَّةَ أيضًا على هذا المنوال.

ومن المسائلِ الَّتي يتبجَّحون ويفاخرون بها الأديانَ السَّابقةَ إعطاؤهم المرأةَ حريَّتَها، ومساواتها بالرَّجل، ولا أدري متى كان ذلك؟! ففي الميراث أنقص الأمَّ عن الأب، والأختَ عنِ الأخِ، ولم يساووا فيه إلَّا بين الأولادِ والزَّوجين، وفرَّق بين الذَّكر والأنثى في عقوبة الزِّنا، فجعلها على الرَّجلِ عندَ تكرارِ الذَّنبِ مضاعفةً، وعلى الأنثى العذابَ المهين.

إنَّ البهاءَ لم يعترف للمرأةِ بالشَّخصيَّة الكاملة، ولم يمنحها حرِّيَّة التَّصرُّف في أموالها، ولم يجعل في أقدسه أيَّ ذكرٍ يُشرِّفُها أو يكرِّمها، ولم يجعل لها حقَّ اختيارِ الزَّوج، بل أشرك رأيَها برأي

(١) أي: سنة (١٣٣٢هـ).

(٢) أي: سنة (١٣٥٨هـ).

أبويها، وأهمُّ ما جاء به البهاء أن جعلها سلعةً محدودة الثَّمَنِ، فإن كانت مدنيَّةً فقيمتها ما بين تسعةَ عشرَ مثقالًا من ذهب إلى خمسةٍ وتسعين، وإن كانت بدويَّةً فقيمتها ما بين تسعةَ عشرَ مثقالًا من فضَّةٍ إلى خمسةٍ وتسعين، وجعلها معضَّلةً[1] للرَّجل، فإذا رغبَ عنها سنةً كاملةً، لم يكن لها في هذه المدَّة رأيٌ ولا مشورةٌ، ولا حكمٌ ولا تصرُّفٌ، وسمِّيت هذه المدَّة بمدَّة الاصطبار.

إنَّ البهاءَ وعبدَه قد سرقا ما ادَّعيا أنَّه وحيٌ، إلَّا أنَّهما لم يُحْسِنا السَّرقةَ، فقد غَلَبهما الشَّيطانُ على اتِّباعِ ما أملاهُ عليهما من مكائدَ وحيلٍ.

إنَّ الدِّين الإسلاميَّ قد كرَّمَ المرأةَ، وجعلَها القلبَ النَّابِضَ، وجعل الرَّجلَ العقلَ، ولا قلبَ بلا عقلٍ، ولا عقلَ بلا قلبٍ، ووضعَ الله ﷻ في كتابه سورةً شرَّفتها سُمِّيت بسورةِ النِّساء، وقول رسول الله ﷺ: «**إنَّما النِّساءُ شقائقُ الرِّجالِ**»[2] وشركاؤهم، ولا فضل لأحدهما على صاحبه سوى أن يقومَ الرَّجُلُ بمالِهِ بحسن تدبير ورعاية صالحة، فيتولَّى الرِّياسَةَ؛ لأنَّه من حيث الطبيعةُ الخَلْقيَّةُ هو الأقوى والأصلب، فهي بذلك في حمايته وتحت رعايته، وله عليها التَّعاونُ والمحبَّة، فأين هذا من خلط البهاء وعبده؟! أين الثَّرى من الثُّريَّا؟!

وشريعةُ البهاءِ شريعةُ خَوَرٍ واستسلامٍ، فهو يريد الأمَّة بلا جنودٍ

(١) عضَّلها تعضيلًا: إذا منعها الزَّوج؛ أي: من التَّزوُّج ظلمًا. انظر: تاج العروس، للزبيدي (٣٠/ ١).
(٢) رواه أبو داود، رقم: (٢٣٦).

ولا عدوٍّ ولا نظامٍ عسكريٍّ، كما يريد أن يُطْبِقَ السَّلامُ[١] على الكرةِ الأرضيَّةِ جمعاءَ، وأن يُنفى القتالُ منها، وهذا أمرٌ مستحيلٌ، فالوحدة الَّتي ينشدها يقول حيالَها: لا شيءَ في العالمِ يمكنُ أن يحقِّقَ هذه الوحدةَ إلَّا نظامٌ دينيٌّ إلهيٌّ متينٌ، فهل يريدُ هذا البهاءُ أن يحقِّقَ وحدتَهُ بدينِهِ المزيَّفِ؟ وبلا قوَّةٍ ولا قتالٍ؟! إنَّه لا شكَّ من المستحيلات، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، كما أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ أقرَّ ببقاءِ هذا الخلافِ الدِّينيِّ، ولكنَّه أرادَ السِّيادةَ للإسلامِ، وأن تكون له اليد العليا، والسَّيطرةُ والسُّلطانُ والقوَّةُ لينشرَ السَّلامَ، فمتى خلقَ اللهُ في العالمِ سيطرةً بلا سلاحٍ، وسلطانًا بلا قوَّةٍ[٢]؟! هذا أمرٌ لم يفكِّرْ فيه إلَّا عقلُ البهاءِ، ولله في خلقه شؤون.

---

(١) إنَّه يريد السَّلام على طول الخطِّ، وهذا استسلام لا سلام، استسلام الضُّعفاء، ليس سلام الأقوياء الَّذي يدعو إليه الإسلام، ولعلَّ البهاء يؤمن بدعوة السَّلام الواردة في سِفْرِ متى: لا تقاوموا الشَّرَّ، بل مَن لطمك على خدِّك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضًا، وأراد بهذا أن يوهم النَّاس أنَّه من جنود السَّلام، فلا تحذره ضحيَّة من ضحاياه، ولا تخش دعوته المقنَّعة بشعار السَّلام، ويقال: إنَّ عبد البهاء حين نزل في لندن قال لهم هناك: إنَّ البهائيَّ يحبُّ جميع العالم كأنَّهم إخوة، فإذا ضربه أحدٌ فلا يعامله بالمثل. وعلى هذا الشِّعار نفسه سار عبد البهاء في ندائه بالسَّلام؛ ليأمن ضحاياه دعوته كما فعل البهاء. المعلق.

(٢) ينبغي أن نعلم أنَّ الإسلام هو دين سلام، إلى جانب كونه دينًا يأخذُ المعتدي بالشِّدَّة والقوَّة، فإنَّ الله تعالى يطلب من المسلمين أن يجنحوا إلى السِّلم إذا مال =

تآليف البهاء

كتب البهاء كتبًا كثيرةً باللُّغة العربيَّة والفارسيَّةِ، وكلُّها - كما قلتُ - مفكَّكةُ الأوصالِ، هزيلةُ التَّعبيرِ، لا جزالةَ فيها ولا بلاغةَ، ومن أشهرِ كتبِهِ وأعظمِها قداسةً عند البهائيِّينَ هو الكتاب الأقدس، فقد طُبِعَ في الهندِ سنةَ (١٣٠٨هـ)(١)، ثُمَّ طبعَ في إيرانَ سنةَ (١٣١٤هـ)(٢)، وطُبِعَ في بغدادَ سنةَ (١٣٤٩هـ)(٣)، ونَهَجَ البهاءُ في كتابه هذا - كما يزعم - منهجَ القرآنِ، ودوَّنَ فيه شريعتَه وأحكامَه، ومنها تقسيم الميراث، ومن كتبه أيضًا الإيقان، كتبه بالفارسيَّة لكن لم

= الأعداءُ إليه وكفُّوا عن الحرب، وفي هذا يقول الله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفَال: ٦١] لكن إذا ما اعتدى أحدٌ على دين الله ونال من شرعه وعقائده بالإيذاء والتَّعطيل، وإذا ما تعرَّض المسلمون للفتنة والقتال طلب الله ﷻ من عباده ردَّ العدوان، فليس الحرب في نظر الإسلام مقصودًا لذاته، وإنَّما قُصدَ به ردُّ المعتدي وصدُّ المعاندين عن دعوته، فيقول تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البَقَرَة: ١٩٠]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفَال: ٣٩]، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفَال: ٦٠]. المعلق.

(١) أي: سنة (١٨٩٠م).

(٢) أي: سنة (١٨٩٦م).

(٣) أي: سنة (١٩٣٠م).

أره، وتُرجِم إلى العربيَّة من قِبَلِ: محمَّد حسين بيجازه، وطُبِعَت هذه النُّسخةُ بمصرَ سنةَ (١٣٤٣هـ)(١)، وله كتبٌ أخرى منها لوح الطِّبِّ، ولوح الحكمة، والبشارات، والإشراقات، والألواح، والعهد، والهيكل، والتَّجلِّيات، والوديان السَّبعة، والوديان الأربعة، والطِّرازات، وغيرها، قال لي أحدهم: إنَّ له أكثرَ من مئةٍ وستِّينَ مؤلَّفًا.

(١) أي: سنة (١٩٢٤م).

الخاتمة

يدَّعي البهائيُّون أنَّ نهايةَ أمرِ الأمَّةِ المحمَّديَّة هو في سنة (١٢٦٠هـ)[١]، يومَ أعلنَ البابُ ضلالَه، وقد ادَّعى النُّبوَّة أو الرِّسالةَ قبلَه وبعدَه كثيرون، فلماذا لم يصدِّقوا سوى الباب؟ ولماذا صدَّقوا البهاءَ؟ وقد قال الباب: متى جاءَكم منِ ادَّعى مثلما ادَّعيتُ قبلَ سنين المستغاثِ فاقتلوه. وسنينُ المستغاثِ تُعدُّ بألفَي سنةٍ إذا تركنا الألف واللام، وقد ادَّعاها غيره: القادياني وقبله وبعده، وسيأتي ممَّن يدَّعيها كثيرون، فما هو الدَّليلُ على صدقِ البابِ والبهاءِ وكَذِبِ غيرِه؟ سؤالٌ أعرِضُهُ على زعماءِ البهائيَّة، وأيادي أمرِ بهائهم، أرجو الجوابَ عليه؟

عبد الله النُّوري

(١) أي: سنة (١٨٤٤م).

فهرس الموضوعات

أحاديث

الإهداء ٥
المقدِّمة ٧
مولدُ النَّبيِّ ﷺ مولدُ نُورٍ ورحمةٍ ١١
مولد البشير النَّذير ١٥
البعثةُ المُحمَّديَّةُ وأثرها على البشريَّة ٢٢
نبيُّ الرَّحمة ٢٨
مقدَّسات العروبة في ذكرى المعراج ٣٢
في ذكرى الإِسراء ٣٨
تكريم الإسراء والمعراج ٤٠
الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة ذكرى التَّضحية الكبرى والجهاد المَرير ٤٨
الهِجرة المُحمَّديَّة بداية القضاء على دولة الباطل ٥٣
إلى أرض الحُرِّيَّة والعَقيدة والمبدأ ٥٩
ذكريات مُسلم في ذكريات الهِجرة ٦٣
شَهر رمَضان المُعظَّم رمَضان جهادٌ وذكرياتٌ ٧٣
من ذكرياتِ بَدر ٧٥
آثارُ رمَضان في الصَّائمِ ٧٩

مع رمَضان في ذِكرياته ٨٣
نداءُ الله لعِبادِه ٨٦
أهلًا برِمَضان ٨٩
من ثمراتِ الصَّوم ٩٥
أحاديث عن الحجِّ شعائرُ الحجِّ ٩٩
الأعيادُ الإسلاميَّة مَشاعرُ المُسلمين في العيدِ ١٠٢
نِعمةُ العيد ١٠٤
أُمنِيَّة مُسلمٍ في عِيدِه ١٠٧
تحيَّةٌ وحدِيثٌ عن عيدِ الفطر ١٠٨
مِيلادُ عامٍ جديد ١١٠
مع عيسى عليه السلام "في مولدِهِ وحياتِهِ" ١١٤
في حقل الجهاد، العمل الفدائي الوحدة الإسلاميَّة (١/٦/١٩٦٧م) ... ١٢٠
دَقَّت ساعة الجهادِ تُليت مساء يوم (٥/٦/١٩٦٧م) في تلفازِ الكويت
وكان لواءُ اليَرمُوك الكويتيُّ في الميدانِ. ١٢٣
تكوين شباب الحرس الوَطنيِّ الكويتيِّ (٦/٦/١٩٦٧م) ١٢٦
اتِّحاد العرب ضدَّ أعدائهم في أثناء اتِّحاد الدُّول الثَّلاث مصر والأردن
وسوريَّة ضدَّ إسرائيل سنة (١٩٦٧م) ١٢٩
الوحدةُ الإسلاميَّةُ ١٣١
المساجدُ في الإسلامِ ١٣٥
سهولة الفتوحات الإسلاميَّة ١٣٨
الإسلام أمام التَّيَّارات ١٤٢

جهلنا بديننا سبب إخفاقنا ١٤٧
الإسلام والإنسانيَّة ١٥٢
الإسلام دين الحياة ١٥٥
الإسلام سلامة ١٥٩
الدِّين فطرة ١٦٣
الحرِّيَّة ومعناها وأنواعها ١٦٩
الحرِّيَّة السِّياسيَّة ١٧١
حُرِّيَّة العامل ١٧٢
الحرِّيَّة الدِّينيِّة ١٧٣
معنى الحرِّيَّة ١٧٣
حدود الحرِّيَّة في الإسلام الاختلاط وأثره في المجتمع ١٧٥
التَّربية الإسلاميَّة الإسلام يدعو إلى التَّعليم ١٨٠
تربية الأولاد ١٨٥
عضل البنات ١٩٠
أسبوع التَّربية وأعياد في المجتمع ١٩٥
المرأة في الإسلام ٢٠٠
المجتمع في نطاق الإسلام بالعمل الصَّالح تطيب الحياة ٢٠٥
الاقتصاد في الإسلام ٢٠٨
الكسب والعمل ٢١٤
عدل الإسلام الإسلام دين العدل ٢٢٠
إصلاح المجتمع ٢٢٥

إصلاح ذات البين ٢٣١
المؤمن للمؤمن كالبنيان الإنسان... والإيمان ٢٣٧
من علامات الإيمان ٢٣٩
الإسلام يسر ٢٤٢
الدِّين الخُلُق ٢٤٦
الدِّين المعاملة ٢٥٢
قوَّة المؤمن ٢٥٧
حبُّ الوطن من الإيمان ٢٦١
أدب الإسلام ومراقبة الله في العمل ٢٦٥
كلُّكم راعٍ ومسؤولٌ عن رعيَّته ٢٦٨
سلاح المسلم إيمانه ٢٧١
المواساة عند الشَّدائد ٢٧٤
خواطر مسلم انطباعات رحلة ٢٧٨
صلة الرَّحم ٢٨١
كفالة اليتيم ٢٨٤
أكبر الكبائر شهادة الزُّور ٢٨٨
النِّفاق والمنافقون ٢٩١
نصيحة ٢٩٤
أسبوع الصِّحَّة ٢٩٧
عيدُ الأمِّ ٢٩٩
خاتمة وإهداء ٣٠٠

فهرس الموضوعات

المحمديات

الإهداء ٣٠٥
مقدمة ٣٠٧
لماذا أنا مسلم ٣١١
العظيم ٣٢١
رسول الحق ٣٣١
الصلاة ٣٣٩
أدب النبوة ٣٤٧
الإسراء والمعراج ٣٥٥
رحمة الله ٣٦٣
مساواة الإسلام لا شعوبية ولا تفاضل ٣٧١
المساجد والإسلام ٣٧٧
من ليس له ماضٍ لا يكون له مستقبل ٣٨١
أفضل التجارات (قيلت في مسجد الحمد أيام الاعتداء الثلاثي على بورسعيد ٣٨٩
قيلت في مسجد ابن بحر أيام الاعتداء الثلاثي على بورسعيد ٣٩٩
دين الإسلام ثورة على المساوئ ٤١١

في الدين شفاء من أمراض المجتمع ٤٢١
عظة وذكرى ٤٢٥
إن الحياة بذلة عيش الردي ٤٣٣
وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ٤٣٥
من ذكرى الهجرة وحول عام (١٣٨٠هـ) ٤٤١
لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ٤٤٩
نعمة الله ٤٥٥
وعد الله ٤٦٣
وقدرة الله فوق الشك والتهم ٤٧١
وقل جاء الحق وزهق الباطل ٤٧٧
بين الماضي والحاضر ٤٨٥
لا إله الله محمد رسول الله ٤٩١
العظمة في شخصية النبيﷺ ٤٩٧
النبي المبشر ٥٠٥
لا وازع مثل الدين ٥١٣
ترجمة المرحوم الشيخ محمد النوري ٥١٧

فهرس الموضوعات

المعجزة الخالدة

الإهداء ٥٢٣
النُّور والظُّلمة لا يجتمعان ٥٢٦
الإسراءُ رحلةُ ليل ٥٢٨
المناقشات في الرِّحلتين ٥٢٨
محمَّد صلى الله عليه وسلَّم والحقُّ ٥٣٠
النَّبيُّ الأسوة لأمَّته ٥٣١
الرِّحلة المعجزة ٥٣١
ظروف سبقت الرِّحلة ٥٣٢
النَّبيُّ الرَّحيم ٥٣٣
الجنُّ والقرآن ٥٣٤
وكانت المعجزة ٥٣٤
الإسراء والإيمان ٥٣٥
محمَّد ﷺ إمام الأنبياء ٥٣٦
المعراج والعلم الحديث ٥٣٧
لقاء الأنبياء في السَّماء ٥٣٩
الغاية والعقل ٥٤٠

الصَّلوات الخمس والمعراج ٥٤٠
الصَّلوات وقبلة المسلمين ٥٤٣
الخاتمة ٥٤٤

فهرس الموضوعات

البهائية سراب

الإهداء ٥٥١
مقدمة الطبعة الثانية ٥٥٣
مقدمة الطبعة الأولى ٥٥٧
إيمان البهائية ٥٦١
الباب ٥٦٧
دعوى الباب ٥٧٣
صفة الباب وتآليفه ٥٧٧
البهاء ٥٧٩
صفة البهاء ٥٨٧
شيء من تفسير البهائية للقرآن ٥٨٩
ما هي البهائية ٦٠٣
من أحكام البهاء أو حدوده ٦١٧
البيت البهائي ٦١٩
النظام الإداري ٦٢١
من عقائدهم ٦٢٧
أيام الأعياد والعطل ٦٣٣

البهائية دجل ٦٣٥
تآليف البهاء ٦٤٣
الخاتمة ٦٤٥
فهرس الموضوعات ٦٤٧

قَبَسٌ مِن مُقدِّمةِ الأعمالِ الكامِلةِ

لبنةٌ مُبارَكةٌ، تحتوي الأعمالَ الجليلةَ لعالم مِن عُلماءِ النَّهضةِ العلميَّة في كويت الخير... الأعمالُ الكاملةُ لفضيلةِ الشَّيخِ العلَّامةِ عبد الله النُّوري ﷺ، هي: نِتاجُ حياةٍ مُباركةٍ مَليئةٍ بالجِدِّ والنَّشاطِ، والاجتهادِ والمثابرةِ، وأعمالِ البرِّ والخير؛ فجاءتِ الأعمالُ ثريَّةً متنوِّعةً بين علميَّة مُنمَّقة، وأدبيَّة مُشوِّقة، وتُراثيَّة مُدقَّقة، واجتماعيَّة مُتعمِّقة، فيها خُلاصةُ الفِكر، وزُبدةُ المخضِ، وحُليَةُ الأدبِ، وروائعُ مِنَ التَّاريخ.

تأتي هذه الأعمالُ المُباركةُ ضمنَ سِلسلةِ جمعِ تُراثِ عُلماء الكويت؛ لحفظِ تُراثِ الأجدادِ، وإثراءِ المكتبةِ الإسلاميَّة عمومًا، والمكتبة الكويتيَّة خصوصًا؛ لتكونَ منارة للقُرَّاءِ والباحثِينَ والدَّارسينَ على مَرِّ العُصورِ، ينهلونَ مِن مَعِينِهَا بمختلف العلوم والمعارف، لِيَصْدُقَ فيهم قولُ الشَّاعر:

وإنِّي وإيَّاكُم لَكالنَّحلِ نَصطَفِي رَحِيقَ مَجَانِيهِ لألسُنِنا شَهدًا

د. عبد المحسن عبد الله الجار الله الخرافي